

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، وبعد..

ليس الغرض من دراسة السيرة النبوية مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية، أو سرد طرف من القصص والأحداث، شأنها شأن الاطلاع على سيرة أحد الخلفاء في الأزمنة الغابرة. إن الغرض من السيرة أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية متجسدة مجموعة في حياته ﷺ.

فليست سيرته إلا تطبيق الوحي المنزل من السماء لهداية البشر في شؤونهم كافة وبالتالي يتضح لنا:

١. أن اختيار الرسول ﷺ لهذه المهمة العظيمة، إنما هو اختيار للمثل الأعلى لكل شأن من شؤون الحياة الفاضلة التي أرادها الله تعالى لسعادة البشر، ومما لا شك فيه حينئذ أن الانسان إذا أراد البحث عن مثل أعلى في كل ناحية يطلبها من نواحي حياته، الروحية والمادية، النفسية والبدنية فإنه سيجد ذلك بشكل تام الوضوح متناسب الاركان وفي أعلى الكمالات في النبي ﷺ، وفي ذلك يمن الله تعالى على الناس فيقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

٢. إن تأمل ما سبق يدل دلالة واضحة على صدق نبوته، وصحة رسالته ﷺ إذ دراسة سيرته تبين بجلاء أن ذلك المثل الأعلى فعلاً وقولاً ظاهراً وباطناً هو الرسول محمد ﷺ،

وأن وفاء سيرته بهذا المثل الأعلى بكل هذه التفصيلات، الدقيقة لحياته لم تكن لأحد من قبل ممن أوتوا النبوة، فضلاً عن أدعيائها من قبل ومن بعد.

٣. إن فهم شيء عن شخصية النبي ﷺ بهذه النظرة لا بد أن يكون من منظور النبوة لا من أى منظور آخر، إذ لن يفسر كثيراً، بل كل أحواله ﷺ إلا كونه موصولاً بالسماء مؤيداً بالوحي.

٤. دراسة سيره النبي ﷺ الزاد الذى به يفهم القرآن الكريم وتتجلى معانيه تجلية حقيقية كصورة صادقة لمقصود الشارع، فيكون لدى المعلم والداعية الإسلامى نموذج حى عن طرائق التربية والتعليم والنصح ولإرشاد كل ذلك هداية للأفراد والجماعات ليكونوا أعضاء فعالين ناجحين فى المجتمع الصالح، فسيرته ﷺ تقدم لنا نموذج الشاب المستقيم فى سلوكه، والنموذج الرائع للداعية إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة الباذل منتهى الطاقة فى سبيل ابلاغ سالتة، ولرئيس الدولة الذى يسوى الأمور بعدل ورحمة وحذق الدقيق بين الحقوق والواجبات فى أسرته، وللقائد الحربى والسياسى المحنك الصادق والمتعبد المتبتل فى دقة وعدل، والمعاشر لأهله وصحبه بحسن العشرة والمصاحبه^(١).

أهمية البحث:

علاوة على ما تقدم من أهمية السيرة النبوية، جاءت هذه الرسالة لتضيف أهمية سيرته فى القرآن الكريم، لأنه كان خلقه ﷺ القرآن^(٢)، فكان بحث السيرة فى القرآن مما يضيف جديداً للبحث العلمى فى هذا الباب من ناحيتين:

١- د. البوطى، فقه السيرة (١٨).

٢- رواه مسلم (٧٤٦)، مطولاً من حديث قتاده ﷺ.

الأولى: المقارنة بين ما نزل من القرآن ووقع في السيرة النبوية وهو طراز جديد من الكتابة يبين مراد القرآن الكريم من القصص والعبر المأخوذة منه والحكم والفهم عن الله والتحذير وغيره مما جاء به القرآن الكريم ليفيد المسلمين مطلوب الهداية من سيرته ﷺ، ولتمييز للمؤمنين المتقين مراد الله وحكمته وموعظته وشرعه إلى آخر ما أشرنا إلى شيء منه مع المقارنة بقصص الانبياء السابقين وشيء من سيرتهم ليحذر المشركين من سوء عاقبة ما هم فيه، ويبشر المؤمنين بنصر الله إلى كثير مما دق أو جل مما جاء في القرآن الكريم.

الثانية: المقارنة بين ما جاء في القرآن عن الرسول ﷺ وعن الأنبياء عليهم السلام مما يوضح أم مشكاة النبوة واحدة، ويبرهن على ما ادخر الله من فضل لهذه الأمة، وعلى أن النبي ﷺ سيد ولد آدم ولا فخر.

وإن ما نزل بالمسلمين اليوم - وعلى رأسه - مهاجمة النبي ﷺ طعنًا في دينه ورسالته استمرار الغزو الفكرى لبلاد الإسلام، ليعطى أهمية أخرى للرد على المستشرقين الذين أسسوا فكرهم على هذا السوء وذلك البهتان، وكان اختيار الأستاذ الدكتور المشرف لمونتجمرى وات للرد عليه من أصوب الاختيارات وأدقها، لأن وات يتقمص المذهب المؤدب المتسربل بالعلمية والحياد والنزاهة، وهو أخطرهم جميعاً فهو محصلة السابقين، وأسوة المتأخرين لذلك كان الرد عليه وإظهار حقيقته، في الحقيقة رد على الأولين منهم والآخرين فكان مما شمله هذا البحث هو الرد على وات وإظهار وجه السيرة الناصع مما أثاره عليه وات من غبار ومن ورائه طابور المستشرقين جميعاً.

وكانت محبة النبي ﷺ وشرف الانتماء إلى دينه القويم من وراء ذلك كله هي الأهمية الحادية على وضع هذه اللبنة فخاراً بالدفاع عنه، وإن كان دفاع أمثالنا وعدمه سواء فمن نحن لندفع عن من كان بفضل سبحانه سبب الدفع عنا، وسبب سعادتنا في الدنيا والآخرة.

منهجى فى البحث:

أحاطت بالبحث مناهج عدة:

أولها: منهج كتابة السيرة. وقد اعتمدت منهج المحدثين إذ هو أدقها فى تصحيح الوقائع وتضعيفها بما لم يصل إليه منهج آخر، وما ورد من وقائع وأحداث تاريخية فى غير العقيدة والتشريع أخذت بها على طريقة المؤرخين غير متشدد فيها.

الثانى: منهج التفسير. وكان أهمها وهو المنهج الذى وضعت لبنته الأولى فى رسالة الماجستير، وهو منهج التفسير الموضوعى فهو المحيط المتبع للموضوع فى القرآن الكريم كما بينت ذلك نظرياً وتطبيقياً مما يلم بالموضوع ويظهر جماليات النصوص وعلو بلاغتها المؤدى فى كثير إلى بيان حد الإعجاز علاوة على المقارنة والدراسة النصية والتحليلية.

وكذلك التفسير بالمأثور لإثبات هذه القائع والسير، مع التفسير بالرأى الصحيح عامة.

الثالث: المنهج المقارن. وقد خصصت منه ما يتعلق بالموضوع الواحد بمقارنة النصوص الواردة فيه.

الرابع: المنهج النقدى المنبنى على دراسة النص فى ذاته ثم مقارنته ببقية النصوص، وقد استخدمت ذلك مع وات وغيره لتصحيح الصحيح وإظهاره وتزيين الباطل ودحضه.

لقد كان لتعدد منهج البحث بهذه الطريقة صعوبة الإحاطة بجزء ولو يسير فى كتابة السيرة، ولكن لما ذكرنا من أهمية البحث، كانت محاولة الباحث القيام بهذا الجزء لإيضاح السيرة بهذه الطريقة، لعلها تكون لبنة متواضعة يرجى البناء عليها لتكون السيرة هى الموسوعة الشاملة لكل ما يتعلق بأحوال النبى ﷺ وأخلاقه ومعاملاته وصفاته وهدايته لأمتة.

إن هذا لأمل نرجو للمخلصين القيام به، وقد وقف البحث في أبوابه عند حدود ولم يستكملها نظراً للطول الشديد مع الاختصار لو استكمل شيئاً من ذلك، وهو مما يؤسف له ويجزن عليه، ولعل الله أن يبارك في الجهد والعمر لتكملة ما يمكن إكماله من هذا البحث.

قسمت البحث إلى مدخل وثلاثة أبواب وخاتمة:

❖ الباب الأول: سيدنا محمد ﷺ في القرآن الكريم ويشتمل على ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: ثناء الله تعالى عليه ﷺ.

- الفصل الثاني: حقوقه ﷺ.

- الفصل الثالث: عصمته ﷺ.

❖ الباب الثاني: الرسول ﷺ في مكة ويشتمل على ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: من المولد إلى البعثة.

- الفصل الثاني: البشارات بالنبي ﷺ إرهاباً بنبوته.

- الفصل الثالث: بدء الوحي.

❖ الباب الثالث: العهد المدني.

- الفصل الأول: أسس بناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية في المدينة.

- الفصل الثاني: غزوة بدر الكبرى.

وكان من فضل الله علىَّ التوفيق لأن يكون المشرف على الرسالة الأستاذ الدكتور/
عفت الشرقاوى، وهو من هو علماً وخلقاً خاصة، فكان الراعى لهذا البحث حتى خرج فى
ثوبه هذا، مع التكريم بوقته وجهده، ولم يبخل علىَّ بحسن توجيه ودقة ترتيب وزيادة مهمة
تفيد البحث وتجعل له قيمة من الناحية العلمية، مع سعة صدره وصبره على فيما أنا فيه من
أمراض وعلل، فالله يتولى جزاءه وحسن مثوبته على ما قدم من علم وبذل من جهد.

وفى النهاية ذلك جهد المقل، وبضاعتي المزجاة فى خدمة الدين والذب عن
رسول الله ﷺ، أرجو أن تكون فى محل القبول عند الله قبل الناس، وأن يعفو عنى فى
تقصيرى وما بدر منى.

الباحث

سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تمهيد

يقدم الباحث في هذا الجزء من الرسالة دراسة ما يتعلق بالرسول ﷺ في القرآن الكريم، فهو أصدق وصف له عليه الصلاة والسلام وأدقه وأجمله وأشمله، ثم إنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه خاصة أنه نزل على قوم شاهدوا تلك الأوصاف، وعانوا تلك الأخلاق وعاشروا صاحب هذه السمات، وكان لهم مع عداوتهم له أن يردوا ذلك، أو يشككوا فيه إذ كان ذلك أسهل في رد الدعوة وإبطالها من القتال والقتل، وما ورد عن هؤلاء حينما كانوا أعداء كفره إلا التسليم بتلك الصفات، والإذعان لهذه الأخلاق، وذلك صريح الإعلان بتصديق القرآن، والتسليم له بهذه الأوصاف، وسنشير بإذن الله تعالى إلى تفصيل تلك الآيات، تفسيرها وما يتعلق بذلك.

وطريقتنا في البحث - كما قدمنا - هو عرض النصوص، ودراستها دراسة نصية ومقارنتها ببعضها، واستخلاص النتائج، مع التحليل وإظهار جمالياتها، بلاغةً ولغةً، مع مراعاة المكي والمدني منها، والترتيب التاريخي لها، وكلها ترد على المستشرقين أصحاب الادعاءات الكاذبة من مثل العلمية، والإنصاف، والحياد، حيث لم تصمد هذه الدعاوى أمام أي نقد نزيها كان أم غير نزية للأسف، فليس ثمَّ إلا التعصب.

وباستقراء آيات القرآن الكريم، والاستعانة بكلام العلماء في تتبع ما جاء في القرآن الكريم عن النبي ﷺ وجدناه ينقسم إلى أقسام كثيرة، اخترنا منها ثلاثة أقسام تدل على ما وراءها وتوفي بالغرض، وتغطي جوانب الموضوع، وتركنا الباقي - مع أهميته - اختصاراً، وهي:

الأول: في ثناء الله تعالى عليه، وإظهار عظيم قدره عند ربه وما خصه به من كرامته في الدارين^(١)، مع تكميل المحاسن له خُلُقاً وَخُلُقاً، وما أظهره عليه من الكرامات، وَشَرَفَهُ به من الخصائص.

الثاني: حقوقه التي فرضها الله على عباده من لزوم الإيمان به ومحبته ووجوب طاعته واتباع سنته، وتوقيره وبرّه، وتعظيم أمره، والصلاة عليه ﷺ.

الثالث: عصمته ﷺ في الأمور الدينية، وما يجوز أن يطرأ عليه من الأعراض البشرية، مع العرض والرد لما يوهم مخالفة ذلك للقرآن الكريم.

١- وما ورد في ذلك: مواساته ﷺ والتخفيف عنه، وتولى الدفاع عن شخصه الكريم، وتصبيره، وحمله على أحسن الأخلاق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ صَلَّى عَلَيَّ
مَاتَ مَيِّتًا مُسْلِمًا

ثناء الله تعالى عليه

صلى الله عليه وسلم

المبحث الأول

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

ونبدأ بدراسة القسم الأول، وأول آية تصادفنا فيه من ثناء الله تعالى على النبي ﷺ، وتبين رفيع منزلته، وعلو قدره، هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقدمنا بها الكلام لأنها نزلت في أول ما نزل من القرآن الكريم إذ هي قد نزلت بعد قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ حيث قررنا من قبل أننا سنراعي الترتيب الزمني في ذلك؛ لأن الدراسة بالأصالة في سيرته، وتلك كالمقدمة بالتعريف لصاحب السيرة عليه الصلاة والسلام.

وعلى أية حال ننظر في الآية الكريمة لنحللها، ونبدأ بها هذا القسم.

وأول ما يلاحظه الباحث في هذه الآية الكريمة أن الله ﷻ اصطفى سيدنا محمداً ﷺ لتَحْمُلَ الرسالة والنبوة وهو في غاية الخُلُقِ وأَعْلَاهُ، بل وهو على عظيم الخُلُقِ وَأَجَلُّهُ، وهو دليل على حيازة النبي ﷺ للكَمالات النفسية كافة قبل البعثة، مما يدل على عناية الله تعالى المتقدمة بنبيه ﷺ ومبعوثه إلى الخلق، وهو ما يميز ويوضح لعموم الخلق صدق النبوة وصحة الرسالة، إذ كيف يتأتى لأحدٍ من العرب لا يزيد عليهم في شيء، بل هو ابن بيئتهم بثقافتها، وعلمها وغيره، أن يكون على هذه الحال الذي لم يبلغ شأوه أحد، ولن يبلغه أحد، بل إن الفارق بين شأوه وبين جميع الناس كالفارق بين السماء والأرض.

والعجيب أنه لم يهار أحد ممن عادوه وقاتلوه في هذه الأخلاق، وكانوا يناشدونه بتلك الأخلاق العالية أن يعفو عنهم، وقد لقبوه بالصادق الأمين^(١).

وما كانت هذه الأخلاق، وهذه العناية لتوحد إلا لأننا في معرض أخطر أمر، وهو أمر النبوة والرسالة، إذ ما كان لأحد أن يردّها أو يدفعها، أو يشكك فيه فيقضي على الرسالة في مهدها بتكذيب الله أن يكون ذلك رسوله.

وأمر آخر، وهو أن الرسول ﷺ هو القدوة لهؤلاء المدعوين إلى الله تعالى، وكذلك الدعاة إليه، فكيف يكون فيه ما يشينه ويردّ دعوته بإظهار النقص والعيب فيها، إن ذلك قدح في المرسل سبحانه - وهذا ما يستحيل صدوره.

وقد رأينا التحدي في دعوته ﷺ إلى آخر لحظة من حياته الشريفة والعجز عن مواجهته، فكيف يكون في أول دعوته ما يبطلها؟

وقد بدئ وصفه ﷺ في بداية البعثة بهذا الوصف بالذات؛ لأنه الدليل إلى ما بعده من الأوصاف، وهو البرهان الساطع على صدق ما سيلقيه عليهم بعد ذلك من توحيد، وعبادات ومعاملات وغيره، وعلى أن ذلك حق لا مرية فيه، صحيح لا شية فيه؛ لأن الناقل له، المبلغ به هو صاحب الخلق العظيم في هذه الحياة الدنيا، فكيف يقول كذباً، أو يتقول على الله تعالى ما لم يقله؟ وذلك يدلّ على صحة كل ما صدر عنه ﷺ، ويؤيده قوله فيما نزل بعد ذلك في سورة النجم: ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] كما سنبينه في حينه إن شاء الله تعالى.

١ - وردت تسميته بالأمين في حديث تحكيمه صلى الله عليه وسلم في الحجر الأسود، قالوا: "هذا الأمين رضينا، هذا محمد" (ابن هشام ١/١٩٧). وورد تسميته صلى الله عليه وسلم بالصادق في حديث إسلام حمزة رضي الله عنه الذي رواه ابن أساء "أشهد أنك الصادق" (السيرة النبوية لابن كثير ١/٤٤٦)، وفي غير ذلك.

وثمة أمر آخر وهو أنّ الرسول ﷺ جاء ليدعو الناس جميعاً إلى التزام أحاسن الأخلاق، والاتصاف بها، كما قال: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ).^(١)

وبالتالي لا بد أن يكون أعلى الناس جميعاً خُلُقاً، لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه، وإن كان مثلهم فلاي شيء يدعوهم؟ ولذا وجدناه من أول بعثته أعظم الناس خُلُقاً، فلما وصفه ربُّه بذلك من حين ابتعثه، كان ذلك متسقاً تمام الاتساق مع دعوة الله تعالى الناس إلى توحيده ومعرفته، وعبادته، وإلى كل جميل من الأقوال، والأفعال في الظاهر والباطن.

وللأستاذ سيد قطب في كتابه "في ظلال القرآن"^(٢) كلام جميل نذكره ملخصاً، يقول:
ثم تجيء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾.

وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي ﷺ، ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود، ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من ربِّ الوجود، وهي شهادة من الله، وفي ميزان الله، لعبد الله، يقول له فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾، ومدلول الخلق العظيم هو ما عند الله مما لا يبلغ مداه أحد من العالمين.

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ تبرز من نواحٍ شتى:

تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعالي، يسجلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردد في الملاء الأعلى إلى ما شاء الله.

١- الحديث صحيح رواه البخاري "في الأدب المفرد" (٢٧٣)، وابن سعد "في الطبقات" (١/١٩٢) والحاكم (٢/٦١٣)، وأحمد (٢/٣١٨)، عن أبي هريرة مرفوعاً.

٢- انظر سيد قطب "في ظلال القرآن" دار الشروق الطبعة العاشرة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م. تفسير سورة القلم (٧/٢٩٠).

وتبرز من جانب آخر، من جانب إفاقة محمد ﷺ لتلقيها وهو يعلم مَنْ رَبُّه هذا، قائل هذه الكلمة؟ ما عظمتها؟ ما دلالة كلماتها؟ ما مداها؟ ما صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة، التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين.

إن إفاقة محمد ﷺ لتلقى هذه الكلمة من هذا المصدر، وهو ثابت، لا ينسحق تحت ضغطها الهائل - مع أنها ثناء - ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب.. تلقيها لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل.

ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة، وعلى لسان أصحابه روايات متنوعة كثيرة، وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روى عنه. ولكن هذه الكلمة أعظم بدالاتها من كل شيء آخر، أعظم بصدورها عن العلي الكبير، وأعلم بتلقى محمد لها وهو يعلم من هو العلي الكبير، وبقائه بعدها راسخاً ثابتاً مطمئناً، لا يتكبر على العباد، ولا يفتتح، ولا يتعاضم.

لقد كان - وهو بشر - يُشني على أحد أصحابه، فيهتز كيانه صاحب هذا من وقع هذا الثناء العظيم، وهو بشر ويعلم أصحابه أنه بشر، فأما هو فيتلقى هذه الكلمة من الله، وهو يعلم من هو الله، ثم يتماسك ويصطبر ويتلقى ويسير إنه أمر فوق كل تصور وفوق كل تقدير.

وما كان إلا محمد ﷺ بعظمة نفسه هذه من يحمل هذه الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى فيكون كفوًّا لها كما يكون صورة حية منها.

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال، والعظمة والشمول، والصدق والحق بحيث لا يحملها إلا الرجل الذي يُشني عليه الله هذا الثناء فتطبيقه شخصيته، ثم يتلقى بعد ذلك عتاب ربه له بذات التماسك، وذات الطمأنينة، ويعلم ذلك كما يعلن تلك لا يكتف من هذه شيئاً، ولا تلك، وهو في كلتا الحالتين النبي الكريم، والعبد الطائع والمُبلِّغ الأمين.

إنه محمد - وحده - هو الذي يرقى إلى هذا الأفق من العظمة، هو الذي يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية حتى لتمثل في شخصه حية، تمشي على الأرض في إهاب إنسان، إنه محمد- وحده- الذي علم الله منه أنه أهل لهذا المقام.

والله أعلم حيث يجعل رسالته- وأعلن في هذه أنه على خلق عظيم، وأعلن في الأخرى أنه- جلَّ شأنه، وتقدست ذاته وصفاته، يصلي عليه هو وملائكته: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وهو- جلَّ شأنه- وحده القادر على أن يهب عبدًا من عباده ذلك الفضل العظيم.

انتهى تلخيصا لكلام المؤلف.^(١)

وأما عند تحليل الآية الكريمة:

فأول ما يطالعه الباحث في ذلك هو العطف^(٢)، وهو عطف جملة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ على قوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وهو جواب القسم، أى إنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ...﴾ مُقَسَّم عليه من الله جلَّ وعلا- وإن كان سبحانه لا يحتاج لقسم لإثبات كلامه- وإنما ذلك لتبيين أهمية المُقَسَّم عليه وصدقه، وعلو شأنه، وأنه مفروغ منه، ولا يتطرق إليه الاحتمال، أو يمسه الشك.

والمُقَسَّم هنا يجري على سنن الأقسام الصادرة في كلام الله تعالى بما شاء من عظيم خلقه الدالة على آثار صفاته وجلاله.

^١ - انظر سيد قطب "في ظلال القرآن" تفسير سورة القلم (٧/ ٢٩٠).

^٢ - انظر محي الدين الدرويش "إعراب القرآن الكريم" (١٠/ ١٦٤) الطبعة الخامسة دار ابن كثير ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م.

والقلم هو الوارد في قوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۗ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥]، لأنه الظاهر الذي يقتضيه حال أهل الكتاب، وعند من يعرف الكتابة من العرب، وهو المناسب لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، وقد أقسم به لشرفه بأنه يكتب به القرآن، وَكُتِبَتْ بِهِ الْكُتُبُ الْمُقَدَّسَةُ، وَتُكْتَبُ بِهِ كُتُبُ التَّرْبِيَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعُلُومِ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَهُ حِظٌّ شَرَفٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.^(١)

هذا على التعريف المرجح في تعريف القلم، وقيل أيضًا ما يُكَنَّى عنه بالقلم من تعلق علم الله بالموجودات الكائنة، والتي ستكون^(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] فالمقسم به الثاني، فالآيات فيها أمران مقسم بهما؛ وهما القلم وما يسطرون، والمقسم عليه ثلاثة، وهي نفي الجنون عن النبي ﷺ، وإثبات الأجر والثواب له، والثالث كونه على خلق عظيم.

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، ومعناه السطور المكتوبة بالقلم، فإذا كانت ﴿مَا﴾ موصولة صار المعنى: أي وما يكتبونه من الصحف، ويجوز أن تكون مصدرية والمعنى: وسطرهم الكتابة سطورًا.

ويجوز أن يكون القسم بالأقلام التي يكتب بها الوحي وبالمكتوب والموحى به، ويكون القسم حينئذ بالقرآن نفسه على أن القرآن ما هو بكلام مجنون، وذلك كقوله تعالى:

^١ - ومن فوائد هذا القسم أن هذا القرآن كتاب الإسلام، وأنه سيكون مكتوبًا مقروءًا بين المسلمين، ولهذا كان ﷺ يأمر أصحابه بكتابة هذا الوحي. وتعريف القلم هنا للجنس. انظر التحرير والتنوير (٦٠/٢٠)، للطاهر بن عاشور.

^٢ - انظر السابق.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴿ [الزخرف: ٢-٣] فهو قسم بالقرآن على القرآن، وهو من بديع القسم، إذ القرآن هو الدليل والمدلول عليه في نفس الوقت، وهو قضية سنعود إلى توضيحها إن شاء الله في حينها.

وضمير ﴿يَسْطُرُونَ﴾ راجع إلى غير مذكور، وهو معلوم للسامعين، فكأنه قال: ن والقلم المكتوب، أي والمسطور، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورًا﴾ في رَقٍّ مَنشُورٍ ﴿ [الطور: ٢-٣]، لأن ذكر القلم ينبئ بكتابة يكتبون، والمقصود هو المكتوب، فهو بمنزلة الفعل المبني للمجهول، ومن فسر التفسير الثاني للقلم جعل ضمير ﴿يَسْطُرُونَ﴾ عائداً إلى الملائكة في كتاباتهم ما يلقي إليهم من الله تعالى لتنفيذه، بضبط الكاتب بغير زيادة ولا نقصان.

كل ما سبق يبين ويوضح قيمة الآتي من الكلام، وعظمة معناه، واستقراره وثبوته؛ لأنه لا خُلف لكلام الله تعالى، فضلاً عن قَسَمِهِ، ومن ثَمَّ أطلنا شيئاً ما لنبرز تلك الدرجة العليا التي تظهر نبوة النبي ﷺ وصدقها، ومدى صحة الرسالة وأنها وحيٌّ من الله تعالى، ولا يمكن أن يكون إلا ذلك.^(١)

وأوثر القسم بالقلم والكتابة للإيحاء إلى أن باعث الطاعنين على الرسول ﷺ واللامزين له بالجنون، إنما هو ما أتاهم به من الكتاب، فكان هذا من أقوى التحدي لهم

^١ - لأن هذا الكلام إما أن يكون مصدره محمد ﷺ، أو المكذبين من الكفار وأهل الكتاب وأهل الأرض جميعاً، أو أن يكون مصدرًا آخر. ولا يمكن أن يكون بالعقل هو كلام الكفار، وكذلك لا يمكن أن يكون من كلام محمد، لأنه ﷺ لا يزيد في علمه عن علوم بيئته، وكذا في لغته وثقافته، وبدراسة هذا الكلام نجده مبيناً لكلامه، وأعلى في بلاغته وبيانه وعلومه عن بيئته بما لا مجال للمقارنة فيه حتى سجد له أساطين اللغة حينئذ. (علاوة على أن دراسة النص لها موضع آخر) فكان هذا الكلام كلام قوة عليا عليمه محيطة أعلى من كل شيء، ولا يحيط بها شيء، فدلُّونا على قادر عليم، ادعى أن هذا كلامه، غير الله جلَّ وعلا.

على صدق النبوة، وبرهاناً ساطعاً على الرسالة، لأن ما رموه بسببه من الجنون هو ذاته ما أقسم به دليلاً لصدقه، وحجة لمدّعاة. إنَّ الأدلة المقطوعة على هذا النحو لهي إعجاز في نفسها وتعجيز للخصم بحيث لا يستطيع ردّاً ولا دحضاً.

ونأتي إلى جواب القسم لنحلل آياته، ولنرى فيه قيمة المقسم عليه، وما فيه من إثبات الكمالات للنبي ﷺ، ونفي النقص عنه، وذلك في الدنيا، مع عظيم الأجر والثواب في الآخرة.

والمقسم عليه ثلاثة كما ذكرنا آنفاً:

أولها: نفي الجنون عن النبي ﷺ، والمقصود من نفي الجنون إثبات النبوة للنبي - عليه الصلاة والسلام - لأنَّ المشركين قصدوا بإلحاق الجنون به وإثباته له نفي النبوة عنه، فلما أقسم المولى سبحانه على نفي الجنون فذلك إنما كان لإثبات ما قصد المشركون نفيه، فثبتت له النبوة.

وكان ذلك تسليّةً أيضاً من الله تعالى للنبي ﷺ لئلا يجزئه هذا القول، وتسرية عنه لما لاقاه من أذى بحمله دعوة الحق، إذ كان يظن ﷺ أنه بدعوتهم إلى هذا الخير سيسرعون لتصديقه، وتأييده، والإيمان به، خاصة وأنه غير متهم عندهم، بل هو الصادق الأمين لديهم من قبل ومن بعد.

وأما رميهم له بالجنون ﷺ، فهو ما ذكره القرآن الكريم عنهم في نفس السورة حيث شافهوا الرسول ﷺ به فيقول القرآن الكريم: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم: ٥١]. وقد أكدوا قولهم هذا بحرف ﴿ وَإِنْ ﴾ ولام الابتداء ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ فأجيب على قولهم بمؤكدات أقوى مما في كلامهم إذ أقسم عليه أولاً، وجيء بالباء التي تزداد بعد النفي لتأكيد ثانياً، وثالثاً بالجملة الاسمية منفية لدلالة الجملة

الاسمية على ثبات الخبر وهكذا كل ما ورد فيه نفى صفة الجنون عنه فإنما هو رد على أقوال المشركين كقوله: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ ^(١) وقد زل فيه صاحب الكشاف زلة لا تليق بعلمه ^(٢).

وقد أكد القرآن أن نفي الجنون عنه أنه بسبب نعمة الله تعالى عليه، أو لتلبسه بنعمة الله جلَّ وعلا، فكيف يكون مجنوناً من هو محاط بنعمة الله متدثراً بها، فهي عليه كاللباس مشتملاً بها.

وهو ما يدل في محاجة المشركين على أن هذه النعم كانت ظاهرة في حقه من الفصاحة، والعقل الكامل والسيرة المرضية، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة، فوجودها تنافي الجنون وحصوله، وقد نبه الله تعالى على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين في قولهم له إنه لمجنون ^(٣).

يقول العلامة أبو السعود في "إرشاد العقل السليم" في ذكر قوله: ﴿ رَبِّكَ ﴾ حيث أظهر وصف الربوبية، وأضافها إلى النبي - عليه السلام والصلاة - أنه يدل على عظمة قيمة

^١ - انظر الطاهر ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٦٢/٢٩)، الدار التونسية للنشر، بغير سنة الطبع، والزلة التي يشير إليها للزمخشري في تفسيره لسورة التكويد حيث استدلل بهذه الآية على علو مقام جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم وهذا من عقائد المعتزلة ودسائسها.

^٢ - انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٦٤٨/١٥)، وأبا حيان "البحر المحيط" (٢٣٥/١٠) دار الفكر ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، وابن عطية "المحرر الوجيز" (٢٣٦/٥)، وقد ذكر بعض المفسرين كأبي السعود أن النعمة هي النبوة والرياسة العامة وهذه يجادل فيها المشركون وينكرونها، وأما ما ذكرنا فهو المناسب لرد الجنون المزعوم. انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٧٥٢/٥) طبعة دار الفكر، والألوسي "روح المعاني" (٤١/١٦) المكتبة التجارية.

هذه النعمة، وعلى تشریف النبي ﷺ بهذه الإضافة، وهذا نص كلامه: "والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى معارج الكمال، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه، والإيدان بأنه تعالى يتم نعمته عليه، ويبلغه من العلو إلى غاية لا غاية وراءها، والمراد تنزيهه عليه الصلاة والسلام عما كانوا ينسبونه إليه حسداً وعداوة، ومكابرة، مع جزمهم بأنه عليه الصلاة والسلام في غاية الغايات القاصية، ونهاية النهايات الناهية من حصانة العقل ورزانة الرأي"^(١).

بعد أن نَزَّهَ اللهُ تعالى النبي - عليه الصلاة والسلام - عن قول المشركين ودفع عنه بهتان أعدائه، وثَبَّتَهُ على دعوته، وصَبَّرَهُ وسَلَاهُ، وَبَيَّنَّ نعمته عليه، وعظيم درجته عنده، أعقب ذلك كله بإكرامه بأجر غير ممنون، وهو الجواب الثاني للقسم الذي ذكرنا، وهو أنه أقسم له - سبحانه - بأن له أجراً غير ممنون، وما يقسم إلا على عظيم، وهو ذلك الأجر الذي بشره به، وهو أجر عام يشمل أجر الدنيا، وأجر الآخرة جراء ما لقيه من أذى المشركين، وأن دعوته وتحمله وصبره سوف يرى نتيجته وعاقبته بعينه في الدنيا، ويوم يقوم الناس لرب العالمين، وذلك ما حدث من عناية الله به في الدنيا ونصره على أولئك المكذبين

^١ - العلامة أبو السعود "إرشاد العقل السليم" (٥/٧٥٢). وللعلماء والمفسرين أخذ ورد طويل في التوجيه الإعرابي لهذه الجملة (يراجع للتوسع بما ذكرنا من المصادر) وحاصله في قوله ﴿بنعمة ربك﴾ أنه - جعله الزمخشري في الكشف - حالاً من الضمير الذي في مجنون المنفي، وتبعه عليه معظم المفسرين، ويكون التقدير، انتفى وصف المجنون بنعمة ربك عليك. والباء للملابسة أو السببية وقد اعترض أبو حيان كلام الزمخشري، وبين وجه الاعتراض. يراجع ذلك كله في "إعراب القرآن" لمحي الدين الدرويش، و "روح المعاني" للألوسي (١٦/٤١)، و"التحرير والتنوير" للطاهر بن عاشور (٢٩/٦٢)، و"البحر المحيط" لأبي حيان (١٠/٢٣٥) وغيرها. قدم هذا فيما سبق.

والمستهزئين وغيرهم، ورفع رايته في الأرض، والتمكين لدين الله تعالى، مع ثواب الآخرة الدائم الذي لا ينقطع ولا يبسد.

وقد أكد هذا الثواب بـ ﴿إِنَّ﴾، وبلاد الابتداء وبتقديم المجرور في قوله ﴿لَكَ﴾، وهو برهان جسامة هذا الأجر، وضخامته ووصوله إلى مرتبة لم يصل إليها أحد، دليل ذلك قوله ﴿لَكَ﴾ التي تفيد الاختصاص، بمعنى أن هذا الأجر لك لا لغيرك، لم يحزه غيرك كائناً من كان، فيدل ذلك على علو مرتبة النبي ﷺ، ولما صح ووقع ذلك في الدنيا كان عنواناً من عناوين صحة النبوة، وصدق الرسالة، فمن من المرسلين أو غيرهم رفعت رابته وانتشر دينه، ودام قوله، واستمرت تعاليمه على نحو ما كان له ﷺ مع ما حدث من مجابهة وحروب لم يعلمها على الحقيقة والتفصيل إلا الله جلَّ شأنه.

ودلَّ كذلك أنه سيد ولد آدم يوم القيامة إذ هو أعلاهم وأعظمهم، فهو أعلاهم منزلة، صاحب الوسيلة التي لا تنبغي إلا لأحد من خلق الله، هو النبي ﷺ.

وقيمة هذا الأجر وبقاؤه يوضحه قوله سبحانه وتعالى: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ لا من فيه: أي لا أذى فيه من المعطي للمعطى له، من تعديده عليه، أو افتخاره به، وذكره له كما قال تعالى: ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤] ويجوز أن يكون ﴿مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع عنه، وهو الثواب المتزايد كل يوم، أو الأجر الأبدي الذي لا يفنى، فكانت كلمة ﴿مَمْنُونٍ﴾ لها من الإيجاز بجمع هذين المعنيين ما ليس لقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُودٍ﴾ [هود: ١٠٨] في سورة هود، وهو هنا مناسب لتكريم النبي ﷺ ولتبيان أعظم ما له من الثواب عند الله تعالى، فهو لا يصل إليه أحد فضلاً عن أن يدانيه، إذ هو له خاصة لا يشركه فيه غيره، ولا أذى فيه، مع

^١ - انظر ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٦٣/٢٩).

تزايد وأبديته فكان ذلك تأنيساً وتثبيتاً لقلب الرسول مع البشرى والوعد الجميل بما لا مزيد عليه.

وبعد أن آنس نفس رسوله ﷺ بهذا الوعد، جاء المقسم عليه الثالث، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] فسفه رأي أعدائه بقولهم مجنون، ودفعه بما يذهبه ويبطله مما يعلمه قومه، فحقق أنه متلبس بخلق عظيم، وذلك ضد الجنون، وقد أكد بمؤكدتين بحرف ﴿إِنَّ﴾ وبلاد الابتداء أي أنه كلام لا يدع مجالاً للشك أو تردد، وكأنه يؤكد الواقع الذي لا يمارون فيه، ولا يكذبون به^(١).

والخلق: طباع النفس وعاداتها وسجاياها، وأكثر إطلاقه على طباع الخير إذ لم يُتبع ينعت.

والعظيم: الرفيع القدر، وهو مستعار من ضخامة الجسم، وشاعت هذه الاستعارة حتى ساوت الحقيقة.

و﴿عَلَىٰ﴾ للاستعلاء المجازي المراد به التمكن كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

والخلق العظيم هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق، وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان، لذلك فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن، فلا اجتماع مكارم

^١ - وقد يقول قائل: بل قد ورد قول المنكرين له ﷺ بأنه ساحر كذاب وغيرها، والرد أنه يكفي أن القرآن الكريم ذكر بنفسه هذه الافتراءات ولم يخف شيئاً منها؛ لأنه لا يأبه بها إذ لا يخشى شيئاً من ذكرها، مما يدل على أنها على غير الحقيقة، وأنها مما لا يخيف الواثق من نفسه، فضلاً عن أن تهزه أو تزلزله. ثم إن القرآن الكريم قد جابههم بالرد فلم ينكروه كقوله تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

الأخلاق إذًا في النبي ﷺ ، فهو أحسن الخلق معاملة للناس على مختلف الأحوال المقنضية لحسن المعاملة.

ولاجتماع هذه الأخلاق فيه ﷺ رأينا السيدة عائشة - رضي الله عنها - تقول: كان خلق نبي الله ﷺ القرآن^(١)، أي هو أدب القرآن ويشمل ذلك كل ما وصف به القرآن مكارم الأخلاق، ويشمل كذلك ما وصف به النبي ﷺ من نحو قوله: ﴿فِيمَا رَحِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَسْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وغير ذلك من آيات القرآن الكريم.

وأيضًا ما أخذ به رسول الله ﷺ من الأدب بطريق الوحي غير القرآن قال رسول الله ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(٢) فجعل أصل شريعته إكمال ما يحتاجه البشر من مكارم الأخلاق في نفوسهم.

وإذا كان الرسول ﷺ هو صاحب الخلق العظيم، وأن الخلق العظيم هذا هو أدب الوحي الذي نزل عليه، فإن ذلك يدل على أن الرسول ﷺ هو المظهر الأكبر لهذا الخلق، ومن ثم أمره الله تعالى أن يقول: ﴿وَأَنَا أَوْلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] حيث صار بعد أمر ربه بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الحج: ١٨] أول وأعظم المتبعين لها والمتخلقين بأخلاقها.

والأمر المهم الآخر في هذا الكلام أن الشريعة هذه أيضًا متمكنة تمام التمكّن من عظيم الأخلاق، مرتبطة به أشد الارتباط، فكانت هي الأخرى المظهر الأجل الأعظم

^١ - رواه مسلم [صلاة المسافر] (١٣٩) عن قتادة ؓ.

^٢ - سبق تخريجه (٦).

لمكارم الأخلاق وفضائلها، وبهذا يزداد وضوحاً معنى التمكن الذي أفاده حرف الاستعلاء في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [الفلم:٤] فهو متمكن من الخلق العظيم في نفسه، ومتمكن منه في دعوته الدينية^(١).

ويؤكد سيد قطب أن تلك الأخلاق مربوطة بالسماء وليس العرف أو المصلحة إذ ذاك في الأرض هو الذي يحددها أو ينشئها فيقول: "لقد لخص الرسول ﷺ رسالته في هذا الهدف النبيل، وهو أنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق، ومن ثمَّ كانت سيرته الشخصية مثالاً حياً، وصفحة نقية وصورة رفيعة، تستحق من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [الفلم:٤]" فيمجّد بهذا الشاء نبيه، كما يُمجّد به العنصر الأخلاقي في منهجه، ويشد به الأرض إلى السماء، ويعلق به قلوب الراغبين إليه - سبحانه - وهو يدلهم على ما يُحب ويرضى من الخلق القويم.

هذا الاعتبار هو الاعتبار الفدّ في أخلاقية الإسلام، فهي لم تنبع من البيئة، ولا اعتبارات أرضية إطلاقاً ولا تستمد، ولا تعتمد على ما كان قائماً من اعتبارات العرف أو المصلحة أو الارتباطات، إنها تُستمد من السماء، وتعتمد على السماء، تُستمد من صفات الله المطلقة ليحققها البشر في حدود الطاقة، كي يحققوا إنسانيتهم العليا وكي يصبحوا أهلاً لتكريم الله لهم واستخلافهم في الأرض، وكي يتأهلوا للحياة الرفيعة الأخرى بجوار الله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر:٥٥].

وهذه الأخلاق ليست فضائل مفردة: صدق، وأمانة، وعدل... إنما هي منهج متكامل، تتعاون فيه التربية التهذيبية مع الشريعة التنظيمية، وتقوم عليه فكرة الحياة كلها

^١ - انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (١٥/٦٤٩)، أبا حيان "البحر المحيط" (١٠/٢٣٦)، الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٩/٦٤).

واتجاهاتها جميعاً، وتنتهي في خاتمة المطاف إلى الله لا إلى أي اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة.^(١)

تعريف الأخلاق عند الفلاسفة:

وتجدر الإشارة هنا إلى ذكر شيء مما قاله الحكماء والفلاسفة من المسلمين ومن غيرهم في تعريف الأخلاق، لنرى مدى ارتباط هذه الأخلاق ارتباطاً وثيقاً بالنبى ﷺ، ومدى تحققها فيه إلى أقصى غاية ممكنة، وبالتالي من حيث شعروا أو لم يشعروا، نرى مدى بناء هذه الشريعة على تلك الأخلاق وتأسيسها عليها، وفي ذات الوقت يكون ردًا على هؤلاء المستشرقين الذين عاثوا فساداً في دين الإسلام، وأخلاق الرسول ﷺ.

نقل أسعد الحمراي عن "معجم لاروس" بأن الأخلاق: "هي علم تحديد معايير وقواعد السلوك، أو هي علم التعرف على الحقوق والواجبات"^(٢).

وذكر الحمراي أيضاً أن علم الأخلاق: "هو جملة القواعد والأسس التي يعرف بواسطتها الإنسان معيار الخير في سلوك ما، أو مدى الفساد والشر المتمثل في سلوك آخر"^(٣).

وإن كان هذا هو تعريف الأخلاق عند الغربيين، فإن تعريف المحدثين والقدماء مما يبين جوانب الموضوع، ويوضح ملامحه، حتى إذا جئنا لتعريف الحكماء والفلاسفة والعلماء المسلمين للأخلاق اكتملت الصورة، وحينئذ نطبق هذه الصورة المكتملة للتعريف على

^١ - انظر سيد قطب "في ظلال القرآن" (٦/ ٣٦٥).

^٢ - انظر اسعد الحمراي "الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة" (١٥) حيث نقل هذا التعريف عن "معجم لاروس" الصادر في باريس ١٩٣١ م.

^٣ - المصدر السابق.

رسالة الإسلام، وعلى رسولها ﷺ. لنرى بموضوعية كيف تمثلت هذه الأخلاق فيها على أتم وجه، وأحسن سيرة، ونلج المقصود مباشرة فنقول: أمّا الأخلاق عند الغربيين المحدثين فتعرف بأنها: "تصور وتقييم ما ينبغي أن يكون عليه السلوك، متمشية في ذلك مع مثل أعلى أو مبدأ أساسي تخضع له التصرفات الإنسانية، ويكون مؤازراً للجانب الخيّر في الطبيعة البشرية"^(١).

ويلاحظ الباحث أن تعريفات الأخلاق عند الغربيين لا تفرق بين الحديث والقديم، حيث يبين ذلك كلام ابن مسكويه بدون قصد منه للتفريق بين التعريفات، فيحدد الأخلاق مبيناً وجهة نظر القدماء، أي فلاسفة اليونان بأنها: "علمٌ يعرف به حال النفس من حيث ماهيتها، وطبيعتها، وعلة وجودها، وفائدتها، ما هي وظيفتها التي تؤديها، وما الفائدة من وجودها، وعن سجاياها، وعن أميالها، وما ينقلها بسبب التعاليم إلى الحالة الفطرية، وذكر أن هذا أول علم تأسس منذ بدء الخليقة"^(٢).

ونختار تعريف الجرجاني حيث هو من اعتنى بالتعريفات، ليبين تعريف الأخلاق عند علماء المسلمين المتقدمين، وهو ما درج عليه متأخروهم من المهتمين منهم بالأخلاق والتفسير فيقول: "الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة يصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كان الصادر منها الأفعال الحسنة، كانت الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقاً سيئاً، وإنما قلنا هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يقال

^١ - حسن الشرقاوي "نحو الثقافة الإسلامية" (١/٢٣٨)، القاهرة دار المعارف ١٩٧٩م.

^٢ - انظر ابن مسكويه "تهذيب الأخلاق"، وانظر "موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ" (١/١٨٠) جدة دار الوسيلة الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه"^(١).

إن المتأمل فيما سبق من التعريفات لا يجد مشقة أو صعوبة في أن يقرر بكل أمانة أن تلك الصفات لم تتحقق لأحد متكاملة على هذا النسق في غير محمد ﷺ، إذ لا يحتاج لروية وتدبر، أو أعمال فكر إذا كان مشتغلاً بالتاريخ فقط أن يقول إن تلك الأخلاق كانت في أسمى صورها، والتي هي باقية ما بقي ناس يعلمون عن محمد ﷺ، ولو سأل المنصف نفسه من الذي ادعى، أو إدعى له على مدار التاريخ الإنساني كله أنه يتمتع بتلك الأخلاق، واتصف بأعلى كمالها، وما تزال آثارها باقية بل مكتملة كما كانت فيه، بلغت كما نقلت عنه، وتمثلها أتباعه، ويحاولون إلى اليوم، لم تجد مؤرخاً، ولا عالماً، ولا عاقلاً محايداً، منصفاً، أو غير منصف إلا أن يقول: ما ذكر ذلك إلا عن محمد ﷺ، وإن ذكر غيره في ميدان من ميادين هذه الأخلاق، فما ذكرت كل الأخلاق وأعلاها إلا له.

لا نحتاج إلى تنزيل معاني هذه التعريفات - كما أسلفنا - على النبي ﷺ، خاصة وهي تعريفات قاصرة مليئة بالثغرات والمآخذ، إذ الواقع والسير قد كفتنا مؤنه ذلك، وإنما نقف عند تعريفات العلماء المسلمين، إذ هم قد زادوا على هذه التعريفات أموراً تسد خللها، وتكمل النقص فيها، وبالتالي تجعل هذه التعريفات أجمع وأمنع من تعريفات الغربيين، وبناء عليه، فإذا كانت هذه التعريفات الشاملة قد جمعت لمحمد ﷺ فمن باب الأولى، قد أحاطت أخلاقه بتعريفات أولئك، ولا بأس حينئذ أن نذكر تعريفاً للأخلاق عند المسلمين، يقول مقداد يالجن معرفاً الأخلاق في نظر الإسلام بقوله: "هي عبارة عن مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان، وتحديد

^١ - عبد القاهر الجرجاني "التعريفات" (١٠٤)، وكذلك الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٦٤٩/١٥ - ٦٥٠)، وانظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٦٣/٢٩).

علاقته بغيره على نحو تحقيق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه.^(١)

يظهر هذا التعريف شمول الأخلاق في نظر الإسلام، وكذلك كونها في منظور متكامل بين مصدرها، وطبيعتها ومغزاها الاجتماعي وغايتها، وهو ما يجعل النظام الإسلامي متميزاً بهذين الطابعين:

الأول: طابع إلهي من حيث أنها مراد الله، إذ أنه يجب أن يتبع الإنسان في هذه الحياة، أوامر الله ومراده في خلقه، لذلك جاء الوحي بصورة هذا النظام.

الثاني: طابع إنساني من حيث يتضمن المبادئ العامة في بعض نواحيه، وللإنسان دوره في تحديد واجباته الخاصة، والتعرف على طبيعة مظاهر السلوك الإنساني المعبرة عن القيم، لذا تعد الأخلاق روح الإسلام، حيث يقول الرسول ﷺ: (البر حسن الخلق)^(٢).

ولا بأس هنا أن نذكر أحد علماء المسلمين الذين ربطوا الأخلاق بقضية الإيمان، وما ينبثق عنه، وهو ابن تيمية أحمد بن عبد الحلیم الحاراني الذي سلك مسلكاً في تحديد مفهوم الأخلاق يعتبر جديداً إلى حد ما في الفكر الإسلامي، كما بين ذلك صاحب " النظرية الخلقية عند ابن تيمية " حيث يقول ما ملخصه: إن ابن تيمية كان أوفى، وأكمل وأكثر نضجاً ممن سبقه من علماء المسلمين، أو غيرهم في هذا المضمار، وذلك لأن التصور النظري للأخلاق لدى هؤلاء جميعاً فيه من الثغرات، وعليه من المآخذ ما يجعل من هذا التصور فكرة ناقصة، بل عاجزة عن تحقيق الكمال الإنساني، فعند ابن تيمية نرى الارتباط الوثيق بين مفهوم الأخلاق، ومفهوم الإيمان الذي حدده الإسلام، وما ينبثق عنه من نظام في

^١ - انظر مقداد يالين " التربية الأخلاقية الإسلامية " رسالة دكتوراه منشورة، الطبعة الأولى القاهرة، مكتبة الخانجي ١٩٧٧م، (٧٥)، وانظر " نضرة النعيم " (١/٦٦)، جده دار الوسيلة الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ.

^٢ - المصدر السابق، والحديث رواه مسلم (٤٦٣٣).

العبادة، يكمن في التصور الخلقى الصحيح، ففي الإيمان وطرائقه وآفاقه تستطيع النفس أن تجد حاجتها المادية والروحية معاً، وليس ثمة طريق يبلغ الإنسان إلى كماله المنشود، وصلاحه المرجو، وبالتالي سعادته المأمولة غير طريق الإيمان^(١).

ويكفي منهج علماء المسلمين، من سلكه منهم بتحقيق أكثر، وتحديد أدق كابن تيمية ومن تبعه، أن يرجع إليه الأوربيون اليوم بعد أن تشرّدوا في صحراء المادة القاحلة، التي تصوروا فيها سعادتهم، فإذا هي سراب، وقد عادوا إلى إدخال الإيمان كعنصر فعال في تحديد الأخلاق الموصلة للسعادة التي اتضح لهم أنها مبنية على الإشباع الروحي والسلام النفسى الذي تظهر آثاره في الأخلاق المحمودة مع البشر كافة، والتي بها يشعر المرء بقيمة لهذه الحياة التي أصبح لها غايات وأهداف محمودة.

إننا بتغير الأخلاق إلى ذلك نغير جميع أنماط السلوك الإنسانى، وقد رأينا كيف غيرت دعوة النبي ﷺ لمكارم الأخلاق هؤلاء العرب في أقصر فترة إلى أعظم أنماط ووسائل السلوك الإنسانى على مرّ التاريخ.

الأركان الأساسية للأخلاق:

ما سبق يدفعنا - بعد أن علمنا تحقق هذا العلو الأخلاقى في الرسول ﷺ وأنّه كان الأنموذج الفخّم لدعوته - إلى أن نحدد الأركان الأساسية للأخلاق، وشيئاً من تفصيلاتها لنرى مدى انطباقها على شخص الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - فيتضح بذلك شيء من قيمة الرسول والرسالة، وصحة نسبه هذا الوحي لله تعالى.

^١ - انظر محمد عبد الله عفيفي "النظرة الخلقية عن ابن تيمية" مطابع الفرزدق التجارية، الرياض طبعة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، (٥٨-٥٩)، والكلام في تبيين خصائص مسلك ابن تيمية والمقارنة بغيره... إلخ موجود في الدراسة.

يقول الإمام ابن القيم في كتابه "مدارج السالكين" ما ملخصه: وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل. وأخذ يفصل كيف جمعت كل منها جملة من مكارم الأخلاق التي بمجموعها تكتمل صورة الأخلاق الحسنة في صاحب الرسالة، لتكون عنواناً وتفصيلاً لهذه الرسالة بحيث لا يبقى عقلاً ولا واقعاً إلا التسليم بكونها من عند الله تعالى.

وإن من الإنصاف العلمي أن نعرض من حين إلى آخر على مدار الرسالة لما اعترض به المعترضون، أو شكك به المرتابون من المستشرقين، ومن لف لفهم لتلك الأغراض الخبيثة من محاربة الإسلام- العدو الرئيسي الذي اتخذوه لهم في هذه الأيام- ولنرى أتصمد أمام النقد العلمي النزيه، أم لا، من وجهة نظر هذه الرسالة، وإن كنا سنختصر ذلك اختصاراً؛ لثلا نخرج عن مقصود البحث، وسيكون ذلك فيما سنعرض له فقط من بعض مواقفهم التي تدل على سائر المواقف، مع الإعراض التام عما تتميز به هذه الكتابات من التناول والتسافه، وقلة الحياء والأدب^(١)، إذا ذلك بضاعة الجهلة التي تظهر عند فقد الحجة

^١ - يقول كيمون في كتابه (باثولوجيا الإسلام): «إن الديانة المحمدية جذام تفسى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض مريع وشلل عام وحنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والكسل ولا يوقظة من الخمول والكسل إلا ليدفعة إلى سفك الدماء والإدمان». ويقول أيضاً: «أعتقد أن من الواجب إبادة مُهمس المسلمين والحكم على الباقيين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر». انظر عبد الودود يوسف : قادة الغرب يقولون، دار السلام للطباعة والنشر طبعة ١٩٩٤ (٤٢). يقول الفيلسوف الأمريكي فرنسيس فوكوياما في كتابة «نهاية التاريخ» أن الإسلام أصبح خطراً كبيراً على الممارسات الليبرالية وأن هناك تشابهاً بين الأصولية الإسلامية والنازية الأوروبية وأن الإسلام هو سبب في تخلف المسلمين وأنه وراء فشل المسلمين في التفوق علمياً أو اقتصادياً أو صناعياً. انظر رجب البنا «الغرب والإسلام» دار المعارف طبعة ١٩٩٧ (٢٣٧-٢٣٨)

والبرهان، وسيكون البحث مع مدعي الحياء والأدب منهم، وإن اعتقد الباحث أنهم لا يفرقون عن غيرهم شيئاً، إلا أنهم صاغوا ما يريدون من أبحاث الظلمات بطريقة حاولوا فيها إلباسها ثوب العلم مع البعد عن طريقة الشتم والسب والقذف.

نعود إلى كلام ابن القيم حيث يقول:

فالصبر: يحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل الظاهر والباطن، وتحمله على الحياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، البخل والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقتها، وتحمله على كظم الغيظ والحلم؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعته يمسك عنانها، وبكبحها بلجامها عن الترف والبطش، كما قال النبي ﷺ: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة، وعلى خلق الشجاعة الذي هو التوسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

فمنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبنائها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب^(١)، وكيف رأينا أن الرسالة وصاحبها - عليه الصلاة والسلام - أبعد شيء عن هذه الأخلاق، وأشد نبياً عن الإتصاف بها، وأكثر العالمين حملاً لهم على مجاهدة أنفسهم على تركها، فجعل الدين كله خُلُقاً، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، ودليل ذلك وبرهانه من كلامه هو ﷺ لما سئل عن البرِّ والإثم فقال: (البرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطَّلَع عليه الناس)^(٢).

فقابل البرِّ بالإثم، وأخبر أن البر حسن الخلق، والإثم حواز الصدور، وهذا يدلُّ على أنَّ حسن الخلق هو الدين كله، وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، ولهذا قابله بالإثم. وإنَّ مما يؤكد ذلك في نظر صاحب الشريعة قوله عليه الصلاة والسلام: (إنَّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)^(٣) فجعل حسن الخلق درجة المتقين الصائمين القائمين، وليس ثمَّ درجة أعلى من ذلك إذ هي أعظم صفات المدح، وأعلى درجة الإيمان، ولذا قال: (إنَّ من أكمل المؤمنين إيماناً: أحسنهم خُلُقاً)^(٤).

ولقد تمثلت هذه الصفات جميعها فيه ﷺ كما ذكر أبعد الناس منه، وكذلك أقرب الناس إليه، حيث قالت السيدة عائشة رضي الله عنها لما سُئلت عن خلقه عليه الصلاة

^١ - انظر محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية "مدارج السالكين" دار إحياء الكتب العربية (١/٢٣٠)، عطية محمد سالم تكملة "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" للشنقيطي محمد الأمين (٨/٤٢٧).

^٢ - رواه مسلم (٢٥٥٣)، ورواه أحمد أيضاً (٤/١٨٢)، والترمذي (٢٣٨٩). من حديث النواس بن سمعان.

^٣ - رواه أبو داود (٤٧٩٨) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

^٤ - رواه الترمذي (١١٦٢) مطولاً واللفظ له وقال حيث حسن صحيح، ورواه أحمد (٢/٢٥٠، ٤٧٢).

والسلام: (كان خلقه القرآن)^(١)، أي خلقه آداب الشرع التي أمر بها جميعها، إذ لا يمكن أن يأمر الله بأي شيء، إلا ويكون الرسول ﷺ أول المسارعين إلى تنفيذه لقوله تعالى: ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، وحديث أنس ﷺ خادمه بعد حديث زوجته، يبين لنا ذلك، فعلى طول خدمته للنبي ﷺ لم يتغير عليه قط، ولا بدا له منه شيء من ذلك، خاصة مع من يخدمه؛ لأنه لا بد من أفعال يقع بها الضجر والتأفف، أو تؤدي إلى المعاتبة أو المعاقبة، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يقع لأنس ﷺ مع النبي عليه الصلاة والسلام، يقول أنس: (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً) وقال: (ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا)^(٢).

^١ - رواه مسلم (٧٤٦) مطولاً من حديث قتادة ﷺ.

^٢ - رواه البخاري (٣٧٦٨)، ومسلم (٢٣٠٩) بعضه، والترمذي (٢٠١٥).

المبحث الثاني

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

وتمشياً مع سياق القواعد الموضوعة لهذا البحث، نذكر آية أخرى جمع الله فيها للنبي عليه الصلاة والسلام مكارم الأخلاق، وهي قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] لنحللها حتى يتضح كيف أمره الله بهذا؟ بعد أن مدحه بأنه على خلقٍ عظيم، ونلاحظ ما يلي:

أن هذه الآية في سورة الأعراف، وهي السابعة والثلاثون في ترتيب النزول، ومعنى أن الله تعالى يأمره ﷺ بعد هذه المدة بذلك مع أن تلك أخلاقه، وأنه أثنى عليه بها أن يكون ذلك خطاباً لأُمَّته ﷺ، وهو المناسب للسياق القرآني حيث جاء بعد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وكما بيَّنا في عصمته لا يمكن أن يكون ذلك في حَقِّه - عليه الصلاة والسلام - والاحتمال الآخر أن يكون الخطاب له في جزئه الأول، وهو خذ العفو...، وكذلك يكون مُوجَّهاً للمؤمنين، ولا يمتنع أن يكون في الثاني للمؤمنين أيضاً، وحينئذ يكون المراد من هذا التوجيه القرآني الكريم لهذه الصيغة، هو التأكيد مرة أخرى على مكارم الأخلاق، وتثبيت المؤمنين فيما لا قوة من الأذى على ماربَّاهم عليه من حسن الخلق، لأن ذلك دليل أنه لأمر ما مهم، قد ندبهم لذلك مرة أخرى، وأمرهم به.

ويوضح هذا الأمر أن المشركين قد وصلت إساءتهم إلى الحد الذي يمكن أن يخرج

المؤمنين عن حد المسامحة، والإعراض عن الجاهلين، أو العفو عن ظلمهم، مما يدل على أن قلوبهم قد ملئت غيظاً من هؤلاء المجرمين لدرجة انتظار الانتقام منهم، بدلاً من الصفح، وتمني الهداية لهم، وهي روح الإسلام العظيم.

أخلاق جبلي وكسبي:

وإذا كان قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] كانت في أول ما نزل من القرآن الكريم جاء هذا السؤال، وهو: هل الأخلاق جبليّة أو كسبيّة؟ خاصة وأنا ادّعينا في أول الكلام أنه ﷺ ما نزل عليه الوحي إلا وهو في عظيم الأخلاق وأعلاها، وهو ما يؤيده الواقع كما ذكرنا.

والإجابة العامة: هي أن الأخلاق منها ما يكون جبلياً قد طبع عليه المرء، ومنها ما يكون كسبياً يقع له بالتخلق والتكلف، حتى يصير له سجية وملكة، وله أمثلة عدة، وأقوال كثيرة وردت عن النبي ﷺ منها ما قاله - عليه الصلاة والسلام - لأشج عبد القيس ﷺ: (إنّ فيك لخُلُقَيْنِ يحبهما الله: الحلم، والأناة. فقال: أخُلُقَيْنِ تخلقت بهما أم جبلي الله عليهما؟ فقال: بل جبلك الله عليهما. فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله)^(١).

وهذا يدل على أن الأخلاق منها: ما يطبع المرء عليه، وقد رأينا الواقع مليء بتلك الصور، وقد رأينا الشجاع الثابت بطبعه، والكريم، والحليم، وغيرهما، والعكس كذلك كأصحاب الأخلاق المذمومة كالبخل، والجبن، وغيرهما.

^١ - أخرجه مسلم (١٧) في الإيمان: باب المر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين، أم الجملة الأخيرة: (خلقين تخلقت...) فقد أخرجها أحمد (٤/٢٠٥، ٢٠٦)، البخاري في الأدب المفرد (٥٨٤) وسندها صحيح، انظر زاد المعاد (٣/٦٠٥-٦٠٩).

ومنها: ما هو مكتسب، يكتسبه الإنسان بالتكلف، ورياضة النفس ومجاهدتها، وقد ورد في هذا قوله ﷺ: (إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحرَّ الخير يُعطه، ومن يتوقَّ الشر يوقه)^(١).

وهذا يوضح أن من الأخلاق ما يكتسب بالتدرب عليها، وممارستها مع المجاهدة على مدافعة ضدها عند ورود أسبابها، فالحلم يحاول المرء أن يتخلق به، ويظهر مدى التزامه بهذا الخلق عند ورود سبب الضد من معاملات وأقوال وتصرفات تخرج الإنسان عما يحاول أن يكون عليه من الحلم، فيضبط حينئذ جهله، ويكظم غيظه، ويجاهد نفسه على الثبات فيما عرض له من امتحان حلمه، وهكذا بقية الأخلاق، وهذا باب طويل في رياضة النفس، ترى النبي ﷺ حاول شيئاً من ذلك؟ الواقع يأبى إلا أن يقول لا، لقد كانت تلك الأخلاق سجية فيه، لقد تعرض لامتحانات الأخلاق كافة، فما سمعنا له هنة فيها غيرَها قومه، وامتنعوا من وصفه بسببها بأنه صاحب الخلق القويم، أو تذرعوا بها لئلا يدخلوا الإسلام.

ومع ذلك من حسن تواضعه، وهضمه لنفسه، التي لا ينطق بها إلا العطاء وجدناه يدعو ربَّه ﷻ بأن يرزقه ويهبه، ويعينه، ويوفقه لأحسن الأخلاق، وقد ذكر ذلك ليكون تعليماً للمؤمنين، وتنبهاً لهم على الثبات على أحسن الأخلاق بدوام الدعاء لله تعالى أن يهديهم إليها، ويوفقهم لها، فيقول ﷻ: (اللهم اهدي لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها

^١ - أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (١٢٧/٩) عن أبي هريرة مرفوعاً.

إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت^(١).

ولابد من إضافة هنا تبين مصدرية الأخلاق، وتوضح ما سبق، وهي أنّ الأخلاق لا يمكن أن تكون نتاج عقل، حتى نقول إن الرسول أنتج هذه الأخلاق بعقله، لأن العقل يستطيع أن يختبر العلاقات بين الأشياء ويحددها، ولكنه لا يستطيع أن يصدر حكماً قيمياً عندما تكون القضية قضية استحسان أو استهجان أخلاقي. إن محاولة إقامة الأخلاق على أساس عقلائي لا يستطيع أن يتحرك أبعد مما يسمى بالأخلاق الاجتماعية، أو قواعد السلوك اللازمة للمحافظة على جماعة معينة، وهي في واقع الأمر نوع من النظام الاجتماعي^(٢).

ويؤكد هذه الفكرة الدكتور محمد الله دراز لقوله: "فإذا ما قيل لنا، إننا نحن الذين نشرع لأنفسنا، بوصفنا أعضاء في عالم عقلي، وجب علينا أن نتفق على ذلك الاستقلال الذي خص به العقل."

ماذا تعني في الواقع هذه المقولة: "العقل يمنح نفسه قانونه؟ هل هو مبدع العقل والقانون، أو أنه يتلقاه مُعدّاً على أنه جزء من كيانه كما يفرضه على الإرادة، ذلك لأنه إذا كان العقل مبدع القانون فإنه يصبح السيد المطلق، فيبقى عليه، أو يبطله تبعاً لمشيئته، فإذا لم يستطع ذلك فلائنه قانون سبق في وضعه وجود العقل، وأن صانع العقل قد طبعه فيه،

^١ - جزء من حديث رواه مسلم (٧٧١) صلاة المسافرين: باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، وأبو داود (٧٦٠) في الصلاة: باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء.

^٢ - انظر علي عزت بيجوفيتش: "الإسلام بين الشرق والغرب"، ترجمة محمد يوسف عدس ط ١، الكويت، مجلة النور، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلان والخدمات ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص ١٨٦.

كفكرة فطرية، لا يمكن الفكاك عنها"^(١).

مما سلف من القول يتضح لنا أن الأخلاق منها ما هو كسبي، ومنها ما هو جبليّ طبعي، وإن الكسبي إنما هو لأخلاق معلومة ظاهرة في الواقع يحاول الإنسان أن يتخلق بها بالتدرب عليها، ورياضة النفس بها، وبالتالي لا يمكن أن تكون نتاجاً للعقل، إذ العقل قد وجد، وهذه الأخلاق متقررة في الواقع وموجودة.

فإذا طبقنا هذا الكلام على رسول الله ﷺ فإنه لا مناص من أن نقول إن أخلاقه كلها جبليّة، لأنه أتى قومه بدعوته، وليس هناك مغمز واحد يغمز، أو غمز عليه في أخلاقه باتفاق المخالف والموافق ساعتها، وإلى الآن، ثانياً أناهم يدعوهم إلى مكارم الأخلاق، وقد فاقهم في أخلاقه بما لا طاقة لهم به، بمعنى أن الفارق بين أخلاقه وأخلاقهم كان في الدرجة العليا التي يستطيع بها أن يدعوهم إليها، وأن يرشدهم إليها إذ كيف يدعوهم وهو مثلهم، بقى هذا الفارق الأخلاقي العظيم كما هو، بل زاد، فلو كانت الأخلاق من مفرزات العقل الإنساني فلم اختصاص بها محمد ﷺ، والعقول متقاربة في البيئة العلمية والثقافية والاجتماعية الواحدة.

وقد يأتي هذا الاعتراض - كاعتراضات المستشرقين - إنه كان يتحنث في غار حراء حتى ادّعى النبوة، وهي تلك التأمّلات التي قادته إلى ما ادّعى!

ونقرر كما ينبغي أن يقرر العقلاء بإنصاف، هل كان يتحنث ليتعلم الأخلاق؟ لم يقلها أحد، ولا رماه بها أحد ولا يستطيع، لأنه ليس من عادة العرب أن يكون كذلك. وكيف يكون شهراً في العام لعدّة أعوام سبباً لهذا العلو الأخلاقي، والسمو العقلي؟ وكيف ولم لم

^١ - محمد عبد الله دراز، "دستور الأخلاق في القرآن"، ص ٣٥، وانظر "موسوعة نضرة النعيم" (١/ ٦٥-٦٦).

يُقَمِّمُ مناھضو الدعوة، أو بعضهم لمثل ذلك ليجنبوا قومهم، أنفسهم تلك المواجهات الدائمة؟ أو الادعاء على النبي ﷺ ونبذه بذلك؛ ليظهروا كذبه فيما ادعى؟

إنَّ معاملة الرسول لقومه، وللناس كافة من أول يوم بهذا الخلق الحسن إلى آخر يومٍ في حياته كيدل دلالة قاطعة على أنه ليس له من أمره شيء، وأن الموجه له لا علاقة له بنفسه، ولا من داخله، ولا لهدف آخر يسعى إليه، بل هو شيء فوق طاقته لا يستطيع له رداً ولا دفعاً، إنما هو يُنفذ أوامر هذه القوة الخارجة العليا، ليس غير، لا ينتظر من وراء ذلك إلا رضا هذا الإله عنه، لا يلوي على غير ذلك، ولا يخشى أحداً ولا ينتظر جزاءً أو شكوراً من أحد، فضلاً عن أي غرض مادي أو حسي آخر، وهو يلهج بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦]، وقد جاءت آيات كثيرة في هذا السبيل، وكذلك في سياق أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً، وإلا لما عرَّض نفسه لذلك كله بغير أية أغراض حصلها في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۗ إِنِّي أَنبِئُكُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۗ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠]، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۗ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٩].

وإذا انتهينا من هذه النقطة، فلا بد من الإشارة إلى أمر مهم من فهم أخلاقه ﷺ، وهو: مع أن الله جَبَلَهُ على عظيم الأخلاق، وأنه ما بعث لدعوة الحق إلا وهو كذلك، فإن أخلاقه بعد البعثة كانت في ارتفاع وعلو دائم، إذ لا يوصف شيء بالثبات في الدنيا، وفي ذلك نقدم بما يقول سيد قطب: ما أن أخلاقية الإسلام لا تستمد ولا تعتمد على اعتبارات أرضية من العرف أو المصلحة أو غيرها، إنما تستمد من السماء وتعتمد على السماء، تستمد من هتاف السماء للأرض لكي تتطلع إلى الأفق، وتستمد من صفات الله المطلقة ليحققها البشر في حدود الطاقة، كي يحققوا إنسانيتهم العليا. ومن ثم فهي غير مقيدة ولا محدودة بحدود؛ إنما

هي طليقة ترتفع إلى أقصى ما يطيقه البشر، لأنها تتطلع إلى تحقيق صفات الله الطليقة من كل حد، ومن كل قيد^(١).

ويزيد ابن رجب الحنبلي في كتابه "لطائف المعارف" هذا الأمر توضيحاً وتفصيلاً فيقول من كلام طويل له: ولما كان الله ﷻ قد جبَل نبيه ﷺ على أكمل الأخلاق وأشرفها، كما في حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٢) فدل هذا على أنه ﷺ أجود بني آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة.

وكان مثلاً لهذه الأوصاف، هو جوده ﷺ فكان جوده يتمثل بجميع أنواع الجود، من ذلك العلم والمال، وبذل نفسه لله تعالى في إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق، ومن إطعام جائعهم، ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم.

ولم يزل على هذه الخصال منذ نشأ، ولهذا قالت له خديجة - رضي الله عنها - في أول مبعثه: «والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»^(٣).

ثم تزايدت هذه الخصال فيه بعد البعثة وتضاعفت أضعافاً كثيرة.

وفي الصحيحين عن أنس، قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس،

^١ - انظر سيد قطب، "في ظلال القرآن" (٦/٣٦٥٧).

^٢ - سبق تحريجه.

^٣ - أخرجه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم (١٦٠) في الإيثار: باب بدء الوحي برسول الله ﷺ.

وأجود الناس»^(١)، وفي صحيح مسلم^(٢) عنه، قال: «ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم، أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة»^(٣).

وإننا إذ نذكر مثلاً قليلاً لهذه الأخلاق، لنبين ما كان عليه ﷺ من علو الأخلاق التي بعث بها، مجبولاً عليها، حتى شهد بها أعداؤه شهادة من لم ير، ولم يسمع بمثلها فيمن ذكر بالسؤدد والشرف، فقد ذكر عن صفوان بن أمية، وهو من هو فضلاً وشرفاً وقيادة لقومه في معاداة النبي وحربه سنين طويلة، أعطاه رسول الله ﷺ يوم حنين وادياً مملوءاً إبلاً ونعماً، فقال صفوان: "أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي."^(٤)

ولمثل ما سبق، ويزيد عليه، يقول ابن رجب: وكان يؤثر على نفسه وأهله وأولاده، فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، يأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار.

ترى لو كان له غرض من تلك الأغراض الاستشراقية المفتراة، فما الذي كان يحمله على ذلك، وقد عرض عليه الكفار، الملك والمال، وشهوات الدنيا ولذاتها من النساء وغيره، فلم يعبأ بها، حتى ولو كانت الشمس والقمر عن يمينه وشماله، ما تراجع قيد شعرة

^١ - أخرجه البخاري مطولاً رقم (٢٨٥٧) في الجهاد: باب اسم الفرس والحمار، ومسلم رقم (٢٣٠٧) في الفضائل: باب شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب.

^٢ - رقم (٢٣١٢) في الفضائل: باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا.

^٣ - انظر ابن رجب، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن أحمد "لطائف المعارف"، ت ٧٩٥ هـ حققه ياسين السواس، دار ابن كثير دمشق، ط ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م (٣٠٥-٣٠٨).

^٤ - انظر السابق.

عن ذلك؛ لأنه ليس له ذلك، عدم الوقوع دليل الصدق.

جاءته ابنته فاطمة عليها السلام تشتكي ما تلقى من خدمة البيت وتسأله خادماً يعينها يكفيها ذلك، فقال لها: (لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع). وأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد عند نومها^(١).

ويستكمل ابن رجب كلامه بقوله: وكان جوده ﷺ يتضاعف في شهر رمضان على غيره من الشهور، كما أن جود ربه يتضاعف فيه أيضاً، فإن الله جلّه على ما يحبه من الأخلاق الكريمة، وكان على ذلك من قبل البعثة^(٢). وهو ما يؤكد الذي ذهبنا إليه.

ذكر ابن إسحاق في سيرته عن وهب ابن كيسان عن عبيد بن عمير، قال: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً، يطعم من جاءه من المساكين، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه الله فيها، وذلك الشهر شهر رمضان، خرج إلى حراء، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله تعالى برسالته، ورحم العباد بها، جاءه جبريل من الله ﷻ.

ثم كان جوده في رمضان - بعد الرسالة - أضعاف ما كان قبل ذلك؛ فإنه كان يلتقي هو وجبريل ﷻ، وهو أفضل الملائكة وأكرمهم، ويدارسه الكتاب الذي جاء به إليه، وهو أشرف الكتب وأفضلها، وهو يحث على الإحسان ومكارم الأخلاق.

ومن ثم كان رسول الله ﷺ هذا الكتاب له خُلُقاً بحيث يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه، ويسارع إلى ما حث عليه، ويمتنع عما نهى عنه؛ فلهذا كان يتضاعف جوده

^١ - أخرجه البخاري (٦/٢١٥)، وأهل الصفة فقراء الإسلام لا يأوون على بيت ولا مال.

^٢ - انظر ابن رجب الحنبلي "لطائف المعارف" (٣٠٨-٣٠٩).

وإفضاله في هذا الشهر؛ لقرب عهده بمخالطة جبريل عليه السلام، وكثرة مدارسته له هذا الكتاب الكريم، الذي يحث على المكارم والجود.^(١)

وهكذا كل الأخلاق التي اتصف بها النبي ﷺ كانت في الغاية من السمو، وإذا بها تتضاعف إلى أعلى وأسمى من ذلك بعد بعثته المشرفة؛ لأنها تستمد من صفات الله التي لا يجدها قيد ولا حد.

ومن ذكر ذلك من المحققين، وإن لم يقصد إليه ولكنه يوضح الفكرة التي نحن بصدد العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره للآية الكريمة ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾، ونحن نذكر ما قاله مختصراً، يقول:

أشبع هذه السورة من أفانين قوارع المشركين من عظمتهم، وإقامة الحججة عليهم، وبعثهم على التأمل في دلائل الوجدانية، وصدق الرسول ﷺ، وما جاء به من الهدى، مع تبين ضلال المشركين، وفضح فساد معتقدتهم، وكيف سجل مكابرتهم وعنادهم، والتعجب من ركوبهم لرؤوسهم، ونأيهم بجانبهم، وكيف أصموا أسماهم، وأغمضوا أبصارهم عما دعوا إلى سماعه، كل ذلك تكلمت به السورة، وسارت به آياتها ونظرت في نفس الوقت أحوالهم بأحوال الأمم الذين كذبوا من قبلهم، وكفروا نعمة الله فحل بهم من أصناف العذاب ما ذكرته السورة الكريمة، وأنه إنذار لهؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك، وقد أعلنت السورة باليأس من ارعوائهم، وانتظار ما سيحل بهم بأيدي المؤمنين، وبتبشيت الرسول والمؤمنين، وتبشيرهم والثناء عليهم بما هم عليه من الهدى، مسلاة لهم وتنويهاً بفضلهم، كان من شأن، ذلك أن يثير في أنفس المؤمنين كراهية أهل الشرك كراهة تحفزهم

^١ - المصدر السابق.

لانتقام منهم، ومجافاتهم، والإعراض عن دعائهم إلى الخير، لا جرم شرع في استئناف غرض جديد، يكون ختاماً لهذا الخوض البديع، وهو غرض أمر الرسول ﷺ والمؤمنين بقلعة المبالاة بجفاء المشركين وصلابتهم، وأن يسعواهم من عفوهم، والدأب على محاولة هديهم والتبليغ إليهم بقوله خذ العفو... الآية^(١).

والتأمل لهذا الأمر بمكارم الأخلاق ليدل المرة بعد المرة على أخلاقية هذا الدين، وأن قضية الخلق الحسن هي محور دعوته، وأن الثبات على هذه الأخلاق تحت مختلف الظروف من أهم مهامته وأقوى مقوماته.

إن التمسك بهذه الأخلاق في تلك الظروف الشاقة، والأحوال العصبية تبرهن بما لا يدع مجالاً للشك على أن الموجه لهذه الدعوة هو الله تعالى، وبالتالي يدل ويشهد لصحة الرسالة، إنها أخلاق تخالف معهود البشر كافة، إذ لم يكن في تاريخ البشرية وإلى اليوم والغد من عامل أعداءه الذين دعاهم إلى السمو الروحي والأخلاقي والنفسي بمعرفة الله، فواجهوه بالبطش وأشد التنكيل تلك المعاملة الحسنة، التي تخالف جبلة النفوس، وما كان عليه الواقع، إذ كل الناس ينتظرون من كل قلوبهم لمن آذاهم - إذا لم يتمكنوا منهم - أياماً سوداً يشمتون بهم فيها، ويسرون لما وقع عليهم إبانها، وأما إذا قدروا على الانتقام فالتاريخ يحدثنا بوقائع يندى لها جبين البشرية خجلاً وأسفاً، في القديم والحديث قد وقعت على أيدي هؤلاء الناقمين المنتقمين، تفيض حقداً وغلاً وظلماً وعدواناً وشططاً إلى آخر ما يذكر المعجم من ألفاظ في هذا الصدد، وتاريخ الروم والفرس ويهود طافح بمثل ذلك في القديم، وتاريخ أوربا الحديث أشد ابتلاء بتلك الأحداث الدامية فيما بين الأوربيين أنفسهم، أو فيما بينهم وبين الشعوب التي استعمروها مما يثير الإشمئزاز والتقزز من مدعي الرقي

^١ - انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٢٥-٢٢٦/٩).

والتمدن.

كل ذلك بغير الإسلام الذي منع فيها منع الشماتة بالأعداء، حتى الشماتة منعها فما بالك بما هو أشد؟

إن هذه التعاليم ما كان ليتبعها أحد إلا أن يكون مستسلماً للقوة التي لا تقهر متبعاً لأوامر الإله الحق ﷻ، مصداقاً بما جاءه به النبي من ربه، قد امتلأ قلبه واستولى عليه ذلك الإيمان بصدق الرسول ﷺ ومحبته بحيث يوطن نفسه مهما كانت الملهمات والخطوب على اتباع أوامره والانتهاض عن نواهيه، إن تلك منزلة لم يبلغها أحد من البشر إلا ذلك الرسول المؤيد بالوحي الإلهي من السماء.

إن في ذلك رداً بليغاً على أولئك المستشرقين في ادعاءاتهم الباطلة حول الإسلام ورسوله^(١).

ونعود إلى تحليل الآية..

فقوله ﴿ خُذِ ﴾ مستعمل هنا مجازاً، حيث استعير بالتلبس بالوصف والفعل من بين أفعال لو شاء لتلبس بها، فكأنه يمكن أن يتلبس بالعفو أو بضده، أو بالعدل أو غير ذلك فأمره القرآن الكريم أن يأخذ العفو من بين ذلك وأن يكون ذلك اختياره، فيكون معنى ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ : عَامِلٌ بِهِ وَاجِعُهُ وَصِفَاءً وَلَا تَتَلَبَّسْ بِغَيْرِهِ^(٢).

والعفو: هو الصفح عن ذنب المذنب، وعدم مؤاخذته به، كقوله تعالى: ﴿ فَاعْفُوا

^١ - له بقية كلام.

^٢ - انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٩/٢٢٦)، وقد ذكر أن استعارة الأخذ للعفو من مبتكرات القرآن، ولذا كان البيت خذي عفوي لأبي الأسود الدؤلي، ونسبته للشعراء الجاهليين غير صحيحة.

وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴿البقرة: ١٠٩﴾.

والمراد بالعتفو عنه ما يعم ويشمل العفو عن المشركين، وعدم مؤاخذتهم بجفائهم وإساءتهم للرسول ﷺ وللمؤمنين.

وقد عَمَّت الآية صورة العفو كلها لأن التعريف في العفو تعريف للجنس فهو مفيد للاستغراق، فهو يستغرق العفو، كل العفو ومعناه أمر الرسول ﷺ بأن يعفو عموماً ويصفح، ولا يؤاخذ بالجفاء وسوء الخلق، ولا يعاقب ويقابل بمثل الصنيع الواقع عليه أو على المؤمنين.

وأسبق من يتبادر إلى الذهن العفو عنه في هذه الآية هم المشركون^(١).

وقوله ﴿بِالْعُرْفِ﴾ فالعرف اسم مرادف للمعروف من الأعمال، وهو الفعل الذي تعرفه النفوس، ولا تنكره إذا خليت وشأنها بدون غرض في ضده، وقد دل على مرادفته للمعروف قول النابغة^(٢):

فلا النُّكْرُ معروفٌ ولا العُرْفُ ضائعٌ

والمعروف مجاز في المقبول المرضي به، لأن الشيء إذا كان معروفاً كان مألوفاً مرضياً به، وأريد به هنا ما يقبل عند أهل العقول، وفي الشرائع، وهو الحق والصالح.

وذلك ما يدلنا على أمر هذه الشريعة الرشيدة، إذا يتأكد في كل فترة من فترات دعوتها عنوانها الأصلي من كونها دعوة الحق والخير والصالح والعفو لإبقاء المؤمنين بها على طريق

^١ - وقد أورد المفسرون هنا قصة عيينة بن حصن مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ...

^٢ - انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٩/٢٢٦)

جادتها، لا تشيهم المحن ولا يحوهم عنها ما يلاقون من أذى ليخرجهم عن رسالتهم الحقة. فكانت شريعة الأخلاق العالية في كل مراحلها حتى تنتهي الدنيا.

ويدخل في الأمر بالعرف الإتسام به، والتخلق بخلقه؛ لأن شأن الأمر بشيء أن يكون متصفاً بمثله، وإلا فقد تعرض للاستخفاف، وعلى أن الأمر يبدأ بنفسه فيأمرها كما قال أبو الأسود^(١):

يا أيها الرَّجُلُ المَعْلَمُ غَيْرَهُ هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانِ ذَا التَّعْلِيمِ

وجاء العرف معرفةً ليفيد الاستغراق أيضاً، ليكون شاملاً لكل معروف، فما من معروف من خير وصلاح إلا ودعت إليه هذه الشريعة، ونادى به رسول الله ﷺ وندب الناس كافة إليه، لأن حذف مفعول الأمر يفيد عموم المأمورين، وهكذا تكون دعوته الخالدة موجهة للعالمين، فأفادت هذه الكلمة شمولها كل عرف، شمولها لكل أحد، وبالتالي خلودها وبقائها وصلاحيتها لكل زمان.

وإن شمولها لكل أحد يدخل فيه المشركون دخولاً أولياً، لأنهم سبب الأمر بهذا العموم، وإن إعراضهم لا يصدنك عن إعادة إرشادهم^(٢)، والدأب في سبيل هديتهم، وتلك ميزة أخرى من مميزات دعوة الحق، ورسالة السماء.

"والإعراض" مشتق من العارض، وهو الخد، ومعناه إدارة الوجه عن النظر للشيء، وهو هنا مستعار لعدم المؤاخذة بما يسوء من أحد، فشبه عدم المؤاخذة على العمل بعدم الالتفات إليه في كونه لا يترتب عليه أثر العلم به، لأن شأن العلم به أن تترتب عليه

^١ - انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٩/٢٢٧).

^٢ - انظر السابق.

المؤاخظة.

"والجهل" هنا ضد الحلم والرشد، وهو أشهر إطلاق الجهل في كلام العرب قبل الإسلام، فالمراد بالجاهلين السفهاء كلهم؛ لأن التعريف فيه الاستغراق، وأعظم الجهل هو الإشراك، إذ هو أشد السفاهة.

وهذه الآية أوقفت المرء كثيراً عن الرد على المستشرقين إذ هم بهذه الحالة من رد الحق من معانديهم وسفهائهم توجب الإعراض عنه، وكذلك من مدعي العلمية والحياد؛ لأن الإنصاف يحمل على اتباع الإسلام، فأين اتباعهم للإسلام الذي لا بد أن يقودهم إليه تفكيرهم الحر، ونزاهتهم في البحث!

إن الإعراض عنهم بالترك والإهمال، والتهمين من شأن ما يجهلون به من الأقوال والأفعال، وعدم الدخول معهم في جدال لا ينتهي إلا إلى الشد والجذب، وإضاعة الوقت والجهد لهو الأولى.

على أن جمعاً من المفكرين اليوم يميلون إلى تفنيد هذه الآراء لأولئك المستشرقين إظهاراً لصورة الإسلام الصحيح، ورداً للظلم والافتراء الواقع عليه، وعلى المسلمين، ودعوة لدين الإسلام بتبيين جمال الإسلام وعظمته، وبيان عظمة رسوله وفخامته ﷺ، وهي وجهة لها ما يؤيدها أيضاً من الشرع، ويساندها من الواقع.

وننوه في آخر الآية بكلام للطاهر بن عاشور حاصله أن الآية حوت مكارم الأخلاق فيقول: وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق؛ لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفواً عن اعتداء فتدخل في ﴿ حُذِرَ الْعَفْوُ ﴾، أو فعل خير واتساماً بفضيلة فتدخل في ﴿ وَأَمْرٌ

بِالْعُرْفِ» ، وهذا معنى قول جعفر بن محمد: "في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها"^(١).

ومع الكلام عن أخلاق النبي ﷺ، وأخلاقيات الإسلام يثور السؤال، وماذا عن الجهاد في الإسلام؟ مع تشعبات كثيرة تنبثق منه، أو تحيط به، خاصة من المستشرقين^(٢) المجاهرين بالعداوة، والسوء من القول. وشهرة ما قالوا، وما يقولون غني عن تسويد الصفحات به.

ونواصل السير مع الترتيب الزمني لنزول القرآن الكريم، لنستكشف به مواضع ثناء الله تعالى على رسوله ﷺ، وليوضح تكامل هذا الثناء من عدمه، بما يدل على صدق الرسول وصحة الرسالة- أي فيما ادعاه من الوحي، ومدى تطابق هذا المدح مع الواقع الذي كان فيه رسول الله ﷺ، وأن ذلك لم يتخلف عن النبي ﷺ إلى أن لقي الله تعالى، بل على العكس، كان في ازدياد مما جبله الله عليه من كل خلق كريم إلى آخر أنفاسه الطاهرة في هذه الحياة، ثم نقارن كما هي العادة النصوص، ونبين ترابطها؛ ليظهر التناسق والاكتمال فيها. هذا الواقع الذي لم يدفعه أحد بدليل يُنظر فيه فضلاً عن أن يناقش، مما يعري- وهي عارية أصلاً- تلك الافتراءات عليه ﷺ.^(٣)

^١ - انظر السابق.

^٢ - ذكرت من قبل أن ليس فيهم منصف، بل هم رأس حربة الحروب الصليبية، والغزو العسكري والفكري لبلاد الإسلام، فكل كلامهم، أو كلام كلهم محل ريبة وتحفظ وشك وسوء الظن .

^٣ - أي في كلام المستشرقين وأذناهم.

المبحث الثالث

﴿ وَالضُّحَىٰ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ ﴾

ووصلنا إلى مدحه في سورة الضحى، وهو السورة الحادية عشرة في ترتيب السيوطي، أي من السور المتقدمة جداً في النزول، فننظر فيها ونحللها، ثم نقارنها بما سبق من ثناء وتكريم من الله تعالى للنبي ﷺ فنلاحظ:

أولاً: تُسَعِّرُ السورة الكريمة بأنه قد حدث تأخير للوحي عن النبي ﷺ، لدرجة أن أرجف الكفار بذلك، وأن شيطان محمد قد ودعه وقلاه، وانتهى أمر النبوة المزعومة، وفرحوا بذلك.

ويبدو من السياق أنه كان فرحاً مشوباً بالحذر، لأن القرآن لم يشر إلى ابتهاجهم بذلك، بل أغفل ذكر قولهم وحالهم وقتئذ، لأن المتصور أيامها أن يقال إن محمداً صادق، وما جربنا عليه كذباً، ولكنها أمانى النفس وتطلعاتها، ركوباً لموجة العناد والاستكبار، مع الإصرار على دين الآباء والأجداد.

ثانياً: ذكر المفسرون والمؤرخون والمحدثون كالبخاري ومسلم^(١) وغيرهم، أن جبريل تأخر عن النبي ﷺ ليلتين أو ثلاثاً مرض فيها - اشتكى - كما تقول الروايات، فجاءته أم

^١ - رواه البخاري (٤٩٥٠) عن جندب، ومسلم (١٧٩٧) كذلك، وانظر ابن كثير "تفسير القرآن الكريم" (٤/٥١١)، وابن هشام "السيرة النبوية" (١/١٥٦) طبعة التوفيقية.

جميل امرأة أبي لهب فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قَربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله ﷻ:

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: ١-٢].

إن تأخر الوحي عن النبي ﷺ ليلتين أو ثلاثاً ينبغي في مثل هذه الأحوال أن يكون أمراً عادياً، لا يتوقف أمامه ليكون مصدر تكذيب، إذ سرعان في عادة البشر، فضلاً عن الوحي أن يأتي تكذيب من الرسول ﷺ، فيكون صاحبه في موقف سيء يدل في نهاية المطاف على عدم استخدام العقل، أو البصر بنتائج تصرفه، ومثل هذا لا يُحكّم العلم والإنصاف والحيدة والموضوعية، إنما يندفع وراء ما يعتمل في نفسه، ويكون تصرفه رد فعل لما يتمنى ويهوى أن يكون، وذلك صنيع المستشرقين في سيرة النبي ﷺ، وأسلافهم وقدوتهم في ذلك أم لهب على جهلها وغيها، ولعلها كانت أفضل منهم في قولها: إني لأرجو... وقد ذكرنا هذه القصة الصحيحة لنبيين أمراً في غاية الأهمية، هو أن أحوال النبي ﷺ كافة كانت معلومة لقريش، مسلمها وكافرها، رجالها ونسائها، لا يغيب عنهم من أحواله وأقواله شيء، إلى الدرجة التي حملت هذه المرأة على ما فعلت، وأنه ما كان يخفي شيئاً ويظهر آخر، أو يكتُم من أمر رسالته وأخلاقه وحياته بعضاً ويبيدي بعضاً، بل كان بادي الصفحة معهم، ومع كل أحد، واضحاً كل الوضوح، لا لبس في منطقته وقوله، ولا تحير في فهم كل مواقفه وأعماله، وإن التبس على بعضهم فهم شيء سارع بالبيان المبين.

ويبين هذا الموقف من جهة أخرى علامة فاصلة بين النبوة، وبين كون هذا الدين من عند محمد، وهو أن يتغيب أو يفتر عن الوحي إلى درجة أن يقال شيطانه قلاه وتركه، وما كان عليه وهو مدعي النبوة إلا أن يواصل الإرسال الكاذب، ولكنه يقف في شجاعة

ليعلنها أنه ليس له من الأمر شيء^(١)، واثقاً في ربه، مطمئناً لما هو عليه، متحملاً كل التبعات المترتبة على ثباته، صامداً للتحديات كافة التي تواجهه، يعلن ضمن ما يعلن أن دينه سيعلو وسينتصر في وقت لا تواجهه مثل فيه هذه التنبؤات في أقل أحوالها إلا بالسخرية والإستهزاء والإستخفاف، وإذا بالتاريخ يذكر وقوع ما تنبأ به حرفاً حرفاً.

أما تحليل الآيات - ونذكر ما يتعلق فيها بمدحه والثناء عليه ﷺ كما ألمحنا آنفاً مما نزل في أوائل بعثته المشرفة - فنلاحظ:

الأولى: القسم، وقد أشرنا إلى معناه في سورة القلم، وإن دلنا هنا على أمر زائد - مطرد معنا في كل السور التي افتتحت بالقسم - هو كثرة الأقسام في السور المكية، على عكس السور المدنية، فلم تفتتح سورة واحدة منها بقسم، وكأن القسم كان مطلوباً في بداية البعثة، خاصة وأن المقسم به كان من خلق الله العظيم الذي يظهر وحدانية الله تعالى وقدرته، وأنه ليس لأحد من البشر تصريف في هذه المخلوقات إلا له وحده، فيكون ذلك باعثاً على التأمل في الآيات الكونية، داعياً إلى الإيمان بخالقها الذي يدعو محمد إلى توحيده، وقد وجدنا الكثرة الكاثرة كذلك من آيات الدعوة إلى النظر في الكون والإنسان وبقية المخلوقات آيات مكية، ليستدل بها على الإله الواحد سبحانه، ولتأكيد قضايا الإيمان، وترسيخها في أذهان وقلوب الناس آنئذ، وإن القسم في مثل هذا الأحوال لينبها إلى أن القرآن الكريم استخدم كل الأساليب التي تبين صدق الرسول ﷺ، ومنها تأكيد أقواله

^١ - وقد أكدت آيات كثيرة هذا المعنى منها ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص: ٧٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٧١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٧٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، وقوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۗ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى: ٤٨]، وهي كلها سور مكية.

وتقريراته بالقسم الذي كان له أهميته عند العرب في تصديق المتكلم.

ويوضح القسم بتلك المخلوقات بجلاء أنه ليس كلام محمد ﷺ، لأنه ما كان له أن يقسم بغير الله كما أمر هو نفسه، إذ هو شرك^(١)، فالذي يقسم بتلك المخلوقات والظواهر هو خالقها سبحانه، لأنه لم يدع أحد أنه خلقها، أو أنه خالق مع الله لشيء منها، أو لغيرها، وهو شيء واضح تمام الوضوح أنه منفصل عن عقل محمد ونفسيته، علاوة على أنه يدعو في بيئته يشترك مع من فيها في عامة علومهم وثقافتهم.

الثانية: تؤكد لنا القصة أن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، فلا هو يعجل نزول الوحي، ولا يؤخره، ولا يد له فيما ينزل أو لا ينزل، ساءه شيء من ذلك أو سرّه، أسعفه في المواقف التي يظن لزوم الوحي فيه، أو بطأ عنه، وما كان موقف كهذا الذي نحن بصددده، ليحتمل تأخير الوحي ليضع الرسول في موقف مؤلم بهذه الطريقة، بل ما كان النبي ﷺ ليتنظر أن يقع ذلك له، ولكنه في النهاية الوحي الذي لا يخضع لرؤية محمد، إنه تنزيل من حكيم حميد له الكون وهو خالقه ومدبره بتمام الحكمة والعلم المحيط، وما محمد ﷺ إلا مبلغ عن ربه يقول له: ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤]، وإن محمداً لو كان ذلك إليه لكان من السهل عليه أن يخترع وحيًا، أو أن ينسج موقفاً وقصة تناسب حل المشكلة التي وقع فيها، بل إن الواقع والعقل ليمنع ابتداء من الوقوع في ذلك، فضلاً عن أن يرويهما بكل صدق وأمانة، على أعدائه، ليروجوها ليسوا مسيئين إليه فحسب، وإنما المرسله سبحانه في المقام الأول.

١- الحديث: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) رواه أحمد (٦٩، ٨٧، ١٢٥/٢)، والترمذي (١٥٣٥)، وصححه الحاكم بلفظ: (فقد كفر) (١/١٨)

وهكذا- من بداية نزول الوحي - والقرآن يؤكد قضايا صحة الرسالة، بما لا يدع مجالاً لمنصف، أو لمن له أدنى عقل على صدق الرسول ﷺ فيما ادعى من الوحي؛ لأنهم لم يكونوا يكذبونه ﷺ فيما بينهم في غير ذلك حتى جاءهم بالوحي المبارك.

وتحمل الآيات التصريح والتلميح في الرد على المستشرقين، الذين جاءوا بعد سنين طويلة ليخترعوا أموراً لم تكن^(١)، ومواقف لم تحدث، ناهيك عن الأخلاق المفتراه ليلصقوها بالنبي ﷺ، وكان ذلك رداً موضوعياً عليهم، إن كل شيء في حياته معلوم، إنه لا علاقة له بها ينزل عليه إلا التبليغ، والله هو الحكم بعد ذلك. كان الأولى بهذه المواقف هؤلاء الكفرة أعدى أعدائه ليشيعوها وينفروا الناس بها عن دعوته، فلم لم يكن ذلك، دل على عدم الوقوع، ولكن ماذا تقول لمنصفين استبدلوا الأحذية بالعقول، وحكموها في التاريخ، واخترعوا له أحداثاً وفسروها بتلك الفعال.

الثالثة: يبدو في اختيار القَسَم بالضحى والليل إشارة إلى إشراق نور التوحيد، وانتهاء ظلماء الشرك، وأنه ما فتر الوحي ليقف وينتهي، بل ليعاود انبلاجه وظهوره، وليزداد سناؤه وضيأؤه حتى يعم العالمين بأبهى مما كان ضوءاً، وأقوى إشراقاً، والآيات في السياق تشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] وإن رضاه- كما ذكرنا- في رضا الله، ورضا الله في علو دينه، وظهور بنيانه، وتمكين شرعه، هداية للناس إلى طريقه القويم.

^١ - انظر «وات»، «محمد في المدينة» (١٢١) حيث اخترع أن آيه اقرأ تذكر النبي ﷺ بفضل ورقة بن نوفل عليه وأن هناك قرأناً قبلها وأن النبي ﷺ كان على صلته متباعدة بورقة قبل الوحي وأن الأفكار الإسلامية قد اختلطت إلى حد كبير - على حسب تعبيره- بأفكار ورقة، وهو مستشرق معاصر بريطاني الأصل، تركزت اتهاماته الأساسية في مجال السيرة النبوية، عمل عميداً لقسم الدراسات العربية في جامعة أدنبرا.

يشير إلى ذلك ابن القيم فيقول: عن قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١-٢] إقسام منه ﷺ على إنعامه على رسوله ﷺ، وإكرامه له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد.

وأقسم بأيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار، فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي؛ الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمداً ربّه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه. وأيضاً فإن فارق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة فهذان للحس، وهذان للعقل.

ثم يشير إلى معنى مهم، وهو أن لا يليق بحكمته سبحانه أن يترك عباده في ظلمة الليل يعيشون، لا نهار له يقيمون فيه معاشهم، وتستقيم بضوئه وشمسه دنياهم، فكذلك لا يليق أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبو إلى مصالح دنياهم وآخرتهم، فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه.^(١)

الرابعة: قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] جواب القسم، وهو إبطال لمقالتى المشركين في قول بعضهم ودعه ربه، وفي قول آخرين قلاه ربه تهكماً به ﷺ، وهو يدل على بقاء مكانته عند ربه، وحظوته لديه، إذ من ودعك قد بالغ في تركك، فما الظن بالقلى وهو البغض والشنآن له؛ أي ما خلاك وأهملك وتركك ولا قطعك وأبغضك منذ اصطفاك

^١ - انظر ابن القيم "بدائع التفسير" (٥/٢٥٥)، و"التيان في أقسام القرآن" (٥٢-٥٣).

ورفعك.^(١)

إذ التوديع: تحية من يريد السفر، واستعير في الآية للمفارقة بعد الاتصال تشبيهاً بفراق المسافر في انقطاع الصلاة، حيث شبه انقطاع صلة الكلام بانقطاع صلة لإقامة، والقرينة إسناد ذلك إلى الله الذي لا يتصل بالناس اتصالاً معهوداً.

وهذا نفي لأن يكون اتصاله بالله قد قطع؛ بقطع الله الوحي عنه^(٢)؛ ولذلك وجدنا هذا البر العظيم من الله تعالى به عندما أضاف لفظ الربوبية إلى ضمير المخاطب ﷺ ﴿رَبُّكَ﴾ لبيان عنايته به، وولايته له، وفيه من اللطف به ما لا يخفى، فكأنه قيل: ما ترك المتكفل بمصلحتك والمبلغ لك سبل الكمال اللائقة بك^(٣).

ونلاحظ في قوله: ﴿وَمَا قَلَى﴾ حذف المفعول، وذلك لثلا يواجهه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى، لو قال ما قلاك، لطفاً به وشفقة عليه ﷺ وفيه احتمال آخر، وهو أنه لنفي صدوره عنه ﷺ بالنسبة إليه ﷺ ولأحد من أصحابه، ومن أحبه إلى يوم القيامة، وذلك لقوله ﷺ: (المرء مع من أحب).^(٤)

ويأتي بعد نفي التوديع والقلى قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]

^١ - انظر ملا علي القاري "شرح الشفا" (٨٢، ٨٤ / ١)

^٢ - انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٣٩٥، ٣٩٦ / ٣٠).

^٣ - الألوسي "روح المعاني" (٢٨٠، ١٦ / ٢٨١)، انظر كذلك القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" (٢٠ / ٦٤)، برهان الدين البقاعي "نظم الدور" (٨ / ٤٥٣)، وغيرها.

^٤ - انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (١٦ / ٤٦٨)، والألوسي "روح المعاني" (٢٨١، ١٦ / ٢٨٢)، وأبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٨٧٨، ٥ / ٨٧٩)، أما الحديث فقد رواه البخاري رقم (٦١٦٨) عن عبد الله بن مسعود، ورواه مسلم (٢٦٤٠) عن عبد الله أيضاً.

وهو من عطف الجمل كلام مبتدأ به، إذ لما نفى القلى بـشُر بأن آخرته خير من أولاه، وأن عاقبته أحسن من بدآته، وأن الله خاتم له بأفضل مما قد أعطاه في الدنيا والآخرة. يقول الطاهر بن عاشور^(١) ما حاصله: والتعريف في «وَلَلْآخِرَةُ» و«الْأُولَى» يؤذن بالعموم الذي يشمل استمرار الخير كله للنبي ﷺ ومنه استمرار الوحي.

وتعبير الآخرة غلب في اصطلاح القرآن الكريم على الحياة الآخرة والدار الآخرة، كما غلب لفظ الدنيا على حياة الناس هذه التي قبل انخرام هذا العالم، ومقصودنا من ذكر ذلك، ما أكرم الله به نبيه، وأثنى عليه به من أن المراد من كلا اللفظين كلا معنييه وهما: المعنى الأول: أن الحياة الآخرة خير له من هذه الحياة العاجلة؛ تبشيراً له بالخيرات الأبدية.

المعنى الثاني: الإيحاء إلى أن عودة الوحي عليه هذه المرة خير مما سبق، وتكفل الله تعالى له بأن لا ينقطع عنه نزول الوحي من بعد.

ثم يشير إلى الأمرين معاً فيقول: فاللام في «وَلَلْآخِرَةُ» و«الْأُولَى» لام الجنس، أي كل أجل أمره هو خير من عاجله في هذه الدنيا وفي الأخرى.

والكلام يشير إلى معاني ثناء الله على رسوله ﷺ تصریحاً واستنباطاً من الكلام الكريم إلا أن السياق يقتضينا أن نلمح إلى أن حمل الكلام على الدنيا أولى وإن كان العموم كما قال يشمل الآخرة؛ وذلك لما يأتي:

أولاً: أن المشركين مخاطبين بالقرآن، وهم لا يؤمنون بالآخرة كما هو معلوم من

^١ - انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٣٠٠ / ٣٩٧).

حجاجهم للنبي ﷺ، فكان مواجعتهم بما سيرونه في الدنيا أولى من أن يقال سترون في الآخرة مصداق ذلك.

ثانياً: أن الفاء في ﴿ فَتَرَضَى ﴾ في قوله تعالى ﴿ وَأَسْوَفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضحى: ٥] للتعقيب، مما يفيد تأييد النبي ﷺ المباشر بهذه البشريات، وذلك أقرب أن يكون في الدنيا، مع التصديق بوقوع ذلك في الآخرة بلا شك.

ثالثاً: كان في قوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَى ﴾ فقد ذكرنا أن ذلك يشير إلى أن نزول الوحي عليه هذه المرة يشبه الإشراق وانبلاج النور وفشوه، ومجيء الصبح المضيء للكون، وذلك في الدنيا.

وعلى أية حال فقد جمع له ربه سبحانه الخير في العاجل والآجل، وبشره بوقوع ذلك ليراه المكذبون على أعينهم في حياتهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

وتستمر المعاني الجميلة تتدفق من الآية تبين رفعة مكانته ﷺ وذلك ما نراه في قوله: ﴿ لَكَ ﴾ حيث اللام هنا هي لام الاختصاص، أي خير مختص بك^(١)، وهو شامل لكل ما له تعلق بنفس النبي ﷺ، فهو ثناء بالغ عليه، وفي ذاته، فكل شيء متعلق بذاته المشرفة في ازدياد من الخير، وكذلك دينه، وفي أمته أيضاً، أي هو في نفس الوقت وعد لا يتخلف من الله - جل وعلا- بأن ينشر دين الإسلام، وأن يمكن أمته من الخيرات التي يأملها النبي

^١ - قال الألوسي: "والاختصاص الذي تقتضيه اللام قيل: إضافي على معنى اختصاصه - عليه الصلاة والسلام - بخيرية الآخرة دون من آذاه وشمته بتأخير الوحي عنه ﷺ ولا مانع من عمومه لجميع الفائزين، كيف وقد علم بالضرورة أن الخير المعد له - عليه الصلاة والسلام - خير من المعد لغيره على الإطلاق، ويكفي في ذلك اختصاص المقام لمحمود به ﷺ على أن اختصاص اللام ليس قصرًا كما قرر في موضعه". روح المعاني (١٦/٢٨٥)

- صلوات الله وسلامه عليه - لهم، وقد تحقق ذلك، فقد ورد أنه عُرِضَ عليه ما سيفتح الله على أمته من بعده فَسَّرَهُ ذلك^(١)، فكان عطاء الله له، وفضله عليه عظيماً، فجاءت الآية التالية لتجلي هذا العطاء، وتبرز ذلك الفضل من الله - جل وعلا - للنبي - عليه الصلاة والسلام - حيث تبين قيمة الفضل درجة المتفضل عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] ، والواو للعطف على جملة القسم، وحرف الاستقبال لإفادة أن هذا العطاء الموعود به مستمر لا ينقطع، كما سنعود إليه في سورة الليل في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ٢٣].

ونلاحظ على معاني الآية ما يلي:

• حذف المفعول الثاني لـ ﴿يُعْطِيكَ﴾ يشعر بعموم العطاء له ﷺ، أي أنه سيعطيه كل ما يريه من خير، فأفادت الجملة هنا تعميم العطاء، كما أفادت التي قبلها عموم الأزمنة، وهذا الخير لنفسه ولا يكمل إلا بخير أمته ودينه - عليه الصلاة والسلام -^(٢) فهو عطاء من كل شيء في كل الأزمنة، وقد جمعت الآية بين حرف التوكيد، وهو لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والتأخير في سوف ليدل على أن العطاء كائن لا محالة^(٣)، وإن تراخى لحكمة فزاد هذا العطاء، علاوة على أنه مستمر لا ينقطع، كونه لا محالة في وقوعه.

وما يُعبر بهذه التعبيرات البليغة إلا لكون النبي ﷺ في الدرجة العليا من الشاء والرفعة، وفي المكانة التي لم نسمع بمثلها لأحد.

^١ - انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١٩٧، ١٩٨ / ٣٠).

^٢ - انظر السابق.

^٣ - انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (١٦ / ٤٧٣)، والبيضاوي "أنوار التنزيل" (٥ / ٥٠٢)، وأبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٥ / ٨٧٩).

• وترتفع وتيرة الفضل، وحسن العطاء، ليجيء التعبير بفاء التعقيب في ﴿فَرَضَى﴾ لتفيد كون هذا العطاء عاجل النفع، بحيث يحصل به رضا المعطى، فلا يتقرب أن يحصل نفعه بعد تربص^(١).

• رأينا قوله: ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ بإضافة رب دون اسم "الله" العلم إلى ضميره ﷺ لما يؤذن به لفظ الرب من الرأفة واللفظ، وللتوسل بإضافته إلى ضمير المخاطب، وهو النبي ﷺ للإشعار بعنانيته برسوله، وتشريفه بإضافة "رب" إلى ضميره.

أما هذا العطاء الذي وعد الله رسوله ﷺ به فقد خاض المفسرون والمؤرخون وغيرهم فيه، وما اجتمعوا إلا على أن عطاء الله هذا لنبيه ﷺ قد تحقق كاملاً، ووقع مصداقاً لما أخبر به، أقر بذلك الكافرون والمسلمون.

فما هذا الذي أعطيه - صلوات الله وسلامه عليه - لقد أعطى عدة كريمة شاملة لما أعطاه الله ﷻ في الدنيا من كمال النفس، وعلوم الأولين والآخرين، وظهور أمره بالظفر والنصر على أعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وإعلاء الدين بالفتوح الواقعة في عصره ﷺ وفي أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من الملوك الإسلامية، وفشو الدعوة والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، علاوة على ما ادخر له في الآخرة من الكرامات التي لا يعلمها إلا هو ﷻ.

ونأتي في نهاية الكلام على هذه الآيات من السورة التي تختص بما نحن بصدده من الشناء على النبي ﷺ إلى مقارنتها بما سبق من الآيات التي تثني على النبي ﷺ وتمدحه، لتتضح بقية جوانب هذا البحث، ذلك الترتيب الزمني الذي تسلم كل سلسلة فيه إلى ما يليها في

^١ - انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٣٩٨ / ٣٠).

تناسق بديع، يجعل من المقارنة هنا مجالاً لاستنباط معانٍ جديدة ومهمة في إبراز جدية البحث وجدته.

فتقارن ما نزل في سورة القلم الذي سبق ذكره بما في سورة الضحى التي وقفنا عندها آنفاً، وأول ما يتبدى من المقارنة هو أن أول ما نزل على النبي ﷺ من الشفاء، ذلك الشفاء العظيم في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤] في سورة القلم، فإذا ما قارنناه بقول في سورة الضحى بقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى:٣] نرى التناسب الذي ينبني بعضه على بعض، فلا يعقل أن يقال له إنك أعلى صاحب خلق وأعظمه، ثم يقال له: لقد ودعك ربك وأبغضك، فكانت الأولى دليلاً على بعد الثانية عقلاً وواقعاً.

المبحث الأول

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

وإذا كنا قد اختصرنا الشاء عليه، فقد آن الأوان لذكر حقوقه أو واجبات المؤمنين تجاهه - صلى الله عليه وسلم - ، فمن الواجبات التي تجب له ﷺ ، والتي أناطها الله تعالى بالمؤمنين للنبي صلوات الله وسلامه عليه الصلاة عليه ﷺ ، حقوق تبين عظيم قدره عند الله تعالى، وقد أمر بها المؤمنون في الآيات المتأخرة النازلة في سورة الأحزاب بعد الهجرة بزمن غير قصير، وهذا يوضح ردًا آخر على ما كنا بصدده في سورة الضحى من البغض والقلبي، إذ كيف يتأتى بعد البغض الأمر من الله تعالى بالصلاة عليه، تعبيرًا عن رفع درجته وعلو منزلته وبعد مكانته، وأنه في ازدياد من معاني التشریف والتبجيل، حتى وصلت إلى هذه الدرجة، وأعلى منها فيما بعد، وإن كانت الآيات الأولى في التشريع تشير بوضوح إلى أن درجته عظمى من بداية البعثة، كما ثبت في آية ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤١ ﴾ [سورة القلم: ٤] .

وكيف يخبر الله تعالى الخبر الصادق بأنه وملائكته يصلون على النبي ﷺ ، وهناك أدنى شائبة تشوب فعله، أو قوله، أو أخلاقه في الظاهر أو الباطن.

والآية الواردة في ذلك هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ونحلل الآية لنرى ما تحوي من معان تستوقفنا، تمس مسًا رقيقًا شغاف القلب بها له

ﷺ من المنزلة السابقة، وتنبه العقل إلى تصحيح تلك المفاهيم عن قيمة هذا النبي ﷺ ومرتبته السامية عند الله على جميع البشرية، وهي مفاهيم في حاجة إلى تصحيح عند المسلمين قبل غيرهم، إظهاراً لمكانته المشرفة، والتي تفانى المؤمنون الأول في بذل نفوسهم فداء لها من قبل أن يفرض عليهم شيء وما ذلك إلا لمحبتهم له، وتقديمه على أولادهم وأنفسهم وأموالهم.

ونعود إلى تحليل الآية ونلاحظ:

أولاً: أن مقصود الآية هو جملة: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ وأن ما قبلها توطئة وتمهيد لها؛ لأن الله لما حذّر المؤمنين من كل ما يؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام^(١) أعقبه بأن ذلك ليس هو أقصى حظهم من معاملة رسولهم أن يتركوا أذاه، بل حظهم أكبر من ذلك وهو أن يصلوا عليه ويسلموا، وذلك هو إكرامهم الرسول عليه الصلاة والسلام فيما بينهم وبين ربهم، فهو يدل على وجوب إكرامه في أقوالهم وأفعالهم بحضرة بدلالة فحوى الخطاب^(٢).

ثانياً: أن الآية بينت دوام صلاة الله وملائكته على النبي ﷺ، وثباتها وقتاً بعد وقت، وقراءتنا للآية الآن وقراءتها إلى أن تقوم الساعة دليل على استمرار هذا التشريف العظيم الذي ينبغي التدقيق في فهمه من الآية، وذلك أن الجملة الاسمية دالة على الدوام والاستمرار، وصدر الآية جملة اسمية، وأن الجملة الفعلية تفيد التجدد، وعجز الآية جملة فعلية، فأفادت الآية الأمرين معاً، فيكون مفادها استمرار الصلاة وتجدها وقتاً فوقتاً، وتقوى ذلك وتؤكد تأكيداً لا مرية فيه بـ ﴿إِنَّ﴾ وذلك للاعتناء بشأن الخبر، وهذا لم يحدث

^١ - في قوله: "وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً".

^٢ - انظر ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٢/٩٧).

لأحد من قبل من الأنبياء والمرسلين أن يخبر الله تعالى بقرآن يتلى إلى يوم القيامة، أن الله وملائكته يصلون عليه! وهذا من التشريف العظيم الذي لم يعهد له نظير.

ثالثاً: وقيل ﴿وَمَلَيْكَتَهُ﴾ ولم يقل الملائكة إشارة إلى عظيم قدرهم ومزيد شرفهم بإضافتهم إلى لفظ الجلالة، وذلك مستلزم لتعظيمه ﷺ حيث إن العظيم لا يصدر منه إلا العظيم، ثم فيه التنبيه على كثرتهم، وأن الصلاة من هذا الجمع الكثير الذي لا يحيط بمنتهاه غير خالقه واصله إليه ﷺ على مر الأيام والدهور مع تجددتها كل وقت وحين، وهذا أبلغ تعظيم وأبهاه وأشمله وأكمله وأزكاه.^(١)

رابعاً: أن الآية عبر فيها بالنبي، ولم يقل على محمد كما وقع لغيره من الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم كقوله لآدم: ﴿يَتَقَادِمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، و ﴿يَنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾ [هود: ٤٨]، ولما ذكر النبي ﷺ مع الخليل ذكر الخليل باسمه وذكر رسول الله بلقبه فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وهذه فضيلة عظيمة قد نوه العلماء بذكرها وشرفها وجعلها من المراتب العلية.

والألف واللام في لفظ النبي يحتمل أن تكون للعهد فقد تقدم ذكر النبي ﷺ من قبل، ولكن الأولى أن تكون للغلبة كالمدينة والكتاب لما أشعر به اللفظ من الفضل والمزية فكأنه هو المعروف الحقيقي به المقدم على سائر الأنبياء.^(٢)

خامساً: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَيْكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ مع قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ

^١ - انظر السخاوي "القول البديع" (٣٥-٣٦)، والألوسي "روح المعاني" (١٠٨/١٢)، وابن عاشور "التحرير والتنوير" (٩٧/٢٢).

^٢ - انظر شمس الدين السخاوي "القول البديع" (٣٧)، والألوسي "روح المعاني" (١٠٨/٢٢).

ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴿١﴾ إخبار من الله لعباده بمنزلة نبيه ﷺ عنده في الملائكة الأعلى إذ يثني عليه، والملائكة المقربون يصلون عليه، ثم أمر أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً، فأهل السماء ومؤمنو الأرض مجتمعون على الصلاة عليه ﷺ، وهذا من جليل الشرف ورفيع الدرجة التي له والتي لم تكتمل لغيره عليه الصلاة والسلام، والتي لم يصل إليها سواه، يقول الإمام السخاوي: وغاية مطلوب الأولين والآخرين صلاة واحدة من الله تعالى، وأنى لهم بذلك، بل لو قيل للعاقل أيهما أحب إليك أن تكون أعمال جميع الخلائق في صحيفتك أو صلاة من الله تعالى عليك لما اختار غير الصلاة من الله تعالى، فما ظنك بمن يصلي عليه ربنا سبحانه وجميع ملائكته على الدوام والاستمرار فكيف يحسن بالمؤمن أن لا يكثر من الصلاة عليه، أو يغفل عن ذلك .
قاله الفكهاني.^(١)

سادساً: يأتي السؤال مستكملين به معنى الآية فهما وتحليلاً، ليوضح ما أشرنا إليه من تشریف النبي ﷺ ودرجته العالية وهو ما معنى الصلاة على النبي؟ سواء كانت من الله تعالى أو من ملائكته أو من المؤمنين، وكذا التسليم وعلاقته بالصلاة؟

أما معنى الصلاة لغة فقد ذكر الأصبهاني في "المفردات"^(٢) أن كثيراً من أهل اللغة قالوا إنها: الدعاء والتبريك والتمجيد، وهو يجمع ما ذكره العلماء والمفسرون من كونها الدعاء والثناء والرحمة^(٣)، وإظهار الشرف وتعظيم الشأن^(٤)، وإشاعة الذكر الجميل له^(٥).

^١ - شمس الدين السخاوي "القول البديع" (٣٥-٣٦).

^٢ - الحسين بن محمد الأصبهاني "المفردات في غريب القرآن".

^٣ - انظر الألوسي "روح المعاني" (٢٢/١٠٩)، ابن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن (٢٠/٣٢٠).

^٤ - ذكره البيضاوي عبد الله بن عمر "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" (٤/٣٨٥).

وهذا كله قد اجتمع للنبي ﷺ في الدارين، في الأولى والآخرة يقول الإمام الألويسي:
واختلفوا في معنى الصلاة من الله تعالى وملائكته عليهم السلام على نبيه على أقوال، فقيل:
هي منه ﷺ ثناؤه عليه عند ملائكته وتعظيمه، ورواه البخاري عن أبي العالية وغيره عن
الربيع بن أنس، وجرى عليه الحلبي في شعب الإيمان، وتعظيمه إياه في الدنيا بإعلاء ذكره،
وإظهار دينه، وإبقاء العمل بشريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته، وإجزال أجره ومثوبته،
وإبداء فضله للأولين والآخرين بالمقام المحمود، وتقديمه على كافة المقربين الشهود،
وتفسيرها بذلك لا ينافي عطف غيره عليه كالأل والأصحاب عليه؟ لأن تعظيم كل أحد
بحسب ما يليق به.^(٣)

والمعنى الثاني لصلاة الله تعالى على نبيه ﷺ هو الرحمة كما ذهب إليه جمع من أهل
العلم^(٤)، وبتدقيق النظر في هذا الاختيار الأول وجدناه الأصوب حيث رأينا بالفعل فروقاً
كثيرة بين الصلاة والرحمة - كما ذهب إلى ذلك جمع من المحققين - مما يشي بتقوية القول
الأول، وحسن دليله ورجحانه، ونذكر بعض الأدلة على أن الصلاة ليست الرحمة فمنها:

الأول: أن الله تعالى فرق بين الصلاة والرحمة كما في قوله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْتَمَرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] حيث عطف الرحمة على الصلاة، فاقتضى ذلك تغايرهما، وهذا أصل العطف.

^١ - انظر الحسين بن مسعود البغوي "معالم التنزيل" (١/٣٦٠).

^٢ - الألويسي "روح المعاني" (٢٢/١٠٩).

^٣ - السابق، وقد ذكر الإمام ابن القيم أنه قد ذهب إلى هذا القول الضحاك والمبرد وهو القول المعروف عند كثير من المتأخرين، وأضاف الألويسي ابن الأعرابي، وهو اختيار الماوردي.

الثاني: أن رحمته سبحانه وسعت كل شيء، أما صلاته فهي خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، فليست الصلاة إذن مرادفة للرحمة، لكن الرحمة ثمرة من ثمرات الصلاة، ولازم من لوازمها، وهذا كثيرًا ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن، وألفاظ الرسول ﷺ، حيث تفسر اللفظة بلازمها وجزء معناها، كتفسير الريب بالشك، والشك جزء مسمى الريب، وتفسير المغفرة بالستر، ونظائر ذلك كثيرة.

الثالث: أن الصلاة لا تعرف في اللغة الأصلية بمعنى الرحمة أصلاً، والمعروف عند العرب من معناها إنما هو الدعاء والتبريك والثناء، قال الشاعر:

وإن ذُكِرْتَ صَلَّى عَلَيْهَا وَرَمَزَ مَا

أي: بَرَكَ عَلَيْهَا ومدحها، ولا تعرف العرب قَطُّ "صلى عليه" بمعنى الرحمة؛ فالواجب حمل اللفظة على معناها المتعارف في اللغة.

الرابع: أن أكثر المواضع التي تستعمل فيها الرحمة لا يحسن أن تقع فيها الصلاة، كقوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقوله ﷺ عن ربه: "إن رحمتي سبقت غضبي"^(١).

وقوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقوله: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقول النبي ﷺ: "لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها"^(٢).

^١ - أخرجه البخاري (١٣/٣٢٥) في التوحيد: باب قول الله "ويحذرکم الله نفسه"، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ؓ.

فمواضع استعمال الرحمة في حق الله تعالى، وفي حق العباد لا يحسن استعمال الصلاة في أكثرها، ومن ثم لا يصح تفسير الصلاة بالرحمة.

وَصَحَّتْ هَذِهِ الْأَدْلَةُ كَمَا هُوَ مُبِينٌ إِذَا أَنْ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ هُوَ الَّذِي يُصَارُ إِلَيْهِ وَيَعْتَمَدُ فِي التَّفْسِيرِ عَلَيْهِ، وَلَا نَدْعِي أَنَّهُ الْقَوْلُ الْأَوْحَدُ، إِذْ ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ لِمَا رَأَوْا وَتَحَقَّقُوا مِنْ كَوْنِ هَذَا التَّفْسِيرِ هُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى رُوحِ الْمَعْنَى، وَالْأَوْفَقُ بظَاهِرِ النَّصِّ إِلَى أَنْ يُوَفَّقُوا بَيْنَهُمَا^(١)، يُجْعَلُ الصَّلَاةُ هُنَا الرَّحْمَةَ لَكِنْهَا رَحْمَةٌ خَاصَّةٌ لِثِقَةِ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَفِي هَذَا يَقُولُ ابْنُ حَجْرٍ الْهِتَمِي مَا مَلَخَصَهُ: وَأَنْ مَالَ هَذَا الْقَوْلُ وَالَّذِي قَبْلَهُ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَالتَّخَالَفُ بَيْنَهُمَا إِنَّمَا هُوَ فِي اللَّفْظِ فَقَطْ؛ إِذْ لَا يَسَعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ صَلَاةَ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّهِ أَوْ رَحْمَتَهُ لَهُ بِمَعْنَى صَلَاتِهِ عَلَى بَقِيَّةِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ رَحْمَتِهِ لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْقَدْرَ اللَّاتِقَ بِهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ أَرْفَعُ مِمَّا يَلِيْقُ بغيره، فَالرَّحْمَةُ وَإِنْ شَمِلَتْ الْأُمْرَيْنِ لَكِنْهَا بِالنِّسْبَةِ لِلْأَنْبِيَاءِ أَجَلٌ وَأَرْفَعُ، وَهَذَا الْأَجَلُ الْأَرْفَعُ فِيهِ مِنَ الْخُصُوصِ مَا لَيْسَ فِي مَطْلُوقِ الرَّحْمَةِ فَخُصَّ بِاسْمِ الصَّلَاةِ، وَخُصَّ اسْمُهَا بِاسْتِعْمَالِهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ تَمْيِيزًا لَهُمْ، وَتَنْوِيهًا لِشَرْفِهِ وَشَرَفِهِمْ.

ويستكمل ابن حجر القول بأنه رأى "عياضًا القاضي" صرح بما ذكره نقلًا عن أبي بكر القشيري حيث يقول: الصلاة على النبي ﷺ تشريف له وزيادة تكرامة وعلى من دون النبي رحمة، وبهذا التقرير يظهر الفرق بين النبي ﷺ وبين سائر المؤمنين في أن الله وملائكته يصلون على النبي، مع قوله قبله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾.

ومن المعلوم أن القدر الذي يليق به ﷺ من ذلك أرفع مما يليق بغيره، والإجماع منعقد

^١ - أخرجه البخاري (٣٦١، ٣٦٠/١٠)، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب ؓ.

^٢ - انظر على سبيل المثال ابن حجر الهيثمي "الدر المنضود" (٢٥)، الألويسي "روح المعاني" (١٠٩-١١٠/٢٢) وغيرهما.

على أن في هذه الآية من تعظيم النبي ﷺ، والتنويه به ما ليس في غيرها. انتهى ملخصًا.^(١)

وهذا ما أشار إليه بعضهم بقوله: صلاة الله على خلقه خاصة وعامة، فهي على أنبياءه الشناء والتعظيم، وعلى غيرهم الرحمة فهي التي وسعت كل شيء.^(٢)

ذكرنا فيما سبق من حقوقه ﷺ - الصلاة والسلام - عليه حيًا وميتًا؛ وأن ذلك لتحصيل جزيل الثواب وعظيم الأجر، وكان هذا الحق سيرة أصحابه الكرام - حيًا وميتًا، وكذلك ديدن المؤمنين المتقين إلى يوم القيامة، وكان هذا الحق أثرًا من آثار محبته التي هي من محبة الله تعالى وقد شاع بين المؤمنين بسببه حينئذ تعظيم الرسول ﷺ واحترامه في ندائه وخطابه وجميع معاملات المؤمنين معه من قبل، ولكن كان لابد من توثيق هذه الحقوق والآداب، والتأكيد عليها، ليقوم بها الموجود وليعلمها من لم يعايشها، والمؤمنون من بعد، وكان ما ارتكبه جفاة الأعراب من وفد بني تميم من نداء الرسول ﷺ من وراء الحجرات سبب نزول هذه الآيات تحمل بيان تلك الآداب في سورة تسمت بذلك - سورة الحجرات - لتكون منشور تلك الأخلاق السامية إلى يوم الدين، وكانت هذه السورة من أواخر ما نزل إذ نزلت سنة تسع للهجرة، قرب ختام البعثة المحمدية لتكون دليلاً على علو درجة النبي ﷺ، وأن دنو لحوقه بالرفيق الأعلى لا يمنع من نزول قرآن يتلى، ويتردد على مسامع الخلق يؤكد صحة النبوة وصدق الرسالة في تبين الرب سبحانه لحقوق نبيه وخلودها، وإظهارًا لسمو منزلته، ورفعة مكانته، إذ لا يمكن أن تكون تلك التوجيهات لمن هم في عالم

^١ - ابن حجر الهيتمي "الدر المنضود" (٢٥-٢٧).

^٢ - ابن قيم الجوزية "جلاء الأفهام" (١٥٧) ط ٢ دار العروبة تحقيق عبد القادر وشعيب الأرنؤوط ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

الغيب إلا برهاناً على أنها من حكيم خبير، هو عالم الغيب والشهادة.
ونبدأ بعد هذا التقديم في تحليل تلك الآيات الكريبات لتوضيح ما احتوت عليه من
حقوق النبي ﷺ.

المبحث الثاني

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ^ط
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

أما الآية الأولى فقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١].

ونلاحظ ما يلي:

• افتتاح الآية الكريمة بالنداء، للتنبيه على أهمية ما يرد بعد ذلك النداء لترقبه أسماهم بشوق؛ لأن ما في حيزه أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم بشأنه، وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته، وهذا يدل على إجلال الله تعالى لنبيه ﷺ وعلو منزلته عنده إذ أحاط أوامره للمؤمنين عند إظهار حقوق النبي ﷺ بهذه الآداب فما بالك بالآداب معه ﷺ، لقد أمر الله تعالى المؤمنين بالقيام بحقوقه في صورة لم تك لأحد من العالمين، وهذا منتهى الفخر، وغاية الشرف.

• ووصف المخاطبين بوصف الإيمان؛ لتنشيطهم للمسارعة إلى الامتثال لهذا النهي، لأن وصفهم بالإيمان يؤذن بأنه داع للمحافظة على هذا الخطاب ووازع من الإخلال به، وأن ما يحملهم على المبادرة لذلك علامة إيمانهم، ومن ثم كان دليلاً على المحافظة والمسارعة للقيام بحقوقه ﷺ، وأنه كلما ازداد الإيمان، زاد التفاني في القيام بهذه الحقوق والمثابرة على التخلق بها في معاملتهم معه ﷺ، وفيه أعظم الدليل على أنه ما نقص حق القيام بواجباته إلا من نقص الإيمان، ولذا وجب على المؤمنين في هذه الأيام تفقد إيمانهم فيما يتعلق بالرسول

ﷺ إذ يخشى عليهم في هذه المحن أن يذهب إيمانهم لعدم المبالاة بحقوقه ﷺ، وله مزيد اتضاح عند قوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢٢].

أما قوله تعالى: ﴿لَا تَقْدِمُوا﴾ فقد جمع كل التقديم المناسب في حقه، إذ له ثلاثة معان:

الأول: لا تقدموا بمعنى لا تفعلوا التقديم كقولنا: فلان يعطي ويمنع، أي يفعل الإعطاء والمنع، ويكون ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل^(١) فيكونون منهيين أبداً عن فعل التقديم كائناً ما كان بين يديه ﷺ، خاصة وأن التقدم حقيقته المشي قبل الغير.

الثاني: لا تقدموا أمراً من الأمور، ويكون حذف المفعول للتعميم أي لا تقدموا أي أمر من قول أو فعل حتى تعلموا فيه حكم رسول الله ﷺ، فكأن المؤمنين مرتبطون برسول الله ﷺ لا ينفكون عنه في كل أحوالهم بخصوص الشرع وعمومه لأن ذلك هو فوزهم في الأولى والآخرة، لأنه كما بين بعد بأنه تقوى الله تعالى.

الثالث: بمعنى التقدم، ومنه مقدمة الجيش، وهو مضارع قدم القاصر لا مفعول له فكان بهذا الأدب قد جمع له المولى سبحانه ما ينبغي له من أدب المؤمنين كافة معه، وقصر عليه وحده هذه الآداب كافة، لأنه عليم من حال البشر أن ذلك لم يكن إلا له ﷺ وللأنبياء من بعده، وحسبك بذلك شرفاً وعلو قدر، يوحى هذا العلو من الشرف بأنه لا يعطيه إلا مالك الملك ﷺ، إذ لو كان وهب هذه المنازل السابقة لبشر - لكان أولى أن يلصقوها بأنفسهم، ويدعوها لذواتهم، ومع ذلك لا تلبث أن تفتنى أو تنسى بمضي أصحابها، ولكن انظر إلى بقائها مع رحيل النبي ﷺ بغير سلطان يفرضها أو حاكم يجبر الناس عليها، وما ذلك إلا لكونها الرسالة الصادقة، والنبوة الموحى بها من الله ﷻ.

١ - تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم) طبعة دار الفكر (٥/٦٠٧).

ويبين هذا قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، وإن المؤمنين لم يعرفوا مراد الله إلا من جهة الرسول ﷺ، ويكون المعنى: لا تقدموا بين يدي رسول الله ﷺ وإنما ذكر قبله اسم الله للتنبية على أن التقديم بين يديه ﷺ إنما هو تقديم بين يدي الله تعالى، وتهجين هذا الفعل واستقباحه وهو أن تفعل بين يدي المعظم ما تقدم به فعلك أو قولك.

ويكون المقصود من الآية النهي عن إبرام شيء دون إذن من رسول الله ﷺ نفسه، ويحصل معنى آخر وهو الأمر باتباع رسول الله ﷺ في كل أمر من أمور المؤمن، ولا ينفرد عنه، وهو ما يبرهن عليه التركيب، إذ هو تمثيل بتشبيه حال من يفعل فعلاً دون إذن من الله ورسوله ﷺ بحال من يتقدم مماشيه في مشيه ويتركه خلفه، ووجه الشبه الانفراد عنه في الطريق، فهو أدب إذا باق إلى نهاية الدنيا مع النبي ﷺ.

ولا بأس من ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريهات أولاً: لبرهن به على ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ في التنافس على اتباع تعاليمه والتأدب بأحسن الأدب معه ليكون في ذلك قدوة للمصدقين بنبوة النبي ﷺ المؤمنين به، وعلامة بارزة على أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك طاعة لله ﷻ، عندما صدقوا بنبوة الرسول ﷺ، وأيقنوا بصحة الوحي وصدقه إليه ﷺ وهو ما يدل على أنه رسول الله حقاً. ثانياً: لنمهد به للأدب الثاني وهو عدم رفع الصوت عنده وهذا السبب لنزول الآية له شقان:

الأول: المتعلق بالأعراب من بني تميم الذين نزلت الآيات لترشدهم مع التوبيخ إلى أصول الأدب مع الرسول ﷺ.

الثاني: وهو المتعلق بالخيرين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وسنقتصر على ما رواه البخاري في صحيحه؛ لأنه أيا ما كان السبب فهو يدور حول أدب التعامل مع النبي ﷺ، والتحذير الشديد من مخالفة ذلك، روى البخاري بسنده إلى ابن

الزبير رضي الله عنه قال: "قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر: أمر عليهم القعقاع بن معبد بن زرارة، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي (أو إلى خلافي)، قال عمر: ما أردت خلافاً أو إلى خلافاً فتهازياً حتى ارتفعت أصواتها في ذلك فنزل: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الحجرات: ١٠٢، ١٠٣].

جعلت هذه الآية توطئة للنهي عن رفع الأصوات عند رسول الله، والجهر بالقول، وندائه من وراء الحجرات؛ لأن من خصه الله تعالى بهذه الخطوة والمرتبة العالية من جعل إبرام العمل بدون أمره كإبرامه بدون أمر الله حقيق بالتهيب والإجلال أن يخفض الصوت عنده.

ومن ثم جعلت هذه الآية في صدر السورة مقدمة على توبيخ وفد من بني تميم حين نادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات حيث ذلك من قبيل رفع الصوت عنده، وإن ممارسة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كانت في نفس قصة بني تميم فكانت الآية تمهيداً لقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾^(١)

وباستكمال تحليل الآية الكريمة نصل إلى ختامها في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

أما العطف في قوله ﴿وَاتَّقُوا﴾ فهو تكملة للنهي عن التقدم بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ليدل

١- انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٥/٦٠٧)، والطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٦/٢١٧)، والفخر الرازي "التفسير الكبير" كل ذلك بتصرف.

على أن ترك إبرام شيء دون إذن الرسول ﷺ من تقوى الله وحده، وأن ضده ليس من التقوى، ليرد ذلك قول مدعي التقوى اليوم، وأنها في القلب يريدون بذلك هدم الإسلام بالتحلل من اتباع النبي ﷺ والتزام تعاليمه والافتداء به، فيه الرد إذاً عليهم بأن ما فيه (هم) مضاد للتقوى، وهم ليسوا منها في شيء.

وكانت جملة ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ في موضع العلة للنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتقوى الله^(١)، وهي كناية عن التحذير من المخالفة لكون الله تعالى سميعاً بما يقولون عليماً بما يدبرون من مخالفته ليرعوي ولينزجروا بذلك، ففي ذلك تأكيد للنهي والأمر.

وجاء الأدب الثاني الذي انتظمته الآيات الكرييات، وهو عدم رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ وذلك في مجلسه وحضرته إذا كلم بعضكم بعضاً.

وقد تحصل من هذا النهي معنى الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول الله ﷺ وكان الصحابة عنوان هذا الاحترام والأخذ بأحكامه، فما كان يفد أحد من البادية على رسول الله ﷺ، إلا نبهوه على هذا الأدب.

قال صفوان بن عسال^(٢) - في حديثه الطويل - : كنا مع النبي ﷺ في سفر، إذ ناداه أعرابي بصوت له جهورى: يا محمد فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته: هاؤم! فقلنا له: ويحك! أتغضض من صوتك، فإنك عند النبي ﷺ، وقد نهيت عن هذا...^(٣)

١ - التحرير والتنوير (ابن عاشور) الدار الجماهيرية، المجلد (٢٥-٢٦/٢١٩).

٢ - رواه الترمذى (٣٤٥٨)، وقال هذا حديث حسن صحيح، وقد اقتصرنا على موضع الشاهد.

ونعود إلى تحليل الآية:

• الآية في النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ بعد النهي عن التجاوز في القول والفعل، كأنه تفصيل لشيء من مفردات النهي الأول وضرب المثل له.

• وإعادة النداء مع قرب العهد بالنداء الأول للمبالغة في إيقاظ المؤمنين وتنبههم، مع إظهار الاهتمام بهذا الغرض الجديد، والإشعار باستقلال كل من الكلامين لأنه كان يمكن أن يكون السياق: لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ولا ترفعوا أصواتكم... ولكن حتى لا ينغمر الغرض الثاني في الأول، إذا هذا الثاني من آداب سلوك المؤمنين في معاملة النبي ﷺ، والتي تدل بدلالة الفحوى على ما هو أكد من المعاملات مع النبي صلوات الله وسلامه عليه من باب الأولى، لذلك أفرد بالتنبيه مرة أخرى^(١).

• وحقه ﷺ ألا يرفع عنده الصوت حيًّا ولا ميتًا، فكان عمر ﷺ يجر من يرفع صوته عند مقام النبي ﷺ تأدبًا بهذا الأدب، وسلوكًا لهذا الواجب وكذا لا يرفع الصوت على سنته ميتًا، فما دام قد تحقق من كون الأمر سنة من سنته فمن واجب التأدب أن يقول قول المؤمنين المتقين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].^(٢)

• والرفع مستعار لجهر الصوت جهراً يتجاوز معتاد الكلام، وهو إما من تشبيه جهر الصوت بإعلاء الجسم في أنه أشد بلوغاً إلى الأسماع كما أن إعلاء الجسم أوضح له في الإبصار، أو من تشبيه إلقاء الكلام بجهر قوي بإلقائه من مكان مرتفع كالمئذنة، فالأول على سبيل الاستعارة المكنية والثاني على طريقة الاستعارة التبعية.

١- انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم"، والطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٦/٢١٩).

٢- انظر ابن القيم "بدائع التفسير"،... وغيره.

ويكون قوله ﴿فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ترشيح لاستعارة ﴿لَا تَرْفَعُوا﴾ ، وهو فوق مجازي ويكون موقع قوله: ﴿فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ موقع الحال من أصواتكم، أي متجاوزة صوت النبي ﷺ أي متجاوزة المعتاد في جهر الأصوات إذ ذلك جهر النبي ﷺ ولا شك أنه نهي مخصوص بغير المواضع التي يؤمر فيها بالجهر، كالأذان وتكبير العيد، وما أذن فيه النبي ﷺ إذنا خاصا كإذنه للعباس يوم حنين^١ وهذا يدل على علو مكانة الرسول ﷺ إذ يأمر المولى ﷺ عباده بمراعاة النبي ﷺ، وحسن معاملته إلى درجة ألا يرفع أحد صوته عنده، فما بال المؤمنين المتقين بغير ذلك من الآداب، قد جمعت له كل وسائل الأدب إذأ على أكمل الوجوه واتمها ظاهراً وباطناً، حياً وميتاً، مرتبة عظيمة تلك التي أنبأنا الله تعالى عن رسوله ﷺ لم يبلغها أحد من الخلق طراً، والمقارنة بين ما أمر الله به، وبين ما وصلنا إليه في معاملتنا للرسول ﷺ مما يدعو إلى الأسى والحزن، والخوف من عقاب أليم ينزل لا يبقي ولا يذر، كما أكد سبحانه بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وإن نظرة لما هبطنا إليه في سلم العلو والحضارة ليخبرنا بالبون الشاسع بيننا وبين رسول الله ﷺ الذي كان الاقتداء به سبباً للعلو والمجد وانتشار الهداية والنور ورفع راية الحق والعدل، والرحمة والمساواة، والسمو المادي والأخلاقي الذي لم يعهد مثله من قبل.

إن ما سبق من الكلام في الأدب الثاني مع رسول الله ﷺ إنما كان بعدم رفع الصوت في مجلسه وحضرته، وبالتالي يأتي الأدب الواجب المتعلق بمكالمته ومشافهته إذ هذا لصيق الصلة بذلك، حيث كانت مجالسه مجالس الهداية والتعليم والإرشاد والرحمة ونزول السكينة وغيرها من سبل الرشاد مما يستدعي أن يخاطبه الصحابة رضوان الله عليهم سؤلاً

^١ - انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير"، (٢٦/٢٢٠).

واستفهامًا واستفتاءً واسترشادًا، هل ترك الله جل وعلا لهم مخاطبة النبي ﷺ بأي قول أو بأي هيئة بغير أن يبين لهم السلوك الواجب في ذلك تعظيمًا لأهبة النبوة وإظهارًا لعظم المكانة وتبجيلًا له ﷺ ليعلموا بخطابه أنهم يخاطبون المهيب العظيم المتدثر بالنبوة والذي تقديره وإعزازه من تقدير مرسله وتوقيره ﷺ؟ نعم بين لهم ذلك وأوضح لهم في نفس الوقت جزاء المخالفة لذلك وعاقبته المخزية في الأولى والآخرة هذه بداية حروف الأدب الواردة في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

بين هذا الجزء من الآية شقين من الكلام؛ الأول حقه ﷺ، والثاني العقاب المترتب على المخالفة والتقصير في هذا الحق.

لما عطف هذا النهي - عن الجهر - على الجهر بالصوت عند خطابهم الرسول ﷺ دل على أنه جهر آخر للتغاير بين مقتضى قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ومقتضى قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ﴾ خاصة وقد تعدى الفعل ﴿تَجْهَرُوا﴾ باللام في قوله ﴿لَهُ﴾ ، فدللت اللام هنا على أن هذا الجهر يتعلق بمخاطبته، وزاده وضوحًا التشبيه في قوله: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.^(١)

ومعنى الكلام المعظم: ولا تجهروا له بالقول إذا كلمتموه كالجهر الجاري فيما بينكم، بل اجعلوا صوتكم أخفض من صوته عليه الصلاة والسلام، وليس غض الصوت فقط هو المطلوب وإنما ما يدل عليه من الأدب في المحادثة كالتعهد في مخاطبته اللين القريب من الهمس، كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم، محافظة على مراعاة أهبة النبوة وجلالة

١- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٢١-٢٢٢/٢٦).

مقدارها.

وهذا ما يدلنا عليه تأكيد سابق في سورة النور لتوضيح هذا الأدب وهو في قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ حيث إن الآية ذكر لها المفسرون تفسيرين ما يعيننا هنا هو: اعتبار إضافة ﴿دُعَاءَ﴾ إلى ﴿الرَّسُولِ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله، المقدر الفاعل ضمير المخاطبين، والتقدير: لا تجعلوا دعاءكم الرسول، فالمعنى نهيهم أن يدعوا الرسول ﷺ كما يدعو بعضهم بعضًا، وقدرة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمسلمين، حيث الخطاب: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَفِذُونَكَ﴾، ليكون حثًا على تلقي هذه الجملة بنشاط فهم، فنهاهم أن يدعوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - عند مناداته كما يدعو بعضهم بعضًا في اللفظ أو في الهيئة؛ فأما في اللفظ فبأن لا يقولوا: يا محمد، أو يا ابن عبد المطلب، ولكن يا رسول الله، أو يا نبي الله، وأما في الهيئة فبأن لا يدعوه من وراء الحجرات، وأن لا يلحوا في دعائه إذا لم يخرج إليهم كما جاء في السورة التي معنا نتكلم فيها عن آداب مخاطبة النبي ﷺ، وهي سورة الحجرات. لأن كل هذه الأخلاق من الجلافة التي لا تليق بعظمة قدر الرسول ﷺ فهذا أدب المسلمين، وسد لأبواب الأذى عن المنافقين.^(١)

بيد أنه لا يسعنا مع ما وصلت إليه أحوال المسلمين اليوم إلا أن نشير إلى ما كان عليه أصحاب النبي ﷺ من الاستجابة لهذه التوجيهات والعمل بمقتضاها مسارعة لرضا الله تعالى، وتعظيمًا لأوامره، والتي تظهر أول ما تظهر في محبتهم لرسوله وتعظيمهم له ﷺ.

كان أول المسارعين إلى ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ونذكرهما بالذات أولاً لكونهما خاصة الخاصة عند رسول الله ﷺ، ولورود ذكرهما في أسباب نزول الآيات التي

١- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٣٠٩-٣١٠/١٨).

نحن بصدددها.

أما ما ورد عن أبي بكر رضي الله عنه فعن أبي هريرة: أن أبا بكر قال بعد نزول هذه الآية: «والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله». ^(١)

وزاد أنه رضي الله عنه كان يرسل إلى الوفود إذا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من يعلمهم كيف يسلمون، ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما عمر رضي الله عنه ففي صحيح البخاري: قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه. ^(٢)

وكان على هذا الأدب أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام حيث كان يأتي الأعرابي فيرفع صوته بحضرتة فيعلمونه ويرشدونه بقولهم اخفض صوتك إنك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. ^(٣)

مضى على تلك الأخلاق الحسنة الأجيال الفاضلة التي علت ودانت لها الدنيا، حتى ظهرت هذه الأخلاق الآثمة من الكفرة ومدعي الإسلام، تنتقص الرسول وتسيء إليه، وترفع صوتها فوق صوته، بل ترد قوله، وتمجد قول غيره وتعظمه وتنطق به، وتسير وراءه، وهنا مكنم الخطر، وموضع الزلل، وهو الشق الثاني في الآية الكريمة، الذي يبين عاقبة

^١ - رواه الحاكم (٣٧٢٠) وقال على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٢/٥٠١)، والبخاري (٤٥)، (١١٠)، والبيهقي (١٥٢٠) (٢/١٩٧)، انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٦/٢٢٠)، وأبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٥/٦٠٨).

^٢ - البخاري (٤٨٤٥)، (٦٨٧٢)، والترمذي (٣٢٠٩)، وأحمد (١٥٧٧٣)، (١٥٧٤٦)، وإرشاد العقل السليم، والتحرير والتنوير (المصدران السابقان).

^٣ - انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٣/٩٢).

الجهر له كالجهر لغيره بمعتاد القول، فكيف بما هو أشنع وأسوأ، وهو ما جلاه قوله تعالى:
﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(١).

وهذا العقاب الشديد معناه أن التقصير في هذا الأدب مع رسول الله ﷺ يؤدي إلى الكفر الذي تحبط به الأعمال، ومعنى كلام الله تعالى: أن الجهر بالقول له يفضي بكم إن لم تكفوا عنه أن تحبط أعمالكم، ويكون التقدير عند البصريين لا تجهروا له بالقول خشية أن تحبط أعمالكم، وتقدير الكوفيين بتقدير ﴿لَا﴾ النافية فيكون أن لا تحبط أعمالكم.^(٢)

والْحَبَطُ: تمثيل لعدم الانتفاع بالأعمال الصالحة بسبب ما يطرأ عليها من الكفر مأخوذ من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنخض بطونها واعتلت أو ربما هللت، وقد جاء في الحديث ما يدل عليه في قوله: (وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطاً أو يلثم)، ومنه قوله تعالى:
﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]^(٣).

ومما سبق يتضح شيء من المقصود من القيام بسلوك واجب الأدب، وحسن المعاملة التي تحقق بها الصحابة رضوان الله عليهم، خشية أن يحل عليهم عذاب الله أو تصيبهم الفتنة من الوقوع فيما يجرجه ﷺ، فيغضب له الرب، فيعد لهم هذا السيئ من العذاب، ومن ثم جاء التحذير من الله لمن بعدهم إلى أن تقوم الساعة أن يقعوا في ذلك أو أن يتساهلوا فيه ويستمرئوه وأنهم إذا وقع منهم ذلك مهما كانت لهم من أعمال صالحة - يظنون - فإنها لن تجديهم نفعاً، بل هي هباء قد ذهب منشوراً، وهو حال الذين يزعمون اليوم أنهم مسلمون صادقون، فكيف بحال من يبطن الكفر ويدعي الإسلام، إن مآل إليه حال المسلمين اليوم

١- المفردات حَبِطَ، انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٦/٢٢١).

٢- الحديث البخاري (١٣٧٩).

ليدلنا على صحة الرسالة، وصدق النبوة إذ أخبر القرآن بذلك، وليس الكلام في إحباط الأعمال من شأن البشر، وما كان ليقال، ويخبر به إلا من لدن حكيم خبير، حيث لما ظهرت ما حذر منه من أسباب تؤدي إليه.

إن ظاهر الآية التحذير من حبط جميع الأعمال، لأن الجمع المضاف من صيغ العموم ولا يكون ذلك الحبط إلا في حالة الكفر، لأن من الأعمال الإيمان، فمعنى الآية: أن عدم الاحتراز من سوء الأدب مع النبي ﷺ بعد هذا النهي قد يفضي - بفاعله إلى إثم عظيم، يأتي على عظيم من صالحاته، أو يفضي به إلى الكفر.

قال ابن عطية في "المحرر الوجيز" أي يكون ذلك سبباً إلى الوحشة في نفوسكم فلا تزال معتقداتكم تتدرج القهقري حتى يؤول ذلك إلى الكفر فحبط الأعمال.

يقول الإمام ابن عاشور في "التحرير والتنوير" تعقيباً على كلام ابن عطية: لأن عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول ﷺ يعود النفس بالاسترسال فيه، فلا تزال تزداد منه، وينقص توقيير الرسول ﷺ من النفس، وتتولى من سيء إلى أشد منه حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه وذلك كفر، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ لأن المتنقل من سيء إلى أسوأ لا يشعر بأنه آخذ في التملّي من السوء بحكم التعود بالشيء قليلاً حتى تغمره المعاصي، وربما كان آخرها الكفر حين تضري النفس بالإقبال على ذلك.^(١)

على عكس ذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ يشعرون بالمخالفة اليسيرة ويستعظمونها، ويجزنون لوقوعها منهم حتى ولو بغير قصد وعمد؛ خوفاً من أن يتنزل عليهم غضبه، أو يحل عليهم عذابه، لذلك عظم الله قدرهم، ورفع منزلتهم وأثابهم أجزل

١- الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٢١-٢٢٢/٢٦).

المثوبة في الدنيا والآخرة، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، هذا ثابت بن قيس بن شماس - خطيب رسول الله ﷺ - وكان في أذنه قر و كان جهوري الصوت، لما نزلت هذه الآية افتقده النبي ﷺ فأخبر بشأنه فدعاه فسأله، فقال يا رسول الله: أنزلت عليك هذه الآية وأنا رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط، فقال له رسول الله ﷺ: «إنك تعيش بخير، وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة»^(١) وهكذا كانوا في عموم حالهم مع ربهم ورسولهم وقرآنهم ودينهم اعتقادًا وأخلاقًا وسلوكًا ودعوة.

تصديقًا لمثل ذلك، جاءت الآية التالية لما سبق تبيين عظيم البشريات وأجل العواقب لمن كان في سلوكه على مثل هذا النهج الحسن فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجرات: ٣].

ونحلل هذه الآية الكريمة نختم بها بعد الترهيب المخوف السابق، بالترغيب المطمئن للنفس، الباعث فيها لروح الرجاء الدافع بالمرء إلى أقصى درجات المحبة لرسول الله ﷺ، لتتفجر منه أقوى طاقات الاتباع والسلوك والافتداء والتأدب معه ﷺ، مع بذل النفس والمال، وهجرة الأهل والوطن لنصرته والذود عنه.

إن أول ما يصادفنا في الآية هو:

• افتتاحها بحرف التأكيد، فالكلام استئناف بياني لأن التحذير في قوله تعالى ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ يثير في النفس سؤالاً عن جزاء من حاله ضد هذه الحال المخزي الذي حبط عمله.

١- انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٥/٦٠٨)، وحديث ثابت ﷺ عند أبي يعلى (٣٨٤٦)، والطبراني (١٣٠٥) وهو حديث حسن.

• فجاء هذا الاستئناف بالتأكيد ب﴿أَنْ﴾ للاهتمام بمضمونه من الشناء عليهم وجزاء عملهم.

• وتفيد الجملة تعليل النهين ﴿لَا تَرْفَعُوا﴾ و﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾ بذكر الجزاء عن ضد المنهي عنها، وأكد هذا الاهتمام باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ مع ما في اسم الإشارة من البعد الدال على بعد مكانتهم وعلوها، والتنبيه على أن المشار إليهم جديرون بالخير المذكور بعد اسم الإشارة، لجل ما ذكر من وصفهم قبله.^(١)

• والغض حقيقته: خفض العين، أي لا يحقد بها إلى الشخص، وهو هنا مستعار لخفض الصوت والميل به إلى الإسرار، والامتحان: الاختبار والتجربة، وهو افتعال من محنة، إذا اختبره.

• واللام في قوله ﴿لِلتَّقْوَى﴾ لام العلة، أو لام الاختصاص، ويكون التقدير على الأولى: امتحن الله قلوبهم لأجل التقوى، لتكون فيها التقوى، فيكونون أتقياء، يقال: امتحن فلان للشيء الفلاني كما يقال: جرب للشيء، ودرب للنهوض بالأمر، أي فهو مضطلع به، فيكون قد صرّب قلوبهم بضروب المحن، والتكاليف الشاقة لأجل التقوى، فإنها لا تظهر إلا بالاصطبار عليها، وكل ذلك موافق لما عليه المتقون المحمودون في علاقتهم بالنبي ﷺ في كل زمان ومكان، صابرين على تكاليف التقوى يقومون بها بخالص المحبة متقبلين لتتائجها، لأن كل ذلك في رضا الله، ووقوع ذلك منهم يدل عليه جواز أن يجعل الامتحان كناية على تمكن التقوى من قلوبهم، وثباتهم عليها، بحيث لا يكونون في

١- انظر لما سبق أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٦٠٨-٦٠٩/٥)، الرازي "التفسير الكبير"، والطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٢٢-٢٢٣/٢٦).

حالٍ ما غير متقين، وهي كناية تلويحية لكون الانتقال بعدة لوازم وفي هذه المعاني درس المسلمين اليوم.

• ويجوز أن يجعل فعل ﴿أَمْتَحَنَ﴾ مجازاً مرسلًا عن العلم، أي علم الله أنهم متقون، وعليه تكون اللام من قوله ﴿لِلتَّقْوَى﴾ متعلقة بمحذوف حال من قلوب، أي كائنة للتقوى، فاللام للاختصاص وهو القول الثاني.

• أو هو سبحانه علم كون هذه القلوب مفعمة بالمحبة لرسوله تستحق ذلك بفضلها، فأخلصها للتقوى كامتحان الذهب لتمييز إبريزه من خبثه، وهذا من فضل الله تعالى ومنتته على أولئك المستجيبين لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم، ويكون فيه فوزهم في الآخرة، ورفع رايتهم في الدنيا.

• وجملة "لهم مغفرة وأجر عظيم" جعلت جزاء للغاضين أصواتهم، الملتزمين بالشرع المؤدب مع رسول الله ﷺ، في مقابل عقاب أولئك المنحرفين عنه المتعاملين معه على هذا الحال النكد، فهؤلاء لم يغفر لهم؛ لأنهم كفروا بذلك الفعل، وذلك شرع الله القائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤] وبالتالي حبط عملهم فلم يستفيدوا منه بشيء على عكس أولئك المؤمنين المتقين، حيث غفر لهم ما يمكن أن يفلت منهم من تقصير بمقتضى البشرية، وأثبوا على عملهم الصالح، وخص منه سلوك الأدب مع الرسول ﷺ بالأجر العظيم مبالغة في تقدير عملهم هذا وتنويهاً برفعة قدره، وعلو شأنه.

• والجملة ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ للمفسرين فيها إعرابان، الأول: أنها خبر إن، وذهب الزخشري إلى أن خبر أن هو اسم الإشارة مع خبره، وجعل جملة ﴿لَهُمْ﴾ مستأنفة.

فعلى القول الأول فإن ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ هو المقصود من هذا الاستئناف، وما بينها

اعتراض للتنويه بشأنه.

وفي القول الثاني نختم بكلام الزمخشري ذاته حيث يقول في "الكشاف": (وهذه الآية بنظمها الذي رتب عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسماً لـ ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة وتصيير خبرها من مبتدأ وخبر معرفتين معاً، والمبتدأ اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم، وإيراد الجزاء نكرة مبهمًا أمره؛ ناظرة في لدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله ﷺ، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله ﷺ وقدر شرف منزلته.)^(١)

وهذا الوعد والثناء يشملان ابتداء أبا بكر وعمر إذ كان كلاهما يكلم رسول الله ﷺ كأخي السرار^(٢)، والباقي كل حسب سلوك واجب الأدب معه ولا تعليق بعد هذا الكلام إلا بالأسى والحزن مرة أخرى لما وصل إليه حالنا، وما ينبغي للمؤمنين فيه من معاودة الكرة بالرجوع إن كانوا صادقين إلى محبته وسنته وتعظيم قدره، ورفع راية شريعته، ليعود إليهم مجدهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

١- الزمخشري محمود جار الله "الكشاف" (٦/٣٦٤).

٢- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٦/٢٢٣).

الفصل الثاني
في بيان ما كان عليه

عصمته

صلى الله عليه وسلم

المبحث الأول

معنى العصمة

والعصمة مما اختص الله تعالى رسوله ﷺ بها، كذلك الأنبياء من قبله، ونقصد بالعصمة: أن الله جل وعلا حفظه من المعاصي والسيئات صغيرها وكبيرها بعد البعثة، وحفظه أيضاً مما يكون سبباً للشين أو التنقص قبل البعثة، ألا يقع منه قبل البعثة ما يكون سبباً لازدرائه أو الوقوع في عرضه بأن يقال له بعد البعثة قد كنت تفعل هذا الذي تنهانا عنه الآن، وكذلك من كل ما يكون منفراً من قبول الدعوة عند أصحاب الطباع السليمة.

إن الرسول ﷺ لا بد أن يكون متميزاً عن من يدعوهم إلى الله تعالى، فهو يدعوهم إلى مكارم الأخلاق وأحسن الصفات، وصحيح الاعتقادات وجميل العبادات، فهو أسوتهم إذن في ذلك وقدوتهم في أقواله وأفعاله وأخلاقه، فلا يجوز أن يكون كذلك ويصدر عنه ما يخالف قوله أو فعله، مما يسقطه من أعينهم أو يقلل قيمته وشأنه في نظرهم، فيكون حائلاً عن وصول دعوة الحق إلى الناس، وصاداً لهم عنها، بدلاً من أن يكون هادياً لهم فيها معيناً لهم عليها، وهذا قادح في مرسله ﷺ - حاشا له - إن ذلك يناقض هدف الدعوة ومقصودها.

وقد أخذنا أنفسنا في أول الفصل بأن يكون الكلام على الرسول صلى الله عليه وسلم مما نزل به القرآن الكريم أي - رسول الله ﷺ في القرآن - ترجمة أمينة له لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، لما ذكرناه هناك من أسباب، فكذلك القول في العصمة.

وسوف نعالج موضوع عصمته ﷺ بطريقة مختلفة عن طريقة التقرير العادية للقضايا، بطريقة تعتمد على قراءة النصوص القرآنية كلها الواردة في الموضوع، والربط بينها لنخرج بنتيجة نطبقها من باب الأولى على النبي ﷺ وقد اخترنا قصة يوسف ﷺ لنقرأ نصوصها، وندرسها، ونقارن بينها وبين بقية النصوص، ثم نستخلص منها النتيجة التي تؤدي إليها، وحينها ندلل بها على عصمة ﷺ من باب الأولى بمقارنتها بما ورد فيها وفي غيرها من النصوص التي تشير إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

المبحث الثاني

عصمة الأنبياء

(قصة سيدنا يوسف عليه السلام)

وقد اختار الباحث قصة يوسف - عليه السلام - بعينها لكونها مما ثار حوله الأخذ والرد، والقبول والرفض، وأثيرت حوله الشبهات بين معارض للعصمة، وبين مدافع عنها، وبين مفصل فيها، ما يقبل وما يرد. والقصة مع ذلك غنية بالمواقف والمشاهد والمعاني، التي تصلح لدراسة النصوص ومقارنتها، وهذه هي الآيات التي تصور القصة نسوقها ونحللها مع بقية الآيات الكريبات التي لم نسقها.

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجَازِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٥﴾ وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢٦﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ؕ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٧﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ؕ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي ؕ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣٠﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيِّدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿١٣١﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿١٣٢﴾ * وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٣٣﴾ ﴿يوسف: ٢٢-٣٠﴾ إلى آخر الآيات التي ستعرض لها بمشيئة الله.

أطلت في نقل تلك الآيات وإن اقتصرت عليها لتكون بداية دراسة حديث العصمة للأنبياء خاصة رسولنا محمد ﷺ، وهى من منهجنا الجديد فى البحث، وهو ذكر الأنبياء وما حدث لهم مع المقارنة بالنبي صلى الله عليه وسلم. ونبدأ بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي لما بلغ يوسف ﷺ منتهى اشتداد جسمه وقوته - أي ما بين الثلاثين والأربعين - آتيناه حكماً وعلماً وتنكيرهما للتفخيم من شأنهما أي حكماً وعلماً فخماً لا يقادر قدرهما إلا الله، والحكم هو العليم المؤيد بالعمل، أو حكماً بين الناس أو النبوة، وكل ذلك متحقق فيه ﷺ، وكذلك العلم هو التفقه العالى فى الدين^(١)، ويحسن هنا أن نشير إلى قول آخر للإمام الفخر الرازي فى المسألة الثالثة - فى تفسير الحكم والعلم أقوال:

القول الأول:

أن الحكم والحكمة أصلها حبس النفس عن هواها، ومنعها مما يشينها، فالمراد من الحكم الحكمة العملية، والمراد من العلم الحكمة النظرية، وإنما قدم الحكمة العملية هنا على النظرية، لأن أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية، ثم يترقون على الحكمة النظرية ... وهى طريقة يوسف ﷺ، لأنه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله عليه أبواب المكاشفات، فهذا السبب قال: ﴿ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.^(٢)

وكذلك هذا القول يبين مدى ما وصل إليه يوسف ﷺ من الحكمة والعلم الحافظين له عما يشين النفس، أو يعرضها للتهمة، أو يجعلها غرضاً لسهام النقد أو التنقص،

^١ - أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٣/٩٢).

^٢ - انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٩/٢٠). الناشر دار الغد العربي ط الأولى ١٤٩٢ هـ - ١٩٩٢ م، ويقول العلامة الطاهر بن عاشور: "والحكم والحكمة مترادفان، وهو: علم حقائق الأشياء والعمل بالصالح، واجتناب ضده" التحري والتنوير (١٢/٢٤٨).

ويدل لهذا القول وما سبقه قوله تعالى: "وكذلك نجزي المحسنين" وفيها معانٍ:

الأول: وصف يوسف عليه السلام بالإحسان، وإذ هو نبي فلا بد أن يكون في الدرجة العالية من الإحسان، لأن تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلية الإحسان له، وتنبية على أنه سبحانه إنما آتاه ما آتاه لكونه محسنًا في أعماله، متقيًا في عنفوان أمره.

الثاني: أن ذلك الإحسان جزاء على ما كان من يوسف في تحمل الشدائد والأحزان، والثبات على طاعة الله ومرضاته، واجتناب مساخطه وما يغضبه عليه السلام: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقد رأينا ذلك سجنه وشدته من نظرة السجناء معه عند طلبهم منه أن يؤول لهم الرؤيا بقولهم: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ عليه السلام، وهي شهادة من الكفرة له، بدون سابق معرفة إلا مطالعة محياه الطاهر عليه السلام.

الثالث: ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف للتشبيه، أي ومثل ذلك الجزاء العجيب نجزي كل من يحسن في عمله، حيث اسم الإشارة للبعيد دليل على بعد منزلة هذا الجزاء وعظمتها.^(١)

وذلك كله يوضح في ضمن ما سيذكر أن سيدنا يوسف عليه السلام كان في المنزلة الرفيعة من حفظ النفس ومرضاة الرب، وأن جزاء الله له محيط به يحفظه بحفظه، ويكلؤه بكلاءته. وذلك كله قبل ذكر مراودة امرأة العزيز له.

ولقد ذكرت سورة يوسف في الآيات المبكرة منها أن يوسف عليه السلام في محل اجتناب الله له واصطفائه إياه، من حيث قص رؤياه وهو غلام صغير على أبيه يعقوب عليهما السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْتَبِيكَ رُؤُوبًا وَيُعَلِّمُكَ مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيْمُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ

١- انظر الزمخشري "الكشاف" (٣/١٥٧)، البيضاوي "أنوار التنزيل" (٣/١٤٠)، أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٣/٩٢).

ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾ [يوسف: ٦٦].

وهذه الآية الكريمة تشتمل على محاسن من المعاني التي تشترك مع غيرها فيما بعد لتكون الصورة المشرقة عن عصمة النبي ﷺ، وعصمة الأنبياء عليهم السلام.

وأول ذلك: العناية الربانية بهؤلاء المصطفين الأخيار من صغرهم، وذلك في قوله تعالى.... وكذلك فالواو عاطفة لهذا الكلام على قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ إعلامًا ليوسف ﷺ بعلو قدره ومستقبل كماله، كي يزداد تمليًا من سمو الأخلاق، فيتسع صدره لاحتمال إخوته، صفيحًا عن غيرتهم وحسدتهم، وليكون كلام الأب نصحًا خالصًا تنفي عنه البغضاء ونحوها، وهي حكمة نبوية عظيمة، وطب روحاني ناجح، وقد أتى ذلك ثمرة كما هو يتضح من نهاية القصة في تعامل يوسف ﷺ مع إخوته.

والكاف للتشبيه، وهو ما يلفت النظر ويثير الانتباه، أي مثل هذا الاصطفاء الذي دلت عليه الرؤيا من العناية الربانية به يجتبيك ربك في المستقبل، والتشبيه هنا تشبيه تعليل لأنه تشبيه أحد المعلولين بالآخر لاتحاد العلة. وموقع الجار المجرور موقع المفعول المطلق لـ "يجتبيك" المبين لنوع الاجتباء ووجهه.

والاجتباء: هو الاختيار والاصطفاء، ومعنى ذلك أن الله قد اجتباه واختاره واصطفاه في صغره، وهو حال الأنبياء قبل البعثة؛ ليرشدنا ذلك إلى تحليل أحوالهم على هذا المنوال بعد البعثة.

ثاني ذلك: أن هذا الاجتباء والاصطفاء قبل البعثة، وتلك العناية الربانية دليل رفعة شأن في المستقبل وذلك يؤذن بنبوته، وإنما علم يعقوب ﷺ أن رفعة يوسف ﷺ في مستقبله رفعة إلهية لأنه علم أن نعم الله تعالى متناسبة فلما كان ما ابتدأه به من النعم اجتباء وكما لآ نفسيًا تعين أن يكون ما يلحق بها من نوعها.

ثالثه: أن هذا الاجتباء يتبعه لا شك ارتقاء نفسي من الواردات الإلهية إلى أن يصل إلى النبوة لأنه ذكر بعد ذلك: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ فهو في تدرج في هذه النعم إلى تمامها، وتمامها هو إعطاؤه أفضل النعم، وهي نعمة النبوة، مما يدل عند الكلام على مراودة امرأة العزيز أن يوسف عليه السلام في الترقى إلى الكمال، قد وصل منتهاها، هذا تحليل وسياق الآيات والواقع ليكون الباحث على ذكر من ذلك حال بحثه في آيات العصمة، ليرد مخالفها بهذا التحليل القاطع.

ويمكن أن يكون إتمام النعمة كذلك بضميمة الملك إلى النبوة والرسالة، فيكون المراد إتمام نعمة الاجتباء الأخرى بنعمة المجد الدينوي. ولذلك كان المعنى في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ إن كان المراد من إتمام النعمة النبوة فالتشبيه تام، وإن كان المراد من إتمام النعمة الملك فهو إتمام النعمة على الإطلاق فقد تمت كل النعم عليه عليه السلام فأنى يقع بعد ذلك فيما يتنزه عنه غيره ممن لم يصل إلى شيء من تلك النعم، وهو يمكن أن يعيش وأن يموت ولا يقع في شيء من تلك الرذائل.

رابع ذلك: وهو جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ولها تعلق كبير بما نحن بصدده إذ هي تذييل بتمجيد هذا النعم، وأنها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بهذه النفوس التي تصلح لهذه الفضائل، لأنه خلقها لقبول ذلك، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة، وذلك تعريض بالشأن على يوسف عليه السلام لعلم الله تعالى بكونه من هذه النفوس الصالحة التي يصلح لهذه النعم الكاملة وحكمته التي اقتضت وضع هذه النعم موضعها المناسب.

نعود إلى بداية الآيات التي بدأنا بها لنستكمل تحليلها، وهي من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۚ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

لما بلغ يوسف عليه السلام أشدة آتاه ربه سبحانه وتعالى العلم والحكمة، ووصل إلى أعلى

درجات الرقى الدينى والأخلاقى؛ بتعام تلك النعم عليه، وبدأ فصل جديد هو مراودة امرأة العزيز له عن نفسه.

ويبدأ هذا المقطع بمراودة امرأة العزيز ليوסף عليه السلام، وقد أوتي العلم والحكمة، وبلغ عنفوان الشباب والقوة، وهو في بيتها، وغلقت الأبواب، ونظر في هذه الآيات نظرة تحليلية دقيقة فاحصة لنرى ما يأتي:

أولاً: إن قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَلِكَةُ وَهُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ رجوع إلى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز بعدما أمر امرأته بإكرام مشواه، فكان قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ استطراد اعتراض بين الأمر بإكرام مشواه وبين المراودة جيء به أنموذجاً للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه عليه السلام من الفتن التي ستحكي بتفاصيلها له غاية جميلة، وعاقبة حميدة، وأنه عليه السلام محسن في جميع أعماله، لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء، ما يخل بنزاهته^(١)، إذ كيف يكون ذلك وملخص القصة في بدايتها التمكين والإنجاء، وبل التمكين البالغ المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا﴾ لأننا لو أجرينا اسم الإشارة على قياس كثير من أمثاله في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [سورة البقرة: ١٤٣]، كان التمكين المستفاد منه ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ تنويهاً بأن ذلك التمكين بلغ غاية ما يطلب من نوعه، بحيث لو أريد تشبيهه بتمكين أتم منه لما كان إلا يشبهه بنفسه بنحو قول النابغة:

والسفاهة كاسمها

فيكون الكاف في محل نصب على المفعول المطلق. والتقدير: مكنا ليوסף تمكيناً كذلك التمكين، وإن أجرينا اسم الإشارة على ما يحتمله اللفظ كان الحاصل هو المذكور

١- انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٣/٩٢).

أنفًا، وهو ما يفيد من الإنجاء العجيب له قبل ذلك من كيد إخوته، ومن إخراجه من الجب، أي مكنًا ليوسف تمكينًا من صنعنا مثل ذلك الإنجاء الذي نجيناه، فتكون الكاف في موضع الحال من مصدر مأخوذ من ﴿مَكَّنَا﴾، والتمكين هنا مراد به ابتدأه وتقدير أول أجزائه؛ لأنه بحلولة ﷺ محل العناية من عزيز مصر قد حُطَّ له مستقبل تمكينه في الأرض على الوجه الأتم الذي أشير له بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ .

وعطف على ﴿وَكَذَلِكَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وهي علة كذلك لهذا التمكين؛ لأن الله تعالى لما قدر في سابق علمه أن يجعل يوسف ﷺ عالمًا بتأويل الرؤيا، وأن يجعله نبيًا أنجاه من الهلاك، ومكن له في الأرض تهيئة لأسباب مراد الله تعالى^(١)، ثم بعد هذه العناية، وتحقيق ذلك التمكين، وذلك العلم وتلك الحكمة، يأتي هذا المجتبي بأمور الخيانة ومخالفة الرب، والوقوع فيما تنزه عن الوقوع فيه من ليسوا بهذه العناية من البشر العاديين وهذا ما يبابه السياق وينعى على عقول أصحابه، ويدفع أفكارهم.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ونلاحظ تقديم المراودة على تغلق الأبواب، والتهيؤ له، وطلب المبادرة منه؛ لأن المراودة هي المقصودة من إحكام إغلاق الأبواب والتهيؤ، والمراودة: مفاعلة مستعملة في تكرير المحاولة معه ﷺ من راد يرود، إذا جاء وذهب فشبه حال المحاول أحدًا على فعل شيء مكررًا ذلك بحال من يذهب ويحيى في المعاودة إلى الشيء المذهوب عنه، وكأنها أخذت تراوده، وتحاول معه.

١- انظر العلامة الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١٢/٢٤٦).

يقول العلامة ان عاشور: ﴿عَنْ﴾ للمجاززة، أي راودته مباحدة له عن نفسه، أي بأن يجعل نفسه لها. والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن، فالنفس هنا كناية عن غرض الواقعة، قاله ابن عطية، أي فالنفس أريد بها عفافها وتمكينها منه لما تريد والتعبير عن امرأة العزيز بطريق الموصولية في قوله تعالى: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ لقصد ما تؤذن به الصلة من تقرير عصمة يوسف عليه السلام لأن كونه في بيتها من شأنه أن يطوِّعه لمرادها.

﴿هَيْتَ لَكَ﴾ : اسم فعل أمر بمعنى بادر، واللام في ﴿لَكَ﴾ لزيادة البيان بالمقصود بالخطاب أي بادر أنت، وهَيْتُ لك أنت، كما في قولهم سقيا لك.

أشارت هذه العبارات إلى عصمة يوسف عليه السلام كما سبق من معنى السياق، وكذلك لم يكن منه بعد ذلك كله إلا أن قال ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وذلك ما نحلله في ثالثاً.

ثالثاً: قال معاذ الله: أي أعوذ عوداً بالله، وهو مصدر أضيف إلى اسم الجلالة إضافة المصدر إلى معموله، أي اعتصم بالله مما تحاولين، مما تدعينني إليه، وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله للخلاص منه^(١)، لأنه شيء في حد ذاته في غاية القبح والسوء، وأنه ممتنع عنه أشد الامتناع، وعلل ذلك الامتناع والاستعصام بتعليلين:

الأول: بقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ، وهذا من الكلام الموجه توجيهاً بليغاً حكي به كلام يوسف عليه السلام إما لأن يوسف عليه السلام أتى بمثل هذا التركيب في لغة القبط، وإما لأنه أتى بتركيبين لعُذْرَيْن لامتناعه فحكاهما القرآن بطريقة الإيجاز والتوجيه، وأيا ما كان فالكلام

١- انظر العلامة أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٩٣، ٩٤/٣).

تعليل لامتناعه، وتعريض بها في خيانة عهدها^(١)، وفيه عبرة عظيمة من العفاف والتقوى وعصمة الأنبياء، إذ يذكر هذه الموعظة في هذا الموقف الصعب، والمزلة الدحضة، مع الاعتصام بالله واللجوء إليه.

وكان هذا التعليل ببعض الأسباب الخارجية- بعد أن ذكرها بقبح الزنا وسوئه في ذاته- مما عسى أن يكون مؤثراً عندها وداعياً لها إلى اعتباره، والضمير للشأن كأنه قال إن الشأن الخطير هذا وهو ربي. على احتمال إنه خالقه، أو أنه العزيز، فإن كان العزيز هو المراد فالمعنى إن الشأن الخطير هذا وهو ربي العزيز أحسن مثواي حيث أمرك بإكرامي فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في حرمه، وإن قيل إن الضمير راجع إلى الله ﷻ فالمعنى أن الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة، وفيه تحذير لها من عقاب الله تعالى.

وعلى التقديرين ففي الاختصار على ذكر هذه الحالة إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالتة، وكونه لا يدخل تحت الوقوع أصلاً^(٢)، هذا تركيب وسياق ومعنى الكلام في اللغة فكيف يمكن أن يقع منه شيء بعد ذلك سبحانه هذا بهتان مبين.

الثاني: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهو التعليل الثاني لإبائه وامتناعه واعتصامه، وضمير ﴿ إِنَّ ﴾ ضمير الشأن وهو يفيد أهمية الجملة المجعولة خبراً عنه؛ لأنها موعظة جامعة، وأشار إلى أن إجابتها لما راودته ظلم، لأن فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصية مما اتفقت الأديان على أنها كبيرة، وظلم سيده الذي آمنه على بيته، وآمنها على نفسها إذ اتخذها زوجة وأحصنها.

١- انظر العلامة ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٥١، ٢٥٢/١٢).

٢- انظر المرجع السابق.

وصلنا إلى نهاية هذا المشهد الذي جسد إباء يوسف عليه السلام واعتصامه بالله ووعظ المرأة بكون ذلك سوءًا وقبيحًا وظلمًا وخيانة لله ولزوجها، وأنه لا يفلح أصحابه في الدنيا والآخرة، مما كان بيانًا واضحًا منه عليه السلام باستحالة وقوع ذلك منه، هذا موقفه عليه السلام فما موقف المرأة؟ كأنها لم تسمع من ذلك شيئًا مما يدل على سيطرة الشهوة عليها، وتغيب العقل والمنطق والأخلاق، والذي بدا فيما أقدمت عليه حيث قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ عزمت على الفعل عزمًا محققًا، أكدته القرآن الكريم بـ ﴿وَلَقَدْ﴾ ولام القسم، وجملة ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ مستأنفة استئنافية ابتدائية، والمقصود من ذكرهما به تبين ثبات يوسف عليه السلام على موقفه، وتمهيد إلى ذكر انتفاء همه لبيان الفارق بين الحالين بين حالة من سيطرت عليها الشهوة، ومن حكم عقله ودينه وخلقه وخوفه من ربه، واستبشاعه للخيانة والجرم، مع تعوذه والتجائه إلى الله من الوقوع في شيء من ذلك.

وجملة: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ معطوفة على جملة ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ كلها، وليست معطوفة على جملة ﴿هَمَّتْ﴾ والتي هي جواب القسم المدلول عليه باللام؛ لأنه لما أردفت جملة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ بجملة شرط ﴿لَوْلَا﴾ المتمحض لكون من أحوال يوسف عليه السلام وحده لا من أحوال امرأة العزيز تعين أنه لا علاقة بين الجملتين، فتعين أن الثانية مستقلة لاختصاص شرطها بحال المسند إليه فيها، والتقدير ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها فلم يقع من يوسف هم أصلاً بهذا المعنى اللغوي الصحيح^(١).

ومع ذلك فإن الهم الذي لم يقع أصلاً سواء قدمنا جواب ﴿لَوْلَا﴾ على شرطه، أم لم نقدمه فإن السياق واللغة وبقية الأدلة التي ذكرها القرآن تبين لنا أن هم يوسف عليه السلام ليس

^١ - الطاهر بن عاشور (٢٥٢، ٢٥٣/١٢)، انظر رده على الطبري، وكذا رد الزمخشري وأبي السعود وغيرهم على من قال بأقوال لا تتلاءم مع السياق واللغة والعصمة للأنبياء.

كهم امرأة العزيز وذلك لما يأتي:

أولاً: السياق السابق ذكرنا فيه كيف أن الله تعالى مكن ليوسف عليه السلام واتاه العلم والحكمة وبين فضله ومرتبته وظهر ذلك جلياً في رده على مراودة المرأة والذي ملخصه أنه مستعصم بالله، وأنه يستحيل أن يقع منه ذلك أصلاً، وحذر المرأة ووعظها، وذكرها بمغبة ذلك وسوءه، هل يعقل بعد ذلك أن تهمَّ به فيهم وهو المجتبي الذي يُذكرها بذلك، أن يقع في الخيانة وأن يهمَّ بالسوء، بعد أن يقول هذا حرام لا يجوز اتقى الله، هذه خيانة وظلم ولا يفلح أهله إنني أخاف الله ثم إذا به يقول هيا إلي أيتها المرأة، أين العقل إذاً أو الفهم أو الواقع، هل تقول له بادر فيقول لها لبيك! عجيب.

ثانياً: إن الهم في اللغة له معانٍ أخر جاء بعضها في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْوَأَبْجَرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: ١٣]، وجاء في الحديث: «أن رجلاً من الكفار شتم عمر بن الخطاب، فهمَّ به عمر رضي الله عنه...»^(١).

وعليه فلا شك أن هذا الهم الذي لم يقع أصلاً لا بد يكون مخالفاً لهمَّ المرأة التي أغلقت عقلها وأقفلت قلبها على الشهوة فلم تر ولم تحس إلا من خلالها، والذي يقبله السياق أنه هم بها ليدفعها عن نفسه لما بدأت في مقدمات السوء، أو هم بها زجراً وهو مقبول مع السياق، فالسياق دل على الموعدة بالرفق، والتبيين للخطأ والخيانة بالوجوه اللطيفة فإذا استمر الطاغى في طغيانه، والمعتدى في اعتدائه لا بد أن ينتقل المنكر إلى درجة أعلى من الوعظ والتذكير ليدفع عن نفسه السوء كالزجر أو الدفع أو الضرب، خاصة وأن الباغى بدأ يأخذ في خطوات سوء أشد، وهذه وظيفة الأنبياء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

١- زاد الميسر (١٦٩/٢)، ابن الجوزي (١٦٩/٢).

إذن ما فائدة البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام، فلم يقع به هم أصلاً؟ هذا البرهان هو ما وقع في علم الله السابق من شهادة الشاهد بقطع القميص، فلعله لو دفعها لانقطع ثوبه من أمام فكان هو المتهم والمدان في هذه القضية، لذلك رأينا يترك هذا الدفع، ويجري هارباً، وهو متسق تمام الاتساق مع الواقع، وقرائن الأحوال، وبيان ذلك أيضاً لأنه لم يهم بها كما ذكرنا، وهو يتلاءم مع الهرب لا مع غيره مما ذكر الجهال، إذ قالوا قعد منها مقعده الذي ذكروا، فليس هذا همّاً، بل انتقل من الهمّ إلى الفعل، وهو لا تناسب منه مع الهرب الذي أكده السياق مع ترك الهم، فخالفوا بذلك السياق نفسه.

ثالثاً: لا يعقل أن يكون هم من أوتي العلم والحكمة والاصطفاء، كهم امرأة تريد أن تقضي شهوتها بأي سبيل بالترغيب والترهيب، والسجن والتعذيب، إن ذلك إهدار للعقل، ومساواة للشهوة بالحكمة، وللجهل بالعلم، وللخيانة والغدر بالوفاء والأمانة، ولم يعد هناك ميزان يتبين به الصلاح والفساد، ولا الهدى والضلال، واختلت الأمور، واختلفت الأحوال. ومن معاني ذلك أنه لو قيل إن الأستاذ المحترم الذي لم يؤثر عليه خيانة ولا سوء خلق يراود تلميذته عن نفسها، أو إن الطبيب الفلاني الماجد المؤدب صاحب التاريخ الناصع يراود مريضته، لن يكون الرد، لا، لا يمكن ذلك، ولا يحدث، ويصعب تصديقه، وسيكون الرد هذا عادياً.

تكملة الآية مما يؤكد ما نحن بصدده، نشير إليه سريعاً لأننا سنعود إليه، وهو قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ فأشار القرآن بهذه الألفاظ إلى أنه صرف السوء والفحشاء عنه، ولو كان هو المتلبس بالسوء والفحشاء لكان التعبير كذلك لنصرفه عن السوء والفحشاء - الزنا والمقدمات - ثم ختم ذلك بالثناء عليه والمدح له ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي الذين لا يهيمون بالسوء والفحشاء سبحانه هذا بهتان عظيم، بل هو من المخلصين الذين لا سبيل لمثل هذه الادعاءات إليه،

بل هم أعظم وأجل.

وهذا يرد على قول من خالف هذا، ويطعن فيه كائناً من كان، ومن أجل ذلك قال

الإمام الرازي:

القول الثاني:

إن يوسف عليه السلام كان بريئاً عن العمل الباطل والهلم المحرم، وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين، وبه نقول وعنه نذب... ثم قال بعد ذلك تعليلاً: إلا أن نزيد هاهنا وجوهاً تقتصر على أحدها وهو:

الوجه الأول: أن الزنا من منكرات الكبائر، والخيانة في معرض الأمانة أيضاً من منكرات الذنوب، وأيضاً مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد من منكرات الذنوب،.... وأيضاً الصبي إذا تربى في حجر إنسان، وبقى مكفي المؤنة مصون العرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته، فإقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم من منكرات الأعمال.

إذا ثبت هذا فنقول: إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بهذا الجهات الأربع، ومثل هذا المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى، وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة؟!^(١)

وزاد "العلامة أبو السعود" في تعليقه على الأقوال الشنيعة المنسوبة لسيدنا يوسف

١- الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٢٥، ٢٦/٩).

عليه السلام: "إن كل ذلك إلا خرافات وأباطيل تمجها الآذان، وتردها العقول والأذهان، ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها"^(١).

ونثنى عنان الكلام إلى وجهة أخرى، لنححر بها بقية الكلام الموصل إلى تلك النتيجة من عصمة يوسف لنردفها بما يتعلق بعصمة النبي ﷺ، ونبين بها بقية الأدلة على ذلك، بتحليل بقية الآيات ومقارنتها ببعضها، لتستبين بذلك الصورة كاملة أو تضيء كافة جوانبها بما لا يدع مجالاً للشك في عصمة الأنبياء، ومقدمهم في ذلك سيدنا رسول الله ﷺ، وهي تحمل في ظاهرها ومطابقتها الردود الجازمة على المستشرقين، حيث قررت أن أضرب صفحاً عن ذكر كلامهم، لعدم موضوعيته ولعدم حيده، مع شدة تهافته، إلا ما كان جديرًا بالنظر فنشير إليه في حينه.

نبدأ هذه الأدلة بكلام الإمام الرازي رحمه الله حيث يقول: القول الرابع: أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية.

واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة: يوسف عليه السلام، وتلك المرأة وزوجها، والنسوة، والشهود، ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب، وإبليس أقر ببراءته أيضًا عن المعصية^(٢).

أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو فيما يلي:

أولاً: قوله: ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ والمرادة قبل الهم، فهو تبرئه لنفسه في هذا المقام عن المرادة، وعن الهم من باب الأولى، أي هي راودتني، أنا لم أراودها، أنا لم أفعل شيئاً، أنا نصحتها لم ترتدع، أنا جريت منها كما ترون عندما همت بي، ولو كان هناك أدنى تعلق يتعلق

^١ - العلامة أبو السعود "إرشاد العقل السليم" (٩٥، ٣/٩٦).

^٢ - انظر الفخر الرازي "مفاتيح الغيب" (٢٦-٢٨/٩).

به العزيز ليلصق التهمة بيوسف عليه السلام لتعلق به درء للتهمة عن عرضه، وللخيانة عن أهله، ولكنه قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن هَذَا﴾، خاصة وعلامة الخيانة بادية عليها من تزينها وتهيئها بأعظم الزينة، وكيف يؤذيها وهو يجري عنها، وقد قدَّ قميصه، ولم تسبق عليه عليه السلام أي أماراة من أمارات عبيد السوء.

ثانياً: قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وهذا استئناف بياني، لأن ما حُكي قبله من مقام الشدة على يوسف عليه السلام من شأنه أن يسأل سامعه عن حال تلقي يوسف عليه السلام لكلام امرأة العزيز بسجنه وصغاره إذا لم يفعل ما تأمره، وهذا الكلام مناجاة لربه الذي هو شاهدهم، ويحتمل أن جهر به في ملأهن تأيساً لهن من أن يفعل ما تأمره به.

ولا يحتمل هذا النص من يوسف عليه السلام سواء كان مناجاة لربه، أو مواجهة لهن إلا أن يكون بريئاً من أي شين قبل هذه المناجاة، إذ كيف يناجي ربه الذي هو شاهده ومطلع عليه، وناظر إليه بما يعلم خلاقه منه. أي تجرؤ هذا، ويؤكد ذلك أنه واجه النسوة بتقديم السجن مع ما فيه من الألم والشدة وضيق النفس على ما يدعونه إليه من الاستمتاع بالمرأة الحسنة النفيسة؛ لأن ذلك مما يكرهه الله تعالى ويجرمه، فكيف يكون قد صدر منه شيء قبل ذلك يمكن أن يُعَيَّرَ به، أو أن يقال هلمَّ قد هممت من قبل أيها الناسك الشريف!؟ وهنا ملحوظة أخرى في النص، وهي إسناد فعل ﴿يَدْعُونَنِي﴾ إلى نون النسوة، على ضمير جمع الإناث مع أن التي دعت امرأة واحدة! وكأن ذلك لأن تلك الدعوة من رغبات صنف النساء، أو أن النسوة اللاتي جمعتن امرأة العزيز لما سمعن كلامها تمالأن على لوم يوسف عليه السلام وتحريضه على إجابة سيده وتحذيره من وعيدها بالسجن، وهذا مما يدل على ما كان فيه من الشدة والمقاساة عليه السلام ومدى تحفظه وصيائته وعفافه من قبل، وهذا يسلمنا إلى الثالث.

ثالثاً: من إظهار يوسف عليه السلام لبراءته، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ

إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٠﴾ .

ومعنى أصب، أي: أمل، يعني يناجي ربه بقوله: ﴿وَلَا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ يعني أميل إليهن، فدل على أن الميل مع كل أسبابه لم يحدث، ويدعو ربه أن يصرف عنه هذا الكيد الشديد، وفكيف يكون قد وقع منه هم، والميل نفسه لم يحدث إلى وقت مناجاته تلك؟ وهذه الجملة من المناجاة خبر مستعمل في التخوف. والوقع التجاء إلى الله تعالى، وملازمة للأدب نحو ربه بالتبرؤ من الحول والقوة والخشية من تقلب القلب، ومن الفتنة بالميل إلى اللذة الحرام التي قدم السجن عليها، فالخبر مستعمل في الدعاء، ولذلك فرع عنه جملة ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾^(١).

وكذلك مما يدل على إبراء (تبرئه) يوسف عليه السلام لنفسه أنه لو وقع منه شيء من ذلك لبادر عليه السلام بالتوبة والاستغفار، ولأن الأنبياء إذا صدر منه شيء على خلاف مراد الله اجتهدوا منهم مثلاً- لأننا نقول بعصمتهم جميعاً بهذه الأدلة التي نسوق- استعظموا ذلك، وبادروا إلى الله تعالى بإظهار الندامة والتوبة وطلب المغفرة والتواضع حتى كأن ما حدث ذنب عظيم، كما حدث في قصة آدم عليه السلام في أكله من الشجرة لأنه لم يأكل منها مخالفة لله تعالى، وإنما اجتهد منه ليكون من الخالدين عند الله تعالى، أو ليكون ملكاً مقرباً لديه، ومع ذلك جاء عنه وزوجه ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

أما في قصة يوسف فلم يحدث من ذلك شيء أصلاً، فدل على أنه لم يقع منه هذا لا خطأ ولا اجتهداً فضلاً عن الذنب والمعصية، بل على العكس جاءت كلماته التي حكاها القرآن الكريم عنه عليه السلام لتدل بوضوح على هذا المعنى، وذلك في قوله لإخوته بعد أن

١- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١٢/٢٦٦)

عرفوه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ، ولذا كان ردهم - وهو رد كل مخطئ خاطئ - : ﴿قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ .

وما بلغ المنزلة التي هو فيها بالذنب والمراودة، ولكن بلغها وحصلها بالتقوى والصبر، وإنما لأعظم تقوى، وإنه لأعظم صبر، ولسنا في مجال الكلام على التقوى والصبر.

هناك دليل آخر على تبرئة يوسف عليه السلام فإن كان ما سبق براهين تبرئته بالنطق والسكوت، فهذا البرهان يمكن أن نسميه بالفعل لتجتمع له عليه السلام كل أدلة وبراهين البراءة وهو في قوله لما أرسل إليه الملك ليأخذه من السجن، أبي ورفض حتى يتحقق الملك بنفسه من الواقعة، من البريء ومن المتهم، وذلك في قوله تعالى عن يوسف لرسول الملك: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأْسُ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَا أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ﴿٤١﴾ . فلو كان عليه السلام قد صدر منه ذنب وفحش، أو كان متهمًا لاستحال عرفًا وعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة، وألا يخرج من السجن إلا بعد النظر فيها، وتبيين الخاطئ من البريء، وإلا لو كان فعل ذلك لكان قد أقدم على فضح نفسه، وتجديد عيوبه التي صارت خفية مندسة، والعاقل لا يفعل ذلك، وهب أنه قد وقع الشك لبعضهم في عصمته إلا أنه لا شك بما سمعنا أنه كان عاقلًا، والعاقل يمتنع أن يسعى في فضيحة نفسه، وفي حمل الأعداء على أن يبالغوا في إظهار عيوبه^(١).

أما بيان المرأة تبرئته عليه السلام فهو:

أولاً: اعترافها للنسوة بذلك حيث قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ فقد باحت لهن بأنها هي التي راودته فعلاً؛ لأنها رأت منهن الافتتان به فعلمت أنهن قد عذرنها،

١- انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير (٩٨/٩).

فقلت: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ حسبما سمعتن وقلتن، فاستعصم وهي للمبالغة في عصم نفسه، أي اعتصم اعتصام معصوم، جاعلاً المرادة خطيئة عصم نفسه منها، بل دل هذا البناء كذلك، وهو استعصم وهو بناء مبالغة على الامتناع الشديد والتحفظ البليغ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها مثل استمسك واستجمع الرأي، وفي ذلك برهان نير على أنه لم يصدر عنه ﷺ شيء مخل باستعصامه من الهم وغيره بقوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ ويدل على ذلك أيضاً ترتيب كلامها بأنها اعترفت لهن أولاً بما كُنَّ يسمعن من مرادتها له، وأكدته بقولها: ﴿وَلَقَدْ﴾ بالقسم ولام التوكيد إظهاراً لابتهاجها بذلك، ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ ما يكون الإعراض، ولم يمل إليها قط، وزادت أيضاً أنها مستمرة على ما كانت عليه غير مرعوية عنه لا بلوم العواذل ولا بإعراض الحبيب بل قالت: ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾^(١).

ثانياً: قولها: ﴿الَّذِينَ حَصَّحَصَّ الْحَقُّ أَنَا زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾. الآن: ظرف للزمان الحاضر، وحصص: أي ثبت واستقر، والحق: هو براءة يوسف ﷺ مما رمته به، وإنما ثبت الآن؛ لأنه كان محل قيل وقال فزال ذلك باعترافها بما وقع، وتقديم اسم الزمان للدلالة على الاختصاص، أي الآن لا قبله للدلالة على أن ما قبل ذلك الزمان زمن باطل وهو زمن تهمة يوسف ﷺ.

والتعبير بالماضي في حصص، مع أنه لم يثبت إلا من إقرارها الآن فهو لتقريب زمن الوقوع من الماضي، أو لأن الحق ثابت من قبل في براءة يوسف ﷺ من المرادة^(٢)، وكل ذلك يدل على انتفاء أي تعلق لاتهام يوسف ﷺ بأي أمر مشين.

١- انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٣/١٠٣)، والطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١٢/٢٦٦).

٢- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١٢/٢٩١).

وأما قولها: ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ فهو دليل بليغ على صدق يوسف عليه السلام وطهارته ونزاهته، فقد أكدت ذلك بـ ﴿إِنَّ﴾ واللام والجملة الاسمية^(١) لتبرهن على صدقه في أنه لم يراودها، ولم يصدر منه من ذلك لا قليل ولا كثير لا ميل ولا هم وأنها هي التي راودته، ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ هو صادق، وقد عبرت بقولها: ﴿لَمِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ لأنها أبلغ من لو قيل هو صادق، كذلك تحتم القضية بالنسبة لها بهذه البراءة المؤكدة بكل هذه المؤكدات البليغة التي لا راد لها، ولا ناقض.

أما بيان تبرئة زوج المرأة ليوسف عليه السلام فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِن كَيْدِكُنَّ عَظِيمٌ﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَن هٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكُ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخٰطِئِيْنَ ﴿٢٨﴾ [يوسف: ٢٨-٢٩].

فقوله إنه من كيدكن من كلام العزيز بعد أن استبان له براءة يوسف عليه السلام من الاعتداء على المرأة وإلا كان الكلام مختلفاً، وكان اللوم وما فوقه متوجهاً إلى يوسف عليه السلام فيه شهادة من العزيز أكدت براءة يوسف عليه السلام بدليل قوله بعد ذلك مخاطباً الاثنين معاً ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَن هٰذَا﴾ بأن يكف عن الخوض في هذا الموضوع لئلا ينتشر وتظهر الفضيحة، وعطف على ذلك خطابه لزوجته: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكُ﴾ فقد أثبت لها الذنب والسوء، بما ينفيه عن يوسف عليه السلام وطلب منها الاستغفار عن ذلك، بما يدل على انتفاء أي هفوة في حق يوسف عليه السلام خاصة وهو ينتظر أن يكون يوسف هو المخطئ ليحفظ عرضه وزوجه عن قالة السوء والفضيحة بها.

وهذا الأسلوب من مخاطبة المرأة بأن ما دبرته من كيد النساء ثم توجيه الخطاب إلى يوسف عليه السلام ثم عودة الخطاب إلى المرأة يسمى بالإقبال، أو الالتفات للمعنى اللغوي عند

١- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١٢/٢٩٢).

الالتفات البلاغي، وهو عزيز في كلام البليغ^(١)، فالقرآن الكريم يبين بهذا الأسلوب البلاغي العزيز تبرئه يوسف والالتفات إلى المرأة باللوم والتقريع، وطلب الاستغفار، ونسبة المكر والكيد إليها، على أبلغ كلام وأحسنه.

أما بيان الشاهد في القضية فقد دل على براءة يوسف أيضًا.

وقد أوردناه هنا بعد بيان العزيز لكونها في نفس الوقت، وكذلك لبناء العزيز حكمه براءة يوسف على كلام الشاهد، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِّن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّن كَاذِبِينَ إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ ﴿٤٨﴾ [يوسف: ٢٦-٢٨].

هذا الشاهد بسياق القرآن رجل من أهل المرأة كان بصحبة زوجها العزيز، وسمي قوله شهادة لأنه يؤول على إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف عليه السلام على سيدته أو دحضه، وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ﴾ إلى آخره، لما لم يكن له به سابق علم دل على أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص؛ تحاول أ، تجعله حجة على أنها أمسكته لتعاقبه، ولولا ذلك ما خطر على بال الشاهد أن تمزيقاً وقع، وإلا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص؟ والظاهر أن الشاهد كان يظن صدقها فأراد أن يقيم دليلاً على صدقها، فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف عليه السلام^(٣).

وهذا برهان لا ريب فيه على أن صدق يوسف عليه السلام ونزاهته لم يكن من ترتيب أحد إلا الله تعالى فما دُعوا إلى جلسة ومحكمة وشهادة، واستعداد لتقديم البيئات والمرافعات، بل

١- انظر العلامة ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٥٨، ٢٥٩/١٢).

٢- انظر العلام ابن عاشور "التحرير والتنوير" (١٢/٢٥٧).

كان ما أراد الله بحكمته في توها ولحظتها، مع قيام كافة جوانب القضية واضحة جلية، لا تحتاج لغير الحكم بالحق، وكان من تمام توفيق يوسف عليه السلام وحفظ الله له، أن جاء القميص شاهداً له، من حيث أريد أن يكون الشاهد عليه، لو حاول البشر أن يرتبوا محكمة وشهادة وواقعة على هذا النحو لما تمكنوا، إلا محاكاة وتمثيلاً لها.

أما بيان تبرئة النسوة ليوسف عليه السلام فكما يلي:

أولاً: وهو قول النسوة لما رأين يوسف عليه السلام وهن متكئات، وقد أمرته امرأة العزيز بأن يخرج عليهن وقطعن أيديهن: ﴿حَسَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ على إعمال ﴿مَا﴾ بمعنى ليس في لغة أهل الحجاز، تنزيهاً لله سبحانه عن صفات النقص والعجز، وتعجباً من قدرته على هذا الصنع البديع، ونفيًا للبشرية عنه؛ لما شاهدن فيه من الجمال العبقري الذي لم يعهد مثاله في البشر، وقصر ذلك على الملك بقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بناء على ما ركز في العقول من أن لا حي أحسن من الملك، كما ركب فيها أن لا كائن أقبح من الشيطان، فوصفهن بأنه ملك لا شك يدل على مفارقة الشيطان، وهو وصف كريم يدل على جميل الصفات، وأحسن الشيم، التي تدل على أن مثله ليس أهلاً لسوء الشيطان، ولا الأعمال اللائقة بالشيطان وهذه تبرئة واضحة لم يتماكن أنفسهن عنها حيث خرجن عن الأفعال الاختيارية بتقطيع أيديهن عند رؤيته، وقولهن ذلك.

ثانياً: قول النسوة عن إحضار الملك لهن وسؤاله إياهن ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ قُلْ حَسَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، و ﴿حَسَّ لِلَّهِ﴾ مبالغة في النفي والتنزيه، والمقصود: التبرؤ مما نسب إليهن من المرادوة، وجملة ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ كما يقول الأصوليون نكرة في سياق النفي فتعم كل سوء أي ما علمنا عليه أي سوء، ومن للتبعيض، ومعناه كائناً ما كان السوء ولو صغيراً، وهو يدل على أنه لم تقع منه كذلك أي مرادوة، لأن

الحالتين منه أو منهن من أحوال السوء، والجملة جامعة لنفي ذلك كله، وقد أشرنا إلى ذلك بنفي العلم وهو كناية عن نفي دعوتهن إياه إلى السوء، ونفي دعوته إياهن إليه؛ لأن ذلك لو وقع لكان معلوماً عندهن، وفي ذلك أبلغ الأدلة على تبرئة النسوة ليوسف عليه السلام بعدم العلم، وعدم الوقوع.

وأما شهادة الله تعالى ببراءة يوسف عليه السلام فمن أوجه:

الأول: في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۗ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. الكاف منصوب المحل، وذلك إشارة على التثبيت اللازم له، أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه، لنصرف عنه السوء على الإطلاق فيدخل فيه الهم، وخيانة السيد، وكافة أنواع السوء كافة لكون السوء هنا معرّفًا فيشمل كل سوء، وكذلك الفحشاء لأنها مفرطة في القبح، وقول الله تعالى ذلك آية بينة، وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه إليها قط، وإلا لقل لنصرفه عن السوء والفحشاء، وعمّا يتوجه إليه من السوء وغيره من الخارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه عليه السلام من موجبات العفة والعصمة، ولذلك عقب بقول: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ ليعلل ذلك الصرف عنه، فهو تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق.

وقد قرئ المخلصين بصيغة المفعول وصيغة الفاعل، فأما صيغة المفعول فهم الذين أخلصهم واصطفاهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عما هو قادح فيها، وصيغة الفاعل وهم اللذين أخلصوا دينهم لله تعالى، وعلى كلا المعنيين فهو عليه السلام منتظم في سلوكهم داخل في زميرتهم، والتعبير بالجملة الاسمية والتأكيد دليل على كونه كذلك من أول أمره، لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك، فانحسم بذلك مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام.

بالكلية^(١).

الثاني: أن قوله ﷺ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ ثناء ومدح من الله تعالى ليوסף ﷺ سواء في اجتنابه الله واصطفائه السابق له، أو في إخلاص يوسف ﷺ لربه جل وعلا، ولا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكي عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة فيها كل الصفات السيئة التي أشرنا إليها من قبل، ثم يمدحه ويثني عليه بأنه من المصطفين الأخيار، أو الذين أخلصوا دينهم لله تعالى^(٢) فدل ذلك على أن يوسف لم يصدر منه شيء.

الثالث: في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٣) ونركز على المراد من الكلام الذي يؤيد ما نقول وهو في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ وذلك بعد قوله: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَهُنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ وهذا السياق يدل على أن يوسف ﷺ كان مستعصماً طاهراً منزهاً، وزادت عليه الضغوط من كل الجوانب وبكافة الأساليب فلجأ إلى الله تعالى ليصرف عنه ذلك الكيد، وهو علم من سنة الله تعالى معه من قبل صرف السوء والفحشاء عنه، فاستجاب له ربه، والفاء للتعقيب، ودل على أن قوله: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي﴾ دعاء بطلب ذلك، ترى استجابة الله له بهذه السرعة بعد وقوعه في الهم والمرادة، وغير ذلك، أن ذلك دليل من الله تعالى على تبرئة يوسف ﷺ بسرعة إجابته، وصرف الكيد والمكر، وتلك الشدائد عنه، وزيادة تثبيت قلبه في مواقف الزلزلة تلك، وما يكون ذلك الصرف والإجابة إلا لظاهر يريد العصمة، لا متلوث قد وقع في الذنب، إذ الواقع في ذلك يصرف عن السوء والفحشاء، لا تصرف عنه

^١ - انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٣/٩٦).

^٢ - انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٩/٢٦).

الفحشاء والمكيدة بإيقاعه في ذلك، والتعبير بالكيد يدل عليه إذ هو محاولة المخاتلة بيوسف لإيقاعه، لا أنه تحقق وذلك ظاهر بتأمل السياق ومقارنته وتحليله.

وثمة شيء آخر تبينه الآية الكريمة وهو تلك الصلة بين يوسف عليه السلام وربّه جل وعلا، إذ تدل على قلب موصول بالله تعالى، بينه وبين ربّه عمار، يدعو ويتضرع إليه، فيسارع إلى إجابته، بل ويدعوه بما يدل على كمال ثقته في ربّه، ووفور إقباله عليه ومحبته له: ﴿وَأَلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ من ذا الذي يقول لله تعالى: وإلا تصرف عني كذا وكذا أقع في كذا، وكذا فيستجيب له، إلا وقلبه مفعم باليقين التام في الإجابة بأن ينجيه مما وقع فيه، ترى تلك قلوب العصاة المذنبين، إن أقصى أملهم أن يغفر لهم، ويتوب عليهم، أم هي قلوب العارفين بالله الذين هم في الدرجة العالية من توحيده وطاعته، وكذلك في إضافة الرب لضمير يوسف ﴿لَهُ رَبُّهُ﴾ دليل عناية الرب بمربوبه، ورعايته له جل وعلا، وإظهار شأنه في انتسابه إلى الله تعالى بمعنى الربوبية.

الرابع: وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولأجر الأخره خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿٥٧﴾ يوسف: ٥٦-٥٧، والكاف هنا منصوبة بالتمكين، وذلك: إشارة إلى ما تقدم يعني ومثل ذلك الإنعام الذي أنعمنا به على يوسف في تقربنا إياه من قلب الملك، وإنجائنا إياه من غم السجن نمكن له في الأرض، أي نقدره على ما يريد، وان ينزل منها أي منزل أحب لا يدافعه أحد ولا ينازعه منازع، والمقصد من ذلك أن الله مكن ليوسف عليه السلام في الأرض، وما كان هذا التمكين الجاري على سنة الله في كونه إلا لأنه كما أفاد السياق من المحسنين، وأن الله لا يضيع في الدنيا أجرهم، وهذا أكبر دليل على أن يوسف كان وما زال حين تبوأ هذا المركز من الله تعالى محسناً، ولو صدق على يوسف عليه السلام بأنه وقع في شيء مما ذكره الجهال لكان ذلك تكذيباً لله في حكمه على يوسف عليه السلام بالإحسان وهو عين الكفر بالله، ولكان ذلك

شهادة على الله تعالى - حاشا لله - أنه يمكن للعصاة له ويمدحهم بذلك، وأنه يكافئهم على مخالفته بالتمكين لهم في الأرض.

ويزيد على ذلك ما أعده له في الآخرة في قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ وهذا يدل على أمرين:

الأول: أن يوسف عليه السلام وصل إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الدنيا، إلا أن الثواب الذي أعده الله له في الآخرة خير وأفضل وأكمل.

الثاني: أن المراد من الآية كذلك شرح حال يوسف عليه السلام فوجب أن يصدق في حقه أنه من الذين آمنوا وكانوا يتقون، وليس ها هنا زمان سابق ليوسف عليه السلام يحتاج إلى بيان أنه من المتقين إلا ذلك الوقت الذي قال فيه تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ هذا شهادة من الله تعالى أنه كان في ذلك الوقت من المتقين، فأنى يكون ذلك لهم وغيره منه.

وتضاف هذه إلى شهادة الله له بأنه من المحسنين ومن المخلصين^(١)، فثبتت براءة الله تعالى له، بهذه الشهادات الإحسان والإخلاص والتقوى، وماذا بعد؟

وهناك وجوه كثيرة أخرى في تحليل الآيات نكتفي بهذا القدر منها لتبيين المطلوب.

وأما بيان أن إبليس أقر بطهارة يوسف عليه السلام وبرأته فهو في قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٤١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٢﴾ [ص: ٨٢-٨٣] فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ويوسف عليه السلام قد مدحه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ فكان هذا إقرار من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى.

١- انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٩٠، ٩١/٩).

يقول الإمام الرازي^(١) عن ذلك: وعند هذا نقول للجهاال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه القضية إن كان من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله على طهارته، وإن كان من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته، ولعلمهم يقولون: كنا في أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه في السفاهة، كما قال الخوارزمي:

وكنْتُ امرءاً من جُنْدِ إبليسَ فازْتَقَى بي الدهرُ حتى صارَ إبليسُ من جُندي
فلو ماتَ قبلي كنتُ أحسنُ بَعْدَهُ طرائقَ فسقٍ ليس يُحسِنها بَعدي

وإذ قدمنا بهذه المقدمة لتكون بين يدينا في التدليل على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك لتكون الأصل الثابت، والأساس الراسخ المتين في اعتقاد عصمة الأنبياء، وعلو منزلتهم بهذه القواطع من النصوص القرآنية، التي تقوم عليها هذه الدراسة، وندخل منها إلى إثبات عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم من باب الأولى، وكذلك بدراسة وتحليل ومقارنة بقية الآيات النازلة في حقه صلى الله عليه وسلم مع رد كل ما أثير من شبهات إلى هذه النصوص الراسخة لتتضح الصورة كاملة في هذه القضية، وتظهر بها الجديد من منهج البحث، وهو المقارنة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الأنبياء السابقين.

ونبدأ ببيان عصمة النبي صلى الله عليه وسلم عن الذنوب كافةً، صغيرها وكبيرها، بعد البعثة وقبل البعثة، وكذلك عن ما يمكن أن يقع قبل البعثة فيكون مشيناً بعد البعثة، وذلك من حيث انتهى الكلام السابق وهو أن إبليس قد أقر بطهارة يوسف عليه السلام وعليه فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس للشيطان عليه سبيل البتة، فإذا كان إبليس فيها حكى القرآن الكريم عنه يقول: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أعلى الأنبياء درجة، بل

١- انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٩٠، ٩١/٩).

أرفعهم درجات، كما في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ ۗ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ... ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فكان هو ﷺ بهذا التقسيم للآية ممن رفع الدرجات، وقصة الإسراء والمعراج في القرآن نفسه تبين أن أحداً منهم عليهم الصلاة والسلام لم يصل إلى درجته، علاوة على أنه ﷺ أفضل أولي العزم، ويوسف عليه السلام ليس من أولي العزم أصلاً، فكان ذلك دليلاً على أنه ﷺ أولى من يوسف عليه السلام والأنبياء كافة ألا يكون للشيطان عليه أدنى سبيل، وأولو العزم من الرسل المذكورون في القرآن الكريم جمعهم الآية الكريمة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۗ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۗ ﴾ [الأحزاب: ٧] ودل سياق الآية لتقديم النبي ﷺ في الذكر على تقديمه في المرتبة، بدليل الترتيب الزمني بعد ذلك لبقية النبيين عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، ونبادر فنقول إن الدراسة والأدلة التي أدت إلى تقديمه وتفضيله عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام - ليس تنقيصاً لأحدهم عياداً بالله - ولكنها تقرير لذلك الواقع الذي أدى إليه البحث، وقاد إليه الدليل^(١) بإعطاء كل منهم ما أعطاه الله تعالى من الفضل، مع استوائهم جميعاً في العصمة محل البحث.

وفي سياق إيراد ما يشابه ذلك الآيات نرى قوله تعالى عن إبليس: ﴿ لَأُرِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ ۗ ﴾ [إلا عبادك منهم المخلصين] ﴿ ٥٠ ﴾، وهذا تأكيد جديد بقوله لأحملهم جميعاً على الغواية إلا عبادك الذين أخلصتهم لعبادتك وطاعتك، وطهرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدي، أو هم (بفتح اللام) الذين أخلصوا نفوسهم وعبادتهم

١- لذلك قال: "لا تخيروا بين الأنبياء..."، رواه البخاري (٢٢٣٥)، ومسلم (٤٣٧٨)، وأبو داود (٤٠٤٨)، كلهم عن أبي سعيد رضي الله عنه.

وتوحيدهم لله تعالى^(١)، ورسول الله محمد ﷺ هو أول المصطفين الأخيار، والمجتبين الأبرار، وهو أبقاهم لله تعالى، وأشدهم إخلاصاً لهم، ولا شك أنه أول السالمين من كيدته وإغوائه^(٢)، وهذا ما ينقلنا إلى ما ذكره المولى سبحانه عن عباده، وعن حفظه لهم من كيد الشيطان حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] أي أن عبادي ليس لك عليهم تصرف ولا تسلط، وهم المشار إليهم سابقاً بالمخلصين، وقد أكدت حقيقة الجملة (إنَّ الجملة الاسمية)، ونفي السلطان بالتنكير ليفيد أنه ليس له عليهم أي سلطان، صغيراً كان أو كبيراً.

وتصدير الجملة بعبادي يشمل أول ما يشمل النبي ﷺ لأنه أعلى العباد مقاماً في العبودية، حيث جاء التشريف بذلك من ربه ﷻ في كافة الأحوال التي تبين فخامة منزلته، فذكر بذلك في الإسراء فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وفي مقام التحدي لإثبات النبوة بإعجاز القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وفي مقام الدعوة إلى توحيد الرب ﷻ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] وفي إنزال الفرقان عليه ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] فرأينا هذه الآيات الكريبات علاوة على تشريفه بمقام العبودية لله تعالى، تشير إليه بأعظم الإضافات وأكملها إلى الله تعالى مثل بعبده، وعبدنا، وعبد الله، وما تعنيه تلك الإضافات وتنوعها باختصاصه بذلك وعلو درجته في عبودية الله تعالى، مما يوضح لنا أن تلك الدرجة أعلى الدرجات التي لا سبيل للشيطان على صاحبها، مما يؤكد

١- انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٣/٢٢٨).

٢- وقد ورد في حديث ابن مسعود رضي الله عنه الذي رواه مسلم (٥٠٣٤) قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (... إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير).

عصمته ﷺ من أي غواية من غواية الشيطان.

مع ملاحظة أخرى في الآية في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ، وهي أن الغواية وقعت باختيارهم حيث اتبعوا الشيطان بمحض إرادتهم، وذلك لا يقع للأنبياء - عليهم السلام - أن يختاروا اتباع الشيطان؛ إذ ينافي ذلك عبوديتهم لله تعالى، وخلع عبودية ما سواه ويزيد في إيضاح ما سبق من آيات تبين عصمة النبي ﷺ من كيد الشيطان وتسلطه، قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] وذلك بعد قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ تعليل للأمر بالاستعاذة، لأنها تمنع من تسلط الشيطان على المستعذ لأن الله منعه من التسلط على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وجملة ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ صفة ثانية للموصول، وقدم المجرور على الفعل للقصر، أي لا يتوكلون إلا على ربهم، وجعل فعلها مضارعاً لإفادة تجدد التوكل واستمراره، وعطف الجملة دون إعادة اسم الموصول للإشارة إلى أن الوصفين كصلة واحدة لموصول واحد، لأن المقصود اجتماع الصلتين، فنفي سلطان الشيطان مشروط إذاً بالأمرين: الإيمان والتوكل، ومن هذا تفسير لقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ .

ويكون المعنى: أن الإيمان مبدأ أصيل لدفع سلطان الشيطان في نفس المؤمن، فإذا انضم إليه التوكل على الله اندفع سلطان الشيطان عن المؤمن المتوكل.

ولا حاجة بنا أن نقرر أن رسول الله ﷺ أعظم المؤمنين إيماناً، بل لا يتم إيمان أحد بالله إلا بالإيمان بالرسول ﷺ، وكل توكل في المؤمنين إنما هو من جراء تعليمه قولاً وفعلًا، وكما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨] وفي الحديث: «عبدني

ورسولي سميته المتوكل^(١) وآيات القرآن الكريم مليئة بالكلام على التوكل والمتوكلين، الذي يؤكد أن رسول الله ﷺ هو معلمهم التوكل كما علمهم الإيمان وغيره من أمور الدين اعتقاداً وعملاً وسلوكاً.

وإذا أشرنا إلى ما يوضح عصمة النبي ﷺ والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من كيد الشيطان وتسلطه، نأتي إلى ما يتعلق بوسوسة النفس، أو بأمرها الإنسان بالسوء، ترى ينطبق على الإنسان المؤمن الكامل فضلاً عن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أن توسوس له نفسه بما يخالف الشرع، ويوقع في غضب الرب ﷻ، أو في التقصير في حقوقه، لنرجع إلى قصة يوسف عليه السلام ننظر فيها ما يتعلق بالنفس، ومدى حملها الإنسان على المخالفة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣].

ظاهر ترتيب الكلام أنه من كلام امرأة العزيز^(٢)، مضت في بقية إقرارها فقالت: ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي ﴾ وذلك كلاحتراس مما يقتضيه قولها عن يوسف عليه السلام: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ ﴾ من أن تبرئة نفسها من هذا الذنب ادعاء بالبراءة العامة فقالت: ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي ﴾ ، فالواو استثنائية، والجملة ابتدائية، وجملة: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ تعليل لجملة ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي ﴾ ، أي لا أدعي براءة نفسي من ارتكاب الذنب؛ لأن النفس كثيرة الأمر بالسوء، ثم

١- انظر الطاهر بن عاشور (٢٧٨، ٢٧٩ / ١٤)، والحديث رواه البخاري (١٩٨١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
 ٢- انظر العلامة بن عاشور "التحرير والتنوير" (١٣ / ٥)، والاحتفال الثاني في الآية - وقد ذكره جمع من المفسرين منهم ابن عاشور نفسه - أنه من كلام يوسف في قوله "ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب" وهذا لا يستقيم مع ما قدمنا من أن العزيز في وقتها قال ليوسف: "أعرض عن هذا" وقال لزوجته: "واستغفري لذنبك" فأين عدم علمه بخيانة يوسف، بل هو متأكد من خطأ زوجته أمام يوسف، وبراءة يوسف في نفس الآن، وكان يوسف عليه السلام في السجن والنسوة في حضرة الملك، فكيف يصح؟!

استثنت فقالت: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ وهو استثناء من عموم الأزمان، أي أزمان وقوع السوء بناءً على أن أمر النفس به يبعث على ارتكابه في كل الأوقات إلا وقت رحمة الله عبده، وهو مقصودنا من ذلك كله لنبين عصمة النبي ﷺ من أمر النفس بالسوء، فإذا كان لا يعصم من اتباع وسوسة النفس في الوقوع في السوء والهم به إلا رحمة الله بعبده في بعض الأزمان، فكيف يقع من نفس الرسول ﷺ هم أو وسوسة بسوء، وهو نفسه الرحمة المهداة كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فقصر إرساله على الرحمة للجن والإنس كافة، والآية دليل في غاية الوضوح والنصاعة، ليست على كونه مرحومًا في بعض الأوقات لتتحقق له بذلك العصمة فيها، بل هو الرحمة نفسها في كل الأوقات، ليس لنفسه، بل للعالمين، ليوضح القرآن الكريم بذلك درجة النبي ﷺ التي لم يصل إليها أحد لتكون شاهدًا على عصمته من النفس بعد اتضاح عصمته من الشيطان، فلا الشيطان ولا النفس إذا لهما عليه سبيل.

ومما يزيد هذا الدليل وضوحًا قوله تعالى في وصف الرسول ﷺ: ﴿وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة: ٦١]، ليجمع البحث ما قيل في كونه رحمة من جميع نواحيها، فكلها حق، ولكن يبقى المعنى الظاهر أن الرسول ﷺ رحمة عامة، ورحمة للمؤمنين خاصة، فأنى تكون لصاحب هذه الرحمة للمؤمنين في باطنه شيء يأمر بالسوء، وهذا السوء لا يقع في أوقات الرحمة، وكيف يرحم المؤمنين، وله أوقات لا رحمة فيها، أوقات الأمر بالسوء، والله يقول عنه: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وهي عامة لكل المؤمنين شاملة لكل الأوقات والأحوال، حيث لقنه ربه أن يقول: ﴿قُلْ إِن صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٣] لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبَدَلِكُ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [١٤] فحياته ومماته وعبادته وتوحيده لله وحده لا شريك له من نفس ولا شيطان ولا هوى، ولا غيره. ولنا عود لهذه الآية.

من جهة أخرى فقد ذكر القرآن الكريم أن هناك نفسين آخرين، هما النفس اللوامة،

والنفس المطمئنة، والمطمئنة قال الله تعالى فيها: ﴿يَتَابُتْهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَةُ﴾ (٣٠) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً (٣١) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٣٢) وَأَدْخُلِي جَنَّتِي (٣٣) [الفجر: ٢٧-٣٠] ونحن نروم الاختصار فنشير في تحليل الآية ومقارنتها إلى موضع البحث فقط، فالنفس المطمئنة الراضية المرضية موجودة في المؤمنين، وأول المؤمنين هو ﷺ في الأولى والآخرة، وهو أعلاهم درجة، فأعلى النفوس المطمئنة إذن وأجودها وأكرمها على الله نفس النبي ﷺ، وفي الآية دليل آخر: أن النفس المطمئنة يقال لها: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (٣٢)، وأشرف عبادته وأسماهم منزلة - كما ذكرنا من قبل - هو الرسول ﷺ، فالنفوس المطمئنة تدخل في زمرة صلوات الله وسلامه عليه، وتشرف بالانضواء تحت رايته، فكان هذا برهاناً - على أقل تقدير - على خروج نفس النبي ﷺ عن حد النفس الأمارة والنفس اللوامة، ووصوله إلى أكمل درجات النفوس المطمئنة، وأما صفة النفس المطمئنة المذكورة في الآية فهي الساكنة الهادئة - لأنها اسم فاعل من الاطمئنان - غير مضطربة ولا منزعجة، وهذا يجوز أن يكون من سكون النفس بالتصديق لما جاء به القرآن دون تردد، ولا اضطراب بال، ويجوز أن يكون من هدوء النفس بدون خوف ولا فتنة في الآخرة والاطمئنان مجاز كذلك في طيب النفس وعدم تردها في مصيرها بالاعتقاد الصحيح، حين أيقنوا في الدنيا بأن ما جاءت به الرسل حق فذلك اطمئنان في الدنيا، ومن أثره اطمئنانهم يوم القيامة حين يرون مخايل السعادة والرضا نحوهم، ويرون ضد ذلك نحو أهل الشقاء، وقد فسر الاطمئنان بيقين وجود الله ووحدانيته، وفسر باليقين بوعده الله، وبالإخلاص في العمل ولا جرم أن ذلك كله من مقومات الاطمئنان المقصود فمجموعه مراد وأجزاؤه مقصودة^(١).

ومما سبق تتضح مرتبة النبي ﷺ المنيفة السامقة.

١- انظر العلامة الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٣٤٢-٣٤٣ / ٣٠).

ومما ينبغي الوقوف عنده من الآيات التي ذكرها القرآن الكريم، والتي تؤكد عصمة النبي ﷺ، من المخالفات والمعاصي كافة، وكررها القرآن في أكثر من موضع؛ لينوه بفضله وعلو مرتبته - عليه الصلاة والسلام - والتي تبين من تغاير السياق التي سيقت فيه تعدد جوانب العصمة، واكتمالها في النبي ﷺ، وبالتالي تضيف إلى ما سبق تأكيدات مهمة بشأن عناية الله به، تصديقاً للرسالة، وتأييداً للنبوّة التي جاء بها صلوات الله وسلامه عليه، وهذه الآيات ثلاث آيات:

الأولى: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۗ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥-١٦]

الثانية: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ ۗ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَائِي نَفْسِي ۗ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس: ١٥]

الثالثة: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الزمر: ١٣] وقبلها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١٠﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزمر: ١١-١٢] وبعدها: ﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ ﴾ [الزمر: ١٤].

والتأمل لهذه الآيات الكرييات يلاحظ ما يلي:

• أن قوله ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ مصدر في موضعين من المواضع الثلاثة، والموضع الثالث محتمل لها، وهذا التلقين للنبي ﷺ من الله تعالى يدل على عنايته بالنبي ﷺ، وحفظه له، وردده عنه، وتثبيته إياه في تلك المواقف العصبية، لم يترك له أن يرد هو، بل علمه الرد الذي لا مدفع له، في الوقت الذي يمدحه، ويثني عليه بهذا التلقين، وهو من الإيجاز والإعجاز القرآني العالي، إذ تجمع هذه الجملة العديد من المعاني التي لا تحصل غيرها، وإن

حصلت من البلغاء فبأضعاف هذه الجملة، مع عدم تأدية كل المعاني التي تحتويها.

• إن كلمة ﴿قُلْ﴾ هنا تنفي نسبة الوحي إلى النبي ﷺ، مع رفع الاحتشام عنه - عليه الصلاة والسلام - في تزكية نفسه، مع تأكيد المعنى الذي سيقى لأجله، بالتكرار له إلى يوم القيامة وهو - مثلاً - كما في الآية الأولى يرفض الشرك امتثالاً لأمر الله ﷻ وإن أتباعه المؤمنين مطالبون أيضاً بهذا القول، معلنون به، غير راجعين عنه أو مدهنين فيه.

• وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي بمخالفة أمره ونهيه أي عصيان كان، ويدخل فيه ما ذكر في السياق دخولاً أولياً، وهذا بيان من الله تعالى بحال نبيه المعظم، وهو كمال اجتنابه - عليه الصلاة والسلام - عن المعاصي على الإطلاق^(١)، إذ لا معنى لخوفه العظيم هذا ﷺ، مع الوقوع في أي معصية كانت؛ لأن قدر الخوف على قدر العذاب، وبمقدار ما يخاف المرء يمتنع عن الأسباب المفضية لهذا العذاب المهول، وتلك تدل على العصمة الكاملة لرسول الله ﷺ^(٢)، والآية رد واضح جلي على من يخالف هذا المعتقد، وتوضيح بليغ لما توهمه بعض الآيات القرآنية^(٣) بخلاف هذا الرأي السديد، وبالتالي تحمل هذه الآيات على ما يليق بالنبي ﷺ، وما يوافق آيات العصمة؛ جمعاً بين الآيات الكرييات كلها في هذا الصدد.

• وفي العدول عن لفظ الجلالة إلى قوله ﴿رَبِّي﴾ في الآية إيماء إلى أن عصيانه أمر قبيح، لأنه ربه الذي يربيه، ويقوم على شؤونه فكيف يعصيه^(٤).

^١ - انظر العلامة أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٢/١٣١).

^٢ - لأن وجود الخوف حينئذ يكون مانعاً من أي معصية بغير تفريق بين صغيرة وكبيرة.

^٣ - سنذكرها إن شاء الله بعد تقرير آيات العصمة.

^٤ - انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم"، والعلامة ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٦/١٦١).

• وتوضيحًا لعذاب العصيان، وهو ما يدل على شدة الامتناع من المخالفة أضيف العذاب إلى ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تهويلًا له، إذ في معتاد العرب أن يطلق اليوم على يوم نصر فريق، وانهزام آخر، والهزيمة تعني التنكيل بهم، وإكثار القتل والأسر فيهم، وإسامتهم سوء العذاب، فذكر ﴿يَوْمٍ﴾ يثير الخيال من مخاوف مألوفة لديهم، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١)، ولم يقل عذاب الظلة، وبهذا الاعتبار حسن جعل إضافة العذاب إلى اليوم العظيم كناية عن عظم ذلك العذاب.

• ما سبق من المعاني لتلك الكلمات القليلة المضيئة، يظهر بجلاء هذا العلو، وتلك الدرجة المثيفة للنبي ﷺ التي يقطع العقل بحصولها له.

وتمضي ألفاظ الآية الكريمة في توضيح جانب آخر يدل على عصمة النبي ﷺ لتكتمل جوانب الصورة وذلك قوله: ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾^(٢) فقوله: ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ جملة من شرط وجزاء وقعت موقع الصفة لـ ﴿عَذَابٍ﴾، ومعنى وصف العذاب بمضمون جملة الشرط والجزاء، أي من وفقه الله لتجنب أسباب ذلك العذاب فهو قد قدر الله له الرحمة، ويسر له أسبابها، وبالتأمل يتضح أن المقصود من هذا الكلام إثبات مقابل قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٣) كأنه قال أرجو إن أطعت أن يرحمني ربي، لأن من صرف عنه العذاب فقد ثبتت له الرحمة، فجاء في إفادة هذا المعنى بطريقة المذهب الكلامي، وهو ذكر الدليل ليعلم المدلول، وهذا ضرب من الكناية، وأسلوب بديع بحيث يدخل المحكوم له في الحكم بعنوان كونه مفردًا من أفراد العموم الذين ثبت لهم الحكم.^(٤)

^١-انظر الطاهر ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٦/١٦١).

^٢- انظر الطاهر ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٦/١٥٨).

ولما كان رجاؤه الرحمة بطاعته دل على عصمته؛ لأنه ﷺ أول المرحومين، وأعظمهم تحصيلاً لرحمة الله سواء بعنايته في الدنيا؛ بالوحي له، واختصاصه به، أم في كونه أول المسلمين، كما أمرته الآية السابقة أن يقول بذلك، وهى قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، أو بكونه هو الرحمة نفسها كما مر معنا في قضية يوسف عليه السلام.

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٥١﴾ تعقيباً على صرف العذاب، دليل أن من صرف عن العذاب، أو صرف عنه العذاب على حسب عود الضمير فقد دخل في النعيم في ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ومعلوم أن النبي ﷺ في الدرجة العليا من النعيم في الفردوس الأعلى، ليس ممن يصرف عنه العذاب، بل هو صاحب الوسيلة^(١) التي ليست لأحد من الخلق إلا هو - عليه الصلاة والسلام - فكان ذلك برهان كونه المنزه الأول عما يشوب هذه المنزلة من المعصية، أو يחדش تلك الدرجة من الرحمة بالمخالفة، ويؤيد ذلك أن في الآية تعريضاً بأنهم عصاة، مستحقون لعذاب يوم عظيم أولئك المخالفون للنبي ﷺ، فكيف يقع منه هو أدنى مخالفة أو معصية.

ما زالت الآيات الثلاث تبوح بشيء من معانيها، تجود بها:

من ذلك شمولها للتوحيد والعبادة، والخوف من المعصية، مع التأكيد على دلائل الوحدانية التي لا يمكن معها إلا التسليم للرب عقلاً وسمعاً، وتكون المخالفة ساعتها أقبح القبائح، خاصة إذا اقترنت هذه الآيات بأمر النبي ﷺ أن يقول ذلك، مبلغاً إياه عن ربه.

^١ - وذلك فيه من معنى البعد ما يؤذن بعلو درجته، وبعد مكانه في الفضل.

^٢ - إشارة إلى حديث الوسيلة الذي رواه مسلم (٥٧٧).

في الآيات نرى ذلك بأوضح صورة، حيث يقول جل وعلا: ﴿ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أُتْحَدُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام: ١٤] ثم يقول: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ فجاءت هذه الآية الثانية، لتبين بدلالة السمع - وهو الوحي - بعد الأولى التي تحوم حول الدلالة بدلالة العقل، الأمر باتباع دين الإسلام، بل وأن يعلن النبي بناء على أمر ربه أنه أول من أسلم، وهي الكناية التي خاطب العرب بها، إذ هم يعلمون أنه أول من التزم دينه الذي يدعو إليه، ومن ثم كان المعنى المكنى عنه هنا هو كونه الأقوى والأمكن في الإسلام، لأن الأول في كل شيء هو الأحرص على الشيء، والأعلق به، فالأولية تستلزم الحرص والقوة في العمل، كما حكي الله عن موسى عليه السلام قوله: ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإن كونه أولهم معلوماً، وإنما أراد: إني الآن بعد الصعقة أقوى الناس إيماناً، وفي الحديث: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة»^(١).

وعليه فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الأول إسلاماً وإيماناً وإحساناً، في الدنيا والآخرة، وبأمر الله أن يقول ذلك، وفي نفس الآن فإن في الآية تأييساً للمشركين من اتباع دينهم، أو الرجوع إلى دين آبائهم، والذي من معناه التمسك بتوحيد ربه، والالتزام بعبادته، وترك عصيانه، وهو ما يبين في الآيات الأولى المعنى الذي تدور عليه الآيات كافة من كونه في توحيد ربه، والتزامه بعبادته، والاتصاف بأعلى الصفات هو الأول في ذلك.

ونربط ما سبق من سورة الأنعام بما نزل في سورة الزمر، نظرًا لأن الزمر متأخرة النزول عن الأنعام، وهي من قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ وأُمِرْتُ لِأَنَّ

^١ - رواه البخاري ومسلم، وهذا اللفظ لمسلم (٨٥٥).

أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٥﴾ [الزمر: ١١-١٣].^(١)

ونلاحظ في ربط الآيتين قبل الخوض في شيء من التفسير ما يلي:

أولاً: أن سورة الأنعام ذكرت قوله: ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ ، أما في سورة الزمر فجاء قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنَّ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ وتعني في الأنعام عندما عبرت بالفعل أن ذلك يفيد التكرار والدوام منه ﷺ، أي كلما تكرر أمر من الله له، أو نهي فإنه يكون المبادر للاستسلام وللامتثال ومن ناحية أخرى يكون هو الأقوى والأكمل في الامتثال والخضوع، أما آية الزمر، وهي المعبرة بالجملة الاسمية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ فدللت على كون الاستسلام والقوة فيه والحرص عليه سجية للنبي ﷺ، وهيئة راسخة لا ينفك عنها ولا يتحول، وأنه - عليه الصلاة والسلام - يتقبل تلك الأوامر والنواهي ويسارع إليها بسماحة ويسر، بغير مشقة على النفس ولا عنت، وبغير ملل أو ضجر أو استئثار، مهما كلفته تلك الأوامر والنواهي، وقد رأينا تلك القدوة في أصحابه رضوان الله عليهم عندما تركوا أهلهم وأوطانهم وديارهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، وما كانوا ليفعلوا ذلك إلا ولهم أسوة فيه ﷺ وهذه تدل على عصمته، لأنه كلما أمر بأمر امتثل، وكلما نهي انتهى^(٢).

ثانياً: أن الآيات هنا زادت الإخلاص لله تعالى في عبادته، حيث يتناسب ذلك مع السياق، إذ في الأنعام قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٤﴾﴾ ، وهو علاوة على أن أمره بأن يكون أول من أسلم فهو تأسيس للمشركين من طلبهم العودة إلى دينهم، أما هنا فهو الأمر بالعبادة ولا تكون مقبولة إلا بالإخلاص لله تعالى فيها،

^١ - حيث الأنعام في ترتيب السيوطي (٥٤)، والزمر (٥٨)، وكذا في بقية المصاحف، فإن الزمر متأخرة مع اختلاف في رقمها.
^٢ - فلم يكن ثم مجال للمخالفة على الإطلاق، وذلك واضح من أمر الله له بالثناء على نفسه ﷺ، بثناء الله عليه، فأني تأتي المخالفة المؤكد عدم خطورها بباله فضلاً عن وقوعها، وذلك بقوله: "إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم".

فجاء الأمر على هذا النحو فزاد السياق هنا بزيادة هذه الألفاظ معانٍ أخرى تشير إلى ما ذكرنا منها كونه ﷺ مأمورًا بأن يكون أول من أسلم في كل أمره في توحيده في عبادته في إخلاصه، في أعماله الباطنة، وفي أعماله الظاهرة، وهذا ما بينته سورة الأنعام شاملاً قبل ذلك في أواخر آياتها بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لا شريك له، ^١ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وهذا واضح تمام الوضوح في البرهنة على عصمته ﷺ، إذا من كان أول من أسلم، وكانت صلواته ونسكه ومحياه ومماته لله، حتى مماته فمتى يكون للشيطان وأنى يكون له عليه أدنى سبيل أو سلطان، فمتى يعصى ربه؟!!

ذكر الفخر الرازي، وهو بصدد تفسير هذه الآيات معنىً شبيهاً فقال: «في قوله تعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ التنبيه على كونه رسولاً من عند الله واجب الطاعة، لأن أول المسلمين في شرائع الله لا يمكن أن يكون إلا رسول الله، لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ.»^(١)

ثالثاً: ذهب جمع من المفسرين بأن الأمر بعبادة الله تعالى مخلصاً فيها؛ إنها هو علة ليكون أول المسلمين، فمتعلق ﴿ أُمِرْتُ ﴾ محذوف لدلالة قوله: ﴿ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مَخْلَصًا لَهُ الدِّينَ ﴾، والنبى ﷺ كان قد بالغ أشد المبالغة في العبادة من قبل نزول هذه الآيات عليه - كما في سورة طه - وهى متقدمة على كل هذه السور التي فيها الأمر بأن يكون أول المسلمين^(٢) حتى واساه ربه بقوله: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ [طه: ٢] كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى وقد علمنا من سورة المزمل والمدثر اجتهاد النبي عبادة ودعوة من أول يوم بعثه

^١ - الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٤٠٣/١٣).

^٢ - ترتيبها عند السيوطي مثلاً (٤٤) فهي متقدمة على الأنعام ويونس والزمر اللاتي معنا.

الله تعالى فيه.

وهذا يبين الأسوة الحسنة للمؤمنين المتقين من وجهين:

الأول: إذا كان النبي في هذا المقام العالي، وأمر بذلك فمن باب الأولى أن يكون المؤمنون سالكين سبيل الاجتهاد كذلك.

الثاني: وهو خوفه ﷺ من المعصية الواحدة لهول العذاب - كما تدل عليه الآيات - فكيف الحال بباقي الخلق المؤمنين فمن دونهم من المشركين.

ولذلك رأينا تكرير قوله ﴿ وَأُمِرْتُ ﴾ تنويهاً بشأن المأمور به الثاني، وإظهاراً لأهميته، حيث عطف على ﴿ أُمِرْتُ ﴾ الأول، وليس ذلك تكريراً محضاً لسببين:

الأول: أن أمرت الأول لبيان المأمور، وذكر الأمر الثاني لبيان المأمور لأجله بضميمة قيد التعليل.

الثاني: أن قوله في الأول: ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴾ أن العبادة لها ركنان عمل القلب، وعمل الجوارح، وعمل القلب أشرف فقدم على عمل الجوارح، وهو قوله ﴿ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ ، وأما قوله ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فمن معاني الإسلام الأعمال الظاهرة كالصلاة وبقية الأركان كما في حديث جبريل ﷺ فكان أمرت الأول بعمل القلب، والثاني بعمل الجوارح فلا تكرار إذن.

وكل ذلك يدلنا على اكتمال ما به يكون النبي ﷺ في نهاية العصمة، حيث أشارت الآيات إلى أمرين عظيمين:

الأول: يشاركه فيه غيره، وهو أن يعبد الله مخلصاً له الدين.

الثاني: يختص به، وهو أن يعبده كذلك ليكون أول المسلمين.

فأمره يبلغ الغاية القصوى في عبادة الله مخلصاً له الدين، والتي لم يبق معها فكر في معصية أو مخالفة فضلاً عن الهم والوقوع، فجعل وجوده متمحصاً للإخلاص على أي حال كان كما في الآية التي أشرنا إليها: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۗ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]^(١) وتبقى معنا الآية الثالثة وهي: آية سورة يونس، لننظر فيها إذ هي تغطي زاوية أخرى في سياق العصمة، لتكتمل بذلك جوانب الموضوع من حفظ النبي ﷺ وهو الجانب المتعلق بالقرآن الكريم، وتبليغه كما هو، وأنه ليس له أن يقدم فيه أو يؤخر، فضلاً عن أن يزيد أو ينقص، أو يبدل، أو يغير، وما كان له ذلك، وهذا الموضوع هو قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتتْ بِقرءانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ ۗ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي ۗ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۗ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٥﴾﴾ [يونس: ١٠٥].

ونلاحظ في الآية ما يلي:

أولاً: أن سورة يونس في ترتيب النزول قبل سورتي الأنعام والزمر^(٢) وذلك موافق للسياق العام لدعوة النبي ﷺ فبعد تقرير أن القرآن الكريم من عند الله، تأتي الأوامر بالتوحيد، والعبادة وغيرها، وساعتها يؤمر النبي بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ﴾، ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، وغير ذلك من الآيات التي تنبني في محاجتها للمشركين، بل

^١ - انظر لما سبق الفخر الرازي، "التفسير الكبير" (١٣/٤٠٣)، وانظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٢/٤٦١)، الألويسي "روح المعاني" (٣٦٨-٣٧٠/١٣)، والطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٤/٣٥٧)، وغيرهم كأبي حيان "البحر المحيط" (٤/٤٥٤).

^٢ - هي السورة رقم (٥٠) في ترتيب السيوطي، انظر عزة دروزة (١/١٥٥).

وللعالمين على صحة رسالته، وصدق نبوته، إذ أثبت قبل ذلك بالتحدي الذي لم يرد لم يبق إلا العمل والتمسك به، والدعوة إليه.

ثانيًا: إن المشركين طلبوا تغيير هذا القرآن، أو تبديله، وكان من اليسير عليه لو كان ذلك بيديه ﷺ أن يفعل ذلك بدلاً من هذا العناء والشقاء، ولكنه رد عليهم ردًا واضحًا لا لبس فيه، وواجههم مواجهة لا موارد فيها، حاسمة قاطعة لا رجوع عنها، بل لا انثناء لها بأمر هي أركان دعوته وأساسها، وأنه لا يمكن له تحت أي سبب أو ضغط أن يجيد عنها، ولا قيد أنملة، هذه الأمور هي:

الأول: قوله: ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّايَ نَفْسِي ﴾ ليستنبطوا ما يريد أن يؤكد لهم وهو، أن هذا القرآن ليس من عنده، إذ اقترحهم أن يغيره أو يبديله له معنى صريح هو، الإتيان بقرآن آخر، ومعنى كنائي التزامي وهو، أنه غير منزل من عند الله ﷻ، فكان تلقين الله إياه يحمل الردين معًا، ويثبت في ذات الوقت، وكل وقت أن ذلك لم يحدث، ويتلى إلى أن تقوم الساعة أنه ليس من تلقاء محمد ﷺ، ويبين هذا الكلام معنى دقيقًا أنه لم يكن له ﷺ أن يبدل ولا حرف واحد من هذا القرآن، أو يغيره، أو يحذفه، أحب أو كره، تحت أي ظرف من الظروف، أو حدث من الأحداث، مما يبين على صحة القرآن جملة وتفصيلاً، وأنه منزل من عند الله كما بلغه النبي ﷺ.

الثاني: من أمور رد الرسول ﷺ في الآية قوله: ﴿ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ فهو مبلغ عن الله تعالى ما يوحى إليه به، شاءوا أم أبوا، آمنوا أو كفروا، لن يغير ذلك من موقفه شيئًا، وهو منتظر في ذلك حكم الله بينه وبين العالمين، وهو ما يدل على عصمته في تبليغ كلام الله، وأوامره ونواهيه، توحيده وعبادته، سلمه وحره، حياته ومماته، لا يستطيع، وما كان له أن يقول حرفًا واحدًا من عنده لأنه يدخل في التبديل، وذلك أبلغ ما يكون في إظهار عصمته،

وهي علامة باقية إلى يوم القيامة، وبعد مماته ﷺ، ما استطاعت الدنيا - كما أخبر أن تغير مما قال شيئاً - ومن ادعى القول فضح به وظهر كذبه.

والكلام يشير إلى عصمته بإشارة أخرى، وهو في جملة: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ حيث هي تعليل لجملة ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ أي ما أتبع إلا الوحي، وليس لي تصرف بتغيير^(١)، واتباع الوحي: تبليغ الحاصل به وعدم تجاوزه في الاقتفاء، أي عملاً وتبليغاً، إذ الاتباع مجاز في عدم التصرف، بجامع مشابهة ذلك للاتباع الذي هو عدم تجاوز الاقتفاء في المشي.

وإن دل ذلك دل بوضوح على أنه في التزامه أوامر الله وتبليغها لا يتزحزح فيها قيد شعرة عما يوحى إليه، وما كان، وبالتالي لن يكون، وهي العصمة الكاملة للنبي ﷺ باتباعه التام والكامل والدائم للوحي المنزل عليه والذي لا حول له فيه ولا تصرف، ومن ثم قال في الآية التالية: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١١٦]^(٢).

الثالث: وهو في قوله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهي واقعة في موضع التعليل لقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وهي قاطعة لأطباع المشركين، ولكل أحد يروم محادة الإسلام، سواء بتغيير هذا القرآن أم تبديله أم العودة إلى دين المشركين كما طلبوا منه ﷺ، أم بمهادنتهم بترك الاستهانة بأهنتهم، أم بعصيان الله تعالى أي

١- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١١٨-١١٩/١١).

٢- وجملة "من تلقاء نفسي" ليس معناه أنه يجوز أن يبدل من تلقاء الله تعالى التبديل الذي يرومونه، ودل السياق أن الإتيان بقرآن آخر بمعنى إبطال هذا القرآن وتعويضه بغيره، وأن تبديله بمعنى تغيير معاني وحقائق ما اشتمل عليه ممتنع. انظر لذلك الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١١٨-١١٩/١١).

معصية كانت لأن ذلك مؤداه إلى عذاب لا قبل لأحد به، فهو مانع أي العذاب لمن كان في مقام الرسول القدوة أن يخالف أي مخالفة أو أدنى مخالفة كانت لذلك الوحي، مما يؤكد بها لاشية فيه عدم وقوع ذلك منه، وهو الصادق الأمين ﷺ كما سماه المشركون أنفسهم، وتلك هي العصمة الكاملة.

الرسالة
حماد بن محمد بن حماد بن محمد بن حماد

الرسول

صلى الله عليه وسلم

في مكة

الفصل الثاني
من المولد إلى البعثة

من المولد إلى البعثة

تمهيد

وهذا أوان البحث في سيرته العطرة ﷺ، وقد اعتمدت على النقد التاريخي الذي سبق إليه المسلمون في تمحيص صحة الأخبار ونقدها، مع مقارنة تلك الأخبار بالوارد في القرآن الكريم، مع الدراسة النصية والتحليلية لهذين المصدرين، لاستنباط ما تشير إليه النصوص في كلٍّ، مع الاتكاء على التفسير الموضوعي لآيات القرآن الكريم فيما يعد جديدًا - في ظني - لبحث السيرة، مع إضافة جديد آخر كرر بعد ذلك وهو دراسة ما حدث للأنبياء من قبل، وما وقع لهم ليكون دليلاً صادقاً فيما يمكن أن يقع للرسول ﷺ وأصحابه.

ركزت على نقد "مونتجمري وات" ¹ - في النقد التاريخي، وبينت خطأه وخطله لتكون إضافة تتسم بالجدة، ليكتمل بذلك هذا التصور لرسالة حديثة في بحث السيرة، حاولت أن تلم بعناصر البحث كافة - ما وسعها الجهد - وتوفرت لها الطاقة.

وقد اختار الباحث هذا (العنوان) لهذا المبحث، لكون كثير من الكاتبين في السيرة من مسلمين ومستشرقين، جعلوه عنوان هذا الجزء من حياته، وما شمل من سيرته ﷺ وليكون متناسباً أو موافقاً لهم، خاصة مع المستشرقين منهم، في الرد عليهم وتبيين الحق فيما انتهوا إليه، مما يخالف ما انتهت إليه، معتمداً على التحليل التاريخي الذي زعموا، ليظهر بذلك عدم الإنصاف وضعف الأمانة العلمية فيما وصلوا إليه، أو بتحري الدقة - كما سيتضح - فيما أرادوا أن يصلوا إليه.

1 - تم ترجمته في الباب الأول.

وإن هذا الفصل كسابقه يأخذ التنزل التاريخي للقرآن الكريم في الاعتبار وذلك أدعى لمواءمة هذا التدرج في السيرة من المولد إلى البعثة... وليوضح تلك العلامات البارزة وغير البارزة في سيرته ﷺ كما يقولون.

من الجدير أن أقول - بحق هنا - : إنني لم أمتثل لعقدة الخواجة التي روج لها في بلاد الإسلام ذيول المستشرقين والمستعربين في دراسة السيرة وغيرها من علوم الإسلام، ولكنني ملت إلى الحق والإنصاف - واضعاً نصب عيني البحث ما وصل إليه المسلمون من صحيح الأخبار، آخذاً بها، ضارباً عرض الحائط بما يخالفها مما لا وجه له من كلام المستشرقين خاصة إذا كان يظهر العلم والأمانة، ويبطن التعصب الذميمة، والتحامل الفج، مع سوء التوجيه للأخبار والمواقف، والتطاول وعدم الأدب مع القرآن الكريم والرسول المعظم ﷺ، مع نقد هذا الكلام وهذه الآراء في نفس الوقت نقداً نزيهاً، يرمي إلى تبين الصواب ودحض الخطأ والباطل.

ثمة عنصر جديد آخر قد أضيف إلى البحث، وهو الاستدلال بما وقع للأنبيا وأتباعهم على كون مثله يمكن أن يحدث للنبي ﷺ وأصحابه، إذ إن الله قد أمره بأن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، كما سنين ذلك في مواضعه إن شاء الله تعالى، علاوة على أن قصصهم كان عبرة لأولي الألباب، وبالتالي فمن باب الأولى أن تكون سيرته العطرة كذلك، ومن ثم كان إثبات أن مثل هذه الأحداث قد وقعت للنبي ﷺ وأصحابه مما لا جدال فيه، ودليله كما يبدو إجمالاً الآن، وتفصيلاً بعد ذلك في غاية القوة. وفيه كذلك رد من القرآن الكريم نفسه على نفاة تلك الوقائع أو الاعتراض تاريخياً أو غيره على صحة هذه الأحداث.

ونبدأ بعرض السيرة النبوية، مع ما ذكرنا:

المبحث الأول

نسبه ﷺ

أما نسبه الذي يسوقه علماء النسب ﷺ فهو: "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان".

وأما أمه فهي: "آمنة بنت وهب" من بني زهرة، ويلتقي نسبها مع نسب أبيه في كلاب بن مرة.

وقد أجمع النسابون على نسبه ﷺ إلى عدنان - وإن لم ينقل على طريقة نقد المحدثين المسلمين للروايات التاريخية وغيرها حديث صحيح بكامل نسبه^(١) ولكن صحت أحاديث ببعضها.

على أن اهتمام العرب في تلك الفترة الشديد بمعرفة أنسابها، يؤكد أن سلسلة نسبه إلى عدنان موثقة، لكونها معلومة بالضرورة في ذلك العصر، خاصة وأن علماء النسب والأخبار متفقون عليها، ولم يخرج أحد منهم أو من غيرهم يتكلم ولو في واحد من نسبه

1 - سوف نعتمد على نقد الروايات على طريقة المحدثين المسلمين، إذ هي بعد بحث في نظرنا أقوى وأصح ما يعتمد عليه من قواعد في تصحيح وتزييف أي نقل كان حيث لم يسبقهم إلى ذلك أحد، ولم يدانيهم في الوصول إليه أحد.

بإثبات أو حذف، ومثل ذلك توثيق لا يحتاج معه لغيره.

أما نسبه ﷺ من عدنان إلى آدم ﷺ فمختلف فيه، وليس فيه ما يعتمد عليه، وأما ما لا خلاف عليه أن عدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.^(١)

ورسول الله ﷺ مصطفى نسباً وزمناً ونبوة، فالنبوة قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، وأما اصطفاء النسب فقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله اصطفي كنانة من ولد إسماعيل، واصطفي قريشاً من كنانة، واصطفي من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(٢).

ولم يستطع أبو سفيان بن حرب إلا أن يعترف مع عداوته له بأنه ﷺ من أعلى وأظهر أهل الأرض نسباً وأشرفهم قبيلة، وذلك أمام هرقل لما سأله عن رسول الله ﷺ: «كيف نسبه فيكم؟ قال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب فقال هرقل: فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها»^(٣).

1- انظر لما سبق صحيح البخاري (٤/٢٣٨)، ود. أكرم ضياء العمري "السيرة النبوية الصحيحة"، مكتبة أضواء البيان

(٩٠) ط ٥٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م، "السيرة النبوية" مهدي رزق الله (١٠٥) ط ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م وغيرها.

2- مسلم (٢٢٧٦) كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة.

3- صحيح البخاري بدء الوحي (١/٣١).

المبحث الثاني

مولده ﷺ

وقد ولد ﷺ عام الفيل حيث حاول أبرهة الحبشي أن يهدم الكعبة عندما بنى كنيسة باليمن ليحجها العرب بدلاً منها، وكان ذلك عام ٥٧٠ م أو ٥٧١ م^(١)، وقد ولد ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، أو التاسع على رأي بعض الدراسات الحديثة^(٢)، وهذا أمر مجمع عليه^(٣) إذ حادثة الفيل مذكورة في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَزْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل: ١-٥].

لا تكاد الروايات التاريخية تخرج عن الوصف القرآني إلا في تحديد جزئيات يسيرة رواها بعض صغار السن من الصحابة عمن عاصر تلك الفترة كابن عباس وعبيد بن عمير من الصحابة وغيرهما، فقد رأت السيدة عائشة رضي الله عنها قائد الفيل وسائسه أعميين يستطعمان الناس بمكة^(٤).

1- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٩/٤٤٣).

2- الباحث محمود باشا الفلكي فيما ذكره الخضري في محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (١/٦٢)، كتاب محمود باشا: "نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام" (٣٥-٢٨)، ط بيروت.

3- تاريخ خليفة وكل كتب السيرة تذكر مولده عند حادث الفيل!؟

4- ابن هشام "السيرة" (١/٧٥)، خليفة، "التاريخ" بسند حسن.

ذهب بروكلمان إلى التشكيك في مولده ﷺ حيث ذكره أنه قبل عام الفيل بعشر سنوات محيلاً ذلك على الأب هنري لامانس، حيث وصف "وات" نفسه هذا هنري بشدة التطرف في تناول السيرة، وكتابات غيره وتثير الغثيان^(١)، وما ذلك منه إلا لسلب دعوى النبوة عنه ﷺ حيث لا يكون سنه عند الرسالة أربعين عامًا، والرسول تبعث في سن الأربعين؛ مما يدل على عدم صحة النبوة، هكذا بغير بينة ولا برهان يغير هذا المؤلف التاريخ ويخترع روايات لا أصل لها، ليصل بها إلى ضلاله كل ذلك باسم العلم^(٢) وقد صحح بما لا شك فيه أن رسول الله ﷺ صدع بالدعوة عند سن الأربعين، ولم يخالف في ذلك أحد من العالمين حتى جاء لامانس فاخترع هذا الكذب على الله وعلى التاريخ وعلى الناس^(٣).

ولد رسول الله ﷺ يتيمًا، فقد مات والده وأمه حامل به، وهو المشهود الذي تقطع به الآية القرآنية الكريمة: ﴿أَلَمْ نَجِدَكَ يَتِيمًا فَقَاوَىٰ ۖ﴾ [الضحى: ٦] وهو أبلغ اليتيم وأعلى مراتبه^(٤)، وبذا شاء الله تعالى أن ينشأ ﷺ كذلك ليتربى بعيدًا عن أبيه وأمه وجدته، وأن يقضي معظم طفولته في بادية بني سعد مسترضعًا فيهم لإبعاد الريبة، وإيهام الناس أن نبوته إنما هي توجيه وإرشاد آبائه حيث مكانة جده العالية في مكة حينئذ.

وإنما يتمه كذلك أسوة في كل زمان ومكان ليعرفوا أن اليتيم ليس بلاء يمنع صاحبه من الوصول إلى أعلى المراتب دنيا وأخرى، ولنفرض أن عبد الله أباه ﷺ بقى حيًا! فماذا عسى كان

1- "وات"، "محمد في مكة" (٤٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، وحسين عيسى، مراجعة د. أحمد شلبي.

2- بروكلمان، "تاريخ الشعوب الإسلامية المغرب" هامش (٣٢).

3- انظر ابن سعد: "الطبقات الكبرى" طبعة الطبري (٢٠٢/٢)، ابن حزم: "جوامع السيرة"، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد (٥)، وابن القيم "زاد المعاد" ط الرسالة (١/٨٤)، ابن سيد الناس، "عيون الأثر"، مجلد ١، (١١٠)، وغير ذلك.

4- انظر ابن كثير "السيرة النبوية" (١/٢٦٠).

يفعل لابنه؟ هل كان يمكن أن يهب له النبوة لو كانت كسباً فكيف وهي اصطفاء؟ نعم الأب عنصر من عناصر شتى تؤثر في الطفل، وتحفر له في الحياة مجراه.^(١)

وكان من عجيب الشأن أن سمي محمداً حيث وردت روايات ضعيفة عن أمه وجده أنها اللذان سمياه محمداً، ولكن عموم سنة العرب مغنياً عن النقل، حيث قيام عبد المطلب بابن ابنه اليتيم، وسروره به، سلوى عن عبد الله بن عبد المطلب مما لا يحتاج إلى إثبات، خاصة وأن تسميته محمداً أعظم وأشهر شيء في تاريخ الإنسانية إلى زوال الدنيا، وختنه وعمل له وليمة على عادة القوم، لم تصح بذلك روايات نعم مع أنه ثابت مشهور مما يحتاج معه إلى نظر وتأمل في إثبات التاريخ مع منهجنا الذي سرنا عليه في التدقيق وإخضاع السيرة للنقد الحديثي إن ذلك يحل مشاكل كثيرة في نقد الرواية، وإثبات التاريخ والسيرة وغيرها بذلك.^(٢)

إرهاصات مولده - صلى الله عليه وسلم:

وهي إرادة الله تعالى في الأمور العظام التي يقضيها شرعاً وقدراً أن يُوطئَ لها بين يديها مقدمات وتوطئات تؤذن بها، وتدلل عليها، وسنضرب لها أمثلة تبينها وتوضحها إن شاء الله تعالى.^(٣)

أولى هذه الأمور العظام في الدنيا والآخرة هي ولادته عليه الصلاة والسلام وقد تناول كتاب السيرة من مسلمين ومستشرقين هذه الإرهاصات وغيرها كلٌ بحسب منهجه في

1- انظر مهدي رزق الله "السيرة النبوية" (١٠٩)، وكذلك محمد الغزالي "فقه السيرة" (٥٩).

2- نقد الروايات، ضعفها مع اشتهاار الوقوع، فهل للواقع، والشهرة، وموافقة عادات القوم وغيرها لها تأثير في تصحيح وقوع الحادثة بغض النظر عن السند؟!

3- انظر ابن القيم، زاد المعاد، (٣/٣٠٩)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، طبعة الرسالة.

معالجة السيرة، لأن المصادر مثلاً هي التي تشكل الرؤية المعرفية للباحث، مع قيمة البحث، أو بالاعتقاد المسبق فيما يكتب حيث يصل بنتيجة بحثه إلى ما يصبو إليه مما كان يعتقد، أو بنظرته وآرائه المكونة ابتداءً، مع يقينه بصحة الموضوع في الجملة، والأخير هذا فعل المسلمين من المدرسة العقلية، كـ"محمد الغزالي" في "فقه السيرة"، حيث تحمل من عوامل التهافت والسقوط أكثر مما تحمل من عوامل العقل والإقناع والثبات، وسنين ذلك في هذا البحث وغيره، أما الأولون فيمثلهم المستشرقون، إذ ناقشوا وكتبوا بمنهج آخر لا يمت إلى إثبات الوحي بصلته، ونفي علاقة السماء برسول الله ﷺ مما حوّل البحث إلى بحث مادي علماني وإن ادعوا التوحيد، وظهر بالتالي أن مقصود بحثهم هو الطعن في محمد والإسلام، وتجريده من صفات المرسلين ودعوة النبيين، ونسف النبوة عنه، والتشكيك في كل ما يدور حول ذلك، لابسين في ذلك سرايل العلمية والإنصاف، وأمثلهم في هذا السوء هو "وات" الذي يسمي قول وبحث إخوانه من المستشرقين بالغثيان وشدة التطرف فجاء ليقول قولهم ويصل بنا إلى نتائجه، ولكن بدون غثيان يذكر، أو شدة يلحظها غير المدقق والمحقق.

وباقى الكاتيب المسلمين فمدرستان:

الأولى: قبلت كل ما جاء في كتب المتقدمين من هذه الإرهاسات ودافعت عنها وبعضهم رد على المستشرقين في إثبات ذلك^(١)، وقد جمعوا ما صح وما لم يصح من الروايات والآثار، حيث هالهم سوء صنيع هؤلاء، ومخالفتهم للعقل والواقع، وتشكيكهم فيما ارتضوا هم أنفسهم من مصادر السيرة الإسلامية حيث لا يملكون في بحثهم سواها، مع اختراعهم في آخر الزمان لأحداث لم تقع وبنوا عليها للأسف ما أرادوا التوصل إليه من نتائج.

1 - منهم عبد الله محمد الأمين في أطروحته للماجستير "الاستشراق في السيرة النبوية".

الثانية: وهي مدرسة جد حديثة تقوم على تمحيص الروايات، وقبول الصحيح، ورد الضعيف مهما كان مساعداً في إثبات قضايا التاريخ والسيرة، إظهاراً للحق وإنصافاً للحقيقة، حتى وإن تهلل لها المستشرقون، لأن اعتقادهم في صحة منهجهم، وإثباته بالصحيح من القول ينتهي بهم إلى نزاهة النتيجة وقوة برهانها، وهي مغايرة تماماً لنتيجة المستشرقين لأن هذه منبئية على التضليل مع الترصد وسبق الإصرار وغير ذلك، بل هي نتيجة معدة سلفاً بخلاف تلك.

قبل بداية البحث في هذه النقطة نذكر بما زدناه جديداً في الرسالة من المقارنة مع القرآن الكريم لندلل على صحة ما نود الوصول إليه، وكان التأمل في هذه النقطة بالذات مثار عجب الباحث، إذ كانت وحدها كافية في إثبات إرهابات المولد النبوي الشريف، بأكثر مما ادعى أصحاب المدرسة الأولى نفسها التي جمعت الغث والسمين، وبالتالي ردت على أصحاب المدرسة العقلية من المسلمين، ومتبوعهم من المستشرقين (نسميها بالحق مدرسة الادعاء العقلي) وسيكون القرآن الكريم عمدتنا في السيرة مع ما صح من نقد الروايات بعد ذلك في هذه الرسالة بفضل الله تعالى، إذ هو الدليل والمدلول عليه.

ونبدأ بما روي عند ولادته ﷺ وما بعدها من إرهابات، نذكرها بترتيبها الزمني بعد ذلك كما التزمنا، وكما هو يتناسب مع كُتَاب السيرة.

لقد رويت قصص وأخبار حول صفة حمل أمه به، وأنها لم تر أخف ولا أيسر منه، وأنها رأت بشارة بجليل مقامه، وأمرت بتسميته محمداً، كما وردت أخبار ذكرها تفيد أنه "وقع حين ولادته معتمداً على يديه، رافعاً رأسه إلى السماء"، وأنه ولد مختوناً، أو ختنه جبريل عليه السلام.

ورويت روايات حول هواتف الجنان في ليلة مولده، وتبشيرها به، وارتجاس إيوان

كسرى وسقوط أربع عشر شرفة من شرفاته، وخمود نيران المجوس، وغيض بحيرة ساوة. وهذه هي الأخبار الضعيفة والموضوعة مع الخلاف في صحة بعضها.

أما ما احتف بمولده ﷺ من صحيح الأخبار وحسنها، فمنها قوله هو ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، رأيت أمي حين حملت بي كأن نورًا خرج منها أضواءت له قصور بصرى من أرض الشام».

وإخبار يهود بليلة مولده وكذلك قصة الفيل توطئة وإرهاصًا لظهوره، حيث دفع الله تعالى نصارى الحبشة عن الكعبة دون حول من العرب المشركين تعظيمًا لبيته^(١).

بقي النظر وتحليل هذه الأخبار..

ذهب أصحاب المدرسة الإسلامية الأولى إلى ورود وصحة بعض هذه الروايات، خاصة بسبب وقوع الاجتهاد في التصحيح والتضعيف مع أصحاب المدرسة الإسلامية الثانية، مما جعلهم يحتجون بهذه الروايات على المستشرقين، خاصة وأن المستشرقين يعتمدون نفس المصادر، ومن ثم تجاهل "وات":

أولاً: هذه الأخبار كلها، وليس له من دوافع إلا أنه لا يمكن أن ينكر مصادره التي يتكأ عليها في أبحاثه.

ثانياً: أنه أعتمد المنهج الانتقائي فما يشعر من بعيد أنه يؤيد دعواه - ولو كان غير صحيح - يذكره ويبني عليه قصصه الكوميدية والتراجيدية، كتفسير آيات سورة النجم، وما ينكر دعواه ويغلق قضيته إما أن يتعامى عنه أو يشكك في صحته، ومن هذا تلك الإرهاصات عند ولادته الشريفة ﷺ لأنه بإثباتها يثبت ما سعى حثيثاً في كل أبحاثه، بل

1- ابن القيم، "زاد المعاد" (١/٧٦)، القسطلاني، "شرح المواهب اللدنية" (١/١٣٠).

بطول حياته وعرضها أن يدحضه، وهي دعوى نبوة النبي ﷺ.

كان رد أصحاب المدرسة الأولى مع ذلك قوياً^(١).

أما أصحاب مدرسة التدقيق في قبول الروايات فيكفيهم ذلك الصحيح، وإن كانوا يعتقدون بوقوع إرهاصات عموماً تمهيداً لمجيء النبي ﷺ؛ لأن تلك سنة الله تعالى في إرسال رسله، ثم هم يؤمنون بمحمد نبياً ورسولاً بما لا يحتاج معه إلى تأكيد.

ومعركتنا العقلية والعلمية إذاً والتي سنطيل القول فيها، هي مع العقلانيين - زعموا - ومتبوعيههم من المستشرقين لتبين الأساس الحق لهذه القضايا عموماً.

زعم الشيخ محمد الغزالي، وهو مؤمن بالرسالة والوحي الإلهي لرسول الله ﷺ أن محمداً ولد بمكة ولادة معتادة، لم يقع فيها ما يستدعي العجب أو يستلقت النظر.

وقال أيضاً: (وقد روى البعض أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد، فسقطت أربع عشرة شرفة... إلخ).

(وهذا تعبير غلط عن فكرة صحيحة، فإن ميلاد محمد كان حقاً إيذاناً بزوال الظلم واندثار عهده واندكاك معالمه).

(ورسالته أخطر ثورة عرفها العالم لتحرر العقلي والمادي).

(ومحمد غنى عن هذا كله، فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف يزهدنا في هذه الروايات وأشباهها).^(٢)

1 - عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية"، (٦٠).

2 - انظر محمد الغزالي، "فقه السيرة"، (٥٨-٥٩).

وهذا الملخص هو اعتقاد الشيخ في هذه القضايا وأشباهها، مع زيادة تعبيرات طفيفة لدوافع ذلك هنا أو هناك، وكل ذلك لا يزيد عن كونه التأثر بعقدة الخواجة بل هو كلامه خاصة عند تفسيره الإنشائي بأسلوبه الخطابي لعلم النبي ﷺ بما أطلع عليه سبحانه من الغيب، وبما أيده به من معجزات.

ونحن نرد عليه ردًا لمن تبع من المستشرقين دفاعًا عن السنة، وبالتالي عن الإسلام وإن كان لا يحتاج دفاعًا خاصة من أمثالنا، إذ هو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد يرى بعض في ذلك إظهارًا للتلبس في ثوب العقل، والتضليل في سربال العلم، وإن كان هو لا يقصد ذلك، وقد وجدنا مغبة ذلك وعاقبته في مسلمين بكل سهولة يدفعون الدين، ويردون السنة بدعوى مخالفتها للعقل، وإن فلانًا قد قال، ورد ذلك، وإن ذلك مخالف للعقل، ولا يمكن أن يأتي الإسلام بهذا أو أن يأمر بذلك... إلى آخره مما صار الدين معه متعلقًا بعقول الناس وأصبح التشريع أصولاً وفروعاً موكولاً إليها، لا إلى الله ورسوله ﷺ، مما سهل الغزو الفكري لأهل الكفر، وصارت التبعة والعمالة الفكرية لهم فيما ذهبوا إليه، حيث وفر ذلك عليهم الغزو العسكري، وإن كان فقد سبقه الاستسلام الفكري والخواء الروحي، حيث دمرت حصون المسلمين من الداخل.

نعود لنناقش الشيخ من كلامه هو أولاً، ثم نبين كيف عالج القرآن الكريم هذه القضايا.

يقول الكلام في الإرهاصات تعبير غلط عن فكرة صحيحة، فإن ميلاد محمد كان حقاً
إيداناً بزوال الظلم...

وهذا كلام متهافت مغالط للواقع للأسف، فبحثنا هل حدثت إرهاصات عند مولده أو لا؟ ولم نقل هل كان مولده إيداناً بزوال الظلم... أم لا؟ لأن هذا رجم بالغيب ادعيته

وأنت المنكر لعلم الغيب للرسول فضلاً عن غيره.

ثانياً: من الذي أدري الموجودين أيامها أن هذا المولود الذي ولد ولادة عادية سيزول الظلم على يديه، ومن كان يستطيع أن يدعي ذلك إلا ضاربو الودع الذين يمقتهم الشيخ، أي بعد أن زال الظلم بدينه ودعوته وجهاده في سنين طويلة تجيء لتقول كان مولده كذا، تراك لو كنت موجوداً حال مولده كنت ستقول بأن هذا الآتي إلى العالم سيدك معالم الظلم، على أحسن الأحوال ستجد من يردك تكديباً لك.

ثم يواصل مسلسل الإنشاء بأن رسالته أخطر ثورة... وهي ألفاظ غريبة على الحس الإسلامي نفسه بعد ذلك، وهو كلام في غير محله، يراد به كلامٌ في محله ولو قلنا بقولك لكان أصحاب الإرهاصات أقوم قِيلاً، لأنهم لو قالوا هذا المولود الذي صاحبه هذه الإرهاصات سيكون له شأن، لكان لهم دليل على قولهم يوم لم يكن لقولك شبهة دليل.

وتستحکم عقدة الخواجة بقوله محمد غني عن هذا كله، فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف يزهدهنا في هذه الروايات وأشباهها.

إن النصيب الضخم له من الواقع المشرف هنا أشبه بكلام "وات" عندما أراد أن ينفي عنه ﷺ أنه أرسل لكسرى وقيصر للدخول في الإسلام فيقول: (إن مثل هذا الحكيم والسياسي الداهية لا يمكن أن يدعو قيصر الروم والإمبراطور الفارسي للدخول في الإسلام)^(١). وهو يحاول بذلك هدم فكرة عالمية الدعوة.

هذه المقولة تُشعر أيضاً بعدم دخول النبوة واصطفائها في حسابه وإن البشر العاديين يمكن أن يكون لهم نصيب ضخم... إذاً ما الفارق!؟

1 - انظر عبد الله النعيم "الاستشراق في السيرة" (٤٥).

ثم نعود فنسأل متى عرفت هذا النصيب الضخم ومن الذي أدراك به، وبحثنا هل حدث ذلك عند ميلاده أم لا؟ إن الذين نقلوا لك هذا النصيب الضخم هم في مجملهم من نقلوا هذه الإرهاصات فلماذا التحكم؟ وما التحكم إلا بالهوى المغلف بالعقل المدعوم بعقدة الخواجة.

ونعود إلى القرآن الكريم لنبين أن الإرهاصات العظيمة مع مولد عظماء الدنيا والآخرة هي إرادة الله تعالى المتبعة، وأن ذلك واقع لا خلاف عليه، وما يمكن ليقع ذلك في خلقه سبحانه عبثاً لا حكمة فيه أو لا معنى له، وإن ذلك الواقع الذي ذكره القرآن الكريم مع بعضهم لا شك وقع مع سيدهم وسيد البشر سيدنا محمد رسول الله ﷺ، ونذكر اثنين من رسل الله وقع في ميلادهم شيء من عظيم الإرهاص، عيسى وموسى عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ندلل بهما على ذلك.

ونبدأ بعيسى عليه السلام لقرب عهده من النبي ﷺ، ولكثرة المنتسبين إليه اليوم ولنرد من خلاله على "وات" حيث يدعي هنا التوحيد، حتى إذا جاء لرسول الله ﷺ انقلب التوحيد إلى مادية وعلمانية، وهي إحدى أسس "وات"⁽¹⁾ وغيره في التعامل مع السيرة، ونحن نغفل من بحثنا من اتسموا بالوقاحة والتدني الخلقي.

أوائل الآيات التي نشير إليها هي في سورة مريم لقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا ﴿١٩﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿٢١﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٢٢﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٣﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَہٗ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢٤﴾ * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٥﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٧﴾ وَهَزِي

1 - وهي تعامل "وات" المادي والعلمايي مع السيرة، بعد أن أشرنا إلى الهدم والبناء وإلى التشكيك.

إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿١٦٦﴾ فَكُلِي وَأَشْرِي وَفَرِي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي
 نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿١٦٧﴾ فَأَتَتْ بِهِمْ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُمْ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿١٦٨﴾
 يَتَأَخَّتُ هُرُونًا مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوَاءً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿١٦٩﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ
 صَبِيًّا ﴿١٧٠﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿١٧١﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
 وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿١٧٢﴾ وَبِرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿١٧٣﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ
 أُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٧٤﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٧٥﴾ [مريم: ١٦٦-١٧٤].

ونحن فقط نقرأ النص نتلمس فيه مواضع الإرهاص، مع المقارنة عند الضرورة ببقية النصوص، إذ ليس المقصود تفسير هذه الآيات إلا ما يتعلق بالسيرة ولولا إقرار هذا الأساس الثابت في فهم سيرة النبي ﷺ، لم يكن لهذه القصة بنا تعلق.

إن أول ما يصادفنا في الآيات الكرييات هو تمثل الملك - روح القدس - المعبر عنه بروحنا^(١) بشراً وفيها أن الله جل وعلا يمكن أن يرسل لامرأة فضلاً عن رجل يوحي إليه بملك، وأن يكون الملك هو جبريل ويأتي في صورة الإنسان السوي، يخاطب فيها الإنس جهاراً بما شاء من أمر الله، أو أن يوقع بهم مراد الله تعالى، وفي حق مريم يقول: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ ﴿١٦٦﴾، أفلا يُعد مجيء جبريل على هذا النحو إرهاصاً يبشر بعيسى وإيداناً بحلوله هذا العالم، حيث يؤكد أنه جاء ليهبها الغلام الزكي ﷺ، فهو توطئة لمجيء السيد المسيح وقد هالها عليها السلام وكبر عليها أن تلد لغير زوج وهي من هي شرفاً وطهرًا وقنوتاً لله تعالى، وكان رد جبريل ﷺ الذي يجب أن يصفع به في وجه العلمانيين والماديين والعقلانيين، (كذلك قال ربك هو علي هين)، فمثل هذه الإرهاصات وغيرها يعد بعيداً في نظرهم العقلي القاصر سهل على أمر الله، لا راد لقوله ولا معقب لحكمه، إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

١- التحريم: ١٢.

وأن ما يقع فهو الدليل بين يدي الآية العظيمة التي ستملاً الدنيا بعد ذلك:

﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾، بين يدي النبأ العظيم الذي له حكمته، والفعل المبين الذي يدل به الرب على رسالته ونبوته ﷺ، وهو أمر قد قضى رحمة بالحكمة لا عبث فيه ولا لهو به.

ثم بعد ذلك يظهر من يرفع عقيدته ليقول لقد كانت ولادة محمد ولادة معتادة، ليس فيها وفيها، لا تفرق عن أي ولادة، وكأنه لو قال صاحبت ولادته مجيء جبريل، وحدث وحدث سيكفر بالله، ويمرغ بكرامة العقل التراب، ماذا تساوي تلك الإرهاصات في قوة الله وقدرته وعلمه وحكمته حتى يجادل فيها، وتنفي معانيها، إنها كانت لحكمة كما أراد الله الأولى معرفتها، بدلاً من التشكك في قوته التي لا تقهر، وعلمه الذي أحاط بكل شيء، وما هي إلا عقدة الخواجة والتبعية.

ونذكر هنا ما لا يصح بعد ذلك أن يغيب عن الذهن، بل يثبت في ذكر الباحث وغيره ويكون منه دائماً على ذكر، ما وقع في سيرة النبي ﷺ من مثل ذلك، وأنه ليس خارجاً عن علم الله تعالى وقوته وحكمته وقدرته، وتما رحمته، ومثاله الذي سيصادفنا توّاً هو شق صدره الكريم ﷺ في ديار بني بكر عندما كان عند مرضعته حليلة السعدية وغير ذلك من المرات التي حدث له فيها ذلك.

ترى بعدما حدث مع مريم - عليها السلام - يمكن أن ننكر شيئاً من ذلك؟! بل أكثر منه وأعظم، وإن حدوث ذلك من المعتاد في أفعال الله تعالى، وأن الصحيح مقابلته بالتسليم، وفهم غايته وسمو وجاهته ووجهته، لا أن يتبع فيه الباحث وغيره المبشرين الذين كل همهم نفي الوحي وإلغاء النبوة ووصم النبي ﷺ بما لا يعقل رفعاً لثقة المسلمين عن دينهم، ورمي الصادق الأمين بالكذب.

فكانت القاعدة أن ما ثبت صحيحاً عنه ﷺ وجب تلقيه بالقبول والإذعان، فكل ما حدث له إذا ﷺ إلى أن لقي الله تعالى لا يخرج عن أمر الله وقدرته وحكمته ورحمته إلى آخر أسماؤه الحسنی وصفاته العلیا، مما يعد التشكيك فيه أو الرد له، إنما هو رد لما هو آت عن الله جل وعلا وتشكيك فيه.

نعم تحتاج أمور الشريعة إلى مهرة في الكتاب والسنة ومقاصد الشرع ليكون زمام العلم والفهم والتوجيه والإرشاد بأيديهم بعيداً عن عبث العابثين والأدعياء الجاهلين ليظهروا نور الشريعة المشرق وبعدها عن أي اضطراب وتناقض.

نستكمل نظر بقية آيات قصة عيسى عليه السلام إجلاء لبعض العبر التالية لما ذكرنا، بقول الحق تعالى: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مَثُ قَبَلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنَسِيًا ۝ فَنَادَى مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا نَحْنِي... ﴾.

إن مناداة هذا المولود لأمه لحظة ولادته بما يثبت قلبها، ويذهب حزنها، ويقويها على ما ستواجهه من قومها في شرفها وسمعتها، أليس هذا إرهاصاً بأن لهذا المولود شأنًا، يواجه به الدنيا، مستندًا لخالقه، هذا المولود الذي ليس لها فيه أي اختيار إلا البكاء لمنع مجيئه، وإلا كونها المبتلاة بحمله ليس إلا، والتي تتمنى من كل قلبها حال المخاض أن تموت ولا تراه.

أي عقل يدعي عدم إرهاص ذلك الأمر، وأنه إيذان بحدث جليل يملأ الدنيا ويكون علامة من علاماتها البارزة والشاغلة إلى يوم القيامة، إن الآيات تصحبنا مع المولود ليواصل كلامه لأمه بأنه سيتصدى هو لما يعترضها من متوقع المحن، وسيتكفل بالتوضيح والشرح والرد، إظهاراً لمن هو، ليس دفاعاً عن أمه، كأنها لا تحتاج إلى دفع ومناقشة، وإنما تصوم هي عن الكلام لينطق هو، تعرض هي عن من يقابلها من القوم ويتصدر هو، ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾... ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾... ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ ﴾... ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا

كُنْتُ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٥٠﴾. ﴿وَبِرًّا بَوَالِدَيْكَ...﴾ ﴿وَأَسَلْتُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ﴾...، وملتقط كلامه من آخره، إذ لم يبرئ أمه من شيء، بل كان قوله وبراً بوالدي يحمل أعظم معاني التبرئة فإذا به لم يشير إلى براءة أمه مع التقديس لها، والرحمة بها، إن هذا المعجز في كل شيء بار بوالدته، وهذا دليل براءتها، إذا لو كانت متهممة لنطق بإتهامها كما نطق في غيره، لأن الملهم والحامل والقاضي له بذلك هو الله ليس من نفسه أن يتكلم بما شاء، بل بما أراد الله سبحانه وتعالى أن يجريه على لسانه، لأن الله ما يقول إلا الحق وما يسكت عن باطل فضلاً عن أن يقره، أو يقف بجواره، إن ما أجري على لسانه وبدنه وحاله وقلبه هو فعل الله ومراده إلى أن رفعه إليه، إنه ما كان يتكلم أو يفعل إلا ما يمليه عليه ربه، ما ينطق عن هوى، ودليله أنه ما كان ليتكلم حين تكلم في المهد إلا بكلام الله، فلما صار نبياً هل كان يتكلم أو يمر أو يجري على قلبه ولسانه غير مراد الله؟ لا يمكن، وما كان.

تلك حال النبي ﷺ من باب الأولى إنه جاء ليبليغ كلمة الله تعالى، فما كان ليقول غيرها، وما كانت عناية الله إلا أن ترعاه، صبيّاً وليداً تدل عليه، وتشير إليه، وشاباً كهلاً، ورسولاً نبياً إلى أن يلقي ربه، ليس له من نفسه، ولا من كلامه وفعله حظ أو نصيب؛ إذ كل ذلك توجيه الله سبحانه له، لذا يقول: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْإِنسَانِ﴾ [الأنعام: ٥٠].

فمفتاح شخصية الرسول إذاً أنه يقول عن الله ويجاهد لتحقيق كلمة الله، ويأخذ أهبطه، ويستعد بكل سبب من الأسباب المشروعة للتبليغ عن الله لا يبالي بشيء ولا يروعه شيء ولا يوقفه شيء، لأن مصدر كل ذلك هو الله جل وعلا، فلا يمكن أن يزيد على قوله أو ينقص أو يخفي، أو أن يعصي في شيء، نحن نؤمن به إذاً لأنه مصطفى من الله تعالى الاضطفاء الذي يرهص له، ويلازمه، ولأن كلمة الله هي المقولة على لسانه.

وذلك ما قاله عيسى عليه السلام في المهدي. إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً. ومن ثم صح أن إتباع النبي صلى الله عليه وآله إتباع لله، وبيعته بيعة لله، وطاعته طاعة لله، فقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنَّا فَمَنْ كُنتُمْ تُوْبِعُونَ فَآتِبُوا اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، إن مفتاح شخصيته هو النبوة التي ثبتت له بلا مرية ولا شك وكل شيء يقع منه يفسر بحساب النبوة، لا بتدابير البشر وحدها، وإلا ما الفارق بين من يوحى إليه وهو مرتبط بأمر السماء، وبين سائر البشر: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

فإذا صح عندنا بالواقع والعقل وغيرهما أنه نبي تغيرت الحسابات، وتبدلت الموازين، وصرنا إلى حال جديد، وسرنا في طريق آخر له قيمه وأخلاقه واعتقاداته ومعاملاته وبدأنا في دفع ضريبة هذا التمسك بذلك الطريق.

إذا نظرنا إلى كلمات أخرى تفسر النبوة في قصة عيسى عليه السلام رأينا يقول: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ وهو يجلي هذه البركة التي سمعنا عنها في سيرة النبي صلى الله عليه وآله ويصدقها، إن قصة رضاعه في ديار بني بكر وما حدث بمجيئه من خصب بعد الجذب، وري بعد الظمأ، وشبع بعد الجوع، وطيب عيش بعد اللأواء والجهد حتى كان البدو يقولون لأولادهم ارعوا في المكان الذي ترعى فيه حليلة، من عظم ما رأوا من البركة، ليدلنا على كلمات الله التي نطق بها عيسى عليه السلام، وتحققت في موصولي الأرض بالسماء من أنبياء الله تعالى وخاتمهم محمد صلى الله عليه وآله.

إن حلول بركته صلى الله عليه وآله التي ينفي لها "وات" وأمثاله القصة من أولها أو يشكك فيها ليس إلا لنفي النبوة، ومع ذلك فقد صرحت بها كلمات الله التي فاه بها عيسى عليه السلام عن الله جل وعلا في المهدي بما لا يمكن تكذيبه أو دفعه أو تأويله.

ومن ثم إذا صادفنا شيء صحيح من ذلك في سيرته - وهو كثير - فدليل صدقه موجود في قصة عيسى عليه السلام، وأصل وجوده عن يده ملكوت كل شيء سبحانه، ولا يكبر عليه شيء.

وتواصل الآيات حديثها بهذا القول الجامع: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ

حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]

إن أهم اللحظات التي تمر على المرء هي لحظة ولادته، ولحظة موته، ولحظة بعثه فإن وفق ونجا ختمت له بخاتمة السعادة في الآخرة، وكان في دنياه على رعاية الله وحفظه وعنايته، فما أحرى الأنبياء أن يحوزوا في ذلك الدرجة الأعلى، ومن ثم كان قوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ إلى آخره تنويه بكرامته عند الله، أجراه الله على لسانه ليعلموا أنه محل العناية من ربه وجيء بالسلام معرّفًا باللام على الجنس مبالغة في تعلق السلام به، حتى كان جنس السلام بأجمعه عليه.

وإن كان يجوز جعل اللام للعهد أي سلام إليه، وهو كناية عن تكريم الله عبده بالثناء عليه في الملأ الأعلى وبالأمر بكرامته، ومن هذا القبيل السلام على رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ومؤذن كلامه بالتعريض بما سيقوله اليهود طعنًا فيه وشتمًا له في أحواله الثلاثة إذ قالوا: ولد من زنا، وقالوا: مات مصلوبًا، وقالوا: يحشر مع الملاحدة والكفرة لأنهم يزعمون أنه كفر بأحكام من التوراة.^(١)

نكتفي من قصة عيسى عليه السلام بهذا المقدار الذي يبين قضية النبوة والاصطفاء، وعناية الله تعالى ورعايته لمن يحببهم، وإظهار الإرهاصات بين يدي مجيئهم إلى الدنيا، وتجلي كلام

1 - انظر الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (١٦/١٠١)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس

الله تعالى على لسانهم وأفعالهم، وإلى آخر ما ذكرنا لنعود إلى سيرة النبي ﷺ نوضح جوانبها على المنهج الذي أخذنا به أنفسنا في تلك الرسالة.

المبحث الثالث

رضاعته ﷺ

كانت عادة الحضرة من العرب أن يسترضعوا أبناءهم في البدو؛ رغبة في تقوية أبدانهم وبعداً بهم عن أمراض المدن، وتعويداً لهم على الاعتماد على النفس منذ الصغر، وتقويماً وحفظاً لألسنتهم من مفسدات اللغة^(١).

صح أن ثوية - مولاة أبي لهب - أرضعته^(٢)، وثبت أن عمه حمزة بن عبد المطلب أخوه من الرضاعة^(٣).

خبر إرضاع حليلة السعدية له ﷺ:

اشتهر عند أهل المغازي والسير أن ممن أرضعنه حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية، وكانت أخذته عند ولادته ﷺ إلى بادية قومها في ديار بني سعد فأقام معها نحو أربع سنين ثم رده إلى أمه.

ولقد تفرد ابن إسحاق برواية خبر الإرضاع الطويل، وذكر فيه تلك الأحداث التي وقعت لحليمة، منذ أن أخذت النبي ﷺ لإرضاعه، وما حدث حينها من بركات النبي ﷺ

1- انظر مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (١١٥-١١٦).

2- صحيح البخاري، فتح الباري، (٩/١٤٠).

3- صحيح البخاري، فتح الباري، (٩/١٤٠)، وصحيح مسلم بشرح النووي، (٢٣، ٢٤/١٠).

التي حلت عليها في تلك السنة الشهباء، وما عاشوا فيه من بركاته إلى أن رده إلى أمه.

وبركاته الحالة عليهم بغض النظر عن صحة هذه الرواية بالذات ليست مما ينكره الواقع والعقل والشرع، فقد ذكرنا في قصة عيسى عليه السلام الشرع الذي لم ينكره الواقع، ولم يدفعه العقل في قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ [مريم: ٣١] فتلك بركات السيد الجليل عيسى عليه السلام فما بالك ببركات النبي الخاتم الذي بشر به عيسى نفسه عليهم صلوات الله وسلامه، وعليه يمكن أن نقول بظهور تلك البركات، فخلال حياته ﷺ في رعاية حليلة السعدية وقعت للنبي ﷺ إرهاصات دلت على تلك البركات، وعلى عناية الله به، وحفظه إياه، حيث دَرَّ ثديها باللبن بمجرد حلول الرسول ﷺ عليها، فارتوى هو وابنها الذي كانت تحمله بعد أن كان يبكي من الجوع لجفاف ثدي أمه، ولا ينام هو وأهله، وامتلأ ضرع راحلتها باللبن بعد أن كان يابسًا، فشبت هي وزوجها، وسبقت راحلتها الركب بعد أن كانت عجفاء تسير في مؤخرة الركبان، وحيثما حَلَّتْ أغانم حليلة تجد مرعى خصبًا، ولا تجد أغانم غيرها شيئًا، وكان ينمو نموًا سريعًا لا يشبه نمو الغلمان، وكل ذلك كما أشرنا شيءٌ يسير في قدرة الله، ووقوعه لأصفيائه من البشر.

نعود إلى حديث حليلة، فقد ذكر المحدثون المحققون أن الحديث ضعيف السند مع أنه خبر مستفيض في كتب السيرة، قديمها وحديثها.^(١)

وأقدم من أورده من كتَّاب السيرة ابن إسحاق (ت ١٥١هـ)^(٢)، وقال فيه الإمام الذهبي: "هذا حديث جيد الإسناد"^(٣)، وقال الحافظ بن كثير: "وهذا الحديث قد روي من

1- أكرم العمري، "صحيح السيرة"، (١/١٠٢) وغيرها.

2- ابن هشام "السيرة" (١٤٩-١٥٣)، وابن حبان "موارد الظمان" (٥١٢، ٥١٣)، وأبو نعيم "دلائل النبوة" (١٩٣-١٩٦ / ١) وغيرها.

3- السيرة النبوية (٨).

طرف آخر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي"^(١)، وقد ذكر الإمام ابن عبد البر شهرته كذلك"^(٢).

وهذا مما احتج به (محمد بن رزق بن طرهوني)^(٣)، مع ما اختطه لنفسه بالاجتهاد في تصحيح وتضعيف روايات السيرة، وبه يتأيد قول من ذهب إلى صحة إرهابات مولده ﷺ التي تُنبأ عما سيكون لهذا المولود العظيم من شأن يمت إلى أسباب السماء بأعظم صلة، ممن ردوا على المستشرقين ومن تبعهم من المسلمين، وبذا يكون لهؤلاء المؤيدين لهذه الإرهابات سلف من الحفاظ والمحققين يدعم موقفهم، ويقوي استدلالهم، ومنهم من هو من المراجع والمصادر للسيرة كتابة ونقداً.

ثم نورد هنا سؤالاً هو: ما المفسدة في إثبات هذه الوقائع التاريخية على المنهج العلمي المزعوم من المستشرقين؟ خاصة وهي ثابتة، مما يؤكد عدم التزامهم ما وضعوا من منهج بالذات فيما يتعلق بسيرة النبي ﷺ والإسلام، لا من قريب ولا من بعيد من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يوجد ما يعتمد عليه هؤلاء المستشرقون سواها، إذ ليس لهم مصادر عاشرت الأحداث، وعاشتها، ولا لهم كُتَّاب كتبوا في السيرة في إبانها حتى يحمل قولهم محمل العلم والجد، بل كل ما هنالك أن ناساً جاءوا بعد أربعة عشر قرناً من الزمان، وبكل وقاحة قالوا هذا حدث وهذا لم يحدث، وهذا لا يمكن أن يحدث تاريخياً"^(٤)، وإن صح، قالوا: وهذا إن صحت الرواية فله معنى آخر، لدوافع ونوازع اخترعوها ملفقة لا علاقة لها بالبحث العلمي، ولا تمت إلى الواقع بأدنى صلة، بل تخالفه وتصادمه، ثم قالوا هذا هو المنهج التاريخي.

1- ابن كثير "السيرة النبوية" (١/٢٢٨).

2- ابن عبد البر "الاستيعاب مع الإصابة" (١٢/٢٦١)، وانظر د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (١٠٢).

3- محمد بن رزق بن طرهوني، صحيح السيرة النبوية المسماة بـ "السيرة الذهبية" (١/٣٣٢)، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.

4- وهذا ما ذكره "وات" سواء في رؤية جبريل، أو قضية الوحي أو غيرها.

وبناءً على منهجهم في فهم دوافع الكاتب ونوازمه، نقول: فما هي نوازع "وات" في ذلك؟ والمطالع لذلك يرى أظهر دافعين لذلك هما نزع صفة النبوة الإلهية عن النبي ﷺ، والثاني أن ما في الإسلام من مبادئ لها قيمة فهي مقتبسة من اليهودية والنصرانية، وكل ذلك لدافع أكبر وأعظم، وهو كيفية هزيمة المسلمين فكرياً إذ لم يستطيعوا هزيمتهم عسكرياً، مع تحصين بني جلدتهم ضد الإسلام، وتشويه صورته من أوله إلى آخره في أعينهم اعتقاداً وسلوكاً، وأنه تلفيقات من اليهودية والنصرانية، مع محاربة المسلمين في عقيدتهم وعبادتهم بمحو الصورة الصحيحة للإسلام ونبيه في عقولهم وواقعهم، وما كانوا كذلك إلا لكونهم رأس حربة التبشير والاستعمار، حيث كانت كل دوائر الاستشراق تعمل بتدبير وترتيب الاستعمار والتبشير في دوائر مخبراتهم، وتراجهم حافلة طافحة بتأكيد ذلك، وبالتالي كانت كلها تصب في تيار محاربة الإسلام وإخراج أهله منه؛ لئتم لهم احتلال أرضه ونهب ثرواته بدون مقاومة عسكرية، وما استتب لهم ذلك إلا بقيام أركانهم التي شيدها بمن تسموا بأسماء إسلامية ليقوموا بهذا الدور خير قيام نيابة عن هؤلاء المستشرقين.

ونحن إذ نذكر ذلك هنا إنما ذلك لتأكيد المعنى الذي لا ينبغي أن يغيب أبداً عن ذهن المسلمين في التعامل مع ما يأتي من كتابة في البحث، ومع جميع ما كتب ويكتب من كلام المستشرقين، وصنائعهم في ديار المسلمين، ومن قلدهم من حسني النية؛ يحسبون أن في اتباعهم التطور والتقدم، إن المتفحص النصف للواقع يرى إننا ما تأخرت حضارتنا وانهارت قيمنا إلا باتباع هؤلاء المجرمين، والعاقل يقول متى أراد عدوك المتربص بك خيراً؟! والواقع خير شاهد على هذا التدهور.

نعود إلى السؤال الذي طرحناه، وهو ما الضرر من إثبات هذه الإرهاصات على المنهج المزعوم، والإجابة إن إثباتها لا مفر من أن يثبت به نبوة الرسول ﷺ، وتنهدم قضيتهم كلها

من أولها، وحيث إن ما أن يسلم "وات" وغيره ويدعو قومه إلى الإسلام^(١)، وإما أن يلتزم الصمت، ولكنه التزم الطريق الثالث، طريق كفار مكة في قوله تعالى: ﴿فَأَيُّهُمْ لَا يُكَذِّبُوكَ وَلَئِكَ الظَّالِمِينَ بَيَّأْتِ اللَّهُ تَجَحُّدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وما كان ليختار هذا الطريق ظلماً إلا من وراء دافع أقوى، وهو محاربة الإسلام، الذي ذكرناه آنفاً.

وقد يقال إن بحثه العلمي قد أداه إلى ذلك، والرد أن يقال كما أشرنا إلى بعضه إنه ليس بحثاً ولا شيئاً، إنه قد جهز وأعد نتيجة المسمى بحثاً أعدها سلفاً، ثم سعى بكل طريق ليثبتها، إن مراده من البحث أن يقدم للمسيحيين في الغرب المادة التاريخية التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند تكوين الرأي اللاهوتي إذ إن موقفه ماض به بقوله: "فإن على المسيحيين أن يتخذوا من محمد - عليه الصلاة والسلام - موقفاً لا بد أن يكون قائماً على أسس دينية لاهوتية"^(٢).

هذا هو "وات" هل تراه قدم لبني وطنه ودينه ما جعلهم يعظمون محمداً ويؤمنون به أو ينصفونه فقط؟! إذن فهل يعتبر أحد أن ذلك الضلال الذي شرهه بنو دينه بحثاً؟ وهل أسلم أحد؟ أو نظر نظرة إنصاف بعد أن قرأ كلام "وات" عن رسول الله ﷺ، أم ازداد غلواً وثبتت أقدامه على الضلال، وعلى النظرة السيئة لرسول الله ﷺ التي لا تمت إلى الله بصلة.

1 - كبعض الأوربيين من أمثال رينيه.

2 - "وات"، محمد في مكة، (٤٠)، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ وحسين عيسى، الهيئة المصرية للكتاب.

المبحث الرابع

منهج «وات» وغيره في تعامله مع السيرة

تكملة للكلام مع بعض الإطالة والتوضيح، يحسن أن نذكر منهج "وات" وغيره في تعامله مع السيرة لأنها كانت جل اهتمامه؛ حتى تتكامل أركان هذا الجزء من البحث^(١)، وحتى إذا جاء لها موضع من البحث نذكر بها، لا نكررها، ونسوقها على ترتيب آخر غير ما ذكره الكاتبون في ذلك مركزين على ما ذهب إليه "وات".

المنهج الأول: هو منهج التأثر والتأثير:

والذي ذهب بمقتضاه من يدعي العلمية والإنصاف إلى تفريغ سيرة الرسول والإسلام كله من الوحي الإلهي، وذلك بإحالته إلى عناصر خارجية كاليهودية والمسيحية بل والفارسية والبوذية، فقد أرجع "وات" الإسلام إلى أفكار (ورقة بن نوفل)، حيث بلا شك تحدث ﷺ مع ورقة المسيحي، إلى آخر هذا الهذيان الذي يغني فساده عن إفساده، حيث يدعي وقوف (ورقة وخديجة) خلف النبي ﷺ يشد أزره مما اعتراه من الخوف، ثم يزعم أن لقاءات متتابعة قد تمت بينه وبين النبي ﷺ تبين تأثره (بورقة) ونقله لما كان يدرسه من

١ - ذكر ذلك عبد الله النعيم، الاستشراق في السيرة، (٣٦)، وقد نقل مثله عن د. عبد العظيم الديب، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، (٩٩-١٠٠)، وتبعهم د. طارق عبد الحميد، شبهات المنصرين، رسالة دكتوراه، (٦٤)، مركز التنوير الإسلامي، ذي الحجة ١٤٢٦، يناير ٢٠٠٦.

الإنجيل والكتاب الأول لمحمد ﷺ^(١)، وهذه النظرية تحتاج أن يكون قد نزل قرآن كما يزعم قبل سورة ﴿أَقْرَأْ﴾ فهو بهذا الخلط، والتجني على التاريخ، وحشود سوء القصد، وسوء الفهم وسلسلة الجنايات على الواقع وتغييره، يجهز خشبة مسرح الضلال للوصول إلى النهاية التعيسة التي رسمها أولاً ضارباً عرض الحائط بالعقل وعقول القارئ وبالمنهج العلمي، فإذا كان محمد يا سيد "الوات" قد تعلم وقعد (لورقة) فما الذي حمله على الخوف والرجوع بعد ذلك لورقة - متخوفاً أن يكون قد أصيب بأذى - إذا كان قد علّمه ذلك من قبل وشجعه، وكلمة الناموس التي ذكرها ورقة وكانت محل فلسفة من "وات" لا علاقة لها بالمنهج التاريخي، كيف لم تُذكر في الوحي ولو لمرة واحدة في سياق التأثير المزعوم؟ ومتى استكمل (ورقة) الطريق مع محمد ﷺ يعلمه وقد مات مباشرة بعد ذلك، ولم يدرك يومه لينصره نصرًا مؤزرًا، ترى "ورقة" كان سينصر محمدًا ﷺ باليهودية والمسيحية، أم بالناموس الذي جاء "وات" ليعطيه معانى غريبة متأخرة من اللغة اليونانية، وهي لا خلاف بين الكفرة المستشرقين قبل المسلمين أن محمدًا ﷺ لم يعرفها من قبل ولا من بعد.

ثم إن ورقة قد مات مسلمًا^(٢)، وذلك في المصادر التي لا يملك "وات" سواها فإذا به يخرع تاريخًا لا أصل له، ويبنى عليه استنباطات الإفك، ثم يأتي سؤال من الأسئلة التي لا حصر لها تحاصر "وات"، وهو لماذا لم يدع (ورقة) ذلك لنفسه؟ وهو الشيخ الكبير الذي له قيمة في قومه، ومتميز بما يعتقد الحق، ويكون لدعوته أثر في مكة، إن المصادر التي تحت أيدينا، وقد ازدادت آلاف المرات عن مصادر "وات" لم تذكر واحدًا فقط دعاه (ورقة)

1- 51-52 Muhammad at Mecca p. - الطبعة المترجمة (١١٩-١١٢) د. عبد الرحمن الشيخ وحسين عيسى،

الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٢.

2- أحمد، الفتح الرباني (٢/١٠٤)، وحسن الساعاتي إسناده، ابن كثير عن أبي يعلى وحسنه في البداية (٣/١٠)، والحاكم في

المستدرک وصححة ووافقة الذهبي من حديث عائشة (٢/٤٠٩).

للنصرانية، وإن ما ذكره "وات" من تشابه بين بعض أحكام اليهودية والمسيحية، لم يقرأها القرآن الكريم إلا بعد استقرار الشرع في المدينة المنورة فأنى لورقة وقد مات مبكرًا جدًا بعد البعثة أن يوحى بها لمحمد ﷺ أو يعلمه إياها، إنه ضلال وخطل ومغالطة، وقل ما شئت من وصف في هذا كلام، نختصر هذا الكلام لنستأنف ما بعده^(١).

المنهج الثاني: المنهج العلماني أو التاريخي:

وهو ما اتبعه المستشرقون ومدعو التوحيد منهم كـ "وات" في عدم إمكان وقوع الظواهر الدينية التي لا تخضع لقوانين الأجسام المادية المعروفة، إذ يقول: "إن العديد من القصص ذات الطابع الديني يكاد يكون من المتيقن أنها ليست حقيقية من وجهة نظر المؤرخ العلماني الواقعية"^(٢) من تلك القصص - كما يلفظ سوءًا - إرهابات النبوة وشق الصدر، ورؤية جبريل، والوحي الإلهي، وكثير سنذكره في حينه مع الرد عليه إن شاء الله تعالى.

المنهج الثالث: المنهج المادي (الاقتصادي):

هو العامل الحاسم في الإيمان، أو لابد من اعتبار هذا العامل^(٣)، حيث يعزو "وات" ظهور الإسلام بأن ذلك كان ردًا على مرض العصر الذي سببه التطور الذي انتقل بالعرب من حياة بدوية إلى اقتصاد حضري^(٤)، وأن القبائل الممثلة في العقبة الأولى كانت مؤلفة من البروليتاريا^(٥)، وأن الطمع في الغنيمة جاء بالكثيرين إلى المدينة.

1 - عبد الله النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، (٣٨-٣٩)، د. طارق عبد الحميد، شبهات المنصرين، (٦٤-٦٥).

2 - عبد الله النعيم، الاستشراق، (٣٩-٤٠).

3 - جعفر شيخ إدريس، منهج "مونتجمري وات" في دراسة نبوة محمد، (٢٣٦)!

4 - "وات"، محمد في المدينة (٣٩٨).

5 - "وات"، محمد في المدينة (٢٦٨).

كان هناك مرض إذن يشمل العرب، حيث تطوروا إلى اقتصاد حضري، يعني افتراض مرض، وهو مرض العصر أيامها، وأن البدو قد أصابهم التطور، والنظر الفاحص يضحك الثكلي من هذا الكلام، العرب أصابهم التطور إلى اقتصاد حضري قبل مجيء الإسلام فدخلوا في الإسلام، وأن التطور قد شمل هؤلاء البدو مع أنهم لا يزالون بدوًا إلى وقت "وات" هذا، إلا أن يكون قد أصابهم التدهور بعد دخولهم الإسلام فعادوا بدوًا كما كانوا، في أي المصادر ذكر هذا الوباء العصري قبل مجيء "وات" لقد اخترع على أسلوب وأمراض القرن العشرين هذه المسميات لواقع لم يره، بل قد ألفه تأليفًا، وإلا ما هذه البروليتاريا التي يسم بها أصحاب العقبة الأولى الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ونشروا الإسلام في المدينة، أين ما كان يطلب هؤلاء "البلاشفة" البروليتاريا (أقصد هداة الإسلام وحملة مشاعل الهداية)؟، إنهم على خلاف ما يذكر حملوا أنفسهم وأموالهم على أكفهم يبذلون كل شيء في سبيل هذا الدين، وهؤلاء الكثر الذين جاءوا المدينة طمعًا في الغنيمة، تركوا أولادهم وأزواجهم وأموالهم وأوطانهم، ومنهم من حمل ماله معه، خلفوا ذلك كله وراء ظهورهم في مجتمع العزوة فيه والبأس والمنعة لتلك العوامل، أين الطمع في ذهابهم إلى مجتمع لا يجدون فيه ما يأكلونه ليقيم أودهم، ولم يكونوا يعلمون على مذهبك العلماني أو غيره، أن هناك غزوة تسمى "بدرًا" سيحصلون فيها شيئًا من متاع الدنيا، حتى ولو علموا فقد كان مرادهم وتشوفهم إلى اليوم وغد وإلى يوم القيامة أن يحصلوا إحدى الحسينين النصر لدين الله والتمكين له، أو الموت دونه، وقد علم القاصي والداني حبهم للشهادة والمسابقة إلى الموت مما أدهش معه المستشرقين بله العالمين.

وإذا كان لنا أن نضرب مثلاً فهذا (مصعب بن عمير)^(١) أنهد شباب مكة هاجر إلى المدينة تاركًا ذلك الغنى، وتلك الرفاهية، ومات شهيدًا في أحد لم يجدوا ما يكفونونه به،

١ - الإستيعاب (١/٤٦٣)، سير أعلام النبلاء (١/١٤٦).

وكثير كانوا كذلك، فأين هجرتهم فضلاً عن إسلامهم للعوامل الاقتصادية، أهذا هو المنهج يا "وات" وقد علمت وذكرت، والكاذب ينسى ما يقول، أن القرآن الكريم كان في بداية ما نزل يحث على النفقة، وعدم كنز المال إلى آخر ما سطرت شمالك، فكيف يعلم قوم بذلك ثم هم يسلمون ويهاجرون لخلافه، والإسلام يطلب منهم المسارعة إلى الخير، وكثرة البذل، وبيع النفس والمال لله تعالى، لقد قالوا بعد فتح خيبر سنة ست للهجرة قبل نهاية الدعوة لم نشبع من التمر حتى فتحت خيبر^(١).

وهذا المنهج في تفسير وقائع التاريخ - وهو همُّ المستشرقين - يفرغ الإسلام من جانبه الروحي، من الإيثار بالله، وتقدير ما عند الله من ثواب على تحصيل الدنيا الزائلة، والإيمان بالآخرة، والتصديق بالوحي، وبموعد الله لهم، إنها إذن من أخبث الأفكار ألا يكون وراء الدنيا دار للجزاء والحساب، وأنه ليس ثم إلا الدنيا واللهث وراء شهواتها، وإنكار كامل للوحي.

أما المنهج التالي الذي استخدمه المستشرقون فهو..

المنهج الرابع: منهج البناء والهدم:

وهو أن يمدح المستشرق الإسلام ونبيه ﷺ في جانب من جوانبه إذا ما كان القارئ مسلماً أو يعرف الإسلام حتى يظن به الاقتناع والنزاهة والموضوعية في أحكامه، ولكنه سرعان ما يهدم ما بناه؛ حتى يعمي على القارئ ليستسلم لكتاباته، ويثق فيها وذلك واضح في كتابات "وات" الذي جعل كثيراً يظنون به الإنصاف والموضوعية والعلمية، فمثلاً عندما أراد أن يهدم عالمية الدعوة، وأن يثلم ثلثة في الإسلام، مدح الرسول ﷺ ليكون طريقاً لذلك حيث

1- البخارى (١٣٦/١٣).

لم يجد ما يرد به ردًا علميًا على إرسال الرسل إلى الملوك والحكام يدعوهم رسول الله ﷺ بدعاية الإسلام فيقول: "لا يمكن قبول هذه القصة كما هي، لأن محمداً كان رجل دولة حكيمًا، بعيد النظر، ولم يفقد عقله، بعد النجاح الذي حققه في صلح الحديبية، ودعوته هؤلاء الأمراء في هذا الوقت تُسبى إليه أكثر مما تفيده"^(١)، فهو يصف الرسول ﷺ بهذه الأوصاف، حتى يقول القائل ها هو ذا "وات" ونظرته إلى الإسلام والرسول فلماذا تهاجمونه، ولكن سرعان ما تتضح لهم الحقيقة لكلام المدح هذا، في نفس الوقت يحمل التكذيب لهذه الوقائع من الرسول، والتي لا مزية فيها، ولا شك في فعل النبي لها، وهكذا بطول كتبه وعرضها، ما رأينا كلامًا فيه مدح إلا وهو مقدمة الذم تتبعها حشود التضليل والتكذيب.

نتقل سريعًا لتكملة الحديث والبحث في بقية المنهج، فيصادفنا

المنهج الخامس: منهج النفي والتشكيك والافتراض واعتماد الضعيف الشاذ:

وقد أسرف المستشرقون في استخدام هذا المنهج بكل بجاحة، مع أنه علم وتاريخ، ولا علاقة لهم به، ولا يد لهم في صنعه، ولا قدرة لهم بأدوات بحثه وتمحيصه، لكن ما يجب أن يأخذوا به هو صحيح هذا التاريخ، ودراسته في بيئته، ووقته وزمانه، وأخلاقه وعاداته، فإذا بهم قد أتوا بتاريخ جديد قد افتروه من ضعيف شاذ وتعاملوا معه بعقلية مجافية ومخالفة لعقليته، في بيئة غير بيئته، في زمن بعد زمنه بقرون متطاولة، وما خالف ذلك نفوه ولو كان صحيحًا، فيأخذون من تاريخ الإسلام ما يوافقهم، ويردون تاريخًا لا يناسب قضيتهم وما يريدون أن يصلوا إليه، وإن حالت بينهم وقائع أخرى تشككوا فيها فكثرت التشكك حتى صار مبدأ في تعاملهم مع الإسلام، فإن لم يجدوا ما يسعفهم افترضوا تاريخًا من عند

١ - محمد في المدينة (٥٢٠-٥٢١)

أنفسهم، وبنوا عليه آراءهم الفاسدة، ولمزوا وغمزوا وأنكروا ما هو صحيح واقع، انظر إلى "وات" في صفحة واحدة^(١) "يصعب تصديق ذلك" و"إذا أمكن قبول هذه الرواية" و"مما يدعو إلى الشك" و"من الممكن أو يبدو" ومن العبارات أيضاً التي استخدمها "وات" "لو صدقنا الرواية"^(٢) و"الرواية موضوعة"^(٣) وبعد ذلك يصل إلى ما يريد من نتيجة حيث يقول "لا شيء يثبت أمام النقد والتخمين اللذين مررنا بهما" و"ولا يمكن الاطمئنان إلى التفاصيل"^(٤) هذا "وات"، وهذا منهجه، إمام العلميين المستشرقين!!، فهذا في التشكيك فماذا بقي من شيء يبحث أو ينقد وأما اعتماد الضعيف فيكفينا اعتماده الآيات الإبلسية في قصة الغرائيق مع الشعور بعلمه أنه يعلم ذلك.

المنهج السادس: المنهج الاسقاطي:

وملخصه أن ينسب المرء في اللاشعور عيوبه ونقائصه وذنوبه أو مخاوفه إلى غيره، كالأشخاص والأشياء وسوء الطالع وغيرها، وهو صلة لا شعورية، لكنها عند المستشرقين على سبيل التعمد وسبق الإصرار والترصد، ولا يمكن عقلاً أو واقعاً أن تفصلهم عن شعورهم واعتقادهم وبيئتهم حال بحثهم، ولكن أن يتعمدوا ذلك فهو موضع المساءلة والالتهام الذي لم يخل منه أحد منهم، هذا ما يعتمده "وات" من مناهج في تعامله مع سيرة النبي ﷺ، والإسلام ككل وسوف نبين إن شاء الله تعالى مواضع كثيرة تؤكد ذلك، وتبرهن عليه أكثر مما ذكرنا.

Muhammad at Medina p. 22- 1

Muhammad at Medina p. 20 -2

Muhammad at Medina p. 54- 3

^٩Muhammad at Medina p9 - 4

Muhammad at Medina p. 13 - 5

نعود إلى المقصود الأصلي وهو سيرة النبي ﷺ..

ذكرنا ما قدمنا من مناهج المستشرقين ليكون توطئة للكلام على ما يأتي من تعاملهم مع السيرة، وإن كان استطرادًا إلا أنه لا بد منه طالما قرر في البحث الرد عليهم، خاصة وأن تلك المناهج لصيقة الصلة بما سيأتي مباشرة من سيرته ﷺ كحادث شق الصدر، ورحلته إلى الشام وغير ذلك.

المبحث الخامس

حادثه شق الصدر

ونبدأ بحادث شق الصدر تكملة للسياق الذي سرنا عليه فنبداً بذكر ما وقع في بادية بني سعد حيث كان ﷺ مسترضعاً، وإن كنا قد ذكرنا في بحث الثناء عليه من قبل شرح قوله سبحانه ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ﴿ لم أجد هذا الشرح ﴾ وخضنا فيه شيئاً ما يليق بجلال الحدث، مع جلالة النبي ﷺ، ومن ثم نقتصر هنا على السنة الشريفة الواردة في هذا المقام في تلك السني الأولى من عمره الشريف مع ما يحيط بها مما يجب ويلزم البحث فيه، ويتوافق مع منهجنا الجديد الذي أسسنا عليه بحثنا في سيرة النبي ﷺ وأشرنا إليه من قبل.^(١)

وقعت للرسول ﷺ وهو في بادية بني سعد حادثة شق الصدر^(٢)، وسنذكرها بنصها هنا، وإن كان "وات" قد ذكر نص ابن إسحاق بأطول من ذلك لحاجة في نفسه سنشير إليها إن شاء الله تعالى أما نص ابن كثير فيقول ﷺ "كانت حاضتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا، ولم نأخذ معنا زاداً، فقلت يا أخي اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ فقال: نعم! فأقبلا يبتدراني، فأخذاني فبطحاني للقفأ، فشقا بطني، ثم

1 - عند تفسير سورة الشرح بالفصل الأول.

2- كما جاء صريحاً في رواية أبي نعيم عند ابن كثير، البداية والنهاية (٢/٢٩٢)، وقال عنه الإمام الذهبي في سيرته، (٤٨) "وهو صحيح"، مهدي رزق الله، السيرة النبوية، (١١٦-١١٧).

استخرجنا قلبي فشقاها، فأخرجنا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بباء ثلج فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بباء برد، فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذرهما في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خطه فخاطه، وختم على قلبي بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألقاً من أمته في كفة، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخر عليّ بعضهم، فقال لو أن أمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا فتركانني، وفرقت فرقا شديداً، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت، فأشفقت أن يكون قد لبس بي، فقالت أعدك بالله، فرحلت بعيراً لها، وحملتني على الرحل، وركبت خلفي حتى بلغنا أمي، فقالت أديت أمانتي ودمتني، وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها، وقالت: "إني رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام"^(١).

وروى مسلم قصة الشق باختصار عن أنس بن مالك رضي الله عنه بما نصه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله بطست من ماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني مرضعته) فقالوا إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره»^(٢).

وقد تكرر شق الصدر كما سنشير فيما بعد عند الكلام على قوله تعالى: ﴿الْمَدَشَّرَحَ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿١﴾ إن شاء الله تعالى.

ونذكر قبل الخوض في بحث المسألة حكمة شق الصدر، فشق الصدر لا ريب إرهاب من مبكر للنبوة؛ لأنه تطهير من حظ الشيطان، وتهيئة للعصمة وإعداد لها وللوحي من صغره؛

1- ابن كثير، السيرة النبوية (١/٢٢٩).

2- مسلم، الصحيح (١/١٤٧)، وابن كثير، البداية والنهاية، (١)، والبيهقي، دلائل النبوة، (١/١٣٦).

فيعتصم من الشر وعبادة غير الله تعالى، والاستعداد للتلقي عن السماء مصدر الطهارة، فلا يحل في قلبه إلا التوحيد، ومحبة الرب سبحانه، وقد دلت أحداث صباه على تحقق ذلك، فلم يرتكب إثماً ولم يسجد لصنم، رغم شيوع ذلك في قومه، ومن ثم لم نجد أمراً واحداً عيَّره به الكفرة بأنه كان يعملهم مثلهم من قبل أن يقول ما قال، وقد كانت هذه التهيئة كما نطقنا الأحاديث بوسائل مادية؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به، وتصديقهم برسالته، واتخذت هذا الشكل المادي الحسي كذلك؛ ليكون الإعلان الإلهي بذلك بين أبصار الناس وأسماعهم، وقد أشارت القصة إلى تعهد الله تعالى لنبيه ﷺ من مزالق الطبع الإنساني، ووساوس الشيطان، وهي الحصانة التي تبين القصة إضفاء الله لها على نبيه ﷺ^(١).

وذلك ليعلم المؤمنون على الأقل شيئاً عن قيمته وقدره ﷺ، وكيف هيئته سبحانه لدعوته ولسياسة البشر ديناً ودنيا لا يريد منهم جزاءً ولا شكوراً إنما ينفذ أمر الله ويتنظر في الآخرة ثوابه ﷺ.

ونضيف إلى كلام السُّنة الشريفة هذا ما ذكر علم شراح البخاري الإمام "ابن حجر" حيث يقول في تعليقه قولاً موجزاً يحمل رداً علمياً عميقاً: "إن جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصفه عن حقيقته لصلاحيته القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك"^(٢).

ومعنى كلامه: أن قدرة الله تعالى صالحة لئن يحدث بها ذلك، والموحدون قبل غيرهم يعلمون أن كوناً هو خالقه، لا يستحيل عليه فيه شيء، ومن ثم فهذه الأمور لا تقع تحت

1- انظر البوطي، فقه السيرة، ص ٥٢، ومهدي رزق الله، السيرة النبوية، (١١٨-١١٩)، وأكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، (١/١٠٤).

2- ابن حجر، فتح الباري (٣٨٨٧).

الاستحالة، فلا يتعرض أحد لصرّفها عن حقيقتها بظاهر لفظها، وكأن أتباع المدرسة العقلية المدعاة من المسلمين لا يفقهون أو يعلمون ما وقعوا فيه من إنكار القدرة لله تعالى برد الروايات، أو تأويلها تأويلاً ممجّجاً، والخنوع لقدواتهم الجهلة من المستشرقين، فيما يخالف الشرع الإسلامي، بل ويحاربه، ويكذبون أو يردون كلام العلماء المسلمين الأثبات، فانظر إلى ما أداهم إليه هذا الفكر المنحرف إما بقصد، أو بغير قصد.

المبحث السادس

ألم نشرح لك صدرك.. التعليق على «وات»

وإذا كانت سورة الضحى من أوائل ما نزل في سياق ثناء الله تعالى على النبي ﷺ، وفي سياق ما ذكرنا من معان يحملها هذا الثناء، فقد نزل الوحي بعد سورة الضحى بسورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ تالية لها مباشرة في التنزيل على النبي ﷺ حيث عدت الثانية عشر في (ترتيب السيوطي)^(١) بذكر الفاتحة، وهي تحمل أيضًا - علاوة على ما سنذكره في السيرة - تحمل ثناء بالغًا من الله تعالى على رسوله يدل على صحة الرسالة وصدق النبوة مع المعاني المهمة التي تضبط الدعوة، وتشرح الصدر، وتثبت الأقدام في تلك المرحلة الصعبة في مكة المكرمة.

وثناء الله تعالى عليه هو ما يهمننا ذكره الآن؛ لأنه مقامه، ولربطه بسورة الضحى إذ إن مضمون ألم نشرح شبيه بأنه حجة على مضمون سورة الضحى، تثبيتًا للنبي ﷺ بتذكيره سالف عنايته سبحانه به، وإنارة سبيل الحق، وترفيح الدرجة؛ ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته، ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض علمه النبي ﷺ علمًا لا شية فيه ولا ريب، أظهر كذلك بهذا التقرير عناية الله تعالى بالرسول ﷺ، ولطفه به، وإزالة الغم والخرج عنه، وتيسير ما عسر عليه، وتشريف قدره لينفس عنه، وكل ذلك يحمل بين طياته حجة لا تدفع أو تدفع، وبرهانًا لا يجبو على أن القرآن من الله جل وعلا، وأنه رسوله الصادق الأمين.

1 - محمد عزة دروزة، "سيرة الرسول ﷺ" (١/١٥٣) طبعة ثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م عيسى الحلبي وشركاه.

ونشرع في المقصود من السورة مما يتعلق ببناء الله تعالى على النبي ﷺ، تحليلاً وتفسيرًا.

إن أول ما يصادفنا لنلقي عليه ضوء التحليل هو قوله تعالى: ﴿الْمَنْشَرَحَ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

• فالاستفهام تقريرى على النفي، والمقصود التقرير على إثبات المنفي وهو شرح الصدر، ثم إن ثبوت شرح الصدر بالاستفهام للإيدان بأن ثبوته من الظهور، بحيث لا يقدر أحد على أن يجيب عنه بغير بلى، فخطاب الله تعالى لنبيه ﷺ فيه تذكير إذن للنبي ﷺ بأمر يعرفه حق المعرفة، يحمل منة عظمى من الله جل وعلا له ﷺ، وسنعود إلى هذا الأمر بعد قليل إن شاء الله تعالى.

• ولكن لماذا يقرره ربه سبحانه بأنه قد شرح صدره؟ المتبادر من الفهم أن يقال لم يضيق صدره؟ ألم نشرحه؟ وكأنه قد وقع له ﷺ من أسباب ضيق الصدر ما جعل المولى سبحانه يذكره ﷺ بهذه المنة، وتلك الفضيلة التي وسمه بها من قبل، لتحمله على سعة الصدر، والتحمل وكظم الغيظ، ولا بد أن ذلك الضيق حصل له من شدة أذى قوم يريد صلاحهم، وإنقاذهم من النار، ورفع شأنهم بين الأمم في الأولى والآخرة فقابلوه بذلك الإيذاء الشديد مما سطرته صادقة كتب السيرة والتواريخ، إذأ نحن أمام أمر الله المستفاد من هذه الجملة، وهو طالما قد شرح لك صدرك، قدم على دعوتك العظيمة نشيطاً واسع الصدر، غير ضائق ولا عابئ بأذاهم، غير ذي أسف ولا كمد^(١)، وقد نزل عليه مثل ذلك ﷺ بعد هذه الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٧٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

• نلاحظ في الآية الكريمة - كما ذكرنا - أن شرح الصدر لا يمكن إنكاره، ولا يُردُّ على الاستفهام إلا ببلى، فهل هذا الجواب من الرسول ﷺ وحده، أو من كل من يسمع

1 - انظر الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، (٣٠ / ٤٠٨)، وكذلك أبا السعود، "إرشاد العقل السليم"، (٥ / ٨٨١)، الألويسي، "روح المعاني" (٣٠ / ٢٩٧).

ساعتئذ هذا الاستفهام! لا يمكن الجواب في حق الرسول صلوات الله عليه إلا بنعم، لا خلاف فيها على أي معنى كان هذا الشرح، وإنما الأخذ والرد على الحاضرين من قريش وأهل مكة المعاندين للنبي ﷺ، والذين ذكّر الله تعالى نبيه بقرآن يتلو عليهم فيه هذا الاستفهام الإنكاري، وفي شيء يتعلق بهم؛ وهو شدة إيدائهم له ﷺ، هل علموا هذا الشرح ومعناه هل وهم مسلمون به؟ هذا يجرنا إلى ما وعدنا به أنفا من تبين معنى شرح الصدر الذي امتن الله به سبحانه على النبي ﷺ؛ لنستطيع أن نجيب على هذا السؤال فأقول:

ذكر العلماء أن الصدر المقصود به الإحساس الباطني الجامع لمعنى العقل والإدراك حيث هو محل أحوال النفس ومخزن سرائرها من العلوم والإدراكات والملكات والإرادات وغيرها، فعبّر بشرحه عن توسيع دائرة تصرفاتها، وذلك بأمرين بتأييدها بالقوة القدسية، والثاني: تحليتها بالكمالات الأنسية.^(١)

وكلا الأمرين مشاهد في أحوال البشر، فكان شرح الصدر كناية عن الإنعام عليه بكل ما تطمح إليه نفسه الزكية؛ لأنه لما قرره سبحانه على شرح صدره ﷺ فكأنه أعطاه ما تطلع إليه نفسه من كل ما يشرح الصدر، فقبل له ألم نعطفك ذلك؟ وإن مما تهفو إليه نفسه في مثل هذا الحال هو الكمالات النفسية العلية، وإعلامه برضى الله تعالى عنه، وبشارته بما سيحصل للدين الذي جاء به من النصر والرفعة.^(٢)

هذا هو المعنى الأول لشرح الصدر، وقد فسره به ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال شرح قلبه بالإسلام، وعن الحسن، شرح صدره أن مُلِمِّيَ علماً وحكماً، وقال سهل بن عبد الله التستري: شرح صدره بنور الرسالة، وعلى هذا المعنى أو هذا الوجه حمل شرح الصدر

1 - انظر أبا السعود، "إرشاد العقل السليم" (٥/٨٨١)، روح المعاني، (٣٠/٢٩٨).

2 - انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٣٠/٤٠٨).

كثير من المفسرين، ونسبه ابن عطية للجمهور.

الشرح الثاني: وهو جواز أن يجعل الشرح شرحاً بدنياً، إذ لما كان الامتنان عظيماً من الله تعالى على رسوله ﷺ، فلا مانع أن يشمل الشرح المعنوي والمادي معاً ليكتمل له الفضل ﷺ الذي قرره الله سبحانه عليه، والشرح البدني ابتداء ليس فيه غرابة هذه الأيام حتى يقع تحت طائلة الإنكار، إذ أطباء البشر يقومون به، وإن كان ابتداء وانتفاء ليس ثم شيء خارج عن قدرة الله وقوته.

ونلخص هذا الشرح ونبدأ بالإمام الترمذي - لأن الإمام الترمذي هو من ذكر شق الصدر في تفسير الآية - حيث أخرج حديث شق الصدر في تفسير هذه السورة^(١)، فتكون الآية إشارة إلى مرويات في شق صدره شقاً قدسياً، وهو المروى مطولاً في السيرة والمسانيد^(٢)، وفي الصحيحين أنه كان يقظة وهو ظاهر ما في البخاري^(٣)، وفي صحيح مسلم^(٤) أنه يقظة وبمراى من غلمان أترابه، وقال أنس بن مالك ﷺ راوى الحديث: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره، وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ كان بين النائم واليقظان^(٥).

- والروايات مختلفة في زمان ومكان شق صدره الشريف ﷺ مع اتفاقها أنه كان بمكة.
- وإن اختلاف الروايات حمل بعض أهل العلم على القول بأن شق صدره الشريف تكرر مرتين إلى أربع^(٦).

1- الترمذي، السنن، باب (ومن سورة ألم نشرح) وقال حديث حسن صحيح (٣٣٥٧)

2- أحمد، المسند (١٦٩٩٠-٢٠٢١١-١٣٥٥٥)، ابن كثير، السيرة النبوية (١/٢٢٩).

3- البخاري، الصحيح (٣٨٨٧)، باب المعراج.

4- مسلم، الصحيح (٢٣٦).

5- البخاري، الصحيح (٣٢٠٧)، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، الصحيح (٢٣٨)، باب الإسراء برسول الله ﷺ.

6- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠/٤٠٩).

- وفي الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان عند المعراج به إلى السماء^(١).
- ووقع له - عليه الصلاة والسلام - أيضًا عند مجيء جبريل عليه السلام بالوحي في غار حراء، وعمن روى ذلك الطيالسي والحارث في مسنديهما، وكذا أبو نعيم ولفظه؛ أن جبريل وميكائيل عليهما السلام شقا صدره وغسلاه، ثم قال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ الآيات.
- يقول العلامة الألوسي بعد تفسيره للآية: "نعم حمل الشرح في الآية على ذلك الشق ضعيف عند المحققين"^(٢). ونقول نعم حمل الآية عليه بخصوصه لا غير ضعيف، أما أن يدخل في عموم المنة بشرح صدره الشريف فلا مانع أن يكون الرب جل وعلا قد جمع له - كما جمع له من قبل الأخلاق الكاملة - كافة كل شرح يكون سبب علوه ورفعته، وسبب صبره وتحمله، واستمراره في دعوته، ومن ثم بعد أن ذكر العلامة ابن عاشور مثل كلام العلامة الألوسي رحمهما الله، عقب بما يدل على أن الآية تفيده فقال رحمه الله: "وليس في شيء من هذه الأخبار على اختلاف مراتبها ما يدل على أنه الشرح المراد في الآية، وإذ قد كان هذا الشق معجزة خارقة للعادة يجوز أن يكون مرادًا، وهو ما نحاه أبو بكر بن العربي في الأحكام، وعليه يكون الصدر قد أطلق على حقيقته، وهو الباطن الحاوي للقلب"^(٣).
- وعلى أي حال فإن كلا المعنيين للشرح يفيد أنه إيقاع معنى عظيم في غاية العظمة لنفس النبي صلى الله عليه وسلم إما مباشرة، وإما باعتبار مغزاه كما لا يخفى^(٤).
- وقد أيد سياق الآية الكريمة باستخدام الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لَكَ﴾ ما سبق من ثناء، حيث اللام في قوله ﴿لَكَ﴾ للتعليل، وهو يفيد تكريمًا للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله جل وعلا فعل ذلك لأجله، ومن وجهة أخرى يفيد زيادة الجار والمجرور، وتوسيطه بين الفعل

1- البخاري، الصحيح (٣٣٤٢، ٣٤٩)، مسلم، الصحيح (٢٣٧).

2- الألوسي، "روح المعاني" (٣٠١/٣٠).

3- العلامة ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٣/٤٠٩).

4- السابق.

ومفعوله بأن الشرح من أول الأمر من منافعه عليه الصلاة والسلام ومصالحه، مسارعة إلى إدخال المسرة في قلبه الشريف، مع استخدام طريقة الإبهام للتشويق، فإنه لما ذكر فعل ﴿ نَشَّرَحَ ﴾ علم السامع أن ثم مشروحًا، فلما وقع قوله ﴿ لَكَ ﴾ قوي الإبهام فازداد التشويق، لأن ﴿ لَكَ ﴾ يفيد معنى شيئًا لأجلك، فلما وقع بعده قوله ﴿ صَدَرَكَ ﴾ تعين المشروح المترقب، فتمكن في الذهن تمام التمكن، وعلم منه كل تلك الأفضال^(١).

• وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة للإيدان بعظمة ذلك الشرح وجلالة قدره ليظهر ما أشرنا إليه من قبل من دلالة الشرح على شيء عظيم بالغ العظمة للنبي ﷺ.

• نخلص مما سبق إلى وقوع شرح صدر عظيم لا يقادر قدره إلا الله للرسول ﷺ.

• وأن هذا الشرح لصدره الشريف لا خلاف بين العلماء جميعًا أنه وقع معنويًا، وأنه وقع حسيًا عدة مرات، وإنما الخلاف بينهم في كون السورة تدل على الشرح البدني بالذات أو لا؟ فذهب المحققون منهم إلى ضعف ذلك، وذهب البعض إلى أنها تدل عليه، ومن ذهب إلى أن الشرح البدني معجزة خارقة للعادة - وهي كذلك - أكد على أن الآية تدل عليه، ونعود إلى السؤال المفترض أولاً، وهو هل المستمعون من قريش يجيئون ببلى عندما يقرع أسماهم لأول مرة هذا الاستفهام الإنكاري ﴿ أَلَمْ نَشَّرَحْ لَكَ صَدَرَكَ ﴾ أم لا؟

فالإجابة أنه على القول الأول بأن الشرح هو المعنوي نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقول نعم! وذلك لما كانوا يطلقونه عليه ﷺ من حميد الصفات قبل البعثة حتى لقبوه بالأمين، وقد ازدادت أمام أعينهم تلك الصفات بعد البعثة خاصة ما يتعلق بشرح الصدر ككظم الغيظ، وتحمل الأذى، والعفو، وعدم مقابلة السيئة بالسيئة مما لا يحصى وقائعه،

1- انظر أبا السعود، "إرشاد العقل السليم" (٥/٨٨١)، الألويسي، "روح المعاني" (٣٠١/٣٠)، الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير" (٤٠٩-٤١٠/٣٠)، برهان الدين البقاعي، "نظم الدرر" (٨/٤٦٠).

ولا يمكن إنكاره أو دفعه.^(١)

أما الشرح البدني..

فما وقع منه إلى وقت نزول الآية كان قبل البعثة، وأن يصل إلى علم أهل مكة فهذا أمر غير مستغرب ولا مستبعد؛ في مجتمع صغير على هذا النحو، وقد ذكرنا شيئاً من هذا في سورة الضحى، حيث تأخر الوحي على النبي ﷺ فإذا بهذا الأمر قد بلغ لكل أحد ساعتها.

فشيوع هذا الأمر بين أهل مكة حال طبيعي من أحوال البشر في نشر وانتشار مثل هذا الخبر، وإنما النقاش الآن في عدم الاهتمام الكافي به، وما يكون ذلك إلا لأنه خبر لا ينبي عليه ما يهيم الناس وقتها، ولا هو مؤثر في حيز اهتمامهم وانشغالهم، أما وقد جاء خبر النبوة الصعب، فمن السهل التذكير بما كان مما له علاقة بما هم فيه من أمر الرسول ﷺ والرسالة، وهم يذكرون ذلك جيداً لعدم دفعهم إياه، أو تكذيبهم به، التكذيب المتعلق فعلاً بعدم الوقوع، ليس الشغب والجحود والمكابرة.

فالقرآن الكريم خاطبهم إذن بأخبار وأحداث يعلمونها، وإلا فإن الكذب في خبر واحد في مثل هذا إنما ينسف الرسالة من أصلها، ويدلل على اختلاقها وأنها ليست من عند الله، وما كان المشركون حينئذ في حاجة لردها بالحديد والنار حيث اختاروا هذا الطريق.

١ - أخرج أبو يعلى في مسنده (١٥/١٤٦)، وابن حبان في صحيحه (٢٧/١٨١)، وأبو نعيم في الدلائل (١/١٨١)، وذكره الحافظ في الفتح (١١/١٧٥)، من حديث عمرو بن العاص قال «ما رأيت قريشاً أرادوا قتل رسول الله ﷺ إلا يوم أئتمروا به وهم جلوس في ظل الكعبة رسول الله ﷺ يصلى عند المقام، فقام إليه عقبة بن أبي معيط فجعل رداءه في عنقه، ثم جذبه حتى وجب لركبته، وتضايح الناس، وظنوا أنه مقتول، قال: وأقبل أبو بكر يشد حتى أخذ بضع رسول الله ﷺ من ورائه وهو يقول: أيقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟ ثم إنصرفوا عن النبي ﷺ فلما قضى صلاته مر بهم وهم جلوس في ظل الكعبة فقال: «يا معشر قريش، أما والذي نفس بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح» وأشار بيده إلى حقله، قال له أبو جهل «يا محمد ما كنت جهولاً» وفي روايه «إنصرف يا أبا القاسم راشدأ فوالله ما كنت جهولاً» قال ﷺ «أنت منهم».

• والنبوة لها إرهابات تسبقها تؤكد صدقها، يدلل عليها الواقع، والحوادث التاريخية، وسير الأنبياء، باستقراء ذلك كله، واطراده فيما جاء التاريخ به من وقائع صحت نسبتها إلى أولئك الذين ادعوا صلتهم بالسماء، وارتباطهم بالوحي، وإن ذلك من إرهاباتها التي رأى المشركون غيرها في الرسول ﷺ، كالغمامة التي رأوها تظلمه وخبر بحيرى الراهب^(١) وغير ذلك، مما جعل يقر في وجدانهم مثل هذه الأمور الخارقة للعادة التي حدثت لرسول الله ﷺ، والتي ذكرنا أنها من عناية الله تعالى قبل البعثة بمن سيكون رسوله إلى العالمين.

ويمكن أن نصل بافتراضنا إلى أبعد من ذلك، وهو أن الشرح وَقَفَ علمه على الرسول ﷺ، وأن هذا ثناء بينه سبحانه وبين عبده لم يطلع عليه أحد، ليكون ذلك، ولكن يأتي السؤال ألم يواجه النبي ﷺ بذلك الناس جميعاً مخبراً بهذا الخبر في جملة ما أنبأهم به، وكان داخلاً هذا الشرح في جملة ما تحدى به البشر إلى يومنا، وإلى قيام الساعة؟ لم ينكر ذلك معاصروه، ولا قاموا في وجهه جاحدين له، معترضين عليه، بين مكذب راد عليه ومصفق مستهزئ به، بل سلموا ذلك الأمر يوم كانوا كفرة محاربين، وآمنوا وازدادوا تسليماً بعد ذلك.

لقد أطلت شيئاً ما في هذا الموضوع؛ للنظر الموضوعي المجرد لقضية النبوة، إذ كل

٦ - اخرج الترمذى (٦٨/١٢)، والحاكم في المستدرک (٨/١٠)، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن أبى بكر بن أبى موسى عن أبیه قال «خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبى ﷺ في أشياخ من قريش فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت قال فهم يجلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ قال هذا سيد العالمين هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين فقال له أشياخ من قريش ما علمك فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ولا يسجدان إلا لنبى وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ثم رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهم به وكان هو في رعية الإبل قال أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه فقال انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه».

ذلك يدل عليها، وأن شيئاً من ذلك كله لا يمكن نسبته إلى الرسول ﷺ وما كان ذلك ليكون إلا من خارج محمد عليه الصلاة والسلام، وبقوة قوى البشر بجانبها لا شيء، قوة من بيده الخلق والأمر، والملك والملكوت، بما لا يستطيع عاقل منصف عنده شيء من علم، أو تقدير للحقيقة إلا أن يسلم بنبوة الرسول ﷺ.

وهذا قطرة مما يرد به على "مونتجمري وات" وأذنا به ممن يدعون الحياد أو البحث العلمي، الذين ينفون هذه الروايات^(١) وليس الإطالة الآن إلا لهذا الرد على ذلك الهجر وتلك الترهات، من براق القول الخادع، الذي لا يحمل تحته إلا عكسه مع سوء القصد، وفساد النية.

والآن نستكمل البحث مع "وات".

ونبدأ بالقول بملحوظات نسوقها إتماماً لما سبق

• الملحوظة الأولى:

وهي أن "وات" قد بيض كتابه لذكر حديث ابن إسحاق بطوله، وبمنهج "وات" نفسه ما الدافع وراء ذلك؟ - وهو المختصر لمثله - بل للقرآن الكريم حيث يذكر في كثير من الآيات رقم السورة والآية فقط لا يذكر منطوقها، وله دافع وراء ذلك، وهو التلبيس على قرائه، وحذف ما يريد إخفاءه، وتقطيع أوصال النصوص وبترها؛ لينتقي منها ما يظن أنه حجته، أما هنا فأراد أن يطلع القارئ الأوروبي، المادي العلماني على مثل هذا الكلام، قائلاً بلسان حاله هذا محمد ﷺ وهذا دينه، ليقرر هذا القارئ من أول وهله رده للرسول ﷺ وللإسلام، ومن ناحية أخرى يتحصن هذا القارئ أمام استخدام العقل في فهم الإسلام،

1 - محمد في مكة (٣٣-٣٤).

بتصيير هذه القصة حجر عثرة أمام تفكيره وفي كل مناقشاته، إذ يصبح سؤاله دائماً ألم تذكر روايات الإسلام كذا وكذا عن محمد، وهذا من خبث مقصده ودوافعه في كتاباته عن الإسلام ونبيه - عليه الصلاة والسلام - والرد سهل كما أشرنا لمن يعقل.

• الملاحظة الثانية:

أنه لم يقف به التعصب والانحياز السيئ عند هذا الحد، إنه قطع الطريق تماماً على القارئ أو الباحث أن يفكر في كلامه مجرد تفكير فضلاً عن البحث أو التمحيص وذلك بأمرين مُلثاً غشاً وخداعاً وتدليساً وكل ما يُستحى من ذكره.

الأمر الأول: بنفي صحة الروايات بحجة أنها غير حقيقية عند المؤرخ العلماني حيث يقول: "لا شك أنها غير حقيقية عند المؤرخ الذي لا يؤمن بالغيب"^(١)، وهذا كلام في منتهى السقوط والتهاوت لهذه الأسباب:

١. أن صحة الروايات وعدمها ليست لغير المتخصصين في علم الرواية، إذ كيف يتكلم من لا يحسن فيها لا يحسن، إنه حيثئذ يتكلم بالكذب، أي بالظن والتخمين - وهو أكذب الحديث - وهو علم خاص بالمسلمين لم تتكلم فيه ولم تبحثه أي أمة غيرهم؛ حيث به حفظ الدين وكلام الرسول ﷺ، بالثقة عن الثقة إلى أن يؤدي آخر ثقة ما سمعه عن رسول الله ﷺ كما هو، واضعين نصب أعينهم قوله ﷺ: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٢) فلا يقبلون أي رواية، خاصة رواية الكذابين وهذا العلم لا حظاً لغير المسلمين فيه؛ لأن سلسلة الإسناد - حدثنا فلان حدثنا فلان إلى الرسول ﷺ - تعتمد الإسلام والإيمان بنبوّة محمد ﷺ، و"وات" يعلم ذلك جيداً وأنه لا يزيد عن كونه مؤرخاً،

1 - محمد في مكة (٣٣-٣٤).

2 - البخاري، الصحيح (١/١٠٦)، باب: إثم من كذب على النبي ﷺ.

لا علاقة له من قريب أو بعيد بالروايات وصحتها، وكل عمله أن يأخذ الرواية ليرى دوافعها وما تنطوي عليها، لا ليردها ما دام نص العلماء على أنها رويت بطريق صحيح، والذي لا يعرفه هو وأمثاله فضلاً عن أن يجيده، وهو لا يشك أنه لا يمت لذلك العلم بصلة، وتلك آراؤه وهذه كتبه لا ترى في أي منها كلمة واحدة نقلاً في هذا العلم.

٢. ثم ننتقل إلى نقطة أخرى، وهي كيف تأخذ هنا بقول المؤرخين العلمانيين، وأنت تتدعي التوحيد^(١)، لا شك لأنك لو لم تنقل رد العلمانيين ما كان عندك من رد تدفع به تلك الإرهاسة من إرهاسات النبوة ولكنك سلّمت فيها بنبوة النبي ﷺ، وهدمت حينئذ دعاويك كافة في ذلك، أو على الأقل سلّمت بأمر من أمور السماء المؤيد للنبي ﷺ وبالتالي فلا التوحيد المزعوم اتبعت، ولا الإنصاف والحياد التزمت، فكيف تقبل منك أدنى كلمة؟ قد تقول أنا رددت الرواية تاريخياً، قلنا أخذت برأي العلمانيين يا أيها الموحد؛ لأنه ليس لك إلا منهجهم لرد الرواية، إذ ليس لك منهج آخر ترد به الرواية صحيحة كانت أو ضعيفة.

٣. اتبع "وات" منهج الانتقاء تاريخياً ورواية، كما ذكرنا في عناصر منهجه فهو يأخذ من المناهج والروايات ما يؤيد قوله، حتى لو كان مخالفاً لما اختطه لنفسه، وهو أن يكتب كموحد، ويأخذ الروايات الضعيفة والمردودة، ويترك الصحيحة مادامت تؤيد ما ذهب إليه، كل ذلك حدث هنا كما ترى، معرضاً عن الحق والنزاهة العلمية، وإلتزام الحياد، واضعاً تحت قدميه كل ذلك.

الأمر الثاني: الذي قطع به طريق البحث، وهو التشكيك واللمز، مع قلب الحقائق التاريخية الثابتة، وتغيير الزمن الذي وقعت فيه، وهذا من عجيب البحث.

١ - محمد في مكة (٤٠).

يقول "وات" عن الروايات التي نحن بصدددها عندما قرر أنها ليست حقيقية عند المؤرخ العلماني قال: "لأنها تحاول وصف وقائع يمكن نسبتها لفترات لاحقة من حياة محمد، لكن المؤكد أن هذه الروايات تعبر عن شيء بالنسبة للمسلمين المؤمنين، وبالتالي فهي حقيقية بالنسبة له، ومناسبة لإطالة حياة نبيهم"^(١).

وانظر إلى التشكيك، والإفك وقلب الزمان.

المصادر التي ليس له سواها في سيرة النبي ﷺ تذكر لشق الصدر وغيره زمن الرضاع والصبأ، ثم يأتي "وات" فيقول هذه يمكن أن تكون بعد أن أصبح نبياً، أي غير تاريخ الواقعة حوالي أربعين عاماً هكذا؛ حتى يستطيع بذلك التشكيك والتضليل، علاوة على اللمز في أنها تطيل حياة نبيهم، وكأنهم كانوا يسمرون بها في مجالسهم ليس لهم غيرها لتطيل هذه الحياة، مع ذكره أن محمداً في المدينة انشغل انشغالاً شديداً بإعداد هؤلاء لما يود أن يقوم به^(٢).

هذه رواية شق الصدر للرسول ﷺ، وقفنا فيها طويلاً شيئاً ما حيث ذكرنا ما ورد فيها نقلاً وصحة ذلك عقلاً، وأخذنا ورددنا مجموع الآراء السمجة التي رأينا، وأما غيرها من الآراء فهي لا تعدو هذياناً، جعلت "وات" نفسه الناصح الأمين للمستشرقين يصفها بالغثيان وشدة التطرف^(٣) لأنها لا تحمل آراء بقدر ما تحمل سخائم القلوب المريضة التي ظهرت على الألسنة القبيحة بنفس نتن تلك القلوب، وهو يعلمهم كيف يردون بالباس

1 - محمد في مكة (٣٣-٣٤) الطبعة الإنجليزية، عبد الرحمن الشيخ، وآخر (٩٤).

2 - محمد في المدينة (٤) تعريب شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.

3 - محمد في مكة (٨٢)، حيث وصف كلام المستشرقين في العلاقة بين المصادر اليهودية والمسيحية وتعاليم الإسلام، أما شدة التطرف فقد وصف بها آراء "لامانس" نفس المصدر، (٤٤)، وهي أوصاف هينة من "وات" لا تعبر عن الحقيقة أو شيء منها عند هؤلاء الكتاب المستشرقين الذين يشكلون جزءاً هاماً من مراجعه المعتمدة.

هذه السخائم والقفاص ثوب العلم والحياد؛ ليصلوا إلى مطلوبهم بغير ظاهر الشتم والقبايح والمنكر.

قصة بحيرى الراهب:

وننتقل إلى الحادثة الثانية التي نفاها "وات" مع قصة شق الصدر في قرن واحد متعللاً بأن العلمانيين المؤرخين لا يقبلونها، وقد أورد متنها من ابن إسحاق مع سياق شق الصدر ومن ثم كان ردنا فيها عليه واحداً، وإن كنا سنزيد شيئاً قليلاً هنا.

وأفردناها هنا لاتصال سيرة النبي صلوات الله وسلامه عليه.

كانت كفالة الرسول ﷺ عندما ولد يتيماً لجده عبد المطلب، تحت رعاية أمه آمنة بنت

وهب^(١).

وكانت وفاة والده عبد الله بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار، عندما أرسله

والده عبد المطلب إليها ليشتري منها تمراً^(٢).

وكانت حادثة شق الصدر السبب في إعادة حليلة السعدية للرسول ﷺ إلى أمه لأنها

خافت عليه، ورغبت في إنهاء مسؤوليتها عنه، مع حبها له، وتعلقها به، وبقائه عندها^(٣).

ظل الرسول ﷺ في رعاية أمه - آمنة - وكفالة جده عبد المطلب بعد إرجاع حليلة له

من حضانتها في بادية بني سعد.

1- محمد بن رزق بن طهوني، صحيح السيرة (السيرة الذهبية)، حواشي، ١٣، ١٤١، وغيرها.

2- ابن عبد البر، الاستيعاب (١/١٤)، وروى ابن إسحاق عن شيخه الواقدي قصة أخرى.

3- مسند أحمد (٤/١٨٤، ١٨٥)، وسند الدارمي (١/٨٠٩)، ومستدرک الحاكم (٢/٦١٦) ويؤيده مرسل الزهري في

مصنف عبد الرزاق (٣١٧، ٣١٨/٥).

وعندما بلغ من العمر ست سنين توفيت والدته آمنة بـ"الأبواء"^(١)، وهي راجعة به إلى مكة بعد زيارته لأخوال أبيه في المدينة المنورة، بني عدي بن النجار.

وحملته مولاته حاضنته أم أيمن إلى جده عبد المطلب بمكة فأحاطه بعنايته وبلغت به شفقتة عليه، ومحبتة له مبلغاً عظيماً حتى إن عبد المطلب أرسل محمداً في طلب إبلٍ له، ولم يبعثه في حاجة إلا أنجح فيها، وقد أبطأ عليه، فجعل عبد المطلب يطوف بالبيت وهو يرتجز:

يارب رداكبي محمداً يارب رده واصطنع عندي يداً

فلم يلبث أن جاء محمد ﷺ والإبل، فاعتنقه، وقال: يا بني لقد جزعت عليك جزعاً، لم أجزعه على شيء قط، والله لا أبعثك في حاجة أبداً، ولا تفارقني بعد هذا أبداً.

توفي هذا الجد الشفوق عبد المطلب وللنبي ﷺ ثماني سنوات، فأوصى به جده إلى عمه أبي طالب أخي أبيه.

وكان أبو طالب قبل البعثة وبعدها شديد العناية بابن أخيه ﷺ، فكان لا ينام إلا ومحمد إلى جنبه، ولا يخرج إلا معه، وقد صح ذلك في رحلته إلى الشام ومقابلته لبحيرة الراهب، وظل يحوطه بعنايته إلى أن توفي قبل الهجرة بثلاث سنين.

وكان في صباه ﷺ يرمى الغنم، وقد ثبت أنه عمل في رعيها لأهل مكة مقابل

١- الأبواء: قرية نت أعمال الفُروع من المدينة بينها وبين الحنفية مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، معجم البلدان (١/٧٩)، معجم البلدان (١/٤٤)، باب الهمزة والباء وما يليها وانظر طرهوني، صحيح السيرة، (١/١٥٧)، وحواشيه في تصحيح هذه الروايات وتحسينها.

قراريط^(١)، وقال في ذلك عليه الصلاة والسلام: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة» وكان يرعى غنم أبي طالب، وكان في ذلك يساعده لكثرة عياله، ومراعاة لحاله.

وإن من أبرز الحكَم في رعي الغنم كما قال ابن حجر^(٢): "قال العلماء الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسابق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المجاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأمة...". ثم قال: "وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمتته عليه، وعلى إخوانه من الأنبياء".

وقد تجلّى في ذلك إحساسه الدقيق، مع ذوقه العالي ﷺ إذ إنه ما إن أنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل عليه ليرفع شيئاً من مؤنة الإنفاق على عمه، وقد اقتضت حكمة الله أن نفهم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بجهده وعرقه وأن قيمة الإنسان فيما يقدمه لمجتمعه من نفع قدر طاقته.

وأصحاب الدعوات لا قيمة لهم إذا كان كسبهم من عطايا الناس وصدقاتهم، بل يجب ألا يكون لأحد عليه منة تمنعه من القيام بدعوته والصدع بكلمة الحق^(٣).

1- رواه البخاري (فتح الباري ٤/١٤١، ٦/٤٣٨)، وصحيح مسلم بشرح النووي ٥-٦/١٤، وقد ذكر ابن حجر أن للعلماء قولين في معنى قراريط، أولهما: القيراط جزء من الدينار أو الدرهم، وثانيهما: أن قراريط اسم موضع بمكة.

2- ابن حجر، الفتح، (٥٤٥٣)، مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (١٢٤).

3- البوطي، فقه السيرة، (٥٤-٥٥).

بناء على ما تقدم جاءت قصة بحيرى..

فمن محبة أبي طالب للنبي ﷺ وظهر هذه الصفات النبيلة فيه، اصطحبه أبو طالب في سفرة تجارية له إلى الشام، وكان ثمَّ راهب يدعى بحيرى في طريقهم، فلما حلوا رحلهم نزل إليهم، وكان قبل ذلك لا يكلمهم ولا يلتفت إليهم، وصنع لهم طعامًا، وأخبرهم أن رسول الله ﷺ هو سيد العالمين، وأشار إلى الغمامة التي تظله، وفيء الشجرة الذي مال عليه، ونظر خاتم النبوة بين كتفه الشريف، وعرفه بأوصافه المبشر بها عنه في كتبهم، وأمر وليه أبا طالب أن يرجع به خوفًا من يهود ومن الروم^(١).

ونميل للحق مع من ذهبوا لتصحيح هذا الحديث من العلماء نظرًا للردود العلمية التي فيها مقنع كاف بذلك، وردود - حسب نقد الروايات الشديدة عند علماء المسلمين - قوية على حجج أولئك الذاهبين إلى إنكار الرواية من العلماء.

والآن نخرج على بعض الآيات القرآنية - كما هو منهجنا في هذه الدراسة - ثم نعود إلى مناقشة "وات"، وهذه الآيات هي دراسة شيء ما جاء في القرآن الكريم يؤيد هذه الجزئية،

1_ اختلف العلماء في هذا الحديث قديمًا وحديثًا، فقد حسنه الترمذي وصححه الحاكم (٢/٦١٦)، والألباني في حاشية فقه السيرة للغزالي (٦٨)، ودفاع عن الحديث النبوي (٦٢-٧٢)، قال "وإسناده صحيح كما قال ابن الجزري"، ومحمد الصادق عرجون، محمد رسول الله، (١٦٩-١٧١/١)، وشعيب وعبد القادر الأرنؤوط على حاشية زاد المعاد (١/٧٦)، وابن القيم صاحب الزاد (١/٧٦)، وابن حجر، وقال: "رجاله ثقات، وليس فيه سوى هذه النقطة - أي ذكر أبي بكر وبلال - فيحتمل أن تكون مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهما من أحد رواياته" نقلًا عن شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (١/١٩٦). وأنكر هذا الحديث الإمام الذهبي وغيره وقال: "وهو حديث منكر جدًا" تاريخ الإسلام السيرة، (٥٧)، وترى مما سبق الإطالة فيه مدى النزاهة والحياد العلمية في النقد، وليست لكونها تثبت نبوة النبي ﷺ مثلًا يصححونها، أو لأنها مما يرد به على النصارى فيدافع عنها، ولم يكن قول أحدهم إذ عرض عليه أن يقول دعها نرد بها عليهم وإنما كان قولهم هو موضوع، لأنهم يراعون بعلمهم وجه الله تعالى، وكما لا يكذبون عليه ﷺ لا يكذبون له، وإنما رائدهم ما صح عنه فيسلمون به، خلافاً لهؤلاء المستشرقين في افتراء الأقاويل، وتصحيح الأباطيل ليصلوا إلى النتيجة المحسومة عندهم سلفًا.

ويكمل صورة السيرة، لتكون قرآناً وسنة، مع مسح رأى المستشرقين الذين أرادوا تشويهها.

وسنقتصر هنا على آيتين كريمتين تؤيدان القصة، ومن ناحية لو لم تكن القصة موجودة لكانتا مع غيرهما من الآيات التي أرجأنا ذكرها لمكان آت كفيلة بتوضيح أو رسم هذا الجانب من سيرته المشرفة كسيرة قرآنية، نسوق الآيتين أولاً ثم ننظر في تحليلها ودلالاتها:

الأولى: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]

الثانية: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٠]

بالنظر في تحليل وتفسير الآيتين رأيناها يستدلان على أن المقصود بهما هو النبي ﷺ ولكن من وجهين لا كما يبدو من أول وهلة؛ ففي الآية الأولى الضمير المنصوب في ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ عائد على النبي ﷺ لما علم من الكلام السابق، وتكرر خطابه فيه من قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾، وقوله: ﴿ فَلَنُؤْيِتَنَّكَ قِبْلَةً ﴾، وقوله: ﴿ قَوْلٍ وَجْهِكَ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

فالإتيان بالضمير بطريق الغيبة من الالتفات، وهو على تقدير مضاف أي يعرفون صدقه، أو يعرفونه بصفاته وأخلاقه وزمانه ومبعثه ومهاجره إلى آخره معرفة لا تقبل اللبس كما يعرفون أبناءهم معرفة جلية متحققة، وأن معرفة هذا الحق ثابتة لجميع علماءهم، كمعرفة الأبناء بسبب تعلق الآباء بهم، فيكون التلمي من رؤيتهم كثيراً فتمكن معرفتهم تمام التمكن.

وهؤلاء الذين آتاهم الله الكتاب ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ هم أحبار اليهود والنصارى

الذين أوتوا علم التوراة والإنجيل كبحيرى هذا وغيره.

وقوله تعالى: "وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون"، وهم معظم الذين أوتوا الكتاب، ثم بقي فريق آخر يعلمون الحق ويعلنون به، وهم الذين آمنوا بالنبي ﷺ من اليهود قبل عبد الله بن سلام الحبر اليهودي الذي أسلم، وتميم الداري النصراني الذي أسلم أيضاً. ودلت الآية على أنه لا يعبأ ولا يلتفت لهؤلاء الذين لا يعلمون الحق فضلاً عن أن يكتموه إذ لم يدخلوا في قوله: "الذين آتيناهم الكتاب" [الأنعام: ٢٠]، ولا يشملهم قوله: "يعرفونه كما يعرفون أبناءهم".

أما الآية الثانية:

فالضمير في قوله: "يعرفونه" عائد إلى القرآن الكريم؛ إذ لم يسبق ذكر للنبي ﷺ، وهو المخاطب، بل جرى ذكر القرآن الكريم في قوله تعالى: "الأنعام به ومن بلغ" في قوله تعالى: "قل الله شهيدٌ بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن" [الأنعام: ١٩].

وقد جاءت جملة: "الذين آتيناهم الكتاب" مستأنفة، انتقل بها أسلوب الكلام من مخاطبة الله تعالى المشركين على لسان الرسول ﷺ إلى إخبار عام كسائر أخبار القرآن الكريم، وهذا الانتقال ليثبت استشهاداً جديداً على صدق القرآن الكريم وهو الآية المعجزة العامة الدائمة المتضمن صدق من جاء به وهو النبي ﷺ وذلك بعد شهادة الله في قوله: "قل الله شهيدٌ بيني وبينكم".

وقد كان المشركون يقدرّون أهل الكتاب ويثقون بعلمهم، وربما اتبع بعض المشركين دين أهل الكتاب كورقة بن نوفل إلى أن بعث النبي ﷺ فكانت شهادتهم عند المشركين موثوقاً بها إذا أدوها ولم يكتموها.

وفي الآية بالتالي تسجيل على أهل الكتاب بوجوب أداء هذه الشهادة إلى الناس وفي ذلك دعوة لإسلامهم، ولذا ختمت الآية بقوله تعالى: "الذين خسروا أنفسهم" من المشركين، ويصح أن تكون بدلاً من "الذين آتيناهم الكتاب" الخسران المبين بعدم إسلامهم، فكلاهما هالك برد الحق أو كتبه بعد شهادة الله، وشهادة الأحرار والعلماء من أهل الكتاب.

وإن من دواعي إسلامهم الأكيدة أنهم يعرفون هذا الكتاب، وأنه الحق من ربهم، ومن حقه وما تضمنه صدق رسالة محمد ﷺ وصدق ما جاء به حيث بشرت كتبهم به أيضاً وبصفاته وغير ذلك ﷺ يعرفونه معرفة آبائهم، معرفة التحقق والجزم، إذ لا يضل المرء عن معرفة شخص ابنه وذاته إذا لقيه، وأنه هو ابنه المعروف^(١)، وما ينكر ولده حينئذ إلا جحداً وعناداً وغيرهما، وهو في قرارة نفسه يعلم أنه ابنه بلا شك.

بهذا العرض الموجز للآيتين الكريمتين وهما قليل من كثير يتبين كيف وضع القرآن الكريم تمام التوضيح صورة النبي ﷺ في الكتب السابقة وجلاها على أبهى سيرة وأحسنها ليقطع العذر وليقيم الحجة.

وكانت الآيتان الكريمتان مما توافق فيه قصة السيرة - قصة "بحيرى" الراهب - مع القرآن الكريم، فثبت قرآناً وسُنَّةً.

ونلاحظ أن الرواية كانت والنبي ﷺ يبلغ من العمر اثني عشر سنة، ولم يكن ثم نبوة ولا وحي ولا قرآن، فعندما يأتي القرآن بمثل ما أتى به ذلك القصص فلا شك أن ذلك القصص صحيح، وجاء القرآن الكريم ليؤكدده ويثبت وقوعه.

1 - انظر لما سبق بتصريف كبير الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٣٩-٤٠/٢)، (١٧٠-١٧٢/٧).

نعود لنناقش "وات" حيث ذكرنا قوله بعدم صحة القصة، مع قصة شق الصدر تاريخياً، وأنه احتج بالعلمانيين في إنكار ما يود إنكاره وتضطره نتيجة البحث المسبقة إلى نفيه، وقد نفاه هنا بما لا يعتقد حيث يدعي أنه يكتب كموحد، ومعنى ذلك أنه إذا لم يسعفه التوحيد، أسعفه الكفر! للأسف! فكلاهما حق عندما ينظر إلى الإسلام، وكما وعدنا سنزيد ردًا قليلاً هنا حيث رددنا هنالك عقب قصة شق الصدر ردًا مطولاً، أما ما نزيده هنا:

فأوله: أن إنكار "وات" للقصة فإنه لما تحمله من مضامين دينية، إذ هي اعتراف مسيحي بنبوّة النبي ﷺ من حبر من أحبارهم، أو راهب من رهبانهم انتهى إليه علم النصراني، وهو ما سعى "وات" في كل كتاباته لنفي نبوة الرسول ﷺ بل حاول كذلك في كل كتاباته أن يثبت التأثير المسيحي اليهودي على تعاليم الإسلام، وأنه ليس إلا خليطاً منها متوائماً مع البيئة العربية كما أشرنا من قبل^(١).

الملحوظة الثانية:

وهي قضية "وات" أيضاً، وهي التأثير اليهودي - المسيحي على تعاليم الإسلام، فقد ذكر بعض المستشرقين هذه الأضحوكة، وهي أن الرسول ﷺ في هذه الرحلة تلقى علم التوراة من بحيرى في هذا اللقاء العابر، ومأدبة العمل هذه، وهو في سن الثانية عشر على الأكثر، بعد أن تأكد بحيرى أن محمداً ﷺ هو سيد العالمين، ورحمة الله للعالمين، كيف لغلام في الثانية عشر من عمره أن يتلقى علم التوراة، ويكون له أثره عليه وعلى تعاليم دينه في ساعة من الزمان، وهم يأكلون، ليس هناك إذن أسوأ من الاستخفاف بالعقل وقلب الحقائق بسبب التعصب الأعمى.

١ - انظر عبد الله النعيم "الاستشراق في السيرة النبوية" (٦١-٦٢).

ذكرت القصة أن الراهب لم يبق محمدًا معهم إلا حال تعرفه على أوصافه، وأنه النبي المبعوث، ثم ناشد عمه أبا طالب أن يرده سريعًا إلى مكة؛ خشية من إيذاء اليهود والروم له، فلم يبقه في الركب معهم حتى نقول جلس عنده أو قابل غيره بل أمر برجوعه تَوًّا إلى مكة، وأين قوله «هذا رحمة الله للعالمين»، «وهذا سيد العالمين»، وبعد ذلك يجلس ليعلمه التوراة، أبعد أن علم نبوته، يقول له هيا لأعلمك ما لن يعلمه الله لك؟! أو ما سوف يعلمه الله لك بعد سنين متطاولة، هذه عجائب المخلوقات ولولا أن هذا الكلام قد قيل ما سودنا به تلك الأسطر.

ومحمد ﷺ في هذه الفترة - تنزلاً معهم - هؤلاء المتعصبين - لا يعرف القراءة ولا الكتابة فكيف تعلم؟ وإن عرفها لم تكن الكتب السابقة قد ترجمت للعربية، فإنها لم يترجمها أصحابها إلا قريبًا بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى بقرون طويلة، الكلام كثير في الرد عليهم وأما مقصودهم ففي النهاية هو رد أصول الإسلام إلى التوراة، فأين ذلك في تعاليمه؟ وهل حارب اليهود وأجلاهم عن المدينة، وأبقى تعاليمهم في كتابه وسيرته، إلا إذا كان مؤدى تلك التعاليم أن هؤلاء قوم لا بد أن يقاتلوا، وأن يجلبوا عن المدينة، وعن جزيرة العرب، وأن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وأنهم قوم بهت وسوء، لا عهد لهم ولا ذمة، قد بدت البغضاء من أفواههم، وما أخفت صدورهم أكبر، وودوا لو تكفرون، كانت فرية إذن أن رسول الله ﷺ قد تأثر بهؤلاء، والعجب أن يأتي مدعو العلم والمنهجية ليرددوها بكل برود تقليدًا لأخلاق أسلافهم تلك، وما استحيوا أن يرددوا كذبًا ممنهجًا يعلمونه، ولكنهم استخفوا بعقول مريضة، أو عقول ممسوحة، أو عقول لا تفكير فيها ولا نظر لها، كل ذلك ليحموا بني جلدتهم ويحصنوهم ضد الإسلام ويعموا على أبصارهم وعقولهم حتى لا ترى النور، مع تشكيك المسلمين في دينهم.^(١)

١ - وات، محمد في مكة (٤٠).

المبحث السابع

حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ قبل البعثة

إن رجوعاً إلى حادث شق الصدر، وما سبقه من إرهاصات عند مولده ﷺ - وما تبعه من وقائع خارجة عن العادة حدثت للنبي ﷺ، خاصة في سفره إلى الشام ليدل دلالة قاطعة على عناية الله به، ورعايته إياه، وأنه كما قيل لموسى عليه السلام: ﴿وَلْتَضَعْ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] وقوله: ﴿وَأَصْطَبَعْتُكَ لِتَفْسِي﴾ [طه: ٤١] فهو إذاً ﷺ يصنع على عين الله تعالى، لنفسه وما يريده له، وما يأمره به ويطلبه منه، ومن ثم كان منطقياً أن نراه ﷺ محفوظاً عن رجس الجاهلية وأقوال الكفرة، وأفعالهم وصفاتهم، خاصة ما يكون منها متعلقاً بعبادتهم أو معبوداتهم، وكذلك مما يؤكد عليه في هذا المقام أنه كان معصوماً قبل البعثة بما يشين بعد البعثة، وهذا يوافق العقل.

وعليه نشير إلى أمور وقعت له في سيرته المشرفة ﷺ نستدل بها ونعلق عليها تدل على هذه الصيانة من الله تعالى، وكيف أنه لم يصدر من المشركين مع شدة الأذى، وتلمسهم أي صغيرة ينفذون بها إلى شينيه، لم يصدر منهم ما يعيرونه به، أو يلمزونه به، بل على العكس كان يحظى في تلك الأخلاق بكامل الاحترام قبل البعثة وبعدها، إلا ما كان منهم قبل إيمان من آمن من مجابهة الرسالة والرسول ﷺ.

من هذه الأمور التي عصم منها وهي تشير إلى ما وراءها، فنبدأ بها لذلك.

الأمر الأول: وهو أن الله عصمه من سماع ومشاهدة الأعراس، والسمر واللهو كما يلهو أمثاله في صباه أيام كان يرعى الغنم في مكة.^(١)

الأمر الثاني: ثبت أنه نهي عن رفع إزاره وهو رجل عند نقله الحجارة مع عمه العباس عند تجديد قريش لبناء الكعبة، فقد اقترح عليه العباس عليه السلام أن يرفع إزاره، ويجعله على رقبته ليقه أثر الحجارة، مادام بعيداً عن الناس فلما فعل خر مغشياً عليه، فلما أفاق طلب أن يشدوا عليه إزاره^(٢) والعري لم يكن مستنكراً إذ كان هناك من يطوف بالبيت عرياناً، وقد استمر ذلك حتى منعه النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة في حجة الصديق سنة تسع للهجرة، حيث أمر الصديق بإبلاغ الناس ألا يحج بعد هذا العام مشرك، وألا يطوف بالبيت عرياناً^(٣).

وقد علق شارح البخاري الحافظ بن حجر على هذا الحديث بقوله: "وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان مصوناً عما يستفح قبل البعثة وبعدها"^(٤).

وبالنظر في الأمرين يتجلى بوضوح ما كان من تربية الله له، وبحفظه من تلك القبائح التي تُعد في نظر المعاصر لها من الأمور العادية، بل والناظر لها الآن، وهذا يدلنا على حفظه لما هو أكبر منها، فإذا كان محفوظاً في الصغير فمن باب الأولى أن يكون محفوظاً في الكبير.

1- اختلف العلماء في تصحيح هذا الخبر، فصححه الحاكم في المستدرک (٤/٢٥٤)، والذهبي وغيرهما، وضعفه الإمام بن كثير في البداية والنهاية (٢/٢٨٧)، وكذا الشيخ الألباني في تخريجه لفقهِ السيرة لمحمد الغزالي (٧٢)، وقال الحافظ بن حجر: إسناده حسن متصل ورجاله ثقات، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٢٩) رواه البزار وإسناده ثقات كما ذكر ذلك محققاً دلائل النبوة لأبي نعيم (١/١٨٦).

2- البخاري (٣٥١)، ومسلم (٥١٥) من حديث جابر رضي الله عنه.

3- البخاري (١٥١٧) ومسلم (٢٤٠١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

4- ابن حجر، "فتح الباري" (١/٤٧٥).

فوجدنا مكانة النبي ﷺ الأدبية في المجتمع القرشي لا يدانيها مكانة سموًا وعلوًا تدل على ما وصل إليه توفيق الله له، وحفظ الله إياه، ومن ذلك اختلافهم في وضع الحجر الأسود عند تجديد بناء الكعبة، إذ انتهوا بالرضا بتحكيم أول داخل من باب بني شيبه، فإذا هو رسول الله ﷺ فقالوا: «أتاكم الأمين»^(١)، أما ما كان من عبادة قريش ووثنيته، فكان يفيض عن عرفة في الحج، كما ذكره جبير بن مطعم حين رآه واقفًا بعرفة فقال: هذا والله من الحمس فما شأنه ها هنا؟!^(٢)

علي حين تفيض الحمس، وهم قريش من مزدلفة، وكان يستمسك بإرث إبراهيم وإسماعيل في حجهم وبيوعهم ونكاحهم^(٣) وهذا من توفيق الله له قبل البعثة أما أصنامهم فلم يمس صنمًا فضلًا عن الطواف به، أو السجود له والاعتكاف عنده، فيذكر مولاه زيد بن حارثة ﷺ أنه كان يطوف مع الرسول ﷺ أي قبل البعثة بالبيت العتيق، فلمس زيد بعض الأصنام فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك، ثم عاد زيد لمسها ليتأكد من الأمر، فنهاه ثانية فانتهى حتى كانت البعثة، وقد حلف زيد بن حارثة بأن رسول الله ﷺ ما مس منها صنمًا حتى أكرمه الله بالوحي^(٤). وكذلك ما كان يأكل ما ذبح على النصب، حيث التقى بزيد بن عمرو بن نفيل وهو أحد الحنفاء الذين تركوا دين قريش بأسفل مكة، وقدمت للنبي ﷺ سفرة فخشي أن يكون مما ذبح على النصب فأبى أن يأكل، ولم يكن يعلم ذلك عن رسول الله ﷺ، وقد بين شراح الحديث أنه ما كان يأكل ما يذبح على النصب^(٥)، وهذا قليل من كثير في سيرته وأخلاقه ومعاملاته قبل البعثة مما يبين الإعداد الإلهي له ﷺ لتحمل هذا العبء

1- أحمد، "المسند" (٣/٤٢٥)، والحاكم، "المستدرک" (٣/٤٥٨).

2- البخاري (١٥٥٣)، ومسلم (٢١٤٢).

3- البيهقي، "دلائل النبوة" (٢/٣٧).

4- الطبراني، "المعجم الكبير" (٥/٨٨)، والبيهقي، "دلائل النبوة" (٢/٣٤) والحاكم في المستدرک وحسنه الذهبي في السيرة النبوية من تاريخ الإسلام راجع د. أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١/١١٧).

5- صحيح البخاري (فتح الباري ٧/١٤٢، ٩/٦٣٠).

الضخم من تبليغ رسالة الله تعالى، والقيام بمشاقها.

وكان منطقيًا كما رأينا أن تتم العناية به ﷺ والصيانة له على أحسن حال وأتم وجه، وكان متسقًا ومتوافقًا تمام الاتساق والتوافق في كل هذه الأخلاق الحسنة وغيرها مع الإرادة الربانية التي اختارته؛ إذ ما سمعنا عن مثل ذلك لغيره، لو كانت الأمور بالتدريب والمجاهدة ورياضات النفوس، أو بالثقافة التي يدعيها "وات" لكان لغيره خاصةً الحنفاء ومن تنصر كورقة اليد الطولى إذ كان يقرأ ويكتب من الكتاب العبراني ما شاء الله له، وعلى علم بحال قومه وزاد بعلمه بأحوال النصارى واليهود من حرف منهم وزاغ، ومن بقى على الدين الأول، فلا مرد لذلك، ولا مرجع له إذن إلا اتصال الأرض بالسما لإعداد هذا النبي المنتظر.

وإن بيئة تساوى الجميع فيها مع محمد ﷺ ولم تكن بالعالية كالملا المكي، ولا المتدنية كالمقابل لهم، لم تكن لتخرج هذا الشخص العظيم الذي علا الجميع بغير محاولة منه بما هم مشتركون فيه.

إن ذلك دليل خارج عن نطاق البشر، ويستدل به ويبرهن على نبوة ذلك الأمين الصادق ﷺ.

المبحث الثامن

زواجه ﷺ من خديجة رضى الله عنها.. التعليق على «وات»

وكان زواجه ﷺ من خديجة بنت خويلد بن أسد أحد العلامات البارزة في رعاية الله تعالى له، وإظهار فضله وشرفه، وإعداده لهذه المهمة النبيلة، إذ كان هذا الزواج بعرض من خديجة نفسها، وذلك لما بلغها من صدق حديثه، وعظيم أمانته، وحسن أخلاقه حيث قد انتشر ذلك وذاع عنه في مكة مما يدل على أنه لم يبلغه آخر في نفس ظروفه ﷺ، ثم تابعت ذلك بالتأكد والتحري بنفسها، وهي من هي حزمًا وشرفًا، فقد كانت في أوسط قريش نسبًا وأعلامهم فضلًا وأكثرهم مالاً، ولقد نودي عليها بالعفيفة الطاهرة، وكانت امرأة لبيبة حرص رجال كثير من عليّة قومها على الزواج منها.

كانت خديجة تضارب في مالها الكثير، وتنتقي من الرجال أشرافهم وأمناءهم ليتجروا لها فيه نظير معلوم من المال، فما أن سمعت بمحمد ﷺ حتى بعثت إليه، وعرضت عليه أن يخرج متاجرًا في مالها إلى الشام، مع إضعاف الأجر له عن غيره فوافق، وخرج مع غلام لها يدعى ميسرة، ولقد رأى من الآيات التي جرت للنبي ﷺ والمعجزات ما حكاها لسيدته خديجة، فرغبت في الزواج منه.^(١)

وأن يكون لهذا الزواج أسبابه الوجيهة القوية هو منطق الأشياء، وواقع الأمر وطبائع

1 - الطبراني في الأوسط، وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٢٥٦) وإسناده حسن.

الناس، وعاداتهم من قديم، مما يؤكد أقرب الأسباب المذكورة التي لم يجادل فيها أحد بما يثبت بها لا يدع مجالاً للقول أو منفذاً للشك أن أخلاقه وسيرته كانت مشتهرة بين القوم، وتناقلها الإخباريون كلهم والرواة، ولم يردها أحد، أو يجادل ويشكك في وجودها حينئذ أحد^(١).

وقد خطب رسول الله ﷺ خديجة من أبيها خويلد بن أسد^(٢) فزوجه منها، وذهب ابن إسحاق إلى أن خديجة كانت في الثامنة والعشرين من العمر، وذهب الواقدي^(٣) إلى أنها كانت في الأربعين، وأن الذي تولى زواجها هو عمها عمرو بن أسد لأن أباهما قد هلك قبل يوم الفجار، وهي الحرب بين قريش وحلفائها من جهة، وقيس عيلان من جهة أخرى، ولكن الراجح أن أباهما هو الذي ولى نكاحها، لأن الأحاديث في ذلك أقوى، ويعتضد بعضها ببعض^(٤).

تزوج رسول الله ﷺ بخديجة، وسكن في بيتها، وولدت له أولاده جميعاً، ذكرين القاسم - وبه يكنى - وعبد الله الملقب (بالطيب والظاهر) وأربع بنات هن زينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية وهذا يرجح رواية ابن إسحاق في أنها كانت في الثامنة والعشرين من

1- ابن اسحاق، وابن هشام، "السيرة النبوية" (١٢١-١٢٢ / ١).

2- الزهري، "المغازي النبوية" (٢٤)، وابن إسحاق، السيرة النبوية لابن هشام، (١ / ١٢٢).

3- ابن سعد، الطبقات (١٣٢-١٣٣ / ١)، الطبري (٢ / ٢٨٢)، وواقفه على ذلك السهيلي، "الروض الأنف" (١ / ٢١٣) وابن سيد الناس، "عيون الأثر" (١ / ٥٠)، وابن عبد البر، "الاستيعاب" (٤ / ٢٨٠)، والشامي، "سبل الهدى والرشاد" (٢ / ٢٢٤)، وانظر د. مهدي رزق الله، "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية" (١٣٤-١٣٥)، وأيد ابن حجر أن أباهما تزوجها "فتح الباري" (٧ / ١٣٤)، وانظر د. أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١ / ١١٣)، وذهب محمد بن رزق بن طرهوني، "صحيح السيرة النبوية" (السيرة الذهبية) إلى صحة تزويج أبيها إياها، وهو سكران (٢١٥-٢١٦ / ١).

4- د. مهدي رزق الله، "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية" (١٣٥).

عمرها، إذ الغالب أن المرأة تبلغ سن اليأس من الإنجاب قبل الخمسين.^(١)

فأما القاسم وعبد الله فهما قبل الإسلام، وأدركت البنات الإسلام فأسلمن وهاجرن مع النبي ﷺ.^(٢)

توفيت خديجة قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنوات^(٣)، وذلك قبل حادثة الإسراء والمعراج، في نفس البيت، ولم يتركه الرسول ﷺ إلا بعد الهجرة حيث أخذه عقيل بن أبي طالب فيما أخذ^(٤).

كانت خديجة رضي الله عنها أول من تزوج رسول الله ﷺ ولم يتزوج عليها حتى ماتت وإن كانت هي قد تزوجت قبله مرتين، فكانت ثيبًا وأكبر سنًا منه مما يدل على عدم اهتمام النبي ﷺ بما يهتم به أقرانه من متعة الجسد، وإلا لابتغى من هي أصغر منه سنًا، وبكرًا ثلاثه ولكنه رغب في خديجة رضي الله عنها التي كانت تلقب بالعفيفة الطاهرة، وظل هذا الزواج قائمًا حتى ناهز هو ﷺ الخمسين من عمره الشريف، مما يدل دلالة قاطعة على أن التعدد ما كان بعد ذلك لدوافع الشهوة والمتع الزائلة، ولو شاء لوجد الكثير دون خروج عن عادة وقيم ومألوف القوم حينئذ.

إن الثابت في الصحيحين وغيرهما من دواوين السنة والسيرة تؤكد المكانة التي حلتها خديجة من الرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها إلى يوم القيامة، وعلى تلك الدرجة العالية لها عند

1- د. أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١/١١٣).

2- ابن حجر، "فتح الباري شرح صحيح البخاري" (١٤/٢٩١)، ابن كثير، "البداية والنهاية" (٣١٨-٣١٩/٢)، ابن إسحاق، ابن هشام، "السيرة النبوية" (١٢٢-١٢٣/١).

3- ابن هشام، "السيرة النبوية" (٤٦-٤٧/٢).

4- الفاكهي، "أخبار مكة" (٤/٧).

رهبها، وعلى فضلها في دين الإسلام وفي عنق المسلمين. حيث ورد منه ﷺ الثناء الضخم عليها، والوفاء الجميل عند ورود ذكرها، أو مرور شيء من سيرتها، أو عند رؤية أحد من صدائقتها وخليلاتها، مع إظهار النبي ﷺ لمحبتها، وتأثره عند ذكرها بعد وفاتها، وإشهار حسن موقفها منه ووقوفها وراءه تؤمن به، وتشد أزره، حتى قال ﷺ: "خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة"^(١) مما يؤكد في الإسلام تلك الأخلاق الحسنة من جهة، ومن جهة أخرى أن النساء شقائق الرجال، وفيهن من وصلت إلى هذه الدرجة العالية الرفيعة، مما يجعلها القدوة والأسوة لنساء المسلمين اللاتي يتبعن رضا الله، ويردن رفعة أوطانهم، وبالتالي فإن في التصفح لسيرتها وسيرة بقية المسلمات القانتات لزاذاً عظيماً تزوده المرأة المسلمة في هجير المادة اللافح الذي نعيشه اليوم.

نعود لتعليق "وات" على هذا المبحث..

ولولا أن ذلك من منهج هذا البحث لما أعدنا النظر فيه، ولا الالتفات إليه، إذ هو مسخ من العقل، وتناقض من القول، وتلاعب بالألفاظ، فهو يستغفل القارئ، ويوهمه - يجبره - بالشيء ونقيضه، وللأسف هو قول طويل، ونقله والتعليق عليه ثقل على النفس، ولأن فساده يغني عن إفساده، لأن عواره ظاهر لمن عنده مسكة من العقل، ولكن نقل بعضه حجة وبرهاناً على ذلك السوء البالغ المسمى بحثاً ومنهجاً تاريخياً وغيره من مهول

1- البخاري، الصحيح (٣٨١٥)، مسلم (٢٤٣٠)، وانظر في فضل السيدة خديجة رضي الله عنها، البخاري أيضاً "الفتح" (٣٨١٨-٣٨٢٣/ح)، ومسلم بشرح النووي (١٥/٢٠٢)، والبداية والنهاية لابن كثير (٣١٨-٣٢٠/٢) ومن تلك الأحاديث أيضاً ما رواه أبو هريرة قال: "أتى جبريل النبي ﷺ - فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب البخاري (٣٨٢١) ومسلم (٢٤٣٢).

القول الذي ليس تحته شيء، وإنما هو جعجعة يدخل بها في روع من أمامه.

يقول^(١): من وجهة نظر المجتمع المكي، كان محمد ﷺ قد وضع قدمه على أول درجة - على الأقل - من درجات النجاح الدنيوي.

وربما لم تكن خديجة - رضي الله عنها - من الثروة كما يقال عنها أحياناً.

ولكننا نستطيع أن نفترض أن محمداً ﷺ قد أصبح لديه رأس مال يكفيه للحصول على نصيب متوسط من الأعمال التجارية.

وأول ما يفجعنا به "وات" من التهويل الذي لا علاقة له بالبحث - لأنه لا يستند إلى الواقع - هو قوله: من وجهة نظر المجتمع المكي؛ هكذا بكل سهولة! ينظر جميع المكيون على أن محمداً ﷺ بهذه الزيجة، قد وضع قدمه على أول درجات النجاح الدنيوي!.. ترى من الذي أخبر "وات" بذلك؟! في أي كتاب، أم من أي مصدر استقى "وات" هذه المعلومة؟! دعك من هذا، بل من أي دليل استنبط "وات" هذه النتيجة؟! تراه كان يعيش بينهم؟!، أم أجرى هذا الاستطلاع في مكة؟!، أم أجراه أحد الموثقين وأخبر به "وات" خفية لم يطلع عليه غيرهما؟!... وهل هذا الاستطلاع شمل المكيين كافة في مجتمعهم كما يزعم؟!... كل ذلك - للأسف - لم يكن؛ بل هو من تأليف "وات" للتاريخ، وبنى عليه هذا التهويل.

ثم إليك هذا الرد، وهو أن الرسول ﷺ - ما وضع قدمه على أولى درجات النجاح كما يدعي "وات" إلا لأنه سيستحوذ - لأنه لم يستحوذ بعد - على مال خديجة - رضي الله عنها -، والسؤال منذ متى كانت البيئة والطبيعة العربية، تسمح للزوج بأن يجوز مال امرأته إليه، بل إن الحياء والشهامة تأبى إلى اليوم أن يأخذ الرجل شيئاً يخص زوجته أو يطمع فيه، ومنذ

1- "وات"، محمد في مكة (١٠٠)، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ وآخر.

متى أيضًا كان رسول الله ﷺ ينتظر مال خديجة أو ينظر إليه.

وردًا آخر رده "وات" على نفسه، وهو من عجائبه أو قل سخائمه، وهو قوله بعد إن الرسول ﷺ - كان يتحنث في غار حراء هربًا من حر مكة؛ لأن النبي ﷺ لم تكن له القدرة المالية التي تتيح له الذهاب إلى الطائف^(١). أي ليصطاف كما يصطاف مسورو مكة في الصيف (سنعود إلى التحنث في غار حراء مرة أخرى إن شاء الله) وإنما هذا رد سريع على هذا الإفك، كيف نوافق على هذا التناقض أو نوقفه.

ثم تزداد حدة التناقض بقوله ربما لم تكن خديجة من الثروة كما يقال عنها أحيانًا، فإذا لم تكن كذلك، فمن أين وضع الرسول ﷺ قدمه على الأقل على أولى درجات النجاح الدنيوي كما تدعي، وانظر إلى الأسلوب العلمي الفذ الذي يلاحقنا به، ويلاحق القرّاء والباحثين، حيث لا يملك عند محاولة تفريغ السيرة من مضمونها ووحيتها وجمالها وجلالها وجمالها إلا العجز الذي يسميه البحث التاريخي، فلا تخلو جملة، وصفحاتها من قوله، «وربما»، «ومن المحتمل»، «ويمكن»، «ولعله»، ولو «افترضنا»، «ولا يمكن» فهل ربما ومن المحتمل ولا يمكن وغيرها، هل هذا بحث، أو هو تشويش وشغب على الحقائق يلويها بعيدًا عن الواقع الحق لها لتصل إلى بغيته لا إلى نتيجة البحث.

وهذا اللفظة التي وضعها في الجملة، وهى وقوله أحيانًا، أي كما يقال أحيانًا عن خديجة إنها ثرية ولها ثروة تجعلها من أصحاب التجارات إلى الشام وغيرها، فهذا لي صريح لعنق الحقيقة ورد كاذب للواقع، بل كان يقال عنها دائمًا إنها من أصحاب الثروات وإنما غنية وإنما تستأجر التجار ليتاجروا لها في مالها، ولم تسمع أن ذلك يقال أحيانًا، إنما كان ذلك

١ - "وات"، "محمد في مكة" (١٠٩)، هذه ترجمة شعبان بركات، أما ترجمة المصرية العامة للكتاب التي نقل غالبًا منها فهي قول "وات"، وربما كان ذلك وسيلة للهروب من حرارة مكة في موسم متعب لمن كانوا لا يستطيعون الذهاب إلى الطائف.

دائمًا فقلبها بقدره باحث ضال إلى أحيانًا يقال عنها إنها صاحبة ثروة، وهذا تغيير للتاريخ وقلب لحقائقه لم ينطق به لسان معاصر لها ولا من أتى بعد ذلك، وليس له وجود إلا في عقل "وات" الأسن وسنينه من كلامه الآتي إن شاء الله حيث صدره بجملة لا قيمة لها في البحث، وهي ربما لم تكن، كيف يزيّف الواقع ويُمسح بكلمة ربا، ثم يزداد إيغالا في التضليل بقوله أحيانا، مع أنه الدائم، يقف الباحث المتجرد حائرًا في وصف هذا الهراء الضال.

ونواصل على مضض التعليق على بقية كلام مستر "وات"، يقول: ولا يعنى عدم وجود أخبار عن أنه سافر إلى الشام مرة ثانية أنه لم يذهب.

وهذا هو التناقض الممل، والتزييف المتعمد، والجمل التي لا صلة بها بالبحث بل باستغفال القارئ.

إذ ما معنى هذا الخبط؟ لا يعنى عدم وجود أخبار بالسفر أنه لم يسافر، فيرجع بنا:

أولاً: إلى ربا ومن المحتمل... إلى آخر ألفاظه.

ثانياً: إن من قال إنه سافر، لم يقل على أقل تقدير إنه سافر مرة أخرى فمن أخبرنا بالسفر أخبرنا بعدمه بعد ذلك فمن أين لك هذا؟

ثالثاً: كفانا "وات" مؤونة الرد عليه لأن الاضطراب عادة المتناقضين فقال في السطر التالي مباشرة: مع الوضع في الاعتبار أنه من الممكن دائماً أن يكلف آخرين بالإشراف على تجارته، فلما وضعنا أيها المستشرق في اعتبارنا أنه دائماً من الممكن أن يكلف آخرين بما ذكرت أنتج لنا هذا الوضع أنه لم يسافر أبداً بعد ذلك، لأن هذا ما يعنيه كلمة دائماً التي ذكرتها.

وما زال "وات" مصممًا على أن يكون عنوان فضح المستشرقين أمثاله بكلامه الذي لا ندري له وصفًا فيقول: كذلك يجب أن نتذكر دائمًا احتمال أن التجار قد استبعدوه من مجالسهم، ومن معظم العمليات المربحة. ومع ذلك فمن المحتمل أنه لم يستبعد تمامًا، لأنه كان قادرًا على أن يزوج ابنته زينب لأحد أفراد عشيرة عبد شمس، وهو ابن أخت خديجة، والتي لاشك في أنه كان لها دور بارز في هذه الزيجة، كما أن خطبة ابنتيه الأخريين لابني أبي لهب، الذي ربما كان ينظر إليه على أنه الزعيم التالي لبني هاشم، تدل على أن محمدًا ﷺ كان ينظر إليه أيضًا على أنه أكثر شباب بني هاشم رجاء^(١).

ونبدأ بمقدمة كلامه التي عللها بالباقي من القول، حيث أوجب علينا دائمًا أن نتذكر احتمال أن التجار قد استبعدوه من مجالسهم ومن معظم العمليات المربحة. وكذلك من المحتمل أنه لم يستبعد تمامًا.

ونحن معه في هذه الاحتمالات لنصل إلى الاحتمال الحق، فنقول له: يا مستر "وات" قد تذكرنا دائمًا أنه مستبعد، ثم ذكرتنا بالثاني أنه غير مستبعد تمامًا قد أمرتنا أن نتذكر دائمًا أنه مستبعد، فليس ثم استثناء للاستبعاد فلا يمكن أن نقول بعد دائمًا هذه إنه غير مستبعد تمامًا، فلم أمرتنا أيها الفهامة بذلك الاستبعاد الدائم التذكر فإذا به غير دائم ولا تام، فأبي الاحتمالين تريدنا أن نتذكر إلا أن تقصد الاحتمال الثالث وهو أنه مستبعد وغير مستبعد.

ولا نجد في هذا الكلام إلا الكوميديا التراجيدية لـ "وات" المضحكة المبكية في أن واحد ثم نحن نذكرك بأن الاستبعاد وعدمه غير ثابت تاريخيًا، ولا هو واقع التجار أيامئذ، فلم نسمع أن التجار وقفوا لأحد أخذ تجارته إلى الشام أو غيرها فوقفوا له قائلين ارجع أيها

1- "وات"، محمد في مكة (١٠٠)، ترجمة عبد الرحمن الشيخ وآخر.. الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢.

المستبعد، وها هي ذي خديجة كانت ترسل التجار ليتاجروا ويضاربوا لها في كل الأسواق المعلومة في ذلك الزمن شامية كانت أو يمانية أو غيرها.

ووصولاً إلى الاحتمال الحق الذي قامت عليه الحجة، وأيده البرهان، وسيكون من كلام "وات" نفسه للنزاهة العلمية، ونبدأ فنقول إن الاحتمال الأول قد زيفه "وات" نفسه فبعد أن أمرنا أن نتذكر دائماً أنه مستبعد، أنبأنا أنه ليس مستبعداً تماماً فمحا كلامه، فلم يعد التذكر الدائم للاستبعاد حقاً بل هو باطل منقوص مشكوك فيه، وكذلك الاحتمال الثالث أن نتذكر دائماً أنه مستبعد وغير مستبعد تماماً فهذا كوميديا تراجيديا، فلم يبق إلا الاحتمال الثاني وهو أنه غير مستبعد، وهو الحق، وقد أقام "وات" نفسه البرهان والحجة على أنه لم يستبعد بهذه الوجوه التي ذكرها بنفسه.

الأول: أنه ﷺ كان قادراً على أن يزوج ابنته لأحد أفراد قبيلة عبد شمس، وكأنه يريد أن يقول إن محمداً ﷺ كان قد وصل إلى درجة من الغنى يصاهره بها أحد أفراد هذه القبيلة الغنية من التجار الأثرياء. فكيف يناسبهم وهم مستبعدوه؟

الثاني: يقول أن لخديجة دوراً بارزاً في هذه الزيجة لأنه ابن أختها، فكأنها هي الأخرى من الأثرياء اللاتي يتدخلن فتكون لهم الكلمة، ويمضي قولهم، وبالتالي يعود ذلك في هذا الحين على موقف سيدنا محمد ﷺ لأنه بلا أدنى شك رجل هذا الموقف.

الثالث: أن أبا لهب المفترض كما يذكر "وات" أن يكون زعيم بني هاشم، خطب ابنتين من بنات النبي ﷺ لابنيه، وما ذلك إلا لموقفه الحالي ومستقبله الواعد ﷺ في بني هاشم، ثم يريدنا "وات" بعد أن هدم كلامه بكلامه، وأظهر دجله وحيفه وظلمه، وعدم نزاهته وأمانته فيما يسميه بحثاً، أن نتذكر دائماً أن محمداً ﷺ كان مستبعداً كما يدعي

ويفترض، نعم صحيح، ولكن في تاريخه الذي نسجه من وحى شياطينه.

والجزء الأخير الذي لا بد من ذكره في زواج النبي ﷺ من خديجة، كما ذكره "وات"، هو قوله: فإن لدينا الكثير من الأسباب التي تجعلنا نعتقد أن خديجة رضي الله عنها قد أدركت بعضاً من قدرات محمد ﷺ الروحية، وأنها انجذبت إليها.

ونقول: بعيداً عن قدراته الروحية ﷺ فهذه آيات أخرى ذكرنا شيئاً منها نقلاً عن كُتَّاب السيرة، ومصادرها، وسنذكر غيضاً من فيض في الباقي من البحث إن شاء الله.. ولكن العجيب أن "وات" يتكلم عن القدرات الروحية التي نفاها فيها سقنا من قصص في شق الصدر وإظلال الغمامة، وحديث بحيرى الراهب، وأنه بعد لم يكن قد بدأ التحنث والتعبد في غار حراء حتى نقول قد حصل شيئاً روحياً من تلك الخلوات والرياضات النفسية والتأملات الروحية والأفكار العقلية، فما الذي قلب عقله فجأة ليثبت للنبي ﷺ قدرات روحية جاذبة، خاصة أنه لا يؤمن بالوحي للنبي ﷺ وإنما بمخزون الليدو الذي ادعاه، ولم يذكرنا كعادته بالاحتمالات التي حصل بها هذه القدرات الروحية في تلك المرحلة المبكرة من سني عمره الشريف ﷺ، ولم يبين لنا برهما ومن الممكن ويحتمل وغيرها كيف راقبت خديجة هذه القدرات الروحية، كيف تتبعت محمداً ﷺ سفراً وحضراً في دروب مكة وأنديتها حتى اكتشفت الروحية هذه ورأتها فيه وتيقنت أنها روحية حتى اطمأنت إليها فطلبت الزواج منه، ومنذ متى سمعنا في البيئة العربية هذه القدرات الروحية التي تنجذب إليها النساء وكما يذكر "وات" التاجرات في القرن السادس الميلادي، وهل كانت النساء التاجرات العربيات يبحثن عن أصحاب القدرات الروحية للزواج منهم أو هو منهج الإسقاط حيث تسقط ما علمته في القرن العشرين على بيئة القرن السادس التي لا علاقة لها به ثم ما هي القدرات الروحية وعلاماتها التي ظهرت على سيدنا محمد ﷺ في هذه المرحلة، وكان عند خديجة سابق علم بهذه

العلامات، وأخذت تبحث عنها حتى تميزتها في رسول الله ﷺ^(١).

ألم تطبق من قبل ومن بعد المنهج المادي على مثل هذه الأحداث التي تريد نفيها، وبها تنفى نبوة الرسول، وكما لها وجلالها وجلال رسالة الرب سبحانه وتعالى، فتأتى هنا وتثبتها وما تريد إلا أن تخفي من طرف خبيث صفاته وأخلاقه وشيمه وكلماته التي لا توجد في مثله حتى حملت خديجة على طلب الزواج منه فتخفيها بأمر روحية أنت تنفيها من أصلها، ثم بعد ذلك تعاود الكرة لتنفي هذه أيضا مرة أخرى كما طمستها من قبل ف يتم لك الأمران لا أخلاق، ولا نبوة، وإنما هو مشروع عربي إصلاحى، الدين عنصر من عناصره، وهو ديدنك في كتاباتك كافة، إن المرء ليضرب كفاً بكف لمثل هذا، وأعجب منه أن يصدقه أحد للأسف ظاناً منه أنه وأمثاله من منصفى المستشرقين، بل إن الاستشراق لم يصنع أو يولد للإنصاف بل لمحاربة الإسلام، فأنى ينصفون، ومدعو الإنصاف والحياد والعلمية منهم أحببهم وأمعنهم تضليلاً وأشدهم فساداً وإفساداً في الدين والعقل والفكر، لم تغز أراضى الإسلام إلا بهم، ولكنها لم تغز بالشتامين الوقحين منهم لأن ذلك منهم حاجز يجب عنهم قبول الناس لكلامهم.

المبحث التاسع: مشاركته في بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود.

وهذا المبحث من سيرته المشرفة ﷺ نسوقه لأمرين:

الأول: هو ارتضاء قريش كلها لتحكيمه ورأيه ﷺ قبل البعثة وقد كانوا يسمونه الأمين مع ذكر أمانة الرسل في القرآن الكريم، ومقارنة ذلك بحال النبي ﷺ وهو منهجنا في عرض السيرة ومقارنتها.

1 - جمهره الأمثال لأبى هلال العسكري (١/ ٢٠٥)

الثاني: توضيح مشاركة النبي ﷺ لأهل مكة، وحضوره في قضايها حضوراً بناء يؤكد إيجابيته ﷺ في التعامل مع من حوله من أهل مكة كافة، حتى وصل إلى هذه الدرجة العالية في فصله في قضايهم، والتحمل معهم لما ينزل بهم وهي نقطة الانطلاق في الرد على "وات" ومن لفه من المستشرقين، من تعميمهم على هذه الفترة من حياته الشريفة ﷺ محتجين بما ورد في سورة الضحى، بطمس الواقع وليّ الحقائق.

وبداية الحديث التي اخترناها في بناء الكعبة موغلة في القدم إلى إبراهيم عليه السلام لربط الوقائع واتصال الأحداث.

وهي كما ذكر أصحاب السير والمحدثون^(١) أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة، وعرض عليه الأمر على ولده إسماعيل عليه السلام الذي نشأ في هذا الموضع حيث تركه رضيعاً مع أمه في هذا المكان حتى حفر لهم جبريل زمزم بعد أن كادوا يهلكون من العطش، وشب إسماعيل في جُرحهم التي نزلت بجوارهم لما رأوا الماء وتزوج منهم، وكان إبراهيم عليه السلام يطالع تركته تلك بين الحين والآخر حتى أمره الله سبحانه في هذه المرة ببناء بيته، ورفع قواعده وعرفه مكان البيت كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، وساعده إسماعيل عليهما السلام في ذلك، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وكان بيني ساقاً كل يوم، حتى إذا بلغ مكان الحجر، قال لابنه: ابغني حجراً، فالتمس حجراً حتى أتاه به، فوجد الحجر الأسود قد ركب، فقال له ابنه: من أين لك هذا؟ قال جاء به من لم يتكل على بنائك، جاء

١- البيهقي، "دلائل النبوة" (٢/٥٥)، والطبري في تفسيره (٦٩-٧١/٣)، والحاكم في المستدرک (٩/٢٧٣)، باب ذكر إبراهيم النبي ﷺ وقال صحيح على شرط البخاري و مسلم، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه الأزرق في تاريخ مكة (١/٢٥-٢٤).

به جبريل عليه السلام من السماء حتى أمته.

وروى البيهقي أيضًا أنه عندما انهدم البيت بنته العمالقة، وعندما انهدم للمرة الثانية بنته جرهم، وعندما انهدم للمرة الثالثة بنته قريش ورسول الله ﷺ رجل شاب...^(١)، فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود إلى مكانه اختصموا فيه، فقالوا نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة فكان رسول الله ﷺ، وقد أكد ذلك ما رواه الإمام أحمد وأصحاب السير أن قريشًا اختلفت في وضع الحجر الأسود في مكانه، قالوا: اجعلوا بينكم حكمًا، فقالوا أول رجل يطلع من الفج، فجاء رسول الله ﷺ فقالوا أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم، فرفعوا نواحيه، فوضعه النبي ﷺ في مكانه المطلوب، هذا علاوة على ما كان منه في نقل الحجارة مع العباس في بناء الكعبة إذ شاركهم بأعظم جهد ممكن وأخلصه ﷺ، إلى أن جاء دور الحجر الأسود كما في القصة الآنف الذكر ولولا حكمة الله وهداية النبي ﷺ لهذا الحل، بعد اختيارهم وارتضائهم لقضائه بينهم لسفكت الدماء، فقد روي أنهم اختلفوا إلى حد أن قرّب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاهدوا هم وبنو عدي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا دون أن يردها إلى الوفاق رأي أو تدبير، حتى كان خمود نار الفتنة على يد رسول الله ﷺ^(٢).

ونعود إلى ما دعانا إلى ذكر هذا المبحث، وهما الأمران اللذان ذكرنا في البداية:

والأول: هو ارتضاء قريش عن بكرة أبيها لتحكيمه ممثلة في رؤساء بطونها وقبائلها، والعمل بما رأى، لكونه كان الأمين عندهم.

1- البيهقي، "دلائل النبوة" (٥٦-٥٧/٢)، وأخرجه الحاكم في المستدرک (١/٤٥٨) وصححه وأقره الذهبي.

2- انظر ابن اسحاق، ابن هشام، "السيرة النبوية" (١٢٦-١٢٧/١)، تحقيق محمد فهمي السرجاني وخيري سعيد ط المكتبة التوفيقية.

أما كونه ﷺ محل رضا هؤلاء الكفار آئذ فهو دليل على كونه قد ساهم في أعمال كثيرة، وقام فيها بالأداء العالي، ولم يقصر فيما أسند إليه، بل بلغ فيه الدرجة القصوى التي تدل على أعلى درجات الأمانة؛ لأن الدرجة العادية كانت - لا شك - لكثير من قريش، ولم يطلق على واحد منهم هذه التسمية، بدليل أنه لو طلع آخر غير النبي ﷺ وارتضوا حكمه فرضاً، فإنهم لن يقولوا جاءكم الأمين.

أما أمانة الرسل عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام في القرآن الكريم، فقد صرح بها في غير لبس على لسان الرسل عليهم السلام أنفسهم، فقد جاء في ذكر سيدنا نوح عليه السلام قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٠٧] وكذلك في حق هود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام ونستدل بها على أمانة النبي ﷺ من وجوه نذكر اثنين لأهميتهما:

الأول: أن سياق القرآن الكريم يدل على أن الله تعالى أمر المرسلين بأن يذكرها وينبهوا أقوامهم بأنهم أمناء في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٢٥]، أما الرسول ﷺ فلم يوجه إليه ذلك الأمر، بل الكفار هم المخاطبون له ابتداء بالأمانة، ومن ثم لم نجد في القرآن الكريم قوله للرسول: إني لكم رسول أمين، لأنهم هم من أطلقوه عليه فلم يكن بحاجة إلى تذكيرهم به فكان ﷺ بذلك أعلى درجة بتوفيق الله ورعايته سبحانه.

والوجه الثاني: أن رسول الله ﷺ سيد ولد آدم، فكان بالبرهان أعظمهم أمانة وأعلامهم خلقاً.

1 - في قصص الرسل السابقين في سورة الشعراء، أما موسى عليه السلام ففي سورة الدخان ﴿ أَنْ أَدْعُوا إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ إِيَّاكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾.

فدل هذان الوجهان فقط على أنه ﷺ أعظم الرسل وأعلاهم على الإطلاق أمانة،
وبالتالي سيد الدنيا والآخرة في ذلك وغيره.

وهذا الكلام غصة في حلق المستشرقين قبل غيرهم بالبرهان العقلي والدليل المادي
الواقع الذي لا ينكره أولو الألباب من غير تعصب ولا هوى.

وأمانة الرسل يراد بها أمران:

الأول: أمانتهم بين أقوامهم قبل تبليغهم الرسالة، وهي دليل على الصدق.

الثاني: الأمانة يحتمل أن يراد بها أنه أمين من جانب الله على الأمة التي أرسل إليها، إذ
لا يرسل الرب من ليس أميناً عنده ليبلغ أمانته سبحانه إلى الناس.

ويجمل أن نشير إلى حاصل كلام الطاهر بن عاشور في تفسيره لتلك الآيات حيث
يقول: وجملة: "إني لكم رسول أمين" تعليل للإنكار أو التحضيض وهو في قوله: ﴿أَلَا
تَتَّقُونَ﴾ فإن ﴿أَلَا﴾ هنا للإنكار أو التحضيض على الإيثار، أي كيف تستمرون على الشرك،
وقد نهيتكم عنه وأنا رسول لكم أمين عندكم.

وكان نوح موسوماً بالأمانة لا يتهم في قومه، كما كان محمد ﷺ يلقب الأمين في قريش.

قال النابغة:

فألفيت الأمانة لم تخنها .. كذلك كان نوح لا يخون

وتأكيده بحرف التأكيد ﴿إِنِّي﴾ مع عدم سبق إنكارهم أمانته؛ لأنه توقع حدوث
الإنكار، فاستدل عليهم بتجربة أمانته قبل تبليغ الرسالة، إذ أن الأمانة دليل على صدقه فيما
بلغهم من رسالة الله، كما قال هرقل لأبي سفيان - قبل إسلامه -: فهل كنتم تتهمونه

بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ - يعني رسول الله ﷺ - قال أبو سفيان: قلت: لا!... إلى أن قال هرقل: وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا! فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله^(١).

فكانت حكاية نوح تسلية للنبي ﷺ مما حدث من قومه، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يكذبونه كما ذكر القرآن الكريم تشيئاً للنبي ﷺ وإذهاباً للحزن عنه حيث قال تعالى: ﴿فَأَيُّكُمْ لَا يُكذِّبُوكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ تَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ويحتمل أن يراد به أمين من جانب الله تعالى على الأمة التي أرسل إليها، والتأكيد أيضاً لتوقع الإنكار منهم^(٢)، تلك الأمانة التي تدلنا على صدق الرسول في الوحي وغيره مما أخبر به، هي رد قاطع على "وات" في هديانه من بدايته إلى نهايته.

الأمر الثاني: الذي سقنا بسببه هذا المبحث، وهو مشاركته أهل مكة حتى وصل إلى هذه الدرجة بينهم.

أشرنا في الأمر الأول إلى أن ارتضاءهم لرأيه ﷺ وتنفيذهم له لم يكن من فراغ، أو انكفاء على الذات، أو مقاطعة أو انشغال عن أحداث المجتمع، بل جاء إسهام النبي ﷺ في القضايا الكبرى وغيرها التي عاشتها مكة آنذاك مغطياً شتى مساحات العمل البشري، عاملاً في كل اتجاه، حتى قالت له خديجة - رضي الله عنها - «والله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»^(٣) فكان يبني كل هذه النشاطات عبر شخصية قادرة على التصدي

1 - رواه البخاري (٦)، كتاب بدء الوحي.

2 - انظر العلامة بن عاشور، "التحرير والتنوير" (١٥٨-١٥٩/١٩).

3 - البخاري، (٤٥٧٢).

لكل مشكلة، والإسهام الايجابي الفعال الذي من شأنه أن يعيد حقاً، أو يقيم عدلاً، أو يواسي ويقف ويعين إلى آخر ما ذكرت خديجة عن إسهاماته الفذة غير المعهودة في تلك البيئة حتى لقبوه بذلك، وأودعوه أماناتهم، وهم يخالفونه في الدين، فقد ترك علي بن أبي طالب في الهجرة ليرد للكفار أماناتهم التي استودعوه إياها إذ لم يكن مثله أحد يمكن الثقة فيه مع مخالفتهم له.

وكان عمله في بناء الكعبة، وإيقاف نزيف الدم المنتظر، ووآد الفتنة أحد الأنشطة التي قام بها.

نأتي لتعليق "وات" على هذه الجزئية لنناقشه فيها:

"وات" كما دللنا بالمواضع التي ذكرنا من قبل لم يترك شيئاً من حقائق السيرة إلا حاول بكل ما أوتي أن يلويها ويغيرها، ويذهب بها بعيداً عن سياقها، ويدمر معانيها، وما لم يستطع أخفاها كأن لم تكن، ولم يقرأها كأن على بصره كما على قلبه غشاوة، ونبرهن على قليل من فيضه بهذه الجزئية، فهو لم ير في الفترة من زواج النبي ﷺ بخديجة - رضي الله عنها - إلى أن أتاه الوحي إلا ثلاث آيات من سورة الضحى، وتلخيص كلام "وات"، وهو نفس كلام "بروكلمان"^(١) أنه لا يصح في هذه الفترة من معلومات نستدل بها عليها، إلا ما حدث فيما بعد، مثال ذلك آيات في سورة الضحى، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَعْنَىٰ ۖ﴾ ويقول وستأتي إشارات أخرى عن هذه السنين المجهولة في سياق الحديث.

1 - ولد بمدينة روستوك بألمانيا، درس الآرامية والسريانية والعربية والحشبية، درس على يد نولدكه ومارتن فيلبى، ظهرت الطبعة الأولى من كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية»، عام ١٩٣٩ م، والطبعة الإنكليزية ١٩٤٧ م، له العديد من الدراسات خاصة في مجال التحقيق.

فقل لي بربك بأي شيء يوصف هذا الكلام، لم ير "وات" في هذه السنين المجهولة إلا يتمه وضلاله وفقره، أكثر من خمسة عشر عامًا.

ويقال، كيف يكون الرسول ﷺ قد تزوج ويطلق عليه يتيم، هذا هزل وتنكيت في مقام الجدل والبحث، ثم نعيد ما قال في الوصف الثالث، وهو فقره كيف يكون فقيرًا بعد الزواج كما يدعي أن هذه الآيات هي التي توضح تلك الفترة من عمره الشريف، وهو القائل قبل قليل في الصفحة السابقة، إنه بزواجه قد وضع قدمه على أول درجة على الأقل من درجات النجاح الدنيوي.^(١)

ثم أتى له الضلال، وقد ذكر أنه بزواجه بخديجة، بدأ الانتظام في التردد على ورقة بن نوفل وظهرت آثار التعاليم المسيحية على اتجاهه فيما بعد^(٢)، إلا أن يكون هذا التأثير المسيحي الذي يهلل له هو ذلك الضلال الذي ظن وقوعه فيه في هذه الفترة، وكيف يشجعه ورقة، وتشد خديجة من أزره ليثبت على هذا الضلال.

ثم ننظر من وجهة أخرى تكشف جانبًا غريبًا من تفكير "وات" ومنهجه وهي أنه بعد أربعة عشر قرنًا من الزمان يخبرنا بهذا البحث أقصد الهذيان، ولم يأخذ بقول من عاشروه ونقلوا سيرته، وتبعوا أخباره، وهو يعتمد كتبهم وينقل منها، ألم يتكلم محمد ﷺ بشيء خمس عشرة سنة، ولم يبع ولم يشتر ولم يعاشر، ولم يشارك في شيء حتى سمي بالأمين، ترى هذا الوصف يوسم به في يوم وليلة، أم أنه نتيجة احتكاكات طويلة، ومعاشرات ومعاملات ومصادقات، وإعطاء وأخذ ورد ومواقف كلامية ونفسية، وعلاقات اجتماعية واقتصادية، حتى يقال ذلكم الأمين الذي ليس مثله أحد.

1 - "وات"، "محمد في مكة" (١٠٠)، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ وآخر.

2 - Ibid pp 51-52 انظر عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة" (٦٥).

إن لقب الأمين علامة على مشاركته، وعلامة كذلك على المدى الذي أوصلته إليه هذه الإسهامات والأخلاق فيها، وإلى أي علو وصل سموه الخُلقي والسلوكي، قد يقال إن المسلمين في ترجمتهم له وكتبهم لسيرته هم من أطلقوه، والرد إن "وات" يعلم قبل غيره أن من أطلق هذا الوصف هم الكفرة المناوئون له.

وقد أشرنا إلى أن هذا الوصف إنما هو من تربية الله للمصطفين من عباده، وإلا كيف ذكر عن الأنبياء السابقين، وأشار أهل الجاهلية إليه كما ذكره النابغة في شعره عن نوح عليه السلام والقرآن الكريم كتاب هداية عقيدة وشريعة ليس كل اعتنائه منصباً على ذكر تفاصيل حياة النبي ﷺ لحظة بلحظة لا يعقل هذا له وإنما يترجم بقدر العون على الدعوة بعد التصديق بالرسالة والإيمان بالوحي إذ هو الوسيلة لتلك الأهداف، ومن ثم يشير إلى رؤوس القضايا والملاحم العامة والتي تدل على ما تحتها وما وراءها دلالة باهرة لتلك الوسيلة مع الإسهاب في الهدف والغاية.

ومن ذلك ما صادفه "وات" لا محالة في أول ما نزل من الوحي قوله تعالى للرسول ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٥] فهذا الثناء الجامع يدل على ما تحته من جزئيات الأخلاق كافة، فهو ﷺ كما شرحنا في الفصل الأول حاز بهذه الآية جميع الأخلاق الفاضلة، وفي نفس الوقت حصل من كل خلق أعظمه وأعلاه، وهذا الخلق العظيم يضادّ تماماً أن تكون هذه السنوات الطويلة مجهولة، والتي توازي أكثر من ربع عمره الشريف حتى آتاه الوحي بإرهاصاتها، ومشاركاته وإسهاماته دون أن يرَدَّ هذا الثناء مشركو عصره، ومقاتلوه ومناوئوه، وأن يُظهروا كذبه بأدنى مخالفة، وأقل تكلفة من ثمن اللجوء لحربه والتنكيل والاستهزاء والإيذاء له ولأصحابه، إذ لو ثبت كذبُه حاشا له ﷺ في خلق واحد لقضي على الرسالة في مهدها، ولعيرَه المشركون بذلك ولصدَّ كلَّ الناس عن الإيمان بدعوته بإثبات

اختلاق القرآن الكريم، وادعاء الوحي.

لا أظن في هذه العجالة يمكن أن يبقى لـ"وات" متنفس يهذي به مرة أخرى ولكنها الاستماتة في الدفاع عن الباطل، وإن حماية الكفرة من أمثاله أن يدخلوا في الإسلام ما زال يحمله على نفث سمومه في كل شيء من الرسالة والرسول، وبكل صفاقة يهز إيمان المسلمين مع ذلك، ولا يرعوي عن استمراره في الكتابة بما يعلم تناقضه واضطرابه ومجافاة للحقيقة.

إلهنا محمد
صلى الله عليه وسلم
إلهنا محمد
صلى الله عليه وسلم

البشارات بالنبى

صلى الله عليه وسلم

إرهاصًا بنبوته

تمهيد

وهي البشارات التي جاءت عن سبق من الأنبياء عليهم السلام، أو من أهل الكتاب، أو من العرب، وهذه البشارات نذكر منها شيئاً مما ذكرته كتب أهل الكتاب، أو جاء في السُّنَّة المشرفة، ثم نذكر ما ورد في القرآن الكريم ليؤكد ذلك كله الرد على "وات" في إثبات الرسالة وصحة النبوة لسيدنا محمد ﷺ.

المبحث الأول

بشارات الأنبياء بالرسول ﷺ والمصادر

يقول الدكتور أكرم العمري: وقد وقع التحريف في نسخ التوراة والإنجيل وحذف منهما التصريح باسم محمد ﷺ إلا توراة السامرة، وإنجيل برنابا الذي كان موجوداً قبل الإسلام، وحرّمت الكنيسة تداوله في آخر القرن الخامس الميلادي، وقد أيدته المخطوطات التي عثر عليها في منطقة البحر الميت حديثاً، فقد جاءت في إنجيل برنابا العبارات المصرحة باسم النبي محمد ﷺ مثل ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين منه، ونص العبارة: [٢٩] فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس [٣٠] فلما التفت آدم رأى مكتوباً فوق الباب: لا إله إلا الله محمد رسول الله) وفي موضع آخر منه هذه العبارة (١٦٣: ٧)، أجب التلاميذ: يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلى العالم، أجب يسوع بابتهاج قلب: إنه محمد رسول الله).

ونذكر مثل هذه البشارات في إنجيل برنابا في مواضع كثيرة - وهو مطبوع - وهذه العبارة المشهورة عند النصارى اليوم لم تترجم من السيريانية إلى العربية الترجمة الصحيحة كما حقق ذلك الأستاذ / عبد الأحد داؤد، وهي في إنجيل لوقا (٢: ١٤).

والحق إذن أن نسخ الكتب السماوية المتداولة خلال القرون الثمانية بين علماء أهل الكتاب من لدن القرن السادس الهجري، وما قبله كذلك تعرضت لحذف اسم النبي ﷺ وحذف النصوص الواضحة الدلالة على صفاته، كما يتضح ذلك من النقول التي أوردها

العلماء المسلمون في كتبهم مثل ابن قتيبة والماوردي والقرافي وابن تيمية وابن القيم؛ مما يشير إلى نحو أهل الكتاب ذلك من كتبهم إثر المجادلات الدينية، واحتجاج المسلمين بها عليهم، ولكن الكلام كما هو معلوم قد حوته مجلدات ضخام لا تعد ولا تحصى، تبين ما نحن بصددده وهو ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه - وكان يقرأ في الكتب المتقدمة - كان يقول إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] هي في التوراة: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعينا عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً)^(١).

قد يرد أحدهم هذا تحيز من مسلم لرسوله، والرد الأول إنهم ما كانوا ليكذبوا له، ومن فعل ذلك ردت روايته، وتبوا مقعده من النار، والكذب لم يكن بتاتاً من أخلاقهم كما هي شهادة أعدائهم قبل علمائهم وعوامهم، وإنما يرمي به من يرمي غيره بالكذب لتأصل ذلك فيه.

الثاني: أن ذلك انتشر بين أهل الكتاب ورددهم على شخص غير شخص الرسول ﷺ أسهل بكثير من ردهم على الرسول ﷺ، خاصة وقد نقلت كتب التاريخ حريتهم في المناظرة والرد والكتابة ضد الإسلام من أيامه الأولى.

1 - صحيح البخارى (٤٨٣٨)، كتاب تفسير القرآن الكريم، باب إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، سورة الفتح (٩١٢)، (٢١٢٥) كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق (٣٧٠)، طبعة ابن حزم.

المبحث الثاني

إرهاصات النبوة الواردة في السنة المشرفة

حيث نذكر شيئاً منها..

١. روى ابن إسحاق في ضمن ما أخبر به اليهود برسول الله ﷺ أن يهودياً كان من جيران بني عبد الأشهل - من الأنصار - حدثهم عن البعث والجزاء فاستنكروا ذلك، وطالبوه بآية عليه، فقال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيديه جهة مكة واليمن، فقالوا: ومتى تراه؟ فنظر إلى سلمة بن سلامة بن وقش وكان أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه، فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً ﷺ^(١).

٢. ونذكر هذه القصة لخبير آخر من أبحار اليهود، ونسردها كلها لما تحتويه من الأمور المهمة التي تظهر صدق الرسالة، وفي نفس الوقت الرد على شبهات المستشرقين والمبشرين والدجالين، تاركين موضع الاستدلال والاعتبار لحروفها ومعانيها، وقد ذكر أيضاً ابن اسحاق في السيرة أنها كانت من أسباب إسلام "ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد

١ - ابن هشام "السيرة النبوية" (١/٢٧٠) وسنده حسن، حيث صرح ابن اسحاق بالتحديث، وقد رواه غير واحد من طريقه، مثل: أحمد (٣/٤٦٧)، والهيثمي "مجمع الزوائد" (٨/٢٣٠)، والبيهقي "دلائل النبوة" (٧٨-٧٩/٢)، وهو في سيرة الذهبي (٧٤)، وقد صحح الخبر كل هؤلاء وغيرهم، وقد نقله د.مهدي رزق الله "السيرة النبوية" (١٤٢-١٤٣) كما قدمنا. وانظر محمد بن رزق طرهوني "السيرة الذهبية" (٢٣٨-٢٣٩/١).

بن عبيد" من يهود بني هذل، إخوة بني قريظة، وذلك عندما حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة في غزوة الأحزاب عندما غدروا بالنبي ﷺ والمسلمين، حتى كادت أن تستباح المدينة المنورة، ويقضوا على الدعوة وصاحبها، وها هي ذي الرواية، يقول ابن اسحاق بسنده عن شيخ من بني قريظة: قدم علينا رجل من يهود أهل الشام يقال له ابن الهيَّان، وذلك قبيل الإسلام بسنين، فحل بين أظهرهم، فما رأينا رجلاً لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيَّان فاستق لنا، فيقول لا والله، حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة، فنقول له: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر، أو مدين من شعير، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حَرَّتْنا، فيستقي الله لنا، فوالله ما يبرح مجلسه، حتى يَمْرَ السحابُ ونسقي، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث، قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميّت، قال: أيا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: قلنا: إنك أعلم، قال: فإني قدمت هذه البلدة أتوكّف خروج نبي قد أظل زمانه وهذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تُسَبِّقَنَّ إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه.

فلما بعث رسول الله ﷺ وحاصر بني قريظة، قال هؤلاء الفتية، وكانوا شباباً أحداثاً: يا بني قريظة، والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيَّان، قالوا: ليس به، قالوا: بلى والله، إنه هو بصفته، فنزلوا فأسلموا، وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم^(١).

١- ابن هشام "السيرة النبوية" (١٣٧-١٣٨/١)، ونسب المحققان صحة الحديث للشيخ الألباني "صحيح السيرة" (٦١)، وكذا ذكره الطرهوني "السيرة الذهبية" (٢٣٩-٢٤٠/١) وصححه وذكره د. مهدي رزق "السيرة النبوية" (١٤٢)، وذكر في هامشه ما يقوي الحديث ويجعله محتجاً به.

٣. وجاء في صحيح الأخبار أن الله تعالى لما أراد هدى "زيد بن سعة" - الحبر اليهودي - قال: "إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا"، وجهل على رسول الله ﷺ حتى تأكد من هاتين الخصلتين.^(١)

٤. وما يجدر الإشارة إليه أيضًا إسلام الحبر الكبير "عبد الله بن سلام" واسمه في اليهودية الحصين بن سلام، حيث قال فيه اليهود قبل أن يعلموا بإسلامه لما سألهم رسول الله ﷺ: "أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟" قالوا سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا، فخرج عليهم، وقال: يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا كذبت ثم واقعوا بي، قال: فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، وأهل غدر وكذب وفجور! قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها.^(٢)

ونختم هذه العجالة عن اليهود بأية أخرى من القرآن الكريم، تثبت علم اليهود بالنبي ﷺ، وانتظارهم له، وأن ذلك كان مشهورًا بينهم، وما أخفاه بعد ذلك إلا كبراًؤهم حسداً وبغياً، ويألف بذلك الوارد من القرآن الكريم مع السنة النبوية، وتأييد به الروايات، وهذه الآية الكريمة هي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقد نزلت في يهود المدينة، حيث كانوا يعرفون أن زمان بعثة النبي ﷺ قد اقترب،

١ - انظر الذهبي "السيرة" (٩١-٩٣)، ود. مهدي رزق الله راجع ما نقله من هامش سيرة الذهبي (١٤٣).

٢ - ابن هشام "السيرة النبوية" (١١٤-١١٥/٢)، وقد أخرج البخاري هذه القصة مختصرة برقم (٣٣٢٩)، وقد رواها ابن هشام عن ابن إسحاق أيضًا.

وكانوا يزعمون أنه منهم، ويتوعدون به العرب، وقد بين الله تعالى كما ذكرنا من قبل أنهم يعرفونه بصفاته التي ذكرت في كتبهم كما يعرفون أبناءهم، وإنما أنكروا نبوته بعد ظهوره، كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

وقد ورد في ذلك قول رجل من الأنصار: "إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه، لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم"^(١).

1 - ابن هشام "السيرة النبوية" (١/١٣٦)، وحسنه الشيخ الألباني في فقه السيرة (١٤٦).

المبحث الثالث

إخبار النصارى به ﷺ والمصادر التي اعتمد عليها «وات»

ونذكر شيئاً مما ورد في السنة عن النصارى في البشارة به، لنعود به إلى منهجنا في ذكر ما ورد في القرآن الكريم، ومقارنة ذلك وتحليله لنستكمل بكل جزئية ما أخذنا به أنفسنا من دراسة السيرة:

١. وأول ما نبدأ به لطرافته مع الاختصار قصة سلمان الفارسي ﷺ فقد أخبر ﷺ في قصة إسلامه الطويلة أن راهب النصارى في عمورية عندما حضرته الوفاة طلب منه سلمان أن يوصيه، فقال الراهب: أي بني والله ما أعلمه بقى أحد على مثل ما كنا عليه أمرك أن تأتيه، ولكن أظلك زمان نبي يبعث من الحرم، بين كتفيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل فإنه قد أظلك زمانه". ثم قص سلمان خبر قدومه إلى المدينة واسترقاقه، ولقائه برسول الله ﷺ حين الهجرة، وإهدائه له طعاماً على أنه صدقة فلم يأكل منه الرسول ﷺ ثم إهدائه له طعاماً على أنه هدية وأكل منه، ثم رؤيته خاتم النبوة بين كتفيه، وإسلامه على إثر ذلك.^(١)

١- إسناده حسن، وهو عند ابن إسحاق (ابن هشام ١٣٨- /١، ومسنده أحمد (٤٤١-٤٤٤/٥)، وطبقات ابن سعد (٧٥-٨٠/٤)، والحاكم في المستدرک (٢/١٦)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وأما البخاري فقد ذكره عند أمره سلمان أن يفك نفسه من الرق بالمكاتبة (الفتح) (٩/٢٨٠)، ك البيوع/ ب، شراء المملوك من الحربي، وقد ذكره د. أكرم العمري "السيرة النبوية الصحيحة" (١٢١-١٢٢/١)، وسقط منه بعد: ولكنه أظلك زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم ﷺ، يخرج بأرض العرب، وكذا ذكره مهدي رزق الله "السيرة النبوية" (١٤٢)، وغيرهم.

٢. قصة هرقل ملك الروم، وقد رواها البخاري ومسلم وغيرهما، فقد أرسل الرسول ﷺ كتابًا مع دحية الكلبي ﷺ إلى قيصر الروم يدعو إلى الإسلام، فلما قرأ رسالة النبي ﷺ بحث عمن يعرفه، فدعاهم لمجلسه مع الترجمان فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يدعي أنه نبي؟ فقال له أبو سفيان: أنا أقربهم نسبًا، فأذناه وقرب أصحابه منه لثلاثا يستحيوا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب، فأخذ يسأله عن صفات النبي ﷺ وأحواله، كما ورد في الحديث الطويل المشهور، ومنها علم أنه النبي المرسل ﷺ فقال في ختام كلامه لأبي سفيان: إن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه^(١).

٣. إسلام ورقة بن نوفل، وهو ما يصدد "وات" في آرائه التي يؤكد بها تأثر النبي ﷺ باليهود والنصارى، وكذلك تأثر تعاليم الإسلام باليهودية والنصرانية، وقد ذكرنا هذه القصة في منهج التأثير والتأثر، أما إسلام ورقة الذي تعامى عنه "وات"، والذي يمثل منهج الانتقاء مع التدليس والغش للقارئ، فقد جاء في مسند أحمد، وهو من المصادر التي رآها واعتمدها "وات" فيما كتب، ولا شك قرأ فيه ما يتعلق بسيرة ورقة التي اخترع جزءًا كبيرًا منها من بنات أفكاره، ووحى شيطانه، ولم يستح وهو يذكر ذلك، وسنشير إليه مرة أخرى في بدء الوحي.

يقول الرسول ﷺ فيما يثبت أن ورقة من المسلمين الأوائل: «قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بياض»^(٢)، وفي رواية أخرى: «قد

١- البخاري "الصحيح" ١/٦ بدء الوحي، ومسلم "الصحيح" ٣/١٣٩٥ كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل، ورواه ابن حبان في صحيحه، و"موارد الظمان" ١٦٢٨ / ؟ بإسناد صحيح، كما قال محقق زاد المعاد طبعة الرسالة، وسنعود في الكلام على عالمية الدعوة إلى هذا الموضوع، والرد على "وات" فيه إن شاء الله تعالى.

٢- أحمد "الفتح الرباني" (٢٠/١٧٤) وحسن الساعدي إسناده.

رأيته فرأيت عليه ثياب بياض أبصرته في بطنان الجنة وعليه السندس»^(١)، وقال ﷺ: «لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين»^(٢) وقال: «يبعث يوم القيامة أمة وحده»^(٣) ويبدو من سياق الأحاديث أن الرسول ﷺ قد سئل عن ورقة ذلك الذي تنصر ثم أدرك أول البعثة المحمدية وظنوا عدم إسلامه فكأنهم سبّوه على تنصره، وقالوا هو من أهل النار، فإذا بالنبى يوحى إليه في المنام - ورؤيا الأنبياء حق - أن ورقة من أهل الجنة فبشرهم بإسلامه وأخبرهم بالبرهان على ذلك عن الله تعالى، وهو ما يؤيده قول ورقة للرسول ﷺ: وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، تُرى بنصره على تعاليم النصرانية والوثنية، أم ينصره كما قال فيها جاء به أي من الإسلام ونضيف إليها:

أ- مفاجأة ورقة بن نوفل بكلام النبي ﷺ حيث قال له: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيه جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال ﷺ: «أو مخرجي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وأوذي، وإن يدركني يومك حيًا أنصرك نصرًا مؤزرًا.

وافترض المفاجأة بسبب كلام ورقة نفسه، حيث قال من ضمن ما قال إن هذا هو الناموس، ولم يحدث حتى في قول "وات" أن ورقة أخبر النبي ﷺ عندما كان يتردد عليه هذا التردد المزعوم المفترى من "وات" كما سنبين إن شاء الله ذلك ذكر هذا الناموس، وإنما فوجئ به ورقة في كلام النبي ﷺ عندما ذكر له أوصاف ذلك الذي أتاه، فلم يتمالك ورقة نفسه أن أخبره أن هذا الملك هو الذي كان ينزل بالوحي على الأنبياء.

1- ابن كثير "البداية والنهاية" (٣/١٠) عن أبي يعلى وحسنه.

2- رواه البزار من طريق عائشة رضي الله عنها وقال ابن كثير عن إسناده: وهذا جيد الإسناد، وأخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٤٠٩) من حديث عائشة رضي الله عنها وصححه ووافقه الذهبي.

3- الطبراني كما في المجمع (٩/٤١٦) وقال الهيثمي ورجاله رجال الصحيح، وانظر د. مهدي رزق "السيرة النبوية" (١٥٩).

ب- أما المفاجأة الأخرى فهي التمني، حيث كان رد فعل ورقة على كلام النبي ﷺ أن يكون جذعاً عند إخراج قومه له من مكة، ولو كان له به علم أو سبق حديث بينه وبين النبي ﷺ لكان رد فعله عادياً لا تمني فيه ولا رجاء إذ هو قد علم محمداً ذلك من قبل وشد أزره، ولما فوجئ النبي ﷺ أيضاً بهذا الخبر الذي لا مدخل للعقل والفهم فيه، بل هو مما يعلمه ورقة من الكتاب أي الإنجيل الذي كان يقرأه.

وهاتان المفاجأتان قد وضعتا ورقة في مكانه الصحيح الذي يبحث عنه، وهو الدين الحق الذي يود اتباعه، حيث وجد من نزل عليه ناموس الأنبياء، ودلت أوصافه على صدقه وعلى كونه هو النبي المنتظر الذي يود ورقة أن يفديه بروحه ويقف دونه بنفسه.

وهكذا يتضح من كلام ورقة الذي يعرفه "وات" ويستدل به لكن للأسف على طمس الحقائق وإخفاء إسلامه، وإيمانه بالنبي ﷺ، ولنا عود نستكمل به كلام ورقة في الاستدلال على الوحي حيث ذكر ذلك "وات" مستدلاً به على باطله بما يخالف العقل والنقل، أين الإشارة فقط إلى إسلام ورقة في كلام "وات"؟

وهنا سؤال نذكر به، وهو على أي المصادر إذن يعتمد "وات"؟ إذا تفحصنا بتأمل هذا الهراء منه ثبت أنه لا مصادر له، وأن ما رتب من مصادر إسلامية فهي غير معتمدة عنده مع أنه لا مصادر له سواها لأنه لم يكن هناك خواجات يكتبون السيرة ويؤرخون أيام النبي ﷺ وبعده لأن الصحيح منها يردده "وات" ولا يحتاج به، لأنه لن يصل به إلى النتيجة المعدة سلفاً، وأن الشاذ الباطل، والموضوع غير الصحيح هو مرتكزه بعد شيء آخر من التحريف والتلفيق ليخرج كما يريد، إذ ليس كل الباطل أيضاً يسعفه في إثبات قضاياه.

فماذا نقول في هذا البحث العلمي؟! ومصادره..

نعود لاستكمال البحث..

٤. إسلام النجاشي ملك الحبشة، وهو غير النجاشي الذي أرسل إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام، وقد أسلم هذا الملك بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة وإحساس قريش بالخطر من الأمان الذي أعطاه النجاشي للمسلمين حيث أقاموا مع خير جار في خير دار - كما تقول السيدة أم سلمة^(١) رضي الله عنها والرواية الصحيحة تذكر أن القيسيين والرهبان الذين حضروا مجلس النجاشي وسمعوا القرآن انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق فأنزل الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٨) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: ٨٢، ٨٣) ولا شك أن مثل هذا الذي اجتمع عليه القرآن الكريم والسنة النبوية، والروايات الإخبارية لا يعدل عنه إذ لا يتطرق إليه ريب في صحته ولا تردد. وإلا تركنا الاحتجاج بكل أخبار هذا العالم.

ويدل هذا الخبر بطوله حيث ذكره ابن إسحاق وابن هشام وغيرهما من المفسرين وحفاظ السير على إسلام هذا الملك العادل، وقد صلى الرسول ﷺ صلاة الغائب (الجنائز) عندما جاءه خبر موته، وما كان ليصلي إلا على مسلم^(٢).

ولم يكن العرب بأقل من غيرهم انتظاراً لمجيء النبي ﷺ إلى هذا العالم، وقد كان فيهم رفقاء ورقة بن نوفل في طلب الحق، مثل زيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة الإيادي، وكان هناك غيرهم كأبي ذر الغفاري، وعمرو بن عبسة وسواد بن قارب، وكان منهم كسواد من له علاقة بقضايا الجن إذ كانت معلومة عندهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنْ

1- ابن إسحاق، "السير والمغازي" (٢١٣-٢١٧)، ابن هشام، "السيرة النبوية" (٢١٧-٢١٩/١) بإسناد حسن إلى أم سلمة رضي الله عنها، وقد حسن إسناد الحديث الحافظ بن كثير، "السيرة النبوية" (٢/١١)، والحافظ بن حجر، "فتح الباري" (٧/١٨٩) وغيرهما د. أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١/١٧٤).

2- الرواية في تفسير الطبري بإسناد صحيح.

3- ابن القيم، "زاد المعاد"، ابن هشام، "السيرة النبوية" (١/٢٢٢)، وقال المحقق إنه ثابت في الصحيح.

الْإِنْسِ يَخُوذُونَ بِرِّجَالٍ مِّنَ الَّذِينَ فَرَادُوهُمُ رَهَقًا ﴿٦﴾ [الجن: ٦] وسمع منهم ما يدل على إرسال الرسول ﷺ وهؤلاء مترجم لهم في الهامش^(١).

ونعلق على ما ذكرنا قبل الاتجاه إلى القرآن الكريم ما نبين به ذلك الموضوع وما ورد فيه فنقول:

لقد أطلنا ذيل الحديث يبحث ما سبق حتى يكون دليلاً له قيمته عند مناقشة "وات" وغيره، حتى لا يقال إنها حادثة أو اثنتين لا يمكن البرهان بهما على ما نحدو بصده، أما تعاضد الأدلة بكثرتها فإنه لا يدع مجالاً للزمز أو التهوين أو التأويل حتى لا يجد المنصف المتبع للأمانة العلمية إلا التسليم بصحة القضية.

إن هذه الأخبار تفسر ما جاء في القرآن الكريم من ذكر هذه البشارات، وأن تعددها يظهر بها لا مجال للشك فيه صحة تفسيره لكثرة ما ورد في الكتاب العزيز وهذا فيه من الإفحام للمجادلين، وإظهار الحق ما يحملهم على الإيمان بنبوته ﷺ وهو مقصد الكتاب الكريم من هداية البشر إلى الحق سبحانه وتعالى.

1 - زيد بن عمرو بن نفيل العدوي أبو سعيد، مات قبل البعثة بخمس سنين وكان يوحد الله تعالى على دين إبراهيم وينكر على قريش ذبحهم لغير الله (انظر الإصابة)، قس بن ساعدة الإيادي البليغ الخطيب المشهور، كانت العرب تعظمة في الجاهلية وقد سمع النبي ﷺ حكمته وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية وأول من توكأ على العصا في الخطبة وأول من قال أما بعد (انظر الإصابة)، أبو ذر الغفاري: أصح ما قيل في إسمه جُنْدَب بن جنادة من بنى غَفَار وأمه رملة بنت الوقيعة الغفارية وهو من أكابر الصحابة، أسلم بعد ثلاثة أو أربعة ثم إنصرف إلى بلاد قومه وأقام بها حتى قدم رسول الله ﷺ في المدينة بعد الخندق خرج بعد وفاه أبي بكر إلى الشام ولما ولي عثمان إستقدمة وأسكنة الربذة فمات بها سنة إثنين وثلاثين (انظر الإستيعاب) (١-٣٩٦)، عمرو بن عبسة السلمى، أبو نجیح، قدم مكة على النبي ﷺ وهو يعاظ = وكان يقول أنا رابع الإسلام، ثم رجع إلى قومه بنى سليم ثم قدم المدينة بعد الخندق وكان يعتزل الأصنام في الجاهلية (معرفة الصحابة بتصريف)، سواد بن قارب الدوس كذا قال بن الكلبي وقال بن أبي حيثمة السدوس، قال أبو حاتم له صحبه، وكان شاعراً ويتكهن في الجاهلية قبل أن يسلم (انظر الإصابة).

وهذه الروايات كذلك تُثبِت إيمان الموحدين في كل زمان بصحة تلك الرسالة، وأنها غضة كما أنزلت لم يمسهها من رجس المعاندين ما يدنسها أو يشينها، وأنها كالصخرة تتحطم عليها قرون الناطحين بالباطل، الرادين بالزور من القول لهذا الحق الباهر الصامد لهذه الهجمات المخبولة طوال هذا التاريخ.

ونلاحظ أن هذه الروايات، خاصة من أسلم من أصحابها أنهم كانوا ذوي علم وشرف في أهلهم، علاوة على أن سيرهم قد وافقت إيمانهم، وأنهم افتدوا هذا الإيوان وذلك الرسول الداعي إليه بأرواحهم وأولادهم وأرضهم وأموالهم ورأيانهم في تلك المواقف التي تطير فيها الرءوس، وتزهق فيها المهج والأرواح ثابتي الجنان راسخي الأقدام يدفعون بصدورهم العارية عن هذا الدين، وذلك معلوم في الفتوحات وحروب الرسول ﷺ، وقاتل من ارتد عن هذا الدين بعد وفاة الرسول ﷺ.

وإنه لمن سوء طالع "وات" ألا يسوق شيئاً من هذه الروايات، ومصادره إسلامية - بالطبع - وقد ذكرتها - حتى يتبين للقاصي والداني حقه الدفين على الإسلام، وكذلك يتضح لكل ذي عينين أنه لا إنصاف ولا حياد ولا علم وإنما هو يكيل التضليل بالمكيال الأوفى، ومن ثم نسوق هذه الأدلة من ضمن ما نسوقها له، تدليلاً على منهج المستشرقين في إخفاء الحقائق.

وتبين هذه البراهين الدوافع لرفض الإسلام، والاعتراض عليه؛ ليطمئن للقارئ قبل المؤرخ الأسباب المانعة من الدخول في الإيوان ليكون على بينة من أمره، وأمر أولئك الجاحدين المنكرين، وأقرب الأمثلة لليهود والنصارى قصة عبد الله بن سلام، وهرقل قيصر الروم، فالأول بين أن اليهود قوم بهت وغدر وخيانة وأنهم إن علموا بإسلامه بهتوه، وهذا ما صح به الحديث فكان المانع هو الكبر والمعاندة والجحود لهذا الحق، وأما قيصر فكما

قال الرسول ﷺ، ضمن بملكه^(١) فكان الملك وأبهته وبقاؤه في كرسي حكمه هو الحائل بينه وبين الدخول في الإسلام وبذا ينجلي خبث "وات" عند تغييره لهذه المعاني، وقلبه لتلك الحقائق مصورًا الواقع المعاش على خلاف ما هو عليه بدون أدنى حجل.

ونختم هذا الكلام ببعض ما ورد في القرآن الكريم عن النصارى ليتوافق مع السيرة كما بينا به منهجنا، وقد ذكرنا بعض الآيات المتعلقة باليهود، وإن كانت الآيات تتعلق بأهل الكتاب عند بدء النبوة وإرهاصاتها، إلا أن اليهود كانوا قليلًا في مكة مقارنة بالنصارى، ولكن على أي حال، فإنّ خطاب القرآن لهم أي النصارى يدل على وجودهم بمكة أيامئذ، سواء كانوا مقيمين أو تجارًا مسافرين يسمعون تلك الأخبار التي تمهم العالم، وتمهم من مقدم الرسول المنتظر ﷺ.

• وأول هذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾ [المدثر: ٣١].

والآية الكريمة في أول ما نزل من سور القرآن الكريم، فقد نزلت مبكرًا جدًّا، ومن مضامين هذه الآية الكريمة:

أولاً: وجود كتابيين مخاطبين في أول بعثة النبي ﷺ في مكة، وسواء كانوا مقيمين أو أتوا كتجار كما ذكرنا، ولكن يجمعهم أنهم ممن يشغلهم هذا الأمر من النبوة، وقد بينت الآية أن ما جاء به النبي ﷺ يوافق ما عند هؤلاء الكتابيين ليستيقنوا بصدق النبوة، ولا يكون عندهم ريب ولا شك في صحتها، لأن مثل هذه الأخبار كعدة ملائكة النار لا يستطيع أمرؤ أن

1 - قال الرسول ﷺ في رواية بن حبان عندما أرسل قيصر للنبي ﷺ أنه مسلم: كذب عدو الله وهو على دين النصرانية، ابن حبان، "موارد الظمان" (١٦٢٨/ح) بإسناد صحيح كما ذكره محققا زاد المعاد (١/١٢٨) انظر د. مهدي رزق، "السيرة النبوية" هامش (٥١٨).

يقولها إلا أن يكون اطلع عليها أو أخبر بخبر الله الصادق عنها، ولا يكون ذلك إلا لنبي مرسل يؤيده ربه بذلك الصدق في الإخبار والقول، ومن ثم عندما يتيقن أولو الكتاب من صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ لكون ما في أيديهم يوافق ذلك عندها يكون هذا الأمر سبباً من أسباب ازدياد إيمان المؤمنين وثباتهم، خاصة وأن شهادة أهل الكتاب وعلمهم مما يقدره الكفرة وله عندهم المحل الأوثق.

ثانياً: وما تضمنته الآية الكريمة وأشارت إليه هو الرد على السؤال الاستشراقي التشكيكي، وهو أليس إجابة النبي ﷺ بما يوافق ما عند أهل الكتاب دليلاً على تعلم ذلك منهم؟

وهذا السؤال ممن لا يمعن العقل والفكر فيما يلقي إليه، هذا إذا كانت نية الملقى سليمة. وهو أقل ما يوصف به ذلكم السؤال.

أما الرد فهو..

أولاً: وهو كيف تطلب الآية من أهل الكتاب الاستيقان - وهو العلم بالدليل والبرهان - وترك الريب والشك ممن هو قد تعلم منهم ونقل عنهم، إنه لمضحك حقاً.

ثانياً: لماذا لم ينبر صاحب التعليم ليرد على النبي ﷺ ذلك، وهم في حالة استضعاف يخطفهم الناس - قائلاً أنا الذي أخبرتك وعلمتك ولم يحتاجوا إلى طعن في الإسلام أكثر من ذلك حتى يهدموه من أول الأمر بكذب صاحبه، وادعائه.

ثالثاً: كيف يلقن الكتائبون النبي ﷺ الحجة على صدق ما يدعو إليه ليحاربهم بعد ذلك به، ويتخذهم حجة له على إيمان الناس به، ودخولهم في الإسلام، وفهم كما ذكرت بعض

الروايات^(١) أن أهل الكتاب سألوا هذا السؤال للمؤمنين عن خزنة النار تبكيًا لهم،
وتعجيزًا للمسلمين أمام الكافرين فأنى يكون ذلك؟

• والآيتان التاليتان هما قوله تعالى في سورة الأعراف، وهي كذلك من السور المبكرة
النزول:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي
كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي
وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾
[الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في سياق قصة موسى عليه السلام، استطرادًا بذكر
النبي ﷺ، وتنبئها على أوصافه التي يعرفونها، وأمرًا بالإيمان به؛ إذ فيه بقاؤهم وظفرهم في
الدنيا والآخرة.

وقد خاطبت هذه الكلمات المنيرة أولئك الكتائبين في مكة، وهو خطاب لكل أحد من
الناس جميعًا إلى يوم القيامة بأن هدايتهم، ورحمتهم وفلاحهم في اتباع هذا النبي ﷺ والتزام
شريعته ونلاحظ ما يلي:

أولاً: أن الآية الأولى قررت أن الرسول ﷺ مكتوب عند اليهود والنصارى في التوراة
والإنجيل، وأنه معلوم لديهم معروف عندهم، وأن صفاته يجدونها في التوراة والإنجيل،
حيث يأمرهم بمكارم الأخلاق التي افتقدوا، ويحملهم على عظيم الصفات التي تصلح بها

1- الترمذي عن جابر (٣٣٣٩)، وصححه ابن العربي، باب ومن سورة المدثر.

في محاولة لإعطائها وجوها أخرى من التفسير يحتملها النص العربي وموافقة الواقع، وإن كان هناك تفسيرات غير تلك التفاسير ذكرها المفسرون، وظن الباحث أنها من إثراء النص القرآني وإعجازه مهما اختلفت وتباينت عما نحن فيه.

وتفسير جميع ما ورد ذكره يطول به البحث، وإنما نسوق ما يؤدي الغرض وتطمئن به نفس الباحث والقارئ، ولذا نختم بأيتين أو ثلاثة تعصيماً لما سبق، وإظهار لإسلام أهل الكتاب في مكة.

• والآية التي معنا هي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۗ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۗ وَمَا تَجْحَدُ بِإِيْتِنَانَا إِلَّا الّٰكْفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

والآية الكريمة مما نزل بمكة وهي متأخرة بعض الشيء وهو مناسب لمعناها إذ هي تصوير وتقرير لواقع مشاهد معلوم حين نزلت الآية الكريمة بوصفه، وهو أن الكتابيين يؤمنون بما جاء به النبي ﷺ، وإن كانت ألفاظ الآية أن الذين آتاهم ربهم الكتاب يؤمنون به، وإن جادل مجادل بأن ليس كل أهل الكتاب آمنوا وأن ذلك مخالف للواقع، وطباع البشر.

فالرد أنه ليس كذلك بل كانت مكة بعد الفتح كلها مسلمة بدون استثناء، ومع ذلك يقال نعم ليس كل الكتابيين قد آمنوا بمعنى دخولهم الإسلام واتباعهم النبي ﷺ ولكن بمعنى التصديق فمن صدق واتبع فهو مؤمن، ومن صدق وعاند، أو كتم فلا شك أنه يؤمن به، ولكن منعه من الاتباع ما منع الكفرة من ذلك كما أشرنا، فالكل يؤمن به بغض النظر عن اتباعه التصديق بما يدل عليه أو لا.

ثم إن من آمن حجة لمزيد علمه وتبين الدلائل له على من لم يؤمن، فكأن الحجة بالإيمان قد شملت الجميع إذن، إذ ظهرت لهم براهين الصدق وعلامات البشارة به.

- الآية التالية هي قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا تُمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

من سورة الإسراء، وهي من السور المبكرة في النزول نوعًا ما، وهي تحكي على تفسير ظاهرها مشهدًا واقعيًا قبل نزولها، يبين حالة أهل العلم من الكتّابيين عند تلاوة القرآن الكريم وسماعه، وهي تؤكد لما قلناه من استجابة الكتّابيين خاصة علماءهم للدعوة في هذا الوقت المبكر، وهي وصف لموقف هؤلاء الكتّابيين من القرآن الكريم في سجودهم وبكائهم وخشوعهم إيمانًا به وتصديقًا لما جاء فيه وتلك الآيات جاءت في مقام التحدي والتفريع للكفار؛ معلنة أن جحودهم ومواقفهم من الإيمان بدعوة النبي ﷺ لا قيمة لها ولا اعتبار، إذ إن من له قيمة بالعلم يقف موقفًا تصديقيًا خاشعًا، ولموقفهم القيمة المهمة والاعتبار الكبير لأنهم هم من تصدقونهم، وهم موضع ثققتكم، وهذا يدل على أن هذه المواقف من الكتّابيين كانت تقع على مرأى أو علم من الكفار؛ مما يعطي قوة صمود واستعلاء يؤيد الله بها الدعوة في مثل هذا الوقت العصيب^(١).

ولابد في نهاية ما أشرنا إليه من آيات من ذكر تلك الآية التي يحتج بها المهورسون المتعصبون من المستشرقين وأذياهم هذه الأيام، ومنذ أن بدأ الاستشراق نفث سمومه، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

ونوه بداية بهذه الحقيقة، وهي أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، مفهوم تمام الفهم عند عموم المخاطبين، وبالتالي لو كان في هذه الآية مطعن على النبي ﷺ أو الإسلام

1 - محمد عزة دروزة، "سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم" (٣٤٦-٣٤٧/١).

معنى أو لفظاً لسمعنا بهذا الطعن، ولما سكتوا عنه في جملة ما يواجهون به هذه الدعوة؛ بل على العكس هو يواجههم بها دليلاً على صدق الدعوة، ولو كان فيها ما يمكن تصيده، والتعكير به على صفو الدعوة لما تأخروا أبداً خاصة وقد حكى القرآن الكريم بدون ما وجل أو تردد كل اتهاماتهم للنبي ﷺ، وللإسلام.

ومن ثم نجابه هؤلاء بالتفسير العربي للآية - والذي لا شك أنهم بعجمتهم لا يفهمونه من تلقاء ما تعلموه من العربية - إذ مهما تعلموا فلن يصلوا إلى عشر معشار سليقة العرب التي نزل القرآن بلسانهم، ولذا كان جهلهم بالأساليب العربية السبب الأول في هذا الخلط علاوة على سوء النية وفساد الطوية التي ظهرت على ألسنتهم في كتاباتهم ونقاشهم.

وإلى تفسير الآية كما أشار إليه العلامة ابن عاشور حيث هو من توسع في ذكر ذلك فنذكره ملخصاً^(١)، يقول:

الفاء في قوله ﴿فَإِنْ كُنْتَ﴾ تفرّيع على سياق القصص التي جعلها الله موعظة لأهل مكة وتعريض أن يحل بهم ما حل بالمكذّبين من أمثالهم، وانتقل بهذا التفرّيع إلى أسلوب آخر تعريض لهم بشهادة أهل الكتاب على تلك الحوادث، وما في الكتب السابقة من الأنباء برسالة محمد ﷺ، فالمراد ما أنزلنا هو المنزل الذي تفرع عليه هذا الكلام، وهو القصص الذي أنزل في هذه السورة.

ثم إن الآية تحتمل معنيين، سواهما عرضة للتعكير عليه، والأخذ والرد والمعنيان اللذان تحتملها الآية وهما في قوله ﴿فِي شَكِّ﴾، فإما أن تبقى الظرفية التي دلت عليها ﴿فِي﴾ على حقيقتها، أو أن تكون ﴿فِي﴾ للظرفية المجازية.

1 - الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير" (٢٨٤-٢٨٦/١).

ويكون المعنى على الاحتمال الأول أن الشك أطلق وأريد به أصحاب الشك؛ أي فإن كنت في قوم أهل شك مما أنزلنا إليك، أي يشكون في وقوع هذه القصص، كما يقال: دخل في الفتنة أي في أهلها، إذ لا يعقل أن يكون الرسول في شك مما أنزل إليه، فكيف يدعو لما هو شاك فيه، وذلك من وجهة أخرى ينافي عصمته في التبليغ عن الله تعالى، وقد علمنا قوله عن الله جل وعلا: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا آذَنْتُكُمْ بِهِ﴾ [يونس: ١٦]، وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

ويكون معنى ﴿فَسَلِّ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي سؤال تقرير وإشهاد لأنه لا يمكن أن يسألهم استفساراً أو تعلماً لنفي القرآن الكريم لذلك، ولأن القرآن الكريم نزل مهيمناً على تلك الكتب، وشاهداً للصحيح منها بالصحة، وللباطل منها بالبطان، والقرآن ممتلئ من تلك التقريرات والشهادات، وكم بين بطلان عقائد اليهود والنصارى، وأظهر ضلالهم، فكيف يستفسر منهم عن علم شيء إلا أن يكون صحيحاً عنده أنه في كتبهم بمثل ما جاء به القرآن الكريم، وأنهم لا يمكن في الواقع أن يكتموه، بل بدا من حالهم أنهم يشهدون بما علموه حقاً، ومن ثم توجه إليهم طلب الشهادة.

ويكون المقصود من الآية حينئذ إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى قطعاً لمعذرهم.

والمعنى الثاني أن تكون ﴿فِي﴾ للظرفية المجازية كالتي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَهُؤُلَاءِ﴾ [هود: ١٠٩]، ويكون سوق هذه المحاوراة للنبي ﷺ على طريقة الإلقاء التعريضي التي يسلكها الحكماء وأصحاب الأخلاق، متى كان توجيه الكلام إلى من يظن نفوره منه كما في قوله تعالى: ﴿لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وهذا لا شك غير موجه للنبي ﷺ وإنما موجه للكفار على طريقة الحكيم فيمن يخشى

أن ينفر من سماع الحق، وكذلك يستخدم هذا الكلام رفقا بمن يقصد سوق الكلام إليه.

وكلا الاحتمالين يلاقي قوله ﴿ فَسَلِّ الَّذِينَ يقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فإنه يقتضي أن المسؤول عنه مما لا يكتمه أهل الكتاب، ولا يتحرجون من إعلانه والشهادة به كما ذكرنا.

أما جملة ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فهي استئناف بياني لجواب سؤال ناشئ عن الشرط وجوابه، وهو فإن كنت في شك فاسأل، وكأن السامع يقول فإذا سألتهم ماذا يكون فيأتي كلام جديد مؤكد بلام القسم وقد ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، وما تأكد هذا الكلام بهذين المؤكدين إلا لدفع إنكار المعرضين، إذ الرسول ﷺ ليس بحاجة لإعلامه بأنه على الحق، لأن من وحي الله له قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩] وهو إعلام السائلين بطريق التعريض.

وقوله ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ ﴾ تعريض بالمشركين أيضًا بأنه يحذر أن يكون منهم والامتراء هو الشك فيما لا شبهة للشك فيه.

والآية التالية تزيد ما سبق توضيحا إذ هي أصرح في التعريض بالمشركين، وهي قوله تعالى ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وهي تقتضي أن الذين كذبوا وشكوا في آيات الله هم الكفار، وهم خاسرون في الدنيا إن بقوا على ذلك وخاسرون في الآخرة، وهي تقتضي أنهم هم المكذبون الشاكون فلا يكون أحد منهم؛ لأنه يكون حينئذ خاسرا خسرانا مبينا.

ويكون في النهاية حاصل المعنى: فإن كنتم شاكين في صدق ما أنزلنا على محمد ﷺ مما أصاب المكذبين قبلكم، فاسألوا أهل الكتاب يخبروكم بأن ذلك صدق فذلك هو الحق الذي جاءكم من رب محمد ﷺ فلا تكونوا شاكين، ولا تكذبوا بآيات الله فتكونوا خاسرين.

وهكذا يتضح ما جاء به النبي محمد ﷺ من الحق الذي يشهد به أهل الكتاب ولا يستطيعون كتمه وإلا لما طلب من المشركين أن يطلبوا خبر ذلك منهم، وما كتم أو أخفى شيئاً ﷺ وما أصيب من أصيب إلا من قلة فهمه لكلام العرب وأساليبيهم، ولكانوا أول راد له معترض عليه لو وجدوا مغمزاً في عربيته أو معناه.

وهي في النهاية شهادة من أهل الكتاب على صحة رسالته ﷺ وصدق نبوته وأنها من عند الله جل وعلا، وقد جاء قوله تعالى دليلاً لذلك حيث يخبر بفرح أهل الكتاب بكلام الله، فيقول ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابِلُ﴾ [الرعد: ٣٦].

ونذيل هذا المبحث بكلام الإمام ابن تيمية حيث يقول: (والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم).^(١)

ثم قال: (ثم العلم بأن الأنبياء قبله بشروا به يعلم من وجوه..)

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب ممن أسلم ومن لم يسلم بها وجدوه من ذكره بها.

وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه، وأنه رسول الله وأنه موجود عندهم، وكانوا ينتظرونه، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار به وبايعوه.

وقد أخبر الله بذلك عن أهل الكتاب في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ

1 - ابن تيمية، "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" (١/٣٤٠).

اللَّهُ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ [البقرة: ٨٩].

ومثل ما تواتر عن إخبار النصارى بوجوده في كتبهم، مثل إخبار هرقل ملك الروم، والمقوقس ملك مصر، والنجاشي ملك الحبشة.

الثالث: نفس إخباره بذلك في القرآن مرة بعد مرة، واستشهاده بأهل الكتاب، وإخباره بأنه مذكور في كتبهم مما يدل العاقل على أنه كان موجودا في كتبهم فلو لم يعلم ﷺ أنه مكتوب عندهم بل انتفى ذلك لا تمتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة، ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه وأوليائه وأعدائه^(١).

ونعود لنلم سريعاً بما ينبغي التعليق على "وات" فيه:

وأوله: إخفاء كل ما ذكرنا من بشارات بالنبي ﷺ وهي عاداته في إخفاء الحق الذي يدينه، وذلك من أصول منهجه، وهو بلا شك مع تدقيقه قد مر عليه ذلك لأنه أثبت في بداية كتابه المصادر التي لجأ إليها في أبحاثه.

ثانياً: قلبه للحقائق، فإذا اضطر لذكر بعض الحوادث التي يظن أنها تؤيد ما ذهب إليه في بحثه، وبعضها يخالفه قلب ما يخالف بكل بجاحة إلى ما يوافق كقصة ورقة، وهرقل وغيرهما، أو حملها معان لم يحلم أي ضال بالوصول إليها، لا علاقة لها من قريب أو من بعيد بسياق النص، أو بالجو العام أو الواقع التي حدثت فيه الحادثة وسنزيدها إن شاء الله مناقشة جديدة في كل موضع استدل بها، وهو يدل من وجهة أخرى على تقطيعه لأوصال الموضوعات والحوادث، ليستدل بها ويبرهن بها في أماكن مختلفة بوجوه مختلفة، لو جمع النص كما هو لما اختلف عقلا على إرادة غير ما ذهب "وات" إليه.

1 - وانظر د. أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١/١٢٠).

ثالثاً: اختراعه لوقائع لم تحدث يظن أنه كمؤرخ لا بد أن يفترضها هكذا بكل صفاقة حتى يستقيم له بحثه، فلا يبحث في الواقع كما هو وحيثما وجهه البرهان والدليل توجه وإنما يؤلف تاريخاً لم يحدث ولم يقع ليصل به إلى النتيجة التي أعدها قبل الشروع في البحث فليس بحثاً ذلك وإنما تذكرة مشاكلة، فهو نتيجة قد أعدها يريد أن يصل إليها بغير مشروع من البحث ولا مقبول من الموضوعية المدعاة، والحياد المزعوم ومثل ذلك افتراض أن وحيًا قد نزل قبل سورة اقرأ التي هي أول ما نزل من القرآن الكريم^(١)، وكل كتاباته كذلك، ولذا سنعقب على كل كلام في حينه بما يزيده توضيحاً إن شاء الله تعالى.

١ - "وات"، محمد في مكة (١٢١)، ترجمة عبد الرحمن الشيخ وآخر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَشْكُرَهُ
إِلَّا بِرَحْمَتِهِ الْعَظِيمِ

بدء الوحي

المبحث الأول

إرهاصات (البعثة - النبوة)

ومن إرهاصات النبوة قبيل البعثة، أمور كثيرة وقعت له تدل على عناية الله به في إعداده وتأهيله لما سيفاجأ به من تحمل الرسالة لإنقاذ البشرية الضالة:

١. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح"^(١).

٢. ثم حبب إليه العزلة، فكان يخلو بغار حراء يتحنّث - يتعبد - فيه الليالي ذوات العدد، ويطعم من أتاه من المساكين، قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء بجبل حراء، وهو جبل يطل على الكعبة، ويحتاج صعوده إلى جهد"^(٢).

والتحنّث من بقايا دين إبراهيم ﷺ وكان هذا الاعتكاف مما تحنّث به قريش في الجاهلية وقد ورد ذلك في الرواية الصحيحة عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام فقال له النبي ﷺ: "أوف بنذرك"

١- روى البخاري عن أبي سعيد ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة" (٦٩٨٩)، وورد: "رؤيا المؤمن...." البخاري (٧٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٤).

٢- البخاري (٣)، ومسلم (١٦١). ويقول ابن أبي حمزة: "الحكمة في تخصيصه بالتخلي فيه أن المقيم فيه يمكنه رؤية الكعبة، فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات: الخلوة، والتعبد، والنظر إلى البيت" فتح الباري (١٢/٣٥٥)، وانظر د. أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١٢٣).

فاعتكف ليلة^(١). وقال ابن هشام: تقول العرب: التحنُّن والتحنُّف، يريدون الحنيفة فيبدلون الفاء من الثاء كما قالوا: جَدَفَ وجَدَثَ يريدون: القبر قال رؤبة بن العجاج:

لو كان أحجاري مع الأجداف

يريد الأجداث، وقال أيضًا: وحدثني أبو عبيدة أن العرب تقول: فَمَّ في موضع ثمَّ يبدلون الفاء من الثاء.^(٢)

أما الرؤيا في القرآن الكريم فهي تصديق لما ورد في السنة - مما ذكرنا - ومن قوله ﷺ: "رؤيا الأنبياء وحي"^(٣) فما يروونه فهو من وحي الله لهم، ويجب عليهم المسارعة إلى امتثاله، قال تعالى في قصة إبراهيم ﷺ: "يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى". فما كان رد إسماعيل ﷺ إلا أن وافقه برضا على امتثال ذلك الوحي قائلاً كما ذكر القرآن الكريم: ﴿يَتَأْتِ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢]، وكذلك رؤيا يوسف ﷺ حيث قال في نهاية القصة: ﴿يَتَأْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] ورؤيا يوسف ﷺ كانت قبل البعثة.

ومن هنا رأينا تواطؤ الكتاب والسنة وما ورد عن الأنبياء عليهم السلام على صحة ذلك إذ تلك الرؤى من علامات وحي الأنبياء، وبالتالي فإنها من إرهاصات نبوته ﷺ، إذ جاءت رؤاه كفلق الصبح تصديقًا لما يرى، فيراها ويحكيها فإذا هي تقع كما قال ﷺ.

أما الاعتكاف، واعتزال الناس لفترات زمنية فذلك مما يصفى النفس والقلب والفكر، ويساعد المرء على حسن النظر في أموره وأمور من حوله، ليتمكن من إصلاح

1- البخاري (٢١٣٢)، ومسلم (١٦٥٦)

2- ابن هشام، "السيرة النبوية" (١/١٥٢).

3- البخاري، الصحيح، باب التخفيف في الوضوء (١٣٨).

الخلل الواقع مع شحذ الهمة واستجمام النفس للتحمل ومواصلة السير، مع النظر في ملكوت السموات والأرض، وربط الدنيا بالآخرة؛ إن طريق المصلحين لأنفسهم وغيرهم طريق طويل وَعَر، ومن ثم يحتاج إلى أخذ النفس بعيداً عن أهواء المجتمعات، وفسادها، ومشاكلها، ليستطيع المرء أن يضع الدواء المناسب للأدواء المختلفة والعلل المتناقضة، ليساهم بعد خروجه في حل تلك المضلات، بعد أن أصلح نفسه، وصفى فكره، وفتح عقله وقلبه، ليخالط الناس مرشداً مصلحاً، لا إمعة منساقاً، وإن المصلحين المسلمين ليزيدون في اعتكافهم ذلك عن غيرهم بقربهم من ربهم ﷺ، والتفكر في آخرتهم، مع إعداد الزاد الذي يلاقون به ربهم ﷺ، مع التفتيش عن آفات النفس والعمل والطريق إلى الله ﷻ، ليرشدوا سَيْرَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ وعباداتهم ومعاملاتهم. إنها فرصة لبقاء النفس ومحبة الرب والتعلق ببابه ﷻ، والتزود ب زاد روحي قوي يواصل به المرء رحلته في الدنيا.

جاء ذكر الاعتكاف في القرآن الكريم، سواء في إعداد مكانه، أو في تبين أهم آدابه التي تعين على تحقق مقصوده، فقال ﷺ في الأول: «وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» [البقرة: ١٢٥] فكان الاعتكاف إذاً معلوماً، وقام به الأنبياء منذ فجر الرسالات، وإنه في محل التشريف إذ مكانه فيما أضيف إلى الله ﷻ "بיתי". وما كان ذلك إلا لكونه من مقصود الشرع في إصلاح النفس والإقبال على الرب، ولذا جاء في الثاني لبيان أهم آدابه من تخلص النفس من شهواتها، وأهمها شهوة النساء فقال ﷺ: «وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ» [البقرة: ١٨٧]. وإنَّ ما بعد ذلك من الشهوات أخف وأيسر حتى تصفو النفس مما يكدرها، أو يمنع صفاءها.

ومن عجيب التنزيل في هذه الفترة المبكرة من الوحي أن نزلت تلك الآية الكريمة في سورة المزمل، وهي قوله ﷺ: «وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً» [المزمل: ٨]، حيث أمره ﷺ بالتبتل أي: بالانقطاع إلى الله ﷻ، ويلاحظ على ذلك الأمر ملاحظتان:

الأولى: أنه جاء بعد نزول الوحي مباشرة، ولم يكذ الرسول ﷺ أن يخرج من غار حراء - حيث كان متحنثاً معتزلاً -، وكأنه تأكيد على أهمية ذلك، وأن الإسلام جاء بالتأكيد عليه، وطلبه منه، واستمراره عليه، ولكن على طريقة الإسلام، وتراتب الإيمان.

الثانية: أنه جاء في سياق مقومات تربية القرآن الكريم للنبي ﷺ، وأتباعه حتى يتأهلوا للفوز في الأولى والآخرة، ولكي يتحملوا تبعات ومسئوليات الدعوة، ومشاقها، وما سوف يلاقون جراء هداية الناس إلى الله ﷻ من مصاعب عظام، ويتجشموا من أعباء ضخمة، لا يتحملها إلا من وقف في هذا المحراب متحققاً بتلك الصفات، قال ﷺ: ﴿قُمِ الْيَلَّ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نَضَفَهُ ۝ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٢-٥]... إلى آخر التوجيهات والأوامر والوصايا، التي لما قام بها هذا الرعيل الأول رأينا كيف تحمّلوا ودانت لهم الدنيا. وكلما تحقق بها المؤمنون في أي زمن ومكان سادوا وانتصروا.

أطلت في هذه الجزئية لتكون رداً مسبقاً على تعليق "وات" على الاعتكاف، حيث فرغ اللفظ من معناه، والاعتكاف من هدفه ومضمونه، وغيره. فأما اللفظ فملاًه بمعان لا علاقة لها بالواقع فضلاً عن النبي ﷺ، فقد جعل "وات" أن أفضل الآراء أنها مشتقة من العبرية^(١) والتي تعني التعبد لله ﷻ؛ أو أنها أصيلة في العربية وتعني فعل ما يخرج به من الخطيئة أو الجريمة؛ ومعنى هذا أنها إذا كانت تعني التعبد فهي مشتقة من العبرية، وإذا كانت تعني الخروج من الخطيئة فهي عربية الأصل، مع أنه صدر الكلام بقوله: المعنى الدقيق والاشتقاق غير مؤكّد لكلمة التحنث.

فإذا كانت عن خطيئة فهي ملصقة بالرسول ﷺ وإذا كانت رياضة تعبدية فهي عبرية وتبين كما قال قبلها التأثيرات اليهودي-مسيحية على الرسول ﷺ فعلة فيها مثل الرهبان في

١ - "وات"، "محمد في مكة" (١٠٩) مع الهامش.

العزلة والخطيئة التي ذكرها هي الرجوع في قَسَم أو عدم القدرة على الوفاء به، فما علاقة ذلك بالنبي ﷺ كان في كل مرة يذهب إلى مكة فيقسم على شيء أو لا يستطيع الوفاء به فيذهب إلى حراء ليخرج من هذه الخطيئة ثم يعود إلى مكة فيتزود خطيئة أخرى ثم يرجع إلى حراء ليخرج منها وهكذا لا يحتاج ذلك تعليقًا يخط به القلم ما يضيق به الصدر.

لذا أطلنا سابقًا في شرح ذلك وأن الكلمة لها معناها كما ذكر أساطين اللغة إذ المرجع فيها إليهم لا إلى "وات" وغيره عربًا أو عجمًا، وذكرنا سبقها للتأثيرات اليهودي - مسيحية إذ هي معروفة في الجاهلية، وقد وردت عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في فجر الرسالات. وليعرف "وات" ذلك فما حجته ليحتج بـ "هـ. هيرشفيلد" في اشتقاق الكلمة.

أما تفرغ الاعتكاف والعزلة من مضمونه فهو من كوميديا "وات" إذ جعل الاختلاء في حراء وسيلة لهروبه من حرارة مكة لمن لا يستطيع الذهاب إلى الطائف - للاصطياف طبعًا.

ومعنى كلام "وات" أن سيدنا محمد ﷺ لا يستطيع الذهاب إلى الطائف لضعف الإمكانيات المادية مع أنه القائل قبلها إنه أصبح لديه رأس مال يكفيه للحصول على نصيب متوسط من الأعمال التجارية، وأنه وضع قدمه على أول درجة على الأقل من درجات النجاح الدنيوي، وأن التجار لم يستبعدوه تمامًا من معظم العمليات المربحة، فمثل هذا لا يستطيع أن يذهب إلى الطائف؟! وهو الذي يذهب وقتًا طويلًا كما يدعي "وات" إلى الشام.

لنترك ذلك جانبًا فأين الغار الذي يتسع لفقراء مكة وهم الكثرة الكاثرة في الصيف، ليصعدوا إليه ليتخفوا من قيظ مكة، وهو غار كما هو معلوم لا يسع أكثر من فرد قائمًا، ثم أين محمد ﷺ طوال سنين القيظ والحر قبل أن يهتدي إلى هذا المصيف الآمن وأين ذلك كله

في الكتب التي نقل منها سيرة النبي ﷺ أم هي عادة "وات" في تأليف تاريخ يليق به.

وما اسم بقية المغارات التي كان يأوي إليها المكيون غير القادرين على جبال مكة في

الصيف؟ بل ما اسم مغارة واحدة؟

بل هو منهج "وات" فلا رسالة ولا رسول ولا وحي، وإنما هي خلطة يهودية - مسيحية

تتفق مع عادات العرب ليجعل بهم الرسول هذا المشروع. الذي لم يعرف اسمه ولا وصفه

بعد.

المبحث الثاني

البعثة والنبوة

ثم بعث رسول الله ﷺ وعمره أربعون سنة^(١)، وثبت أن الوحي نزل عليه أول ما نزل يوم الاثنين^(٢)، والمشهور أن نزول القرآن بدأ في شهر رمضان^(٣) حيث كان يخلو رسول الله ﷺ في غار حراء، وجاءه جبريل بعبارة لأول مرة داخل الغار قالت عائشة رضي الله عنها: "حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال له النبي ﷺ: «ما أنا بقارئ»، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق: ١-٣]، فرجع بها ترجف بواديه^(٤) حتى دخل على خديجة فقال: زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة مالي! وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على

1- البخاري "فتح الباري" (٦/٥٦٤، ٧/١٦٢، ٢٢٧)، وصحيح مسلم (٤/١٨٢٤، ١٨٢٧)، وسيرة ابن هشام (١/١٥٢، ١٥١).

2- مسلم "الصحيح" (٨/٥١، ٥٢)، أبو داود "السنن" (٢/٨٠٨، ٨٠٩)، وانظر د. أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١٢٤) - وما بعدها.

3- جاء التصريح به الآية الكريمة: "شهر رمضان الذي أنزل القرآن... [البقرة: ١٨٥]، وابن هشام "السيرة النبوية" (١/١٥٣)، ورجح المباركفوري، صفي الرحمن، أنه يوم الحادي والعشرين من رمضان "الرحيق المختوم" (٧٦، ٧٥)، وانظر د. مهدي رزق الله "السيرة النبوية" (١٤٨).

4- البخاري، الصحيح، أول ما بدىء به رسول ﷺ (٣٢٩/٢١).

نفسى، فقالت له: كلا فوالله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلّ وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت: اسمع من ابن أخيك فقال: يا ابن أخي ما ترى؟ فأخبره فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذع أكون حيّاً حين يخرجك قومك، قال: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت أحد بما جئت به إلا عودي وأوذني، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم يلبث ورقة أن توفي.^(١)

يقول "الزهري" من رواية الحديث: "وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رعوس شواهد الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غداً لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك."^(٢)

وقد أوضح هذا الحديث أن ﴿أَقْرَأُ﴾ هي أول ما نزل من القرآن الكريم، وأن الرسول ﷺ فوجئ بالوحي دون أن يتوقعه فراعته الموقف وأرعبه وأفزعه حتى خشى على نفسه، وقد أخذت خديجة رضي الله عنها - بعد رجوعه إليها - في طمأنته والتسكين من روعه، وفي ذات الوقت سعت معه لمعرفة أو تفسير ما جرى له ﷺ ولم يكن هناك مثل ورقة له باع في تفسير ذلك وتأويله، إذ هو كما ذكر الحديث قد تنصر وقرأ الإنجيل ويكتب منه ما شاء الله

1- البخاري (٦٩٨٢)، وفتح الباري (٢٠٤/٢٦)، ومسلم (١٦٠)، وشرح النووي (١٣٩-١٤٠/١)، أحمد "الفتح الرباني" (٤٧/١٨).

2- نفس المصدر.

له، ومنطق العقل والواقع يدعي أنه لو كان هناك غير ورقة لاحتمل الذهاب إليه، أو من هو أعلم من ورقة لذهبت إليه قطعاً، وبالتالي كان دخول ورقة في الأحداث وظهوره في الصورة أمراً عارضاً، ساقته الأقدار في لحظتها، خاصة وقد ذكر ابن سعد أنها المرة الأولى التي تأتي خديجة رضي الله عنها ورقة بن نوفل^(١)، علاوة على أن المصادر كلها لم تشر من قريب أو بعيد إلى اهتمام المرأة المكية بالدين قبل الإسلام حتى تترك تجارتها أو تفرط فيها لتذهب إلى ورقة لتتعلم منه!

وكان من حكمة الله تعالى أن انقطع الوحي بعد ذلك عن النبي ﷺ فترة من الزمن وذلك حتى تتأكد تلك الحقيقة التي سنؤكد لها فيما بعد من أن الوحي ظاهرة خارقة للعادة، منفصلة تمام الانفصال عن شخصية النبي ﷺ وأيضاً حتى يتشوق النبي ﷺ لنزول الوحي وتتابعه عليه.

وقد استمرت هذه الفترة كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أربعين يوماً^(٢)، وقيل أنها كانت أياماً^(٣) وإن كانت لا تعلم بوجه صحيح، وجزع النبي ﷺ من هذا الانقطاع حتى ذكر الزهري^(٤) أن النبي ﷺ كان يحاول أن يتردى من شواهد الجبال، ولكن هذا الكلام من الزهري ضعيف لعدم صحة سنده، ولكون ذلك يتنافى مع عصمة الأنبياء^(٥).

بعد مدة الفتور هذه نزل الوحي مرة أخرى فيقول الرسول ﷺ: "بيننا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي

1- ابن سعد "الطبقات" (١/١٩٥).

2- الزرقاني "شرح المواهب اللدنية" (١/٢٣٦)، والشامي "من معين السيرة" (٢٩).

3- ابن حجر العسقلاني "فتح الباري" (٦٩٨٢/ج).

4- محمد بن شهاب الزهري أحد رواة نزول الوحي السابق ذكره.

5- انظر ناصر الدين الألباني "دفاع عن الحديث النبوي والسيرة" (٤٠).

بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ
الْمُدْرِيثُ ﴿١٥٠﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالرُّجْرَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥] فحمي الوحي وتتابع" (١).

هذا مختصر شديد لما ورد في السيرة في قضية الوحي، وقد بلغنا بها أمرين: عرض
الموضوع كما هو، والثاني: الرد على "وات" فيما ادعى، استكمالاً لما رددنا عليه فيها وقلنا
سنزيده إيضاحاً كلما عرض لنا من كلام "وات" شيء ذوبال.

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/٢٩٨).

المبحث الثالث

مراتب الوحي

وتتميمًا للكلام على الوحي نذكر صورته التي كان يوحي للنبي ﷺ عليها قبل عرضنا لسيرة الوحي في القرآن الكريم مع الرد على "وات".

يقول الإمام "ابن القيم" إن الله تعالى قد كمل لنبيه من مراتب الوحي مراتب عديدة: أحدها: الرؤيا الصادقة، وهي أول ما بدئ به الوحي، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح^(١).

الثانية: ما كان الملك يلقيه في روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال ﷺ: "إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب...."^(٢).

الثالثة: كان يتمثل الملك للنبي ﷺ رجلاً فيخاطبه فيعي ما يقول، وفي هذه المرتبة كان

1- البخاري (٦٩٨٢)، ومسلم (١٦٠)، أحمد "الفتح الرباني" (١٨/٤٧).

2- الحديث صححه الألباني في التعليق على فقه السيرة لمحمد الغزالي، (٩٦)، قائلاً أخرج الحاكم (٢/٤) عن ابن مسعود ﷺ، والطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية (٢٦-٢٧/١٠) عن أبي أمامة، والبزار عن حذيفة كما في مجمع الزوائد للهيتمي (٤/٧١) كما في الترغيب والترهيب، ولهذا جزم ابن القيم في زاد المعاد بذلك، واتفق محققاً الزاد شعيب وعبد القادر الأرناؤوط (١/٧٩) مع الألباني على تصحيحه، وزاد بعض الشواهد التي تؤكد ذلك، وانظر د. مهدي رزق الله "السيرة النبوية" (١٥٢).

يراه الصحابة أحياناً^(١).

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض...."^(٢).

الخامسة: أن يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر في سورة النجم.^(٣)

السادسة: ما أوحاه الله تعالى من فوق سماواته ليلة المعراج من صلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله تعالى موسى عليه السلام، وهذه المرتبة ثابتة لسيدنا موسى عليه السلام بنص القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وثبوتها للنبي ﷺ في حديث المعراج حيث عرج به إلى أن كلم الله تعالى^(٤).

وبالتأمل في هذا التلخيص للوحي نشير إلى أمور مهمات تعين على توضيح تلك الظاهرة الخارقة، وفي نفس الوقت نرد منها أو هي تحمل الرد على "وات" علاوة على ما سيأتي من الكلام على الوحي في القرآن الكريم:

أولاً: يتبين من الحديث أن الرسول ﷺ رأى جبريل بعينه، وأنه ضمه ثلاث مرات، وأنه سمعه يقول اقرأ، وقرأ عليه آيات ما زالت تتلى إلى يوم القيامة، وهذا يدل على أنه ليس

1- وقد ورد ذلك في حديث جبريل، لما قال النبي ﷺ: "هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم" وروى النسائي بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما: "كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي" زاد المعاد، حاشية (١/٧٩).

2- البخاري (٣٢١٥ /)، ومسلم (٢٣٣٣).

3- مسلم (١٧٧).

4- مسلم (١٦٣).

أمرًا ذاتيًا، ولا تأملًا باطنيًا، وأنه لا تعلق له باللاوعي، أو الوعي والليدو الذي يدعيه "وات"، بل إن الوحي يتم من خارج الذات المحمدية المتلقية له، خاصة وأنه متضح لكل عاقل أن ظاهرة الوحي لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أو يخطر بباله، وإنما طرأت طروءًا على حياته وفوجئ بها، إذ ليس من شأن التدرج في التأمل والتفكير^(١) بطريقة الكشف التدريجي المستمر أن يأتي له من يضمه ويكلمه، ثم يتركه ويذهب، فلم يكن إذن للرسول من أثر سوى حفظ هذا الوحي وتبليغه، أما بيانه وتفسيره فيتم بأسلوب النبي ﷺ وهو أفصح العرب، ومع ذلك وجدنا أسلوبه مغايرًا تمامًا لأسلوب القرآن الكريم.

وإن محاولة "وات" تعليل اختلاف أسلوب القرآن الكريم عن أسلوب الحديث عن طريق علم النفس التحليلي، بدعوى أن القرآن الكريم صدر عن منطقة اللاشعور في حالة ضعف الوعي الخارجي ونشاط العقل الباطن، وأن الحديث صدر عن العقل الظاهر لا شك تبدو متهافة مجافية للحقيقة مخالفة للواقع، إن ما صدر عن النبي ﷺ في حالة الضعف المزعومة قرآن وكلام إلهي لم يستطع بشر أن يأتي به أو بمثله ولو مفترى لا حقيقة له، سواء في حالة الضعف ونشاط والعقل أو في خلاف ذلك، وإن تهافت هذا التفسير يظهر إذا تأملنا فيما صدر عن الحكماء والشعراء والبلغاء من آثار أدبية تتضح فيها الوحدة الأسلوبية مع مرورهم بتجارب تأملية واستنباطية، بل صار الأسلوب أساسًا لتحديد السرقات الأدبية إلى جانب سرقة المعاني^(٢).

إن طمأنة السيدة خديجة رضي الله عنها للنبي ﷺ بأخلاقه الحميدة، وأن مثله لا يؤذيه جنٌ ولا غيره، لدليل على مفاجأتها بما حدث، وإلا لكان ردها هذا هو المتوقع والمتنظر نعم

1- كما يدعي كارادفو الفرنسي. انظر حاضر العالم الإسلامي (١/٣٩)، وانظر د. مهدي رزق الله "السيرة النبوية من مصادرها الأصلية" (١٤٩-١٥١).

2- انظر د. أكرم العمري "السيرة النبوية" (١٢٩-١٣٠/١).

قد وصلنا إلى النتيجة المرجوة، ولما ذهبت به إلى ورقة ليقول لهما: إن هذا هو الناموس الذي نزل على الأنبياء، وذلك منه من أكبر الأدلة على كون الوحي ليس أمرًا ذاتيًا كما ذكر إذ هو تنزل ملاك الرب على المصطفين من عباده لا علاقة لذواتهم به، بل هو شيء خارج عن النفس هم الوسيلة في تبليغه لا غير، ولو كان الأمر ذاتيًا مع ضعف الوعي أو قوته أو غير ذلك من المفتريات لكان ورقة أولى به، وإن مثل هذا الحدث الجلل، والشأن العظيم لجدير بأن ينسبه المرء إلى نفسه ليحوز به الفخار الذي يعلمه، والشرف الذي لا يدانيه شرف.

ذكرت الروايات التي أشرنا إلى بعضها أن الرسول ﷺ بعد فترة الوحي وانقطاعه سمع صوتًا فرأى الملك الذي جاءه بحراء جالسًا على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه... إلى آخر الحديث، وهذا يدل على رؤية الملك جبريل ﷺ، ووقع "وات" هنا في مآزقين

الأول: أنه اختار رواية واحدة هي رواية الزهري في قول السيدة عائشة رضي الله عنها أنه جاءه الحق وهو في غار حراء، وبنى عليها ما يأتي من كلامه.

الثاني: أنه اخترع رواية من عنده في رؤية الملك أنه رأى الحق جالسًا على العرش بين السماء والأرض.

ثم خلص إلى أن الرسول ﷺ لما تعلم بعد ذلك من أهل الكتاب أن الله لا يرى ذكر أنه رأى جبريل، وبالتالي فهو غير صادق في ادعاء الوحي.

وهذا الكلام الغريب المخترع يبين ميل "وات" عن الحياض الذي يدعي، ويوضح في نفس الوقت الأسلوب الانتقائي الاستشراقي ل"وات" والذي أوقعه في تلك المآزق، يؤكد كذلك على منهج اختراع التاريخ الذي بيناه من قبل، ثم يرد على التاريخ المخترع الذي لا علاقة له بالرسول ﷺ بما يكذب به الرسول ﷺ، وإلى شيء من تفصيل ذلك:

أولاً: أن الرسول ﷺ ذكر أن الملك جاءه وضمه، ثم رأى الملك ذاته على كرسي بين السماء والأرض.

ثانياً: أن الحق الوارد في رواية "وات" المنتقاة يكون معناه إذن الرسالة والنبوة ليس الحق هو الله كما يجلول "وات"، لأنه مناف للواقع وللحديث مع النبي ﷺ بدليل قول الله تعالى على لسان الملك: "اقرأ باسم ربك الذي خلق" لا باسم غيره، وأن الملك مبلغ له ذلك عن الله تعالى الذي خلق.

ثالثاً: أن "وات" ألفت رواية أنه ﷺ رأى الملك جالساً على العرش هكذا بتعريف العرش، وذلك لا يكون إلا لله وجميع ما ورد في ذلك مما يعلمه "وات" هو أنه ﷺ رأى الملك جالساً على عرش أو كرسي بين السماء والأرض فإذا نقول في هذا الكلام من "وات"، هذا الملفق ثم يأتي بعد ذلك لينسبه للنبي ﷺ ويكذبه به.

رابعاً: بعد هذا الكلام كله يقول "وات" إن محمداً عندما يقرأ "اقرأ" يشعر بالدين في رقبته لورقة، خاصة وأنه لكي يستقيم له تخيله وما يدعيه يفترض نزول قرآن قبل اقرأ، لأنه كان يتردد على ورقة، وأن خديجة لا يستبعد أن تكون هي الأخرى مسيحية.

وقد ظهر بالكلام السابق أن ذلك إنما هو عقدة "وات" في عدم ذكر الحقيقة وتحليلها، فضلاً عن تقطيع أوصال الحقائق في أماكن مختلفة ليؤكد الانتقائية في بحثه، فإن لم يجد اختراع تاريخياً وأخذ يجلله لنا ويستخرج منه ما لا علاقة له ببحثه أو بما يتكلم فيه، وذلك كما أشرنا من قبل أحد معالم بحث "وات" على مدار السيرة من أولها إلى آخرها، وقد رددنا ضمناً فيما سبق على هذا الكلام العلمي النزيه المحايد من "وات" كما يجلول نفسه أن يلقيه به.

وفي نهاية المبحث يحسن أن نذكر كلام كاتبين نصرانيين هما "سال" و"تايلور" يدلان على أن النصرانية التي وراء ادعاء النبي ﷺ للرسالة والوحي كانت في أسوأ عصور

انحطاطها، بحيث لم يجد ﷺ نموذجاً أخلاقياً، أو دينياً ليحتديه أو لينقله إلى الإسلام، ودليل على أن ورقة بن نوفل لا علاقة له بالنبي ﷺ فضلاً عن أن يتردد إليه، وبرهان ساطع على ما وصل إليه ورقة من علم لم يكن ليزيد عن المعلوم السائد، اللهم إلا قراءته في الإنجيل ونقله منه ما شاء الله بالعبرائية، وما كان ذلك مقنعاً للناس أن يدخلوا في النصرانية خاصة وأنه لم يدع لشيء من ذلك أو تعرض لدخول أحد فيه كما ذكرنا من قبل المهم يقول سال: "إذا قرأنا التاريخ الكنسي بعناية، فسنرى أن العالم المسيحي قد تعرض منذ القرن الثالث لمسخ صورته، بسبب أطماع رجال الدين والانشقاق بينهم والخلافات على أتفه المسائل، والمشاجرات التي لا تنتهي، والتي كان الانقسام يتزايد بشأنها. وكان المسيحيون في تحفزهم لإرضاء شهواتهم، واستخدام كل أنواع الخبث والحقد والقسوة قد انتهوا تقريباً إلى طرد المسيحية ذاتها من الوجود، بسبب جدالهم المستمر حول طريقة فهمها، وفي هذه العصور المظلمة بالذات ظهرت بل وثبتت أغلب أنواع الخرافات والفساد."^(١)

أما "تايلور" فيقول: «إن ما قابله محمد وأتباعه في كل اتجاه لم يكن إلا خرافات منفرة ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة، وطقوساً دينية منحلة وصيبانية».^(٢)

فأني إذن لمحمد ﷺ أن يقتدي بتلك التعاليم التي وصفها أصحابها بتلك الأوصاف ونعتوها بتلك النعوت، إذا كان العوام قد رفضوها هم والخواص، ورسول الله ﷺ هو من هو أرجح الناس عقلاً وأعظمهم احتراماً في محيطه، ومحيط من عرفه أو خالطه، كما ذكرنا شيئاً من أوصافه التي وصفه بها أهل الجاهلية، ووسمته بها سيرته في الكتب السابقة (السماوية).

1- د. محمد عبد الله دراز، "مدخل إلى القرآن الكريم"، (١٣٦) نقلاً عن كتاب سال "ملاحظات تاريخية ونقدية عن الإسلام" (٦٨-٧١).

2- د. محمد عبد الله دراز، "مدخل إلى القرآن الكريم" (١٣٧)، نقلاً عن "المسيحية القديمة" لتايلور (٢٦٦/١).

نسارع خطى البحث لنعود إلى ذكر الوحي في القرآن الكريم على المنهج الذي اخترناه لهذا البحث.

ونلاحظ الآية الأولى في هذا المعلم وقد قدمناها لكونها تجمع الأنبياء جميعاً الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم والذين لم يرد ذكرهم وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۗ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٤]، وقد أضفنا إليها الآية التالية لها لتعلقها بها.

ففي هذا التنزيل القرآني نرى الآتي:

أولاً: أن وحي الله تعالى للنبي ﷺ إنما هو كوحية لجميع الأنبياء، أي إنه وحي من الله إلى موحى إليه من البشر منفصل تمام الانفصال عن الموحى إليه، فهو ليس من ذاته بل من الله جل وعلا.^(١)

ثانياً: أن وحي النبي لا يفترق عن وحي الأنبياء من قبله، فأصول هذه الرسائل واحدة من الله تعالى، وإن اختلفت في أمور تتفق وبعثة الأنبياء وأزمانهم رعاية من الله ورحمة بالناس.

ثالثاً: أن وحي النبي ﷺ ليس حالة نفسية أو حالة من حالات الوعي واللاوعي وغير ذلك، إذ لم ينسب لنبي من قبل مثل هذا البهتان فمن باب الأولى فالرسالة الخاتمة الشاملة الخالدة الأعظم لا يكون مبلغها إلا على أفضل كمالات الأنبياء من قبله.

رابعاً: أن الأنبياء الأقرب من الرسول برسالاتهم كموسى وعيسى عليهما السلام لم

1 - انظر مالك بن نبي، "الظاهرة القرآنية".

يعلم أو ينقل عنهم مثل ذلك اللبido الذي يدعيه "وات" في القرن العشرين، وقد بينت الآية أن الرسول ﷺ قد أوحى إليه كما أوحى إليهما أيضاً فما الفارق إذن؟

خامساً: أن الله تعالى لم يمن على رسوله بالوحي، وأنه أرسل إليه رسولاً وأنه اصطفاه لذلك إلا لأنه أوحى له بذلك حقاً، وأنه سبحانه ما يقول هذا القول إذا كان هذا الوحي المعظم النازل إليه إنما هو من نفسه ﷺ يستدعيه بالوحي واللاوعي كيف يليق ذلك بالله تعالى مع أنبيائه؟!

ونسرد فقط عددًا من الآيات تدل على المطلوب، فعلى سبيل المثال يقول المولى سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] وسنعود إلى هذه الآية بالذات في قصة الغرانيق إن شاء الله تعالى، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتَبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأحقاف: ٩] وقوله: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۗ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُمْ وَقُرْآنُهُ ۗ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۗ﴾ [القيامة: ١٦-١٨]^(١) وهي آيات مكية يخاطب بها أهل مكة، وأنه لا يتبع إلا الوحي، وأنه منذر مبلغ للعالمين ليس له من أمر الوحي شيء، ولا من أمر نفسه ولا غيره شيء.

ونبدا بذكر ما نزل من الوحي في أول البعثة نبين به سيرة النبي ﷺ في دعوته وأهداف الدعوة من أول أيامها، والسيرة التي ينبغى أن يسلكها الرسول ﷺ - ليصل أو ليحقق تلك الاهداف بما ينير الطريق لاتباعهم لالتزام تلك السيرة في دينهم، وكان أول ما نزل قوله: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ عَلَقٍ ۝ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾.

1 - وانظر لما سبق: عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية" (٧٤-٧٥).

وبالنظر في تلك الآيات وتحليلها نلاحظ:

أن هذا أول ما أوحى به من القرآن إلى رسول الله ﷺ لما ثبت عن عائشة عن النبي ﷺ مما سيأتي قريباً.

وافتح السورة بكلمة ﴿أَقْرَأْ﴾ إيدان بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون قارئاً، أي تالياً كتاباً بعد أن لم يكن قد تلا كتاباً قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، أي من قبل نزول القرآن، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل حين قال له اقرأ: " ما أنا بقارئ " .

وفي هذا الافتتاح براعة استهلال للقرآن.

وفي حديث «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها^(١) قولها فيه: « حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿إِلَى﴾ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

وقوله ﴿بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ فيه تعريض بتحقيق المشركين الذين ضلوا عن توحيد الله تعالى مع أن دليل الوحدانية قائم في أنفسهم.

وفي قوله: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ إشارة إلى ما ينطوي في أصل خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ بَدْيِ الْأَطْوَارِ والصفات التي جعلته سلطاناً هذا العالم الأرضي.

1 - البخارى، الصحيح، باب بدء الوحي (٥ / ١).

فإذا نظرتَ إلى الآية مستقلة عما تضمنه حديث عائشة في وصف سبب نزولها كان الاستئناف ناشئاً عن سؤال يجيش في خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول: كيف أقرأ وأنا لا أحسن القراءة والكتابة، فأجيب بأن الذي علم القراءة بواسطة القلم، أي بواسطة الكتابة يعلمك ما لم تعلم.

وإذا قرنت بين الآية وبين الحديث المذكور كان الاستئناف جواباً عن قوله لجبريل: « ما أنا بقارئ » فالمعنى: لا عجب في أن تقرأ وإن لم تكن من قبل عالماً بالقراءة إذ العلم بالقراءة يحصل بوسائل أخرى مثل الإملاء والتلقين والإلهام وقد علم الله آدم الأسماء ولم يكن آدم قارئاً.

ووصف ﴿الْأَكْرَمُ﴾ مصوغ للدلالة على قوة الاتصاف بالكرم وليس مصوغاً للمفاضلة فهو مسلوب المفاضلة.

والكرم: التفضل بعبء ما ينفع المعطى، ونعم الله عظيمة لا تُحصى ابتداء من نعمة الإيجاد، وكيفية الخلق، والإمداد وتخصيص الكرم بربك هنا للدلالة على النعم الخاصة بالنبي ﷺ علاوة على ما سبق من مثل النبوة والرسالة ولبلاغ العلم مع الاصطفاء والتشريف بإضافة الرب سبحانه وتعالى إلى كاف المخاطب وهو النبي ﷺ.

جمعت هذه الآيات الخمس من أول السورة أصول الصفات الإلهية فوصفُ الرب يتضمن الوجود والوحدانية، ووصف ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ ووصف ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ يقتضيان صفات الأفعال، مع ما فيه من الاستدلال القريب على ثبوت ما أشير إليه من الصفات بما تقتضيه الموصولية من الإيحاء إلى وجه بناء الخبر الذي يذكر معها. ووصف ﴿الْأَكْرَمُ﴾ يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص وفيه إفحام للمشركين من أول آية على ان آلهتهم ليست من تلك الصفات في شئ فلا يستحق التوحيد والعبادة إذن إلا الله

وحده وهو أساس الدعوة وهدفها من أول آية، مع ما في قوله باسم ربك أنت أي الواحد الموصوف بصفات الكمال المنزه عن صفات النقص لا أي رب آخر يدعو المشركون أو غيرهم.

وجملة: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمَ﴾ ﴿١﴾ خبر عن قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ﴿٢﴾ وما بينهما اعتراض.

وتعريف ﴿الْإِنْسَانَ﴾ يجوز أن يكون تعريف الجنس فيكون ارتقاء في الإعلام بما قدره الله تعالى من تعليم الإنسان بتعميم التعليم بعد تخصيص التعليم بالقلم.

وفي ذلك طمأنة لنفس النبي صلى الله عليه وسلم بأن عدم معرفته الكتابة لا يحول دون قراءته لأن الله علّم الإنسان ما لم يعلم، فالذي علّم القراءة لأصحاب المعرفة بالكتابة قادر على أن يعلمك القراءة دون سبق معرفة بالكتابة.

وأشعر قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمَ﴾ ﴿٣﴾ أن العلم مسبوق بالجهل فكل علم يحصل فهو علم ما لم يكن يُعَلَّم من قبل، أي فلا يُؤَيِّسَنَّكَ من أن تصير عالماً بالقرآن والشريعة أنك لا تعرف قراءة ما يكتب بالقلم. وفي الآية إشارة إلى الاهتمام بعلم الكتابة وبأن الله يريد أن يكتب للنبي ﷺ ما ينزل عليه من القرآن فمن أجل ذلك اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً للوحي من مبدأ بعثته.

وفي الاقتصار على أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقراءة ثم إخباره بأن الله علّم الإنسان بالقلم إيماء إلى استمرار صفة الأمية للنبي ﷺ لأنها وصف مكمل لإعجاز القرآن قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٤﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وهذه آخر الخمس الآيات التي هي أول ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء.

وبناء على ما سبق كان معنى الآيات، أن الله سينزل على نبيه ما يتلوه على الدنيا، وأن الذى سيتلوه هو دعوتهم إلى ربه، وترك غيره لأنه الواحد الأحد الذى له الخلق والأمر، ومتصف بصفات الكمال منزّه عن صفات النقص، وأن له الرجعى والقيامة اليه، فهو إذا الإله الذى يجب أن يفرد المرء بالعبادة والسجود له والتقرب إليه (واسجد واقرب).

ومن ثم ردت الآيات على "وات" فى الدعوة وبواعثها وأركانها لا كما يدعى وردت عليه فى كونها وحيا من الله إذ لا يتصور ولا يمكن أن يكون اللبىدو أو الوعى الخلاق كما يزعم مصدرا للوحى فيما سيكون إذ هو عنده تخزين فقط لما كان يستدعيه بالوعى أو اللاوعى، ثم إن قوله اقرأ لم تكن من اللاوعى لأنه لم يسمع من حكاها أو نقلت له من قبل إذ هى مفاجأة بما لم يحتمله واقعا.

ونعود إلى "وات" لنذكر رؤية فى موضوع النبوة ونبين الرد عليه.

- إن "وات" يرجع أمر النبوة إلى التخيل الخلاق^(١)، بمعنى إنها إبداع من عقلية النبي ﷺ، وليست اصطفاء من الله لسيدنا محمد ﷺ لأداء رسالته، ولذلك استبعد رؤية جبريل ﷺ من الناحية التاريخية^(٢).

ونقل شيئا من كلام "وات" بنصه فيما يخص ما نحن فيه يقول: "لقد تملكتم محمداً منذ وقت مبكر أن الكلمات التي تصل إليه هي وحي من الله مهما كانت الصورة الدقيقة لتجربته الأولى في تلقي الوحي، وقد ظهر الإيمان بذلك منذ البداية في دعوته العامة"، ويقول "على المؤرخ أن يعترف بصدق محمد المطلق في اعتقاده بأن الوحي كان يأتيه من الخارج يمكن أن يكون قبل الوحي قد سمع من بعض الأشخاص قسماً من القصص التي

1 - Creative imagination

2 - محمد في مكة.

يذكرها القرآن، وعندئذ يترك المؤرخ الموضوع للمتكلمين^(١)، ليقوموا بنوع من التوفيق"،
ويعمن في إظهار اعتقاده فيهذي قائلاً: "فالقول بأن محمداً كان صادقاً لا يعني أن القرآن
وحي حق، وأنه من صنع الله، إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض أن محمداً كان مقتنعاً
بالوحي ينزل عليه من الله وأن نؤمن في نفس الوقت بأنه كان مخطئاً"^(٢).

ويخضع قارئه الواثق فيه، أو الساذج بقوله بعد ذلك بأن: "مصدر الوحي المحمدي هو
اللاوعي الجماعي، الذي هو مصدر كل وحي ديني سواء كان الإسلام أو النصرانية أو
اليهودية"^(٣).

ولما كانت هذه الدراسة تعتمد على القرآن الكريم، والسنة النبوية المشرفة دراسة نصية
مقارنة ونقدًا، فإننا نرد على "وات" وغيره من هذا المنحى غير المسبوق فيما نعلم، حيث
يتبين به سوء الفهم، وسوء القصد، وضعف العلم، وتغيير الحقائق بنية مسبقة تضع
الأحكام وتفصل لها الوقائع لتأتي على وفق الاعتقاد السابق الذي يلوي به رقبة البحث في
الاتجاه الذي يريده له، ضاربًا عرض الحائط بكل ما له صلة بالبحث العلمي، خاصة فيما
يتعلق بالإسلام ونبيه ﷺ وهذه المسألة جعلناها مثلاً يحتذى، لذلك نزيدها توضيحًا وتدليلًا
كلما مر معنا من كتابات "وات" ما يتعلق بها من جديد الإفك، وسيء القصد.

كان ينبغي أن نبدأ بها مع أول قضية، وكل قضية سطرناها من قبل، ولكن آثرنا
وضعها هنا؛ لإدخال "وات" لها في إنكار النبوة، وهو يشير إلى تلك القضايا التي سودها في
هذا الموضوع.

ونبدأ بنقد كلام "وات" ..

¹ - Theologians .

² - محمد في المدينة (٣٢٥).

³ - Watt. Mohammad prophet and stateman p.238.-3

وسوف نبري قلم النقد بمبراة التهذيب برّياً عظيماً، مع شدة الاستفزاز التي وصلت إلى أسوأ دركاتهما، بما ليس في طاقة الحليم أن يتحمّله أو أن يمسك نفسه ويتمالك أعصابه حتى يرد عليه.

• نبدأ بهذا الاعتقاد المضحك، الذي يدل على الاستخفاف بالعقل وعدم احترامه، وإظهار ذلك في ثوب الحياد، في محاولة مكشوفة لكي يقبل العقل التناقض، ويسلم به، يقول "وات": "على المؤرخ أن يعترف بصدق محمد المطلق في اعتقاده بأن الوحي كان يأتيه من الخارج" ثم يهدم ذلك بأمرين.

الأول: يستكمل به هذا الكلام قائلاً: "يمكن أن يكون قبل الوحي قد سمع من بعض الأشخاص قسماً من القصص التي يذكرها القرآن"^(١).

الثاني: "أن مصدر الوحي المحمدي هو اللاوعي الجماعي، الذي هو مصدر كل وحي ديني سواء كان الإسلام أو النصرانية أو اليهودية"^(٢) ولا أظن أن هذا التهافت يحتاج إلى بيان من وجوه نصوصه هو وهالك الرد.

الأول: أن محمداً ﷺ صادق صدقاً مطلقاً بأن الوحي يأتيه من الخارج وفي نفس السطر ينقلب على عقله، ليقول يمكن أن يكون قد سمع من بعض الأشخاص قسماً من القصص التي يذكرها القرآن قبل الوحي.

وهذا كاف في الرد، ولكن نفصل شيئاً في كلام "وات" فنقول: إذا كان الرسول ﷺ صادقاً في أن الوحي يأتيه من الخارج، فمن كان يأتيه الوحي الذي يسمعه ويبلغه بعد ذلك، لم تطاوع "وات" نفسه في أن يعترف بالحق إنصافاً للعلم، بل غالط نفسه وعقله

1.- Ipid p128
2- محمد في مكة (٣٢٥).

وعقل القارئ والسامع فقال إن قسمًا من هذا القصص يمكن أن يكون سمعه قبل الوحي، نحن مسلمون بهذا ولكن كيف يتفق ذلك مع قولك بصدق النبي ﷺ في أن الوحي يأتيه من الخارج، ترى يأتيه من الداخل قسم قد خزنه في اللاوعي، ثم عند ادعاء الوحي يأتيه من الخارج من استدعي هذا القسم من الداخل ليحدثه به على أنه من الخارج هذا كلام "وات"، فأبي عقل هذا وأي علم ذلك، هل يدخل في عقل طفل صغير هذه الأغلوطات.

الثاني: قوله إن قسمًا من هذه القصص سمعه قبل الوحي، سلمنا ولكن من الذي أوتر عنه أثرًا صحيحًا في أنه كان يحكي قصصًا سمع النبي ﷺ قسمًا منه ثم استدعاه بها يسميه "وات" اللاوعي الجماعي ليدعي وهو الصادق أن ذلك وحي من الخارج، ولم يكذبه صاحب القصص.

الثالث: هذا القسم من القصص الذي سمعه ﷺ ما هو تحديدًا أو تقريبًا.

الرابع: بقية الوحي "القرآن الكريم" مما لا قصص فيه من أين جاء به وهو صادق صدقًا مطلقًا في أن الوحي يأتيه من الخارج كالتوحيد والنبوات والأحكام والعبادات والأخلاق والسلوك.

الخامس: ترى من كان يقص هذا القصص ألم يكن الأعقل أن ينسبه لنفسه بدلاً من ادعاء غيره تملكه، ما دام أنه كان يمكن أن يكون وحيًا.

السادس: هذه البناء القرآني الضخم الذي نزل منجمًا على ثلاث وعشرين سنة، اختزل في قسم من القصص يحتمل سماعها قبل الوحي، في كل مرة ينتزل القرآن الكريم ليعلق على حادثة وقعت يتحرك الليبدو ليصنع الأحداث التي وقعت، بأشخاصها ومواقعها، وتصرفاتها، ثم يخزن الأحداث ثم يأتي يستخرجها من اللاوعي إلى الوعي. هذا ليس ليبدو إذن بل هو الله تعالى، لأن موقعة بدر مثلاً قد جرت بترتيب الله تعالى، وفي مكان معين،

وبين أشخاص معلومين، وانتهت إلى نتيجة محسوسة، وعاقبة واضحة، ونزل القرآن الكريم ساعتها ليعلق التعليق الإلهي عليها، وكان اللاوعي من الرسول ﷺ لا شك فارغاً عما يحدث، فضلاً عما سيكون، أين سمع ﷺ قصة بدر، ثم خزنها جعلها في داخله ثم أذاعها وحيًا خارجيًا عندما جاء وقتها. هل كانت من قصص الأقدمين من اليهود والنصارى وغيرهم، وسمعتها من القصاص، ثم ذكرها وحيًا وترك لصاحب العقل التعليق!

• ويبدو أن "وات" علم أن كلامه لا يخفى على أحد تناقضه، فبادر مخالفاً كل القواعد العلمية والبحثية بقطع الطريق على مناقشة بأن كلامه متناقض وهو ما يسميه أهل العلم المصادرة على المطلوب، وكأنه يقول ستقول هذا تناقض، فيقول لا: إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض أن التناقض ليس بتناقض! هذا هو البحث العلمي.

أما قوله بنصه وقد أشرنا إليه من قبل: "فالقول بأن محمدًا كان صادقًا لا يعني أن القرآن وحي حق، وأنه من صنع الله، إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض أن محمدًا كان مقتنعًا بالوحي ينزل عليه من الله، وأن نؤمن في نفس الوقت بأنه كان مخطئًا".^(١)

ولإظهار التناقض الذي لا مفر منه مهما حاول "وات" أن يرده في صدره بكلتا يديه لا بعقله لثقله الجاثم على ذهنه، فلا يدعه يسلم بالعلم والإنصاف نقول:

قلت: "على المؤرخ أن يعترف بصدق محمد المطلق في اعتقاده بأن الوحي كان يأتيه من الخارج".^(٢)

فهل هنا تناقض أكثر من ذلك أن نقول إنه صادق، ولا تناقض في اعتقاد أنه كان مخطئًا، سلمنا جدلاً لأننا لو عكسنا الفرض فقلنا أن محمدًا حاشا له ﷺ كان كاذبًا كانت

1 - محمد في المدينة (٣٢٥).

2 - Ipid, p128.

النتيجة هي هي نفس نتيجة أنه صادق فاستوى أن يكون صادقاً أم كاذباً في أنه كان مخطئاً في اعتقاد الوحي، فهل هناك تناقض أعظم من أن يستوي الكاذب والصادق، أو الصدق والكذب.

ولعل "وات" أدرك هذه النتيجة فسارع كاذباً مضللاً بنفي التناقض قبل أن يكتشفه العقل الضعيف لأي طالب.

وتموهياً على بعض قرائه من المسيحيين في الغرب، وضعفاء العقل من المسلمين بادر بإثارة الغبار على الأديان الثلاثة حتى لا يتهم بالانحياز للمسيحية أو اليهودية وأن مصدرها جميعاً واحد، ولكنه ليس الوحي، فقال ما يسلي المرء ضاحكاً في هذا المهم حيث يقول: "مصدر الوحي المحمدي هو اللاوعي الجماعي"^(١)، الذي هو مصدر كل وحي ديني سواء كان الإسلام أو النصرانية أو اليهودية"^(٢)، ولا نملك إلا الضحك الباكي على هذا الكذب، حيث لم يكن ذكوراً لما كتب فيما سبق إذ ما الذي جعلك تنقد الإسلام ونبيه بكل ما لا يجوز النقد به ثم تكون مسيحياً موحداً، مع أن مصدر وحيها واحد هو اللاوعي كما تزعم، أما أن اللاوعي اليهودي والمسيحي أفضل من اللاوعي الإسلامي، أما إن اللاوعي اليهودي والمسيحي - وهو لاوعي - مصدره إلهي تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

1 - لخص "وات" رأى يونغ: وهو أن ما ينبثق من اللاوعي إلى الوعي في رؤى الأفراد المنامية وأحلام اليقظة وكذلك في الأساطير الدينية لمجتمع كامل تأتي من "الليبدو" أو طاقة الحياة وهو ينبوع النشاط في كل الناس. في الشخص الواحد يكون "الليبدو" في أحد أجزائه شيئاً خاصاً وفي الجزء الآخر شيئاً مشتركاً بينه وبين أفراد جماعته وهو "اللاوعي المشترك" وتعزى له الأساطير الدينية. ولتطبيق النظرية على الوحي المحمدي يقول "وات" إن هذا يعني أن كلمات الوحي كانت لها صلة بمحمد قبل أن يصير واعياً لها" ويمكن أن نقول أن الملك وضع الكلمات في ناحية من نواحي الوجود المحمدي يسمى اللاوعي وأنها برزت من هنا إلى وعيه" انظر شيخ ادريس: مناهج المستشرقين (١/٢٣٤)، وكذلك Islamic Revlation, p. 109 وكذلك Muhammad Prophet and Statesman, p. 238.

2 - محمد النبي ورجل الدولة (٢٣٨).

بل إن "وات" يزيد على ذلك محاربة للإسلام ونبيه، بدعوة المسيحيين لاتخاذ موقف ديني من محمد، ويذكر أنه يضع بين أيدي المسيحيين المادة التاريخية التي يجب اعتبارها في تحديد الحكم الديني.^(١)

ترى "وات" منصفاً إذن وهو يضع بين يدي بني جلدته أسوأ مادة علمية كما يدعي عن الإسلام وأهله، بحسن قصد ليسلموا، ويعلنوا دخولهم في دين محمد ﷺ أم أنه يضع بين أيديهم ما يُسوؤُ صورة الإسلام ورسوله أمام أعينهم، وفي فكرهم واعتقادهم، تراه يوضح لهم سبيل أن يكونوا مسلمين، أم أن يتحصنوا ضد الإسلام، ويحول بينهم وبين انضمامهم إليه، ترى هل أسلم واحد فقط بعد قراءة كتب "وات"؟ "دعك من "وات" نفسه أو أن المستشرقين والمستغربين يتخذون كتب "وات" المعتمد المعترف في نقد الإسلام ونبيه، والحجة الدامغة للاوعي الذي يُغَيَّبُ به "وات" عقولهم عن فهم الإسلام على ما كان عليه.

هل يقول "وات" ويعتقد إذن كلاماً يتفق مع المنطق والعقل، أو مع الحال والواقع، أم إنه يقول ذلك ذرّاً للرماد في العيون باتفاق الديانات الثلاث بكون اللاوعي مصدر وحيها.

ونأتي لقضية من قضايا "وات" التي نفى بها نبوة النبي ﷺ، وهي استبعاده تاريخياً لرؤية جبريل، وقد ألقى بهذه القضية إلقاء من يظن به البحث المجرد الخالي من أي اعتبارات أخرى، والذي يفترض في صاحبه البساطة وحسن النية، بحيث لا يتطرق للسامع والقارئ شك في صاحبه كأنه إلقاء للقول على عواهنه ولكن للأسف الشديد هو كلام مقصود الهدف منه، بادي الترتيب، يعلم من يخاطب، وبما يخاطب، وما الذي يؤدي إليه خطابه، إنه بهذه الجملة القصيرة يهدم في اعتقاد من أمامه نبوة الرسول ﷺ "لا يمكن أن تكون تاريخية" وبسهولة يقول القائل: لقد قال "وات" إن رؤية جبريل التي تزعمون لا

Ibid.,p @.-1

يمكن أن تكون تاريخية، انتهت النبوة، أي بحث هذا؟ أي مكر ودهاء هذا؟ ونقلب عليه كلامه أي لاوعي هذا الذي يبثه، ينسف به من صدور المسيحيين أمثاله نبوة الرسول ﷺ ويزعزع على أقل تقدير إيمان المسلمين الواثقين في علمه أو بحثه.

ومنهج "وات" كما سنشير إلى عناصره في حينها، أحد أركانه هذا الركن السيء، وهو التفسير المادي للتاريخ وليته للأسف طبقة كما قرره هو بنفسه، بل طبقة بركن آخر أشد سوءاً وهو المنهج الانتقائي خاصة فيما يتعلق بالإسلام ونبيه ﷺ.

وسنترك قضيته توضح ذلك مثلاً له، ودليلاً عليه، اختصاراً، وبدلاً من ضرب أمثلة أخرى، وهي قوله "لا يمكن أن تثبت تاريخياً" رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام، والرد أن هذه قضية دينية لا يمكن أن ترد إلى التاريخ والتفسير المادي البحث فقط إذ يدخل فيها التفسير الديني لتلك الظواهر، لأن الحديث ليس عن التاريخ والنظرة المادية خاصة وأن التفسير المادي وحده ليس كافياً في توضيح ما لا علاقة له به من الأخلاق والقيم وما وراء المادة، فكيف يصلح المنهج المادي لتفسير ما وراء المادي، وما لا يتعلق بالمادة فهذا لا عقل فيه ولا واقع، إذ وجدت أمور وقف العقل والمادة عاجزين عن تفسيرها، وإن لتغير الزمان عاملاً مهماً في تغير الموازين المادية، فما كان لا يمكن أن يكون، صار ممكناً، ينتظر أن يتغير هو الآخر، فكيف تحاكم ظواهر تلك السنين الدينية لتغيرات في السنين الآنية، لقد أوشك إن لم يكن قد هدم التفسير المادي من كثرة ما وجه إليه من انتقادات، فما بال هؤلاء المستشرقين متمسكين به، مستخفين وراءه، وهم يعلمون تهافته وسقوطه، إن ذلك لكيد الإسلام وهدمه.

وأما قوله لا يمكن تاريخياً وغيره من هذه الألفاظ فتلك عادة "وات" في تضخيم

١ - انظر الاستشراق في السيرة النبوية د. عبد الله محمد النعيم. p. 43. Muhammad at mecca,

ألفاظه التي تحط من الإسلام، وتعظم الضلال في صدور أتباعه حتى يقول قائلهم لا يمكن أن يرى محمد هذا جبريل، ويتبع ذلك سيل من الشتائم للرسول الكريم ﷺ ودينه بالكذب والهوس وكذا، وكذا.. مما لسننا في صدد تسويد الرسالة به.

والرد على التفسير التاريخي والمادي أسهل من كتابته، لأنه كما ذكرنا انتقائي، ف"وات" نفسه هو الذي جعل اللاوعي المسيحي إلهي، واللاوعي الإسلامي إنساني بدون أي دليل؛ لأن الإنسان واحد، "وات" هو نفسه ذلك الشخص الذي جعل رؤية جبريل تاريخياً غير ممكنة، ورؤية روح القدس وهو جبريل من السيد المسيح ﷺ ثابتة يؤمن بها ويؤيدها، مع أن التاريخ واحد ينبغي أن يرد الاثنين لأنه تاريخ أو يقبل الاثنين، فأى تناقض أعظم من هذا؟ وأي استغفال واستخفاف بالعقل يمكن أن يكون مثل هذا؟

ثم يا سيد "وات" إن رؤية جبريل يمكن أن تكون قد حدثت، ويمكن ألا تكون قد حدثت فما الذي رجح عندك عدم الوقوع، ما الدليل؟ أي دليل كان يؤيد احتمالية عدم الوقوع، فضلاً عن عدم الإمكانية التي تدعي القطع بها، قاطعاً طريق النقاش فيها كأنك حزت الحق الذي لا مرية فيه، والذي يجب أن يقبله الكون كافة؟

وعلى أية حال فإن نقد هذا الكلام ورده وتفنيده وإلقائه في المكان الذي يستحق موجود في كلام "وات" نفسه، ولكن لأنه متناقض، يدافع عن تناقضه فكأنه نسي ما كتبت يده.

حيث يقول: "على المؤرخ أن يعترف بصدق محمد المطلق بأن الوحي كان يأتيه من الخارج...".

وكرر في أكثر من موضع صدق محمد وإخلاصه، وإن عاد على كلام نفسه بالنقض والتكذيب أي لنفسه.

ونقول له قد آمننا بصدق محمد كما أمرتنا، بغض النظر عن إيمانك أنت فكان صدقه إذًا المُقرَّب به مرجحًا قويًا لإثبات رؤية جبريل، لأنه لا يمكن أن نقول له أنت صادق ثم نقول له أنت كاذب، هذا ليس علمًا ولا بحثًا ولا شيئًا إنما هو للهزل وتضييع الوقت والاستخفاف والحمق أقرب، ومثل ذلك لا ينبغي للعاقل أن يخاطبه فضلاً عن أن يباحثه ويناقشه الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق.

الرد التالي: وهو الرد التاريخي على "وات" كما نسميه نحن، وهو من وجهين:

الوجه الأول: القرآن الكريم فقد أثبت الوحي برؤية جبريل، والقرآن قاطع بالنسبة إلى الرسول ﷺ، وقد قال في الرؤية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣٠﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [النجم: ١٣٠] وقد وقف "وات" عند سورة النجم، وقصة الغرائق وقفة طويلة بيدي ويعيد، ووقفنا معه إن شاء الله في حينها.

الوجه الثاني: وهو الروايات الصحيحة المتواترة في رؤية جبريل ﷺ من يوم أن نزل عليه ﷺ بالرسالة، إلى أن انتقل إلى الله تعالى، وهذا التواتر يفيد العلم اليقيني الذي لا مدفع له، ولا يمكن رده باعتراف الموافق والمخالف، ليس كعدم الإمكانية التي لا تستند إلى أي برهان عند "وات" ^(١)، وبعد ذلك يتضح من هذه الردود السريعة المختصرة شيء من موقف "وات" في كتابته عن الإسلام ونبيه، وتتجلى كذلك منهجيته التي تتسم بالعلم إلا فيما يتعلق بالرسول ودينه حيث يمحي تمامًا كل ما له صلة بالبحث العلمي وقواعده، وينقلب "وات" شيئًا آخر لا يمت للعقل بأدنى علاقة ليس ذلك مبالغة، إن الكاتب المنصف ليرى في كل صفحة كتبها عن الإسلام ما يحتاج إلى نقد، حيث يفغر المرء فاه متعجبًا لهذا "وات"، أهذا عقل، أهذا علم، إنه كم عجيب من الركام.

1 - تعليق "وات" على ارهاصات النبوة نذكرها في الجزء الثاني شق الصدر والغمامة والراهب بحيرا وغيرها إن شاء الله تعالى.

المبحث الرابع

مراتب الدعوة

جاء هذا الوحي ليكون أساساً للرسالة من الله تعالى، وبالتالي كان مرشداً للنبي ﷺ بمراحل دعوته، وهى المراحل التى ينبغى ذكرها لنعلم الأطوار التى مرت بها الدعوة، وكذلك شمول وعالمية هذه الدعوة، مما يؤكد ارتباطها الوثيق بالسماء، وبالوحي الإلهى للنبي المختار لها ﷺ، وأن الرسول ﷺ لم يكن له فى أمر ترتيبها شئ.

يقول الإمام ابن القيم^(١) ملخصاً:

فللدعوة خمس مراتب:

الأولى: النبوة.

الثانية: إنذار عشيرته الأقربين.

الثالثة: إنذار قومه.

الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله، وهم العرب قاطبة.

الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

1 - زاد المعاد (١/ ٨٦)، طبعه الرسالة.

مراحل الدعوة خلال حياة الرسول ﷺ:

ذكر الدكتور البوطي^(١) - وتبعه جمع من كُتَّابِ السيرة اعتماداً على فهمهم لكلام ابن اسحاق^(٢) - أن مراحل الدعوة في حياة النبي ﷺ أربع مراحل:

المرحلة الأولى: الدعوة سرا واستمرت ثلاث سنين.

المرحلة الثانية: الدعوة جهراً، والكف عن القتال. واستمرت إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهراً مع قتال المبتدئين بالقتال واستمرت إلى صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: الدعوة جهراً، مع قتال من يقف في سبيل سير الدعوة^(٣).

ولابد من وقفة مع الدعوة قبل النظر في تلك المراحل، فيما تدعو إليه، ووسائلها، وما ينبغي أن يتسلح به الدعاة إلى الله تعالى ليحققوا دعوتهم وينجحوا فيها، وذلك ما أدته الآيات الأولى النازلة من الله تعالى إلى رسوله ﷺ في سورة المزمل والمدثر وغيرهما مما نشير إليه لأنه منهج هذه الدراسة.

ونشير في هذا السياق إلى سورتي المزمل والمدثر، فإن قلنا بقول جمهور المفسرين إن المزمل نزلت قبل المدثر، فيكون فيها الأمر بالتهيؤ وإعداد النفس لتحمل أعباء الرسالة حيث بينت وسائل ذلك وطرقه، ونبدأ بما بدأت به السورة حيث يقول المولى سبحانه:

1 - البوطي، فقه السيرة، (٧٦).

2 - ابن هشام، السيرة النبوية (١/١٦٧).

3 - ذهب محمد عزة دروزة إلى أن الدعوة بدأت علنية وبقوة خلافا لما روى من أنها بدأت سرية (محمد عزة - سيرة الرسول) (١/١٦٢) قد دلل على ذلك بدراسته القرآنية للسيرة، ويذهب الباحث إلى هذا الرأي وإن كان هناك توفيقاً بينهما فليس إلا أمر النبي ﷺ لمن آمن به أن يخفي إيمانه خشية أن تفتنه قريش في دينه، وكان يدعو ﷺ مستخدماً الحيلة والحذر في خطواته.

﴿يَتَأْتِيَ الْمُزْمِلُ ﴿١﴾ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ .

وننظر في تحليل هذه الآيات وأول ما يصادفنا نداء النبي بـ ﴿يَتَأْتِيَ الْمُزْمِلُ ﴿١﴾﴾ نداء تल्पف وترفق ومثله قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾﴾ [المدثر: ١].

وهذا التزمّل الذي أشارت إليه الآية قال الزهري وجمهور المفسرين: إنه التزمّل الذي جرى في قول النبي ﷺ «زَمُّلُونِي زَمُّلُونِي» حين نزل من غار حراء بعد أن نزل عليه. ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] الآيات كما في حديث عروة عن عائشة في كتاب بدء الوحي من «صحيح البخاري» وإن لم يذكر في ذلك الحديث نزول هذه السورة حينئذٍ، وعليه فهو حقيقة.

ومحملها على أن التزمّل حقيقة، وقال عكرمة^(١): معناه زُمَّلْتَ هذا الأمر فقم به، يريد أمر النبوة فيكون قوله: ﴿أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾﴾ مع قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٢﴾﴾ [المزمل: ٧] تحريضاً على استفراغ جهده في القيام بأمر التبليغ في جميع الأزمان من ليل ونهار إلا قليلاً من الليل وهو ما يضطر إليه من الهجوع فيه. ومحمل التزمّل عنده على المجاز.

فإذا كانت سورة المزمل قد أنزلت قبل سورة المدثر كان ذلك دالاً على أن الله تعالى بعد أن ابتداء رسوله بالوحي بصدر سورة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: ١] ثم أنزل عليه سورة القلم لدحض مقالة المشركين فيه التي دبرها الوليد بن المغيرة^(٢)، أن يقولوا: إنه ساحر.

1 - ابن كثير، تفسير القرآن (٤ / ٤٣٤).

2 - انظر ابن هشام، السيرة النبوية (١٧٢-١٧٣).

أنزل عليه التلطف به على تزملة بثيابه لما اعتراه من الحزن من قول المشركين فأمره الله بأن يدفع ذلك عنه بقيام الليل، ثم فتر الوحي فلما رأى الملك الذي أرسل إليه بحراء تدثر من شدة وقع تلك الرؤية فأنزل عليه ﴿يَتَأْتِيَ الْمَدْيِرُ﴾.

فنداء النبي بوصف المزمّل باعتبار حالته وقت ندائه وليس المزمّل معدوداً من أسماء النبي ﷺ قال السهيلي: ولم يعرف به وذهب بعض الناس إلى عدّه من أسمائه.

﴿وَاللَّيْلِ﴾: زمن الظلمة من بعد العشاء إلى الفجر.

وأمر الرسول بقيام الليل أمر إيجاب وهو خاص به لأن الخطاب موجه إليه وحده مثل السور التي سبقت نزول هذه السورة، وأما قيام الليل للمسلمين فهم اقتدوا فيه بالرسول صلى الله عليه وسلم كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠] الآيات ولعل حكمة هذا القيام الذي فرض على الرسول ﷺ في صدر رسالته هو أن تزداد به سريرته زكاء يقوي استعداده لتلقي الوحي حتى لا يخرجه الوحي^(١) كما ضغطه عند نزوله كما ورد في حديث البخاري:

« فعظني حتى بلغ مني الجهد » ثم قال: ﴿أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] الحديث، ويدل لهذه الحكمة قوله تعالى عقبه: ﴿إِنَّا سُلِّقْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

وقد كان النبي ﷺ يتحنث في غار حراء قبيل بعثته بإلهام من الله تعالى، فالذي ألهمه ذلك قبل أن يوحي إليه يجدر بأن يأمره به بعد أن أوحى إليه فلا يبقى فترة من الزمن غير متعبد لعبادة، وهو قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

وقد استمر وجوب قيام الليل على رسول ﷺ بعد فرض الصلوات الخمس تعظيماً

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩ / ٢٥٨).

لشأنه بكثرة الإقبال على مناجاة ربه في وقت فراغه من تبليغ الوحي وتدبير شؤون المسلمين وهو وقت الليل فكان هذا حكماً خاصاً بالنبي ﷺ وقد ذكره الفقهاء في باب خصائص النبي ﷺ ولم يكن واجباً على غيره ولم تفرض على المسلمين صلاة قبل الصلوات الخمس^(١).

وقال ﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ﴾ وهو عود إلى الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل ولذلك لم يقيد ﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ﴾ بمثل ما قيد به ﴿أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ﴾ لتكون الزيادة على النصف متسعة، وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بالعزيمة فقام حتى تورمت قدماه وقيل له في ذلك: «إن الله غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٢).

والقول الثقيل هو القرآن وإلقاؤه عليه: إبلاغه له بطريق الوحي بواسطة الملك.

والثقل الموصوف به القول ثقل مجازي لا محالة، مستعار لصعوبة حفظه لاشتماله على معان ليست من معتاد ما يجول في مدارك قومه فيكون حفظ ذلك القول عسيراً على الرسول الأُمِّي تنوء الطاقة عن تلقيه.

وأشعر قوله: ﴿إِنَّا سَأَلْنَاكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أن ثقله متعلق ابتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم لقوله قبله: ﴿إِنَّا سَأَلْنَاكَ عَلَيْكَ﴾ وهو ثقل مجازي في جميع اعتباراته وهو ثقل صعب تلقيه ممن أنزل عليه. قال ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربّد له جلده» (أي تغير بمثل القشعريرة) وقالت عائشة: «رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينَهُ لَيَرْفُضُ عِرْقًا»^(٣).

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/٢٥٨).

2 - البخاري، باب قيام النبي ﷺ (٤/٢٩٢).

3 - البخاري، باب بدء الوحي (١/٤).

ويستعار ثقل القول لاشتغاله على معان وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر وذلك بكمال هديه ووفرة معانيه . وحسبك أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإحاطة به فكم غاصت فيه أفهام العلماء من فقهاء ومتكلمين وبلغاء ولغويين وحكماء فشابه الشيء الثقيل في أنه لا يقوى الواحد على الاستقلال بمعانيه.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ ..

والمعنى: أن في قيام الليل تزكية وتصفية لسرك وارتقاء بك إلى المراقي الملكية.

والبوطاء: الوفاق والملاءمة، قال تعالى: ﴿ لِيُؤَاطِعُوا عِبَادَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٣٧]. والمعنى: أن صلاة الليل أوفق بالمصلي بين اللسان والقلب، أي بين النطق بالألفاظ وتفهم معانيها للهدوء الذي يحصل في الليل وانقطاع الشواغل وبحاصل هذا فسر مجاهد^(١).

والأقوم: الأفضل في التقوي الذي هو عدم الاعوجاج والالتواء واستعير ﴿ وَأَقْوَمُ ﴾ للأفضل الأنفع.

فالمعنى: أن صلاة الليل أعون على تذكر القرآن والسلامة من نسيان بعض الآيات، وأعون على المزيد من التدبر^(٢).

﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ ..

يفيد تأكيداً للمحافظة على قيام الليل لأن النهار لا يغني عنه فيتحصل من المعنى: قم الليل لأن قيامه أشد وقعاً وأرسخ قولاً، لأن النهار زمن فيه شغل عظيم لا يترك لك خلوة بنفسك. وشغل النبي ﷺ في النهار بالدعوة إلى الله وإبلاغ القرآن وتعليم الدين

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/٢٦٣).

2 - ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/٢٦٣).

ومحاجة المشركين وافتقار المؤمنين المستضعفين، فعبر عن جميع ذلك بالسبح الطويل، وفيه إرشاد إلى أن النهار ظرف واسع لإيقاع ما عسى أن يكلفه قيام الليل من فتور بالنهار لينام بعض النهار وليقوم بمهامه فيه^(١).

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في النهار من أول البعثة قبل فرض الصلوات الخمس كما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ [العلق: ٩]، وقد تقدم في سورة الجن أن استماعهم القرآن كان في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه في نخلة في طريقهم إلى عكاظ. ويظهر أن يكون كل هذا مقصوداً لأنه مما تسمح به دلالة كلمة ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ وهي من بليغ الإيجاز^(٢).

انقطاع مجازي، أي تفرغ البال والفكر إلى ما يرضي الله، فكأنه انقطع عن الناس وانحاز إلى جانب الله فعدي بـ ﴿إِلَى﴾ الدالة على الانتهاء، قال امرؤ القيس:

والتبتيل: مصدر بتل المشدد الذي هو فعل متعد مثل التّقطيع.

المراد بالانقطاع المأمور به انقطاع خاص وهو الانقطاع عن الأعمال التي تمنعه من قيام الليل ومهام النهار في نشر الدعوة ومحاجة المشركين ولذلك قيل ﴿وَتَبَّتْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله فكل عمل يقوم به النبي ﷺ من أعمال الحياة فهو لدين الله فإن طعامه وشرابه ونومه وشؤونه للاستعانة على نشر دين الله. وكذلك منعشات الروح البريئة من الإثم مثل الطيب، وتزوج النساء، والأنس إلى أهله وأبنائه وذويه، وقد قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءَ وَالطِّيبَ»^(٣). وهو حال مأمور به المؤمنون القائمون بأمر الدعوة التي ينبغي الاتصاف بها.

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/٢٦٣ - ٢٦٤).

2 - ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/٢٦٤).

3 - ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/٢٦٥ - ٢٦٦).

وليس هو التبتل المفضي إلى الرهبانية وهو الإعراض عن النساء وعن تدبير أمور الحياة لأن ذلك لا يلاقي صفة الرسالة.

ومن أكبر التبتل إلى الله الانقطاع عن الإشراف، وهو معنى الحنيفية، وهو التعلق بالله وحده في كل أموره - ومن معاني التبتل ذلك الاعتكاف على الله تعالى، والخلوة به تزوداً بزيادة جديد يصفى النفس ويقويها على القيام بمهمات الدعوة.

ولذلك عقب قوله: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَتَبَّلًا ﴾ بقوله: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

وخلاصة المعنى: أن النبي ﷺ مأمور أن لا تخلو أوقاته عن إقبال على عبادة الله ومراقبته والانقطاع للدعوة لدين الحق، وإذ قد كان النبي ﷺ من قبل غير غافل عن هذا الانقطاع بإرشاد من الله كما ألهمه التحنث في غار حراء ثم بما أفاضه عليه من الوحي والرسالة. فالأمر في قوله: ﴿ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ ﴾ مراد به الدوام على ذلك فإنه قد كان يذكر الله فيما قبل فإن في سورة القلم (٥١) (وقد نزلت قبل المزل) ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ على أن القرآن الذي أنزل أولاً أكثره إرشاد للنبي صلى الله عليه وسلم إلى طرائق دعوة الرسالة فلذلك كان غالب ما في هذه السور الأولى منه مقتصرأ على سنن التكليف الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم، ويتبعه في ذلك الداعون بدعوته المتمسكون بسنته ﷺ.

وعُقب وصفُ الله تعالى بـ ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ بالإخبار عنه أو بوصفه بأنه لا إله إلا هو لأن تفرده بالإلهية بمنزلة النتيجة لرؤية المشرق والمغرب فلما كانت ربوبيته للعالم لا ينافي فيها المشركون أعقب بما يقتضي إبطال دعوى المشركين تعدد الآلهة بقوله: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تعريضاً بهم في أثناء الكلام وإن كان الكلام مسوقاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم

ولذلك فرع عليه قوله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝١٠﴾ وإذ كان الأمر باتخاذ وكيلاً مسبباً عن كونه لا إله إلا هو كان ذلك في قوة النهي عن اتخاذ وكيل غيره، إذ ليس غيره بأهل لاتخاذ وكيلاً.

والوكيل: الذي يوكل إليه الأمور، أي يُفوض إلى تصرفه، ومن أهم التفويض أمر الانتصار لمن توكل عليه، فإن النبي ﷺ لما بلغه قول المشركين فيه اعتم لذلك، وقد روي أن ذلك سبب تزملة من مؤجدة الحزن فأمره الله بأن لا يعتمد إلا عليه، وهذا تكفل بالنصر ولذلك عقب بقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠].

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١١﴾ ..

وهو كذلك من عظيم زاد الدعوة، التوكل في النصر على الله سبحانه، وهو الشأن للدعاة في كل زمان ومكان.

عطف على قوله: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝١٠﴾ [المزمل: ٩]، والمناسبة أن الصبر على الأذى يستعان عليه بالتوكل على الله.

ومن هذا المعنى قوله: ﴿فَصَبِّرْ جَمِيلًا﴾ [يوسف: ١٨]، وقوله: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [سورة المعارج: ٥].

فالهجر الجميل هو الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر، وهو ترك المخالطة فلا يقرنها بجفاء آخر أو أذى، ولما كان الهجر ينشأ عن بغض المهجور، أو كراهية أعماله كان معروضاً لأن يعتلق به أذى من سب أو ضرب أو نحو ذلك. فأمر الله رسوله بهجر المشركين هجراً جميلاً، أي أن يهجرهم ولا يزيد على هجرهم سباً أو انتقاماً.

وهذا الهجر: هو إمساك النبي عن مكافاتهم بمثل ما يقولونه مما أشار إليه قوله تعالى: واصبر على ما يقولون.

وليس منسحباً على الدعوة للدين فإنها مستمرة ولكنها تبليغ عن الله تعالى فلا ينسب إلى النبي^(ص).

وقد انتزع فخر الدين من هذه الآية منزعاً خُلُقياً بأن الله جمع ما يحتاج إليه الإنسان في مخالطة الناس في هاتين الكلمتين لأن المرء إما أن يكون مخالطاً فلا بد له من الصبر على أذاهم وإيحاশهم لأنه إن أطمع نفسه بالراحة معهم لم يجدها مستمرة فيقع في الغموم إن لم يرض نفسه بالصبر على أذاهم، وإن ترك المخالطة فذلك هو الهجر الجميل^(١).

وفي الآيات الرد القوي على " وات " في أنه وحى من الله إذ من يقول لنفسه ويخزن ويستدعى ذلك من الأمر بقيام الليل وترتيل القرآن أين الوعي أو اللاوعي أو الليبدو في ذلك من أين سمع ذلك من قبل ﷺ، وكيف يخبر به نفسه وكيف يقول لها ذلك؟! وكذلك الهجر الجميل والأمر بالتوكل وأن التوكل مع الصبر من أسباب النصر.

وإذ كنا قد بينا في سورة المزمل زاد الدعوة والصفات التي على الرسول ﷺ ودعائه من بعده أن يتصفوا بها والتعبد القلبي والبدني اللازم لتحمل تبعات الدعوة ومسؤولياتها، فإن سورة المدثر تبين هدف الدعوة وحقيقتها فهو التوحيد لله وطريقة رفع ذلك، وتجنب عبادة غيره ونبذها والتبرؤ منها... مع التركيز على صفات جديدة يلزم التحلى بها أو التخلي عنها وهامى ذى الآيات الكرييات:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ ۝ ..

نودى النبي ﷺ بوصفه في حالة خاصة تلبس بها حين نزول السورة. وهي أنه لما رأى الملك بين السماء والأرض فرق من رؤيته فرجع إلى خديجة فقال: دثروني دثروني، أو قال:

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩٤/٢٩)

2 - الفخر الرازى مفاتيح الغيب (١٥/٨٠٨-٨٠٩).

زملوني، أو قال: زملوني فذرني، على اختلاف الروايات، والجمع بينها ظاهر فذرته فنزلت: ﴿يَتَأْتِيَ الْمُدَّثِرُ﴾.

وقد مضى عند قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الْمُرْمِلُ﴾ [المزمل: ١] ما في هذا النداء من التكرمة والتلطف.

والقيام المأمور به ليس مستعملاً في حقيقته في الغالب وإنما هو مستعمل في الأمر بالمبادرة والإقبال والتهمم بالإندار مجازاً أو كناية.

وأفادت فاء ﴿فَأَنْذِرْ﴾ تعقيب إفادة التحفز والشروع بالأمر بإيقاع الإندار^(١).

ف فعل ﴿قُمْ﴾ منزل منزلة اللازم، وتفرع ﴿فَأَنْذِرْ﴾ عليه بين المراد من الأمر بالقيام.

والمعنى: يا أيها المدثر من الرعب لرؤية ملك الوحي لا تخف وأقبل على الإندار.

والظاهر: أن هذه الآية أول ما نزل في الأمر بالدعوة لأن سورة العلق لم تتضمن أمراً بالدعوة، وصدر سورة المزمل تضمن أنه مسبوق بالدعوة لقوله فيه ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ﴾ [المزمل: ١٥]، وقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ﴾ [المزمل: ١١]. وإنما كان تكذيبهم بعد أن أبلغهم أنه رسول من الله إليهم وابتدىء بالأمر بالإندار لأن الإندار يجمع معاني التحذير من فعل شيء لا يليق وعواقبه فالإندار حقيق بالتقديم قبل الأمر بمحامد الفعال لأن التخلية مقدمة على التحلية ودرء المفسد مقدم على جلب المصالح، ولأن غالب أحوال الناس يومئذ محتاجة إلى الإندار والتحذير.

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ﴾ ..

1 - المصدر السابق.

فالتقدير: مهما يكن شيء فكبر ربك.

والمعنى: أن لا يفتر عن الإعلان بتعظيم الله وتوحيده في كل زمان وكل حال وهذا من الإيجاز.

فمعنى ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ ﴿١﴾ صِف رَبِّكَ بصفات التعظيم ربك أنت الاله الواحد،الحق، وهذا يشمل تنزيهه عن النقائص فيشمل توحيده بالإلهية وتنزيهه عن الولد، ويشمل وصفه بصفات الكمال كلها. وتعريض بأن الآلهة لا تستحق الألوهية بل هي مخلوقات زائلة.

ومعنى ﴿فَكَبِّرْ﴾: كبره في اعتقادك: وكبره بقولك تسيحاً وتعليماً. ويشمل هذا المعنى أن يقول: «الله أكبر» لأنه إذا قال هذه الكلمة أفاد وصف الله بأنه أكبر من كل كبير، أي أجلّ وأنزّه من كل جليل، وهذا تنبيه على أن الدعوة إلى الله ومعرفة تنزيهه مقدمة على سائر أنواع الدعوات، ولذلك جعلت هذه الكلمة افتتاحاً للصلاة.

وأحسب أن في ذكر التكبير إيحاء إلى شرع الصلاة التي أولها التكبير وخاصة اقترانه بقوله: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ﴿٢﴾ [المدثر: ٤] فإنه إيحاء إلى شرع الطهارة، فلعل ذلك إعداد لشرع الصلاة^(١).

﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ..

هو في النظم مثل نظم ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ ﴿٣﴾ [المدثر: ٣] .. أي لا تترك تطهير ثيابك.

وللثياب إطلاق صريح وهو ما يلبسه اللابس، وإطلاق كنائي فيكنى بالثياب عن ذات صاحبها، كقول عنتره:

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصادر أخرى أبو السعود، ارشاد العقل اسليم (٥ / ٧٨٧)، الفخر الرازي، التفسير الكبير (١٥ / ٨٢٥).

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم^(١)

وللتطهير إطلاق حقيقي وهو التنظيف وإزالة النجاسات وإطلاق مجازي وهو التزكية قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

والمعنيان صالحان في الآية فتحمل عليهما معاً فتحصل أربعة معان لأنه مأمور بالطهارة الحقيقية لثيابه إبطالاً لما كان عليه أهل الجاهلية من عدم الاكتراث بذلك. وقد وردت أحاديث في ذلك يقوي بعضها بعضاً وأقواها ما رواه الترمذي «إن الله نظيف يحب النظافة». وقال: هو غريب^(٢).

والطهارة لجسده بالأولى.

﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ..

﴿ وَالرُّجْزَ ﴾: يقال بكسر الراء وضمها وهما لغتان فيه والمعنى واحد عند جمهور أهل اللغة. وقال أبو العالية والربيع والكسائي: الرّجز بالكسر العذاب والنجاسة والمعصية، وبالضم الوثن^(٣). ويحمل الرجز هنا على ما يشمل الأوثان وغيرها من أكل الميتة والدم.

وتقديم ﴿ وَالرُّجْزَ ﴾ على فعل ﴿ فَاهْجُرْ ﴾ للاهتمام في مهيع الأمر بتركه.

والهجر: ترك المخالطة وعدم الاقتراب من الشيء. والهجر هنا كناية عن ترك التلبس بالأحوال الخاصة بأنواع الرجز لكل نوع بما يناسبه في عرف الناس.

1 - عنبرة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي، من أشهر فرسان العرب في الجاهلية، وأحسنهم شيمَةً وأعزهم نفساً. والبيت من معلقته.

2 - ابن عاشور التحرير والتنوير، أبا السعود، ارشاد العقل السليم (٥/٧٨٧).

3 - أبو حبان البحر المتوسط، ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/٢٩٨).

والأمر بهجر الرجز يستلزم أن لا يعبد الأصنام وأن ينفي عنها الإلهية.

ومناسبة عطف ﴿وَلَا تَمُنُّنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾^(١) على الأمر بهجر الرجز أن المنّ في العطفية كثير من خلق أهل الشرك فلما أمره الله بهجر الرجز نهاه عن أخلاق أهل الرجز نهياً يقتضي الأمر بالصدقة والإكثار منها بطريق الكناية فكأنه قال: وتصدق وأكثر من الصدقة ولا تمنن، أي لا تعدّ ما أعطيته كثيراً فتمسك عن الازدياد فيه، أو تتطرق إليك ندامة على ما أعطيت.

والسين والتاء في قوله: ﴿تَسْتَكْبِرُ﴾ للعدّ، أي بعد ما أعطيته كثيراً.

وهذا من بديع التأكيد لحصول المأمور به جعلت الصدقة كالحاصلة، أي لأنها من خلقه ﷺ إذ كان أجود الناس وقد عرف بذلك من قبل رسالته لأن الله هياه لمكارم الأخلاق فقد قالت له خديجة في حديث بدء الوحي «إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم». ففي هذه الآية إيماء إلى التصدق، كما كان فيها إيماء إلى الصلاة، ومن عادة القرآن الجمع بين الصلاة والزكاة.

والمنّ: تذكير المنعم المنعم عليه بإنعامه.

والاستكثار: عدّ الشيء كثيراً، أي لا تستعظم ما تعطيه.

وهذا النهي يفيد تعميم كل استكثار كيفما كان ما يعطيه من الكثرة^(٢).

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾^(٣) .. تثبت للنبي ﷺ على تحمل ما يلقيه من أذى المشركين وعلى مشاقّ الدعوة.

والصبر: ثبات النفس وتحملها المشاق والآلام ونحوها. ومصدر الصبر وما يشتق منه يتضمن معنى التحمّل للشيء الشاقّ.

1 - انظر ابن عاشور، وانظر أبا السعود، ارشاد العقل السليم، وغيرها

ويعدّى فعل الصبر إلى اسم الذي يتحمّله الصابر بحرف ﴿عَلَى﴾، يقال: صبر على الأذى. ويتضمن معنى الخضوع للشيء الشاق فيعدى إلى اسم ما يتحمّله الصابر باللام. ومناسبة المقام ترجح إحدى التعديتين، فلا يقال: اصبر على الله، ويقال: اصبر على حكم الله، أو لحكم الله. فيجوز أن تكون اللام في قوله ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ لتعدية فعل الصبر على تقدير مضاف، أي اصبر لأمره وتكاليف وحيه كما قال: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة الطور: ٤٨] وقوله: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان: ٢٤] فيناسب نداءه بـ ﴿يَتَأْتِيَ الْمُنْذِرَ﴾ [المدثر: ١] لأنه تدثر من شدة وقع رؤية الملك، وترك ذكر المضاف لتذهب النفس إلى كل ما هو من شأن المضاف إليه مما يتعلق بالمخاطب.

وتقديم ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ على ﴿فَأَصْبِرْ﴾ للاهتمام بالأمر التي يصبر لأجلها مع الرعاية على الفاصلة، وجعل بعضهم اللام في ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ لام التعليل، أي اصبر على أذاهم لأجله، فيكون في معنى: إنه يصبر توكلًا على أن الله يتولى جزاءهم، وهذا مبني على أن سبب نزول السورة ما لحق النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين.

وفي التعبير عن الله بوصف ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ إيباء إلى أن هذا الصبر برّ بالمولى وطاعة له.

فهذه ست وصايا أوصى الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في مبدأ رسالته وهي من جوامع القرآن أراد الله بها تزكية رسوله وجعلها قدوة لأُمَّته. تبين بواعث الدعوة وأهدافها وطرائق القبول لها، والزاد الذي يُقَوِّى على تحملها، وأسباب النصر فيها وكل ذلك مما يراد من المؤمنين – المتقين – اليوم ليعودوا لرفع راية الاسلام ونشر دعوته، وقد رأينا في ذلك الحكمة، والتعامل الحسن والصبر، والعبادة.

وتحمل في طياتها كثير الرد على "وات" وأمثاله في بواعث الدعوة التي اخترعها ونسج حولها ما لم يأت به كتاب، أو يتفوه به كاتب.

وفي توضيح تلك المعاني ما يغنى عن إيراد الردود.

مما سبق من شرح الآيات الأولى المنزلة على الرسول ﷺ تم تأكيدها بآيات كثيرة نزلت لتدل دلالة واضحة على مضمون الدعوة وأسبابها، وبواعثها، وما ينبغي على حامل هذه الدعوة أن يكون عليه من أخلاق وصفات، ثم على جراء هذه الدعوة وأن ليس للداعى أو عليه إلا بذل جهده فيها فقط ليتحقق له أسباب نجاة في الدنيا والآخرة.

المبحث الخامس

بواعث الدعوة

ونأتى بعد ذلك لمناقشة سريعة مع "وات" وان كان يفضل أن نطول بسبب آرائه في الدعوة وبواعثها، ولكن الاختصار دعانا لأن نرد على ما يهم فقط.

أول ذلك: بواعث الدعوة. ونلخص آراء "وات" في بواعث الدعوة الاسلامية فيما يلي:

١- أن الدين الجديد جاء ردا على مرض العصر حيث تطور العرب من حياة البداوة إلى اقتصاد حضارى، وقد ذكر ذلك في كتابة "محمد فى المدينة" ومعنى ذلك أن باعث الدعوة اقتصادى مادى بحت^(١).

٢- ذكر فى كتابة " محمد فى مكة" ما يناقض ذلك فىقول ما ملخصه: إنه ولو كان محمد على علم واسع بالأمراض الاقتصادية... فإنه كان يعد الناحية الدينية أساسية ولهذا حصر اهتمامه بهذه الناحية^(٢).

٣- ذكر أن الجانب الدينى صحيح فى حركة محمد التى تزعمها ولكنه وثيق الصلة بالجوانب الأخرى^(٣) أى السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

1 - "وات"، محمد فى المدينة (٢٦١) الطبعة الانجليزية

2 - "وات"، محمد فى مكة (٩٩) الطبعة الانجليزية

3 - Ibid p. ٣٧

وقبل مناقشة "وات" فيما سبق نذكر بأنه بنى كتبه وكلامه على أن الدعوة الإسلامية لا علاقة لها بالوحي، ولا تعلق لها بالسما، وهذا ما يدل على نكل ما أوتى حتى يستطيع بنو دينه وجلدته أن يكونوا الرأى اللاهوتى فى سيدنا محمد ﷺ ودينه، إذ هو دافعه الذى نص عليه فى بداية كتابه كما نوهنا أكثر من مرة لىبنى عندهم الخلفية الصلبة فى رد الاسلام، وذلك الذى حدث واقعا، وبناء على ذلك رأينا اضطرابه فى بواعث الدعوة، إذ لو كانت الإلهية عنده كما هى فى الحقيقة لم نحتج منه أو من غيره إلى ذكر بواعثها، لأنها تكون التنزيل الإلهى الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فى كل ما يتعلق بها.

ولتوضيح الرد على كلام "وات" نقول:

أولا: إذا كان الباعث ماديا جاء ردا على مرض العصر من انتقال العرب من حياة البداوة إلى الاقتصاد الحضري، فما أبعد هذا الكلام وأجدره بالإهمال لعدة أمور:

الأمر الأول: لأن العرب لم ينتقلوا إلى الحياة الحضرية متطورين كما يزعم "وات" من الحياة البداوية حين جاءهم رسول الله ﷺ بالرسالة، بل ما زالوا إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى والبداوة هى الغالبة عليهم.

الأمر الثانى: ما هى آثار أو مظاهر أو مكونات وأفكار هذا الباعث المادى الذى دعاهم إليه، وما الذى ظهر عليهم وغلب على تصرفاتهم من اتباعهم لهذا الباعث، لنقول تلك اراء ومبادئ هذا الباعث قد ظهرت عليهم، بل على واحد منهم. هذا الكلام لا أصل له ولا حقيقة، ولا له ذرة قد تحققت فى ذوات الأشخاص أو على الأرض آنئذ.

الأمر الثالث: ما هى أعراض مرض العصر الذى يلصقه "وات" فى القرن العشرين بالقرن السابع ويسقطه عليه إسقاطا، إنه لم يعرف أهل ذلك القرن، ومن بعدهم هذا اللفظ أصلا فضلا عما يعنيه، فكيف نصمهم به ونفرضه عليهم، ثم نحاكمهم باتهامهم به. حيث

لم يذكره مؤرخ واحد منهم إلى يومنا هذا فيما وقع تحت أيدينا من مراجع ومصادر.

ثانياً: إذا كان الباعث مادياً فأين ذلك في القرآن الكريم الذي دعا إليه رسول الله ﷺ.

وأين ذلك في سيرته المشرفة وسنته المطهرة، ثم قد اتفق المفسرون والمحدثون والعلماء كافة على خلاف ذلك الأمر المادي، حيث جاءت الآيات الكريهات به، والأحاديث الشريفة بتحديد النظرة الصحيحة عند النبي ﷺ للعالم المادي لا للبواعث المادية فقط، بكونها معبراً للآخرة وأنها زائلة وأن العمل والسعي يكون لما عند الله إلى آخر ذلك، وقد حقق ذلك ﷺ بالتطبيقات الحية من كونه نبياً عبداً، لا نبياً ملكاً.

ثالثاً: هاجر النبي ﷺ، وهاجر الصحابة المكرمون يتبعون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله، ويؤثرهم أهل المدينة على أنفسهم مع ما بهم من خصاصة هل كل ذلك من الباعث المادي، وقد تركوا أرضهم وديارهم وأموالهم وأزواجهم وأولادهم لله ورسوله؟ إنه من أعجب المصائب التي حلت بالبحث العلمي.

والردود كثيرة على "وات" ومقصودنا الأصلي السيرة.

ثم إن كان العامل الديني وهو كما قرره "وات" خليط من النصرانية واليهودية لا علاقة بالله لتصنع المشروع العربي هو الباعث فما باله يتطور في فكر "وات" ليصبح عاملاً مادياً إذ كيف يلتقيان، ولم يذكر العامل المادي الاقتصادي؟

أما التناقض الثالث وهو إنه ديني جاء لمعالجة الجوانب الاقتصادية..

فنعم على المفهوم الصحيح أن دين الله جاء لتحقيق هداية الناس وأسباب نجاتهم في الدنيا والآخرة وبالتالي لا ينفك أن يكون مصلحاً باتباعهم لتعاليم السماء لكل جوانب حياتهم، واستقامتها على النهج الأرشد في كل ما يخص البشر.

أما باعث الدعوة وما يتعلق بها من جوانبها كافة مجملاً في بعضه مفصلاً في الباقي فهو كما أكدته الآيات الأولى، حيث لم يتركه الله جل وعلا لتقدير أو تحرير أحد وتنظيره، فمنها قوله تعالى: ﴿فَمَنْذَرْنَا قَوْمَكَ ۖ وَرَتَّبْنَا فَكْرَهُ﴾ [المدثر: ٢-٣] الدعوة إلى توحيد الرب سبحانه، وإنذار كل من ذكرنا بذلك، وبقية مضامين الدعوة المحصلة لهذا التوحيد الذي ينبنى عليه سعادة الدنيا والآخرة بداية بقوم النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦] وقوله تعالى: ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٣] وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

وذكر عبد الله النعيم في هذا المقام كلام الإمام ابن كثير حيث يقول: "بعث الله محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، فقد كان العرب ممسكين بدين إبراهيم الخليل، فبدلوه وغيره واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكماً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك كان أهل الكتاب، قد بدلوا كتبهم وحرفوها، فبعث الله محمداً بشرع عظيم شامل كامل فيه الهداية والبيان لكل ما يحتاج إليه الناس من أمر معاشهم ومعادهم، وجمع له تعالى جميع المحاسن، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين والآخرين"^(١) فجاءت الدعوة لتكون للناس كافة حتى قيام الساعة، وبحيث يكون محمد ﷺ خاتماً للنبيين: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]^(٢).

1 - مختصر ابن كثير (٤٧٨/٣).

2 - انظر عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية" (٧٦).

المبحث السادس

عالمية الدعوة

وقبل أن ننتقل عما سلف من نقد لـ"وات" في الدعوة، فلا بد من الإشارة إلى موضوع مهم، وهو من مواضع "وات" والمستشرقين^(١) وهو تجريد دعوة الإسلام من عالميتها، مع أنه أمر كفلق الصبح واضح لكل أعمى أن الإسلام منتشر في المشارق والمغرب من الدنيا، وأن من نشروا الإسلام في أقاصي الأرض من أوروبا وآسيا وغيرها كان كثير منهم غير عرب وهذا الواقع لا يحتاج لأدنى بيان، حتى يشكك في أصله، وأن هؤلاء جميعاً دخلوا في دين لم يأمرهم بذلك، ولم يدعهم إليه.

ونبدأ هنا بذكر الدوافع والبواعث التي جعلت "وات" وغيره يستبعد فكرة عالمية الرسالة الإسلامية.

ويمكن للباحث - وهو في غاية الإنصاف - أن يقول إن الاستشراق بحكم انتهائه للكنيسة وعمله تحت رايتها، أو المؤسسات السياسية المرتبطة للكنيسة في الغالب ليس في استطاعته أن يتقبل فكرة العالمية الإسلامية أو حتى مجرد إثباتها بحثياً فضلاً عن الترويج لها في كتاباته، إذ معنى ذلك أن تحارب الكنيسة نفسها، وتفقد أحد مبررات وجودها، أو المبرر الأقوى (الأوحد) إن صححت الدعوة الإسلامية عند أحد منهم، وفي ذلك نهاية الوجود

١ - كبروكلمان، وفلهاوزن، الأول في تاريخ الشعوب الإسلامية، والثاني في تاريخ الدولة العربية، ترجمة عبد الهادي أبي ريدة (٤-٥)، وانظر عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية" (٧٧-٨٢).

المسيحي، فلا يستطيع المستشرق ذو العقلية والثقافة المسيحية أن يتحدث إذن عن عالمية الإسلام، خاصة وأن هذه الدراسات الاستشراقية هي التي تشكل العقلية الغربية، وتحدد موقفها من الإسلام، يكفي إبراز بعض حقائق الإسلام بعد تشويهها حتى تظل الكنيسة محتفظة برعاياها.^(١)

ونعود فنناقش عالمية الدعوة مع "وات" وأشباهه لأن الحديث عن إقليمية الدعوة تعني إسقاط الطابع الوضعي العلماني عليها، ولذا رأيناها يقرر أن القول بأن الرسول ﷺ دعا الإمبراطور البيزنطي والفارسي وغيرهما للدخول في الإسلام قول خاطئ، لأنه من غير المعقول أن يوجه سياسي حكيم كمحمد مثل هذا النداء، وأن تقارير السفراء الذين أرسلهم مملوءة بالتناقضات.^(٢)

ويواصل "وات" كلامه معترضاً على كتب الرسول ﷺ للملوك يدعوهم إلى الإسلام، زاعماً بواعث أخرى لهذه الرسائل إذا قبل بوجودها فيقول: "وهذا شيء غير معقول إذا كانت الرسائل دعوة للدخول في الإسلام، والاعتراف بمحمد كزعيم ديني، لأنه لا يمكن تصور نجاشي الحبشة وإمبراطور الروم يستجيبان لمثل هذه الدعوة لكن إذا قبلنا بأن الأشخاص المذكورين حملوا فعلاً رسائل من محمد إلى أصحابها، وأنهم استقبلوا استقبالاً حسناً فليس من المستحيل أن يكون محتوى الرسائل قد تبدل نوعاً ما خلال النقل... تسمح لنا هذه الفرضية أن ندعي أنه إذا كان محمد قد ألح إلى معتقداته الدينية، فإن المشكلة الحقيقية كانت سياسية، ربما اقترح عقد محالفة حياد ربما أراد مجرد منع المكين من الحصول على المساعدة الخارجية، لأنه يستبعد من محمد دعوة هؤلاء الحكام الأقوياء للدخول في الإسلام.^(٣)

1- بتصرف من عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية" (٨٢)، مع نقله عن العقيلي، "المستشرقون" (١١٣-١٢٠/١).

2- "وات"، "محمد في المدينة" (١).

(3) Ibidpp4-42 عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية" (٧٨).

نحن مضطرون لاستكمال عرض بقية كلامه الذي يبين بوضوح موقفه لأنه وجه كل ما يمت لعالمية الدعوة من قريب أو بعيد بصلة، نافياً ومؤولاً، ومخترعاً لفرضيات يفسر بها هذا الأمر، فيدعي فيها سنذكر أن دعوة الرسول ﷺ كانت خاصة بقريش، ثم يلزم ما جاء في القرآن مفيداً غير ذلك فيقول: "اعتبر محمد نفسه أول الأمر مرسلًا إلى قومه القرشيين، ثم أخذ شيئاً فشيئاً وبدرجات لا تبدو بوضوح في القرآن يتراءى له هدف أوسع لرسالته، دعا قبل الهجرة بعض أفراد القبائل البدوية إلى الإيمان بالله عدا مفاوضة سكان المدينة، ثم احتلت فكرة الأمة القائمة على أساس ديني مكان الصدارة بحلول الهجرة." (١) ويذكر توسع النبي ﷺ في الدعوة، ولكن يلبسها ثوباً آخر فيقول: "نحن نعتقد بأن محمداً بعد عودته من الطائف أخذ يدعو أفراد القبائل البدوية للدخول في الإسلام، وإن وراء هذا النشاط فكرة غامضة في توحيد العرب جميعاً." (٢)

كلام "وات" السابق، وكلام غيره من المستشرقين في ذات المسألة مليء بالتناقض الصارخ والحشد الهائل من تعمد الخطأ، وكما ذكرنا نعزوه لانتهاه الكنسي، ولتطعيم رعايا الكنيسة بالواقعي من التفكير في الإسلام أو النظرة الموضوعية له، بل لتكوين آراء رفضه ومقت نبيه ﷺ ومحاربه.

ونبدأ في النظر في كلام "وات" من حيث انتهى، لأنه يوافق الترتيب التاريخي للسيرة، ونشير إلى هذه المغالطة أولاً: وهي قوله: "غير أن قول بعض المصادر، وهي ليست أقدم المصادر أنه نظر للإسلام على أنه دين شامل وعام" (٣)

وهذه المغالطة المكشوفة نذكر شيئاً منها في هذا السطر من كلامه لنرى العجب:

(1) "وات"، "محمد في مكة" (١٣٨)، "وات"، "محمد في المدينة" (١٤٣).

(2) "وات"، "محمد في مكة" (١٤١).

(3) "وات"، "محمد في المدينة" (٠).

أولها: فقوله بعض المصادر، ولم يذكر شيئاً منها طبعاً، هذه واحدة أنه على العكس ليس بعض المصادر ذكرت ذلك، بل كل المصادر، إذ لا يمكن لمصدر يدعي الإسلام أن يقول إنه دين غير شامل - ناقص هو - أو غير كامل لكل أحد، وندلل على ذلك بالسؤال، لو قيل لأي أحد من هؤلاء الصحابة المقدمين فضلاً عن أبي بكر رضي الله عنه مثلاً هل الإسلام الذي تدعون إليه دين شامل وعام؟ لا يظن من ساعتها أن يقول لا، بل نعم بغير تردد ولا روية ولا تفكير ولا نظر، وهذا يجزنا إلى:

ثانيها: وهي المغالطة المفضوحة في قوله بأنها ليست أقدم المصادر، فبعد عدم ذكره إياها نعتها بأنها ليست أقدم المصادر وهذا من التشويش والشغب بالباطل على الحق الواضح بادعاءات لا أصل لها، لو سألنا "وات" نفسه دلنا على مصدر من ذلك لما استطاع، فهل ترى مصدر أقدم من أبي بكر والصحابة ومن نقلوا عنهم، ودونوا السنة من ورائهم، كلهم نقلوا أن الإسلام دين عام وشامل.

ثالثها: أن مصدر ذلك كله هو الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمره به ربه، وبما أرسله به إلى الناس ليبلغهم إياه، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "بعثت إلى الناس كافة"^(١) ومصداقاً قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] وسنفضل ذلك بعد قليل إن شاء الله.

نعود إلى "وات" لنكر على كلامه من آخره، فنراه يذكر أن محمداً بعد عودته من الطائف أخذ يدعو أفراد القبائل البدوية للدخول في الإسلام، ويصعب عليه أن يقول إنه مأمور، أو مرسل إليه بدعوة غير قريش وأن الدعوة عامة لكل الناس، بل وجه ذلك بباعث لا علاقة له بالدين، أو بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بواقع الأحداث، وإنما هو اختراع من اختراعات "وات" التي لا تنتهي لتفسير التاريخ بما لا يتفق مع وقائعه وهو أن وراء

(١) البخاري (٤٣٨) من رواية جابر بن عبد الله.

هذا النشاط فكرة غامضة في توحيد العرب جميعًا.

سنوافق "وات" في أن وراء ذلك ليس عالمية الدعوة ولكن ما الغموض في فكرة توحيد العرب جميعًا، وما الذي يمكن أن يكون غامضًا عندما يعرض محمد فكرة توحيد العرب، وما الذي سيثقل على قريش فهمه حينئذ، ولا يمكن إدراكه لخفائه وغموضه، بل لو عرضت هذه الفكرة على قريش - وسنستخدم ألفاظ "وات" - فما المانع أن يرحبوا بها، وتلاقي صدى عندهم في أن يتوحد العرب جميعًا وراء قريش، إنه إذًا تهويل من القول لا معنى تحته، ولا طائل من ورائه، إلا قطع الطريق على محاولة فهم الإسلام من عرب ومن عجم بصراخ ليس غير.

ونلتفت إلى ما بعد هذا الكلام، وهو قوله بأن الدعوة كانت لقريش، وأن محمدًا اعتبر نفسه في أول الأمر مرسل إليهم، وتراءى له بدرجات لا تبدو واضحة في القرآن أن له هدفًا أوسع لرسالته فدعا هذه القبائل البدوية عدا سكان المدينة ومفاوضتهم، ثم احتلت فكرة الأمة على أساس ديني الصدارة قبل الهجرة مباشرة.

وهذا كلام متناقض جدًا ينسف بعضه بعضًا، وأوله ألم تقل يا مستر "وات" أن ليس ثم وحي وأن أجزاء من القرآن سمعها النبي ﷺ واستدعاها بعد ذلك، وأنه اللبيدو، وغير ذلك من تعليم ورقة وقد مات ونحوه مما زعمت وادعيت فأين ذهب ذلك كله؟ حتى تقول إنه في أول الأمر اعتبر نفسه مرسلًا لقريش فمن الذي أرسله، ثم تراءى له في القرآن هدف أوسع لرسالته وبدرجات لا تبدو بوضوح فأنى له وهو الذي يستدعي ذلك أو يقال له ثم يترأى له بغير وضوح كيف وهو الذي قاله ويحفظه وبلغه، ثم يترأى له عدم وضوحه، ثم يتلقى الكفار من قريش وغيرهم هذا الكلام منه ويؤمنون به، لا يجادلون فيه ولا يبارون ولا يترأى لهم مع أنه كان الأولى بهم إذا مبلغهم يترأى له، ويتناقض، ولا

يعلم ما يقول كاملاً واضحاً، يبلغه البلاغ المبين؛ الذي لا إبانة بعده، ولا وضوح مثله، وهو السياسي الحكيم كما تدعي في سياق الموضوع.

كيف انقلب بك الحال إذن في نظرتك للرسالة والوحي والرسول إلى هذا الحد من تهافت البحث وتناقضه وتكذيب اللاحق من قولك للسابق.

ثم تزيدنا إيماناً بما نقول فيك، عندما تملأنا يقيناً بذكرك إن قيام الأمة على أساس ديني كان له مكان الصدارة بحلول الهجرة، فعلى أي أساس كان يدعو القبائل وأفرادها كما زعمت، وبماذا ردوا قوله، وعلى أي شيء بايعه أهل المدينة (يثرب) فهو من أول يوم - كما سنذكر شيئاً عن المسلمين الأوائل - كان يدعوهم للدين لتوحيد الرب لنبد عبادة الأوثان للصلاة والصلة والعفاف وهذا من تكاليف الدين إلى آخره لم يتضح له ما كان يتراءى في القرآن الكريم إلا بحلول الهجرة، ترى لو لم يهاجر، فما عسى أن يكون عليه الموقف؟ وما موقف من آمنوا مبكرين برسالته قبل الهجرة بزمن طويل، ألم يبلغهم بكل وضوح وبيان أن الدعوة عامة شاملة من أول يوم ليدعوا أقوامهم كذلك إليها، وبكل وضوح وثقة.

ثم نورد الآن بعض ما تلاه النبي ﷺ على العالم كافة من آيات الذكر الحكيم وأحاديثه النبوية المشرفة التي تدل على عالمية الدعوة من أول أيامها رداً على ما سبق قبل أن نناقش "وات" في رسائل النبي ﷺ للملوك والحكام يدعوهم إلى الدخول في الإسلام لا لشيء آخر.

يقول المولى جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٧]

[٢٧-٢٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤] وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠] ونقتصر على هذه الآيات إذ هي وافية تمامًا بالغرض والرد على "وات" في ذات الوقت ونلاحظ ذلك فيما يلي:

أولاً: أن هذه الآيات كلها - من سوء طالع "وات" - كلها مكية، وإن مطالعته للقرآن كمصدر أول عنده ليصادف هذه الآيات ويصطدم بمعانيها، وبدلاً من التسليم بما لا مجال في إنكار، ثم بعد ذلك إعمال الفكر والنظر والتحليل فيه إذ به يتجاهل هذه الآيات كلها، أو يؤولها هذه التأويلات المتعسفة المجافية للحقيقة المخالفة للواقع، وبكل سهولة ومن غير غضاضة، وبدون أسف على المنهج العلمي المدعى، وهو يبين في نفس الوقت المنهج الانتقائي لـ"وات"^(١)، حيث يتجاهل الآيات والروايات الإسلامية، مؤلفاً تاريخاً يناقشه ويبحث له عن دوافع.

ثانياً: إن مكية هذه الآيات ليؤكد مبدأ عالمية الدعوة منذ ظهرت، وجاءت تلك العالمية في أول سورة نزلت بعد قوله "اقرأ" على قول جمهرة من المفسرين، وهي سورة القلم حيث ذكرنا الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ وهذا له مغزاه ودلالاته العقيدية، إذ لم تظهر في العهد المدني فيكون حجة بأن عالمية الرسالة جاءت تطوراً للجماعة الإسلامية وقيام دولتها، بل لما قامت هذه الدولة بدأت تدعو لمعتقداتها التي تدرجت في الدعوة إليها، وتتهيأت الظروف للقيام بأعبائها والتوسع فيها، فانفتحت على العالم الخارجي.

ثالثاً: مما نلاحظه في هذه الآيات تلك النظرة المتكاملة المتسقة للنبي ﷺ ورسالته، فهي

(١) عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية" (٨٠).

للبشارة والإنذار والرحمة والذكر والذكرى، وكل ذلك متوائم مع دعوة مكة ومن حولها وأهل الكتاب والناس كافة، وجميع العالمين، وأنه النبي الخاتم به ختم النبيون ﷺ.

ويدل في ذات الوقت على التدرج المناسب لقبول الدعوة وانتشارها، وأن ذلك إنما كان عن أمر الله به في أمره بما سبق كله، وما يبرهن ذلك إلا على أن هذه دعوة الله تعالى وهدايته التي أسداها إلى جميع خلقه، فكيف تكون ناقصة أو غير عامة، سواء في تفصيلاتها أو في كلياتها العامة الصالحة لكل زمان ومكان.

وأخر ذرائع "وات" التي تدرع بها ليمنع عالمية الدعوة، هي رسائل النبي ﷺ إلى الحكام والملوك، ما برح "وات" أن يكون كعهدنا به كما هو ينكر الروايات الصحيحة، وينشر الضعيفة الشاذة، ويخترع تاريخاً لم يكن، ويوجه له دوافع وبواعث ما كانت ولن تكون، وهذا ما حدث لرسائل الرسول ﷺ للملوك وحكام الدنيا آنثذ، فهو ينكر الرسائل أولاً، وهي ثابتة في مصادره التي لا يملك سواها، فإن قبلها فهي مليئة بالتناقضات، أو قد تبدلت هذه الرسائل قبل وصولها لمحطتها، وإلا فهي سياسية ألمح فيها محمد ﷺ إلى معتقداته الدينية مجرد تلميح وسياستها أن محمداً ﷺ اقترح عقد مخالفة حياد، أو ربما أراد منع المكين من الحصول على المساعدة الخارجية، لأنه لا يمكن أن يدعو هؤلاء الحكام الأقوياء لأن يكونوا من أتباعه - أي بالدخول في الإسلام - خاصة وهو السياسي الحكيم - عليه أفضل الصلاة والسلام.

ونناقشه سريعاً - ونحن حزاني ندامى - أن مثل هذا يناقش.

ونبادره القول بأن هؤلاء الحكام الأقوياء الذين لا يمكن لمحمد ﷺ أن يدعوهم إلى الإسلام هزمهم أتباع سيدنا محمد ﷺ شر هزيمة في التاريخ من أوله إلى آخره، وكما يعلم القاصي والداني، لم يهزمهم بسياسة ولا عدد ولا عدة ولكن كما هو ثابت عند "وات"

والمستشرقين أنهم هزموهم بذلك الدين الذي عرضوه عليهم فإذا كان هؤلاء الأقوياء قد هُزموا وليس أمام محمد ﷺ فما بالك لو كان القائد لذلك هو ﷺ إذا كانت قيادتهم لبعض أتباعه، وفعل بهم ذلك ثم يجيء منهج "وات" في البناء والهدم فيبني على كون محمد ﷺ سياسياً حكيماً هدم عالمية الدعوة ليقول إن محمداً السياسي الحكيم لا يمكن أن يفعل ذلك؟ لم أيها العبقرى وهو يدعو بدعوة الله، وبأمر الله، لا يهمله أحد لأنه يعلم تمام العلم أن النصر من عند الله تعالى، وأنه مطالب بتبليغ دعوة الله إلى الناس كافة وهي ملخصة في قوله لهم: "أسلم تسلم"^(١)، ولا يستطيع إلا أن يأتمر بأمر الله جل وعلا: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وقد تحقق ذلك كله بفضل الله تعالى.

فأين أولاً بعد ما سبق عقد مخالفة حياد، أو منع المكيين من وصول المساعدة الخارجية لهم، وقد ذكر أصحاب السير وقرأها "وات" أن أهل مكة كانوا في هدنة مع النبي ﷺ وتركوا حربهم، بعد أن نهكتهم المعارك، وأضرت بهم الحروب بحيث انتهت الحروب بين النبي ﷺ وأهل مكة، ولم يبق إلا فتح مكة كما هو معلوم بغير قتال، فما حاجته لافتراضات "وات"، أو إنها توهمات "وات" وخيالاته التي يفترض فيها أمرين:

الأول: التناقض في الرسائل، الثاني: تبدها مع وصولها إلى المرسل إليهم.

وكلا الافتراضين لا دليل عليه إلا تشويه أمر الدعوة في عقل القارئ بدون أي برهان، لما في نفس المستشرقين من حاجات يقضونها من دين الله تعالى، وإلا فما الدليل على أي من ذلك، إلا النفث في روع المتهمين بأن الإسلام دعوة قومية، لا علاقة لها بالسما لتناقضها، وأن الدين - أي اللبido - عنصر فيه.

(1) البخارى، صحيح، بدء الوحى (٨/١).

وقد ذكر عبد الله النعيم في كتابه الاستشراق في السيرة النبوية أن الدكتور "محمد حميد الله الحيدر آبادي" قد قام بتحقيق رسائل النبي ﷺ في كتاب سماه "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي"^(١) ولم يتبين أو يُثَرَّف فيها شكًا ولا تناقضًا - ليس دفاعًا عن رسائل النبي ﷺ - لأنه لم يرد بها على أحد، وإنما أورد الرسائل كما وردت في السنة المشرفة كبحت من بحوثها، وليس أمامنا إلا افتراض أن تلك النصوص التي نقلت هي ما قيل ما دام ذلك صحيحًا، ما لم يكن عندنا طعن في سندها أو متنها من المتخصصين في هذا العلم، فما كان إذن على "وات" إلا التسليم بصحة الرسائل، ثم بعد ذلك ينظر في فهمها وتحليلها، وهو ما لم يحدث بل ألقى القول على عواهنه، ومن غير متخصص فيه، بعد عدم نجاحه في تكذيب أو رد تلك الرسائل.

إذا نظرنا في تلك الرسائل رأيناها جميعًا ذات صبغة دعوية إسلامية: "إني أدعوك إلى الله وحده، وأن تتبعني وأن تؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله"^(٢) أو قوله فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم" وليس فيها إشارة من قريب أو من بعيد أو قول أصلاً لعقد محالفات سياسية، أو منع مكة من المساعدات الخارجية.

إن مما لا شك فيه أن تعامل النبي ﷺ مع كل أولئك لم يكن من منطلقات سياسية، لأن الوضع السياسي للنبي ﷺ وهو كما يقول "وات" السياسي الحكيم ما كان يسمح بالسياسة والتحالفات مع كل أولئك بأي حساب من حسابات القوى، ومن ثم لم تكن له إلا الواجهة

1 - مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، رسالة النبي إلى النجاشي (٢٤)، انظر رد النجاشي عليها (٢٦-٢٨)، الاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله النعيم (٨١).

(2) عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية" (٨١-٨٢)، ونقل في الهامش، الحيدر آبادي، "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي" رسالة النبي إلى النجاشي، (٢٤)، وانظر رد النجاشي عليها (٢٦-٢٨)، ورسالة النبي إلى هرقل (٢٩-٣٠)، وانظر رد قيصر عليها (٣١)، وانظر رسائل النبي إلى المقوقس (٥٠)، وكسرى (٥٤)، والحارث بن أبي شمر، وجبله بن الأيهم الغساني (٤١)، والمنذر بن ساوي (٥٥-٥٦).

الواحدة الدعوة إلى الله تعالى مخاطباً إياهم من منطلق ديني محض، وهو قوله تعالى كما ذكرنا ﴿يَلْغَمَ مَا أَنزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ونورد في نهاية هذا المبحث شيئاً مما ورد عن الرسول ﷺ يردده على مسامع الناس كافة إلى يوم القيامة بدون تردد، مبيناً لهم البيان المبين، بأنه أرسل إلى جميع الثقيلين فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "بعثت إلى الأحمر والأسود"^(١)، وحديث: "بعثت إلى الناس كافة"^(٢)، وحديث: "أرسلت إلى الناس كافة وبني ختم النبيون"^(٣)، وحديث: "كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة"^(٤).

وهذه الأحاديث تبين عالمية الرسالة، وهذه الأحاديث تدحض كلام المخالفين، بحيث يكون تصديق الواقع لها من أكبر دليل على صحة نسبتها إلى الرسول ﷺ مع صدق المبني عليها من كون هذه الرسالة عالمية شاملة عامة، ودليل على معجزة النبوة وصحتها في وقت لم يكن لرسول الله أن يقول هذا القول إلا وهو مؤيد من السماء.

بدأت الإسلامية سرّاً - كما ذكر من ذكر من أهل السير - يعنى يدعو الناس ﷺ خفية إلى التوحيد، ونبذ مظاهر الشرك.^(٥)

وكان المجتمع المكي - شأن سائر الجزيرة العربية - يعتمد في تنظيمه على القبيلة، فهي الوحدة الاجتماعية، ولما كانت مكة تخضع لقبيلة واحدة هي قريش

(1) أحمد بن حنبل، "المسند" (١)، الطبعة اليمنية، والهيثمي، "مجمع الزوائد" (٦٥/٥٨، ٨/٦)، التقي الهندي، "كنز العمال" (٣٢٠٩٤)، وابن عبد البر، "التمهيد" (٥/٢١٨).

(2) أحمد بن حنبل، "المسند" (٣/٣٠٤)، ومجمع الزوائد (٢٥٩، ٨/٢٦١)، والبيهقي، "السنن الكبرى" (٢/٤٣٣).

(3) أحمد بن حنبل، "المسند" (٥/٢٥٦، ٢٤٨)، البيهقي، "السنن الكبرى" (٢/٤٣٣)، وابن سعد، "الطبقات" (١).

(4) أحمد بن حنبل، "المسند" (٣/٣٠٤)، ابن أبي شيبعة، "المصنف" (١/٤٣٢)، دار الفكر.

(5) د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (١٥٦).

بفروعها (عشائرها) فقد بدت هذه العشائر ككيانات خاصة لكنها متحالفة داخل الكيان العام لقريش، وكان المتوقع أن ينتشر الإسلام في بنى هاشم - قبيلة الرسول ﷺ - إلا أن نصيب بنى هاشم لم يكن أوفر حظاً، بل كان منه أقرباء شديد والعداوة للرسول ﷺ والإسلام كأبى لهب وأبى سفيان بن الحارث وغيرهم، وكان منهم المتعاطفون مع الرسول ﷺ أكثر من سواهم وإن لم يحملهم هذا التعاطف على الإسلام، حيث مات أكبر مناصري النبي ﷺ على الكفر، وهو عمه أبو طالب.

إن الإسلام قد انتشر بصورة متوازنة بين عشائر قريش، فلم يكن لأى منها ثقل كبير في الدعوة، وهذا ما شهد به الواقع، وهو مخالف لطبيعة الحياة القبلية آنذاك.

وإذا كان هذا الوضع قد أفقد الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي لنشر الدعوة وحماتها، فإن هذه الدعوة لم تؤلب عليه العشائر بحجة تحقق مصالح عشيرة على حساب يقية العشائر.

ولعل هذا التوازن أعان على انتشار الإسلام في العشائر القرشية دون تحفظات متصلة بالعصبية، فأبو بكر الصديق من «تيم»، وعثمان بن عفان من «بنى أمية»، والزبير بن العوام من «بنى أسد»، ومصعب بن عمير من «بنى عبد الدار»، وعلى بن أبي طالب من «بنى هاشم»، وعمر بن الخطاب من «بنى عدى»، وعبد الرحمن بن عوف من «بنى زهرة»، وعثمان بن مظعون من «بنى جمح»، بل إن عدداً ممن أسلموا في تلك الفترة لم يكونوا من قريش، فعبد الله بن مسعود هذلي، وعتبة بن غزوان من مازن، وعبد الله بن قيس من الأشعريين، وعمار بن ياسر من مذحج، وزيد بن حارثة من كلب، والطفيل بن عمرو من دوس، وأبو ذر من غفار، وعمرو بن عبسة من سليم، وعامر بن ربيعة من عنز بن وائل،

وصهيب النمرى من النمر بن قاسط، كان واضحاً من الوهلة الأولى أن الإسلام ليس
خاصاً بمكة وقریش.^(١)

أما المسلمون الاوائل فمنهم:

١ - السيدة خديجة - رضى الله عنها - زوج النبي ﷺ فهي أول من آمنت بالله ورسوله ﷺ
إذ يدل حديث بدء الوحي على أنها أول من عرفت خبر النبوة وتنزل وحى السماء،
وأنها صدقت الرسول ﷺ وواسته وآزرتة وخفت عنه، وهونت عليه أمر الناس فلا
غرابة أن تكون أول من آمن، وكذلك كانت أول من أمر الرسول ﷺ بتبشيره بالجنة،
حيث قال - صلوات الله وسلامه عليه - : «أمرت بأن أبشر خديجة ببيت من قصب، لا
صخب فيه ولا نصب»^(٢)، وأخباره فضائلها جملة رضى الله عنها.

٢ - على بن أبى طالب، فقد أسلم في هذا الوقت المبكر، فقد كان في حجر النبي ﷺ كما
ذكرنا تخفيفاً على أبى طالب ورداً لجميله، وهو يومئذ ابن عشر سنين على أصح
الأقوال فكان أول الذكور إسلاماً وقد كثرت الروايات الواهية والموضوعة حتى
تحديد يوم إسلامه وصلاته، وفضائله الكثيرة الثابتة لا تحتاج لهذا الكذب والمغالاة.^(٣)

١ - د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (١٣٢-١٣٣).

٢ - د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (١٣٣-١٣٤)، د. مهدي رزق الله (١٥٦-١٥٧)، والحديث البخارى، فتح
البارى (ج ٣٨٢٢)، ومسلم (ج ٢٤٣٣-٢٤٣٥)، وابن اسحاق، بإسناد حسن، وابن هشام السيرة (١/١٥٥-١٥٦)،
محمد أبو شهبة، السيرة النبوية (١/٢٨٣).

٣ - روى ابن اسحاق في السيرة خبر عفيف الكندى لصلاة النبي ﷺ وخديجة وعلى في مكان واحد وقوله «فيا ليتنى آمنت
وكنت أكون ثانياً»، وإسناده حسن من رواية يونس بن بكير، وهي رواية البيهقي في الدلائل (٢/١٦٢-١٦٣)، من
طريق يونس هذا، قال الدكتور قلعة جى في تخریجه لها: حديث صحيح أخرجه البخارى في التاريخ، وابن كثير في
التاريخ والحاكم في المستدرک وقال هذا صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، انظر الدلائل، وهامشة (٢/١٦٢-
١٦٣)، ابن هشام (١/١٥٧).

٣- مولاه زيد بن حارثة، وهو الذى اختار البقاء والإقامة مع الرسول ﷺ على أن يرجع لأبيه وأهله عندما جاء أخوه يطلبه من النبي ﷺ، فأقام عند النبي ﷺ وتبناه الرسول ﷺ وعرف بـ «زيد بن محمد»، فأقام عند النبي ﷺ، وصدقه وأسلم وصلى معه، فلما نزل قوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، قال: أنا زيد بن حارثة.^(١)

٤- أبو بكر الصديق ﷺ، فقد استنبط الحافظ ابن كثير أنه أول الناس إسلاماً من حديث صحيح فيه: «إن الله بعثنى إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق وواسانى بنفسه وماله»^(٢)، وقال هو عن نفسه عندما اختير خليفة للمسلمين: أأست أول من أسلم^(٣)، وقد أسلم أهل أبى بكر بإسلامه، قالت عائشة - رضى الله عنها - «لم أعقل أبوى إلا وهما يدينان الدين». وقد ذهب الزهرى إلى أن أول الناس إسلاماً زيد بن حارثة^(٤)، ونظراً لأقوال الزهرى فى أن أول من أسلم خديجة فقد توالى محاولات التوفيق بين الأقوال، وأول من وفق بين أقوال الزهرى هو الواقدى.

تحرك أبو بكر ﷺ وسط أقاربه ومواليه وأصدقائه ومن يثق به من قومه، فاستجاب له نفر كريم منهم: طلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف^(٥) وعثمان بن مظعون وأبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن

١- رواه ابن هشام(١/١٦٠-١٦١)، والترمذى، صحيح الترمذى للالبانى(ج ٤٠٨٥)، ورواه الحاكم فى المستدرک(٣/٢١٤)، وقال: «صحيح الاسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبى: صحيح، وفى كتب السيرة مثل عيون الاثر(١/٩٤)، وسيرة الذهبى(١٣٧-١٣٨)، وانظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(١٥٧).

٢- د. أكرم العمري، السيرة النبوية(١٣٤-١٣٥)، والحديث أخرجه البخارى(ج ٣٦٦١)، وقال ابن كثير فى البداية(٣/٣٠)، وهذا كالنص على أنه أول من أسلم ﷺ وانظر السيرة النبوية لابن كثير(١/٤٣٤).

٣- روة الترمذى وصححه، وهو فى صحيح الترمذى(٣/٢٠١)، حيث صححه الألبانى، وابن حنبل، فضائل الصحابة(١/٢٢٣-٢٣١).

٤- عبد الرزاق، المصنف(٥/٣٢٥)، من مرسل الزهرى.

٥- إلى هنا ذكره ابن اسحاق فى السيرة(١٤٠)، سيرة ابن هشام(١/١٦٢-١٦٣)، وذكر من بعدهم.

عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم.

ومن خلال هؤلاء وغيرهم أخذ الإسلام ينتشر في مكة وخارجها، ودخل فيه أناس من بطون قريش ومواليها كافة، ومن اشتهروا بين السابقين إلى الإسلام من الموالى: بلال بن رباح وصهيب بن سنان وعمار بن ياسر ووالده وأمه سُمية بنت خباب.^(١)

٥ - ورقة بن نوفل، كان من المسلمين الأوائل وفقاً للحديث التي بينت ذلك.^(٢)

وفي فترة وجيزة وصل عدد الذين سبقوا إلى الإسلام من بطون قريش إلى أكثر من أربعين كما عددهم ابن هشام^(٣)، وأكثر من خمسين كما عددهم اليعمرى^(٤).

ونلاحظ على السابقين الأولين إلى الإسلام ما يلي:

أولاً: من أكثر الملاحظات انتشاراً قديماً وحديثاً، ثم بعد ذلك أخذاً ورداً لتبيين الحكمة فيها، هي أن الغالب على الداخلين الأولين في الإسلام أنهم خليط من الفقراء الضعفاء العبيد الذين رأوا في الإسلام إحساساً بقيمتهم أو استعادة لحريتهم وكرامتهم.

والنظرة المدققة الفاحصة لهذا الرأي نجده مخالفاً للواقع، إذ رأينا أن السابقين إلى الإسلام عندما كان عددهم ثلاثة وستين شخصاً، فإن الفقراء والمستضعفين والموالى

1 - ابن حنبل، فضائل الصحابة (١/٢٣١)، عن مجاهد بسند صحيح، وعن ابن مسعود رضي الله عنه (١/١٨٢)، بسند حسن متصل، والحاكم، المستدرک (٣/٨٤)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وغير ذلك، وانظر د. مهدي رزق، السيرة النبوية (١٥٩).

2 - روى أحاديثه أحمد، المسند، الفتح الرباني (٢٠/١٧٤)، وحسن اسناده الساعتي، وابن كثير، البداية والنهاية (٣/١٠)، عن أبي يعلى وحسنه، وانظر تخريج هذه الاحاديث عند الالباني على فقه السيرة لمحمد الغزالي (١٠٠)، وانظر مهدي رزق الله، السيرة النبوية (١٥٩).

3 - ابن هشام، السيرة (١/١٦١-١٦٧).

4 - اليعمرى، عيوت الاثر (١/٩٣-٩٨)، وانظر ابن حزم، جوامع السيرة (٤٤-٥١).

والأخلاق من الأعاجم ثلاثة عشر فقط لا يزيد مجموعهم على الخمس^(١)، وإذا علمنا أن معظم أصحاب السير إن لم يكن كلهم كانوا مع ذلك الرأي المنتشر علمنا، أنهم لم يكن لهم قصد في تقليل العدد، وإن كانوا لا يقللون أو يكثرون لطبيعة الدين الذي اعتنقوه، والذي لم يكن يدعو لسوى الحقيقة مع الصدق والأمانة.

ثانياً: أن سبب انتشار هذا القول هو أن الذين تحملوا القسط الأكبر من التعذيب الظاهر على ملاء من الناس هم الأرقاء والموالي، ولذلك انتشر أمرهم أما من عذب ضمن قبيلته فلم يذكر كثيراً لينتشر أمرهم^(٢)، وسنشير إلى شيء من ذلك إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: أوضح ابن حجر رحمه الله معنى كلمتي «الضعفاء»، «الشرفاء»، اللتين وقعتا في حديث هرقل عندما سأل أبا سفيان أيتبعه أشرف الناس أم ضعفاؤهم، فمعنى الأولى عنده أن أتباع الرسل هم أهل الاستكانة لا أهل التكبر الذين أصروا على الشقاق بغياً وحسداً كأبي جهل وأتباعه، ويكون الشرف في الثانية مرادفاً للكبر والعلو، وهذا هو التفسير الملائم إذ ما ذكرنا من أسماء المؤمنين الأولين، وهم الأغلبية ليسوا أرقاء ولا عبيداً، وإنما كانوا أهل الإنصاف وترك الكبر والمعاندة والجحود.^(٣)

ونشير إلى ذكر بعض هؤلاء الذين تقدم إسلامهم وما علمته بهم قبائلهم سواء كانوا من صميمها أو من مواليها وأرقائها. وكذلك لنذكر من قيل إنهم من السابقين الأولين إلى الإسلام.

1 - الشامى، من معين السيرة (٣٧-٣٩)، ود. مهدي رزق الله حيث ذكر أن كلام الشامى من أروع ما كتب في ذلك، السيرة النبوية هامش (١٦١).

2 - المصدر السابق، الصالحى، من معين السيرة (٣٥-٣٦).

3 - ابن حجر، فتح البارى (١/٣٥-٣٦/ج ٦)، ط دار القلم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، وفي هذا الرد على د. البوطى وغيره قديماً وحديثاً في هذه القضية، انظر البوطى، فقه السيرة (٧٧-٧٩).

تدل رواية صحيحة على تقدم إسلام سعد بن أبي وقاص، وأنه بقى أسبوعاً ثالث مسلم ثم أسلم آخرون.^(١)

وقد نزل القرآن الكريم في خبر إسلامه كما أخبر عن نفسه قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب قالت: زعمت أن الله وصابك بالديك، وأنا أمك وأنا أمرك بهذا. قال: مكثت ثلاثة أيام حتى غشى عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها، فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِيْ ﴿ [العنكبوت: ٨]، وفيها: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، قال فإذا أرادوا أن يطعموها شجروا فإها بعضا ثم أو جروها.

والحادثة تدل على صلابة موقف المؤمنين الأولين أمام الفتن التي تعرضوا لها.

وأسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه في وقت مبكر، وروى أنه قال إنه الرابع في الاسلام^(٢)، وأسلم طلحة بن عبيد الله التيمي وأسلم الزبير بن العوام، وكان ابن ست عشرة سنة^(٣)، وتشير الرواية إلى تعذيب عم الزبير له بالنار بسبب إسلامه.^(٤)

ومن بكر في الدخول في الإسلام خالد بن سعد بن العاص.^(٥)

وأما قصة عبد الله بن مسعود حيث يروى أنه أسلم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم فيحكيها فيقول: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة فأتى عليّ رسول الله ﷺ وأبو بكر وقد فرا من المشركين، فقال: يا غلام هل عندك لبن تسقيننا؟ قلت: إني مؤتمن

1 - البخارى، الصحيح، فتح البارى (٧/٨٣-١٧٠)، ابن حنبل، فضائل الصحابة (٢/٧٤٩).

2 - ابن أبي شيبة، المصنف (١٢/٥٣)، وإسلام طلحة عند ابن سعد، الطبقات (٣/٢١٤-٢١٥).

3 - ابن سعد، الطبقات (٣/١٠٢).

4 - الهيثمي، مجمع الزوائد (٩/١٥١).

5 - ابن سعد، الطبقات (٤/٩٤-٩٥)، والحاكم، المستدرک (٣/٢٤٩).

ولست بساقيكما قالوا فهل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم فأتيتها بها، فاعتقلها أبو بكر وأخذ لرسول الله ﷺ الضرع فدعا، فحفل الضرع، وأتاه أبو بكر بصخرة منقوعة، فحلب ثم شرب هو وأبو بكر ثم سقياني. ثم قال للضرع: أقْلص فقلص، فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ، قلت علمنى من هذا القول الطيب - يعنى القرآن - فقال رسول الله ﷺ: «إنك غلام معلم فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعنى فيها أحد».^(١)

وذكرت رواية أنه كان سادس من أسلم.

ولا شك في تقدم إسلام خباب بن الأرت، وروى أنه السادس في الاسلام^(٢)، وكذلك تقدم إسلام بلال الحبشى، وكان عبداً رقيقاً فاشتراه أبو بكر وأعتقه.^(٣)

وقد ثبت أن عمار بن ياسر أسلم مبكراً فقد قال عن نفسه: «رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر».^(٤)

ونذكر تكملة لذلك من غير قريش ومن خارج مكة قصة عمرو بن عبسة السلمى، فقد كان يرى نفسه رابع أربعة، هم أول المسلمين حيث يقول: «فلقد رأيتنى إذ ذاك ريع الإسلام».^(٥)

1 - أحمد، المسند(١/٣٧٩)، وابن أبى شيبة، المصنف (١١/٥١٠)، وابن سعد، الطبقات (٣/١٥٠)، وصحح الذهبى إسناد الحديث في سير أعلام النبلاء (١/٤٦٠).

2 - ابن أبى شيبة، المصنف (١٢/١٤٩).

3 - أحمد، فضائل الصحابة(١/١٨٢-٢٣١)، بأسانيد صحيحة، وابن سعد، الطبقات(٣/٢٣٣)، والحاكم، المستدرک(٣/٢٨٤)، وصححه ووافقه الذهبى. وحديث العتق فى البخارى، فتح البارى(٧/٩٩).

4 - البخارى، فتح البارى(٧/١٨-١٧٠)، أما الأعبد فهم بلال وزيد بن حارثة وعامر بن فهيرة وأبو فكيهة، ويحتمل أن الخامس شقران، وأما المرأتان فخديجة رضى الله عنها، وأم أيمن أو سمية، ابن حجر فتح البارى(٧/١٨).

5 - أحمد، المسند (٤/١١٢)، وطبقات ابن سعد (٤/٢١٥)، وتاريخ الطبرى (٢/٣١٥)، بإسناد حسن، وانظر د. أكرم العمرى لما سبق، السيرة النبوية (١٦٠).

ويحكى قصته فيقول: «كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جراءً عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: أنا نبي. فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله. فقلت: وبأى شيء أرسلت؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء. قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: حر وعبد قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به. فقلت: إني متبعك. قال: إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس! ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني، قال: فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة وكنت في أهلي، فجعلت أتخبر الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة حتى قدم على نفر من أهل يثرب، من أهل المدينة، فقلت: ما فعل الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت المدينة، فدخلت عليه....»^(١).

ويبدو أن رسول الله ﷺ لم يخبره بجميع من أسلم، إذ هو قد سأله عن من معه قبل أن يعلن الإسلام، وكذلك حرصاً من الرسول ﷺ على سلامة من أسلم من الأذى، لذلك ذكر أنه كان رابع الإسلام، وما ذلك إلا بحسب ما بدا له، وإلا فإن أبا ذر أيضاً قد أعلن يوم أسلم أنه كان كذلك رابع الإسلام مما يدل على أن المسلمين كانوا متكتمين في أمر إسلامهم حرصاً على مصلحة الدعوة بحيث لم يكن كلاهما يعلم بإسلام الآخر.^(٢)

1 - مسلم، الصحيح (١/٥٩٦).

2 - الطبري، التاريخ (٢/٣١٥)، ويؤيد ابن كثير وابن حجر أن سرية الدعوة هي السبب في تعارض دعاوى السبق إلى الإسلام، إذ يخفى عليهم من سبقهم إلى الإسلام، ابن كثير، السيرة النبوية (١/٤٤٣)، وفتح الباري لابن حجر (٧/٨٤)، د. أكرم العمرى، السيرة النبوية (٢١٦).

لقد أجمع الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا في قلة من العدد، أو الضعف في العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أى نكاية في أعدائهم إذا أجمعوا على حربهم أن يقدموا مصلحة بقاء النفس على مصلحة الدين الموهومة أو المتفتية، إذ ذلك أيضاً في الواقع مصلحة للدين، لأنه أن تبقى أرواح المسلمين سليمة فيمكن أن يتقدموا ليجاهدوا في الميادين الأخرى المفتوحة، وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين ذاته، وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقترحوا ما كان مسدوداً أمامهم من السبل.^(١)

والكلام عن المسلمين الأوائل يأخذ إلى هذه الأمور، وهى:

١ - أن الاضطهاد لم يكن ليفرق بين الأرقاء والموالى، وبين الأحرار من بيوتات مكة العالية، إلا في ظهوره في الأوائل على روءس الأشهاد.

٢ - أن أولئك الذين أسلموا قد نالهم قسط وافر من التعذيب ليرجعوا عن دينهم، ومع ذلك صبروا وثبتوا، ومنهم من هاجر فراراً بينهم إلى الحبشة، كما سنذكر في مبحث الاضطهاد إن شاء الله تعالى.

٣ - أن الإسلام لم يقف عند حد دعوة الفقراء إلى الإسلام بدليل أن الأكثرية من معتقيه في تلك الفترة الحرجة والظروف الصعبة كما أشرنا كانوا من أشرف قريش.

وكانوا بعد ذلك القوة الضاربة في أية ملاقات مع أية عدو، إذ لم يشهد التاريخ أن جيوش سيدنا محمد ﷺ من بدء الجهاد كان الغالب عليهم أنهم من العبيد والموالى، بل كان القادة والفرسان والمشاة كانت أكثر يتهم من أولئك الجند الأبرار من الأشراف، لا يستطيع

١ - انظر البوطى، فقه السير (٧٦-٧٧)، وضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية (٢٦١)، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام (١١١/١-١١٢)، د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية (١٦٢).

أن يبارى في هذا أحد، إذ سجلات التاريخ شاهده بذلك، مع بذلهم وتضحياتهم بأموالهم إنفاقاً في سبيل الله فجمعوا بذلك بين النفس والمال.

ومن ثم نعود إلى القرآن الكريم كمنهج للدراسة، نذكر فيه سيرة أولئك، ثم نرد على "وات" في هذا البحث.

ونذكر آية واحدة في هذا السياق كقيلة بتبين سيرتهم في الكتاب المعظم، وهى قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِحَسَنِ رِضْوَانِ اللَّهِ مِنْهُمْ وَأُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِحَسَنِ رِضْوَانِ اللَّهِ مِنْهُمْ وَأُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠].

يقول سيد قطب ما ملخصه مشيراً إلى مراحل بناء المجتمع المسلم، وتكون طبقاته الإيمانية: لقد ولدت الحركة الإسلامية في مكة على محك الشدة، إذ أحست قريش - ممثلة الجاهلية - بالخطر الحقيقي الذى يتهددها من دعوة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وما تمثله من تمرد على كل طاغوت في الأرض لا يستمد سلطانه من سلطان الله، والفرار منه إلى الله، وبالخطر الجدى من هذا التجمع العضوى الذى أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة الرسول ﷺ، هذا التجمع الذى يدين منذ يومه الأول بالعبودية والطاعة لله ورسوله ﷺ لم تكد الجاهلية تستشعر هذا الخطر حتى شنتها حرباً شعواء على الدعوة الجديدة وتجمعها وقيادتها، وأصدرت لها كل ما فى جعبتها من أذى ومن كيد ومن قننة ومن حيلة. وهو دأب أعداء الاسلام فى كل آن وزمان عندئذ تعرض كل فرد فى التجمع الإسلامى الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها إلى حد إهدار الدم فى كثير من الأحيان. ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والانضمام إلى التجمع الإسلامى الوليد إلا كل من نذر نفسه لله، وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب، والموت فى أشنع الصور فى بعض الأحيان.

وبذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربي، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام، وقطع ذلك الطريق الشائك المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة فريدة التكوين.

وهكذا اختار الله تعالى السابقين من المهاجرين من هذه العناصر الفريدة النادرة ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة، ثم ليكونوا مع السابقين من الأنصار القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة.^(١)

لقد بايع أولئك السابقون من الأنصار النبي ﷺ في العقبة وهم يعلمون عاقبتها وضريبتها وأن يجاربهم الأصفر والأحمر، وأن ليس لهم سوى الجنة إن هم وفوا بذلك، فلا جرم أن يكونوا مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البنيان وأعدوا هذا الإعداد.

إن تلك النواة الصلبة كانت السبب المباشر في تماسك وصلابة المجتمع في وجه الاعراض والظواهر والخلخلة أحياناً التي كانت وراء تفاوت طبقات المجتمع الايمانية.

لا شك إذن أن المهاجرين - على أى تعريف كانوا - كانت خلاصتهم والكمال منهم أولئك السابقين إلى الإسلام.^(٢)

ونظرة أخرى تبين أنهم ما دخلوا الإسلام طمعاً في غنم يغنمونه في هذا الوقت، ولا كان ينتظرونه، ولا إلى شيء يسعون لتحصيله في هذه الدنيا الزائلة، إذ كان الواقع والدعوة والنبي ﷺ وما يحيط به يمنع تصور وقوع شيء من ذلك فضلاً عن انتظاره، لم يكونوا ينتظرون إلا رضا الله عنهم وأن يجاوروه في جنته.

1 - سيد قطب، في ظلال القرآن (١٧٠٢-١٧٠٣).

2 - سيد قطب، في ظلال القرآن (١٧٠٤-١٧٠٦).

ومن ثم جاء جزاؤهم رضى الله عنهم، وهو أعلى ما ينتظر المؤمن ربه أن يحل عليه رضوانه، فلا يسخط عليه أبداً، وأن يكون من مظاهر هذا الرضا أعظم إكرام وأجزل مثوبة في الدنيا والآخرة.

وإن من علو مقام هذه الصفة أن يبادلوا ربهم الرضا اللائق بربهم منهم، أن يرفع الله منزلتهم ودرجتهم ليذكرهم ويمدحهم بأنهم رضوا عن ربهم، فذلك حال وشأن لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه، ذلك حالهم الدائم مع ربهم ﷻ ورضوا عنه، أما علامة الرضا فهي: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وبتحليل الآية يتجلى:

أولاً: أن الآية جاءت عقب ذكر الفرق المتلبسة بالنقائص على تفاوت بينهما، لتذكر القدوة الصالحة والمثل الكامل في الأيمان والفضائل والنصرة في سبيل الله ليحتذى طالب الصلاح حذوهم، ولتلا يخلو تقسيم القبائل الساكنة بالمدينة وحواليها وبواديها عن ذكر أفضل الأقسام تنويهاً به.

ثانياً: بالتالى جاءت الجملة عطفاً على جملة: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ [التوبة: ٩٨].

والمقصود بالسبق السابق في الإيمان، لأن سياق الآيات قبلها في تمييز أحوال المؤمنين الخالص، والكفلة الصرحاء، والكفار المنافقين، فكان المراد بالسابقين الذين سبقوا غيرهم من نفس صنفهم أى من المؤمنين.

ويكون من سبقوا غيرهم هم المقصودين سواء المهاجرين قبل أن يهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، أو الأنصار الذين سبقوا غيرهم ممن آمن من الأنصار وهم أهل العقبتين الأولى والثانية.

وأن أول مقصود بهذا الخطاب القرآنى هم المسلمون الأوائل بلا دفع، وتلك قيمتهم ومنزلتهم، وهذه عاقبتهم ومآلهم.

والأنصار جمع نصير، وهو الناصر، وهو هذا الجمع علب على الأوس والخزرج الذين آمنوا بالنبي ﷺ في حياته أو بعد مماته، وعلى أبنائهم إلى آخر الزمان، ويطلق على أبناء المنافقين الذين نشأوا مسلمين حقاً.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ ..

هم الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في الإيمان، وأما الأحسان فهو العمل، والباء للملابسة أى اتبعوهم في الإيمان وهم متلبسون بالعمل الصالح المدوحين عليه والذي اقتدوا فيه بالسابقين، وما بعثهم على ذلك إلا الإخلاص، ومن ثم فهم محسنون، وما ذكر الاحسان هنا إلا لأن من أتى بعد السابقين الأولين منهم من آمن اعتزازاً بالمسلمين لما صاروا كثرة في المدينة، ومنهم من آمن وفي إيمانه ضعف وتردد كالمؤلفة قلوبهم فربما نزل بهم إلى النفاق وربما ارتقوا إلى الإيمان الكامل، ولذلك قيد الاتباع بالاحسان حتى يدخلوا في وعد الله لهم بالرضا وإعداد الجنات.

وجملة: ﴿رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، خبر عن ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾، وقدم السابقون المسند إليه، على خبره الفعلى لقصد التأكيد والتقوية.

ورضوا عنه أنه أعطاهم حتى بلغوا الرضا عن الله تعالى، وهو إذ يعطيهم إنما يمدحهم، وهو من أجل الدرجات وأعلى المنازل.

وزادها بالإعداد لهم، أى التهيئة الدالة على العناية والكرامة بهم، الذى يؤذن بكمال الاهتمام حتى لا يكون ماهاياً لهم إلا أكمل نوع.

ولتقديم المسند إليه، والعناية بالمعد لهم، كانت الآية الوحيدة في نظائرها التي حذف فيها من - من تحتها الانهار - لوجود التأكيد والعناية فلا يحتاج إلى من التي ليست إلا للتأكيد مع أسماء الظروف.^(١)

اتضح من الآية سيرة وتحليلاً علو الرتبة لأولئك المسلمين الأوائل في الدنيا والآخرة، وفي كل مجالات التضحية والبذل لنشر الاسلام ورفع رايته، ونقف الآن مع «وات» بما سور من صفحات في سيرتهم طمساً لكل أسس السيرة وقواعدها كما فهمنا من منهجه لنيين موقفه مع إسراع الرد وإيجازه عليه، وإن كنا بعد هذا العرض المصغر، لا نحتاج لدفع، ولكن ما باليد حيلة.

ونبدأ كلام "وات" بهذه النظرية التي وضعها، حيث يقول: لما كان النبل يكون مبدئياً في الإسلام على الإخلاص لقضية الأمة الإسلامية، فقد استغل المسلمون حقوق أجدادهم في النبل والكرامة، ولهذا يجب معالجة أخبار المسلمين الأوائل بحذر. فإذا ما وجدنا أن أحفاد شخص ما، أو المعجيين به يعلنون أنه كان من بين العشرة الأوائل، فمن الحذر الافتراض أنه كان على الأغلب الخامس والثلاثين بينهم.^(٢)

وهذه النظرية من "وات" لا تحمل سوى التشكيك والسخرية التي حملته على التناقض والمغالطة ومخالفة الواقع والادعاء الباطل، إلخ.. ولذا صدق هذا النقد بقولنا:

أولاً: أن المسلمين يقوم إخلاصهم لقضية الإسلام على النبل، فإذا كان النبل هو الحامل على الإخلاص فلماذا لم يؤمن كفار قريش وفيهم من النبلاء كُثُر، فضلاً عن إخلاصهم للإسلام، خاصة وإن من كانوا نبلاء في الجاهلية^(٣)، كانوا هم النبلاء في الإسلام،

1 - انظر لما سبق ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/١٧-١٩).

Mohammad at Mecca p. 86 - 2

3 - حديث خياركم في الإسلام خياركم في الجاهلية إذا فقهوا.

إن ذلك دليل من "وات" على عدم فهم قضايا دين الإسلام، ومقوماته ومبادئه، فكيف يهاجمه مدعياً العلم به، والتخصص فيه.

ثانياً: أن المسلمين استغلوا حقوق أجدادهم في النبل والكرامة، ليلحقوهم بالمسلمين الأول؛ منذ متى كان المسلمون يستغلون حقوق الغير في النبل والكرامة، وكيف تُستغل؟! ولمصلحة من؟!!

إن كلام "وات" يدل ابتداء على الجهل مرة أخرى بقضايا الإسلام، إذ أن إسلام شخص أو كفره، إنما هو له أو عليه، وأن المسلمين إنما يثبتون الصدق الذي أمرهم الله تعالى به، وينهون وينفون خلافه، وهو ما نهاهم الله تعالى عنه، ثم - وهي الطامة ل"وات" - فليدلنا على واحد فقط من المؤمنين الموثقين المتقين استغل ذلك ليكذب، وينسب لأهل النبل شيئاً لم يكن.

وإن "وات" لم يأخذ حذره إذ لو قلنا ما مصلحة الحفيد أن يستغل نبل الجد وكرامته يقول "وات" ليثبت بهذا الاستغلال نبل الجد وكرامته نعم العقل إذا أو أنه من السابقين، وماذا فيها في منطقتك ومنهجك أن نثبت للجد النبل بقية النبل ونعده بسبب نبله من المسلمين الأوائل دعنا من ذلك، ولنعكس القضية وهي الأهم من من الأحفاد قد استغل موقعه ومنصبه ليثبت لجد الكافر نبلاً وكرامة، أو إسلاماً وإخلاًصاً وهذا ادعى وأهم، بل لقد ذكروا أجدادهم بكل ما علموا من كفر كما ذكروا أجداد غيرهم بما حازوا من إيمان.

والمعنى أن كتاب السير الاسلامية بالذات هم أجدر الناس وأحراهم بالكتابة الصحيحة المسندة، التي خضعت للنقد العلمي النزيه، سنداً ومنتأ بما لم تشهد له البشرية نظيراً فكيف تتفق الروايات على الباطل وهي مختلفة الأسانيد، ثم هذا يخالف القواعد المنهجية التي وضعها المحدثون ليميزوا الصحيح المسند إلى النبي ﷺ وإلى غيره مما لم يصح

متنه، ولا تصح نسبته^(١)، وهذه القواعد لا علاقة لها بالسياسة، ولا بالمجاملة، بل هي قواعد تعتنى بمعرفة الصحيح وغيره من حيث هو بغير علاقات أخرى، والدارسون لذلك من المستشرقين يعلمون ذلك لا يهارون فيه.

ثالثاً: نرد على فكاهة "وات" كذلك وهي أن من المعجبين بشخص من يلفق له ويكذب أنه من السابقين الأوائل إلى الإسلام، والرد هو أن الأحفاد أو المعجبين بشخص لا يمكن أن يخفى كلامهم، وبالتالي لا بد حسب منطق الاشياء أن يكون مجال أخذ ورد، إذ لا بد أن يجد من يقول له كذبت ليس منهم أو أخطأت لم يكن سابقاً إلى الإسلام أما أن يجتمع كل هذه الالاف في كل الاقطار على ذلك، فلا بد أن يكون صحيحاً، ولا نعلم من المعجبين بهم في ذلك إلا على بن أبي طالب حيث أورد له الشيعة، الصحيح والباطل، لينسبوا إليه ذلك، وهو - ﷺ - ليس في حاجة إلى ذلك، وإن "وات" نفسه قد أثبت أنه من الأولين، وهي لطيفة من لطائف "وات" أن المعجبين والأحفاد أثبتوا له ذلك، ولم يتحفظ "وات" ولم يحذر كما يطلب منا.

أما الفكاهة الأصلية فهي أن "وات" يزعم أن كل من قيل عنه إنه من السابقين فهو الخامس والثلاثون في القائمة، ولا يدري أى بحث هذا أم أنه يريد أن يضحكنا ولم الخامس والثلاثون وليس الرابع والثلاثين، حتى سخريته وفكاهته لا تحمل إلا الكذب ومخالفة الواقع إذ أن الخامس والثلاثين في القائمة ليس أياً ممن ذكر "وات".

أم أن المتقدمين الأوائل رضوان الله عليهم قد حجزوا المقعد الخامس والثلاثين لمن سيأتى من الأحفاد والمعجبين ليضعوا فيه جدهم أو محل أعجابهم؟! فخالفوا ذلك ووضعوهم في العشرة الأوائل، أو ضاق المقعد بالمعجبين فوزعوهم على المقاعد الأولى الفارغة!!؟

1 - انظر عبد الله النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية (٨٣).

رابعاً: يذكر "وات": ومثلاً قول الطبرى إنه بعد هؤلاء الثلاثة، على وزيد وأبو بكر الذين كانوا أول من انتمى إلى الإسلام يأتى عدد من المسلمين الذين جاء بهم أبو بكر موضع شك؛ لأن هؤلاء الرجال المذكورين هم فى الحقيقة الخمسة الذين أصبحوا القادة على حين وفاة عمر، فقد عينهم لتأمين انتخاب الخليفة. وإنه من الصعب القول بأن هؤلاء الخمسة أنفسهم قد جاؤوا معاً إلى محمد قبل عشرين سنة عند بدء الإسلام. وأسماؤهم هى عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبى وقاص، طلحة بن عبيد الله.^(١)

والرد على "وات" أين الحذر من الأحفاد والمعجيين فى هذه القصة، وأين هم أصلاً ليضعوا هؤلاء الخمسة فى السابقين إلى الإسلام.

إنهم كانوا من السابقين حقاً إلى الإسلام، وإلا فأين مصادر "وات" التى تثبت خلاف ذلك وليس له إلا مصادر الإسلام، وقد انتفى حذره من الأحفاد والمعجيين، فماذا بقى له من تخوف لتكون المصادر قد نقلت الحق والواقع كما هو، أم أنه كان يريد أن يلفقوا له مصادر تنفى الحق لتكون حقاً فى نظره عجيبة طريقة البحث هذه ليست بحثاً إنها تشكيك لا سند له ولا منطق لى لهذا التشكيك - بعد كلامه هو - ذرة من دليل يؤيده والمتصور المعقول هو أن عمر رضي الله عنه قد اختار هؤلاء الخمسة لسبقهم إلى الإسلام إذ تلك عادته فى تقديم الصحابة ومجلس مشورته، فإذا بفعل عمر هذا عند "وات" يصبح مادة الاشتباه فى صحة سبق هؤلاء الخمسة إلى الإسلام، وتلك عجيبة العجائب فى قلب الحقائق رأساً على عقب. فبدلاً من أن تكون الحادثة دليل سبقهم صارت شبهة عدم سبقهم!!^(٢)

op. cit pp. 86-87 moh. At mecca 86-87 - 1

2 - انظر عبد الله النعيم، الاستشراق فى السيرة (٨٣-٨٤).

ثم يقال ل"وات"، ما موضع الشك في الحادثة أى في اتيان هؤلاء الخمسة ليسلموا قبل عشرين سنة، وهى في الحساب خطأ من "وات" إذ لو حسبنا عُمَرَ دعوة النبي بثلاث وعشرين سنة وخلافة أبى بكر بسنتين ونصف وعمر أكثر من عشر سنين لكان الحساب الصحيح انهم أتوا النبي ﷺ قبل خمسة وثلاثين عاماً ما المانع في ذلك عقلاً أو عادة أو واقعاً أو على أى نحو من مناحى المنطق، لقد جاء على بن أبى طالب لِيُسَلِّمَ قبل ثمانية وخمسين عاماً من عند بدء خلافته ﷺ، وهذه لا يبارى فيها "وات".

وما رأى "وات" - وهو يعلم ذلك - أن هؤلاء الخمسة من العشرة الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة في حياته المكرمة، فليس إذن في حاجة إلى أحفاد ولا معجيين ليضعوهم في العشرة الاوائل في الإسلام بعدما وضعهم الله جل وعلا على لسان نبيه في هذا الإخبار بالغيب ضمن عشرة لا مقدم عليهم.

ثم النظرة الأخيرة - وليس للكلام مع "وات" آخر - كما ذكرنا إذ في كل سطر مما كتب ضلال تفنى الحياة ولم يستكمل المرء رده عليه، وهو من قدم على هؤلاء المكرمين أحداً أو قال لقد سبقهم فلان أو فلان إلى يومنا هذا، فلم الشغب بما يهمله الواقع ولا نتيجة له إلا الحزى والباطل بما هذا البحث لا طائل تحته من "وات"، لأنه بحث لم يؤد إلى نتيجة وفائدة، بل على العكس خالف الواقع وفهم هذا الواقع، استخرج لنا "وات"، أو اكتشف سبباً جديداً آخر لسبق هؤلاء إلى الإسلام، ألا وهو الصراع الطبقي، وهو من المناهج التى ظهرت في القرن الأخير، وطبقها "وات" بمنهج الإسقاط وهو أن يسقط هذا الجديد على ما مضى من خمسة عشر قرناً، إن البيئة القديمة لم تسمع بهذا المصطلح، فضلاً عن أن تطبقه أو أن تدعو إليه، أو أن تفسر الأحداث، أو أن يكون له واقع تفلسف به الأمور حتى عند إهمال المصطلحات والنظر إلى معانيها ومضامينها.

إن تطبيق المصطلحات الجديدة، وفي بيئاتها الجديدة، والتي هي مختلفة عن البيئات القديمة وعن البيئات العربية بالذات، هو بحث فيما لا علاقة له بالبحث، إنه إمساك بأطراف غريبة أجنبية عن البحث تؤدي إلى نتيجة لا نسب بينها وبين ما بحثت فيه، وليست النتيجة في النهاية إلا من عمل الباحث وفي عقله، وما يريد ويهوى لا بما يقوده إليه البحث هذا إن اعتبرنا أن البحث في هذه الطريق لا علاقة بالأبحاث أصلاً.

ذلكم «وات»، وليته جعل إسلام الطبقات الدنيا هي صاحبة المشكلة، فاصطدم بأن وجد السابقين ليسوا كلهم من الفقراء الذين لهم مآرب في مصارعة الأغنياء للحصول على فرص متكافئة.

ومن ثم ركز صراعه وهو عجيب بين الطبقة الوسطى والتي أعلى منها، وهو على حد علمنا كما بينه أصحابه المحدثون لا علاقة له بالصراع الطبقي الذي ينشأ ونشأ على بحث الغربيين في الصراع في أوروبا. بعد هذه المقدمة نرجع إلى كلامه "وات" نفسه لنتناقشه حيث يقول: إن الإسلام لم يستمد قوته من رجال الطبقة السفلى من السلم الاجتماعي، بل من أولئك الذين كانوا في الطبقة الوسطى، وأدركوا الفارق بينهم وبين أصحاب الامتيازات في الذروة، فأخذوا يقنعون أنفسهم بأنهم أقل امتيازاً منهم، فنشأ صراع ليس بين المالكين والمعوزين بل بين المالكين والذين أقل منهم.

وهنا نرى "وات"، يحدثنا عن متناقضات، وأمور لم تحدث، وواقع لم نسمع به مخالف على أقل تقدير لما نقله أصحاب السيرة، فضلاً عن مخالفته لدعوة الإسلام ومبادئه أما الأمور التي لم تحدث فهي أن هذه الطبقة المتوسطة أخذت تنفع نفسها بأنها أقل امتيازاً من الأعلى حتى نشأ الصراع، ولم يخبرنا "وات" كعادته بمصدر واحد استقى منه هذه المعلومات، التي لا شك في انتشارها إذ هي مبادئ الصراع وأفكاره.

ثانياً: أن شباباً من أفضل العائلات في مكة قد انتمى للإسلام، وخير مثال هو خالد بن سعيد بن العاص هذا كلام "وات" بنصه فما الذى حمل هؤلاء وهم أعلى درجات السلم الاجتماعى على الإسلام؟ وما هو الصراع الطبقي الذى أخذوا يحدثون به أنفسهم؟ بل أين حظ هذا الكلام من واقع ملموس نتشبت به في وقوع تفكير من ذلك فضلاً عن حدوثه؟ إن الواقع وانتشاره من الأدلة على أن تلك الأحداث لها حظ من الحقيقة كان على "وات" أن يبحث عن الأسباب الكامنة وراء إسلامهم، ليعطى للبحث شيئاً من القيمة والمصداقية، إن الخواء الروحي، والتطلع إلى ما يملأ القلب ويروى هذا الظم الروحي القلبي كان السبب المباشر، إذ لا يعقل أن يترك هؤلاء حياة الرفاهية والعلو الاجتماعى والسياسي، ثم بعد ذلك يحاربون لتحصيلها مرة أخرى هذا شيء أشبه بالخيال والعبث واللامعقول.

أما مخالفة مبادئ هذا الدين فتظهر مما يلي:

- ١ - أن الإسلام جاء ليدعو الناس كافة إلى توحيد الله وعبادته، ولا يعدهم بشيء إلا الجنة كما ذكرت السيرة في مبايعات الرسول ﷺ، ولم يفرق في الدعوة إلى الإسلام بين فئة وأخرى وهى دعوته إلى أنلقى الله عز وجل، ودخل من دخل فيها وهو يعلم تبعات ذلك ومشقاته كما أشرنا ونشير إن شاء الله تعالى.
- ٢ - أن تفكير المؤمنين وتحركاتهم كل ذلك مرجعه إلى أمر الله تعالى ورسوله، وأن أفكارهم وحياتهم قد صيغت على نحو جديد لا علاقة له بالموروث الجاهلى المخالف، وما كان ليأمر بذلك ويحدده، ويصير صاحبه مسلماً إلا باتباع النبي ﷺ، فأين ذلك في دينه وجهاده وحياته حتى انتقله إلى الرفيق الأعلى؟ إن المسلمين لم يكونوا ليفكروا أو ينشئوا شيئاً من بنات أفكارهم أو علاقتهم دون إذنه أو أمره، إن ذلك من "وات" تفريغ الدعوة من ارتباطها بالسماء وأنها وحى يوحى من الله، كما هو دأبه في دراسة السيرة.

إن ما ظهر من دراسة السيرة في السنة النبوية والقرآن الكريم كما وضحنا لتظهر القيمة العليا لأولئك الأبرار الأول الذين لم يكن لهم هم ولا توقع ولا انتظار لدينا حتى يشغلهم صراع طبقي مدعى، أو غيره مما لا يسير إلى نفس الاهداف وبالطريقة التي حددها لهم الله تعالى.

إنما كان شغلهم الدائم هو: ﴿فَدَكَّرَ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، مهما لاقوا في سبيل ذلك لا يثنيهم عن المضي فيه شيء، قدوتهم الرسول ﷺ كل ذلك ابتغاء وجه الله الأعلى.

إن قضية الإسلام كانت تعترضها أفكار الملائم وتخوفاتهم على زعامتهم أن تنقل لسيدنا محمد ﷺ عندما يدينون له بالطاعة لله، وهو ما رفضوه اعتباراً لدين آبائهم وتقاليدهم وخشية على مصالحهم وزعامتهم، أما الشباب فلم يكونوا على هذا الفكر، خاصة مع البحث واللهث عن الحق الذي يدينون به والذي لم يجده في يهودية ولا مسيحية وأصنام.

نكتفي بالرد عند هذا الحد على "وات" خاصة، وأن كلامه لن يغير من الواقع والتاريخ شيئاً، ولا هو يزيد علماً ومعرفة وتبيناً لحقائق التاريخ، فهو لا يزيد على قليل من الغبار الاسود الداكن يود أن يحجب به وجه الشمس المشرق، وأن يلوى به أعناق البحث العلمى الصلب المتأبى على التدليس.

المبحث السابع

الجهر بالدعوة

يبدو أن تكتم النبي ﷺ بأمر دعوة الناس إلى الله تعالى، قد انتهى تقريباً بنزول قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، إذ خرج ﷺ إلى جبل الصفا، فهتف: يا صباحاه، فقالوا من هذا: فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك، أما جمعتنا إلا لهذا!! ثم قال: فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

وقال أبو هريرة ؓ: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص، فقال: «يا بني كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم! يا بني عبد المطلب!... يا فاطمة فإني لا أملك لكم من الله شيئاً...»^(١).

كانت هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ، فقد فاصل الرسول ﷺ قومه على دعوته،

1 - البخارى، فتح البارى (٤٧٧١)، مسلم (٢٠٤)، واللفظ لمسلم، وسيرة ابن اسحاق (١٤٧)، والطبرى، جامع البيان (١٢٠/١٩)، وهناك روايات أخرى أنه جمع أهله وأطعمهم إلى اخره.... ولكنها ضعيفة، انظر د. أكرم العمرى (١٤٢-١٤٣)، وإن كان د. مهدي رزق الله له رأى آخر في بعضها انظر السيرة (١٦٣).

وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم، وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله.^(١)

ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ إن مكة بلد توغلت فيه روح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد أن يكون لها أثر خاص لما لهذا البلد من مركز ديني خطير فجلبها إلى خطيرة الإسلام لا بد أن يكون له وقع كبير على بقية القبائل، على أن هذا لا يعنى أن رسالة الإسلام في أدوارها الأولى محدودة بقريش، لأن الإسلام اتخذ قريشاً الخطوة الأولى في دعوته العالمية حيث نص في أوائل ما نزل على عالميته ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٢٨٧]^(٢)، وكان الموقف السلبي لعشيرة الرسول ﷺ، وقريش من الدعوة دليلاً على المصورين له بدعوة القومية العربية، أو الحزب الهاشمي، إذ كان من رؤساء العشيرة أبو طالب وأبو لهب ممن مات على الكفر.^(٣)

ثم يشير ترتيب الدعوة بإنذار الأقربين، إلى هذا الأولويات التي ينبغي أن يراعيها الدعاة إلى الله تعالى وكل داع حال دعوته، ودرجات المسؤولية التي تتعلق بكل مسلم خصوصاً وعموماً.^(٤)

ونعود إلى إسلام أبي ذر مرة أخرى، حيث قد أسلم ﷺ على التحقيق في فترة الجهر بالدعوة.

1 - فقه السيرة، محمد الغزالي (٩٦-٩٧).

2 - انظر عماد الدين خليل، دراسة في السيرة (٦٦).

3 - انظر د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (١٦٤).

4 - انظر د. البوطي (٨١).

حيث استدلل الحافظ بن حجر بقصة إسلام أبي ذر، واستضافة علي بن أبي طالب عليه السلام أجمعين إلى كونها بعد المبعث في سن يتمكن فيها على معرفة الغريب وسؤاله، والحيلة والحذر في الكلام معه ثم استضافته.

ونذكر الروايات الصحيحة أن أبا ذر رضي الله عنه كان منكراً لحال الجاهلية، يأبى عبادة الأصنام وينكر على من يشرك بالله، وكان يصلي لله قبل إسلامه بثلاث سنوات دون أن يخص قبلة بالتوجه ويبدو أنه كان متأثراً بالأحناف، ولما سمع بالنبى صلى الله عليه وسلم قدم إلى مكة، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه الليل، فاضطجع فرآه على صلى الله عليه وسلم فعرف أنه غريب، فاستضافه ولم يسأله عن شيء، ثم غادره صباحاً إلى المسجد الحرام فمكث حتى أمسى، فرآه على فاستضافه لليلة ثانية، وحدث مثل ذلك في الليلة الثالثة، ثم سأله عن سبب قدومه، فلما استوثق منه أبو ذر أخبره بأنه يريد مقابلة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له على: «فإنه حق وهو رسول الله فإذا أصبحت فاتبعنى، فإنى إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأنى أريق الماء فإن مضيت فاتبعنى، فتبعه وقابل الرسول صلى الله عليه وسلم، واستمع إلى قوله فأسلم، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتىك أمرى، فقال: والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم؛ فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه»، فأتى العباس بن عبد المطلب فحذرهم من انتقام غفار^(١)، والتعرض لتجارهم التى تمر بديارهم إلى الشام. فأنقذه منهم.

وهذه الرواية تفيد وجود بعض الأحناف في البوادي، ولعل ما بدا من حذر على عليه السلام وما وقع من ضرب قريش لأبى ذر، ومن وصف أنيس أخى أبى ذر الحالة في مكة عندما

1 - البخارى، فتح البارى (١)، ومسلم الصحيح (١٩٢٣-١٩٢٥)، ورواية عبادة بن الصامت في صحيح تذهب إلى أن اللقاء الأول بين أبى ذر والرسول صلى الله عليه وسلم ثم قرب الكعبة المشرفة بحضور أبى بكر رضي الله عنه.

دخلها قبل دخول أبي ذر، فقال لأخيه: وكن على حذر من أهل مكة فقد شنقوا له وتجهموا.

كل ذلك يفيد إعلان الدعوة والجهربها، وزيادة المعانة والاضطهاد للداخلين في الإسلام.

وهناك قصص أخرى من قصص دخول غير المكين في الإسلام تبين بوضوح وتظهر بجلاء الاعلان بالدعوة، والتبعات العظام التي زادت على المؤمنين وعلى من أسلم في تلك الفترة، كما سنشير إلى أنواع الاضطهاد والأذى في معاملة المكين وغيرهم لمن دخل الإسلام في مكة، وفي قبائلهم.

ودخل الإسلام في هذه الفترة ضهاد - من أزد شنوءة - فقد تم في مرحلة الجهر بالدعوة، حيث وصف المشركون الرسول ﷺ بالجنون فجاءه ليرقيه من مس الجنون، فسمع من الرسول ﷺ فأسلم.^(١)

وكذلك قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسى، وأنه دعا الرسول ﷺ للالتجاء إلى حصن المنيع، فأبى الرسول ﷺ ذلك^(٢). ولا بد أن دعوة الطفيل ﷺ، تلك كانت عند اشتداد المقاومة القرشية.^(٣)

1 - مسلم، الصحيح (٢/٥٩٣).

2 - ابن عبد البر، الاستيعاب (٢/٢١٦-٢١٧).

3 - د. أكرم العمري، السيرة النبوية (١٤٦).

المبحث الثامن

معنى الاضطهاد

نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وما زالت أصداء جهره ﷺ بالدعوة تموج بها جنبات مكة المكرمة، وأسرع - عليه الصلاة والسلام - صادعاً بالحق بعد إنذارهم، داعياً إلى هجر الأوثان، مواجهاً للمشركين بحقائق التوحيد، وبفساد الشرك، داحضاً أباطيل الجاهلية مسفهاً عقول المؤمنين بها، التي توارثوها خلفاً عن سلف، وهم مدركون تمام الإدراك لجدواها في تحقيق مصالحهم الاجتماعية والاقتصادية، الناجمة عن سدنتهم للكعبة بيت إبراهيم ﷺ، وما يتبع ذلك من حركات البيع والشراء التي من خلالها يجنون أرباحهم ومكانتهم، ما كانوا إذن ليركوا من الناحية العقيدية تلك الموروثات، التي هي السبب المباشر في ثرائهم وسيادتهم، ولو أدى ذلك إلى اتخاذ كل الاجراءات القاسية لوقف هذه الدعوة ووأدها.

بدأ أصحاب النفوذ والسطوة والمصالح إذن مجابهة الدعوة، والوقوف في وجهها بشتى الأساليب، سواء كان في مواجهة النبي ﷺ الذي يمثل الخطر الداهم عليهم، أو في مواجهة من آمن ودخل في الإسلام.^(١)

1 - د. أكرم العمري المصدر السابق، د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (١٦٢-١٦٣).

أذى الرسول ﷺ

ونبدأ بما لقي الرسول ﷺ من الأذى وتبعه بما لاقى الصحابة رضي الله عنهم، كل ذلك مما جاءت به السيرة، ثم نرتب أنواع المحاربة، والمواجهات التي قام بها المشركون لإيقاف الدعوة ومجابهتها، ثم نلخص ما ورد في القرآن الكريم من هذه السيرة، وبعدها نقف مع "وات" لنذكر كلامه في هذا البحث «الاضطهاد»، لنرى أنه لا يستحق الرد.

أتخذ الأذى صوراً شتى من السب العلني بكل أساليبه وألفاظه، ومن الضرر المادي.

وهذا الروايات تعتضد لتثبت الوقوع التاريخي للحدث، ويجيء الإثبات القرآني الجليل ليؤكد صحة ذلك بما لا يدع مجالاً للشك، دون التعرض لكل الجزئيات إذ ذلك ليس من مقصود القرآن الكريم ككتاب هداية ونور.

من هذه الروايات ما جاء عن أم جميل بنت حرب، امرأة أبي لهب أنها أقبلت عندما نزل قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: 1]، وهي تنشد: مُذَمَّمٌ أَيْنَا، ودينه قلينا، وأمره عصيناً، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه فسألت أبا بكر إن كان النبي قد هجاها، فنفى ذلك^(١). وكان رسول الله ﷺ يفرح لأن المشركين يسبون مذمماً يقول: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عنى شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمماً وأنا محمد»^(٢).

ويحكى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو أحد شهود هذه القصة فيقول: «بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي! أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرسها ودمها وسلاها، فيجيء به ثم

1 - الحميدي، المسند (١/١٥٣-١٥٤)، وأبو يعلى، المسند (١/١٥٣)، والحاكم، المستدرک (٢/٣٦١)، والحديث حسن غيره، وانظر د. أكرم العمرى، السيرة النبوية هامش (١/١٤٧-١٤٨).

2 - البخاري، الصحيح، فتح الباري (٦/).

يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه. وثبت النبي ﷺ ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض - الضحك. فانطلق منطلق إلى فاطمة رضى الله عنها - وهى جويرية - فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش».

ثم تسمى: اللهم عليك بعمرو بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بي ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعتبة بن أبى معيط وعمارة بن الوليد، قال عبد الله بن مسعود: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب - قليب بدر - ثم قال رسول الله ﷺ: «وأتبع أصحاب القليب لعنة»^(١).

وقد بينت الروايات الصحيحة الأخرى أن الذى رمى الفرث عليه هو عتبة بن أبى معيط، بتحريض من أبى جهل، وأن المشركين تأثروا لدعوة الرسول ﷺ وشق عليهم الأمر لأنهم يرون أن الدعوة بمكة مستجابة^(٢).

وقد ثبت أن الرسول ﷺ دعا على قريش لما كذبوه واستعصوا عليه فقال: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنة فخصت كل شيء حتى أكلوا الميتة والجلود، وجعل الرجل يرى بينه وبين السماء دخاناً من الجوع».

فأتى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: إنك تأمر بطاعة الله، وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم، وقد أثبت القرآن الكريم هذا الحادث فقال تعالى: ﴿فَازْتَقَبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠٠﴾ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ

1 - رواه البخارى، الصحيح (٢٩٣٤)، ومسلم، الصحيح (١٧٩٤)، وابن اسحاق، السيرة (٢١١).

2 - ابن حجر، فتح البارى (٣٤٩/١).

﴿ إِنِّي لَهُمُ الذَّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ [الدخان: ١٠-١٥].

فلما دعا ربه لهم آملاً في توبتهم عادوا إلى كفرهم ونسوا ما أخذوا على أنفسهم من الإيمان مما حكاه القرآن الكريم عنهم قالوا: ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾^(١).

ونلاحظ أن دعاءه عليهم ﷺ لم يكن بسبب أذاهم له، وإنما بسبب الإمعان في التكذيب والوقوف في وجه إيمان غيرهم فطالما احتمل أذاهم، ولم يدع عليهم، بل دعا لهم بالهداية بما يدل على أعلى مثل في الصبر، والاحتمال وإن أودى في ماله ونفسه وأهله.^(٢)

وهو الذي تدل عليه سيرته من أنه لما قال له جبريل هذا ملك الجبال لو أردت أن يطبق عليهم الاخشيين لفاعل، فأبى لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله ولئن كان ذلك في مكة فلقد كان في المدينة مثلاً أعلى لذلك أيضاً ففي غزوة أحد وقد شج وجهه الكريم وكسرت رباعيته، وهو يقول والدم يسيل على وجهه اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، وما كان ليفسر دعاؤه في الحالة السابقة، إلا بقوله هو ﷺ اللهم أعني عليهم يعني أن دعاءه عليهم كان من باب التذليل على قوة الله ونصره، وأنه نبيه وأنه صاحب رسالة منه فكان تصديق الله له بإنزال شيء من العقوبة بهم سبيلاً لتخويفهم حتى يؤمنوا وفعلاً قالوا: ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾^(٣)، فكان ذلك كالعون من الله له على دخولهم في الإسلام برويتهم مصداق دعائه.

ونستكمل تلك الصورة الأليمة فيما لاقاه النبي ﷺ يقول ابن حجر فيما صح عن أنس رضي الله عنه قال: «لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشى عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم

1 - البخارى، الصحيح(١)، ومسلم(١).

2 - ابن حجر، فتح البارى(٢/٥١١).

أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله؟ فتركوه وأقبلوا على أبي بكر^(١).

إن حرص الرسول ﷺ على الصلاة في المسجد الحرام أدى إلى الاحتكاك بالمشركين مراراً، وحرصه على إظهار شعائر الإسلام، واحترام الكعبة، ولقاء الناس لأغراض الدعوة، ومن هنا حاول المشركون صده عن تحقيق ذلك بكل أنواع الأذى، ولم ينقطع التهديد باستمرار الأذى ولو وصل إلى القتل، وذلك على لسان زعماء قريش منذ أن بدأت الدعوة العلنية، وكان يشتد ذلك ويتصاعد مع الأيام، ونذكر شيئاً مما وقع له في تلك الأيام إلى أن اضطر إلى الهجرة فمن ذلك:

ما حدث من أبي جهل عندما قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟

فقيل: نعم.

فقال: واللات والعزى؛ لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لا عفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ، وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه. فقيل له: ما لك؟

فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهو لا وأجنحة.

فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً.

ولقد خلد القرآن الكريم هذا الحدث، فقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿١﴾ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٢﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٣﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٤﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ٦-١٠].

وقد ذكروا في أسباب النزول أن هذه هي المرة التي جاءه أبو جهل فقال: ألم أنك عن

1 - الفتح (٣٨٥٦)، حيث رواه البزار وأبو يعلى.

هذا؟ ألم أنك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ بعد أن نهرَ أبا جهل وأغلظ له القول، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ١٧ ﴿سَدَّعُ الرَّبَابِيَةَ﴾ ١٨ ﴿

[العلق: ١٧-١٨].^(١)

وقد سأل عروة بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ: قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب الرسول ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمكبه، ودفع عن رسول الله ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

وكان رسول الله ﷺ يذكر شيئاً مما لاقاه من أذى قريش فيقول: «لقد أخفتُ في الله عز وجل وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون ما بين يوم وليلة ومالي ولا لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»^(٢)

وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بالشروع والاتفاق والإعداد والقيام بالمحاولة بالمحاولة الآثمة لقتله في أواخر المرحلة المكية مما عجل وكان سبباً مباشراً في هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة.

وإن محاولة قتله عليه الصلاة والسلام لم تقف عند ذلك الاتفاق قبل الهجرة مباشرة، بل وقع من الملاء من قريش قبل ذلك، إذ يحكى ابن عباس رضی الله عنهما تعاهداً على ذلك

1 - مسلم (٢١٥٤)، وأحمد، المسند (٣٧٠/٢)، والطبري، التفسير (٢٥٦/٣٠)، وانظر كذلك سنن الترمذی

(٥/٤٤٣/٤٤٤)، والالباني، السلسلة الصحيحة (٣٧٥)، وقال صحيح على شرط مسلم.

2 - أحمد، المسند (٢٨٦/٣)، سنن الترمذی وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في الجامع (٥٠٠١)، ومشكاه

المصايح (١٤٤٦/٣).

تم في الحجر من الحرم الشريف حيث يقول: «إن الملاء من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأينا محمداً قمنا إليه قياماً واحداً، فلم نفارقه حتى نقتله فأقبلت فاطمة تبكى حتى دخلت على أبيها. فقالت: هؤلاء الملاء من قومك في الحجر قد تعاهدوا أن لو رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك، قال: يا بنية أدنى وِضوءاً، فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا هذا هو، فخفضوا أبصارهم، وعَقَرُوا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رءوسهم، فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال: شأته الوجوه، قال: فما أصابت رجلاً منهم حصاة إلا قد قتل يوم بدر كافراً»^(١).

ولزاماً لا بد من الإشارة إلى بقية المواجهات، وأساليب الأذى التي أنزلها المشركون بالنبي ﷺ وجابهوه بها، خاصة وقد ذكرها القرآن الكريم بشيء من التفصيل، كل ذلك قبل أن نبين الاضطهاد الذي حل كذلك بالمؤمنين.

وإننا نخوض بعض الشيء في تفاصيل ذلك، حتى يكون الدليل الساطع في الرد على "وات"، في منهجه وآرائه في قضية الاضطهاد.

ومن أبرز تلك الأساليب:

١ - كان لجؤوهم إلى إبي طالب ليكف النبي ﷺ عن دعوته، أو رفع يده عن حمايته ونصره حيث ذهبت مجموعة من أشرافهم إلى عمه بتلك المطالب، أو أن ينازلوه وإياه حتى يهلك أحد الفريقين، فكفى ما أتى به من سب آلهتهم، وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم، وتضليل آبائهم وإن أبا طالب أرسل عقيلاً - ابن أبي طالب - إلى النبي ﷺ فلما حضر قال له عمه: إن بنى عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فأنته

١ - أحمد، المسند(١/٣٠٣-٣٦٨)، بإسنادين صحيحين كما قال أحمد شاكر في حاشية المسند.

عن أذاهم، فخلق رسول الله ﷺ يبصره إلى السماء، فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم، قال: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة، فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخى فارجعوا.

وإن المتأمل في هذا الموقف ليعلم أمرين:

الأول: عدم تردد أو نكوص أصحاب الدعوة عما أمروا به، وأنهم يجب أن يمشوا في القيام بواجب البلاغ مهما تحملوا في سبيله، مستمسكين بذلك، بل إن تركهم ذلك لمن المستحيلات التي لا يمكن أن تكون إلا أن يشاء الله أمراً كان مفعولاً.

الثاني: أن تراتيب حماية ونصرة الدعوة لبيد الله جل وعلا، وتقع من حيث لا يحتسب الدعاة والمصلحون، فهذا الموقف من أبي طالب وهو كافر قد استخدمه الله فيه للذود عن النبي ﷺ وإنها من حكم الله البديعة إذ لو كان مسلماً لنازله الكفار ولاذوه مع النبي ﷺ، وما كان ليكون له من جاه وهيبة واحترام، وإنما كانوا سيتجرأون عليه، ويسطوا إليه أيديهم والستتهم بأسوأ السوء.

٢- الاتهامات الباطلة لصد الناس عنه:

ومن هذه الاتهامات:

• الجنون، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَتَأْتِيَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم: ٥١]، وقد رد عليهم بقوله سبحانه: ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم: ٢-٣]، حيث بيناه من قبل.

• السحر والكذب، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم في ضمن ما كادوا به النبي ﷺ فقال

تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴿٤﴾﴾ [ص: ٤]، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٨]، وقد قال الوليد بن المغيرة، عندما جاء موسم الحج للملأ من قريش الذين سيقومون بصد الناس عن دعوة الرسول ﷺ: «يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً.....»، ومع أنه هو نفسه قد أكد لهم أن محمداً ﷺ ليس ساحراً ولا مجنوناً ولا كاهناً ولا شاعراً، إلا إنه ارتضى لنفسه ولهم أن يقولوا إنه ساحر ألا ترون كيف يفرق بين المرء وزوجه والولد ووالده وتفرقوا على هذا القول، وأخذوا يتلقون الناس يحذرونهم من أمر الرسول ﷺ، ومع ذلك شاءت إرادة الله أن ينشر ذكره في بلاد العرب بسبب من ذلك.^(١)

وأما اتهامه بالكذب فقد قال الله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤].

• واتهموه بالإتيان بالأساطير قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ آكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥].

• واتهموه بأن القرآن من عند البشر، وأن الله لم ينزل عليه شيئاً، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمُنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال أيضاً: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ سَمَوَاتٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

٣- السخرية والاستهزاء والضحك والهمز واللمز والتعالى على المؤمنين، لم يقف

1 - ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٧٢-١٧٣).

المشركون عند حد في سوء تعاملهم مع النبي ﷺ والمؤمنين، فأخذوا في أسلوب آخر يواجهون به المؤمنين، ويشبطونهم به عن الدعوة إلى الله تعالى، وشغلهم بشحن نفوسهم بالضيق والحزن عن مواصلة البلاغ المبين، وفي ذلك يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَذَا لَآءٍ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال ذاكراً لمزهم موبخاً لهم عليه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [٥٤] وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [٥٥] [المطففين: ٢٩-٣٠].

وثبت من طرق صحيحة أن أشراف قريش اجتمعوا يوماً في الحجر يتذكرون أمر الرسول ﷺ وما جاء به، وبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ ليطوف بالبيت. فلما رأوه غمزوه ببعض القول ثلاث مرات، فقال لهم: «يا معشر قريش، أما والذي نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح.....»^(١)، وقد فرعوا من هذا الموقف.

وكان من سخريتهم كذلك واستهزائهم ما قص القرآن الكريم في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخِدُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

وقد مرَّ ﷺ يوماً بجماعة من زعماء قريش فهمزوه، واستهزأوا به، فغاضه ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].^(٢)

وروى البخارى أن امرأة قالت للرسول ﷺ ساخرة مستهزأة: إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً. فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [١] وَاللَّيْلِ إِذَا

1 - أحمد، المسند، الفتح البارى (٢٠/٢١٩-٢٢٠)، وصحح شاكر إسناده، وابن أبى شيبه، المصنف (١٤/٢٩٧)، وابن اسحاق باسناد حسن، ابن هشام (١/١٨٥-١٨٦)، وذكره الألبانى في صحيح السيرة (١٤٨-١٤٩).
2 - ذكره ابن اسحاق، ابن هشام (٢/٤٢)، وذكره السيوطى في الدر المنثور (٣/٥).

سَجَى ﴿٣٠﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣١﴾ [الضحى: ١-٣].^(١)

وقد نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، لتدل على وجود هؤلاء المستهزئين، وشدة استهزائهم وأذاهم، بدليل ما فعل الله تعالى بهم، وكان فعله - سبحانه - بهم تسلياً للنبي ﷺ وتقوية لعزمه.

وكان من هؤلاء المستهزئين رؤوس الكفر وأئمة الضلال، فأرسل الله سبحانه عليهم جبريل ﷺ، بأنواع العقوبات، حيث أبادهم وقطع دابرهم، بأن عاقبهم عقوبات شديدة في أبدانهم، ليكونوا عبرة لغيرهم، ويكفى نزول القرآن الكريم بذلك المعنى، وهؤلاء المجرمون هم: الأسود بن عبد المطلب بن أسد، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والوليد بن المغيرة المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، والحارث ابن عيطل السهمي^(٢).

وكان من كبار المستهزئين أبو جهل، وروى عنه البخارى أنه قال مستهزئاً: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»^(٣)

واستكمالاً للسخرية والاستهزاء المنبئية على التعالى والكبر، قال المشركون للنبي ﷺ: لا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء، يعنون صهيياً وبلالاً وخباباً فاطردهم عنك، فهم النبي ﷺ بذلك طمعاً في إسلامهم وإسلام قومهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ

1 - البخارى (٤٩٥٠)، وانظر ابن حجر، فتح البارى (١٨/).

2 - أبو نعيم فى الدلائل (١/٢٦٨)، من رواية ابن اسحاق بإسناد حسن مرسلأ. وأما قصة عقوباتهم فقد رواها أبو نعيم، الدلائل (١/٢٦٨-٢٦٩)، وقال المحققان أخرجه ابن اسحاق فى السيرة (١/٤١٠)، ورجاله ثقات ولكنه مرسل، وقال السيوطى، الخصائص (١/٣٦٥)، أخرجه البيهقى وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما.

3 - البخارى، الفتح (٧/١٨٥)، (٤٦٤٨).

شَيْءٍ فَتَطْرُدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ [الأَنْعَام: ٥٢].^(١)

سب القرآن ومنزله ومن جاء به والتشويش عليه:

ثبت عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أنها نزلت ورسول الله ﷺ محتف بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾، أى بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن.^(٢)

وزيادة على ذلك، نهى الله المسلمين أن يسبوا أصنام المشركين لئلا يكون ذريعة لهم فيسبوا الله تعالى اعتداءً وجهلاً فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأَنْعَام: ١٠٨].

وكان المشركون مع ذلك يتواصون بافتعال الضجة العالية، والصياح المنكر عند قراءة القرآن الكريم، منعاً لسماع الناس له، أو لوصول الهدى إلى أحدٍ عندما كان الرسول ﷺ يقوم بتبليغ دعوة الله تعالى، وفي ذلك نزل قوله سبحانه واصفاً تلك الحالة المنكرة والتواصي بها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].^(٣)

أسلوب المساومات والترغيب والترهيب:

وكان من أساليب قريش في صد الدعوة، ومجابهة النبي ﷺ، أسلوب المساومة، ولم يكن

1 - مسلم والنسائي، من سعد بن أبو وقاص وانظر تفسير الآية في ابن كثير والقرطبي وغيرهما، وقد جمع الطبري الآثار الواردة في أسباب النزول وحققها أحمد شاكر، وانظر د. مهدي رزق الله، السيرة (١٧١).

2 - البخاري (٤٧٢٢)، مسلم (٣٢٩/١)، (١٤٥).

3 - انظر ابن الجوزي، زاد المسير (٢٥٢/٧).

ذلك إلا لترك الدعوة كما ظنوا في نهاية المطاف، سواء في أن يسكت النبي ﷺ عن آهتهم، وكذلك هم يسكتون عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، أو بأن يعبدوا إلهه يوماً، ويعبد آهتهم يوماً، كما في قوله تعالى واصفاً هذا العرض ناهياً عن ذلك: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١-٦].^(١)

وعندما اشتكى أبو طالب وزاد ثقله، قال كفار قريش لقد أسلم حمزة وعمر، وفشا أمر محمد ﷺ في القبائل، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، ليأخذ لنا على ابن أخيه، وليعطه منا، فإننا والله لا نأمن أن يبتزونا أمرنا، وعندما جاء وفدهم إلى أبي طالب قال للنبي ﷺ: «يا ابن أخي هؤلاء أشرف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله ﷺ نعم كلمة واحدة يعطوننيها يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم. وفي رواية: تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية، ففرعوا لكلمته ولقوله. فقال القوم: كلمة واحدة؟ قال: نعم. فقال أبو جهل: نعم وأبيك عشر كلمات، قال: تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دون الله. فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: يا محمد تريد أن تجعل الآلهة آلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجب. ثم قال بعضهم لبعض: ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دينكم حتى يحكم الله بينكم وبينهم، ثم تفرقوا، فأنزل الله فيهم أول سورة «ص»^(٢). أما أسلوب الترغيب، فقد استخدمته قريش لإثناء النبي ﷺ عن دعوته، ومن ذلك أنها أرسلت عتبة بن ربيعة للرسول ﷺ فقال له: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من

1 - ابن كثير، التفسير (٤/ ٥٦٠)، وغيره.

2 - أحمد، المسند (٣/ ٣١٤-٣١٥)، صحيح شاكر إسناده، والترمذي، السنن (٣٢٣٠)، قال: حسن صحيح، والحاكم، المستدرک (٢/ ٤٣٢)، وصححه ووافقه الذهبي، والطبري، جامع البيان (٢٣/ ١٢٥)، والواحدى، أسباب النزول (٢٠٩)، والسيوطي، الدر المنثور (٥/ ٢٩٥)، وغيرهم.

المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها: إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ.»

فلما فرغ من قوله تلا رسول الله ﷺ صدر سورة «فصلت» إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، وعندها وضع عتبة يده على فيه، وقام كأن الصواعق ستلاحقه، وعاد إلى قريش مخبراً إياهم، بأن ما سمع ليس شعراً، ولا سحراً، ولا كهانة؛ واقترح على قريش أن تدع محمداً ﷺ وشأنه^(١).

ولما لم يأت الترغيب بما اشتتهت قريش، وما كان؛ - فتلك دعوة الله تعالى، لا يسألهم النبي ﷺ هم ولا غيرهم عليها أجراً؛ وإنما هو يدعوهم إلى هدايتهم ونجاتهم -؛ لجأت قريش حينئذ إلى التهيب، واستخدمت فيه كل الوسائل الصادة عن سبيل الله، وقد أشرنا إلى أساليب منها.

وقد ذكر ابن اسحاق فيما ذكر ابن هشام، أن أبا جهل إذا سمع عن رجل قد أسلم، وله شرف ومنعة، أنبه وأخزاه وقال له: «تركت دين أبيك وهو خير منك لنسفن حلماً، ولنضعفن رأيك ولنضعفن شرفك.» وإن كان تاجراً قال له: ولنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به^(٢).

1 - ابن هشام، السيرة النبوية (١/١٨٧ - ١٨٨)، عبد بن حميد، المنتخب من المسند بتحقيق السامرائي والصعيدي (٣٣٧)، (١١٢٣)، بإسناد متصل، وحسن الألباني الحديث، فقه السيرة للغزالي (١٠٨).

2 - ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة النبوية (١/٣٢٠).

طلبهم المعجزات أو المزايا للنبي ﷺ على خلاف البشر:

ومما ظنوا أنه حجر عثرة أمام دعوة النبي ﷺ يكذبونه به، ويشوشون به على الناس لئلا يؤمنوا أن يظهروا الرسول ﷺ بمظهر العاجز عن أن يأتي لهم بما يقدر عليه الرب من خوارق العادات، مما يدل على أنه ليس مبلغاً عن الله تعالى، مع أنه لما جاءهم بشيء من ذلك، أجراه الله تعالى على يديه، قالوا مكذابين: «إن هذا إلا سحر يؤثر».

ومن ذلك قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

ورد عليهم سبحانه وتعالى في الآية نفسها بأن يقول لهم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

وسألوه أن يسير لهم جبال مكة، ويقطع لهم الأرض ليزرعوها، ويبعث لهم من مضي من الآباء الموتى أمثال قصي ليسألوه عن صدق محمد، ورد الله عليهم في قوله: ﴿وَلَوْ أَن قُرْءَانًا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].^(١)

لقد كانت مطلوباتهم تلك على وجه المعاندة، لا الاستفسار والهداية إن هي وقعت بحيث يتم إيمانهم ودخولهم في الإسلام بتحققها، ومن ثم لم يجابوا إلى كثير منها، وما أجيوا إليه ليس لتركهم العناد، بل لإظهار صدق النبي ﷺ وقوة الله وقدرته جل وعلا من ناحية

١ - انظر الطبري، جامع البيان (١٦/٤٤٦-٤٥٠)، أحمد شاكر إلى ابن عباس، وابن هشام، السيرة (١/٣٨١)، وانظر الشامي، سبل الهدى والرشاد (٢/٤٥٦-٤٥٧)، من خبر أبي يعلى، وأبي نعيم عن الزبير بن العوام، وانظر في السبل (٢/٤٥٢)، من رواية ابن اسحاق وابن جرير والبيهقي.

ولتحذيرهم من الاستمرار في الغي والاضطهاد من ناحية أخرى، وهو المؤدى إلى إهلاكهم كإهلاك من كانوا أشد منهم قوة وبطشاً. لذلك قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٠﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَدْرَهُمْ فِي طُعَيْنِهِمْ يَعْصَمُونَ ﴿١١١﴾ * وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ سَاجِدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١١].

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾^(١) [الإسراء: ٥٩].

وقد روى الإمام أحمد كذلك من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: سأل أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحى عنهم الجبال فيزدرعوا، ف قيل له إن شئت أن تستأني بهم وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم. قال: «لا با استأني بهم»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء: ٥٩].

الاعتداء والتعذيب والاضطهاد لبقية المسلمين:

إذا كان ما مضى ذكره شيء مما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم، فإن بقية المسلمين ذاقوا من ذلك الأمرين، وقد ذكرت السيرة شيئاً مما كان نذكر بعضه لنكمل به هذا البحث، ولننظر إلى كلام "وات"، المتهافت بعد ذلك.

1 - انظر ابن كثير، البداية والنهاية (٣/٥٥).

2 - انظر أحمد، المسند وعليه الفتح الرباني للساعاتي (٢٠/٢٢٢-٢٢٣)، من طريقين رواهما ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٥٧)، بإسناد جيد، وهكذا رواه النسائي من حديث جرير، وأورده ابن كثير في تفسير الآية، ورواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وذكر الشامي في سبل الهدى والرشاد (٢/٤٥٨)، انه رواه أيضاً الضياء في صحيحه عن ابن عباس.

روى أحمد عن ابن مسعود قال: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فلبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس...»^(١).

وروى ابن اسحاق في قصة هجرة عمر وقصة عياش معه أن قريشاً منعت هشام بن العاص بن وائل السهمي من الهجرة مع عمر وعياش، وفتنته فافتتن، واحتالوا على عياش فردوه من المدينة إلى مكة مقيداً.^(٢)

وكان عمر بن الخطاب قبل أن يسلم يوثق سعيد بن زيد، ابن عمه، ويكرهه ليرجع عن الإسلام^(٣)، ولم يستطع رسول الله ﷺ أن يفعل لهم شيئاً، وحتى عندما استقر بالمدينة لم يملك لهؤلاء إلا الدعاء، حيث كان يقول: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»^(٤).

ونال أبا بكر نصيبه من الأذى حتى خرج مهاجراً فأدركه الاخنس بن شريف ورده في جواره.

وذات يوم قام أبو بكر خطيباً في المسجد الحرام، فضربه المشركون ضرباً شديداً، ومن ضربه عتبة بن ربيعة حيث جعل يضربه على وجهه بنعلين مخصوفتين حتى ما يعرف وجهه من أنفه وجاء بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملوه في ثوب إلى منزله،

1 - انظر وصي الله على فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/١٨٢)، بإسناد حسن.

2 - ابن هشام، السيرة (١/١)، عن ابن اسحاق بإسناد حسن، ورواه البزار ورجاله ثقات، مجمع الزوائد للهيثمي (٦/٦٢)، البيهقي، الدلائل (٢/٤٦١-٤٦٢)، والسنن الكبرى (٩/١٣-١٤)، من طريق ابن اسحاق.

3 - البخاري، الصحيح (ح ٣٨٦٢).

4 - أحمد، المسند (ح ٧٢٥٩)، قال شاكر إسناده صحيح، ورواه البخاري (١)، ومسلم (ح ٦٧٥).

ولا يشكون في موته، وأقسموا لئن مات أبو بكر ليقتلن عتبة بن ربيعة.^(١)

وكان ابن مسعود من أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة؛ على الرغم من تحذير المسلمين له من عدوان المشركين، وخشيتهم عليه، فعندما فعل ذلك، ضربوه على وجهه حتى أثروا فيه، وعندما قال له الصحابة هذا الذى خشينا عليك، قال: ما كان أعداء الله أهون منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً، قالوا: لا حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون.^(٢)

وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته حتى يرجع عن دينه.^(٣)

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاجته وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشاً، فتخشف جلده تخشف الحية، وحتى حمله أصحابه على قسيهم لشدة ما به من جهه.^(٤)

واعتدوا على عمر بن الخطاب عندما أسلم، وحاولوا قتله إذ سال بهم الوادى مجتمعين يقاتلونه ويقاتلهم حتى أعبا وترك نفسه لهم، وانقذه الله بالعاص بن وائل السهمى وسوف يأتي ذكر إسلام عمر بن الخطاب إن شاء الله تعالى في موضعه بعد الهجرة إلى الحبشة إن أدركه البحث.^(٥)

ومن أوذى عثمان بن مظعون، فقد روى أنه عندما رجع من الهجرة الأولى إلى الحبشة دخل في جوار الوليد بن المغيرة، فلما رأى المشركين يؤذون المسلمين وهو آمن، رد جوار الوليد وعندما قدم «لبيد» بن ربيعة - الشاعر - إلى مكة وكان في مجلس لقريش ينشدهم

1 - انظر ابن كثير، البداية والنهاية حيث ذكر القصة كلها (٣/٣٣-٣٤).

2 - ابن اسحاق بسند حسن مرسل، ابن هشام (١/٢٨٨)، ورواه كذلك في السير والمغازي (١٨٦).

3 - المنصور فورى، رحمة العالمين (١/٥٢)، الرحيق المختوم، للمباركفوري.

4 - ابن اسحاق، السيرة (١٩٣)، بسند معضل، انظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية (١٨٣).

5 - يأتي ذكر إسلام عمر ﷺ، من رواية ابن اسحاق، ابن هشام (١/١)، وإسناده حسن.

شعره، قال لييد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، قال عثمان بن مظعون: «صدقت»، وعندما قال: «وكل نعيم لا محالة زائل»، قال له عثمان: «كذبت، نعيم الجنة لا يزول»، قال لييد: «يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسيكم فمتى حدث هذا فيكم؟»، فقال رجل من القوم: «إن هذا أيضاً في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى تفاقم أمرهما فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه فخضرها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: «أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابت لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة»، قال عثمان: «بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإنى لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس»، فقال الوليد: «هلم يا ابن أخي، إن شئت فعد إلى جوارك»، فقال: «لا»^(١).

وكان عم الزبير بن العوام يعلقه في حصير، ويدخن عليه النار، ويقول: «ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبداً»^(٢).

ولم يقتصر هذا الاضطهاد، كما يظن الظان أو يتبادر إلى فهمه على أهل مكة فقط، بل هذا أبو ذر الغفاري رضي الله عنه لما سمع خبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ودخل مكة وأخذ يسأل حتى عرف موضع الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وأسلم فخرج وأعلن إسلامه فضربه أهل مكة حتى أغشى عليه، وكاد أن يموت، فخلصه العباس رضي الله عنه منهم^(٣)، محذراً لهم بأن غفار يمكن أن تقطع طريق تجارتهم إلى الشام.

1 - الحديث روى من طرق ضعيفة، تدل على أن للقصة أصلاً، خاصة وقد ذكرها الإخباريون، موافقة منهجهم فقد رواها ابن اسحاق، ابن هشام (١٠/١٢)، والبيهقي في الدلائل (٢/٢٩٢-٢٩٣)، والطبراني في الكبير (٩/٢١-٢٤)، ونقله عنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٣٢-٣٤).

2 - الحاكم في المستدرک (٣/٣٦٠)، وسكتنا عنه، وأبو نعيم في الحلية (١/٨٩)، بإسناد مرسل رجاله ثقات.

3 - وهذا طرف ذكره البخاري (ح ٣٥٢٢)، ومسلم (ح ٢٤٧٣-٢٤٧٤)، في إسلام إبي ذر.

ولا يحسب القارىء أن هذا التعذيب قد اقتصر على ما ذكر، وأن كل أحد أخذ قسطه وانتهى الأمر، ورجع إلى حياته ودعوته، كلا ولكن التعذيب بقى ما بقيت الدعوة في مكة، بل كان يزداد ويتنوع على نفس الأشخاص وعلى غيرهم كلما دعوا أفراداً جدداً إلى الإسلام، وكلما رأى المشركون ازدياد عدد المسلمين، حتى آل الحال بهم إلى ترك مكة والهجرة إلى الحبشة، أو التخفى أو الدخول في جوار الكفرة.

تعذيب الموالى:

لقد نال الموالى القسط الأقسى والأفطع من التعذيب علانية على رؤوس الأشهاد، حيث صب المشركون جام حقدهم كله على هؤلاء الضعفاء لعدم المنعة التي تمنعهم، أو القوة التي يقاومون بها.

وقد وصل الحال بهم في التعذيب أن عذرهم الله تعالى بالنطق بكلمة الكفر يخففون بها عن أنفسهم سوء العذاب النازل عليهم.

قال سعيد بن جبير لابن عباس: «أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: «نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجوعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده.»^(١)

وقد ذكرنا حديث ابن مسعود أن أول من أظهر الإسلام سبعة إلى قوله فأما الباقيون فالبسوهم أدرع الحديد وصهروههم في الشمس وتكملتته، فما منهم من أحد إلا واتاهم على ما أرادوا، إلا بلائاً فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه

1 - ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة (١/١)، وابن كثير، البداية والنهاية (٣/٦٥).

الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد.^(١)

آل ياسر ﷺ :

كانت تلك الأسرة مضرب المثل فيما لاقاه المستضعفون من الأذى والابتلاء في تاريخ الإسلام، وكان بنو مخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهرية فيعذبونهم برمضاء مكة، ومر بهم الرسول ﷺ ذات مرة وهم يعذبون فقال لهم: «أبشروا آل عمار وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة.»^(٢)

وكان أول من استشهد في سبيل الله من هذه الأسرة خاصة، وفي الإسلام عامة: أم عمار - سمية - فقد طعنها أبو جهل بحربة في قلبها فماتت من جراء هذا الاعتداء الآثم.^(٣)

وتفننوا في أذى عمار، حتى أجبروه على أن يتلفظ بكلمة الكفر بلسانه، وذكر جمهور المفسرين أن من أسباب نزول الآية الكريمة: «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ.....» [النحل: ١٠٦]، هو موقف عمار بن ياسر.^(٤)

بلال ﷺ :

كان مولى لبعض بنى جمح، وهو بلال ابن رباح، وأمه حمامة، ذكر أنه كان حبشياً وهو المشهور.^(٥)

1 - أحمد، المسند (ح ٣٨٣٢ / شاكر)، وقال شاكر: إسناده صحيح، وذكره الذهبي في السيرة (٢١٧-٢١٨)، وقال: حديث

صحيح، وابن ماجه (١ / ٣٠)، الالباني وحسنه، وابن كثير، البداية والنهاية (٣ / ٦٤)، وغيرها من المصادر.

2 - أخرجه الحاكم في المستدرک (٣ / ٣٨٨)، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن هشام، السيرة (١ / ١)، وقال الالباني: حسن صحيح، فقه السيرة للغزالي (١٠٧-١٠٨).

3 - انظر د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (١٨٦).

4 - ذكرها ابن الجوزي، زاد المسير (٤ / ٤٩٥)، وصحح الالباني سبب نزول الآية في عمار بن ياسر، فقه السيرة للغزالي (١٠٨).

5 - وقيل كان نوبياً، وانظر ابن حجر، فتح الباري (١)، فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب بلال.

كان ﷺ صادق الإسلام طاهر القلب، وكان مولاه أمية بن خلف يخرجها إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: «لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى»، فيقول وهو في ذلك البلاء: «أحد أحد»^(١).

وروى أن بلالاً قال: «أعطشوني يوماً وليلة، ثم أخرجوني فعذبوني في الرمضاء في يوم حار»^(٢)، وعندما رآه أبو بكر ﷺ في هذه الحالة ساوم سادته على شرائه، فاشتراه وأعتقه بخمس أواق، وهو مدفون بالحجارة»^(٣).

وفي الصحيح أن بلالاً قال لأبي بكر: «إن كنت إنما اشتريتنى لنفسك فأمسكنى، وإن كنت اشتريتنى لعمل الله فدعنى وعمل الله»^(٤).

هذا غير بلاء عريض ناله إلى أن أعتقه أبو بكر ﷺ، وما زال الاضطهاد قائماً حتى بعد عتقه إذ كان البلاء نازلاً على غيره وهم أحرار.

خباب بن الأرت:

هو خباب بن الأرت... التميمي ويقال الخزاعي، سُبِيَ في الجاهلية، فبيع بمكة، وكان مولى لأم أنمار الخزاعية، وقيل غير ذلك، ثم حالف بنى زهرة، كان يعمل قيناً - حداداً - يصنع السيوف، وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام.

1 - د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (١٨٨).

2 - البلاذري، أنساب الاشراف (١/١٨٦).

3 - ابن حجر، الفتح (٤/٢٢٨)، وابن عبد البر، الاستيعاب (٢/٣٤)، بسند قوى، وذكره البغوي والخازن، (سورة الليل،

والبلاذري، أنساب الاشراف (١/١٨٦).

4 - البخاري، الصحيح (ح ٥٥٣٧).

وعندما أظهر إسلامه وقع عليه شتى أصناف التعذيب والأذى فى المال والنفس، فى ضمن وكانوا يضجعونه على صخور ملتهبة، ثم يضعون عليه حجراً حتى لا يستطيع أن يقوم^(١)، وأوقدوا له ناراً ووضعوه عليها فما أطفأها إلا ودك ظهره، كما ذكر خباب نفسه، وقد كشف عن ظهره لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وذكر أيضاً أنهم كانوا يضجعونه على الرصف، ومع ذلك لم ينالوا منه ما أرادوا.^(٢)

وله قصة تدل على أن استباحوا منهم كل شيء، وهى فى المال، مع العاصى بن وائل حيث صنع له خباب سيفاً فأتاه يتقاضاه فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فقلت: لا أكفر بمحمد - عليه الصلاة والسلام - حتى يمينك الله ثم يمينك، قال: إذا أماتنى الله ثم بعثنى ولى مال وولد، فسأقضيك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم: ٧٧-٧٨].^(٣)

ومما يطالعنا فى هذا المبحث من الاضطهاد والأذى، هذا السؤال لم يلاقى المؤمنون هذا التعذيب وهم جنده سبحانه وعلى الحق المبين وفيهم رسوله صلى الله عليه وسلم؟

والجواب: أن المؤمنين مطالبون بعبودية السراء وعبودية الضراء قياماً بتحقيق أمره: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وخاصة الرسل وأتباعهم القائمين الأوائل بدعوة التوحيد وإفراد الرب بالعبادة، وتحمل تلك المسؤولية والجهاد فى سبيلها، ودفع ضريبتها من مشقة وعنت حتى يكونوا القدوة لمن بعدهم، ولا يقوم بذلك إلا الأحقاء بذلك، ومن ثم ينزل البلاء ليميز الصادقين من الكاذبين قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ

1- ابن الجوزى، تليقح فهم الأثر (٦٠).

2- أبو نعيم، الحلية (١/١٤٤)، بإسناد صحيح.

3- ابن حجر، فتح البارى (ح ٤٧٣٣)، ومسلم، شرح النووى (ح ٢٧٩٥).

الْكَذِبِينَ ﴿٣٠﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، وإنه لأمر من مهات هذه الدين، وهو تنقية الصف المسلم من لو لم يعلم بحاله، يوشك أن يكون سبب الهزيمة والخسران والانكسار، فلا ينتصر الدين الذى وعد الله بنصره، ومن ثم يحقق فيه سبحانه أسباب النصر وينفى عنه أسباب الهزيمة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۗ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

وكان أعظم ما يتمايز به المؤمنون من غيرهم هو الجهاد والصبر، ولذا كانا محك الاختبار ومورد الفتنة قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ولا يظن المؤمنون بعد ذلك أن ذلك الفعل من الله يمكن أن يذهب بالدين وبالؤمنين، بل ذلك من أعظم سبب كسر الكفرة ومحققهم يقول تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤١﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١].

ولا يعزب وإن حدث ويحدث، عن بال المؤمنين أن طول وشدة البلاء، توقف الدعوة وتؤخر النصر وتشكك في أمر الله، لأن الله يطمئنهم إلى قرب النصر على عكس الظن وتردد الشك في النفس بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

فكان المؤمنون بعلمهم بتلك القواعد الراسخة التى تثبتهم وتقوى عزائمهم وتشد من أزرهم مستبشرين بالنصر، لا يتطرق إليهم البأس ولا الحزن ولا الضيق، ولا يستوحشون من طول الطريق وكثرة العقبات، صامدين متوكلين على ربهم واثقين فى قرب نصره ونزول فرجه.

إن مما يلاحظه - كذلك - المتأمل فى هذا الاضطهاد، أن شدة التعذيب جعلت بعضاً

من المؤمنين، الذين كادت أن تزهق أرواحهم مما لاقوا يوافقون الكفرة على النطق بكلمة الكفر، إبقاء على مهجهم، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، ولم يؤثر ذلك في إيمانهم أن أخذوا بالرخصة، ولكن آخرين كُثر ضرب أعلى الأمثال في الثبات على دينهم، والرضا بجوار ربهم إن هم انتقلوا إليه على تلك الحال، رخيصة هينة أرواحهم فوجنب الله تعالى، متوكلين عليه أحسن التوكل، ولم ينسى التاريخ، ولن ينسى تلك المواقف البطولية الحقة لأولئك الأوائل المصطفين من الصامدين، ليصيروا بذلك القدوة لأصحاب المبادئ في كل زمان ومكان.

يقول ابن كثير في تعليقه على موقف عمار بن ياسر من التعذيب: «ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالى المكروه على الكفر إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يستقتل كما كان بلال ؓ، يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري، لما قال له مسيلمة الكذاب: «أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: «نعم»، فيقول: «أتشهد أنى رسول الله؟»، فيقول: «لا أسمع». فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك... والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر، في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي.»^(١)

ولا شك أن أعداء الإسلام في كل زمان ومكان عندما يتمكنون منهم يسومونهم سوء العذاب، وخطط الإبادة، وصنوف التعذيب، ولن يكفوا عن استخدام كل الوسائل لإطفاء نور الإسلام، ومحاربة دعائه، والله الأمر من قبل ومن بعد، والله غالب على أمره.

1 - ابن كثير، التفسير (٤/٥٢٥-٥٢٦).

العهد المدني

العهد المدني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَشْكُرَهُ لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ
لَخَلَّفْنَاكُمْ فِيهَا وَكَانَ حَقَّ عَلَيْنَا لَأْتَيْنَنَّكُمْ فِيهَا فَكُنَّا قُوتًا فَتَنَّا
وَمَا كُنَّا بِمُعْجِزِينَ لَكُمْ وَلَئِنَّكُمْ إِتَيْنَا لَكُنَّ عَسَىٰ لَمَّا كُنْتُمْ
فِيهَا كَافِرِينَ

أسس بناء المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية فى المدينة

المبحث الأول

بناء المسجد

كانت إقامة المجتمع الإسلامي المتناسك، الذي تقوم عليه دولة الإسلام، أول ما قام النبي ﷺ ببناء دعائمه، وتشديد أساساته، حتى صارت أعظم دولة عرفها التاريخ، - وإن الاهتمام بقيام تلك الأركان والأصول، كفيلٌ بإعادة تلك الدولة، دولة الحق، والعدل، والهداية، إلى العالمين، تنير الدنيا، وتطلب الآخرة - . وكانت أول خطوة، قام بها النبي ﷺ، في سبيل ذلك، هي بناء المسجد، بؤرة الإشعاع الديني، والسياسي، والثقافي، والاجتماعي، في المجتمع المسلم، لأنه إنما يكتسب صفة الرسوخ، والتناسك، بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وما ينبع ذلك كله إلا من روح المسجد ووحيه.

كان رجال من المسلمين، يُصَلُّونَ في المكان الذي بركت فيه ناقة النبي ﷺ، - وكان مربرداً للتمر لغلامين يتيمين من بني النجار، في حجر أسعد بن زرارة، هما سهيل وسهل -، فقال رسول الله ﷺ: «هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْمَنْزِلُ»، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربرد ليتخذنه مسجداً، فقالا: «بل نهبه لك يا رسول الله» فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة، حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً^(١)، وفي رواية أخرى للبخاري^(٢)، أنه ﷺ عندما أمر ببناء المسجد أرسل إلى ملاً بني النجار، فجاؤوه، فقال لهم: «يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي

1- ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٥ / ١٠١) .

2- الفتح (١٥ / ٣٢) .

بِحَائِطِكُمْ هَذَا»، فقالوا: «لا! والله لانطلب ثمنه إلا إلى الله!»؛ وفي الصحيح، أن مكان المسجد كان فيه قبور المشركين، وكان فيه خرب، وكان فيه نخل. فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه حجارة، وجعلوا ينقلون الصخر ورسول الله ﷺ ينقل معهم وهم يرتجزون:

اللهم إن الخير خير الآخرة .. فانصر الأنصار والمهاجرة^(١)

وغير ذلك من الرجز ورسول الله ﷺ يرتجز معهم.

واستغرق البناء اثني عشر يوماً^(٢).

ثم فُرض الأذان، بالكيفية التي عليها الآن، في السنة الأولى على الأرجح، وذلك عندما رأى عبد الله بن زيد ﷺ في منامه صيغة الأذان، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذن بها، وعندما سمعه عمر ﷺ، جاء إلى رسول الله ﷺ وقال إنه رأى ما رأى عبد الله بن زيد.

ظل المسجد على حاله الذي بناه عليه الرسول ﷺ، فلم يزد فيه أبو بكر ﷺ شيئاً، وزاد فيه عمر ﷺ بأن أعاد عُمُدَه وجعلها خشباً، وحَمَى سقفه من المطر، ثم زاد فيه عثمان ﷺ زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة، وجعل عُمُدَه من حجارة منقوشة وسقفة من ساج^(٣).

ولم يكن له ﷺ منبر يُخطب الناس عليه في مسجده، بل كان يُخطب وهو مستند إلى جذع

1 - المصدر نفسه.

2 - البيهقي، دلائل النبوة (٢/٥٠٩) من رواية عبد الله بن الزبير.

3 - البخاري، الفتح (٣/١٠٦ و ١٠٨ / ح ٤٤٦). والساج: نوع من الأخشاب الهندية، أبو داود (١/٣١١) ح ٤٥١ / الدعاس). وقال ابن حجر في الفتح (٣/١٠٨) عن عمل عثمان (رضي الله عنه) هذا: "فحسنة - أي المسجد - بما لا يقتضى الزخرفة".

عند مصلاه، فلما انْخَذَ للرسول ﷺ منبر، وعدل إليه ليخطب عليه، خار ذلك الجذع، وحن حنين النوق العشار، لما كان يسمع من خطب الرسول ﷺ، فوضع يده عليه حتى سكن كما يسكن المولود الذي يسكت. وهذا من دلائل نبوته - عليه الصلاة والسلام -^(١).

وإن بالمسجد لتتحقق أنظمة وآداب الإسلام، التي سعى إليها الرسول ﷺ، من أول يوم وصل فيه إلى المدينة المنورة.

• إن من أول نظم الإسلام وآدابه، شيوع آصرة الأخوة والمحبة بين المسلمين، ولا يتم ذلك إلا بتلاقى المسلمين مرات متعددة، في بيوت الله، تتساقط فيها فوارق الجاه والمال، لتحل بينهم روح التألف والتأخي والمودة.

• وإن من أعظم ما جاء به الإسلام، وعمل على تحقيقه ونشره، وقد ساد واقعاً وفكراً، هو بث روح المساواة والعدل، بين المسلمين في مختلف أحوالهم، وعامة شؤونهم، ولا يتم ذلك إلا بوقوفهم صفاً واحداً، متجهين لرب واحد، وقبله واحدة، لا فرق بينهم إلا بتقوى الله تعالى، ولا يتم ذلك إلا في بيوت الله، فمهما انصرف الناس إلى بيوتهم يصلون، لا يظهر ذلك، فضلاً عن أن تشيع تلك الروح؛ إلا في بيوت الله تعالى.

• وكذلك انصهار المؤمنين في بوتقة من الوحدة الراسخة، يجمعهم عليها حبل الله، الذي هو حكمه وشرعه، فإلم تقم في أنحاء مجتمع المسلمين مساجد، يجتمعون فيها على تعلم حكم الله، وشريعته ليلمسكوا بهما، ويدعوا إليهما على علم وبصيرة، آلت وحدتهم إلى شتات، وفرقتهم الأهواء والشهوات.

ولقد كان المسجد يقوم بأعظم دور، من صغير الأعمال - كما يتصور البعض - إلى جليلها:

1 - البخارى (٣٥٨٥).

- فكان مكاناً لتعليم المسلمين أمور دينهم.
 - و كان مكاناً لاستقبال الرسل - السفراء - الذين يفدون على رسول الله ﷺ.
 - وكان مكاناً لعقد ألوية وجيوش وسرايا المجاهدين.
 - كما كان مكاناً لاعتقال أسير الحرب المشرك، إذا كان في ذلك عظة لمن يراه، أو عظة له في سماع القرآن، ورؤية هداية وأخلاق أصحاب هذا الدين.
 - وكان أعظم مكان، وأكثر اتساعاً، لكى يجتمع الصغير والكبير بقائدهم، مما يُشعر بقرب القائد، وتحمله معهم السراء والضراء، ومعرفة أحوالهم مباشرة، والقيام على حل مشاكلهم، ومناقشة شجونهم وشكواهم، مع التآلف والتواضع الجسم بينهم، الذى يزيد في آصرة هذا الدين، وفدائه بأرواحهم.
 - وإن ضعفاء المسلمين، من المهاجرين، والفقراء، ممن عرف بأهل الصفة، وغيرهم لم يكن لهم مأوى إلا المسجد، وكذلك ضعفاء النساء - اللاتى أسلمن من نساء العرب - ولم يجدن محلاً يأوين إليه^(١).
- لما سبق، بعد التأمل، نبادر بالقول: إنه لما عرف الكفرة والمنافقون أهمية المسجد، في قوة المسلمين، وقيام دولتهم، وثباتها، بدأوا من مطلع الدعوة، إلى يومنا هذا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، في محاربة المساجد، وتقليص دورها في حياة المسلمين، وإيقاف بنائها، وإغلاقها، وإقامة مساجد للضرار، ترفع راية الفساد، والإفساد في الدين باطناً، وتعلن ظاهراً غير ذلك؛ نكاية في أهل الإسلام، وتفريقاً بينهم، وتشتيتاً لشملهم، والأمثلة لا تحتاج إلى تفصيل.

١ - انظر لما سبق د. البوطى، فقه السيرة، ١٥١ وما بعدها، ود. مهدي رزق الله، السيرة النبوية، ص ٢٩٥ وما بعدها، والبخارى، فتح البارى (٣/١٠٢)، (٣/١٠٠)، وانظر د. أكرم العمرى المجتمع المدنى (٨٩-١٠٥).

وإن أول من فعل ذلك، في حياة الرسول ﷺ -نفسه-، هم المنافقون، الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، حيث أقاموا وشيدوا مسجد الضرار.

نعود كما هو منهجنا، إلى سيرة المسجد في القرآن الكريم، نتبع آيات ذكرها، نستشف منها -باختصار سريع- تلك السيرة العطرة للمسجد، ومعانيها، كما أراد الله تعالى، ودعا إليها رسول الله ﷺ، بتحليل هذه الآيات، ومقارنتها مع السيرة المطهرة.

وها هي ذي تلك الآيات المختارة، على ترتيب واقعها.

الأولى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِاللُّغُوِّ وَالْأَصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ [الأنفال: ٣٦-٣٧].

الثانية: ﴿ أَنْ طَهَّرَ ابْنِي لِلطَّافِينَ وَالْعَكِيفِينَ وَالزُّكَّعَ السُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥].

الثالثة: ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨].

الرابعة: ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]

الخامسة: ﴿ يَبْنِيءَ آدَمَ حُدُودًا زِينَتِكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١].

السادسة: ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ مُجْتَبُونَ أَنْ يَنْتَهَبُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٨]

السابعة: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٨].

الثامنة: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ١٠٧]

التاسعة: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَّ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا حَافِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٤].

العاشرة: ﴿ وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ونظرة إجمالية، في هذه الآيات الكريبات، نراها تبين - بما نزل منها في المدينة، وبما نزل في مكة، وهو قليل بالمقارنة بما نزل في المدينة، نظراً لظروف الدعوة أيامها - سيرة المسجد على مدار حياة النبي ﷺ، وإلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى. ويوضح التصاق سيرته ﷺ بالمسجد، دليل هداية الدعوة، وربانيتها، وتوجيهها إلى الله تعالى، وكيف تكون المساجد، - كما رأينا تطبيق الرسول ﷺ العملي، وتطبيق الصحابة - محل النور، والذكر، والمراكز التي تشع منها كل طرائق الخير، وسبل الرشاد، على العالمين، في الدنيا والآخرة.

ظهر ذلك بأن يتوجه فيها المسلمون، إلى قبلة واحدة، صفواً واحداً، يعبدون إلهاً واحداً، سواء كانت قبلتهم في مكة إلى بيت المقدس، أو قبلتهم في المدينة إلى الكعبة المشرفة، حيث جاءت آيات، توضح ما نحن بصدده، كقوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٤٤]. فدل على أن الله تعالى غير له القبلة، التي أمر بها، والتي لم يكن له أن يغيرها إلا أن يأتيه أمر الله تعالى بذلك.

وبينت الآيات إجمالاً، لزوم رفع هذه المساجد، بناءً وتشبيهاً، وكذلك رفعها بما يكون فيها من إشهار فضلها وسمو منزلتها. وأمر كذلك - سبحانه وتعالى -، بعد تشييدها، ورفعها، بتطهيرها من كل ما يخالف معنى الطهارة حساً، ومعنىً.

ثم نادى على كل الناس - وكان ذلك في مكة - بالأدعاء مع الله أحداً في مساجده، وأن دعاءهم وتوحيدهم، له وحده لا شريك له. وأن يقيموا وجوههم مستقيمين له، غير

عادلين به غَيْرَه، مخلصين له، غير مشركين به.

ثم عزز ذلك بالظاهر - إذ كان الإخلاص زينة الباطن - بأن يأخذوا أحسن زينة عند كل مسجد.

وأن أعظم المساجد الذي يجب أن يقوم فيه، - لوجوده ﷺ في المدينة ساعتها - هو مسجده المعظم، لأنه أول مسجد أسس هنالك على التقوى، وأن القائمين فيه من باب الأولى - الذين هم صَحْبُه - هم الذين يحبهم الله لأنهم يحبون أن يتطهروا لله تعالى، ظاهراً وباطناً، وذلك موضوع محبة الله تعالى لأهله.

قد يتردد الناس في القيام بما سبق، فبين لهم أنه لا يقوم بتعمير تلك المساجد - مهما ساءت الظروف وادهم الخطب - إلا المؤمنون بالله واليوم الآخر، المقيمون صلاتهم، المؤدون زكواتهم، ويتجلى ذلك كله، بعدم خشيتهم وخوفهم إلا من الله تعالى، وأولئك يُرجى أن يكونوا من هؤلاء الذين ﷺ، وهم المهتدون.

ولا يهولنك بعد أن كانت تلك سيرة المسجد، أن يقوم المنافقون والكفرة، بمنع مساجد الله تعالى، أن يُذكر فيها اسمه، سواء ببناء مساجد الضرار، أو بالسعي في تخريب المساجد، بكل ما حدث أو يحدث، من أنواع التخريب، فإن لهم خزيًا شديدًا في الدنيا، وعظيم العذاب في الآخرة.

وكيف لا يعذبهم الله تعالى كل العذاب المؤلم لهم، ويخزيهم بكل أنواع الخزي، وهم يصدون عن دينه، ومعرفته، وتوحيده - وهو أعظم شيء -، بالصد عن بيوته، وخاصة بيته الحرام.

رأينا بهذا الإجمال، كيف ترتبت تلك الآيات التي اخترناها، لتكون جزءاً من سيرة

المسجد في الإسلام، خاصة إذا علمنا، أنها - وغيرها من الآيات الواردة في نفس الموضوع - لتؤكد بأسباب نزولها اتصال تلك الحلقة، وتسلسلها الزمني، والحكمي، بما يشي بارتباط الدين، ونشره، بالمسجد، وكذلك بشيوع آدابه وأخلاقه، بالمسجد، وبتربية المسلمين على أحسن نظام، - دقيقه وجليله - بالمسجد.

وننظر - استكمالاً لما سبق - في موضعين - توخياً للاختصار - من الآيات السابقة، نفصلهما، نوضح بهما شيئاً من المقصود.

الموضع الأول: آيته مكية، حيث وردت في سورة الأعراف، وهي في ترتيب السيوطي^(١)، الثامنة والثلاثين، حسب الترتيب الزمني لنزول القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴿٣٠﴾ [الأعراف: ٢٩-٣٠].

وبتأمل هذه الآية، وبالنظر في سياقها، نرى أنها جاءت نفيًا، لما سبق ذكره من المشركين، بأن الله جل وعلا - حاشا له - يأمر بالفحشاء، فأنكر عليهم، وبين لهم، ولغيرهم، إلى يوم الدين، ما يأمر به ربهم سبحانه وتعالى، حيث ذكرت الآية مقومات، وأركان الدين الحق، فكراً، وسلوكاً، ودعوة، فجمعت ذلك ملخصاً في ثلاثة أمور:

الأول: الأمر بالقسط.

الثاني: إقامة الوجوه عند كل مسجد.

الثالث: دعاء الله تعالى، بالإخلاص في الدين له.

1 - محمد عزه دروزه، سيرة الرسول (١/ ١٥٥).

وقد صَدَّرت ذلك كله بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ توجيه أمر للنبي ﷺ بأن يعلن ذلك، وأن يرسله في كل ملاء، ليبين دين الله تعالى، مقيماً به الحجة، نافياً عنه اللبس، والإفك، وإن قلنا ثمَّ دليل على الوحي القرآني، للرد على "وات"، وعلى التحليل النفسى، فهو هذه الآية الكريمة، والتي تقول للنبي ﷺ: ﴿قُلْ﴾ أى: ليس من عنده، وما هو إلا مبلغ، وتوضح له ماذا يقول، مما يستحيل أن يكون قد سمعه قبل ذلك، فخرنه في عقله الباطن - كما يزعم -، إذ ما قاله ﷺ، لم يكن ليقوله، أو ليستطيع أن يرتبه ذلك الترتيب، بشرُّ حينئذ، من حيث الأسلوب، أو المعنى، أو تَرْتَبُ هذه المعانى على الواقع، مع الإخبار بالبعث، والهداية والضلال.

وَشَرُح ذلك ببعض التفصيل، مما يطول بحثاً ونقلاً، ولكن نسوق شيئاً مما ذكره المفسرون، ونخص ابن عاشور بالذكر، لتوضيحه ذلك لغةً، وبلاغةً فيقول ما ملخصه^(١):

بعد أن أبطل زعمهم، - أن الله أمرهم بما يفعلونه من الفواحش - إبطالاً عاماً بقوله: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ»^٢، استأنف استئنافاً استطرادياً، بما فيه جماع مقومات الدين الحق، الذى يجمعه معنى القسط، تعليماً لهم بنقيض جهلهم، وتنوياً بجلال الله تعالى، بأن يعلموا شأن الذى يأمر الله به، ولأهمية هذا الغرض فصلت هذه الجملة عن التى قبلها، ولم يعطف القول على القول، لأن فى إعادة فعل القول، وفى ترك عطفه على نظيره لفتاً للأذهان إليه.

والقسط: العدل، وهو هنا بمعناه الأعم، الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط فى الأشياء، وهو الفضيلة من كل فعل، فالله تعالى أمر بالفضائل، وبما تشهد العقول السليمة أنه صلاح محض، وأنه حسن مستقيم، نظير قوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

1 - انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٨ / ٨٤-٨٥).

فالتوحيد عدل بين الإشراف والتعطيل، والقصاص من القاتل عدل بين إطلال الدماء، وبين قتل الجماعة من قبيلة القاتل، والإحسان عدل بين الشح والإسراف، فالقسط صفة للفعل في ذاته، لكي يكون ملائماً للصلاح، عاجلاً، وآجلاً - أي: سالماً من عواقب الفساد - . فقوله إذن: «أَمْرَئِي بِالْقِسْطِ». كلام جامع، لإبطال كل ما يزعمون أن الله أمرهم به، مما ليس من قبيل القسط.

وإذا كان القسط هو أمر الله تعالى، وكان توحيد الرب، وإجلاله، وتعظيمه، وإظهار هذا كله، من أعظم القسط، أعقبه بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: قل أقيموا وجوهكم.

وإذا كان القصد الأول، إبطال بعض ما زعموا من أن الله أمرهم بالالتزام به، ففي هذا الأمر التصريح بما يرضى الله عز وجل. وهو إقامة وجوههم، دليلاً على كمال الإقبال على عبادة الله تعالى، في مواضع عبادته^(١)؛ ولما لم يكن لهم في مكة حينئذ إلا المسجد الحرام، ونزلت الآية تفيد الجمع: ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ - أي: عند كل المواضع التي يستخفون بالعبادة فيها - حملت البشارة بأن ستكون لهم مساجد، يقيمون فيها وجوههم لله تعالى، وأعدهم لذلك بالتوجه إليه في معنى الإقامة، فلا يلتفتون يمناً ولا يسرة. قائمين غير متغاضين ولا متوانين، يعظمون معبودهم الحق، ويعظمون مكان عبادتهم، وأن الإشراف، والتعري، وما كان على غير سنن التوحيد، والعبادة والنسك، والإقبال على الله تعالى، مناف لذلك مناقض له، كما كان حال المشركين يومئذ.

فكان ذلك تعليماً، وتربية، وإرشاداً، لما ينبغي أن يكون عليه الذين التزموا الدين الحق، ورفعوا راية الإيمان به.

وإن من أشهر ما وقعت عليه أبصارهم، وأبصار المشركين المدعويين للإيمان بالله

1 - انظر السابق.

وحده أيام البعثة، - مما يبين لهم هذه المعانى، ويوضحها لهم، ويدعو المشركين أن يتركوا شركهم، ليكونوا حنفاء لله - هو الحج وشعائره، فأمرهم أولاً أولوياً، وهو إقامة وجوههم لله تعالى في الحج، مسلمين، ودعوة للمشركين، حيث وضعوا أصنامهم عند الكعبة، وفي جوفها، وعند الصفا والمروة، وغيرها، منكرأ عليهم بأن الله لا يأمر بتلك الفحشاء، وغيرها من الفواحش، بل يأمر بنقيضها، وهو القسط، وإقامة الوجوه لله عند كل مكان يعبد فيه، إجلالاً له وتعظيماً، ورفعاً لشأن المكان وتبياناً لفضله.

وإذا كانت إقامة الوجوه والتعظيم، مما يظهر على المؤمنين، حال الاتِّمار بذلك، جاء قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا مَخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، ليكون القلب، متواطئاً مع الظاهر، فيكون كلاهما عابداً لله، قائماً بحقه، مخلصاً في ذلك، حيث الإخلاص محله القلب، وهو تمحيض الشيء من مخالطة غيره، وبالتالي تكون طاعتهم متمحضة لله جل وعلا وحده، وذلك ما أمرهم به حيث يقول: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. فيجتنبوا بذلك أى إشراك مع الله في طاعته، في كل أمورهم، فما يفعلون من فعل، وما يقولون من قول، وما يعتقدون من فكر في كل شؤونهم، إلا كانوا مخلصين فيه لله تعالى يرجون رحمته ويخافون عذابه.

كانت تلك السيرة، هى البداية الأولى في مكة المكرمة، فيما أمر الله به المؤمنين في قوله النازل قبل هذه الآية في سورة الجن: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]. ثم أخذت سيرة المسجد مع سيرته ﷺ، وسيرة أصحابه، تتوالى آياتها، توضيحاً لما ينبغى، وتفسيراً لما يحدث، وتطوراً مع الدعوة، سلسلة أخذ بعضها بحلقات بعض، حتى اكتملت بما أشرنا إليه من آيات نزلت في آخر حياة الرسول ﷺ، وفي نفس الوقت، نزلت لأسباب نزول تُرشد المؤمنين إلى مؤامرات الكفرة والمنافقين، وتحذرهم الاغترار بما في ظاهر تلك الوقائع، وتبهر لهم طريق الحق فيما ينبغى أن يحتدوا فيه حذو النبي ﷺ، في القيام برسالة المسجد، وحفظها،

حتى يسلموها تامة، واضحة، متحققة على أرض الواقع، لمن بعدهم، وقد كان! حتى وصلنا إلى ما نحن فيه، من حالٍ سببه البعد عن تلك التعاليم الإلهية، في سيرة النبي ﷺ.

وتجليّةً، لاستمرار سيرة المسجد مع النبي ﷺ وأصحابه، نذكر:

الموضع الثاني: وهو من التنزيل المدني، يُظهِرُ لنا هذا التدرج والبناء، في سيرة المسجد، وهو قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

بعد ذكر مواضع السجود والعبادة في التنزيل المكي، واحترامها، وتوحيد الله فيها، تعظيماً له، وتفخيماً لشأنه سبحانه، بيّنَ هذا التنزيل المدني، الأمر ببناء المساجد، وسماها بيوت الله، بإضافتها إليه سبحانه في قوله: ﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٥]، تشریفاً لها، وإظهاراً لعطاء الله لهم، من الرحمة، والبركة، عندما يكونون في بيوته سبحانه، إذ يكرمهم ويحسن نُزُلَهُم، وهو حافظ لزيارتهم، حافظ لهم. إلى غير ذلك مما تقصر العبارة عن وصفه.

وبيّنَ صفات أولئك الذين يقومون بهذه العمارة لبيوته، كما سنوضحه - إن شاء الله - بعدُ، عند تفسير الآيات.

والعاقبة الحسنة ينتظرونها من وراء ذلك، بكونهم رجالاً لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكره، ولا عما افترضه عليهم من صلاة وزكاة، مع ملازمة الخوف من ملاقة الله، في يوم تزيع القلوب والأبصار من أهواله، ومحنه، ليسلموا بذلك، فيجزئهم أحسن الجزاء، ويزيدهم من فضله، في الأولى والآخرة.

وبالتأمل في تلك الآيات، يتضح من تحليلها تلك المعاني الجليلة:

• هذه الآيات، سبقها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ .

ومعنى ذلك وضحه العلامة أبو السعود^(١)، حيث يذكر في تفسيره أن قوله: ﴿عَلَى نُورٍ﴾ متعلق بمحذوف، هو صفة له، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة، والجملة فذلكت للتمثيل، وتصريح بما حصل منه، وتمهيد لما يعقبه، أى ذلك النور الذى عبر به عن القرآن، ومثلت صفته العجيبة الشأن، بما فصل من صفة المشكاة، نور عظيم كائن على نور كذلك، لا أنه نور واحد معين، أو غير معين، فوق غيره، أو هو مجموع نورين، بل هو نور متضاعف، من غير تحديد لتضاعفه، كما مثله بنور المشكاة؛ لكونه أقصى مراتب تضاعفه، مع ما فى الزيت وصفائه من زيادة النور والإشراق والبهاء^(٢).

• أما قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ ..

فإنه يأتى بعدما ذكر الله تعالى شأن القرآن الكريم، فى بيانه للشرائع، والأحكام، ومبادئها، وغاياتها المترتبة عليها، من الثواب والعقاب، وغير ذلك من أحوال الآخرة وأهوالها، وأشير إلى كونه فى غاية ما يكون من التوضيح والإظهار، حيث مثل بما فصل من نور المشكاة، وأنه فى أقصى مراتب الظهور، وإنما يهتدى بهداه من تعلقت المشيئة الإلهية بهدائيه، وعَقَّبَ ذلك بذكر الفريقين:

الأول: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيمُهُمْ تِجْرَةً وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾، إلى آخر صفاتهم.

الثانى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ تَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾ [النور: ٣٩]. وهى الآية التالية

لما سبق.

1 - انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم، (٩٦-٩٢/٤).

2 - هذا القرآن الذى ذكر الله تعالى شيئاً من صفاته، الذى يقول فيه «وات» بالليدو، والتحليل النفسى، وتعليم ورقة!

• أما قوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ .. فهي المساجد، وأولها ما نزلت فيه الآيات، وهو مسجد الرسول ﷺ، ومسجد قباء، فتقديم الجار والمجرور، للاهتمام بتلك البيوت، وللتشويق إلى متعلق المجرور، وهو التسبيح، وأصحابه؛ والتنكير للتفخيم من شأنها، وعلو منزلتها ومكانتها؛ والمراد بالإذن في رفعها: الأمر ببنائها ربيعة، لا كسائر البيوت، وكذلك الأمر برفع مقدارها، بعبادة الله تعالى فيها؛ ويكون عطف الأمر بالذكر على الرفع هنا من قبيل العطف التفسيري؛ وأياً ما كان! ففى التعبير عن الأمر بالرفع: بالإذن، تلويح بأن اللائق بحال الأمور، أن يكون متوجهاً إلى الأمور به ناوياً لتحقيقه، كأنه مستأذن في ذلك، فيقع الأمر به موقع الإذن فيه.

وهذه البيوت رُفِعَتْ لذكره سبحانه وتعالى، أو بذكره وعبادته؛ وذكره يعم جميع أذكاره سبحانه وتعالى، وتكون ﴿ فِي ﴾ متعلقةً بقوله: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ ﴾ ، و ﴿ فِيهَا ﴾ تكريراً لها، للتأكيد والتذكير بها؛ والتقديم: للاهتمام، لا لقصر التسبيح في هذه البيوت فقط، فتتزيه الله وتقديسه حال المؤمن في كل الأوقات.

لذا قال: ﴿ آسَمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [النور: ٣٦].

• ثم قال: ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ [النور: ٣٧] ..

وهي صفة لـ ﴿ رِجَالٍ ﴾ ، مؤكدة لما أفاده التنكير، من الفخامة؛ وهي تعنى أصحاب رسول الله ﷺ أولاً، ثم من كان مثلهم في التعلق بالمساجد؛ وهذه الصفة أيضاً مفيدة لكمال تبتلهم إلى الله تعالى، واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح، من غير صارف يلوهم، ولا عاطف يشنيهم، كائناً ما كان.

وخص التجارة بالذكر لكونها أشهر أعمالهم، وأقوى صوارفهم، فهم لا يشغلهم نوع

من أنواع التجارة؛ ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ أي: ولا فرد من أفراد البيوع، وإن كان في غاية الربح، وإفراده بالذكر مع إندراجة تحت التجارة، لتميزه بأن ربحه متيقن ناجز، وربح ما عداه متوقع في ثانی الحال، وكررت كلمة ﴿لَا﴾. لتذكير نفی الإلهاء وتأكيده^(١).

ما يلهيهم شيء - كما ذكرنا - عن ذكر الله تعالى بالتسبيح والتحميد، ولا عن إقامة الصلاة، في مواقيتها، من غير تأخير، إقامة تامة، يستكملون فيها آدابها، ووسنتها، وواجباتها، وأركانها، مع الخشوع فيها لله، وتعلق القلب بها، إذا فرغ منها يود أن يعود إليها، كما في الحديث: «ورجل قلبه معلق في المساجد...»^(٢).

وكذلك هؤلاء الرجال! لا يلهيهم شيء عن إخراج زكاة أموالهم، وإحسانهم للمستحقين، وكون إخراج الزكاة مما يفعل أيضاً خارج المساجد، ولكنه تنبيه على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع في المساجد، وكذلك بقية الآية: ﴿تَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(٣) فـ ﴿تَخَافُونَ﴾ صفة لرجال أي لا تفارقهم تحملهم على الإسراع إلى طاعة ربهم، والقيام بواجباته، وعدم الوقوع فيما يغضبه، ومن ثم لا تختص بالبيوت أيضاً بل هي حالهم الغالب عليهم، إذ هم يخافون أهوال وفرع ذلك اليوم الذي تضطرب وتتغير فيه القلوب والأبصار.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ ..

متعلق بمحذوف، يدل عليه ما حكى عنهم من أعمالهم المرضية، فقد فعلوا ذلك كله، ليجزيهم الله تعالى ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ .

أي: أحسن جزاء لأعمالهم بحسب ما وعدهم، ويتفضل عليهم بأشياء لم تُوعَد لهم

1 - انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم، (٩٣-٩٤)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٤٨/١٨).

2 - رواه البخاري، كتاب الأذان (٦٦٠)، رواه مسلم، كتاب الزكاة، (١٠٣١).

بخصوصيتها، أو بمقاديرها، ولم تخطر ببالهم كفياتها، ولا كمياتها، بل وعدت بطريقة الإجمال في مثل قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا أَحْسَنُوا حَسَنًا وَزِيَادَةً﴾ [يونس: ٢٦]. وقوله ﷺ حكاية عن ربه عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(١).

وهكذا رأينا شيئاً من سيرة المسجد، سجلها التنزيل الإلهي، لتبين جزءاً من سيرة النبي ﷺ، وسيرة أصحابه المكرمين ﷺ، في قيامهم بتنفيذ هذه الأوامر، والتحقق بتلك الوصايا، فكانوا خير مثل لتلك السيرة العطرة، خلفاً للنبي ﷺ، ولم يتركهم الوحي الرباني، حتى بشرهم، بجميل فعالهم، وبيّن حُسنَ عاقبتهم، وما ينتظرهم من عظيم الجزاء والأجر، في الدنيا والآخرة، وكان مصداق ذلك في الدنيا هو عاجل بشرهم.

١ - انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم، (٩٤-٩٥)، وانظر أيضاً محمود الالوسي، روح المعاني، (١٠/٢٦٠-٢٦١)، وانظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (١٨/٢٤٥-٢٥٠)، والحديث متفق عليه، البخاري كتاب بدء الخلق (٣٢٤٤)، مسلم كتاب الجنة وصف أهلها ونعيمها (٢٨٢٤).

المبحث الثاني

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

وننتقل مسرعين إلى: هذا الأساس الذي وضعه رسول الله ﷺ، عند وصوله إلى المدينة المنورة، بعد الهجرة مباشرة، لبناء المجتمع الإسلامي، وما كان ذلك إلا بتوفيق الله تعالى ورحمته.

وقد كان ذلك لقدوم المهاجرين من مكة إلى المدينة لايملكون شيئاً، تركوا أموالهم، وأولادهم وأرضهم وديارهم، نصره الله ولرسوله ﷺ ولدينه، ولم يكونوا أهل زراعة، ومع ذلك أعطاهم الأنصار، -الذين هم أهل الأرض والعقار- الأرض، ليعملوا فيها بنصف ثمارها، ومنهم من أعطيت له منيحة محضة، واستغنوا عنها لما فتح الله عليهم خيبر^(١).

وقد رد النبي ﷺ، -نفسه- ما أعطوه من نخل عندما فتحت عليه قريظة والنضير^(٢).

وكان ذلك دليل إثارة المهاجرين على أنفسهم، حتى وصل بهم الإيثار إلى أن قالوا للرسول ﷺ: «إن شئت فخذ منا منازلنا». فقال لهم خيراً، وابتنى لأصحابه في أرض وهبتها لهم الأنصار، وفي أراض ليست ملكاً لأحد^(٣).

1 - انظر النووي، شرح مسلم (١٣٦٥) كتاب الجهاد والسير باب رد المهاجرين إلى الأنصار مئنتهم.

2 - السابق نفس الباب. وانظر د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية، (٣٠٠-٣٠١).

3 - د. مهدي رزق، السيرة النبوية، (٣٠١)، ونسبه للبلاذري في أنساب الأشراف (١/٢٧٠).

ولم تكتف الأنصار بذلك، بل بذلوا - طيبة - أنفسهم أموالهم للمهاجرين، فقالوا للرسول ﷺ: «اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل». قال: «لا» فقالوا «تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمر»، قالوا: «سمعنا وأطعنا»^(١). وهذا منه ﷺ دفع للمهاجرين لاستكمال أجرهم وثوابهم، وألا يكونوا عالة يثقلون كواهل إخوانهم، ولئلا يظنوا بهجرتهم، وتركهم كل شيء، أنهم قد صار لهم الحق والعدر في أن يجلسوا ويستريحوا شيئاً ما، من عناء ما قاسوا، ولكنه كان ﷺ يُعدهم لإتمام جهادهم، والثبات على مبادئ البذل والتضحية، ومواصلة مسيرة الهداية، متقدمين فيها الصفوف.

ومن التطبيقات العملية، قصة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، حيث آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع رضي الله عنه، فقال له سعد: «إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت، نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها، فقال له عبد الرحمن: «لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ فدل على سوق بنى قينقاع... إلى آخر الحديث، حيث تمكن من الزواج، ودفع المهر، وقال له الرسول ﷺ: «أولم ولو بشاة»^(٢). ولم يكن سعد بن الربيع رضي الله عنه منفرداً عن غيره من الأنصار، فيما عرضه على أخيه، كما يُظن، فقد طلبوا - كما أشرنا آنفاً - من النبي ﷺ أن يقاسموهم كل شيء، وأن يعطوهم منازلهم، فهو إذاً شأن الصحابة عامة في علاقتهم، وتعاونهم، مع بعضهم البعض، بعد الهجرة خاصة، وبعد أن آخى النبي ﷺ فيما بينهم^(٣).

وعلى الرغم من هذا الإيثار، فقد أراد الرسول ﷺ أن يوجد تشريعاً يعالج للمهاجرين أوضاعهم الاقتصادية، فكان أن شرع نظام المؤاخاة في السنة الأولى من الهجرة، حيث آخى

1 - البخارى (٢٣٢٥).

2 - البخارى، فتح البارى (٢٠٤٨).

3 - انظر د. البوطى، فقه السيرة، (١٥٨).

بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة، والتوارث بعد الممات دون ذوى الأرحام^(١).

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حالف بين قريش والأنصار في داره^(٢).

وروى البعض أن المؤاخاة كانت في المسجد^(٣).

ومن الجدير بالذكر أن موضوع المؤاخاة قد تم مرتين، مرة في مكة، والأخرى بعد الهجرة إلى المدينة، كما ذكره ابن عبد البر في سيرته^(٤).

وذكر ابن حجر، أن من أغراض المؤاخاة، أن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض، بالمال والعشيرة والقوى، فأخى بين الأعلى والأدنى، ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، ومثل هذا مؤاخاته صلى الله عليه وسلم، لعل بن أبي طالب رضي الله عنه، لأنه هو الذى يقوم به من عهد الصبا، قبل البعثة، واستمر إلى ما بعدها، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة، لأن زياداً مولاهم، فقد ثبتت أخوتها وهما من المهاجرين^(٥).

وقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه بعد وصوله المدينة، ليذهب عنهم وحشة الغربية، ويستأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عز الإسلام، واجتمع الشمل وزالت الوحشة، واستطاعوا أن يقوموا بحياتهم وعيشتهم، أبطل الله التوارث بالمؤاخاة، وأبقى أخوة الإيثار كما قال تعالى: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ

1 - البخاري، فتح الباري (٤٥٨٠)، وكذا تفسير ابن كثير (٢/٢٥٥).

2 - البخاري، فتح الباري (٢٢٩٤)، ومسلم (٢٥٢٩)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٢٤٥)، وابن سعد، الطبقات، (١/٢٣٨-٢٣٩).

3 - لا تعارض بين القولين، كما ذكر شارح البخاري، الفتح (١٥/١٣٠). لأن المؤاخاة لم تتم مرة واحدة، بل حسب من يدخل في الإسلام، أو يقدم المدينة، وما في الصحيح يقدم على غيره، حيث ذكر مسلم أن ابتداء المؤاخاة كان في دار أنس بن مالك رضي الله عنه.

4 - ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، (١٠٠)، تحقيق د. شوقي ضيف القاهرة سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦ م.

5 - ابن حجر، الفتح (١٥/١٢٩).

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ [الأفال: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦٦﴾ [الأحزاب: ٦٦]. ومن ثمَّ أُلغِيَ ذلك بعد بدر أو بعد الأحزاب أو أحد^(١).

وقد ذكر ابن عباس -رضي الله عنهما- أن ما ألغاه الإسلام من نظام المؤاخاة هو الإرث فقط، أما النصر والرفادة والنصيحة، وأن يوصى لبعض المتأخين بشيء من الميراث فكل ذلك باق^(٢)؛ بدليل مؤاخاته ﷺ بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء وغيرهما ﷺ، وسلمان إنما أسلم بعد أحد وقبل الخندق.

وأما حكمة نسخ التوارث -علاوة على ما ذكرنا- أن الروح الإسلامية غدت العصب الطبيعي للمجتمع الإسلامي، في ظل الأخوة الإسلامية العامة، وما يترتب عليها من مسؤوليات مختلفة، فلا يخشى على هذا النظام من التقصير أو التميع أو التفكك، فلا غرو ولا ضرر في أن تعود قرابة الرحم كما كانت؛ وإن أصبح ذلك أثراً بعد عين، فقد ذهبت هذه القضية مع ما ذهب من كثير من أخلاق، ومحاسن، وآداب الإسلام، التي كانت السبب في ثباته وبقائه، وكانت سر حيويته وقوته، وانتشاره وعدالته، وسر علو المسلمين وحضارتهم.

مما سبق، يتضح لنا أن وحدة الأمة، وتساندها، لا يمكن أن يتم، إلا بعامل التأخي والمحبة، فتنهض حينئذ هذه الأمة، وتأخذ في أسباب الرقي والتقدم، لأن أي أمة لا يجمعها هذا العامل لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة فلا يمكن أن تتألف منها دولة.

1 - د. أكرم العمري، المجتمع المدني، ص ٧٨، ونقله عن لباب النقول، ص ٢٦٠، والشوكاني، فتح القدير، (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

2 - البخاري (٤٥٨٠)، في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتِ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء: ٣٣].

إن التآخي لا بد أن يكون مسبوقاً بعقيدة يتم الالتقاء حولها والإيمان بها، لأن التآخي بين مختلفى العقيدة وَهُمْ، خاصة عندما تحمل العقيدة أصحابها على أنماط وطرائق وسلوك في الحياة يميزها عن غيرها.

ومن ثم قدم النبي ﷺ العقيدة، التي جاءت من عند الله تعالى، لتقوم أخوة المؤمنين على ما التقت أفئدتهم عليه، بتلك العقيدة، وفي سبيلها يموتون ويستشهدون، فيقفوا بذلك جميعاً، صفاً واحداً، أمام الله تعالى، عبودية له، واطهاراً للخشوع عنده، والالتزام بتعاليمه، لا اعتبار بينهم لغير التقوى.

إن قيام مبدأ التعاون والتناصر، يطبق ميزان العدل والمساواة، وإن المجتمع السليم، هو الذي يقوم على أساس من العدالة، في الاستفادة من أسباب الحياة والرزق، وإن أول من يضمن سلامة هذه العدالة، وتطبيقها، هو التآخي والتواد، ثم تليها ضمانة السلطة والقانون، فإذا لم تتحقق تلك المبادئ، حل محلها الأحقاد والضغائن، بين أفراد المجتمع، والتي تنبئ عن الظلم والطغيان، المؤدى إلى الفتن والضعف والزوال.

من أجل ذلك اتخذ رسول الله ﷺ ، - بأمر الله تعالى - من هذا التآخي بين المهاجرين والأنصار، أساساً لأعظم نظام إجتماعي في العالم، ثم تدرجت هذه المبادئ إلى شكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة، ولكن أساسها الأول، الذي لولاه ما قام هذا المجتمع، هو تلك الأخوة العظيمة، المؤسسة على عقيدة الإسلام الخالد، لما كان لها من أعظم الأثر الإيجابي والتطبيقي المستمر في شد أزر المجتمع، وثبت دعائمه وأركانه^(١)؛ ويوم أن أحس الناس بفقد ذلك الميزان للعدالة، وضعفت مقومات الأخوة، بدأ التفكك يأخذ في أركان المجتمع الإسلامي، إثر تلك الموجات الساخطة التي بدأت تهل على دولة الإسلام.

1 - انظر: د. البوطي، فقه السيرة، ص ١٥٧-١٥٨.

النظرة القرآنية لسيرة مبدأ الأخوة في الإسلام:

ونذكر بعض الآيات القرآنية الكريمة، تبين موضوع الأخوة، وما ينبغي أن نستفيدة منها؛ - على سبيل الاختصار، حيث أبرز القرآن الكريم جوانبه كافة، وشرح ذلك كله يخرج بنا عن حد المقصود -، وهذا ما اخترناه من الآيات الكريبات:

• قوله تعالى: ﴿ وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر: ٤٧] وهي مكة.

• قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

• قوله تعالى: ﴿ وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

• قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٥].

• قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الحشر: ٨]. قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

• قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الحشر: ١٠].

• قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠].

• قوله تعالى: ﴿ ائْتِجِبْ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات: ١٢].

• قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١].

• قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة: ٢٣].

• قوله تعالى: ﴿وَالسَّبِقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ونظرة إجمالية على هذه الآيات الكرييات، مع مراعاة الترتيب الزمني للنزول، نراها تبين، وتؤكد المعاني التالية:

١. إن ما يجمع المؤمنين، ويربط بينهم، ويوجد تلك الحقوق لكل أحد، هو الإيمان بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، لا شيء غير ذلك، وعظم ذلك بأسلوب القصر، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وهذه العقيدة والأخوة الإيمانية أظهرت الآيات بها دلائل في غاية الأهمية.

أولها: أن تلك الأخوة، وهذا التألف، الذي لم يحدث في تاريخ البشرية، نعمة محضة من الله تعالى، لم يستطع أحد، ولن يستطيع أن يوجد لها، فضلاً عن أن يضعها في القلوب، لذا قال جل وعلا: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِرَّكَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]. بل أكثر من ذلك شأنًا، ما ذكرته الآية الأخرى، وهو أن هذه الأخوة، بزغت وأشرقت، من جوف ليل العداة الدامس، حيث يقول سبحانه: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ثم بيّن الصورة المقابلة وجلاها، فنفى الولاية بين المؤمنين وبين غيرهم، حتى لو كانوا آباءهم أو إخوانهم، ليؤكد - بما لا يتطرق إليه الاحتمال - أن الأخوة توجد حيث يوجد الإيمان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة: ٢٣].

ثانيها: أن هذه الأخوة - بالتالي - لا تحدها أرض، ولا يقيدتها زمن، بل كل مؤمن أخٌ لبقية المؤمنين في سائر بقاع الأرض، وأخٌ لمن كان يترضى عليه، ويدعوله، وأخٌ لمن يكون كذلك، وقد رأينا انجذاب المؤمنين، لمن كان من السالفين منهم، ومحبتهم لهم بغير صحبة، ولا رؤية، وهذا يؤكد ما ذكرناه من عالمية دعوة الإسلام، وشمولها، بما لا يدع ذرةً لتشكُّك، أو مجالاً لريب، أو ثغرةً لمستشرق، إلا ثغرات الهوى، وعدم الحياد والإنصاف، والإعراض عن العلم وقواعده، فيما يتعلق بالإسلام وتعاليمه.

وجاء في سياق ذلك، الآية التي تمهد الطريق لكل أحد، لكي يكون أخاً للمؤمنين، في بقاع الدنيا كافة، وهى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١]. ولا يعقل أن يكون ذلك للعرب خاصة، فإن أي تائب من الشرك، أقام الصلاة وأدى الزكاة، تشرف وتمتع بإخوة الدين، لا يقف أمامه عائق من وطن، ولا زمن، وهذا يدل على أن كل كافر - في أي بقعة من المشرق - إذا أسلم، صار أخاً لكل مسلم - في مغارب الكون وأقاصيه شمالاً وجنوباً -.

ثالثها: بينت الآيات الكريمت - في جملة ما بينت -، المساواة والعدل كمظهر تام للوضوح، لتلك الإخوة في الحقوق والواجبات، لافرق في ذلك بين جليل وحقير، ولا ذكر وأنثى، ولا أحمر وأسود، ولا حر وعبد، كلهم تجمعهم أخوة الإيمان والمحبة والتآلف؛ والتفاضل بينهم إلا بالتقوى، « لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى »^(١)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد ذكرت تلك الآية الكريمة، - التي أوردنا في صدر الكلام - صورة حية لهذه الأخوة، - التي وصى الله تعالى بها، بسبب الإيمان -، لأولئك الذين لاحقوا لهم في عالم

١ - رواه أحمد (٢٢٣٩١).

اليوم إلا الملاجيء، ودور الفشل، التي تساعد في إخراج طفل لا قيمة له، وهى قوله تعالى -
عندما أُلغى في الإسلام عادة التبني - : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾
[الأحزاب: ٥]. وهو تشريع، يوجب لغير معلومى الآباء - فما بال الباحث بمن علم أبوه وفُقد
- يوجب لهم هذه الحقوق المترتبة على أخوة الإيوان، التي شرعها لهم، كما شرعها لأعلى
منهم منزلة اجتماعية أو مادية.

وهذا أعلى تشريع وصل إليه العالم، وهو تشريع لم يصل إليه مُشرِّعُ حقوق الإنسان،
والحقوق المدنية وغيرها، وإن كتبوا مثله حقوقاً، فإن الواقع ناضح بممارسات فاضحة في
هذا المجال، لا حصر لها! لا تخطئها الأعين، بل هى صارخة، فاقئة لكل الأعين، صاخة
لكل الأسماع، تهز الوجدان والضمائر الحية، وتدميها، لم تكن في تشريع الإسلام ولا تطبيقه.
ونواصل تلك السيرة، لذلك الصرح الإيواني، الذي رعاه القرآن الكريم، وطبقه
النبي ﷺ، وأصحابه، وعليه، وبه ارتفعت راية الإسلام، حيث التضحية، والبذل، ومحبة كل
أحد لأخيه ما يجب لنفسه، بل إثارة عليها.

نعود إلى النظرة الإجمالية، فنشير إلى سيرة الحقوق، - التي أخذت سنين - تنزيلاً
وتطبيقاً، مع آيات قليلة، انتخبناها وافية بالعرض؛ لأنها تدل على ما وراءها:

٢. إن الحقوق التي شرعها الإسلام للمسلمين، بإخوة الدين، تدرجت من حفظ
الحقوق التي لا تنازل عنها، في الدم والعرض والمال، وصولاً إلى البذل والإيثارة، الذي
يقدم فيه المؤمن أخاه على نفسه، بدءاً بعدم التحقير لأي معروف يبذله لإخوانه، ولو كان في
نهاية القلة^(١)، مروراً بتفريج الكربات، والتيسير للمصائب العسيرات، وستر العورات،
والمساندة والمواساة في السراء والضراء.

1 - شيء من الأحاديث التي تدل على ذلك. قوله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» رواه
مسلم (٢٦٢٦).

وتسعفنا الآيات، في الحقوق الأولى بذكر أدناها، تشديداً على أعلاها، ونذكر في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقد جاء قبلها عدم السخرية، أو سوء الظن به، أو التجسس عليه، مع ترك التفاخر والتنازب باللقاب، وبالتالي، ما يكون أكثر من ذلك في عرضه فهو حرام، وكذلك ماله ودمه، قال ﷺ توضيحاً لذلك: « إذا كتتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبها فإن ذلك يحزنه»^(١).

فما بالك بأزيد من ذلك، بل ما الظن بضربه وسفك دمه!... ومع ذلك ذكر القرآن الكريم، أنه يمكن أن يحدث ما يعكر صفو هذه الأخوة، بل يجرحها، وإن أعظم الجروح لها هو القتل، ومع ذلك - حتى إن وقع خطأ - لا ينفي الأخوة ولا يهدمها، بل أبقاها الشارع، وندب معها إلى العفو والإحسان، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]. ولا شك أن الأخوة المذكورة هي أخوة الإيمان، إشارة للإحسان، والفضل، والمعروف.

وكذلك أمر أمراً قوياً، بالأنا نترك الخصومات، لتقوض جوانب الأخوة، ولم يتركها حتى جعلها تشريعاً، لا يجوز التفريط فيه، أو التغافل عنه، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وهنا نستشعر هذا المعنى، وهذا الموقع الجليل للصلح، وهو أنه إذا قام المؤمنون المهتمون بأمر إقامة هذا الدين، من الأئمة والعلماء، وأهل الفضل، في فض كل خصام، وإحلال الصلح محل البغضاء، والفرقة، والشحناء، والتدابير، والتربص، وغيرها، وأزيد منها، من أمور السوء بين المسلمين؛ فليتصور المرء حينئذ، قوة

١ - رواه البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٤).

هذا المجتمع وصفاءه، وتراص أفراده جميعاً على كلمة سواء، توحد صفهم، وتقوي بنيانهم، وتجعلهم كالجسد الواحد، والبنيان المرصوص، يستطيع أن يبني نهضته، وأن يرفع رايته، وأن يصمد لأعدائه، وأن يواصل سيرته شامخاً مستعصياً، على كل عوامل الهدم والفناء.

قال تعالى أيضاً: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٢١]. فجعل الإيمان ملهياً لهم، للمسارعة إلى ذلك؛ إذ هو من أهم مميزات الإيمان وعلاماته، وجعله كذلك محور اهتمام المؤمنين جميعاً، عندما أورد الخطاب بصيغة الجمع: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢١].

ونصل إلى الصورة التي جَلَّى القرآن الكريم جوانبها لكل المؤمنين، إلى قيام الساعة، وهي صورة المؤمنين أنفسهم، وارتباطهم، فقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ٥١ ﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥٢ ﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٥٣ ﴾ [الحشر: ٨-١٠].

ذكر صاحب الظلال، في الصور الثلاث، التي أبرزت فيها الآيات الملامح المميزة للمهاجرين والأنصار، والذين جاءوا من بعدهم، ما أبرز خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان.

الصورة الأولى: هي صورة صادقة، تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين، أخرجوا إخراجاً من ديارهم وأموالهم، أكرههم على الخروج الأذى، والاضطهاد، والتنكر من قرابتهم وعشيرتهم، في مكة، لا ذنب لهم إلا أن يقولوا ربنا الله، وقد خرجوا تاركين

ديارهم وأموالهم، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، لا ملجأ لهم سواه، ومع أنهم مطاردون قليلون، كان خروجهم نصره لله ولرسوله، بقلوبهم وسيوفهم، في أخرج الساعات وأضيق الأوقات ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين قالوا كلمة الإيمان بألستهم، وصدقوها بعملهم، فكان الصدق مقصوراً عليهم، بضمير الفصل مع علو المكانة، بالإشارة البعيدة إليهم؛ فهم صادقون مع الله في أنهم اختاروه، وصادقون مع رسوله ﷺ في أنهم اتبعوه، صادقون مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض، ويراهم الناس.

والصورة الثانية: لأولئك الأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان، كذلك صورة مضيئة، صادقة، تفردت بصفات بلغت الآفاق؛ ولولا أنها وقعت بالفعل لحسبها الناس أحلاماً طائفة، ورؤى مجنحة، وأمثلة عليا، قد صاغها خيال مخلق.

وقد تبوأوا الدار - دار الهجرة، المدينة - قبل المهاجرين، وتبوأوا الإيمان فيها، كأنه منزل لهم؛ وكلمة دار هي أقرب ما تصور موقف الأنصار من الإيمان، أي: لقد كان دارهم ووطنهم، الذي تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم.

وإن محبتهم للمهاجرين عند استقبالهم لهم، بهذا الحب الكريم، وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، - لم تعرف البشرية كلها حادثاً مثله -؛ ولم يروا أو يحسوا بموجدة في صدورهم، على أولئك المهاجرين الذين قاسموهم كل شيء، من تفضيل في بعض المواضع، أو مال يختصون به في فيء، فلم يكن في نفوسهم أدنى حسد أو ضيق، بل الإيثار على النفس مع الحاجة، هي القمة العليا التي بلغها الأنصار، وكانوا كذلك في كل مرة، وفي كل حالة، بصورة خارقة لمألوف البشر، مع التوقى من الشح المعوق عن كل خير، لأن الخير بذل في صورة من الصور، بذل في المال، وبذل في العاطفة، وبذل في الجهد، وبذل في الحياة عند الاقتضاء، لا يمكن لشحيح أن يصنع خيراً، فهو يهم كل مرة بالأخذ، ولا يهم مرة بالعتاء، فإذا كان المسلم معطياً، باذلاً، كريماً، فهذا هو الفلاح.

ونصل الى الصورة الثالثة، التي بينت هذه السيرة المترابطة للمؤمنين، من يوم أن جاء الإسلام إلى نهاية الدنيا، وكان الأولون من أصحاب النبي ﷺ وتابعيهم بإحسان، المثل المدهش لها، وهى الصورة الرضية النظيفة الواعية، التي تبرز أهم ملامح التابعين، بل تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق، في جميع الأوطان والأزمان، والتي وضحت لنا ألوهية هذه الدعوة وربانيتها، فهؤلاء القوم صنع الله، إذ لو كانوا تربية شخص فمن الذى ربي من بعدهم، وإذا كانت تعاليمه، فما الذى حملهم عليها، وربطهم بها، وأقام الوازع في نفوسهم من مخالفتها، ومن الذى جعل الأول والآخر والقريب والبعيد على نفس النهج.

هؤلاء الذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار، سمة نفوسهم أنها تتوجه لربها طلباً للمغفرة، لا لنفسها فقط، بل لكل من سبقها بالإيمان، وتتوجه لربها كذلك بطلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا كافة.

تتجلى إذن من وراء تلك النصوص، طبيعة هذه الأمة، وصورتها الوضيئة، في هذه الحياة، وتظهر الأصرة الوثيقة، التي تربط أول هذه الأمة بآخرها، وآخرها بأولها، في تضامن وتكافل وود وتعاطف، بل بشعور بوشيجة القربى العميقة، التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب، وتتفرد وحدها في القلوب، ليذكر المؤمن بالحب أخاه، بعد هذه القرون المتطاولة، في إعزاز وكرامة وشوق، كذكره الحي أو أشد^(١).

إنها كتيبة واحدة على مدار الزمان، واختلاف الأوطان، تحت راية الله تغذ السير صعداً إلى الأفق الكريم.

تلك صورة الأخوة كما ذكرها القرآن، وبين فيها القول، وفصل وأبدى وأوضح،

1 - انظر سيد قطب، في ظلال القرآن (٦/٣٥٢٦-٣٥٢٧)، باختصار.

لتكون السيرة المنيرة، التي وضحها الرسول ﷺ، قولاً وتطبيقاً. لتأتى الآية الأخيرة، في ترتيب تلك الآيات الكرييات، - التي انتخبناها دليلاً ونبراساً لسيرة الأخوة في القرآن الكريم - وهى قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ السَّابِقِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ نَبَّأُوا بِمُوسَىٰ بِحَدِيثِ رَبِّهِمْ أَن يُرْسِلَ مُوسَىٰ بِنُورٍ مِّنَ السَّمَاءِ فَأَخْرَجْنَا لَهُمْ قَوْمَهُمْ مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ فَاتَّبَعُوهُ سَبْعَ يَوْمَ فَجَاءُوا قَوْمَهُمْ فَذَكَرَ إِسْرَائِيلُ إِذْ قَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ فَرِحْتُمْ بِمُوسَىٰ تَفَرُّحًا فَأَوْرَثُوا الْيَهُودَ الْكِنَانَةَ فَخَالِدِينَ فِيهَا أَتَدَارِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

لتبين عظيم عاقبتهم، وحسن جزائهم، الذى أعده الله لهم، جراء ما قدموا مجتمعين إلى يوم القيامة صفاً واحداً، إنه أعظم الجزاء وأجله، رضا الله عنهم، ومجاورتهم له فى جنته - سبحانه وتعالى - خالدين فيها أبداً، وهو الجزاء الحامل على المسارعة إلى تحقيق هذه الأخوة، وملازمتها فى كل زمان ومكان.

٣. ونعود إلى ثالث الملاحظات، على آيات الأخوة وسيرتها القرآنية، وهى ملحوظة لا بد منها فى الدراسة القرآنية، وهى أن كل هذه الآيات مدنية، ولم تأت آية واحدة مكية، تشير إلى لزوم الأخوة، أو توصى وتأمربها، ولاشك أن لها أسباباً، وفى ظن الباحث، أن ما توصل إليه من أسباب - إذ لم تذكر أيّ من المصادر التى اطلع عليها شيئاً من ذلك - تتلخص فيما يلي:

- أن أى أقلية توجد فى مكان، يربط بينها رباط العقيدة، أو الجنس، أو غيرها، تستشعر فيما بينها التآلف والمواساة، والقيام بمساعدة بعضهم بعضاً، خاصة عند استشعار الخوف من وقوع مكروه لهم، يهدد حياتهم، أو أموالهم، أو غير ذلك، فيبذلون فيما بينهم ما يدفعون به أى خطر يتهدددهم، ويتحدون أمام أى عدو يحاول استباحتهم، ويصير حيثئذ ولاؤهم المتضح فى التناصر والمعونة لمجموعتهم أو جماعتهم، بل إنهم يمكن أن يتعاهدوا على الموت جميعاً، فى سبيل الذود عن بقائهم، وحماية أرواحهم، وأولادهم، وأموالهم.

ولذلك رأينا الصحابة الأولين في مكة، لا ينقصهم التكافل والتراحم والمحبة والمودة، وإن كانوا لا يستطيعون في أحوال كثيرة أن يوقفوا، أو أن يقفوا أمام طوفان الظلم، الذي يغشى معظمهم، ومع ذلك لا ينفكون عن مواسة إخوانهم، وجدانياً، وأن يشاركوهم الشعور بما هم فيه؛ إذ لم يتمكنوا أن يدفعوا عنهم شيئاً.

إن المحنة التي حصرتهم، لاشك جمعتهم في خندق واحد، يدفع كل عن إخوانه، كما يدفع عن نفسه، ويقف فيه عاري الصدر، محتملاً الأذى في سبيل بقاء هذه الجماعة المؤمنة، التي تعبد الله تعالى، حفاظاً على الدعوة، وتضحية بالنفس فما دونها، رخيصاً في سبيل دينه، ينتظر موعود الله بالنصر أو الشهادة، خاصة عندما باشر الإيذان شغاف قلوبهم.

• إن وجود القائد ﷺ يشاركهم، ويقاسمهم ذلك كله، وفي نفس الوقت يث في قلوبهم ونفوسهم روح الإيذان، كان له أعظم الأثر في التحامهم وتوادهم وتراحمهم وتعاطفهم. خاصة عندما يكون ﷺ القائم بالمواسة، والتعاطف، مع الضعيف الفقير قبل القوى المليء.

فكان واقعهم كفيلاً بقيام تلك الصورة الفريدة، من صور الأخوة والمحبة، لذا لم يكن ثمَّ تشريع قرآني بها، إذ يكفي فيها واقع السنة العمل، فلما هاجروا إلى المدينة، ودخل في الإسلام من لم يعيشوا تلك المرحلة، ويتحملوا مشاقها، نزلت التشريعات والوصايا، تأمر بذلك وتبشر به، وإن كانت النواة القدوة قد تعمقت جذورها، وقويت ساقها، مثلاً حياً وواقعاً حقيقياً، سرعان ما يدور في فلكه، الآتي الغريب، عن هذا العلو السامق، ليكون أحد لبناته التي تقوى البنيان، وتشد من أزره: ﴿ وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

المبحث الثالث

الوثيقة (الصحيفة)

عندما استقر الرسول ﷺ بالمدينة، نظم العلاقات بين أهلها، وكتب كتاباً بهذا الشأن، أوردته المصادر التاريخية، وكذلك دلت على تفاصيله، وجزئياته، الآياتُ القرآنية، والمصادر الحديثة. عرف هذا الكتاب في المصادر القديمة باسم: (الصحيفة) أو (الكتاب)، وأسماء الكُتَّابُ المحدثون: (الدستور) أو (الوثيقة)، وقد استهدف توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات.

ولأهمية هذه الوثيقة، اعتمد الباحثون المعاصرون عليها، في دراسة تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة المنورة، ونُظُم الدولة الإسلامية، وعلاقتها بالملل والدول الأخرى، والنظام السياسي في الإسلام، فمن ثمَّ احتاجت منا عرض، ودراسة مفصلة، خاصة وقد استهدفها "وات" بالنقد الشديد، على طريقته في محو، وتأويل حقائق الإسلام الربانية، وسيرة الرسول ﷺ، المرتبط بالسَّاء^(١)، عندما رأى ذلك قادحاً في مناهج بحثه، التي يطوع التاريخ ويؤلفه لها.

1 - انظر د. البوطي، فقه السيرة، ص ١٥٩، وانظر د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص ٢٧٢ وما بعدها، وانظر د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية، ص ٣٠٦ وما بعدها، وانظر محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص ٣٩-٤١، وقد ذكر من كتب في الوثيقة.

مدى صحة الوثيقة:

لتبيين مدى صحة نسبة هذه الوثيقة، إلى الرسول ﷺ، لما لها من أهمية تشريعية وتاريخية، نشير إلى بعض من ذكرها من المحدثين والإخباريين.

إن أقدم من أورد نصها كاملاً هو محمد بن إسحاق دون إسناد^(١)، ونقلها كل من ابن سيد الناس في سيرته^(٢)، وكذلك ابن كثير^(٣)، أما الإمام البيهقي^(٤) فقد ذكر إسناد ابن إسحاق للوثيقة، - التي تحدد العلاقات بين المهاجرين والأنصار دون اليهود -، ويبدو أنه رواها من غير طريق ابن إسحاق، وأورد ابن سيد الناس رواية ابن أبي خيثمة^(٥) في تاريخه، بمثل رواية ابن إسحاق، ولكنه أسندها، ووردت في كتاب الأموال، لأبي عبيد القاسم بن

1 - ابن هشام، السيرة النبوية، (١٠٣/٢٢-١٠٥)، وهو ابن يسار بن خيار الأخبّاري، العلامة، الحافظ، القرشي، المطلبى، المدني صاحب السيرة النبوية، ولد سنة ثمانين، ورأى أنس بن مالك وسعيد بن المسيب وهو أول من دون العلم بالمدينة، انظر سير أعلام النبلاء (٣٣/٧).

2 - انظر ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشئائل والسير، (١٩٧/١-١٩٨)، وهو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، اليعمرى الربعى، أبو الفتح، عالم بالأدب، من حفاظ الحديث، له شعر رقيق، أصله من أشبيلية، ولد بالقاهرة ٦٧١ هـ وتوفي بها ٧٣٤ هـ، انظر الاعلام للزركلى (٣٤/٧).

3 - ابن كثير، البداية والنهاية، (٢٢٤-٢٢٦/٣)، وهو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشى البصرى الدمشقى، أبو الفداء عماد الدين، حافظ، مؤرخ، فقيه، ولد في قرية من أعمال البصرى الشام سنة ٧٠٦ هـ وتوفي بدمشق ٧٧٤ هـ انظر الاعلام للزركلى (١/٣٢٠).

4 - البيهقى، السنن الكبرى، كتاب الديات، (١٠٦/٨)، وهو أحمد بن الحسين بن على، أبو بكر، من أئمة الحديث ولد في خسر وجرى سنة ٣٨٤ هـ، في قرى بيهق بنيسابور ورحل إلى بغداد ثم الكوفة ومكة وغيرهما ومات بنيسابور سنة ٤٥٨ هـ، وله تصانيف كثيرة في الحديث والفقه الشافعى وغير ذلك من فروع العلم.

5 - الامام الحافظ الحجة أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب النسائى - ٢٧٩ هـ، وهو أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب بن شداد، نسائى الأصل صاحب التاريخ الكبير علم الحديث عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين والأدب عن محمد بن سلام الجُمحى وقال عند الدار قطنى ثقة مأمون، مات في سنة ٢٧٩ هـ، وقد بلغ ٩٤ عاماً، انظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٤٢/١).

سلام^(١) ولكن من طريق الزهري^(٢) موقوفة عليه، وقد وردت الصحيفة ذاتها من رواية الزهري أيضاً، في كتاب الأموال^(٣) لابن زنجويه^(٤).

أما صحة الوثيقة، فلا شك أنها تصلح أساساً للدراسة التاريخية؛ التي لا تتطلب عادة تلك الشروط العالية، من صحة الإسناد التي لا بد أن تتوفر فيها، للاستدلال على الأحكام التشريعية، وقد ذكرنا صلاحيتها لذلك، للأسباب الآتية:

١. أنها وردت من طرق كثيرة، تتضافر في إكسابها القوة، والزهري علم من رواد كتاب السيرة، وهو من أوثق أهل العلم والرواية.

٢. أن أهم كتب السيرة والتاريخ، ذكرت موادعة النبي ﷺ لليهود، وأنهم جميعهم - أي: القبائل الكبيرة المعروفة في التاريخ - هي التي نقضت عهودها، وإلا ما معنى أن ترد الروايات التاريخية، المدعومة بالقرآن الكريم في مهاجرتهم، وإخراجهم من المدينة المنورة، وما ذلك إلا لسبق العهود القوية، التي نقضوها مع النبي ﷺ، كما ذكرت الروايات كتابتها - أيضاً - بين المهاجرين والأنصار.

1 - انظر أبا عبيد القاسم بن سلام، الأموال (٥١٧)، وهو الهروي الأزدي الخزاعي، بالولاء، الخرساني البغدادي، أبو عبيد، من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه ولد بهراة سنة ١٥٧ هـ، وتوفي بمكة سنة ٢٢٤ هـ، انظر الأعلام للزركلي (١٧٦/٥).

2 - الزُّهري: (٥٨-١٢٤ هـ)، محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، من بني زهرة بن كلاب من قريش، أبو بكر، أول من دون الحديث وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعي من أهل المدينة، كان يحفظ ألفين ومئتي حديث، انظر الأعلام للزركلي (٩٧/٧).

3 - ابن زنجويه، كتاب الأموال، ص ٧٥، تحقيق د. شاكر ديب فياض.

4 - ابن زنجويه: حَيْدُ بن زَيْجُويَة، أبو أحمد، الإمام، الحافظ الكبير اسمه حميد بن مَحَلْد بن قُتَيْبَة الأَزْدِي النَّسَائِي مولده في حدود سنة ١٨٠ هـ وتوفي سنة ٢٥١ هـ، على الصحيح، حدث عنه أبو داود والنسائي والبخاري ومسلم وإبراهيم الحربي وأحمد بن حنبل كثير الحديث قديم الرحلة إلى الحجاز ومصر والشام والعراقيين، انظر سير أعلام النبلاء (١٩/١٢).

٣. أن أسلوب الوثيقة يدل على أصالتها^(١)، فأسلوبها وجملها وما تكرر فيها، ينم على مألوف أساليب العصر المدني، وإن تشابهها، بل واستخدام نفس الجمل مع أساليب كتب الرسول ﷺ الأخرى ليعطيها قوة ويكسبها الثقة^(٢).

شواهد على فقرات الوثيقة قرآناً وسنة وتاريخاً:

نذكر بعض الشواهد التي تدل على صحة الصحيفة، من القرآن والسنة وكتب التاريخ، حتى نرد بذلك على القائلين بخلافه، ونبين تهافت كلام "وات".

ونبدأ بالتاريخ لنصل إلى الأعلى، حيث ذكر المؤرخون فقرات معينة، وردت في الصحيفة كالطبري^(٣) حيث أشار إلى كتابة المعامل، وكذلك ابن سعد^(٤) أشار إلى كتابة المعامل بين المؤمنين، وأن لا يترك مُفرح* في الإسلام، ولا يقتل مسلم بكافر، وعبد الرزاق الصنعاني^(٥)، أشار إلى العقل على العاقلة، وأن ذلك بلغهم عن الرسول ﷺ، كما في الكتاب

1 - صالح العلي، تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة، ص ٤-٥.

2 - محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، وفيها تلك المقارنات التي تثبت صحة الوثيقة.

3 - الطبري، التاريخ، (٢/٤٨٦)، وهو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد، المؤرخ، المفسر، الإمام، ولد في أمل طبرستان سنة ٢٢٤ هـ، واستوطن بغداد وتوفي بها سنة ٣١٠ هـ، قال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق المؤرخين، انظر الأعلام للزركلي (٦/٦٩).

4 - ابن سعد، الطبقات، دار صادر بيروت، وهو محمد بن سعد بن منيع الزهري، مولاهم، أبو عبد الله، مؤرخ، ثقة، حفاظ الحديث ولد بالبصرة سنة ١٦٨ هـ وسكن بغداد وتوفي بها سنة ٢٣٠ هـ صحب الواقدي المؤرخ وعرف بكاتب الواقدي قال عنه اعطيت في تاريخ بغداد: بن سعد من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه، انظر الأعلام للزركلي (٦/١٣٦).

* - المفرح: المثقل بالدين كثير العيال.

5 - المصنف (٩/٢٧٣-٢٧٤) بإسناد صحيح، لكنه مرسل، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، طبعة بيروت، المكتب الإسلامي، ١٣٩٢ هـ وهو ابن همام بن نافع الحميري (١٢٦-٢١١ هـ)، مولاهم، أبو بكر الصنعاني، من حفاظ الحديث الثقات من أهل صنعاء، كان يحفظ نحو من سبعين عشر ألف حديث، قال عنه الذهبي: هو خزان علم، انظر الأعلام للزركلي (٣/٣٥٣).

الذي بين قريش والأنصار. وذكر المقریزی^(١)، وابن حزم^(٢)، والديار بكری^(٣)، أن الرسول ﷺ كتب كتاباً وادع فيه اليهود، ذكر بعضهم بنى قينقاع، والنضير، وقريظة، إلى آخر ما ذكر، والآخر ذكر يهود فقط.

وقد ورد أثرٌ يؤكد موادعته ﷺ لليهود، وكتابته ذلك معهم، في قصة بني النضير لما غدروا يقول:

«... صبحهم ﷺ بالكتائب، فحصرهم يومه، ثم غدا على بنى قريظة، فحاصرهم، فعاهدوه، فانصرف عنهم إلى بنى النضير، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء...»^(٤) وليس معنى ذلك أن الرسول ﷺ، لم يكن عاهد بنى قريظة، بل كان بينه وبينهم كتاب، فلما انشغل ببني عمومته، - يهود بني النضير - خشي غدرهم، فحاصرهم، فأكدوا له بقاءهم على ما كانوا عليه من العهد، فكان ذلك توكيداً.

وأما ما كان من سنة النبي ﷺ، التي تؤيد فقرات في الوثيقة، فقد روى منها البخاري^(٥)

1 - المقریزی، إمتاع الأسماع، (٤٩/١)، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقریزی، مؤرخ الديار المصرية أصلة من بعلبك ونسبته إلى حاره المقارزة ولد بالقاهرة سنة ٧٦٦ هـ، ونشأ بها ومات بها سنة ٨٤٥ هـ، وولى فيها الحسبة والإمامة والخطابة مرات، انظر الأعلام للزركلي (١٧٧/١).

2 - ابن حزم، جوامع السيرة ص ٩٥، وه علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، عالم الأندلس في عصره، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ، زكاته له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة فزهد فيها وانصرف إلى العلم، انتقد كثير من العلماء فحذروا منه السلطين فأقصوه إلى بادية ليلة من بلاد الأندلس فتوفى فيها سنة ٤٥٦ هـ انظر الأعلام للزركلي (٤/٢٥٤).

3 - الديار بكری تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس (٣٥٣/١)، وهو حسين بن محمد بن الحسن، مؤرخ، نسبته إلى ديار بكر، ولى قضاء مكة وتوفى بها حوالي سنة ٩٦٦ هـ، له تاريخ الخميس أجمل به السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء والملوك، انظر الأعلام للزركلي (٢/٢٥٦).

4 - ابن مردويه، ذكره ابن حجر، في فتح الباري، كتاب المغازي، حديث بني النضير وقال: إسناده صحيح، (١٥/٢٠٢).

وأخرجه عبد الرازق في المصنف (٥/٣٥٩-٣٦٠)، وأبو داود في سننه (٢٦١٠) مطولاً. والبيهقي في الدلائل (٣/١٩٨).

5 - البخاري، (٣٠٤٦)، مع فتح الباري (١٢/١٣٧).

وأبو داود^(١) والنسائي^(٢) وابن ماجه^(٣)، ونذكر مثلاً واحداً، وهو قوله ﷺ، فيما رواه النسائي: «المؤمنون تكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، لا يقتل مؤمن بكافر؛ ولا ذو عهد في عهده».

هذه الروايات تثبت تحرير الكتاب، من النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وتؤيد الفقرات التي جاءت في الصحيفة عن المعامل، وفداء الأسرى للمهاجرين وبطون الأنصار.

لقد أورد أحد الباحثين، ثمانية أحاديث تثبت أصل الصحيفة، والكتابة بين المهاجرين والأنصار واليهود في المدينة، وما فيها من تفصيلات، ثم ذكر لها شواهد كثيرة^(٤).

وأما الآيات القرآنية..

فقد ذكر الباحث نفسه، سبعاً وعشرين آية، توافق فقرات الصحيفة، ولولا خشية الإطالة، لأوردنا طرفاً منها.

ونهاية النظر في هذه الأدلة، توحى بأن جميع فقرات الصحيفة، لها شواهد من القرآن الكريم، والسنة الصحيحة.

إن الحقيقة العلمية، هي التي حملتنا على الكلام على صحة الوثيقة، بهذا التدقيق

1 - أبو داود، (٣٠٠٠).

2 - الخطابي، معالم السنن، (٣٣٨/٢) بإسناد صحيح.

3 - النسائي، (٢٠/٨).

4 - ابن ماجه، (٢٦٥٨-٢٦٥٩-٢٦٦٠).

5 - انظر د. مهدي رزق، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص (٣١٣-٣١٦)، حيث استعان في الكلام على الصحيفة برسالة ماجستير هارون رشيد محمد إسحاق، وهو الباحث المشار إليه، واسمها "صحيفة المدينة دراسة حديثة وتحقيق" والنقل هنا بتلخيص شديد من ص ١٣٣ فما بعدها..

العلمي، نظراً لوجود من يشكك في صحتها، حيث وصلنا إلى أن التشكيك بعد ذلك، يعد مجازفة كبرى، وتسرّعاً في إصدار الأحكام، ومجافة للأسلوب العلمي، فضلاً عن مخالفة الواقع، كما ذهب إلى ذلك من المعاصرين الأستاذ/ يوسف العشي^(١)، والأستاذ/ زيدان اليامي^(٢).

فالأول ذهب إلى أنها موضوعة، لأنها لم يروها إلا ابن إسحاق، بغير إسناد، والحقيقة - كما ذكرنا وأوردنا - غير ذلك، والثاني: قال بأنها ضعيفة لا تصح، وينبغي عدم الاحتجاج بها، سوى ما ثبت لفظه أو معناه في أحاديث أخرى، وجاء في الصحيفة^(٣)، ومن ثمّ كان مهماً ما أوردناه، لنعلم حسن إسنادها لغيره، وأنها صحيحة صالحة للاحتجاج بها، في إثبات تلك السيرة من الوجهة التاريخية.

تاريخ كتابة الصحيفة:

ونتكلم فيه لأجل "وات"، حيث من طريقته - التي أشرنا إليها من قبل - تقطيع أوصال الحوادث، والاستدلال بكل جزء مبتور على زمان، أو على حكم، بحيث يخرج الحادث أو النص، من سياقه التاريخي، إلى تاريخ لا علاقة للنص به، بل ولم يقع فيه، - ويمكن أن يكون قد وقع قبل أو بعد ذلك بسنين متطاولة - ليصل إلى نتائج من السيرة وبواعث لها، قد أعدها سلفاً.

وهذا يجرنا إلى بحث الدكتور/ أكرم العمري، حيث انتهى فيه إلى أن الوثيقة في الأصل كانت وثيقتين، ثم جمع المؤرخون بينهما، لتشابه المواقف والأغراض، وكانت الأولى

1 - يوسف العشي، الدولة العربية وسقوطها، حاشية ٩ ص ٢٠، وهي ترجمة للكتاب المذكور لفلهاوزن.

2 - زيدان اليامي، بيان الحقيقة في الحكم على الوثيقة وثيقة - المدينة.

3 - د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية، ص ٣١١-٣١٢، حيث ذكر الردود كذلك على هذا الرأي.

بين الرسول ﷺ، يوادع فيها اليهود، والثانية بين قريش (المهاجرين)، والأنصار، تنص على حقوقهم، وواجباتهم، وما يلتزم به كل طرف، وقد ساق أدلته على ذلك، التي منها: أن كتاب اليهود، كان عند قدوم النبي ﷺ المدينة، والكتاب بين المهاجرين والأنصار، كان عند مرجعه ﷺ من بدر منتصراً على قريش، وكان المهاجرون قد كثروا من مكة، ومن غيرها إلى الدرجة التي تُلزم - بعد هذا النصر - أن يوضع دستور يحدد تلك العلاقات.

وأما ماورد من كتابية بين النبي ﷺ وبين اليهود بعد قتل كعب بن الأشرف اليهودي، - وكان قتل بعد بدر الكبرى -، فإننا كان توكيداً لما سبق، لأن قتل ابن الأشرف كان بسبب نقضه العهد بينه وبين المسلمين، وإعلان العداوة للنبي ﷺ، وممالاته لقريش على النبي ﷺ، وراثته لقتلى بدر، إلى آخر ما فعله غادراً بعهد مع النبي ﷺ والمسلمين، وقد نزل من القرآن الكريم، ما يؤيد ذلك بعد بدر، كما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يُتَّقُونَ ﴾^(١) [الأنفال: ٥٦]. وهي تشير إلى أكثر من معاهدة تمت بين الرسول ﷺ واليهود، كما بين ذلك أهل التفسير^(٢).

ونستعرض الآن بنود الصحيفة سريعاً، مع تحليل لا يخل بالمقصود؛ لنرى تقدم الإسلام في هذا الباب، وسبقه للعالم في إقرار الدساتير، والعمل بمقتضاها، ولنرد سريعاً على "وات" في مزاعمهم التي أوردتها.

أما نص الوثيقة فهي:

1 - انظر د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص ٢٧٦، وما بعدها، حيث ذكر كل أدلته. وذهب إلى تأييد هذا الرأي . د. مهدي رزق الله في السيرة، ص ٣١٣، وقد أورد أيضاً د. أكرم العمري في كتابه (المجتمع المدني في عهد النبوة - خصائصه وتنظيماته)، ص (١١١-١١٧)، وذكر في الهامش أن د. صالح العلي ذهب إلى أن وثيقة معاهدة اليهود كتبت أيضاً بعد بدر، تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة ص ٦، أما الآية فهي نزلت بعد بدر مباشرة تعقيباً وتعليقاً على غزوة بدر.

2 - انظر ابن الجوزي، زاد المسير (٣/٣٧٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

١. هذا كتاب، من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش، (وأهل) يثرب ومن تبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم.
٢. إنهم أمة واحدة من دون الناس.
٣. المهاجرون من قريش، على ربعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يقدون عانيهم بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.
٤. وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- (٥-١١) كل ذلك نفس بند بنى عوف من الأنصار وهو البند الرابع (٤).
- ١٢أ. وإن المؤمنين لا يتركون مفراً بينهم، أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل.
- ١٢ب. وأن لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه.
- ١٣- وأن المؤمنين المتقين، أيديهم على كل من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم^(١)، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.
- ١٤- ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن.
- ١٥- وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أديانهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض، دون الناس.
- ١٦- وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.
- ١٧- وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن، في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

١ - دسيعة الظلم: طلب عطية بدون وجه حق.

- ١٨- وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً.
- ١٩- وإن المؤمنين يبىء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.
- ٢٠- وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.
- ٢١ أ- وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا القيام عليه.
- ٢١ ب. وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.
- ٢٢- وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً، أو يؤويه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يوخذ منه صرف ولا عدل.
- ٢٣- وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ.
- ومن هنا تبدأ وثيقة يهود.
- ٢٤- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- ٢٥- وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه، وأثم، فإنه لا يوتغ^(١) إلا نفسه وأهل بيته.
- وما جرى مع يهود بنى عوف يجرى مع بقية قبائل الأنصار حتى البند (٣٦).
- ٣٦- وإنه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمد ﷺ.
- ٣٦ ب- وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك بِنفسه وأهل بيته، إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا.
- ٣٧- وإن عليهم نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والبر دون الإثم.

١- أي: لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته فهم يتحملون معه الدية مثلاً.

- ٣٧ ب- وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.
- ٣٨- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.
- ٣٩- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
- ٤٠- وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
- ٤١- وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.
- ٤٢- وإن ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على اتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.
- ٤٣- وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.
- ٤٤- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.
- ٤٥ أ- وإذا دعوا إلى صالح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.
- ٤٥ ب- على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.
- ٤٦- وإن يهود الأوس مواليهم، وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض، من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في الصحيفة وأبره.
- ٤٧- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن، بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ^(١).
- وبالتأمل في هذه الصحيفة:

١ - اختصرنا هذه النصوص، ولهذه الوثيقة يمكن مراجعة. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص ٤١-٤٧، د. أكرم العمرى، السيرة النبوية ص ٢٨٢-٢٨٥، ود. البوطي، فقه السيرة، ص ١٥٩-١٦٣، د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية، ص ٣١٦-٣١٧ وغيرها.

نراها تشتمل على مبادئ دستورية، إما واضحة وشاملة، أو يمكن استنباطها من تلك المبادئ المنصوصة، مع انطواء كل ذلك على أحكام شرعية، ذلك كله يجعل كلمة «دستور» هي أقرب إطلاق مناسب من المصطلحات الحديثة على الوثيقة، ومن ثمّ تكون هذه الوثيقة أقدم دستور مكتوب في العالم، وإذا كانت بمثابة إعلان دستور، فإنها شملت على ما يمكن أن يعالجه أي دستور حديث، يوضح الخطوط الكلية لنظام الدولة في الداخل والخارج؛ فيما يتعلق بأفراد الدولة مع بعضهم البعض، أو يتعلق بعلاقة الدولة مع الآخرين، ولكن هذه الوثيقة تختلف، أو تزيد عن دساتير اليوم بما يلي:

أولاً: الدولة الإسلامية دولة دستورية، والكلمة العليا فيها للشرع؛ فهي ليست كالدول الدينية في القرون الوسطى في أوروبا، والتي حاولوا أن يصموا بها الدولة الإسلامية.

ثانياً: الدولة الإسلامية بدأت حضارتها التي سادت الدنيا، باتباعها لتلك التعاليم والمبادئ، وتطبيقها على أرض الواقع، في حين كانت أوروبا تحارب العلم، وتحرق العلماء باسم الدين.

ثالثاً: العدالة، والمساواة، وحرية العقيدة، التي تمتع بها أفراد الدولة الإسلامية لا تحتاج لدليل، إذ كان يمكن ليهودي - مثلاً - أن يقاضى رئيس الدولة رأساً، ويأخذ حقه منه، في حين أن العنصرية والتمييز ما زالوا قائمين إلى وقت قريب في أوروبا وأمريكا رسمياً، فما زال الواقع يعجج أفراداً ومؤسسات بتلك التفرقة وهذه العنصرية والنازية.

رابعاً: هذا الدستور (الوثيقة)، ينطوي على الجانب الأخلاقي، المتمثل في مخاطبة المؤمنين المتقين، بمطالبتهم أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله، ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، رجاء الحذر من حساب اليوم الآخر، بما لا نظير له في الدساتير الوضعية.

خامساً: وفي الجانب الاجتماعي، جعلت الوثيقة الجميع - من الأسرة إلى العشيرة - مسئولاً عما يقع لأفرادها؛ ليقوموا به، من تكافل وتضامن، وإن لم يتمكنوا من ذلك، قامت به الدولة، من بيت مالها، فلا تدع مفرحاً، مثقلاً بالدين، كثير العيال، أو لا عشيرة له، ولا قوم، إلا قامت هي به، تقضي دينه، وتقوم بأولاده، على خلاف واقع اليوم، في الغرب كله، حيث المدين ينتظره الخراب والسجن.

سادساً: هذه المقومات الدستورية - في مجموعها - إنما تقوم على فكرة وحدة الأمة الإسلامية، وما يتعلق بها من المواد التنظيمية الأخرى، المنبثقة من العقيدة الواحدة، فالمسلم له تلك الحقوق، في أي بقعة كانت من بقاع الأرض، بغض النظر عن الجنسية أو الأرض أو غيرها.

سابعاً: تُميّز هذه الوثيقة (الدستور) الإسلام بأنه دين شامل، لا يقتصر - كما يريد له المستشرقون وأذنبهم - على علاقة المرء بين الإنسان وربه، أو أنه دين يختص بالعرب، أو لا يخرج عن الحدود الإقليمية، ويكفي تكذيب الواقع لكل ذلك، وما حاولوا نشر هذه الغربية إلا لإيقاف المد الإسلامي المتنامي، وحيوية الإسلام المدهشة، أمام دخول الغرب فيه.

وبعد ذلك نقول: إن هذا الدستور قد وضعه الرسول ﷺ، بوحي الله له، لأنه: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۗ ﴾ [النجم: ٣-٤]. وكتبه أصحابه رضوان الله عليهم، وإن تطبيق المسلمين له أيام النبوة وبعدها، وفي أيام تولى الحكم، كان وفقاً لشرع الله. رأينا ذلك كله دليلاً على صحة الوثيقة، ولاشك أن هذه الأصول الدستورية العامة، تؤيد ما جدّ مما يحقق مصالح المسلمين، ونفعهم، ولا يتعارض مع أسس الإسلام، ومبادئه، مما يدل على مرونة الشريعة، وسعتها، وصلاحياتها لكل زمان ومكان. لأننا ما سمعنا بإهدار هذه النصوص، أو التفلت من الالتزام بها، إلا حين خالف الناس الشرع، وأداروا ظهورهم له،

متوجهين شرقاً وغرباً، وما انتكست تلك الحضارة إلا بالبعد عن تعاليم الإسلام الصحيحة^(١).

وبذلك يظهر الفارق الضخم، بين هذا الدستور والدساتير الأخرى، من حيث إنه يعتمد في تطبيقه على الجانب الديني، المتعلق بالإيمان بالله وباليوم الآخر، ليؤكد تلك الأسس الإلهية، في الوازع الحامل للناس على الانقياد لتلك القوانين.

إن تحليلاً سريعاً لبنود الوثيقة يظهر لنا:

• أنها بين المسلمين المؤمنين، من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، فكان أن بينت - من أول بند - أنها اتفاق شامل لكل مسلم في كل مكان، مما يدل على أن المسلم حيث كان، مرتبط بذلك الكيان الواحد، «فإنهم أمة من دون الناس»، مما يؤكد على رباط العقيدة، فوجهتهم وولأؤهم، لله تعالى ورسوله ﷺ، وليس للقبيلة ولا للدم، فاتحدت قبلتهم مع شعورهم وأفكارهم؛ وإن احتكامهم كذلك للشرع، وليس لعرف أو تقليد، لا يقرهما الشرع، وكان ذلك يستهدف اعتزازهم بذاتهم، حتى نهاهم أن يتشبهوا بغيرهم، فقال ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»^(٢)، مميّزاً لهم عن غيرهم تميّزاً واستعلاءً، لا يشكل حاجزاً بينهم وبين غيرهم، ليدخلوا في الإسلام.

• ومع ذلك ذكرت بنود في الوثيقة عشائر الأنصار، ولم تذكرهم ليكون الولاء لغير الله تعالى، - للقبيلة - وإنما بينت بغير لبس أسباب ذلك، في تدرج نظام التكافل من ناحية، والتنظيمات الإدارية من ناحية أخرى، ففي نظام التكافل، بيّنت حقوق وواجبات العشيرة الواحدة، من التضامن في إعانة المحتاجين، وفكّك الأسرى، وتحمل الديات، وغيرها، مما

1 - انظر لما سبق د. البوطي، فقه السيرة، ص ١٦١.

2 - رواه أحمد (٤٨٦٨)، وأبو داود (٣٥١٢).

هو موجود، أو مما يفرضه الواقع؛ وأما التنظيمات الإدارية، فكثيرة في مسؤولية كل عشيرة، في مشاركتها الدولة في القيام بشؤونها، وإعداد رسلها، وجنودها ونقبائها، مع القيام بتنفيذ أمور الدين، وإبلاغ أعمال الرسول ﷺ، وأموره ونواهيها، ووصاياها إلى غيرها، والقيام بمصلحة كل فئة، وترتيب كل الأمور، الترتيب اللائق بها في مثل هذا الواقع، ومثل هذه الأعمال، تحت القيادة العامة لرسول الله ﷺ.

• وكما أكدت الوثيقة ما سبق، فقد أكدت على المسؤولية الجماعية، وأن سائر المؤمنين مسؤولون عن تحقيق الأمن، والعدل، في مجتمع المدينة، خاصة، وأن الحدود الشرعية، وأوامر الشرع، وما يتعلق بشيوع المعروف في المجتمع، كل ذلك من الله تعالى، فكان تطبيقه واجباً دينياً على جميع المؤمنين، ومن ثم نصت الوثيقة على أن أيدي المؤمنين المتقين، على كل من بغى منهم، أو ابتغى دسيسة ظلم، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وأيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، وبذلك كان المؤمنون المتقون - لكمال إيمانهم عن غيرهم من المؤمنين، الذين يمكن أن يقعوا في مثل ذلك - أحرص من سواهم على القيام بواجبات الدين تلك، وكان مثلاً لذلك، القتل، حيث فيه القصاص، إلا أن ينزل أولياء القتل إلى الدية أو العفو، بينت الوثيقة فيه أنه إن اختار أولياء القتل الدية، فإن المؤمنين جميعهم، بمن فيهم أولياء القاتل، يتعاونون في تطبيق الحكم عليه، وعدم حمايته أو إيوائه، ومن خالف ذلك فعليه لعنة الله، وغضبه يوم القيامة، لا يقبل منه صرف ولا عدل.

• وأقرت الوثيقة مبدأ الجوار⁽¹⁾، وجعلته حقاً للرجل والمرأة على السواء، وهو من دقة المساواة الواقعة بين المؤمنين، بحيث لا يجوز لأحد أن يخفر مسلماً في جواره، إذ ذمة المسلم - أيّاً كان - محترمة، لا يتعدى عليها حاكم أو محكوم، ولكنها منعت من بقى على شركه من الأوس والخزرج أن يجير قريشاً، أو تجارتها، التي تمر غربي المدينة، إذ في إجارة العدو شيوع

1 - جوار بكسر الجيم وضمها والكسر أفصح، جاور بنى فلان أى تحرم بجوارهم، لسان العرب باب «جور».

عدم الاستقرار، والعداوة، التي جعلت الوثيقة الأمن بها لجوف المدينة، ومن قعد ومن رحل كل ذلك آمن. إن ذلك تهديد مباشر ونقض لهذه الوثيقة، حيث أقرت الوثيقة العيش في سلام، لكل أهل المدينة، كما قرأنا في بنودها، ولكن الموالاة التي ينبني عليها المحبة والنصرة والمعونة والتأييد، فهي محصورة فقط في المؤمنين؛ إذ لا يجوز لمسلم أن يوالى كافراً، كما قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١] وقال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ ۚ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١] وقال تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وإن كان الإسلام لا يمنع البر والقسط، مع أهل الكتاب المسالمين له.

• ومع ما تقدم، يصح إذن البند (١٧) القائل: إن سلم المؤمنين واحدة، ولكن لا يسالم مؤمن لنفسه من دون المؤمنين، بل إن إعلان الحرب من اختصاص النبي ﷺ، وعليه فإن المسلمين جميعاً يكونون في حالة حرب مع ذلك العدو، فلا يمكن لفرد أن يهادنهم، لارتباطه بسياسة المسلمين الواحدة تجاه عدوهم، وإن عبء الحرب يقع على كل المؤمنين، بحيث تعقب كل غازية أخرى متناوبين في الجهاد.

وفي ختام كلام الوثيقة بين المهاجرين والأنصار، كان المرجع الأعلى لكل خلاف يقع بين المسلمين، مرده إلى الله جل وعلا ورسوله ﷺ^(١).

وبفراغنا من نظرة عجلى، على ما كان بين المسلمين، من شروط في الوثيقة، نشرع في نظرة أخرى، تلقي - كذلك - الضوء سريعاً على شروط المعاهدة بين المسلمين واليهود، مع تحليل ما يهمنها لنرد بكليهما على "وات":

١ - ينظر لما سبق، د. البوطي، فقه السيرة، ص ١٦٢، د. أكرم العمري، السيرة النبوية، ص (٢٩٢-٢٩٨)، د. مهدي رزق، السيرة النبوية، ص (٣١٦-٣١٨)، وبعض ما سبق لأبي عبيد، القاسم بن سلام، الأموال، ص ٢٩٤.

• إن بنود تلك المعاهدة، التي تنظم هذه العلاقات، بين المسلمين واليهود، تبدأ من البند الرابع والعشرين، إلى السابع والأربعين.

• وإن أول ما يطالعنا في تلك النصوص، هو الحرية الدينية لليهود، وإنهم ما زالوا على ذلك، حتى لما غدروا وأخرجهم الرسول ﷺ من المدينة، بنقضهم تلك المواثيق، خرجوا وهم يهود، ومن بقى منهم - من غير القبائل الثلاث اللاتي نكثت أيمانها، ومزقت كتب مواثيقها -، ظل يتمتع بتلك الحرية الدينية، والبقاء في المدينة، حتى إن الرسول ﷺ توفي ودرعه مرهون عند يهودي^(١).

• لم يقتصر الأمر على ذلك، بل جعل ﷺ ذلك لليهود، ولحلفائهم ولمن تهود من المشركين، فقالت الوثيقة: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم (٢٥-٤٦،٣٥).

• وأكدت كذلك، أن المسؤولية الجنائية، لا تخص إلا صاحبها، فلا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن من ظلم وأثم لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، كما هو الحال مع المسلمين، أو يتركون المدينة، فهم كذلك. (٣١، ٣٧ب).

• وإن أجاز اليهود أحداً، فهو كالنفس غير مضار ولا آثم، ولكن لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، فلا يفتنت أحد على أحد بجوار إلا أن يوافق أهل المستجير. (٤٠، ٤١).

• ثم جعلت الوثيقة المدينة حرماً آمناً، حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، فلا يحل انتهاكه، فلا يقتل صيده، ولا يقطع شجره، وحرم المدينة بين الحرّة الشرقية والحرّة الغربية، وبين جبل ثور في الشمال، وجبل عير في الجنوب، ويدخل وادي العقيق في الحرم، وبذلك

١ - البخارى (٢٩١٦).

أحلت هذه المادة الأمن في المدينة، ومنعت الحروب الداخلية^(١)، وبناء عليه جاءت نصوص التعاون والتناصر، وتتلخص في أن بين أهل هذه الصحيفة، النصر والنصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وتفصيل بعضه فيما يلي:

• أن بينهم النصر على من دهم يثرب، وعلى كل أناس حصتهم التي من قبلهم، (٤٤، ٤٥) فعلى اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

• ومهما كان المؤمنون محاربين، فإن اليهود ينفقون معهم ما داموا كذلك.

• وأنهم إذا دعوا صالح فإنهم يصلحونه، وكذلك المؤمنون إلا من حارب في الدين، ومن ثم لا تجار قريش ولا من نصرها. لما بينها وبين المسلمين من حرب، وأذى شديد بسبب الإسلام.

• ولوجود هذه الوثيقة، فإنه لا يخرج من المدينة أحد، إلا بإذن رسول الله ﷺ، لسلطانه على المسلمين، ولعهده مع اليهود؛ وذلك لما يراه من مصلحة، كأمن المدينة، أو اقتصادها، أو غير ذلك من المصالح العامة، فإن الجميع يخضع للنظام العام، حيث أقر اليهود بسلطة عليا تحاكم فيما يعن من شجار، بين المسلمين واليهود، وهي الرجوع إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، إن كان ما يدخل في ذلك، ليس مما يختصمون فيه من قضاياهم الشخصية، فهم يردون فيها إلى التوراة، ليقضى لهم فيها أحبارهم، إلا حيث يحكمون فيها الرسول ﷺ، فإن شاء قضى بينهم، وإن شاء أعرض عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

1 - انظر النووي، شرح مسلم، باب فضل المدينة (١٠٣٠)، ومحمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص (٤٤١، ٤٤٢)، وأشار إلى ذلك د. أكرم العمري، السيرة النبوية، ص ٢٩٢.

والتزام ذلك جعل من خرج فهو آمن، وأكد على البر والصدق والتقوى، في تنفيذ تلك العهود، فجاءت تلك الكلمات المنيرة، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة، وأصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإن الله جار لمن اتصف بذلك، ومحمد رسول الله ﷺ.

توضح كتابة الصحيفة - نفسها -، وما حوت من بنود، أن السلطة العليا في المدينة، كانت لرسول الله ﷺ، وأن الواقع الذي لا يستطيع دفعه، أنه لم يكن يُنطق بسلطة أخرى لأحد، يقرر علاقات المدينة الخارجية، وشؤونها الداخلية، أمنية واجتماعية واقتصادية من المنطلق الإسلامى، وإعلانها الحرب والسلام، إلا رسول الله ﷺ، مما يؤكد على علو مكانة الرسول ﷺ، التي لا مرأى فيها من ناحية، وعلى صحة بنود هذه الوثيقة من ناحية أخرى.

كما تبرز الوثيقة علاقات هذا الدين الحق، وعلوها ورقيتها، وهذا ما كان ينبغي أن نقارنه بآيات من القرآن الكريم لاستكمال المنهج ولكن الإختصار دعانا لذلك.

وات والوثيقة:

لابد من مناقشة المستشرق "وات"، ولو على أقصى سرعة، لإيقافه على محطات الخطأ في سيره مع الوثيقة، وتبيين مواقف الصواب، مع علمنا بدوافعه وبواعثه، التي ذكرناها أكثر من مرة، ولكن بدون تكرار.

إن نقد "وات" الشديد للوثيقة، كان من ثلاث نقاط:

الأولى: دستور المدينة صحةً وتاريخاً.

الثانية: معنى الأمة في هذا الدستور.

الثالثة: مكانة النبي ﷺ في المدينة.

ونبدأ بالقضية الأولى؛ ونناقش "وات" فيها من زاويتين، حيث تتلخص رؤيته فيها

للوثيقة؛ وهما صحة الوثيقة، وتاريخ كتابتها.

أما صحة الوثيقة فإن "وات" يرى:

أولاً: صحة الوثيقة لأسبابٍ متهافئة؛ منها استحالة التزوير في العصرين الأموي والعباسي، فلا يمكن لأي مزور أن يجعل لمحمد ﷺ هذه المكانة المتواضعة، وأن يحتفظ بينود ضد قريش، أو أن يجعل غير المسلمين أمة مع المسلمين؛ إذ أن كل ذلك بأسلوب لا شك قديم^(١).

ثانياً: نراه شكك في صحة الوثيقة، منقلباً على رأيه السابق، ولكن مع تمسكه الشديد بأدلة عدم التزوير في الرأي السابق، - وهذا من عجيب البحث أن ينقض الرأي، ويحفظ بأدلتها، يبدى فيها ويعيد، مفرداً لها صفحات عديدة - وما ذلك إلا لأنه يرى أن هذا الكلام^(٢)، هو مقصوده الذي أورده ابتداءً، سواء صح الخبر أم لم يصح، وما يهدف إليه من توجيه السيرة، وجهته التي أراد منها كون النبي ﷺ - في النهاية - لم يوح إليه، وأن مكانته كذا وكذا، وأن كلام الصحيفة المتناقض يدل على ذلك.

وقد بعدنا - بالاستطراد - عن دليل تشكيكه في الصحيفة، فلنعد إليه؛ وهو أن ابن إسحاق لم يذكر الطريقة التي وصلت بها الوثيقة إليه^(٣).

تاريخ كتابة الوثيقة:

يرى "وات" أن بنوداً من الوثيقة كتبت في وقتين مختلفين، أو أوقات مختلفة، وذلك

1 - Mohammad at Medina p225

2 - الذي لاشك اخترعه، لأن ذلك ليس من أدلة الصحة والبطلان في أسانيد الأخبار.

3 - op.cit. p 221، وانظر عبد الله النعيم، الإستشراق في السيرة، (١١٢).

لفروق لغوية، وبعض البنود تكرر لبنود أخرى، وتعالج نفس المسائل^(١).

مع افتراض أن البنود ٢٣، ١٩، ١٦، ١٥ تمثل نص اتفاق أصلي، وقع بين محمد ﷺ وقبائل المدينة في العقبة (مكة)، ثم أضيفت بنود جديدة إلى هذه البنود، بين وقت وآخر حسب الحاجة، كما حذفت البنود القديمة... هناك مسائل كثيرة غامضة خاضعة للفرضيات^(٢).

هذه اعتراضات "وات" كما هي، ونبدأ من آخرها، فيتين لنا شيء جديد عن "وات" في عرضه للتاريخ، وبحثه في بواعث الأحداث، وأسبابها، فنبدأ بقوله: هناك مسائل كثيرة غامضة خاضعة للفرضيات، وعلى هذا القول، ما يلي:

١- هذا دليل الإفلاس في عرض الوقائع، لأن "وات" لم يدع شاردة ولا واردة، يدين بها السيرة وصاحبها - مهما كانت موضوعة لا قيمة لها - إلا وذكرها وأشاد بها، وأكد بكل سبيل من سبله صحتها، وهنا لم يذكر واحدة من الكثير الغامض الذي ادعاه، لأنه لو كان لذكره، وما تغاضى عنه، حتى وإن لم يكن لاخترعه كما قال بلسانه: خاضعة للفرضيات، وكم رأينا افتراضه الكثير مما خطه، يكتب به تاريخاً من عنده، يعينه على استنباط ما أراد سلفاً وأعد.

٢- لما لم يستطع دفع صحة وقائع وأحداث الوثيقة، بالأدلة التي تفصل القضايا، شكك فيها بهذا القول المجمل، والذي يستطيع كل أحد أن يرد به أى قول لا يتمكن من التصدى لصحته، فيرمى بقوله، ويجرى هناك مسائل كثيرة غامضة.

٣- السؤال المنطقي، اللازم لما نحن فيه، هو أين الغموض في كثير من مسائل

1 - Mohammad at Medina p 226، "وات"، محمد في المدينة، (٣٤٦-٣٤٧).

2 - المصدر السابق ٢٢٧.

الوثيقة؟ بل أين هو في كل مسألة وبند منها؟ سواء في المعنى، أو في اللفظ، أو في كليهما، أو حتى في غير ذلك مما يكتنفه الغموض، أم إنه الشغب والتشويش، وإثارة الغبار على الحقائق عند عدم استطاعة الرد - علمياً كان أو غيره - عليها!

بهذه الأدلة من كلام "وات"، لم نعد بحاجة إلى استكمال نقد كلامه؛ ولكن إحقاق الحق وإظهار الباطل في كلامه، يملئ علينا مناقشة بقية البنود، وكذا إتماماً للأمانة العلمية في ذلك.

فنعود إلى النقطة الأولى وما بعدها، حيث ذكر "وات":

أولاً: صحة الوثيقة؛ لأنه لا يمكن لأى مزور أن يزور فيها هذه البنود - المسيئة للإسلام وللنبي ﷺ -، على حسب اكتشاف "وات".

نقول آمناً بالله، وصدقنا بصحة الوثيقة، بغض النظر عن أسباب عدم التمكن من تزويرها، إذ يكفي أن يقول "وات" لا يمكن لأى مزور أن يزورها.

فإذا بنا نَفَاجاً بأن "وات" يقول إن الصحيفة مزورة، مع إن أدلة عدم التزوير باقية، وهكذا يكون البحث العلمى النزيه المجرد، ويسوق "وات" أدلة التزوير فيقول:

أولاً: إن ابن اسحاق لم يخبرنا كيف وصلت إليه هذه الصحيفة المزورة - أقصد التي لا يمكن تزويرها -، ونذكر القاريء بأننا رددنا على ذلك - بالإسهاب - في بداية الكلام على الوثيقة؛ حتى لا نضطر لإعادته في الرد على "وات" الرد العلمى الحديثى والتاريخى.

ثانياً: إن الوثيقة كتبت في وقتين، أو أوقات مختلفة^(١).... إلى آخره، والرد: إنه ليس بين المتقدمين من كُتَّاب السيرة - مما عرفنا - من ذكر وقتين لها، فضلاً عن أوقات مختلفة! مع إن ذلك لم يكن ليعيبهم في شيء، إذ كتب في الوثيقة ما هو أسوأ منه في نظر "وات"، حتى ادعى

عدم إمكانية التزوير؛ والمدققون من المتأخرين ذكروا وقتين لا ثالث لهما، ولكن كان الأول بين المهاجرين والأنصار، والثاني بين المسلمين واليهود، وماذا يخالف الواقع أو العقل في ذلك، وذكرنا بقية الكلام وتوضيحه في محله السابق ليكون رداً مقدماً على كلام "وات".

ثالثاً: مما يؤكد به "وات" تشكيكه في الوثيقة - التي لا يمكن تزويرها - هو أن هناك اتفاقاً أصلياً، وقع في العقبة بمكة قبل الهجرة، بين الرسول ﷺ وقبائل المدينة، وبنوده هي ١٥، ١٦، ١٩، ٢٣.

ومما يثير الأسى، والحزن، على البحث العلمى، وعلى "وات"، أن ينزل بفكره، وألا يحترم عقله وبخه إلى هذا المستوى؛ إن البند الخامس عشر يتحدث كما ذكرنا عن إجارة المؤمن، أى: له أن يكفل، ويحفظ، ويمنع من أن يتعرض له أحد بأذى، وذلك في الوقت الذى لم يكن للمؤمن فيه أى احترام ولا قيمة من مشركى مكة ومن غيرهم، فكيف يجير غيره في نفس الوقت الذى لا يستطيع أن يمنع فيه نفسه؛ إن إجارة المسلم كانت تكون ذات قيمة بعد الهجرة، لوجود هذا الكيان السياسى، أو أن يكون لهم من القوة والمنعة ما يجعل غيرهم يستجير بهم ليجيروه. ووات يعلم أن ذلك ما كان ليحدث أبداً قبل الهجرة.

ومع ذلك سطر ما قد سمعنا!

وكذلك البند السادس عشر، أنى يكون قد تعاهد فيه النبى ﷺ والمسلمون - قبل الهجرة - مع اليهود، وهو ينص على أن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، وكما هو معلوم أن الرسول ﷺ وقبائل المدينة - أنفسهم - كانوا مستخفين ليلة العقبة، حتى من أهل يثرب^(١)، وفي حالة من الاستضعاف، يترقبون بها أن يؤيدهم أحد، أو يدفع عنهم ظملاً مما وقع بهم، بل لا يستطيع كثير منهم أن يعلن إسلامه، ومن علم إسلامه

1 - ابن هشام، السيرة النبوية (١/٦٢).

فهو المتحمل لتبعة ما ينزل عليه ويحيق به من الكفرة. أتى لهؤلاء أن ينصروا يهوداً، وأن يكون اليهود معهم غير مظلومين، وأين كان اليهود ليلة العقبة كما يدعى "وات"، ليتعاهدوا مع النبي ﷺ، ويطلبوا منه ألا يظلموا، وهل يُطلب ذلك من النبي ﷺ، إلا في ظل سيادة يتمتع بها المسلمون، متمكنين حالها من أن يظلموا أو أن يكفوا الظلم، وما حدث لهم ذلك إلا في ظل دولة المدينة، فكيف يصرح "وات" بأن هذا البند قد وقع قبل الهجرة؟! وفي هذا الواقع المؤلم؟!

أما البند التاسع عشر، فهو يتكلم عن القتال في سبيل الله تعالى، ووات يعلم علم اليقين أن القتال شرع بعد الهجرة، وأن تلك الأحوال - في مكة، التي أحاطت بذلك البند - لم تكن ليشرع فيها قتال البتة.

والبند الثالث والعشرون أظهر من غيره، إذ ذكر فيه أن مرجعية أى خلاف لأهل الصحيفة، إنما هى لله وللرسول محمد ﷺ؛ هذه المرجعية العليا - التي قررها الواقع، لتجعل النبي ﷺ الحاكم الأعلى - ما استقرت وتحققت وارتضاها المعاصرون لها، الموقعون عليها، إلا في المدينة بعد هجرة النبي ﷺ، وإذا بوات يقرر بما لا يدخل في عقل أحد - فضلاً عن الباحثين - أن المرجعية العليا كانت له ﷺ في مكة؛ والتي كانت حاله فيها كما هو معلوم من سيرته حتى تركها مستخفياً وهاجر الى المدينة.

وهكذا رأينا كلام "وات" لا يثبت لأى تحليل أو نقد تاريخى أو نصى، فضلاً عن التحقيق والتمحيص في ذلك.

يقول عبدالله النعيم - ما حاصله -: إن "وات" أوقع نفسه في تلك الورطة، حتى يخرج القبائل اليهودية الكبرى الثلاث - بنى قينقاع، وبنى النضير، وبنى قريظة - من تحمل تبعات الغدر والخيانة للرسول ﷺ، حيث لم يوقعوا معه عهداً؛ لأن العهود كانت في العقبة،

ولم يحضرها أى منهم^(١). وكأنه يستجيز لهم ذلك، من محاولة اغتيال النبي ﷺ، وغير ذلك مما فعلت النضير وقريظة وقينقاع، دون أن يرد عليهم النبي ﷺ، لأنهم لم يعاهدوه على ذلك، وكأن هذه الأحداث بغير عهد مباحة لهم، لا يعاقبون عليها، فلم يخرج "وات" من مستنقع البحث الآسن، المليء بما وصفنا من قبل.

أما السبب الذى لم يَمُحُه "وات"، حيث جعله من أدلة صحة الوثيقة، هو ضعف مكانة النبي ﷺ، وجعله من أعمدة عدم تزوير الوثيقة، فلما شكك في صحة الوثيقة، إذ به يبقى أعظم أدلة عدم التشكيك فيها بله التزوير بإبقاء هذا الدليل، وإذا أثبت صحة دليل عدم التزوير، فالوثيقة صحيحة فلم التشكيك وإثبات عدم ذلك؛ أو أنه شكك وأثبت عدم صحة الوثيقة فلم أبقى دليل عدم التزوير، بل دليل الصحة عنده؟! الباعث واضح لا يحتاج لتأمل، أو حتى نظر، فهو قد اخترع مكانة للنبي ﷺ، تنطق الوثيقة بعكسها تماماً، لينى عليها كل تلك المجازفات، مع عدم المبالاة بعقل أو بحث؛ إلى آخره.

وتتلخص أدلة "وات" - على ما سبق - في أن النبي ﷺ زعيم قبلي كغيره، بل هناك من هو أعظم نفوذاً منه، وأن دستور المدينة ليس دليلاً صادقاً على مكانة النبي ﷺ، حين وصل المدينة، بدليل أنه لم يستطع ملاحقة ابن أبيّ، حتى طلب الإذن بذلك، وأنه ترك تقرير عقوبة قريظة لزعيم حلفائها، وأن أهل المدينة لم يعترفوا له صراحة بالحكم بينهم، وإنما قبلوا ذلك بالقوة حين ترك الوحي يأمره بالرجوع إلى الله في خلافاتهم كافة، وأن وجوب طاعة النبي ﷺ، لم تكن صراحة إلا بعد الحديبية، حيث لا يوجب ذلك دستور المدينة. وأن سلطات النبي ﷺ بدأت تتسع تدريجياً^(٢).

1 - انظر عبد الله النعيم، الإستشراق في السيرة (١١٢-١١٦)

2 - محمد في المدينة وما بعدها p. 228 Mohammad at Media

وبداية الرد السريع المختصر؛ لأن كل سطر عند "وات" يحتاج لنقذ لا ينقضى عجب المرء منه، وكيف استجاز ذلك على عقله ونفسه!

إن كلامه من أول سطر يناقض قرائن الأحوال ووقائعها، ويضرب بعضه بعضاً، فبينما يذكر لنا:

أولاً: كون النبي ﷺ زعيماً كغيره، بل هناك من هو أعظم نفوذاً منه؛ فإنه لم يذكر لنا غيره، ولا عظم نفوذه، ونحن نذكره بأن الواقع لم يذكر لنا زعيماً غيره، بيده مقاليد أمور الزعامة في المدينة، سلماً وحرماً، وعلاقات جوار خارجية، وتنظيماً داخلياً. من كان بيده شيء من ذلك عند مجئ النبي ﷺ إلى المدينة؟ لقد ذكر كتاب السيرة ابن أبي، وأنهم يعدونه للملك عليهم، فهل ملك بدخول الرسول المدينة شيئاً؟!

وكان على "وات" أن يذكر أى انسان آخر يُسيّر أمور المدينة بما كان يقوم به النبي ﷺ، خاصة وإن جميع الرسل الذين أتوا المدينة كانوا ينزلون، أو يعاهدون، أو يسلمون لرسول الله ﷺ.

هذه مخالفة صارخة للواقع لا يمكن أن يكون الباعث عليها علم أو حياد أو نزاهة.

ثانياً: كون طاعة الرسول ﷺ لم تجب حتى صلح الحديبية، ويناقض قوله ذلك بدعواه أنهم هملوا بالقوة على الطاعة، وتحكيم الرسول ﷺ بينهم، لنزول الوحي يأمر بذلك.

أما كون طاعة الرسول ﷺ لم تكن واجبة، فهو إلقاء للقول على عواهنه، بغير بينة إلا الاتهام المسبق، وإلا فوات يعلم - قبل غيره - نزول آيات وجوب الطاعة في أول ما نزل بالمدينة على الأقل، فقد جاءت سورة الأنفال وهى من أوائل ما نزل هناك، وأولها الأمر بطاعة الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١] وكل الآيات

- تقريباً - الآمرة بطاعة الرسول ﷺ تكذب وات وهو يعلم ذلك، إذ نزلت قبل الحديبية^(١).

ثم ما هي القوة التي حملت المؤمنين على الطاعة وتحكيم الرسول ﷺ كما ذكرت؟! ليس هو صاحب المكانة والنفوذ الضعيفين؟! لدرجة عدم تمكنه من ملاحقة ابن أبي؟ فما الذى تغير حتى تكون له كل هذه القوة الحاملة على انقياد المدينة والتزامها بأوامره، وما المانع إذاً أن يكون دستور المدينة قد أمر بطاعة الرسول ﷺ وتحكيمه؟! مع أننا متيقنون أنه لم يكن يحكم غيره، أو ما سمعنا - فيما وصلنا - تحكيم غيره، أو طاعته، على شيء من هذا النحو الذى كان عليه رسول الله ﷺ، ثم إذا كان مَرَدَّ قوة الرسول ﷺ، التى حملت الناس على تحكيمه هو الوحي، فقد كان الوحي أقدم من صياغة الوثيقة، فما المانع - على رأى وات - أن يُحمّلوا على تحكيمه ﷺ من أول يوم وصل المدينة بتلك القوة الجبرية المدعاة.

ثم إن هناك واقعاً يعلمه وات قد حدث في العقبة الثانية، وهو بيعة الأنصار للنبي ﷺ، وقد ذكر ذلك ابن اسحاق، فيما رواه عن عبادة بن الصامت، يدل على وجوب طاعة الرسول ﷺ، حيث يقول في بيعة العقبة: «بايعنا رسول الله ﷺ في يسرنا وعسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم»^(٢).

وقد كانت علاقة النبي ﷺ بالمسلمين في دستور المدينة، غير موقوفة على أن يسمعوا له ويطيعوا عندما يدهم المدينة عدو، بل ما رأيناه من سعد بن معاذ ﷺ عند مسير قريش إلى المدينة، يوضح خلافه، فقد قال ﷺ عندما رأى النبي ﷺ يود أن يسمع رأى الأنصار في

1 - آيات الأمر بالطاعة وهى: قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أُطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ [الأفال: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أُطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا ءَعْمَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

2 - ابن هشام، السيرة النبوية، (٧١ / ٢) وحديث عبادة رواه البخارى (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩). ترجمة عبادة

الخروج لملاقاه قريش: «قد آمننا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك موثيقنا وعهودنا، على السمع والطاعة، فامض بنا يا رسول الله لما أردت. والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله»^(١).

دل ما سبق على أن طاعة الرسول ﷺ واجبة، وقد فهم ذلك الأنصار، بل هي من الواجبات التي لا تخلف فيها في أدق المواقف وأصعبها، فما بال الباحث بما دون ذلك، وفي النهاية يكون استدلال وات بما اتخذته النبي ﷺ في أمر عبد الله بن أبي بن سلول - رأس المنافقين - من ترك عقابه بعد مشاركته في حديث الإفك، لا يساوى ذكره أو كتابته، ومع ذلك ننظر فيه، فإذا به لم يكن إلا سياسة حكيمة من الرسول ﷺ، لعدم تنفير الأنصار من الإسلام، وكذلك لعزل ابن أبي سياسياً، واجتماعياً، حتى إنه لم ترفع له رأس بعد ذلك، وقد وصل الأمر بهذه السياسة الحكيمة منه ﷺ، أن منع ولد ابن أبي - وكان مسلماً - بعد إعلانه قتل والده للرسول ﷺ إن شاء، ذلك بعد أن منع الابن أباه من دخول المدينة حتى يأذن له النبي ﷺ؛ وقد اتفق الصحابة على أن تلك السياسة كانت الأصح، والأولى في هذه القضية، ثم يأتي وات ليقول - فارغاً من القول عقلاً وواقعاً - بأن ذلك دليل ضعف مكانة النبي ﷺ! تراه - عليه أفضل الصلاة والسلام - لو أمر ابنه بقتله، أما كان ليقتله؟! فأين ضعف المكانة!؟

واستدل وات كذلك على ضعف مكانة النبي، بأنه ﷺ لم يتخذ قرار تصفية جيب بنى قريظة بعد خيانتهم في الخندق، وأوكل التحكيم فيهم لسعد بن معاذ حليفهم، وكان الأجدر بـ"وات" أن يصرح بأن مكانة سعد بن معاذ كانت أعلى من مكانة النبي ﷺ في هذا

1 - ابن هشام، السيرة النبوية، (١٨٩/٢)، وانظر عبد الله النعيم، الإستشراق، (١٢٢-١٢٣).

الموقف، وفي زعامته للأوس، وانتهت مكانة المتبوع المطاع ﷺ بارتفاع مكانة سعد بن معاذ ﷺ التابع عليه، وانتهت النبوة والزعامة، وآل الأمر لسعد، بدلاً من النبي ﷺ، وبدلاً من ابن أبي الذي كادوا ينصبونه ملكاً عليهم، هذا خلط وعمى في البحث، وتعام عن الحق، وقصد مشوب بدليل منهار.

إن ملخص القصة، أن بعض الأوس قد طلب من النبي ﷺ أن يترك لهم بني قريظة، كرامة لهم^(١)، كما ترك لابن أبي - زعيم الخزرج - بني قينقاع، فترك لزعيم الأوس - وهو سعد بن معاذ ﷺ - بني قريظة، فأين الضعف، هلا كان ضعيفاً يوم ترك بني قينقاع لابن أبي؟! وكان أعلى مكانة من سعد بن معاذ في الجاهلية زعامة وأتباعاً؛ وقد ذكر وات أن سلطات النبي ﷺ بدأت تتسع تدريجياً، فهل تقلصت عند بني قريظة فتركها ضعفاً لسعد بن معاذ؟! ترى لو كان النبي ﷺ هو المتخذ لقرار التصفية كان سيتعرض له أحد بقتال؟! أو أن ينضم مع بني قريظة لقتاله؟! وهل لو اجتمعت بنو قريظة والأوس جميعاً كانوا يستطيعون قتاله؟! وهم حينئذ قد افترض أنهم كفروا بالله ورسوله؛ لقد جمع ابن أبي رجاله - وكانوا أكثر من الأوس - إلى جانب بني قينقاع، وكانوا أشرف من قريظة عند يهود، وأشد تمرساً في القتال منهم، وكان النبي ﷺ حديث عهد بمجيئه المدينة، في قلة من العدد والعدة، ولم نر منهم إلا الاستسلام، فأين الضعف الذي يخالفه الواقع والأحداث والأدلة؟! ذلكم وات وتلك بواعثه، وهذه أدلته على تلك البواعث.

لقد جاء في نقد وات للوثيقة - الدستور - أقوال أخر، لا تستحق الوقوف عندها، وقف عندها الباحث عبد الله النعيم، فنحيل القاريء إليها^(٢).

1 - إن رعاية النبي ﷺ لهذا الجانب كان من منطلق سياسته الحكيمة، ومعالجته الإلهية للأمور التي دائماً ما يأخذنا "وات" بعيداً عنها إلهاء عن واقع النبوة وتصرفاتها، وإتصال الأرض بالسماء في شخصه المعظم ﷺ. لينسينا رسالته والوحى إليه.

2 - له أقوال في قضية «مفهوم الأمة» الوارد في الوثيقة، انظر عبد الله النعيم، الاستشراق في السيرة (١١٧-١٢٠).

الفصل الثاني
في بيان ما كان عليه

غزوة بدر

المبحث الأول

النشاط السياسى والعسكرى إلى غزوة بدر

وقبل الخوض فى ذلك النشاط نشير إلى شيء من المعاناة التى وقعت للمهاجرين فى بداية وصولهم إلى المدينة حيث لم يكن وصولهم نهاية للألام والمشقات، بل إن تغير المكان من مكة إلى المدينة أصابهم بأزمات صحية تصورا معها نهايتهم، إذ كان معلوماً عن المدينة أنها موبوءة بالحمى - حمى يثرب - حتى وصل بهم الحال إلى أن يصلوا وهم قعود، وصرف الله تعالى ذلك عن النبى ﷺ رعاية بهم، وإستبقاء لمن يقوم عليهم وعلى أمور الدين.^(١)

لقد وعك أبو بكر وبلال ؓ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كُلُّ امرئٍ مُّبْتَحٍ فى أهلهِ والموتُ أدنى من شِراكِ نَعْلِهِ

وكان بلال ؓ إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته، ويقول:

ألا ليت شعرى هل أبیتنَّ ليلةً بوادٍ وحولى إذخرُّ وجليلُ

وهل أَرَدَنْ يوماً مياهِ مَجَنَّةٍ؟ وهل يَبْدُونُ لى شامةً وطَفيلُ

وجاءت عائشة رضى الله عنها إلى النبى ﷺ فأخبرته بما يقولان، فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك فى صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها

1 - أحمد، المسند (3/136)، وابن ماجه (1229-1231)، من طريق ابن اسحاق، وقال فى الزوائد: إسناده صحيح.

ووعت عائشة^(٢) رضى الله عنها، وابن فهيرة^(٣)، لأن المدينة كانت مشهورة بالحمى، حتى قال مشركو مكة عن المسلمين في عمرة القضية: «أنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب» فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ليروا المشركين قوتهم، وأن الحمى لم تنهكهم كما يزعم الكفار.^(٤) واستجاب الله دعاء نبيه فجعلها من أطيب البلاد بعد ذلك.

تهديد قريش للمسلمين بعد الهجرة:

لم تترك قريش المسلمين يستقرون في المدينة حتى أرسلوا لكفار المدينة تهديدات شديدة بطرد المسلمين، وقد وجدوا عبد الله بن أبي بن سلول خير من يقوم بهذا الموقف حيث ما زال كافراً ظاهراً وباطناً، وكان يعادى النبي ﷺ وأصحابه، ويؤذى النبي ﷺ ويسىء إليه، لأنه كان يرى أن النبي ﷺ قد سلبه ملكه، فقد وصل الرسول ﷺ المدينة، وأهل المدينة يعدون له تاج الملك عليهم، فتركوه وآمنوا، ومن حينها أظهر عداؤه وبغضه للرسول ﷺ، وجاءت موقعة بدر وهزم الله قريشاً فدخل ابن سلول الإسلام كرهاً ظاهراً، وظل كفره باطناً يجارب الله ورسوله والمؤمنين، وصار بذلك رأس النفاق، وكان الرسول ﷺ لحكمته وحسن سياسته يعرض عنه، فلا يقابل إساءته أو أذاه بشيء، - حتى إنه آذى النبي ﷺ ذات

1 - البخارى (٣٩٢٦)، الواد كما قال الحافظ في الفتح: وادى مكة، جليل: نبات ضعيف يحشى به خصاص البيوت وغيرها، وشامة وطفيل جبلان بقرب مكة، وقيل: عينان، ورى الحديث أيضاً ابن هشام عن ابن اسحاق بسند صحيح (٢/٢٧١-٢٧٣).

2 - البخارى (٣٩١٧-٣٩١٨).

3 - ذكره ابن اسحاق من حديث عائشة بإسناد حسن، ابن هشام (٢/٢٧١)، ورواه أحمد (٢١/١٣)، من حديث عائشة، وانظر د. مهدي رزف الله، السيرة النبوية (٣٢١).

4 - البخارى (٤٢٥٦-٤٢٥٧).

مرة^(١)، - فطلب سعد بن عبادة رضي الله عنه - سيد الخزرج - العفو له من النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: « يا رسول الله اعف عنه، واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البَحَيْرَة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله، شَرِقَ بذلك، فلذلك فَعَلَ به ما رأيت ... ». ^(٢)

كاتب المشركون في مكة عبد الله بن أبي بن سلول ليكيد للمسلمين ككيدهم في مكة، وقالوا فيما كتبوا: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم. ^(٣) لم يتوان ابن سلول عند مجيئه مكتوب قريش أن جمع مشركي المدينة لمحاربة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما بلغ أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تكيدون به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ». فلما سمعوا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم تفرقوا. ^(٤) تحسباً لهذا الخطر المحدق بالنبي صلى الله عليه وسلم قام المسلمون ليلاً بالتناوب على حراسته صلى الله عليه وسلم لا يمسسه سوء إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعَصْمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: « يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل ». ^(٥)

1 - رواه الطبراني في الأوسط (٢٣٤)، وابن حبان في صحيحه (٤٢٩)، كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبي بن سلول، وهو في ظل، فقال: قد غبر علينا ابن أبي كبشة، فقال ابنه عبد الله بن عبد الله: والذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب لئن شئت لأتيتك برأسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا، ولكن برأبك وأحسن صحبته ». قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن محمد بن عمرو إلا شبيب بن سعيد، تفرد به: زيد بن بشر. وقال ابن حبان: قال أبو حاتم رضي الله عنه: أبو كبشة هذا والد أم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان قد خرج إلى الشام، فاستحسن دين النصارى، فرجع إلى قريش وأظهره، فعاتبته قريش حيث جاء بدين غير دينهم. فكانت قريش تعير النبي صلى الله عليه وسلم به، وتنسبه إليه، يعنون بذلك أنه جاء بدين غير دينهم، كما جاء أبو كبشة بدين غير دينهم.

2 - البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨)، وأحمد، المسند (الفتح الرباني) (٢١/١٩-٢٠)، بإسناد صحيح.

3 - أبو داود، السنن (٣٠٠٤)، وإسناده صحيح.

4 - أبو داود، السنن (٣٠٠٤)، وأسناده صحيح.

5 - الحديث رواه الترمذي (٣٢٥٠)، وحسنه الألباني، إسناده في صحيح الترمذي.

وكجزء مما تحيكه قريش للمسلمين من أهل المدينة من مواجهات تدفعهم بها لنبذ الإسلام ورسوله ﷺ، والضغط عليهم ليرجعوا عن نصرة المهاجرين، أو لعدم الدخول في الإسلام، كان إيذاؤهم لأهل المدينة عندما يأتون المسجد الحرام للاعتمار، وقد حدثت حادثة من هذا القبيل لسعد بن معاذ ؓ عندما جاء معتمراً إلى مكة، وطلب من مضيفه أمية بن خلف أن ينظر له ساعة خلوة يطوف فيها آمناً بالبيت، فأخذه أمية في منتصف النهار حين غفلة الناس، ومع ذلك لقيه أبو جهل، فأخبره به، فقال له: « تطوف بالكعبة آمناً وقد أوتيت محمد وأصحابه؟ وتشاجرا؛ ومما قال له سعد: « والله لئن منعنى أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام ... وهدد أمية هو الآخر بأن الرسول ﷺ سيقتله، وقد كان أن قتله الله ببدر». (١)

بداية النشاط العسكرى والسياسى:

لم يشرع الجهاد فى العهد المكى، بل جاءت الأوامر الإلهية للمسلمين بكف الأيدي، وإقامة الصلاة، والصبر على أذى المشركين، وأن يقبلوا على أنفسهم بالمجاهدة على عبادة الله تعالى، والإتصاف بأوصاف التقوى، التى هى جديرة بأن يثبتوا بعد ذلك إذا لاقوا ودخلوا فى مواجهة الكفاح الدامى، وكذلك يقبلون على توسيع دائرة الدين بانتشار الإسلام بالدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، كل ذلك حتى تترسخ جذور الدعوة وتقوى على مواجهة عوادي البغى والظلم، إذ لو حملت الدعوة سيفها حيثئذ لهان على الكفار وأدها فى مهدها والقضاء عليها وإنهاء وجودها. ولم يكن للمسلمين دار ينحازون إليها ليكون معسكراً فى مواجهة قوى الشرك، بل إن حياتهم اليومية لم تكن منفصلة أو متميزة عن المشركين، ولو فرض الجهاد يوماً لجرى قتال فى كل دار أسلم منها أحد^(٢).

1 - البخارى (٣٦٣٢).

2 - د. أكرم العمرى، السيرة النبوية (٣٣٧).

فلما هاجر المسلمون إلى المدينة، وقام الأنصار بإيواء المهاجرين، ونصرة النبي ﷺ ونصرة الدين، وصارت للمسلمين بقيادة النبي ﷺ أرض هي دار الإسلام جاءهم الإذن بالقتال، وكان الأمر بالجهاد متدرجاً على حسب كل مرحلة من المراحل التي بلغتها الدعوة، وكان أول ما نزل كما يروى ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ [الحج: ٣٩]. وهو من رواية ابن جرير الطبري بسنده إلى ابن عباس حيث يقول:

« لما أخرج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم. إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]. قال أبو بكر رضي الله عنه: «فعرفت أنه سيكون قتال»^(١).

وزاد أحمد^(٢) في روايته لهذا الخبر، أن ابن عباس قال: «وهي أول آية في القتال»، ولم يكن القتال فرضاً عليهم، بل أُذِنَ لهم بالقتال دفاعاً عن النفس، ثم جاء الأمر بقتال من يقاتلونهم في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وهو بذلك يختلف عن القتال والحرب التي شهدتها التاريخ الإنساني، والتي استهدفت تحقيق أهداف سياسية أو مآرب اقتصادية لأفراد أو جماعات طموحين يريدون العلو في الأرض، فأعلام الحق والعدل والرحمة هي التي يرفعها ذلك الجهاد، وميزته عن أنواع الحروب الأخرى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦]، ويقول الرسول ﷺ: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا

1 - ابن جرير، التفسير (١٧/١٢٣)، وابن كثير، التفسير (٥/٤٣٠-٤٣١).

2 - أحمد، المسند (٣/٢٦٢)، وصححه الشيخ - أحمد شاكر، ورواه الترمذي (٢٥٣٥)، حسنه، انظر د. مهدي رزق الله،

السيرة النبوية (٣٢٥)، وانظر محمد أبو شهبه، السيرة النبوية (٧٤/٢).

ولا تَغْلُوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا^(١).

وجاءت المرحلة الأخيرة في تشريع الجهاد بمقاتلة المشركين كافة وابتدأهم به، من تشريع الجهاد إذن بهذه المراحل الأربعة وهى:

١ - ترك القتال، مع الصبر وتحمل الأذى، وكان ذلك بمكة.

٢ - مرحلة الأذن بالقتال بعد الهجرة.^(٢)

٣ - مرحلة الأمر بالقتال من يبدؤهم بالقتال.

٤ - الأمر بقتال جميع المشركين.^(٣)

وكانت المرحلة الأخيرة هى مرحلة الجهاد الباقى إلى يوم القيامة، بعد أن أخبر الله تعالى، بأن المشركين، وغيرهم من أهل الكتاب، وكل ملل الأرض سوف تحارب الإسلام، ولو لم يجارها في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِيَارِكُمْ إِنِ اسْتَبَدُّوا﴾ [البقرة: ٢١٧]. وقد استمر الحال على هذا الوضع إلى يومنا هذا مصداقاً لهذه الآية الكريمة، وكان الواقع أيام الرسول ﷺ يسأل ماذا جنى المسلمون في المدينة على الروم مثلاً حتى يجمعوا لهم الجموع في مؤتة، وينذروهم بمهاجمة المدينة والتي تسببت في غزوة تبوك، وبماذا يفسر الغزو الصليبي مثلاً في القرون الوسيطة من أوروبا الشمالية للمسلمين في عقر دارهم في الشام، ولم يبدأ المسلمون هؤلاء الأوغاد بحرب ولا بغيره حتى سالت دماء المسلمين أنهاراً على

١ - مسلم (١٧٣١).

٢ - انظر، محمد بن محمد أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/٧٥-٧٦).

٣ - انظر ابن القيم، زاد المعاد (٣/٧٠)، ط ٦ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م، د. محمد أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/٧٤ وما بعدها)، د. أكرم العمرى، السيرة النبوية الصحيحة (٣٣٧-٣٣٨)، د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية الصحيحة (٣٢٥-٣٢٦).

وصف مؤرخيهم، واستمر هذا التكالب والحقد والعدوان والقتل والتنكيل بالمسلمين إلى يومنا هذا، ولم يراعوا فيهم حقوق الحيوان فضلاً عن حقوق الإنسان.

ثم إن دعوة الإسلام لا إكراه فيها على الدين، بل هي تبليغ رسالة الله تعالى إلى الناس للإيمان بالدين الحق فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فإذا قام أى قائم من حاكم أو غيره سداً بين الناس وحریتهم فى الاعتقاد، وبدأ فى التنكيل بهم وتعذيبهم ليردوهم عن معتقداتهم، فضلاً عن الإستعداد للإغارة على دولة الإسلام، كان على دولة الإسلام وحكامها فى نظر المستشرقين، أن ينتظروا ليهاجمهم أعداؤهم من كل فج ليزيلوا دولتهم، أو ليهدموا أركانها دولة الخير والعدل والهدى والرحمة، أو كان على دولة الإسلام وأهلها أن تقف لتتفرج على مآسى المعذبين وأنينهم وصراخ الزوجات والأولاد بسبب إسلامهم، وإلا فالفرية جاهزة، لقد كان انتشار الإسلام بالسيف، وإن المسلمين متعطشون لسفك الدماء.

كان القتال إذن فريضة لحماية الحق، وتأمين الدعوة والدعاة، وانتشار العقيدة دون عقبات تخالف حق الإنسان فى أن يعتقد ما يشاء، إن الدنيا اليوم تقوم بلا قعود لفرد أو لجماعة أو ذوا فى أن يختاروا ما شاؤوا ومن إعتقادات ليصل الأمر إلى تدمير تلك الدولة التى تقدم على ذلك - بالطبع إلا أن يكون هذا الفرد أو تلك الجماعة مسلمين - فماذا يعيب الإسلام فى ذلك وقد قرر تلك الحقوق منذ خمسة عشر قرناً من الزمان ودفع فيها أى فى سبيل هذه الحقوق تلك الأرواح والأموال، وذلك بمنطق اليوم وأسلوبه.

وإن ثمة عنصر آخر أراد الله لحرب المسلمين المقدسة حقيقة، وهو أن تكون كلمة الله هى العليا، وعندما تكون كلمته هى العليا فإن الخير يشمل الدنيا، وأن الحق والعدل هو ميزانها، وأن الرحمة هى أسلوبها، الكل من مسلم وغيره آمن فى كنفها على نفسه وأهله

وولده وحاضره مستقبله، ويوم أن كانت كلمة المسلمين هي العليا وجدنا اليهود والنصارى آمنين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وما دفعوا الجزية إلا لإسقاط فريضة الجهاد والدفاع عن الدولة أو الزكاة عنهم، والعكس، يوم استلم أمثال هؤلاء الحكم فعلوا بالمسلمين ما لا يخطر على بال الشيطان من أذى.

وإن رفع الظلم الذى حل بالمسلمين فى تلك الأيام الكالحة فى مكة، كان من أسباب شرع القتال، وهى علة للقتال مقبولة فى كل زمان ومكان فإذا لم يرتفع الظلم إلا بصليل السيوف وصهيل الخيل فلا بد منه، والمسلمون نهبت أموالهم وصودرت ممتلكاتهم، سلبت دورهم بعد كل ما لا تقوا، ومن ثم جاء الإذن معللاً ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾، وإنهم ظلموا، وليس ذلك فقط بل هم الآن يُقتلون كذلك، كان القتال الأول من بعوث وسرايا لمحاولة استرداد شيء من أموالهم التى استولت عليها قريش وكفكفة قريش عن مزيد من الأذى، وإظهار عهد الضعف بالتولى والإدبار مع رفع أى ظلم ممكن عن الباقين بمكة تحت سوط القهر والإذلال^(١) إلى أن فرض الجهاد للناس كافة^(٢).

بدء النبى ﷺ الغزوات والسرايا:

عندما أذن الله لنبيه ﷺ بالقتال، ومن معه من المؤمنين سارع النبى ﷺ لإعداد العدة من رجال وعتاد وخطط مستغلين ذلك أحسن الاستغلال لتحقيق أهدافهم التى كانت نصب عين النبى ﷺ.

1 - انظر لذلك محمد الغزالي، فقه السيرة (٢٠٨-٢٠٩)، والبوطى، فقه السيرة (١٣٣-١٣٤)، د. محمد أبو شهبة، السيرة (٧٦ وما بعدها)، د. أكرم العمرى، السيرة النبوية (٣٣٧-٣٣٨)، د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (٣٢٥-٣٢٧)، وغير ذلك.

2 - الجهاد له مبحث مستقل إذا شاء الله.

* - أطلق المؤرخون اسم (السرية)، على المجموعة من الجيش أو الجيش يقوده أحد أفراد المسلمين غير رسول الله ﷺ، وأطلقوا اسم (الغزوة)، على ما يقوده الرسول ﷺ بنفسه مجموعة أو جيشاً.

كان العقل والواقع ومن قبل ذلك الشرع الموحى به أن تكون قريش هي المحط الأول الذى تتعلق به سيوف المقاتلين لأنها الخط الأول والحائط الصلب الذى يقف للإسلام وأهله فالعرب مشاركون لهم فى وثنتهم وبالتالي فى عدائهم للإسلام ولرسوله والمؤمنين فهم الصادون عن سبيل الله فى الجزيرة المشتركة يومها برمتها، وهم المضطهدون للمؤمنين فى مكة، المحاربون لهم فى المدينة، المؤلّبون عليهم العرب والحبش، الذين لا يراعون فى المسلمين إلاّ ولا ذمة، إن فى قتالهم إذن رداً للمظالم أو بشيء منها ورفعاً للظلم، وتمهيداً لدعوة غيرهم إلى دين الحق، ورفع راية الإسلام وكس شوكة الكفر والظلم.

اتجهت هذه الغزوات والسرايا من ثم إلى مواقع غربى المدينة واستهدفت أموراً ثلاثة:

الأول: تهديد تجارة قريش إلى الشام، وهى ضربة خطيرة لاقتصاد مكة التجارى الذى به حياتها وكذلك فى خطوة تالية تهديد تجارتها إلى اليمن وذلك بمهاجمة هذه القوافل شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً لحصار مكة اقتصادياً ورداً لبعض حقوقهم المسلوّبة.

الثانى: عقد المحالفات والموادعات مع القبائل التى تسكن تلك المناطق التى أصبحت مسرحاً لعمليات المسلمين ضد قريش لضمان تعاونها أو حيادها على الأقل فى ذلك الصراع الدامى وهى خطوة نجاحها نجاح فى المسلمين فى الحصار السياسى لقريش، لأن هذه القبائل تميل مع قريش وثنية ومصالح لأن قريشاً سدنة البيت الذى يحجونه ولهم معبوداتهم وأصنامهم حوله، ثم إن لهم مع قريش مصالح ومحالفات تاريخية سهاها القرآن الكريم الإيلاف فى قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِذْ لَفِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾﴾ [قريش: ١-٢]، مع إشتراك الجميع فى معاداة الإسلام، إن موادعة هذه القبائل وتحييدها نجاح كبير فى الوقوف لقريش فى تلك المرحلة من الصراع.

الثالث: إبراز قوة المسلمين أمام اليهود وبقايا المشركين فى المدينة المنورة، فالمسلمون

صاروا لا يقتصرون على السيادة في المدينة، بل تحركوا لفرض سيطرتهم على ما حولها من القبائل، مؤثرين في علاقاتها ومصالحها.

لا شك أن هذه السرايا والبعوث قد نجحت في تحقيق أهدافها مما أربك قريشاً وحلفاءها بسبب ضرب نشاطهم التجاري في كل الاتجاهات، وحصل المسلمون على مورد للتموين والتسليح، ونجحت هذه السرايا في إنذار الأعداء بأن للمسلمين المقدرة على التصدي والردع، واكتسبت قوات المسلمين الخبرة في مجال التدريب العسكري، والمناورة وجس نبض الأعداء ومعرفة بدروب الصحراء وأحوال الأعداء^(١).

ونلاحظ على هذه السرايا والغزوات في تلك المرحلة أنها لم تكن ذات طابع ديني، يحمل الناس على أوامر الشرع، أو يدعوهم إلى الإسلام، نعم ولكن هذا هو الظاهر من عرض الأحداث، وإن كنا نسابق فنقول إن عدم العلم بالوقوع لا ينفي الوقوع، لأن الأصل في أحوال النبي ﷺ وأصحابه أنهم ما خالطوا أحداً حتى في أحلك أوقاتهم إلا كانت الدعوة إلى الإسلام هي أول ما يبادرون إليه قولاً سلوكاً، وكأن كتاب السيرة لعلمهم بهذا الحال وأنه ديدن المؤمنين وشغلهم الشاغل، ووظيفتهم التي شرفهم الله بها هي الدعوة إلى الإسلام فكأنه من تحصيل الحاصل أن يذكروا به في كل موطن.

ثم إن ما استغرقت من هذه الغزوات والسرايا من وقت إلى غزوة بدر الكبرى يعتبر قليلاً في جنب الوقت الباقي، فلاشك أن ذلك كان مصروفاً فيه إلى الدعوة من جملة أشغالهم ولاشك أن المدينة نفسها وما حولها قد أخذت الجزء الأكبر والاهتمام البالغ بالدعوة إلى الله تعالى، لتثبيت قاعدة انطلاق الإسلام على أقوى أساس وأمتنه، وإن مما يقوى هذه القاعدة أن تكون كل طرق المواجهة من حولها مستقرة وتحت السيطرة تحالفاً أو موادعة وتحبيداً.

1 - انظر د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (٣٢٧)، وكذا د. أكرم العمرى، السيرة النبوية (٣٤٥-٣٤٦).

وإن قلة عدد أفراد تلك السرايا والغزوات لينيء بتوفير العدد الأكبر للقيام بتلك المهام وتوسيع قاعدة الدين بزيادة رقعة الإسلام وتعميق أثره في النفوس، وزيادة المنضمين إليه، وذلك بنشر الهدى من العلم النافع والعمل الصالح والدعوة إلى الله تعالى، كل ذلك طاعة لله تعالى، وانتظار مذخور ثوابه، وتأهباً لكل طارئ، وتربصاً بكل هاجم، وتجهيز القوة لتأديب المجرمين يوم يتناولون.

وقد ذكرنا ما سبق لئرد على المستشرقين القائلين بأن النبي ﷺ حينما صار رئيساً سياسياً في المدينة تغير عما كان عليه في مكة بحيث صار الطابع السياسي يزداد بروزاً، والطابع الديني يزداد تراجعاً.⁽¹⁾

وتكملة لما سبقنا من ردود، فلا بد من القول إن أحكام الدين في تفضيلاتها، والطابع الديني للدعوة ما اكتمل وطهر سواء بنزول أحكام الشريعة، والدعوة إليها والتمسك بها، وتعلمها وتعليمها إلا في المدينة، إن الواجبات والسنن الشرعية والعلاقات الإيمانية والإنسانية والسلوكية التي ميزت المسلمين، كل ذلك كان في المدينة، فالواقع يخالف كلام فلهاوزن⁽²⁾، وغيره من المستشرقين ببروز كل ما يتعلق بدين الإسلام في المدينة، إذ كان المسلمون في مكة لم تنزل عليهم تلك الأحكام، فضلاً عن اضطهادهم، وتخفيفهم بدينهم.

وما كان النبي ﷺ ليتبعه في بدر أولئك المقاتلون في سبيل الله، مع بقاء غيرهم وأكثر منهم في المدينة لو كانوا يعلمون أن الرسول ﷺ سيواجه حرباً ما تخلف منهم رجل واحد.

1 - انظر فلهاوزن، تاريخ الشعوب العربية (5-6)، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريذة مراجعة الدكتور حسين مؤنس، ط ٢، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨ م.

2 - ولد في مدينة هاملن في سكسونيا السفلى بألمانيا، درس اللاهوت وعمل مدرساً في ميدان تاريخ العهد القديم منذ ١٨٧٠ م، عمل أستاذاً للاهوت في جامعة هامبورغ وجامعة غرايفسفالد، عمل أستاذاً للغات الشرقية في جامعة هاله، عني بالدراسات العربية، وله كتاب «بقايا الوثنية العربية»، اعتمد فيه على كتاب «الأصنام»، للكلمبي، ترجم كتاب «الغازي»، للواقدي بعنوان «محمد في المدينة».

فما كانت التوجهات السياسية إلا تابعة لأوامر الشرع، ومنفذة لتعاليمه تحكمها عقيدة الإسلام المتمثلة في القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ مهتدية في كل ذلك بأسوتهم في اتباع تعاليم السماء، والوحي الكريم سيدنا رسول الله ﷺ.

ثم خرج في أحد والخندق وسائر الغزوات أضعاف مضاعفة من جند الله، علاوة على من دخلوا الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية، يراهم المستشرقون قد دخلوا الإسلام للسياسة، وصاروا دعاة له وجنداً يرفعون رايته، حقاً إن مفتريات المستشرقين لا تقف للواقع بل وتنهار عند أول مهاجمة لها بساطع البرهان أو الدليل.

ونختصر تلك الغزوات..

أولى هذه الغزوات غزوة الأبواء، وتسمى بغزوة ودان، وهما موقعان متجاوران بينها ستة أو ثمانية أميال، وتبعد الأبواء عن المدينة حوالى أربعة وعشرين ميلاً، ولم يقع قتال بل تمت موادة بنى ضمرة من كنانة، وكانت الغزوة في ١٢ صفر سنة اثنين. وقد عاد الجيش إلى المدينة^(١) بعد أن مكث خارجها إلى بداية شهر ربيع الأول^(٢)

ويذكر عروة بن الزبير^(٣) أن النبي ﷺ أرسل سرية من الأبواء تضم ستين رجلاً بقيادة عبيدة بن الحارث^(٤)، في حين يذكر ابن اسحاق أن السرية أرسلت إلى سيف البحر بعد العودة إلى المدينة، ثم خرجت سرية حمزة بن عبد المطلب من ثلاثين رجلاً متجهة إلى سيف البحر أيضاً في نفس الوقت للتعرض لقافلة من قريش، ولكن لم يحدث قتال حيث تدخلت

1 - فتح الباري (٧/٧٩)، وتاريخ خليفة بن خياط (٥٦) من واية ابن اسحاق- ابن هشام (٢/١٧١)، بدون إسناد.

2 - ابن خياط، التاريخ (٥٦)، من رواية المدائني.

3 - عروه بن الزبير بن العوام، عالم المدينة، أبو عبد الله القرشي، أحد الفقهاء السبعة، أمه اسماء بنت أبي بكر وخالته أم المؤمنين عائشة، لازمها وتفقه بها الذهبي، السير (٤/٤٢١).

4 - ابن سعد، الطبقات (٧/٢)، ابن اسحاق- ابن هشام (٢/١٧١-١٧٢).

القبائل الموادعة للطرفين دون ذلك، وإن وقع تراشق بالسهام بين سرية عبيدة والقريشيين، ورمى سعد ابن أبي وقاص بسهم فكان أول سهم رمى به في الإسلام.^(١)

واستمرت حملات المسلمين على الطريق التجارى لقريش فكانت غزوة بواط^(٢) إلى رضوى^(٣) قرب ينبع في جمادى الأولى لإعتراض قافلة لقريش، ثم غزوة العُشيرة^(٤) (بينبع) في جمادى الأولى، ولم يقع قتال في رضوى والعشيرة، ولكن جرت موادعة بنى مدلج في العشيرة كانت هذه السرايا والغزوات تهديداً خطيراً لقريش، استهدف ضرب تجارتها ومحاربتها اقتصادياً لحملها على التفكير الجدى في ترك تمادياها في سياسة الإيذاء والاضطهاد للمسلمين، وزحزحتها عن كونها حجر العثرة في سبيل الإيمان، وإن المحاصرات الاقتصادية، وضرب آلتها اليوم من أشد وأنكى ما يقوم به المجرمون في حروبهم ضد بعضهم البعض، أو لحرب بلاد الإسلام، ثم ينكر مستشرقوهم هذه الحملات في حرب المسلمين لقريش، وأنها نوع من قطع الطريق، لقد قطعت اليوم كل الطرق البرية والبحرية والجوية، ومحاصرة الموانئ كافة كنوع من أنواع الحرب والسيطرة، بل ذلك دأبهم من قديم، وإن وصف قطاع الطرق ولصوص الأوطان لأقل وصف يوصفون به هم وليس المسلمون.

غزوة (بدر الأولى/ الصغرى) سَفَوَان:

أغار كرز بن جابر الفهري في جمادى الآخرة عقب غزوة العشيرة على أطراف المدينة ونهب بعض الأبل والمواشى، وهرب بأقصى ما يستطيع، وخرج النبي ﷺ لمطاردته حتى

1 - ابن هشام، السيرة (١٧٤/٢).

2 - وهى جبال من جبال جهينة ، من ناحية رضوى وهى قريب من ذى خشب، وبين بواط والمدينة نحو أربعة بُرْد.

3 - ابن سعد، الطبقات (٢/٩٠٨)، وابن اسحاق - ابن هشام، السيرة النبوية (٢/١٧٦).

4 - البخارى، الصحيح (٣٩٤٩)، ابن اسحاق - بن هشام، السيرة (٢/١٧٧).

سَفَوَان من ناحية بدر ولكنه كان قد أفلت من المطاردة، ولكن الحادث أكد للمسلمين على ضرورة بسط سيطرة المسلمين مع جيران المدينة إسلاماً أو موادة أو غزواً

سرية نخلة:

كما أسلفنا القول كانت طرق مكة التجارية إلى الشام كلها تحت الرصد والمهاجمة، ولم يبدأ المسلمون بحصار طريقهم إلى اليمن إلا في هذه السرية، حيث بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة، ومعه ثمانية رهط وكتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين إمعاناً في السرية وحتى لا يعلم أحد وجهته.

ففض الكتاب كما أمر فوجد فيه الأمر بالتوجه حتى ينزل نخلة بين مكة والطائف ليرصد بها قريشاً ويعلم من أخبارهم، وألا يستكره أحداً من أصحابه فمضوا جميعاً، وعندما نزلوا نخلة جنوب مكة كان ذلك في آخر شهر رجب المحرم، ولكنهم تعرضوا لقافلة لقريش فظفروا بها، وقتلوا قائدها وأسروا اثنين من رجالها وعادوا إلى المدينة.^(١)

كان عبد الله بن جحش يدرك خطورة الأمر في أن يقاتل في نهاية رجب المحرم القتال فيه عند العرب، أو يتركهم، ليدخلوا حينئذ الحرم فيمتنع القتال أيضاً، ولكنه تشاور وأصحابه، فعزموا على قتالهم في آخر رجب.

رجع عبد الله بن جحش إلى المدينة بالغنائم والأسيرين، فأبى رسول الله ﷺ أن يتسلمها، لأنه لم يأمر بقتال في الشهر الحرام وأوقف التصرف في العير والأسيرين، بلغت إشاعات قريش الجزيرة كلها بأن محمداً يستحل هو وأصحابه القتال في الشهر الحرام، ويسفكون فيه الدماء، وأنهم أخذوا الأموال والأسرى، وكثر في ذلك القيل والقال

1 - انظر الغزالي، فقه السيرة (٢١٥-)، د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (٣٣٣)، د. أكرم العمرى، السيرة النبوية (٣٤٧)، د. محمد أبو شهبه، السيرة (١١٩/٢-١٢٢)، ابن هشام، السيرة النبوية (١٧٩-١٨٢).

وأرجف اليهود والمنافقون في المدينة قصد إشعال الفتنة، وفي هذه الغمرة من الأسى،
والثريب والعتاب والإرجاف من الأعداء، نزل الوحي حاسماً هذه الأقاويل ومؤيداً
مسلك عبد الله تجاه المشركين، وموضحاً سلامة موقفهم.

والآيات هي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ
اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فكان في هذا العذر لأصحاب السرية ما سرى عنهم، وعن المسلمين ما كانوا فيه من
كرب وغم، وقبض الرسول ﷺ الغنائم، وفادى الأسيرين من قريش بشرط رجوع سعد بن
أبي وقاص، وعتبة بن غزوان إذ خرجا عن السرية لبعير لهما نذ، فخشى الرسول ﷺ قريشاً
عليهما.

إن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة والغبار في سيرة المقاتلين الناصعة
الشريفة لهي ضرب من قلب الباطل حقاً، والتغطية على مواقف الخزي من الطغاة ببعض
تصرفات المظلومين الحققة.

إن الحُرّمات المقدسة كافة قد أُنتهكت في محاربة الإسلام واضطهاد أهله، فما الذي
أعاد لهذه الحُرّمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة؟!!

ألم يكن المسلمون مع نبيهم مقيمين في البلد الحرام، والأشهر الحرام حين كانوا
يعذبون وتنتهك أعراضهم وتسلب أموالهم، وحين قتل منهم تحت التعذيب من قتل،
وحين تقرر قتل نبيهم ﷺ، هل لمثل هؤلاء أن يتأسفوا على انتهاك القيم والأعراف ومنذ متى
كانوا حراسها والقائمين على مراعاتها وحمايتها، إنهم الملائم المبطل في كل زمان ومكان.

أوضحت الآيات القرآنية الكريمة، من ضمن ما أوضحت سيرة هذه السرية - لأنها
بينت وأشارت إلى أمور كثيرة أخرى أعم من جزئية الكلام على تلك الحادثة - وأول ما

جَلَّتْهُ الآيَات ناصعاً صالحاً خالداً لكل زمان، ناصحاً لكل مؤمن، كاشفاً عن دواخل الكفرة تلك المعانى التى نشير إليها فيما يلي:

الأول: أن القتال فى الشهر الحرام كبير نعم- أى إثم كبير- كما يقال إنه كبيرة من الكبائر، ولكن الصد عن سبيل الله، الصد عن الإسلام والإيمان به والتزام أحكامه أكبر، أى أكبر الكبائر لما يترتب عليه من نشر الكفر وما يستتبعه من فسق وانحلال من أوامر الشرع، ومن صد عن سبيل الهدى والتمسك بأحكام الإسلام، وشيوع محاربة الله ورسوله ﷺ ودينه والمؤمنين به.

وإن إخراج المسلمين من مكة وصدّهم عن المسجد أكبر كذلك من القتال فى الأشهر الحرم فما الذى جعل أكبر الكبائر ينقلب فى طرفة عين إلى أدناها وأصغرها فى نظر الطغاة إلا مصالحهم الخاصة، ومحاربة الإسلام، والتشهير به، فى الوقت الذى هم أولى بالتشهير بل بالقتال فيه، متى احترموا عهداً أو راعوا ذمة حتى يتباكوا على بعض قيم موروثه قد انتهكت، ومع أن الإسلام لا يقر انتهاكها، ذلك منطق الطغمة الفاسدة دوماً.

ودليل ذلك كله أنهم مستمرّون وأمثالهم فى خطتهم الأصلية فى محاربة المسلمين وصدّهم عن دينهم بكل وسيلة إلى أن يعودوا إلى الكفر، أو سحق المسلمين حتى لا تقوم لديّهم قائمة، وما أشبه اليوم بالبارحة، ولذلك تابعت الآيات التوجيه والنصح وتفطين المسلمين إلى واقعهم فقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] ^(١).

الثانى: وفى نفس السياق الذى وضح به المولى سبحانه للمؤمنين موقف الكفار الدائم منهم أرسل إليهم التحذير الشديد من الهزيمة أمام القوى الباغية، والتفريط فى الإيمان

1 - انظر محمد الغزالي، فقه السيرة (٢١٦).

الذى شرفهم به، وناط سعادتهم فى الدنيا والآخرة بالبقاء عليه. فقال: ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].^(١)

الثالث: زكت الآية الخاتمة ما فعله « عبد الله بن جحش » وأصحابه فى تلك السرية، رافعة عنهم ما وقع عليهم من تقريع وتوبيخ وتخويف، وهى عدة بالجميل فى ذات الوقت إلى ما ينتظرهم من الرحمة والمغفرة فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وجاء ذلك على عادة القرآن الكريم بأسلوب الرجاء للمؤمنين، لترك الاتكال والاعتماد على ما قدموا من أعمال مجيدة فيما مضى وحث لهم على إدامة الجهاد والكفاح فيما يستقبلون من حياتهم.^(٢)

إن عبد الله وصحبه نفذوا أوامر الرسول ﷺ بأمانة وشجاعة، وتوغلوا فى أرض العدو مسافات شاسعة متعرضين للقتل متطوعين بغير إكراه ولا حرج، فكان جزاؤهم ذلك لا التعنيف والإساءة.

كلام "وات":

بعد ما سلف من عرض هذه السرية بالذات فى السنة (السيرة المشرفة)، وما نزل من القرآن يؤكد وقوعها، ويظهر الحق الذى يجب أن يعيه المؤمنون منها، والسلوك الذى يجب أن يسيروا عليه فى مثلها جاء وات ليرى فيها فرصة سانحة بيدى ويعيد فيها بمنهجه المعوج لشرح الأحداث بما يسيء إلى النبى ﷺ ودينه من ناحية، وإلى أحد أفراد السرية بالذات من ناحية أخرى وهو سعد بن أبى وقاص ﷺ أحد العشرة المبشرين بالجنة، خارجاً بالتاريخ

1 - انظر محمد الغزالي، فقه السيرة (٢١٦).

2 - محمد أبو شهبة، السيرة النبوية (١٢٢/٢).

عن مساره بما لا علاقة له به مما يدهش المرء ويثير استهجانه وتقززه.

لسنا في حاجة إلى التذكير بمنهج وات من اختراع التاريخ، أو الإسقاط على الحوادث بما لا علاقة لها به من التاريخ الحديث، مع لى عنق الواقع ليوافق رأيه المسبق، ومن ثم نذكر كلامه بحروفه فقط لنناقشه فيه، فمن ذلك:

الأول: يقول وات: كان الشيء الأساسى فى أوامر محمد فى سرية عبد الله بن جحش أن يذهب إلى نخلة وينصب كميناً لقافلة قرشية، وحسب روايات أخرى، وهذه إضافة لاحقة، ترصد- أى ترقب- لترفع المسؤولية عن محمد فى أى مواجهة دموية.^(١)

ولا يدري الباحث من أى وجوه الكلام- الذى لا وجه له- يبدأ أو يناقش، إذ من أى جهة أتيت الكلام وجدته سيئاً لا يمكن أن يكون بحثاً لقد اخترع اتهاماً ليس إلا مغايراً ومجافياً به الواقع والحق وما يقع فى عقول الناس وقد عودنا وات أنه عندما يبدأ فى الاختراع يذكر جملاً قد أشرنا إلى بعضها من قبل، ونذكر بها الآن كأنه يقول ها قد بدأ فاصل التأليف التاريخى والتزوير الوثائقى، لنعلم من حيث لا يدري أنه قد بدأ عزف النشاز الكاذب من هذه الجملة: «إذا أمكن قبول هذه الرواية، ومما يدعو إلى الشك، ويبدو، ومن الممكن، وإذا افترضنا»، كأن الله سبحانه أبى إلا أن يكشف الكاذب على رسوله ﷺ.

ونبدأ بالقول أن الرواية ليس فيها ذكر لكمين فاخترع أنها لنصب كمين، والرواية الصحيحة الموافقة للعقل والواقع صعب عليه ذكرها إلا بأنها مضافة فيما بعد، فهو يضيف روايات من عنده والرواية الصحيحة يدعى أنها أضيفت ولم يقل من أضافها ويذكر لها تاريخاً لاحقاً يظن أنه يفيد، ومن اختراعه أيضاً، فما علاقة ما يكتب بسيرة النبى ﷺ إذن، إنه الحياء والنزاهة العلمية!، إن الواقع يقول مع العقل إن المراقبة والرصد تكون قبل المهاجمة،

1 - وات 7 p. Mohammad AT Medina

وهذا ما كان يفعله النبي ﷺ أن يرصد ويراقب وييث العيون حتى إذا درس الواقع دراسة جيدة، أرسل على إثر ذلك المناسب لها من القوة المرجو بها تحقيق الهدف، أو لم يرسل وأجلها لإتمام الاستطلاع؛ أو إعداد العدة اللازمة، خاصة وأنه في حرب مع قريش.

والرواية الثابتة، ليست المخترعة من وات، تقول: «فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم» فمحا وات هذه العلة (الجملة)، سبب السرية، وأتى لنا من عنده بقوله تنصب كميناً لقفالة قرشية. واضعاً على الرسول ﷺ ما لم يقله ولن يقوله إلى يوم القيامة، ثم يبنى على هذا الكذب، أو التاريخ المزعوم ما يريد أن يلصقه ظلماً وزوراً بالإسلام ونبيه ﷺ.

ثم أبان وات عما يقصد من تزوير التاريخ، بأنهم أى المسلمين زوروه لرفع المسؤولية عن محمد بسبب أى معركة دموية يمكن أن تقع.

منذ متى كان سيدنا محمد ﷺ يتنصل من مسؤوليته التى شرفه الوحي بها، وأى مسؤولية تقع عليه لو أنه أعلن من بداية السرية كغيرها من سرايا أنها سرية لمعركة دموية، إنه في حرب طويلة بكل الوسائل مع قريش، وإن سرية قتالية لا بد من إعلانها حتى يتأهب مقاتلوها، ولا يكون قد ألقى بهم في مهاوى الهلكة أمام أعدائهم، إذ ذلك ليس من خلقه كقائد فضلاً عن كونه نبياً ﷺ، بل لو نسب ذلك إلى أقل قائد في الدنيا لما كان مقبولاً.

وإذا علم المتابع أن عدد هذه السرية لا يزيد على أصابع اليد الواحدة حيث ذهب اثنان من السرية هما سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ليبحثا عن بعيرهما الذى ضل، فهل هذا العدد القليل بعدته الضعيفة يمكن أن يكون سرية هجومية^(١)!

التالى من كلام وات في هذه السرية هو زمن وقوعها، أول رجب أو نصفه أو آخره، واخترع أنها وقعت في نصف رجب، ثم بعد هذا الافتراض الخاطئ يقول: وأما القول بأن

1 - د. طارق عبد الحميد، شبهات المنصرين حول السيرة النبوية، طبع مركز التنوير الإسلامى بدون تاريخ (٤١١).

المهاجمين لم يكونوا يعرفون أن اشهر الحرام انتهى.... فهذه لغسل العار الذى أصبح مشهوراً.

ثم يرجع القهقرى بعقله فيقول: يبدو أنها - أى السرية - كانت تعلم أن الحادث قد وقع نحو منتصف الشهر - رجب -.

ولا بأس أن نضغط على عقولنا، ونأتى على أنفسنا، ونستعين بالله تعالى لتفنيد هذه المقالات:

أولاً: لم تختلف المصادر الإسلامية - التى ليس لوات غيرها - فى ميعاد الحادث فى أول الشهر أو غيره، بل اتفقت المصادر كافة على أنها وقعت فى رجب الشهر الحرام.

ثانياً: اخترع وات أنها كانت فى النصف منه ليؤكد على أنها كانت فى رجب وأنهم كانوا يعلمون أنهم قاتلوا فى الشهر الحرام الذى يجب احترامه، وهم ينكرون شيئاً من ذلك حتى يغسلوا العار الذى سيلحقهم بسبب ادعائهم أنهم لم يكونوا يعلمون أنهم فى رجب والذى سيصبح بعد قليل فى كلامك ليس عاراً، فما الذى حمل وات على كل هذه الاختراعات يعلمون ولا يعلمون، والعار وأول رجب وآخره ونصفه.

ثالثاً: وحتى يثبت أنهم يعلمون، اخترع أن الحادثة كانت فى النصف من رجب، وكذبت المصادر والواقع بأنهم كانوا فى آخر يوم من رجب، ولو تركوا القافلة ستدخل الحرم ولا يستطيعون قتالها فأثروا أن يقاتلوا فى الشهر الحرام - وهو أخف عندهم - من أن يقاتلوا فى الحرم الشريف؛ فأين تنصل المصادر الإسلامية من أن القتال وقع فى شهر رجب الذى زعمه وات، وأين مصادره هو التى تثبت هذا التنصل، أله مصادر ذكرت سيرة النبى ﷺ يتحاكم لها ويرجع إليها فيما يقبل أو يرد من السيرة؟ تبين له ما يدعى، ترى لو كانت المصادر الإسلامية لم تذكر ذلك فمن أين كان سيورد هذا النص وتلك الحادثة؟ أم أنه

يعرف طريقة، وهى اختراع سرية لم تكن ولن تكون، كما اخترع وفصل هو أحداثها، فتناقض وتهافت وادعى ما ليس بصادق ولا صحيح.

مضطرون إلى استكمال الكلام مع "وات" ..

يقول: إن محمداً لو كان في نيته خرق الشهر الحرام فإنه لا يعنى أنه كان يفكر في أمر معيب أو غير مشرف، فقد كان طابع الشهر الحرام مرتبطاً بالديانة الجاهلية التي كان محمد يجارها، ولهذا كان خرق الشهر الحرام لتحطيم الأصنام. ولكن ماذا نقول عن تردد محمد في قبول خمس الغنيمة؟^(١)

عاد وات مرة أخرى لعادته في التناقض، وإثارة الشبهات بهذا التناقض الذي لا محل له إلا في ذهنه بترتيبه المسبق الذي يؤديه إلى هذه المسالك العقلية الوعرة الضيقة التي لا يستطيع منها فكاً أو خروجاً.

فبعد أن كان هذا الفعل عاراً، أصبح لا عار فيه ولا عيب ولا مغمز، ولا يظن بذلك أنه يمدح ولكنه يمهد لمنهجه بالبناء ثم الهدم لإثارة التشكيك في الرسول ﷺ ودينه كما سيأتى ولكنه قبل أن يذكر ذلك علله بأن الأشهر الحرام من دين الجاهلية كالأصنام يجارها سيدنا محمد ﷺ، فخلط بين الأمرين هذا الخلط الغريب الشائه، والذي لم يحدث من سيدنا محمد ﷺ لا وحيّاً ولا اجتهاداً.

نعم قد جاء الرسول ﷺ بوحي السماء بالدعوة إلى التوحيد، وكسر الأصنام ونبذها وخلعها، ولكنه في نفس الوقت جاءه الوحي بتعظيم الأشهر الحرم، وإبقائها كما ذكرنا الآيات، فكيف يستوى الأمران في ذهن عاقل.

1 - وات 8. Mohammad AT Medina p.8

ثم جاء دور الهدم في نظريات فيسأل سؤال الباحث البريء: «ولكن ماذا نقول في تردد محمد في قبول خمس الغنيمة؟».

المصادر الصحيحة تقول في رد هذه الشبهة البريئة والتشكيك النزيه في الوحي والرسول ﷺ، أن السبب في تردد الرسول ﷺ في قبول خمس الغنيمة هو أنهم انتهكوا حرمة الشهر الحرام، وقد قال لهم ذلك ﷺ صريحاً: « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام^(١)»، وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، وكان يمكن لأحدهم لو كان ذلك كذباً أن يرجع كافراً، ليقول إن محمداً هو الذي أمرنا بالقتال في الشهر الحرام، وإنه الآن يدعى - حاشا له - أنه لم يأمرنا بذلك، ولأضحت الرسالة من أولها إلى آخرها في مهيب الريح المدمرة لها.

انظر إلى وات لم يمهلنا أن رد هو على سؤاله التاريخي ليقطع علينا الطريق، ويصادر علينا حق التفكير والنطق فضلاً عن الاعتراض وتبيين الخطأ. كائناً بأوفى كيل من التهم في جعلته موضحاً أجابته في ثلاث نقاط:^(٢)

الأولى: أنه ﷺ اكتشف ردود فعل قوية حول خرق الشهر الحرام أكثر مما ينتظر.

الثانية: خشية البعض من عقاب تنزله بهم الآلهة - هكذا-.

الثالثة: لاحظ البعض التناقض بين الشريعة الألهية من ناحية ودعوة محمد إلى التضحية في سبيل الله من ناحية أخرى.

ويضيف لما سبق من نقاط فيقول: وشيء آخر ثابت وهو أن محمداً لم يكن يعبأ كثيراً

1 - انظر عبد الله النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية (٢٤٨).

2 - وات 8 p. Mohammad AT Medina

بالقتال في الأشهر الحرم، ولكن كان عليه أن يحترم معتقدات قسم كبير من أتباعه (أصحابه)، وأن يتجنب ما ينشأ عن ذلك من صدى يهدد سلطته كنبى.^(١)

ونزيد هنا أن احترام النبي ﷺ كان معلوماً حتى آخر أيامه في الدنيا للأشهر الحرم حيث قال في حجة الوداع في آخر ما وصى به أصحابه والمؤمنين إلى يوم القيامة: «إن السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»^(٢)، فأين عدم مبالاته وأنه لا يعبأ بالأشهر الحرم في قتال أو غيره، وقد ذكرنا ما قاله ﷺ لعبد الله وسريته، من أنهم لم يأمرهم بقتال في الشهر الحرم.

أما أخذه الغنيمة بعد ذلك، فلم يكن دقيقاً القول بعد ذلك، بل بعد أن نزل الوحي يبرئ ساحة عبد الله بن جحش وسريته من مآثم في قتالهم أو شين في سلوكهم فقد رفض أخذ الغنيمة بما أوحى إليه من أمر الله بتعظيم الأشهر الحرم، وأخذها عندما جاءه أمره كذلك في قرآن يتلى أن ما فعله المشركون بالمسلمين أكبر من القتال في الشهر الحرم، وأن ما فعلوه بقريش التي لم تراع فيهم حرمة شهر ولا حرمة بيت إنما هو جائز من رد العدوان، واسترداد الحقوق المسلوقة، مع بقاء تعظيم حرمت تلك الأشهر.

أما قول وات إن الرسول ﷺ اكتشف ردود فعل قوية أكثر مما ينتظر، لذا تردد في قبول الخمس فهو من هراء القول المجافي لحقيقة الانصياع للوحي والإيمان بالنبوة والرسالة، إذ ما الذي حمل هؤلاء الساخطين الذين استرضاهم ﷺ بعدم قبول الغنيمة، ما الذي حملهم على الهدوء وترك الغضب والإعلان بالسخط عند قبول النبي ﷺ الغنيمة وأخذها لها^(٣)، إن موقفهم من أصحاب السرية وغضبهم مما فعلوا إنما كان رد فعل لغضب النبي ﷺ بدليل

1 - Ibid. p.9 -

2 - ابن سعد، الطبقات (٢/١٨٦).

3 - ابن هشام، السيرة النبوية (٢/١٨١)، ابن حزم، جوامع السيرة (١٠٦).

قولهم لعبد الله وأصحابه: «صنعتكم ما لم تؤمروا به»^(١)، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا^(٢)، كما ذكر ابن اسحاق في السيرة.

ومن ثم كانت الحقيقة الناصعة أنه عندما نزل الوحي هدأت الأمور، وعاد عبد الله بن جحش وأصحابه مكرمين معززين بين المسلمين بتأييد الوحي لمسلكتهم، ولو كان الغاضبون لهم رد فعل على تصرفات النبي ﷺ أو حتى على عبد الله وإخوانه، لكان لذلك أثره ولا تمتد هذا الأثر فترة بعد ذلك ثم ترى هل يعبأ سيدنا رسول الله ﷺ برد فعل أحد أو الدنيا كلها بعد نزول الوحي عليه، لقد قام أمام الكفار وحيداً يسفه أحلامهم ويسب أهتهم ويضلل أفهامهم ولم يبال بهم وبما أنزلوه به وبأصحابه، ثم يأتي بعد ذلك ليعمل حساباً لرد فعل بعض المؤمنين المتقين - لو كان هذا صحيحاً - فيفعل أو يترك لأجلهم!

وعندما أراد وات في النقطة الثانية ليعين لنا السبب الثاني على شبهته البريئة كما نوهنا إليها وهي تردد النبي ﷺ بقبول الخمس من الغنيمة، فإذا به يعاود عين المسألة، بخشية البعض من عقاب تنزله الآلهة عليهم، هكذا قال، لا أعتقد أن وات يظن أنه صادق فيما يقول، هل يعتقد وات أن سيدنا محمد ﷺ وصحبه يؤمنون بتعدد الآلهة الذي ذكر هو سابقاً أنه جاء ليحطمها، أو ليس هناك إلا رب الأرض والسماء، الها واحداً لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، في دينه الذي يدعو إليه وقاتل عليه ﷺ، أن وات يضل ليشيع أن بعض المسلمين مازالوا خاضعين لمنطق الجاهلية، مؤمنين بالكفر، وهذا أعجب العجب في البحث العلمي.

النقطة الثالثة في كلام وات عن أسباب تردد النبي ﷺ في قبول خمس الغنيمة أولاً،

1 - الطبري، التاريخ طبعة (٢/٢).

2 - ابن هشام، السيرة النبوية (٢/١٨٠).

وهي ملاحظة البعض التناقض بين الشريعة الألهية من ناحية ودعوة سيدنا محمد ﷺ للتضحية من ناحية أخرى.^(١)

ويقال أولاً: من هؤلاء البعض؟ أهم بعض أصحاب النبي ﷺ، أو هم بعض من أتى بعدهم من المسلمين، فإن كان كذلك فليذكر وات اسماً واحداً رأى ذلك، أم عاد وات إلى عوائده القديمة في منهجه العلمى من إلقاء التهم بغير تثبيت، وزرع الشبهات والشكوك ثم الصاقها بمن لا يُعلم.

أم هم من المستشرقين ومن تبعهم؟ إذا فليقولوا قولاً يبرئون به ساحتهم من الدجل والتدليس والغش، قولاً فيه شيء من العلم الصحيح والمنطق المستقيم، ليتمكن النظر فيه ومعرفة قيمته رداً أو قبولاً.

ويقال ثانياً: إن (وات) قد استعمل في منهجه - لم أر من نبه إليها من العلماء - طريقة تحمل المرء على تجشم الرد، وعناء البحث وإعمال الفكر ليعبد به الباحث عن إلهية الدعوة وثبوت الوحي وصدق النبوة وصحة الرسالة، فيأخذ المرء في التجديف معه بعيداً عن الأصل الذى يرمى إليه مصوباً إليه حدقة بحثه إن كان، وفي غمرة البحث ينسى المرء الوحي والرسالة والاحتجاج بهما، وهنا تدب دسيسة وات إلى العقول والقلوب بتثبيت تلك المعانى أو مهاجمتها بعيداً عن الدين والوحي وهو مراده، فيكون بحث الباحث مناظرة لمناظرة أو جدالاً لجدال، بعد به العهد عن النصوص والنبوة وتعلق البحث بالسما، مع أنه كان يمكن للباحث الرد على وات بكلمة واحدة تثبت بها المعانى ويظهر بها الإيمان وهى «إنه الوحي».

من ذلك ما نحن بصدده من ردود وأقواها ظهوراً ما نحن فيه الآن إذ يقول «ظهر

للبعض التناقض بين الشريعة الألهية ودعوة محمد)، والرد سهل يسير وهو إن الشريعة ودعوة سيدنا محمد ﷺ هي أمر واحد موحي به من عند الله تعالى لا فرق بينها.

أما هذا التناقض فمن وات نفسه، إذ هدف لايجاده بتفسيره الخاطيء (أو متعمد الخطأ) للنصوص في هذه السرية، إذ السرية للرصد وللإستطلاع من أخبار قريش فجعلها لنصب كمين، وهو ما يسمية دعوة محمد للتضحية في سبيل الله، وعدم قبوله الخمس وهو الشريعة الألهية فجعل ذلك تناقضاً^(١)، ونسبه للبعض الذين أخفى إعلامهم، لأنهم في الحقيقة غير موجودين، لأن القصة التي حضروها وعلموها غير ما اخترعه وات وألفه، وبالتالي لم يوجد عندهم ما ادعاه وات، ليلزم به الشرع والدعوة، وأن ذلك ليس وحياً في النهاية إلى آخر ما اهتم به وات وسعى إلى اثباته بخيله ورجله. ويكفى أنه خالف الواقع المنصوص وكتب وأرخ خلافه لو سميننا ذلك باسمه الصريح لقلنا يكفيه كذباً.

وفي نهاية القول في تردد النبي ﷺ في قبول الخمس ذكر وات أن الرسول ﷺ كان عليه أن يحترم معتقدات قسم كبير من أصحابه، وما ينشأ عن ذلك من صدى يهدد سلطته كنبى^(٢).

وهذا كلام لا يحتاج لرد لأن الرسول ﷺ لم يكن ليعبأ بمعتقدات العالم كله لو كانت مخالفة لوحي الله له، وأمر دعوته في مكة ﷺ أشهر شيء في التاريخ، وكذا في المدينة، وأيضاً موقفه الحاسم مع اليهود والنصارى وغيرهم.

وإن التاريخ لمثل كلام وات على طريقة وات نفسه لا بد أن يدخل فيها، تردده ﷺ في قبول الخمس حتى لا تتهدد سلطته كنبى ﷺ وها قد قبل الخمس هل تهددت سلطته كنبى

1 - انظر عبد الله النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية (٢٤٩).

2 - وات 9 p. Mohammad AT Medina

لقد رأينا العكس بما يكذب كلام وات ويدحضه، ويبطل في نفس الوقت فهمه للتاريخ وتحليله له ثم ما موقف هذا القسم الكبير من أصحابه الذين لم يحترم معتقداتهم، بعد هذه المخالفة الصارخة منه ﷺ لهذه المعتقدات، إنه شيء معيب للغاية أن يصل تحليل وات إلى هذه الدرجة، لأن هذا القسم الكبير من أصحابه ﷺ لاشك لهم اليد الطولى إذن، وهو ما يفرض معتقداتهم، هل حدث شيء من ذلك همساً أو سراً أو علانية؟

إن الإجابة التي لا نعيد عنها أن معتقداتهم هي ما علمهم ﷺ من معتقدات، بل سبيلهم ظاهراً وباطناً هي سبيله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

والأمر الثاني في قصة السرية هي موقف سعد بن أبي وقاص، حيث سارع وات وتهور فلمزه ﷺ وأساء إليه بما اخترع من حكايات مجافية للواقع والحقيقة تجعل الرد عليه ضرباً من تضييع الوقت، مع حزن النفس وتبرمها بمثل هذا التعصب والتناول وغير ذلك من الافتراءات التي تلبس ثوب العلم والحياد.

وإن الرد عليه يدخل فيما سبق أن رددنا، وإن كان قد أساء إلى النبي ﷺ كما سلف النقل عنه، فلأن يسيء إلى أحد أصحابه بمقالات السوء تلك غير مستغرب ولا مستبعد وما اختار من السرية إلا سعداً ﷺ، إلا ليكمل له الإساءة إلى الرسول ﷺ ودينه وأفضل أصحابه المبشرين بالجنة، وبالتالي لا يحتاج الكلام إلى توضيح، وإلى فهم المراد.

تحويل القبلة:

في نهاية تلك الأحداث التي وقعت قبل غزوة بدر الكبرى، جاء حادث تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة في مكة، وهو ما نختم به تلك الفترة قبل الخوض في موقعة بدر كان النبي ﷺ

يتجه في صلاته بمكة قبل الهجرة مستقبلاً بيت المقدس جاعلاً الكعبة بينه وبين بيت المقدس، وهذا ما ورد صحيحاً عن ابن عباس رضي الله عنهما.^(١)

وذهب بعض العلماء إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي بمكة إلى الكعبة، فلما هاجر إلى المدينة استقبل بيت المقدس^(٢).

ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة استمر في الاتجاه بصلاته نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً^(٣). وفي منتصف رجب سنة اثنين للهجرة أمره الله تعالى بالتحول في صلاته إلى الكعبة، قبلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهو قول الجمهور من العلماء.

وقد رحب يهود المدينة باستقبال النبي صلى الله عليه وسلم لقبلتهم، خاصة أنهم قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم كما أوردنا من قبل، وإن كان ذلك منهم محل إنكار كما ذكر الطبري في تفسيره عن مجاهد أنهم كانوا يقولون: «يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا»^(٤)، كأنهم طمعوا في أن يميل النبي صلى الله عليه وسلم إلى دينهم حيث رأوا الإسلام يتابعهم في القبلة دليل صحة شيء من تقاليدهم وطقوسهم.

لخصت الآيات الكريمة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين مع القبلة، حيث كانت حادثاً عظيماً في تاريخ الجماعة المسلمة، وله آثاره الضخمة في حياتها.

-
- 1 - ابن سعد (٢٤٣/١) الطبقات، والحاكم وصححه. وانظر د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٣٤٩).
 - 2 - وقد مال إلى هذا الرأي أبو عمر بن عبد البر القرطبي، وانتقد الحافظ ابن حجر هذا الرأي وضعفه فقال في فتح الباري، وهذا ضعيف ويلزم منه دعوى النسخ مرتين، والأول أصح؛ لأنه يجمع بين القولين، وقد صححه الحاكم وغيره، انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري (٦٣/١).
 - 3 - مسلم (٣٧٤/١)، وجزم به، وهو قول عدد من الصحابة معاذ وأنس وغيرهما ورواه البخاري ستة أو سبعة عشر شهراً وقد وفق بين القولين، وخليفة بن خياط في التاريخ (٦٤)، الطبري، التفسير (٣/٢)، وذهب د. مهدي رزق الله إلى أن قول الجمهور في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً وهو رأي ابن اسحاق - ابن هشام - (١٨٢/٢)، بخلاف ترجيح د. أكرم العمري ولكن صحت الأحاديث على كلام د. أكرم لما صححه البخاري، وابن حجر في فتح الباري.
 - 4 - الطبري، التفسير (٢٠/٢).

فبينت الآية الأولى على خلاف الترتيب القرآني كما سنوضح حكمة ذلك، تقليب وجهه في السماء ﷻ داعياً ربه متضرعاً أو ساكتاً متأدباً يريجه أن يوجهه إلى الكعبة المشرفة، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

ثم جاءه الأمر الإلهي الأول بأن يولي وجهه شطر المسجد الحرام فقال تعالى: ﴿قَوْلِ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ. وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وجاء الأمر مرة أخرى بالتوجه إلى القبلة فقال جل وعلا: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٩].

وتلا ذلك الأمر الثالث باستقبال المسجد الحرام فقال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ. لَعَلَّ الْيَكُونِ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمِمْ عَلَىكُمْ وَأَلْعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

ونذكر الآن الآية الأولى في السياق القرآني الكريم، وإن كان ذكرها الآن هو محلها في الواقع على ما سنشير إلى الحكمة التي أبداهها أهل العلم في ذلك، هي قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وفي ثنايا تلك السيرة القرآنية جاءت التوجيهات الإلهية والوصايا الربانية، وجاء توضيح المواقف، وتمييز الناس، والتحذير من الاغترار بالباطل، وظهرت الحكم والعبر والعظات من معاني ذلك كله، لتقود قافلة الإيمان في النور الساطع بقدم راسخ إلى منتهى شوط الأمان والنجاة والرفعة في الدنيا والآخرة.

وقبل الخوض في تلك المعاني القرآنية الكريمة يجدر أن نشير إلى كلام له قيمته ذكره

سيد قطب رحمه الله، فنلخص مجمله:

يقول: أما الآن فنقول كلمة في حكمة تحويل القبلة، واختصاص المسلمين بقبلة خاصة يتوجهون إليها، إذ كان ذلك لا شك لحكمة تربوية ذكرتها الآية الكريمة وهى فى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].^(١)

فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام فى جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومى، ولما كان الإسلام قد جاء لاستخلاص القلوب لله وحده، وتجريدها عن كل تعلق بغيره، وتخليصها من كل نكرة وكل عصبية لغير منهج الإسلام المرتبط بالله تعالى مباشرة، المجرى من ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية، فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام واختار لهم المسجد الأقصى ليخلص نفوسهم من كل تلك الرواسب الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول ﷺ ويطيعه فى كل أمره طاعة مجردة من كل شيء، الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازاً بنكرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ، أو تتلبس فى خفايا المشاعر وحنايا الضمير حتى إذا استسلم أهل الإيمان لهذا الأمر من الله ورسوله جاءهم الأمر باستقبال الكعبة المشرفة، كذلك إظهاراً للاستسلام لله ولرسوله ﷺ، ولكنه فى أمره باستقبال الكعبة المشرفة ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى هى حقيقة الإسلام، حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ وليكون تراث الأمة المسلمة التى نشأت تلبية لدعوة إبراهيم لربه بأن يبعث فيهم رسولاً بالإسلام الذى كان عليه إبراهيم وبنوه وأحفاده.^(٢)

يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله: إن المناسبة بين هذه الآية ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ وبين

1 - سيد قطب رحمه الله يميل إلى الرأى الذى ضعفناه بأن القبلة فى مكة كانت الكعبة المشرفة «ظلال القرآن» (١/١٢٦).

2 - سيد قطب، فى ظلال القرآن (١/١٢٦-١٢٧).

الآى التى قبلها غير واضحة، ولكن هناك مناسبة بديعة، وهى أن الآيات التى قبلها تكرر فيها التنويه بإبراهيم وملته والكعبة وأن من يرغب عنها فقد سفه نفسه.^(١)

ونعود إلى سيد قطب رحمه الله، حيث بسط القول شيئاً ما كما ذكرنا فيقول رحمه الله ما مختصره أن الحديث عن المسجد الحرام وبنائه وعمارتة، والجدل مع أهل الكتاب والمشركون حول إبراهيم وبنيه وملته وقبلته، وعهده ووصيته، كل هذا الحديث كان خير تمهيد لتحويل القبلة إلى بيت الله الذى بناه والذى يمثل ملته التى من أراد غيرها فقد سفه نفسه والتى دعا ربه أن يبعث رسولاً يقيمها، فتحويل القبلة إذن يبدو فى هذا السياق هو الاتجاه الطبيعى المنطقى مع وراثة المسلمين لدين إبراهيم وعهده، وهو الدين الذى ارتضاه الله سبحانه للبشرية كافة، فهو الاتجاه الحسى المتسق مع الاتجاه الشعورى، الذى ينشئه هذا التاريخ.

وإن الله عهد لإبراهيم عليه السلام أن يكون من المسلمين: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمِ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] وعهد إبراهيم عليه السلام لبنيه بالإسلام وكذلك أحفاده: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] ولقد أعلم الله إبراهيم عليه السلام أن وراثة عهد الله وفضله لا يناله الظالمين: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] إن الأمة المسلمة هى الوارثة لذلك العهد ولذلك الفضل طبيعى إذن أن ترث بيت الله فى مكة، وأن تتخذ منه قبلة.

فإذا اتجه المسلمون فترة إلى المسجد الأقصى لحكمة سبقت الذى يتجه إليه اليهود والنصارى، وأبوا أن يفيئوا إلى دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، ليشاركوا الأمة المسلمة وليكونوا أمة واحدة موحدة لله تعالى، فقد جاء أو ان تحويل القبلة إلى بيت الله الأول الذى بناه

1 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢/ ٥)، وإن كان يميل العلامة ابن عاشور إلى أن النسخ كان من بيت المقدس إلى الكعبة فى المدينة، أما فى مكة فكان ﷺ يستقبل الكعبة.

إبراهيم عليه السلام لتمييز للمسلمين كل خصائص الوراثة حسيها وشعوريتها، ووراثة الدين، ووراثة القبلة، ووراثة الفضل من الله جميعاً.

إن الاختصاص والتمييز للجماعة المسلمة ضروريٌّ من هذا المنطق، ومما رأينا من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم عامة الاختصاص في التصور والاعتقاد، والاختصاص والتمييز في القبلة والعبادة، وهما واضحان في التصور والاعتقاد، ولكنه قد لا يكون بهذه الدرجة من الوضوح فيما يختص بالقبلة وشعائر العبادة، ولا بد من وقفة مع قيمة أشكال العبادة.^(١)

إن الناظر إلى أشكال العبادات الظاهرة مجردة عن ملابسها، ومجردة عن طبيعة النفس البشرية وتأثيراتها ربما يبدو له أن في الحرص على هذه الأشكال بذاتها شيئاً من التعصب الضيق، أو شيئاً من التعبد للشكليات! ولكن نظرة أرحب وأوسع من هذه النظرة وإدراكاً أعمق لطبيعة الفطرة، يكشفان عن حقيقة أخرى لها كل الاعتبار لهذه الشكليات المتميزة للعبادات، ففي النفس البشرية ميل فطري ناشيء من تكوين الانسان ذاته من جسد طاهر وروح مغيب إلى اتخاذ أشكال ظاهرة عن المشاعر المضمرة، وهذا لا يحتاج إلى تدليل، وقد أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد»^(٢)، فما يظهر إذن على المرء أنها هو تعبير لا بد منه لذلك الشعور والميل الداخلى إذ لا تستقر وتهدأ هذه المشاعر المضمرة حتى تتخذ لها شكلاً ظاهراً تدركه الحواس.

وعلى هذا الأساس الفطري أقام الإسلام شعائره التعبديّة كلها، فهي لا تؤدى بمجرد النية وحدها أو التوجه الروحي، لكن ذلك يتخذ شكلاً ظاهراً قياماً واتجهاً إلى القبلة وتكبيراً وقراءة وركوعاً وسجوداً ذلك في الصلاة، وإحراماً من مكان معين بلباس معين

1 - سيد قطب في ظلال القرآن (١/١٢٧).

2 - البخارى، الصحيح (٥٠).

وطوافاً وسعيّاً بحركة معينة ودعاء وتلبية ورمياً للحجارة ونحراً وحلقاً ذلك في الحج، وهكذا في كل عبادته وأوامره وسننه.

ولم يكن بعد ذلك، بد من تمييز المكان الذي يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة كي يتميز هو ويتخصص بتصوره ومنهجه واتجاهه فهذا التميز تلبية للشعور بالتخصص والتفرد والامتياز، كما أنه بدوره ينشئ شعوراً بالامتياز والتفرد.

ومن هنا كان التشبه بغير المسلمين في خصائصهم التي هي تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة كالنهي عن طريقتهم في الشعور والسلوك سواء، ولم يكن هذا تعصباً ولا تمسكاً بمجرد الشكليات. وإنما كان نظرة أعمق إلى ما وراء الشكليات، كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة وهذه البواعث هي التي تفرق قوماً عن قوم، وتصوراً عن تصور، وعقلية عن عقلية، وضميراً عن ضمير وخلقاً عن خلق، واتجاهاً في الحياة كلها عن اتجاه.

لذلك ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالقوهم»^(١).

وقال صلى الله عليه وسلم وقد خرج على جماعة فقاموا له: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً»^(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٣)، فنهى عن تشبهه في مظهر أو لباس، ونهى عن تشبهه في حركة أو سلوك، ونهى عن تشبهه في قول أو أدب؛ لأن وراء ذلك الشعور الباطن الذي يميز تصوراً عن تصور ومنهجاً في الحياة عن منهج، وسمة للجماعة عن سمة.

1 - البخارى (٥٤٤٨)، ومسلم (٣٩٢٦).

2 - رواه أبو داود، السنن (٤٥٥٣).

3 - البخارى (٣١٨٩).

ثم هو في نفس الوقت نَهَى عن التلقى من غير الله تعالى ومنهجه الذي جاءت الأمة لتحقيقه في الأرض نَهَى عن الهزيمة الداخلية أمام أى قوم آخرين في الأرض، فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معين هي التي تأسر النفس لتقلد ذلك المجتمع المعين، والمسلمون هم الأمة الوسط، هم الأعلون إن كانوا مؤمنين، هم خير أمة أخرجت للناس فإن لم يستخدموا تصورهم ومنهجهم ونظمهم وتقاليدهم من الله فهم يستمدونها من الأدنى الذي جاءوا ليرفعوه.

لقد ضمن الإسلام للبشرية أعلى أفق للتصور، وأقوم منهج في الحياة، وهو يدعو البشرية كلها إلى أن تفتى إليه، وما كان تعصباً إذن من الإسلام أن يطلب وحدة البشرية على أساسه هو لا على أى أساس آخر، وعلى منهجه لا على أى منهج آخر، وتحت رايته لا تحت أى راية فالذى يدعوك الى توحيد الله تعالى وأن يكون من دونه سواء، ويدعوك إلى الوحدة في الرفع من المقصود، والوحدة في الرفع من النظام، ويأبى الحيدة عن منهج الله تعالى والتردى في مهاوى الجاهلية، ليس متعصباً، أو هو متعصب ولكن للخير والحق والصالح.

والأمة المسلمة اليوم محاطة بل ومتغلغل فيها نفسها شتى التصورات الجاهلية وغيرها التي تعج بها الأرض، وكذلك شتى الأهداف والرايات الجاهلية التي يرفعها الأقوم، وبين شتى الاهتمامات التي تشغل بال الناس على خلاف اهتمامات الإسلام ومنهجه، ومن ثم فهي في حاجة إلى التميز بشخصية لا تتلبس بالشخصيات السائدة جاهلية أو غيرها، وتتميز بتصور خاص للوجود والحياة لا يلتبس بالتصورات السائدة، والتميز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية وتصورها هذا التميز هو الوقوف تحت راية تحمل اسم الله وحده؛ فتعرف ساعتها بأنها خير أمة، الأمة الوسط^(١).

1 - انظر سيد قطب، في ظلال القرآن (١/١٢٩).

وهكذا رأينا كيف كانت القبلة تحمل هذه الدلالات التي جاء الإسلام ليؤسسها في الجماعة المسلمة من وقت مبكر تستطيع فيه حمل الراية والسير الحثيث لتحقيق تلك الأهداف مع التمايز بأنهم المسلمون، ولقد ساروا بذلك حتى إنه لا يمكن أن يقال عنهم في كل مجال يحمل الخير والحق والعدل والرحمة إلا إنهم المسلمون. إلى أن فقدوا موقعهم تحت الراية وانزحوا ويمنة ويسرة فحل بهم ما نعاناه اليوم.

نعود إلى هذا الجزء من السيرة النبوية في القرآن الكريم كما هو منهجنا، ونقتصر على ما يوضح الموضوع من كلام الله تعالى، ونبدأ بالآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ آلِي كَاثِبًا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وكان سياق هذه الآية الكريمة بحسب الواقع الظاهر متأخراً بعد تحويل القبلة، إذ ذلك القول من السفهاء إنما هو بعد أن يغير المسلمون قبلتهم فتشاع عنهم هذه المقالة السيئة والإشاعات المغرضة ونذكر حكمة ذلك بشرح الآية فيما يلي كما وضحه الفخر الرازي في « التفسير الكبير »، يقول ما حاصله إن قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ ﴾ فيه قولان:

الأول: وهو اختيار القفال أن هذا اللفظ وإن كان للمستقبل ظاهراً لكنه قد يستعمل في الماضي أيضاً، كالرجل يعمل عملاً فيطعن فيه بعض أعدائه فيقول: أنا أعلم أنهم سيطعنون على فيما فعلت، ومجاز هذا أن يكون القول فيما يكرر ويعاد فإذا ذكره مرة أخرى صح أن يقال سيقول السفهاء.

الثاني: أن الله أخبر عنهم قبل أن يذكروا هذا الكلام أنهم سيذكرونه وفيه فوائد:

أحدها: أنه ﷺ إذا أخبر عن شيء قبل وقوعه، كان هذا إخباراً بالغيب، فيكون معجزاً.

ثانيها: أنه تعالى إذا أخبر عن ذلك أولاً ثم سمعه منهم، فإنه يكون تأذيه من هذا الكلام أقل مما إذا سمعه منهم أولاً.

ثالثها: أن الله تعالى إذا أسمعه ذلك أولاً، ثم ذكر جوابه معه فحين يسمعه النبي ﷺ منهم يكون الجواب حاضراً، فكان ذلك أولى مما إذا سمعه ولا يكون الجواب حاضراً، وبهذا ظهرت حكمة تقديم تلك الآية وتهئية المؤمنين وتثبيت قلوبهم لأقوال أعدائهم.^(١)

ونعود إلى قوله: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ ﴾، وهم أولئك الذين نشروا شائعاتهم واتهاماتهم للنبي ﷺ وللمؤمنين يشككون في دينهم، وعدم ثباتهم عليه، بل هم متحIRON لا يدرون إلى أى قبلة يصلون، وهذا تشكيك في صدق الوحي، وبالتالي الرسالة والقرآن الكريم، وبدأوا حرباً قاسية ليضطرب المؤمنون وتزعزع ثقتهم في دينهم ونبیهم، ها قد جاءتهم فرصة بغير شوكة اهتبلوها، أقوى وأصعب من ملاقاتهم بالسلاح، وللمرء أن يتخيل حال المؤمنين حينئذ، حيث وصف الله تعالى ذلك الوضع السيء بقوله جل وعلا: ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ [البقرة: ١٤٣]. إن رجوع أحد من المؤمنين عن دينه في ذلك الامتحان لهو أقسى من قتله إذ هو تهوين للصف، وتخذيل له وتعريضه للهزيمة النفسية المقدمة للهزيمة العسكرية.

ولتصوير عظم ذلك ذكر الله تعالى أن هذه المقولة هي مقولة السفهاء، والسفيه من لا يميز ما له مما عليه، ويعدل عن طريق منفعه إلى ما يضره، ولا شك أن من فعل ذلك في أمر الدنيا يعدونه سفياً، فمن باب الأولى في أمر الدين، وقد وصفهم بالسفاهة أى الخفة والجهل والطيش وعدم تميز الحق النافع، لما أورده عليهم من حجة تدل على سفاهتهم، فقال: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢]. أى من كان له المشرق والمغرب - وليس هناك من ادعى لنفسه، أو لغيره ذلك - فهو يوجه إلى ما يشاء،

١ - الفخر الرازي، التفسير الكبير (٢/٤٦٢).

وما يعترض على ذلك إلا جاهل سفيه، ونص عليهم عدم اهتدائهم لأنهم لا يستحقونه لإيثارهم الباطل على الحق، وذلك من تمام سفاهتهم، فلا جرم... صدر هذه السيرة بتلك الآية لتبين سفاهتهم، حتى يحذر ذلك المؤمنون، بل ليمنع تردد ذلك في صدورهم.

ويأتى السؤال: ما العظيم في هذا المذكور؟ والكبير فيه، حتى يصوره القرآن الكريم بذلك؟

إن العظيم في ذلك أن السفهاء كانوا الجميع من غير المؤمنين، إذ رمى الكفار المشركون من مكة، واليهود في المدينة، والمنافقون رموا المسلمين عن قوس واحدة، إذ لفظ السفهاء لفظ عموم يصلح لكل الكفار بحسب الدليل العقلي الذى أشرنا إليه، والدليل الثقلي وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].^(١) فالكل قد اجتمع على المسلمين وشككوا واتهموا وذموا؛ لأن الأعداء مجبولون على القدح والطعن، فإذا وجدوا مجالاً لم يتركوا مقالاً البتة، كان الخطب جسيماً إذ اجتمع كل من في المدينة بل ومشركو مكة على الصياح على المسلمين وإرهابهم من كل فج. حتى قال المؤمنون متوجسين خيفة ما حال إخواننا الذين ماتوا قبل تحويل القبلة، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ذكر المفسرون ذلك، ونسبوا كل قول من بهت وإفك إلى قائله فقالت اليهود: لو ثبت على قبلتنا لعلمنا أنه الرسول المنتظر المبشر به في التوراة، وكانوا يظنون موافقته لهم في القبلة ربما تدعوه إلى أن يوافقهم بالكلية، فليس إذا رسولاً.

وقال المشركون: أبى إلا الرجوع لموافقتنا يعنى كأن الوثنية صارت حقاً.

1 - انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير (٢/٤٦٢-٤٦٣).

وقال المنافقون: على سبيل الاستهزاء إن التحويل مجرد عبث وعمل بالرأى والشهوة إذ لا تتميز بعض الجهات عن بعض بخاصية معقولة تقتضى تغيير القبلة.^(١)

نزلت الآيات متتابعة لتوضح الحكمة من ذلك، وتبين مواقف كل فريق، وتؤكد على أمر النبي ﷺ بالتوجه هو والمؤمنون إلى الكعبة، وتثبت المؤمنين وترشد سيرهم وليستمروا صامدين تحت الراية المرفوعة - راية الإيثار - سائرين بها مدافعين عنها.

ونظر في الآية التالية التي تبين بقية سيرة القبلة في القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

كانت هذه الحالة في الآية الكريمة وهي طلب النبي ﷺ من ربه ليستجيب له بالتوجه إلى قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام أول ما ذكر من سيرة النبي - صلوات الله وسلامه عليه - مع القبلة حيث ألهم النبي ﷺ بأنها الحق - وهو الواقع بتقرير الله تعالى ذلك - وجاءت متأخرة عن الآيات السابقة.

ذلك لأن الآيات السابقة كالتمهيد للنبي - عليه الصلاة والسلام - والمؤمنين لهذه الآية، وهي آية إجابة النبي ﷺ لطلبه بالتوجه إلى الكعبة المشرفة، وكذلك تبين الحكمة من هذه الاستجابة، فقد وطأ القرآن الكريم لهذا التحويل بالأية التي ذكرنا وهي: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾، ثم قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ [البقرة: ١٤٣].

ليكون ذلك تثبيتاً للمؤمنين، واعدادهم لمواجهة هذه الكبيرة، وفي نفس الوقت ليفصل لهم موقفهم وقيمتهم في الدنيا والآخرة التي بوأهم الله إياهم، فلا تؤثر فيهم تلك

1 - السابق.

الأحداث، بل هم أعلى منها وأجل فكان متناسباً غاية التناسب أن يرشدهم إلى علو مكانتهم باستعلائهم بالإيمان في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

أى ستسمعون من السفهاء ذلك كله، ولكن حقيقة الأمر أنكم أنتم الأمة الوسط العدول الخيار إذا اعتقدتم شيئاً فهو الحق الذى بلغكم به ربكم، فأنتم الشاهدون على كل أمة أو أحد بصدق ما هم عليه وصحته أولاً، ليس هم الذين يشهدون عليكم بصحة موقف أو فساد: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. أنتم المهيمون الحاكمون بصحة ما عليه الناس كافة أو بنقيضه لا يرد عليكم أحد ذلك الاعتقاد، أو يدفعه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].^(١)

كان ذلك توطئة قوية لهم ألا يتشككوا إذن أو تنزع ثقتهم فيما هم عليه، أو فيما ينزل عليهم، إنهم الأمة الوسط التى تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم القسط والعدل، وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدى فيهم رأياً فيكون هو الرأى المعتمد، وتزن قيمتهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعائره فتفصل فى أمرهم، وتقول: هذا حق منها وهذا باطل، فهى شهيدة على الناس، وفى مقام الحكم العدل بينهم... وبينما هى تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول ﷺ هو الذى يشهد عليها، فيقرر ذلك كله، ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيها الكلمة الأخيرة، وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها.^(٢)

وبالتالى كانت تلك المقدمات والممهديات للأمة قبل صدور الأمر بتحويل القبلة لتعرفها، ولتستعد لها الاستعداد اللائق، ولتصحح وفقها مفاهيمها وتصوراتها التى

1 - انظر الفخر الرازى، التفسير الكبير (٢/ ٤٧٥-٤٧٧)، والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢/ ٢٠-٢١)، سيد

قطب، فو ظلال القرآن (١/ ١٣٠-١٣٢)، وغيرها.

2- السابق.

ترشدها طريقها وتجلى معالمة إلى يوم القيامة، ولتشعر بضخامتها، وتقدر دورها حق قدره، مع الكواشف المضيئة لكل ما حولها تصوراً واعتقاداً وقبائلاً وأشخاصاً.

وبعد هذا الإعداد الطويل للأمة المسلمة في هذا التوقيت الدقيق، جاءت الحكمة الإلهية.

لتبين أن تنقية الصف ليستطيع استكمال السير بأقصى قوة مستطاعة، يتحمل تبعاته، ويقدر مسؤولياته، هو الحكمة المنشودة من خطة التربية الربانية هذه، إن بقاء الصف بغير تمحيص وفرز لبقاء الأصلح الأقوى يجعل باطن الصف مصدعاً مهزوزاً سرعان ما ينهار، أو أجزاء كبيرة منه عند أول صدام، مع أن ظاهره يوحى بغير ذلك، وقد رأينا مصداق هؤلاء في غزوة أحد، ولقد عبرت الآية الكريمة عن هذه الحكمة بقولها: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا آلِقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهِمْ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]. والله سبحانه يعلم كل ما يكون قبل أن يكون، ولكنه يريد أن يظهر المكنون من الناس حتى يحاسبهم عليه، ويأخذهم به، والانقلاب الرجوع إلى المكان الذي جاء منه، انقلب إلى الدار، وقوله: ﴿ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ ﴾ ، زيادة تأكيد في الرجوع إلى ما كان وراءه؛ لأن العقبين هما خلف الساقين، أى انقلب على طريق عقبيه، وهو هنا استعارة تمثيلية للارتداد عن الإسلام رجوعاً إلى الكفر السابق.^(١)

طالت هذه الفترة مع أنها متأخرة في الواقع عن الأمر النازل بتحقيق مطلوب النبي ﷺ: ﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٥٠]، كل ذلك لما رأينا من عظات وأحكام وعبر، وتراتب لانطلاقه الكبرى لأمة الإسلام، والتي اشترطت لها الآية المذكورة آنفاً اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً علماً وسلوكاً، عبادة وعقيدة مع

1 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢/ ٢٣-٢٤)، سيد قطب، في ظلال القرآن (١/ ١٣٢)، الفخر الرازي،

التفسير الكبير (٢/ ٤٧٨-٤٨١)

الوسطية في كل أمورها لتصل إلى مقصدها وتبلغ أهدافها وتفوز بسعادة الدارين.

نعود إلى الآية التي وجه الله تعالى بها النبي ﷺ والمؤمنين إلى الكعبة، وهي قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...﴾ [البقرة: ١٤٤]. وننظر في تحليلها.

هذا استئناف ابتدائي، وإفشاء لشرع استقبال الكعبة، ونسخ السابق، فهذا هو المقصود من الكلام المفتوح بقوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ...﴾.

وقد في كلام العرب للتحقيق، وهنا لتحقيق الخبر، وهو نرى، ولما كان علم الله بذلك مما لا يشك فيه النبي ﷺ حتى يحتاج لتحقيق الخبر به، كان الخبر به مع تأكيده مستعملاً في لازمه على وجه الكناية لدفع الاستبطاء عنه، وأن يطمئنه لأن النبي ﷺ كان حريصاً على حصوله، ويلزم ذلك الوعد بحصوله واللازم الثاني هذا كناية ثانية.

وجيء بالمضارع من قد للدلالة على التجدد، والمقصود كما ذكرنا، تجدد اللازم ليكون حينئذ تأكيداً لذلك اللازم وهو الوعد.^(١)

والتقليب هنا هو ترديد وجهه في السماء، وهو تأدب مع الله في الطلب بغير دعاء كما ذكر بعضهم، ينتظر أن يجاب إلى ذلك، يقول الامام محمد عبده: «فسر بعضهم تقلب الوجه بالدعاء، وحقيقة الدعاء هو شعور القلب بالحاجة إلى عناية الله تعالى فيما يطلب، وصدق التوجه إليه فيما يرغب، ولا يتوقف على تحريك اللسان بالألفاظ، فإن الله ينظر إلى القلوب وما أسرت، فإن وافقتها الألسنة فهي تبع لها وإلا كان الدعاء لغواً يبغضه الله تعالى... فتقلب الوجه في السماء عبارة عن التوجه إلى الله تعالى انتظاراً لما كانت تشعر به روح النبي

1 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢/٢٦-).

ﷺ وترجوه من نزول الوحي بتحويل القبلة.^(١)

ويستكمل قائلاً: ولا تدل الآية على أنه كان يدعو بلسانه طالباً هذا التحويل ولا تنفى ذلك».

وقال بعض المحققين: من كمال أدبه ﷺ انتظر ولم يسأل. وهذا التوجه هو الذى يحبه الله تعالى، ويهدى قلب صاحبه إلى ما يرجوه ويطلبه.^(٢)

وهذا الكلام والحال الجليل إنما يدل على أن الرسول ﷺ لم يكن له من أمر نفسه شيء، وأنه ينتظر الوحي فيما يأتى ويدع، ولو كان الأمر له فما المانع أن يقوم هو بالتحويل للكعبة وأن يدعى فى ذلك شيئاً من الإفك المفترى، ثم إن صح هذا فمن أين يخبر بهذه المغيبات التى لا اطلاع لأحد عليها فأخبر بها قبل وقوعها مع حكم وأوامر ووصايا فى سياق معجز معنى ونظاماً.

ولقد رأينا القبلة بعد ذلك شأنناً ثابتاً للمؤمنين لم يحاور فيه أحد، ولم ولن يمارى فيه صغير ولا كبير إلى يوم القيامة.

جاء بعد هذا الأدب من النبى ﷺ قوله تعالى: ﴿فَلَنُؤَلِّتَنَّكَ﴾، فبعد أن كان الوعد بالتحويل فى قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى﴾، بأسلوب الكناية، أتى صريحاً مؤكداً معقبات بالفاء، ليكون المعنى أن تولية وجهه للكعبة سيحصل عقب هذا الوعد. وهذا وعد اشتمل على أداتى تأكيد وأداة تعقيب، وذلك غاية اللطف والإحسان.^(٣)

1 - انظر الامام محمد عبده، الاعمال الكاملة، تحقيق وتقديم د. محمد عمارة (١/٣٣٣-٣٣٤)، التفسير الجزء الاول، دار الشروق ط ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩.

2 - السابق.

3 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢/٢٧).

وعبر بقوله: ﴿ تَرْضَاهَا ﴾، للدلالة على أن ميله للكعبة ميل لتصد الخير، إذ الرضى مشعر بالمحبة الناشئة عن تعقل، ومقام النبي ﷺ يترفع عن أن يتعلق ميله بما ليس فيه مصلحة راجحة، فميله للكعبة لأنها أجدر بيوت الله التي تدل على التوحيد، فهي أحرى بذلك من بيت المقدس إذ بنى هو بعدها، على منوالها، ولم يصل لشاؤها في ترتيب الله تعالى لبيوته، ويكون استقبال القبلة إيماء إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب، وهو الأول بوضع الله له - سبحانه وتعالى - ومن ثم كان التعبير بالرضا في محله الاسمى، وجاء مع قبلة أهل الكتاب بالتعبير بالهوى، وهو الميل إلى غير الحق فقال: ﴿ وَلَئِن أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٥].

ثم جاء قوله مباشرة: ﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ ﴾، تفرعاً على الوعد، وجاء معقباً بالفاء تعجلاً بهذا الوعد، واختص به النبي ﷺ لما فيه من إرضائه بجميل رغبته، وسيعقبه بقوله تشريكاً للامة معه بقوله سبحانه: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وهو تنصيص على تعميم حكم استقبال الكعبة لجميع المسلمين لجميع أقطار الأرض، لئلا يظن أن الخطاب خاص بالنبي ﷺ أو ببعض الاماكن في مكة أو المدينة، أو ببعض جهات الكعبة.^(١)

أما فائدة قوله: ﴿ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ قبل: ﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ ﴾، وهلا قال: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾، ففائدته إظهار الاهتمام برغبة النبي ﷺ، وأنها في محل تقدير الله، إذ كل ذلك منه لرضاء ربه وقيامه بأوامره أفضل القيام، وأن رغبته ورضاه بحيث يعتنى بها، كما دل عليه وصف القبلة بجملة: ﴿ تَرْضَاهَا ﴾.^(٢)

1- انظر الالوسى، روح المعاني (٢/ ١٥)، أبا السعود، إرشاد العقل السليم (١/ ٢٠٨)، والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢/ ٣٠).

2- انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢/ ٢٨).

وهنا يبين عظيم قدره، وعلو درجته ﷺ في خضم تلك الأحداث الكبيرة؛ التي هبت سمومها على المسلمين في تلك الآونة، لتؤكد لهم ارتباطه ﷺ بالسماء، ولتربط على قلوبهم، ولتدعم خطوات اتباعها التي ذكرت الحكمة فيها ومن أجلها.

ونهى الكلام على هذه الآية بالحديث عما ختمت به قبل العودة إلى فهم معنى التوجه ومقصوده إلى القبلة، وختم الآية هو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وهذا التذييل والختم للآية يبين أمرين واضحين في جملة ما وضحت دلالة وإشارة:

الأول: وهو أن الذين أوتوا الكتاب يعلمون بصدق سيدنا محمد ﷺ حسب البشارة به في كتبهم وأن ذلك يتضمن أن ما جاء به الحق، خاصة وقد عبرت الآية بأوتوا الكتاب دون أن يقال أهل الكتاب لتشير إلى أن المقصود أحبار اليهود وأحبار النصارى، وهم العالمون منهم، والأظهر كذلك أن المراد من بقى منهم على الكفر، فصوغ الكلام على أنهم يخالفون ما يعملون، بانكارهم تحويل القبلة مع علمهم كما ذكرت الآية: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، بأسلوب القصر الذي يدل على أن تغيير القبلة هو الحق دون غيره، وهو المبشر به في كتبهم وعلى السنة رسالهم.

الثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، كناية عن الوعيد بجزائهم عن سوء صنعهم، وهو عملهم بغير ما علموا بسبب المكابرة والعناد والسهو؛ لأن قول القادر ما أنا بغافل عن المجرم تحقيق لعقابه. ويستلزم وعيدهم هذا المقام الخطابى وعداً للمسلمين على عظيم منزلتهم؛ لأن الوعيد لهؤلاء السفهاء ترتب على مخالفتهم للمؤمنين، فلا جرم سيلزم للمؤمنين جزاء على اتباعهم لتغيير القبلة.^(١)

١ - انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم (١/٢٠٨)، والظاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢/٣٤)، والألوسى، روح المعاني (٢/١٥-١٦).

أما العود الذى نوهنا إليه آنفاً فهو أن من عمل المؤرخ أن ينظر فى الباعث على الحدث التاريخى، ومعرفة أسبابه وكوامنه وعقله، ولذا ينبغى النظر بعد الإشارة الأولى التى سبقت الكلام على القبلة، إلى مقصود هذا الأمر وباعثه على حسب ما استقر من فهم الشرع والواقع.

ونسارع بالقول أن الباعث على استقبال القبلة باعث عظيم، خاصة وقد بدأ فى وضع اللبنات كلها فى صرح الإسلام العظيم، عقيدة وعبادة وسلوكاً ودعوة... إلى آخره، ليكون تأسيساً وتأصيلاً لا انفصام فيه ولا تراجع عن ثوابته وما يحقق غاياته وأهدافه ولشرح ذلك الباعث وتبيينه يقال: إن مقصود الصلاة العبادة والخضوع لله تعالى، وبمقدار استحضار المعبود يقوى الخضوع له، فتترتب عليه آثاره الطيبة فى إخلاص العبد لربه وإقباله على عبادته، وذلك ملاك الامتثال والاجتناب. ولهذا جاء فى الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١). ولما تنزه سبحانه عن أن يحيط به الحس تعين لمن يحاول أن يستحضر عظمته أن يجعل له مذكراً به من شيء له انتساب خاص به.^(٢)

يقول الفخر الرازى: إن الله تعالى خلق فى الانسان قوة عقلية مدركة للمجردات والمعقولات، وقوة خيالية متصرفة فى عالم الأجسام، وقلما تنفك القوة العقلية عن مقارنة القوة الخيالية ومصاحبتهما، فإذا أراد الإنسان استحضار أمر عقلى مجرد وجب أن يضع له صورة خيالية بحسبها حتى تكون تلك الصورة الخيالية معينة على إدراك تلك المعانى العقلية... إلى أن يقول: ولما كان العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم، فإنه لا بد أن يستقبله بوجهه وأن لا يكون معرضاً عنه، وأن يباليغ فى الثناء عليه بلسانه، ويباليغ فى الخدمة والتضرع له فاستقبال القبلة فى الصلاة يجرى مجرى كونه مستقبلاً للملك لا معرضاً

1 - البخارى، الصحيح (٤٨)، مسلم، الصحيح (٩).

2 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠ / ٢).

عنه، والقراءة والتسيحات تجرى مجرى الثناء عليه، والركوع والسجود يجرى مجرى الخدمة.^(١)

فإذا تعذر استحضار الذات المطلوبة بالحس فاستحضرها يكون بشيء له انتساب إليها مباشرة كالديار، أو بواسطة كالبرق والنسيم ونحو ذلك، أو بالشبه كالغزال عند المحبين، وقال مالك بن الريب:

دَعَانِي الْهُوَى مِنْ أَهْلِ وُدِّي وَجِيرَتِي بِذِي الطَّيْسَيْنِ فَالْتَفْتُ وُرَائِيَا

والله تعالى منزه عن أن يحيط به الحس فوسيلة استحضار صفاته هي استحضار ما فيه مزيد دلالة عليه سبحانه من الصفات.

لا جرم أن أولى المخلوقات بأن يجعل وسيلة لاستحضار صفات الخالق في نفس عبده هي المخلوقات التي كان وجودها لأجل الدلالة على توحيد الله وتنزيهه ووصفه بصفات الكمال، مع تجريدتها عن كل ما يوهم أنها المقصودة بالعبادة، وتلك هي المساجد التي بناها إبراهيم عليه السلام، فبنى الكعبة أول بيت، وبنى مسجداً في مكان المسجد الأقصى وغير ذلك.

فإذا استقبل المؤمن بالله شيئاً من البيوت التي أقيمت لمناهضة أهل الشرك، وللدلالة على توحيد الله وتمجيده، كان من استحضار صفات الخالق بها هو أشد إضافة إليه.

لكن هذه البيوت على كثرتها لا تتفاضل إلا بإخلاص النية وكونها مبنية لذلك، وسابقة فيه، لأن السابق الدال لمؤسس اللاحق على تأسيسه، قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال في مسجد الضرار: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨]، لأنه أسس بنية التفريق بين المؤمنين وإرصاد لمن حارب الله ورسوله ﷺ.

1 - الفخر الرازي، التفسير الكبير (٢/٤٦٦-٤٦٧).

وللأسبقية قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٦]، فجعله هدى للناس لأنه أول بيت، فالبيوت التي أقيمت بعده كبيت المقدس من آثار اهتداء من بناها بالبيت الأول.

فلا شك أن أول بناء أقيم لتوحيد الله تعالى وتنزيهه وإعلان ذلك، وإبطال الاشرار هو الكعبة، وبناها أول من حاج الوثنيين بالأدلة، وقاومهم بجعل أصنامهم جذاذاً، ثم قام بأمر الله تعالى بهذا البناء المهيب توحيداً وذكرًا؛ ليعلم كل من أتى سبب بنائه، ومضت على ذلك العصور، وتمضى إلى يوم القيامة تذكر رؤيته بالله مع مزية الأولوية الباقية، وميزة بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام له بأيديهما دون معونة أحد ولذلك فهو أعرف في الدلالة على التوحيد والرسالة معاً، وهما قطبا إيمان المؤمنين وفي هذه الصفة لا يشاركه غيره.^(١)

ثم سن الحج إليه لتجديد هذه الذكرى، ولتعميمها في الأمم الأخرى، فلا جرم بعد ذلك كله أن يكون أولى الموجودات بالاستقبال لمن يريد استحضار جلال الربوبية الحقة، وما بنيت بيوت الله تعالى كالمسجد الأقصى إلا بعده بعدة قرون فكان حرياً أن يكون قبلة كل من أسلم لله تعالى، وقبلة الرسول ﷺ وقبلة المؤمنين معه بالأولية.

وما كان استقبال الرسول ﷺ لبيت المقدس إذن إلا لهذه الحكم التي ذكرنا، وكان في التحويل بعد ذلك إلى الكعبة علاوة على ما سبق بشارة للنبي ﷺ بأن أمر قريش قد أشرف على الزوال، وبالتالي ستكون وقعة بدر هي الفيصل بين المسلمين وبينهم لذا كان موضوع القبلة بهذا القدر اليسير - الذى يظن به الطول - من أهم الموضوعات الفارقة التي توجه المؤمنين المتقين الوجهة الصحيحة بإخلاص القصد والوجه لله تعالى وبداية للتمايز الذى لا مفاصلة فيه بغير غبش ولا ضبابية بين رافعى راية الله وغيرهم فى كل سلوكهم، وتأكيداً

1 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢/٣٠-٣٢).

بعد تأكيد لهذه العقيدة الحققة التي لا تريد إلا الإخلاص لا تبتغى علواً في الأرض ولا فساداً، وإنما تريد علواً للإيمان وأن يرفرف على أرجاء المعمورة رافعاً تكبير الله وحكمه؛ لتصل الأرض بالسماء، مع استعلاء المؤمنين بدينهم لاتصالهم بخالقهم ومعبودهم، مع المناداة حين كل توجه للقبلة بالمساواة والعدل الرحمة وبأن الشرف والكرم والمكانة للتقوى قلباً وقالباً، مع تحقيق روح الإخوة والتكافل والتضامن وإنكار الذات، مع التذكير في كل مناداة بأن كل المؤمنين في الأرض جميعها متجهون نفس الوجهة يدعو أقصاهم لأقصاهم وأعلاهم لأدناهم، ويجزن المتوارى وراء السهول والوديان والجبال للقريب منه والبعيد إذا مسه إذى أو أصابته لأواء، يرجو أن يمكن أن يفديه بهاله ونفسه، ويفرح ويتهلل لكل خبر يأتيه عن سرور إخوانه بنصر أو بما ينشرح به الصدر. وكثير بعد ذلك لا يحوطه به العد، ولا يدخل تحت الحصر إن ما ماجت به المدينة المنورة من جراء تحويل القبلة لم يكن أمام ذرة مما رأينا شيئاً ذا بال، بعدما توالت تلك الحكم وظهرت تلك المنح الألهية لمن يتبع الرسول ﷺ. جاءت غزوة بدر تتويجاً لهذا الاستكمال لهذا التوجه، مع تربية المؤمنين على القيام بضرائب وتكاليف هذا التوجه، وما أوتى من أوتى منهم بعد ذلك في مواقف انكسار إلا بغياب شيء من هذه التوجيهات.

المبحث الثاني

غزوة بدر في السيرة المشرفة

وصل حديث ما سبق من السيرة، إلى تلك النتيجة المتوقعة بين المسلمين وكفار قريش، وهى ذلك الصدام الدامى، فكانت غزوة بدر الكبرى، وبالرغم من تهديد المسلمين لطرق قريش التجارية إلى الشام، لم يشتبكوا مع قوافل قريش فى قتال حاسم، حتى هذه المرحلة، مما جعل قريشاً تواصل إرسال قوافلها التجارية، مع تأمين الحراسة لها، ومع ذلك كان المسلمون لها بالمرصاد؛ فلما بلغهم تحرك قافلة كبيرة لقريش، تحمل أموالاً عظيمة لها، عائدة من الشام، يجرسها ثلاثون أو أربعون رجلاً، بقيادة أبى سفيان بن حرب^(١)، أرسل رسول الله ﷺ بسبس بن عمرو إلى بدر، لاستطلاع أخبار القافلة، فلما رجع إليه، ندب المسلمين إليها، وقال ﷺ: «هذه غير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله ينفكلموها»^(٢).

خرج النبى ﷺ - بمن كان مستعداً - متعجلاً، لئلا تفوتهم القافلة، دون أن ينتظر من رغب فى الخروج من سكان العوالى لىأتى بظهره^(٣)؛ ولذا لم يعاتب أحداً تخلف عنها^(٤)، فكان

1 - رواه ابن اسحاق باسناد حسن، ابن هشام (١٨٢/٢-١٨٣) تحقيق محمد فهمى السرجانى وآخر، المكتبة التوفيقية ط١، وانظر ابن حزم، جوامع السيرة (١٠٧).

2 - المصدر السابق، أما حديث بسبس فهو ثابت فى صحيح مسلم (١٩٠١)، وانظر شرح النووى للحديث، وضبط الإسم تصحيحاً وتصحيحاً، والحديث كذلك فى ترجمته فى الإصابة لابن حجر (٩٨/١)، وانظر د. أكرم العمرى السيرة (٣٥٤)، د. مهدي رزق الله السيرة (٣٣٧).

3 - مسلم من حديث أنس (١٩٠١)، وكذا الطبرانى كما فى مجمع الزوائد للهيثمى (٦٧/٦) وقال: رجاله ثقات.

4 - البخارى من حديث كعب بن مالك (٤٤١٨).

جيش المسلمين لا يمثل كل طاقاتهم العسكرية؛ فإنهم خرجوا لملاقاة القافلة، ولم يعلموا أنهم سيواجهون جيش قريش.

كان تعدادهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً^(١)، منهم مائة من المهاجرين، وبقيتهم من الأنصار. هذه رواية الزبير بن العوام، أما رواية جابر - وقد رده الرسول ﷺ في بدر لصغره - أن المهاجرين يزيدون على الستين، والأنصار يزيدون على الأربعين ومائتين^(٢).

وقد أذن رسول الله ﷺ لحذيفة بن اليمان، ولأبيه - رضي الله عنهما - بعدم الخروج معه لأنها كانا قد وعدا كفار قريش بعدم القتال معه؛ فطلب منهما الوفاء بعهدهما^(٣).

التحق أحد شجعان المشركين بالنبي ﷺ في الطريق، ليقاتل مع قومه، فرده رسول الله ﷺ وقال: «ارجع، فلن استعين بمشرك»؛ كرر الرجل المحاولة، فلم يقبل النبي ﷺ فأسلم الرجل والتحق بالمسلمين^(٤). وهنا تظهر قضية العقيدة بصبغتها الإسلامية، خاصة في أول معركة يقاتل فيها المسلمون.

كان مع المسلمين فرسان، وسبعون بعيراً يعتقب الرجالن والثلاثة على البعير الواحد، وكان أبو لبابة، وعلى بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ، فعندما جاء دوره ﷺ في المشى، قال له: «نحن نمشى عنك» فقال لها: «ما أنتما بأقوى منى، ولا أنا بأغنى عن الأجر

1 - هذه رواية البخارى، فتح البارى (٣٩٥٦-٣٩٥٩)، وعند مسلم بالجزم كانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، وهو الأولى ذكره أحمد محمد العليمى باوزير، مرويات غزوة بدر رسالة ماجستير منشورة، مكتبة طيب (ط ١) ١٤٠٠-١٩٨٠م، انظر د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (٣٣٧).

2 - البخارى، فتح البارى (٣٩٥٦)، وانظر كلام ابن حجر على الروايات المختلفة في ذلك.

3 - النووى، شرح صحيح مسلم (١٢/١٤٤)، دار الفكر بيروت ينقل من طبعتنا

4 - النووى، شرح صحيح مسلم (١٢/١٩٨) ينقل كذلك من طبعتنا، وانظر د. أكرم العمرى، السيرة النبوية الصحيحة (٣٥٥).

منكم»^(١)، وهذا من أروع المواقف - مواقف هذا النبي ﷺ، ومواقف الإسلام - عندما يستوى القائد والجند في التحمل والبذل، أن يمشى القائد وجنده راكبون، يطلب الأجر بإخلاص وصدق، ويحرص عليه أشد من حرص جنوده، بل ويسابق جنده في تحمل المشاق، ويقاسمهم الآلام والمتاعب، حائزاً فيها النصيب الأعظم، ولا يرضى إلا أن يكون أمامهم في مواجهتها؛ إن ذلك مما يدفعهم إلى التضحية والفداء، متطلعين إلى رضوان الله وثوابه؛ وقد رأينا ذلك في بدر كما سنذكر - إن شاء الله - شيئاً من سيرتهم.

في الطريق، عند بلوغهم الروحاء - مكان على بعد أربعين ميلاً من المدينة - رد رسول الله ﷺ أبا لبابة، وأمره على المدينة، وكان قد جعل ابن أم مكتوم على الصلاة، وأصبح مرثد بن أبي مرثد مكان أبي لبابة في زمالة الرسول ﷺ على البعير^(٢).

لما علم أبو سفيان بالخطر المحقق بقافلة قريش ورجالها، خاصة وقد تكرر ذلك من المسلمين سأل مجدى بن عمرو - عندما اقترب من بدر - عن جيش الرسول ﷺ، فأخبره براكين أناخا إلى تل، عرف أبو سفيان أنهما من المدينة فأسرع تاركاً الطريق الرئيسي على يسار بدر إلى الساحل، وأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري يستنجد بقريش^(٣).

لما علمت قريش الخبر أخذت في الاستعداد للخروج على عجل لإنقاذ غيرها ورجالها، ولتلتقى بالمسلمين في حرب تريد أن تقضى فيها عليهم، لتستريح من الدعوة ورجالها، وما يهدد تجارتها.

1 - أحمد، المسند (٦/٣ طبعة شاكر)، وقال الشيخ شاكر: اسناده صحيح، وقد أخرجه الحاكم (٣/٢٠)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

2 - انظر ابن هشام السيرة النبوية (٢/١٨٧)، في قضية بدر بإسناد حسن، وابن كثير، البداية والنهاية (٣/٢٨٥).

3 - ابن هشام السيرة النبوية (٢/١٨٣).

وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا في المنام قبل مجيء ضمضم؛ أن رجلاً استنفر قريشاً وألقى بصخرة من رأس جبل أبي قبيس بمكة، فتفتت ولم تترك داراً من دور قريش إلا دخل فيها بعضها، وأثارت الرؤيا خصومة بين العباس بن عبد المطلب وأبى جهل حتى قدم ضمضم وأنذرهم خبر القافلة، فصدق الله رؤيا عاتكة^(١).

كانت قريش في أشد حالات الغضب، لقد رأت فيما حدث امتهاناً لكرامتهاً وحطاً لمكانتهاً بين العرب، فضلاً عن ضرب مصالحها الاقتصادية، لذلك أسرع في الخروج، وحاوت أن تجند كل طاقتها عدداً وعدة، فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبى لهب، ولكنه أرسل رجلاً مكانه لدين عليه^(٢)، فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً.

أما أبو سفيان فقد نجا بالقافلة وزال الخطر، بعد أن سلك الساحل تاركاً بدرأ؛ وكان جيش قريش قد وصل الجحفة^(٣)، فأرسل إليهم يخبرهم بنجاة القافلة، وأن يعودوا إلى مكة. وهمم جيش مكة بالرجوع، ولكن أبى جهل رفض ذلك، قائلاً: «والله لا نرجع حتى نرد بدرأ فنقيم بها ثلاثاً، فننحر الجزور ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا»^(٤).

1 - رواه الحاكم، المستدرک (١٩/٣)، وذكره ابن كثير، البداية والنهاية، من طريق ابن اسحاق وبإسناد حسن إلى عروة ولكنه مرسل، ولكن الروايات تعضد صحة الواقعة، الاصابة (٣٤٧/٤)، الهيثمي، مجمع الزوائد (٧٢/٦)، وانظر د. أكرم العمري، السيرة النبوية (٣٥٦)، د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (٣٣٩).

2 - ابن اسحاق في قصة بدر، ابن هشام السيرة النبوية (١٨٥/٢).

3 - على ثلاث مراحل من مكة في طريق المدينة. انظر معجم البلدان، الحموي (٤٧٥/١).

4 - الطبري، التفسير (٥٧٩/١٣) بإسناد حسن. تحقيق شاكر، وهو رواية ابن اسحاق لغزوة بدر، ابن هشام السيرة (١٩٢/٢).

وكان عدد الجيش قد بلغ ألفاً^(١)، معهم القيان يضربن بالدفوف، ويتغنون بهجاء المسلمين^(٢).

خالف بنو زهرة كلام أبي جهل، ورجع الأحنس بن شريق بهم، وكذلك طالب بن أبي طالب، لما اتهمهم - أي بنى هاشم - من اتهم من قريش بأن هواهم مع محمد ﷺ.

تقدم جيش المشركين - مع ذلك - حتى نزلوا قريباً من بدر، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى^(٣)، وتبين بذلك أن هدفهم ليس إنقاذ القافلة، بل تأديب المسلمين، وتحليص طرق التجارة من تعرضهم، وإعلاء شأن قريش وهيبتها عند العرب.

أما عن المسلمين، وقد وصلوا بدرًا لملاقاة القافلة غير مستعدين لغير ذلك من مواجهة الجيش المكى، وخشى فريق من المؤمنين من لقاء لم يتجهزوا له بكامل عدتهم وعتادهم، فجادلوا الرسول ﷺ في ذلك، وفيها نزل القرآن الكريم^(٤): ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿١﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٢﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۖ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال: ٥-٧].

فقام النبي ﷺ باستشارة الصحابة بعد أن أخبرهم بالموقف وما عزمت عليه قريش^(٥)، فقام من قادة المهاجرين أبو بكر ﷺ، فقال وأحسن، وقام عمر ﷺ فقال وأحسن، وقام

1 - النووي، شرح صحيح مسلم (٢/٨٤).

2 - ابن كثير، البداية والنهاية (٣/٢٦٠) وذكر ابن اسحاق أنهم كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً معهم مائة فرس، ومعهم القيان.

3 - ابن هشام، السيرة النبوية (٣/١٩٣).

4 - سنعود إليها إن شاء الله في عرض السيرة في القرآن الكريم مع المقارنة والتحليل.

5 - ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة النبوية (٢/١٨٩)، وإسناده صحيح. وانظر د. أكرم العمرى، السيرة النبوية (٣٥٨).

المقداد بن عمرو رضي الله عنه فقال: «يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد^(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه»، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له.

ثم قال صلى الله عليه وسلم أشيروا عليّ أيها الناس^(٢)؛ وإنما يريد أن يسمع كلام الأنصار؛ أدرك سعد بن معاذ رضي الله عنه ذلك فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟» قال: «أجل» قال: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق.... إلى آخر الرواية التي ذكرنا من قبل^(٣).

فسرَّ صلى الله عليه وسلم بقول سعد رضي الله عنه ونشطه، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني

إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن انظر إلى مصارع القوم»^(٤) وعندما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قريباً من الصفراء أرسل بسبب بن عمرو الجهني، وعدى بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر، يتحسسان له الأخبار عن أبي سفيان وغيره^(٥)، وقيل أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج بنفسه هو وأبو بكر رضي الله عنهما، لذلك عرفا بالضبط مكان جيش المشركين^(٦)، وفي مساء يومه ذلك أرسل صلى الله عليه وسلم علياً

1 - برك الغماد: بالكسر ويجوز فيها الضم، وهو موضع وراء مكة، بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن، دفن عنده عبد الله بن جدعان، انظر معجم البلدان، الحموي (١/٢٨٣).

2 - لأن بيعة العقبة اشترط فيها الأنصار منعة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يبلغ المدينة، وأن دستور المدينة يحتم عليهم الدفاع مع النبي صلى الله عليه وسلم ضد من دهم يثرب، وظن النبي صلى الله عليه وسلم أن الأنصار تعلم أن ليس عليها أن يسيروا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى عدوهم.

3 - انظر ص ٥٣.

4 - ابن اسحاق وعنه ابن هشام، السيرة النبوية (١/١٩٠)، وخبر هذه المشورة في بدر ثابت في البخاري (٣٩٥٢)، ومسلم (١٧٧٩)، وانظر ابن حجر، فتح الباري (١٥/١٥١)، وحاشية تخريج سيرة ابن هشام (٢/١٩٠)، د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (٣٤٢).

5 - ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة النبوية (٢/١٨٨-١٨٩) من حديث بدر الصحيح عند ابن اسحاق.

6 - ابن هشام السيرة (٢/١٩٠)، وانظر د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (٣٤٣).

والزبير وسعد بن أبي وقاص فأسر ساقيين من سقاة قريش وأتوا بهما النبي ﷺ وهو يصلي، وبعد الصلاة استجوبها فعرف منها عدد قريش مما ينحرون من الجزور، وذكروا له من بالجيش من أشرف مكة^(١)، فقال الرسول ﷺ لأصحابه: «هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها»^(٢). وأشار ﷺ إلى أماكن مصارع بعض قادة قريش فما طأ أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ^(٣).

سبق الرسول ﷺ قريشاً إلى ماء بدر ليحول بينهم وبين الماء، وعندما استقروا في المكان، بناوا لرسول الله ﷺ عريشاً - شبه خيمة - ليكون مقرراً للقيادة وظلاً للقائد^(٤).

ومما طمأن الله به المؤمنين..

إنزال المطر تلك الليلة على معسكر المؤمنين، ووبالاً شديداً على المشركين، وفيه يقول الله تعالى: ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝ ﴾ [الأنفال: ١١]^(٥)، فكان دهباً للمؤمنين، ثبت به أقدامهم، وربط على قلوبهم، وأذهب عنهم رجز الشيطان.

كذلك من نعمه تعالى عليهم وفضله الذي تقووا به على ملاقات الكافرين يوم بدر، إلقاء النعاس عليهم، وإنه لمن المن عظيمة، أن ينام الجند في وقت الخطر لملاقاة عدوهم،

- 1 - مسلم (١٧٧٩)، وأحمد في المسند (١٩٣/٢) وهو صحيح الإسناد عند الشيخ أحمد شاكر، وقد صحح إسناد أحمد الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٦/٦)، فقال: رجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة، وانظر د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية المصدر السابق نفس الموضوع.
- 2 - ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة النبوية (١٩١/٢).
- 3 - مسلم (١٧٧٩)، في قصة غزوة بدر.
- 4 - قصة العريش ثابتة بأحاديث صحيحة كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية عن ابن اسحاق (٣/٣١٢)، وورد في حديث ابن عباس عند البخاري (٤٨٧٧)، وهو في قبة... إلى آخر الحديث، وانظر د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (٣٤٦).
- 5 - الخبر عند أحمد، المسند تحقيق أحمد شاكر (١٩٣/٢)، وعند ابن هشام (١٩٣)، وابن كثير البداية والنهاية (٣/٢٩٢)، والتفسير له (٣/٥٤٦-٥٤٤).

فإنه راحه لهم، وأمنة عليهم، يقومون بعده بروح عالية مطمئنة واثقة، مع استجمام أبدانهم المرهقة، ليرفعوا راية الله الذي لم يتركهم، وفعل لهم ما لا يستطيع أحد أن يقوم به. وفي ذلك يقول الحق تعالى: ﴿إذِ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾^(١).

وكذلك أوقع الخلاف في صفوف العدو، فقد روى أن عتبة بن ربيعة من صناديد قريش قام خطيباً ليثنى قومه عن القتال، لأنه علم أن المسلمين لن يموت منهم أحد حتى يقتل واحداً أمامه من المشركين^(٢)، ولذا قال النبي ﷺ: «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا^(٣)»، وكان ذلك عتبة بن ربيعة، واتهمه أبو جهل بالخوف حتى ذعر لذلك وقام مقاتلاً.

موقف الرسول ﷺ:

كان موقف النبي ﷺ في بدر يُنمُّ عن اتصال الأرض بالسماء، مع اتخاذ كل الأسباب المادية والمعنوية لقتال العدو، ثم تقدم هو ﷺ أمام الجند المقاتلين كافة.

أما عن استفاد السبل المادية والمعنوية..

فقد عسكر النبي ﷺ في مكان أفضل من مكان قريش، أرضاً وماءً، وعبأ قواته بطريقة جديدة لا تعرفها قريش^(٤)، وهي تعبئة الصفوف ليقبل بها من خسائر الجيش الإسلامي،

1 - أحمد، المسند (١٩٣/٢).

2 - وفيه قصة عمرو بن وهب الجمحي حيث أرسلته قريش ليعلم لهم عدد المسلمين، فرجع وأخبرهم ولكنه قال: «قد رأيت البلاءيا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيكم، والحديث سبب اعتراض عتبة بن ربيعة على القتال، وقد رواه ابن اسحاق - ابن هشام، السيرة النبوية (١٩٤/٢)».

3 - أحمد، المسند (١٩٣/٢).

4 - غير طريق الكر والفر التي تجيدها قريش.

وفيهما مزية السيطرة، لكامل قوة الجيش، والتأمين لعمق الجيش، حتى تبقى دائماً بيد القائد قوة احتياطية في الخلف يعالج بها المواقف التي ليست في الحسبان^(١).

اتخاذ الخيمة - العريش - لإدارة المعركة: وقد سبق.

القتال بنفسه ﷺ:

حيث أصدر أمره ﷺ لأصحابه قائلاً: «لا يتقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه»^(٢)، وكذلك ورد عن علي ﷺ قوله: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً»^(٣)، لذا قال ابن كثير: «وقد قاتل بنفسه الكريمة قتالاً شديداً، ببدنه، وكذلك أبو بكر الصديق، كما كانا في العريش يجاهدان بالدعاء والتضرع، ثم نزلا فحرضا، فحثا على القتال وقاتلا بالأبدان جمعاً بين المقامين الشريفين»^(٤).

عن التعبئة المعنوية للجند:

فأول ما قال ﷺ محرضاً على القتال والثبات ومواجهة الكفرة، مع البذل والتضحية في سبيل الله سبحانه وتعالى: «والذى بنفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»^(٥)، وفي رواية مسلم^(٦)، أنه عندما دنا المشركون قال

1 - د. أكرم العمري، السيرة النبوية (٣٦١)، نقلاً عن اللواء. محمود شيت خطاب في كتابه الرسول القائد (٧٨-٧٩).

2 - مسلم، الصحيح (١٩٠١).

3 - أحمد المسند بتحقيق شاکر (٦٤/٢)، وقال: إسناده صحيح.

4 - ابن كثير، البداية والنهاية (٣٠٦/٣).

5 - ابن اسحاق - ابن هشام، السيرة النبوية (١٩٨/٢).

6 - مسلم، الصحيح (١٩٠١)، وابن سعد (٢٥/٢)، باختصار د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (٣٤٩).

رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، وعندما سمع ذلك عمير بن الحُمام الأنصاري، قال: يا رسول الله: أجنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بخٍ بخٍ فقال رسول الله ﷺ: «ما يملك على قول بخٍ بخٍ» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. قال: «فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل»، وقال كذلك عندما سأله أحد الصحابة، وهو عوف بن الحارث: يا رسول الله ما يُضحك الربُّ من عبده، قال: «غَمَسَهُ يَدَهُ فِي الْعَدُوِّ حَاسِرًا»، فنزع درعاً كانت عليه، فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل^(١)، ثم أخذ الرسول ﷺ في توجيه أوامر الحرب قائلاً: «إذا أكتبوكم فارموهم، واستبقوا نبلكم، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»^(٢).

أما ارتباط الأرض بالسماء في شخصه الكريم، طلباً للنصر من الله تعالى، وتعلقاً بخالق الأسباب جل وعلا، فقد ظهر في دعائه لربه، واستغاثته واستنصاره به، مما يبين توكله على الله، لا على الأسباب، واستكمال له لكل قوى النصر، ويقينه بأن النصر من عند الله تعالى، فوجدناه منفرداً بربه ليلة بدر يدعوه، يقول الإمام علي بن أبي طالب ؑ، في وصف تلك الليلة، ليلة السابع عشر من رمضان سنة اثنين من الهجرة وأمامهم معسكر المشركين: «لقد رأيتنا يوم بدر وما منّا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ، فإنه كان يصلي إلى شجرة حتى أصبح...».

ويبدو أن رسول الله ﷺ أراد أن يريح جيشه تلك الليلة، فقام هو بنفسه بحراستهم^(٣)،

1 - رواه ابن اسحاق - ابن هشام، السيرة النبوية (٢/١٩٩)، وهو مرسل.

2 - البخاري، فتح الباري (٥/١٧٣/٣٩٨٥/١٢/٤٨/٢٩٠٠).

3 - الحديث رواه أحمد، المسند، الفتح الرباني (٢١/٣٠-٣٦)، بإسناد صحيح، انظر د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة (٣٦٠-٣٦١).

وفي صبيحة يوم بدر، عندما تراءى الجمعان، ما زال الرسول ﷺ يهتف بربه موصولاً قلبه به، يقول على بن أبي طالب ؓ، دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً: «اللهم هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة»^(١)، وحكى كذلك عمر بن الخطاب ؓ إكثار النبي ﷺ من الدعاء يوم بدر، قائلاً: «لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، لا تعبد في الأرض» فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر ؓ، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله! كفك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنفال: ٩٠]، فأمده الله بالملائكة. وقد خرج من العريش وهو يقول: ﴿سَيِّزُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٩١﴾﴾ [القمر: ٩٠].^(٢)

وارتباطه ﷺ بالسماء في مثل هذا الموقف، دليل الوحي والرسالة والنبوة، إذ من يدعو النبي ﷺ ويناشده غير رب الأرض والسماء، لينصره على قريش في موقع لا يظن به النصر، وهو مستيقن بذلك النصر، يبشر به أصحابه، لو وقع غير ذلك ما قامت للدعوة قائمة.

1 - الخبر رواه ابن هشام (١٩٤/٢)، وثبت صحيحاً من قول أبي جهل يومها استفتاحه ودعاؤه بقوله: اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه فأحنه - أى أهلكه - الغداة، فكان هو المستفتح أى الحاكم على نفسه فجاءه الفتح بقتله وهزيمة قريش ليثبت صدق النبي ﷺ وأنه النبي، وأن ربه قد إستجاب له وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِن تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَسْ نُعْنِي عَنْكُمْ فِئْتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنفال: ١٩]، وخبر أبي جهل رواه أحمد: الفتح الرباني (٤٤/٢١)، والطبرى في التفسير (٤٥٤/١٣)، وصححه شاكر، والدعاء إلى قول الراوى فكان هو المستفتح رواه ابن اسحاق - ابن هشام (١٩٩/٢).

2 - من رواية مسلم (ح ١٧٦٣)، وفيه من رواية البخارى كذلك جزء (ح ٤٨٧٥-٤٨٧٧)، وكذلك أحمد في المسند (١٨/٥)، صحح الشيخ شاكر إسناده، وانظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية (٣٤٧).

بدء المعركة:

وابتدأت المعركة بالمبارزات الفردية، وقبل المبارزة والقتال، خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي، يريد هدم حوض ماء المسلمين، فقال: «أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه» وتصدى له حمزة رضي الله عنه، وضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه، ثم جبا إلى الحوض مضرجاً بدمائه ليبر قسمه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض»^(١).

خرج للمبارزة ثلاثة من فرسان قريش، وهم عتبة بن ربيعة، وشيبة أخوه، والوليد بن عتبة، فخرج إليهم شباب من الأنصار، فلم يقبلوا بغير بنى عمومتهم من المهاجرين، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم حمزة، وعبيدة بن الحارث، وعلياً بمبارزتهم، وقد قتل حمزة عتبة، وقتل عليُّ شيبة، وأما عبيدة فقد تصدى للوليد بن عتبة، وجرح كل واحد صاحبه، فأعان حمزة وعلي عبيدة على قتل الوليد، واحتملا عبيدة إلى معسكر المسلمين^(٢).

أثرت - لا شك - هذه البداية السيئة على المشركين، وألقت في قلوبهم، بظلال قائمة النتيجة، وخبيمة العاقبة، في الوقت الذي بدأ المسلمون معركتهم، وهم في أعلى درجات القوة الإيمانية، والاستبشار بالنصر وحسن العاقبة.

جعلت هذه البداية قريشاً تبدأ بالهجوم على المسلمين، فردوهم بالرمي بالنبل مننفذين أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم بدأ الالتحام والقتال، وحمى الوطيس، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم كفاً من حصي،

1 - ابن اسحاق، وذكره ابن هشام (١٩٦/٢).

2 - أبو داود، السنن (٢٦٦٥)، وقال الحافظ في الفتح: "وهذا أصح الروايات (١٦٢/١٥)، طبعة الكليات الأزهر، وانظر الإمام أحمد، المسند (٣١-٣٢/٢١)، الفتح الرباني للساعاتي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٦/٦)، ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة". وانظر د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية من مصادرها الأصلية (٣٥٠).

فرمى به وجوه القوم، فما بقى منهم أحد إلا امتلأت عيناه من الحصباء وفيها نزلت الآية:
﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَيْكَ بِاللَّهِ رَمِيٌّ ﴾ [الأنفال: ١٧].^(١)

قُتِلَ في هذه الملقمة سبعون من قريش، وأسر مثلهم، وكان يصرع في المواضع التي
بيَّنها الرسول ﷺ لأصحابه قبل المعركة، من ذكرهم بأسمائهم^(٢)، وكان ممن قُتِلَ من قادة
قريش أبو جهل، عمرو بن هشام المخزومي، الذى وصفه رسول الله ﷺ بأنه فرعون هذه
الأمّة^(٣)، قتله معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء - رضي الله عنهما -، في قصة في
الصحيحين وأجهز عليه عبد الله بن مسعود ﷺ^(٤).

ومنهم أمية بن خلف، الذى كان يعذب بلالاً ﷺ في مكة، أسره عبد الرحمن بن
عوف ﷺ وأسر معه ابنه علياً، فرآه بلال ﷺ فقال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن
نجا؛ واستصرخ عليه الأنصار فأعانوه على قتله هو وابنه على^(٥)، وكان وفاء النبي ﷺ حاضراً
آنئذ، كما هو حاله المشرف دائماً، ولم ينسه في غمرة هذا الصدام الدامى، فأصدر توصياته
بعدم قتل بعض المشركين ممن كان يقف مساعداً للمؤمنين في مكة، وقت اضطهادهم
وتعذيبهم، منهم أبو البخترى بن هشام، وكان ممن سعى في نقض صحيفة المقاطعة، ولم يؤذ
النبي ﷺ، ومنهم نفر من بنى هاشم خرجوا مع قريش مكرهين، كالعباس بن عبد المطلب
عم النبي ﷺ، والذى وقف بجواره طوال عهده بمكة، خاصة بعد وفاة عمه أبى طالب،

1 - الحديث فرواه الهيثمى في المجمع (٦/٨٤)، وقال رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح، وابن اسحاق - ابن
هشام (٢/١٩٩)، وحسنه الألبانى في فقه السيرة (٢٢٨)، طبعة دار القلم دمشق ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

2 - أحمد، المسند (١/٢٣٢)، بإسناد صحيح، د. أكرم العمري، السيرة النبوية (٣٦٦).

3 - الهيثمى، مجمع الزوائد (٦/٧٩)، من طريق الطبرانى وقال: ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن وهب ابن أبى كريمة
وهو ثقة.

4 - البخارى (٣١٤١)، ومسلم (١٧٥٢).

5 - البخارى، روى القصة بتامها (٢٣٠١)، ورواه ابن اسحاق في قصة بدر - ابن هشام (٢/٢٠٢).

وقد ذكر العباس رضي الله عنه نفسه، أنه كان مسلماً وإنما خرج مستكراً^(١)، وعندما وصل أبا حذيفة كلامُ النبي صلى الله عليه وآله هذا، قال ذلك القول الذي ندم عليه بعد ذلك وهو: «أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لأحمنه-أو لأجمنه- بالسيف، فبلغت مقاتله رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال لعمر: «يا أبا حفص! أياضرب وجه عم رسول الله صلى الله عليه وآله، بالسيف؟» فقال عمر: «يا رسول الله، دعني فلاأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق». فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة؛ فقتل يوم اليمامة شهيداً^(٢).

وقد يظن بعضهم مثل هذا الظن من محابة النبي صلى الله عليه وآله لأقربائه، ولكنه لا يظن خائفاً من هذا الظن، لا يعتقد غير الشهادة، والموت في سبيل الله هو الذي ينجيه منه، بل يظن بالنبي صلى الله عليه وآله ذلك وهو لا يبالي بالوقوع الضال في عرضه الشريف، والبالغ أسوأ دركات الظن به؛ لأن قوله ذلك إنما هو عن الله تعالى، فهو لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وآله، هذا الأول في هذا الموقف، والتدليل على سوء الظن.

الثاني: أن الرسول صلى الله عليه وآله أمر بعدم قتل أبي البختري، وليس عمّاً له صلى الله عليه وآله ولا من أبناء عمومته، ولكن لمواقفه المشكورة مع المسلمين في مكة.

الثالث: في قول النبي صلى الله عليه وآله: «أياضرب وجه العباس عم النبي صلى الله عليه وآله بالسيف» ليس الاستفهام فيه لإنكار ضربه لكونه عم النبي صلى الله عليه وآله، وإلا فليمنع قتل غيره، وهو ليس عمّاً، أو قريباً له صلى الله عليه وآله؟! فمحمل الكلام إذاً، أياضرب وجه العباس عم النبي صلى الله عليه وآله الذي ليس هناك

1 - الطبري، جامع البيان تحقيق الشيخ أحمد شاكر (٧٣/١٤)، وانظر د. أكرم العمري: المجتمع المدني (٥٥)، وانظر د. مهدي رزق، السيرة النبوية (٣٦٠).

2 - باوزير، مرويات غزوة بدر (٢٦٨)، حيث ذهب إلى تصحيح السند حيث هو رواه ابن اسحاق لغزو بدر، وانظر د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية (٣٥٠).

مثله، وقف موقفه مع الرسول ﷺ، وفعل وفعل للمسلمين، أ يضرب وجهه مثل هذا بالسيف؟!!

الرابع: أن هناك من بنى عمومته ﷺ من حضر بدراناً، كأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، وغيرهم، ولم يأمر بتركهم ولا حماية حيواتهم.

الخامس: هذا الوفاء الفذ الذى كان يمكن أن يحمل النبي ﷺ على المن على جميع الأسرى بغير فداء للمطعم بن عدى - وقد مات كافراً - وذلك فى قوله ﷺ: «لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى فى هؤلاء التين لأطلقتهم له»، وما كان ذلك إلا لما قام به المطعم من حماية النبي ﷺ، وإجارته له عند دخوله مكة راجعاً مصاباً من الطائف.

وهذا يوضح لنا الرد على ما سنذكر من أقوال المستشرقين، واتهاماتهم للنبي ﷺ فى غزوة بدر، بما سنذكر طرفاً منه.

كما يؤكد كذلك هذه الروح العالية، التى لا تنسى اليد التى امتدت لها خلال الضيق والأذى أن تكافئها؛ لا أن تقول: لو قتل هؤلاء أهذا كان جزائى الذى قدمته لهم؟! ألم يشفع عندهم ما بذلته لهم حال اضطهادهم وتعذيبهم وضعفهم؟! ألم تكن هذه يداً بيضاء امتدت إليهم يوماً تغيبهم من شدة عانوها، أو محنة لاقوها؟! ولم تمتد لهم يوماً بأذى، فاستوت اليوم مع من آذوهم وعذبوهم؟! لم يكن الرسول ﷺ أبداً كذلك، بل هو المثل الأعلى للوفاء الكامل.

نزول الملائكة:

لابد من الإشارة إلى مدد السماء فى هذه الموقعة الأولى، بنزول الملائكة تؤيد المؤمنين، وتقاتل معهم، وذلك لأمرين:

الأول: تبين تأييد الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ، لما قال: اللهم نصرك الذى وعدت، إذ كيف يطلب ﷺ نصراً من إله لم يرسله للناس، ولم ينزل عليه كتابه، ويخصه برسالته؟!

الثانى: تحاشى بعض المسلمين من ذكر ذلك، أو تأوله بالتأويلات الباطلة.

وفى ذلك الرد على المستشرقين المنكرين لنبوة ورسالة النبى ﷺ.

نسوق - بداية - شيئاً من الآيات القرآنية، تثبت الأمور الثلاثة:

الأول: وهى نزول الملائكة.

والثانى: نزولهم ببشارة المؤمنين بنصر الله تعالى، رفعاً لمعنوياتهم وإعلاءً لإيمانهم ودينهم.

والثالث: مقاتلة الملائكة مع المؤمنين.

ونبدأ بهذه الآية لوضوحها، وهى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٧﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٨﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿١٠٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنفال: ٩-١٠]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلِفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاصْبِرُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْبِرُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنفال: ١٢٧].

1 - والآية أرجع الطبرى الضمير فيها للمؤمنين.

وأما الأحاديث..

فأول ما يقابلنا فيها هو نزول جبريل عليه السلام.

روى الأمامى فى مغازيه بإسناد حسن: «خفق النبى ﷺ خفقة فى العريش ثم انتبه، فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل عليه السلام معتجر بعمامة، أخذ بعنان فرسه، يقوده على ثناياه النقع، أتاك نصر الله وعِدَّتُهُ»^(١).

وذكر ابن عباس - رضى الله عنهما - فى نزول الملائكة فقال: «بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى إثر رجل من المشركين، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم»^(٢). فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطم^(٣) أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاحضر ذلك أجمع، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة»^(٤).

وروى الإمام أحمد فى مسنده، أن رجلاً من الأنصار قصير القامة جاء بالعباس أسيراً، فقال العباس: «يا رسول الله، أن هذا والله ما أسرنى، لقد أسرنى رجل أجلح، من أحسن الناس وجهاً، على فرس أبلق، ما أراه فى القوم». فقال الأنصارى: أنا أسرته يا رسول الله. فقال: «اسكت! فقد أيدك الله تعالى بملك كريم»^(٥).

1 - نقله عنه ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/٣١٢) موصولاً، حيث ذكره ابن اسحاق فى المغازى، وابن هشام بدون سند، وحسنه الألبانى، فقه السير للغزالي (٢٢٦)، طبعة دار القلم، دمشق، انظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية (٣٥٢).

2 - حيزوم: اسم فرس الملك انظر شرح مسلم.

3 - الخطم: الأثر على الوجه.

4 - مسلم: صحيح (١٧٦٣).

5 - أحمد، المسند (٢/١٩٢)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وهو فى مجمع الزوائد، وقال الهيثمى رجال أحمد رجال الصحيح (٦/٧٥-٧٦). غير حارثة بن مضرب وهو ثقة.

وقد صح اشتراك الملائكة في بدر من قول جبريل عليه السلام حين سأل النبي ﷺ: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين - أو كلمة نحوها- قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة»^(١).

وهي أحاديث تبين القاطع من أدلة القرآن الكريم وتوضحه، وتضرب له الأمثلة، وتفصل فيه القول، ليتعاضد الجميع على هذا الحدث، الذي لا يكبر على الله تعالى، إذ له الخلق والأمر، يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وهو الرد المجمل على أولئك المصايين بالانهمزام النفسى وعقدة الخواجة.

ويرد السؤال: ما الحكمة من اشتراك الملائكة مع أن جبريل عليه السلام وحده قادر على إهلاكهم بأمر الله؟ ويحسن نقل كلام الإمام السبكي^(٢)، إذ يجلى الإمام طبيعة الإسلام في تحقيق أهدافه، وارتباط ذلك بالجهد البشرى، في حدود السنن الكونية والقوانين الاجتماعية، وغيرها، فيقول رحمه الله: «وقع ذلك - أى نزول الملائكة - لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب، وستتها التى أجزاها الله تعالى فى عباده. والله تعالى هو فاعل الجميع. والله أعلم». أى أن القتال وقع تبع السنن الكونية، والقوانين الطبيعية، من رسول ﷺ وأصحابه؛ وإنما جاءت الملائكة مدداً فى القتال ليس إلا، وإن وقع من بعضهم قتال فما يكون إلا فى صورة الأسباب الممكنة للبشر، حتى يبقى الفعل والأثر منسويين للقائمين به؛ النبي ﷺ وأصحابه؛ وما زاد من الملائكة مما أوحى الله تعالى به إليهم، من القيام بتثبيت المؤمنين وتبشيرهم بالنصر، وخذلان العدو وإلقاء الخوف والفشل فى قلوبهم، وقد كان ذلك بشهادة المشركين قبل المؤمنين.

1 - البخارى (٣٩٩٣).

2 - ونقله كذلك د. أكرم العمرى، انظر.

ولبعض المفسرين تأويلات أخرى في أمر نزول الملائكة لا نحتاج إلى الوقوف عندها كثيراً.

فر الباقون من قريش لا يلوون على شيء بعد مقتل سبعين منهم، وأسر سبعين، تاركين وراءهم كل شيء، فكانت الغنائم التي غنمها المسلمون.

أقام النبي ﷺ ببدر ثلاثة أيام، وفيها دفن شهداء المسلمين، وهم أربعة عشر، استأثرت رحمة الله بهم فذهبوا إلى عليين، ولم يذكر أنه ﷺ صلى عليهم^(١)، ولم يُنقل أحد منهم من بدر ليدفن في المدينة^(٢)، وأمر الرسول ﷺ بسحب قتلى المشركين إلى آبار بدر فألقوا فيها، وفي اليوم الثالث من الأيام الثلاثة، وقف رسول الله ﷺ على أحد الآبار وكان فيه أربعة وعشرون رجلاً من صناديد قريش، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ويقول: «أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»^(٣).

تلقى المسلمون في المدينة بشرى النصر، حيث أرسل الرسول ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه،

1 - وهي السنة في الشهداء.

2 - ابن هشام، السيرة النبوية (٢/٢٥٧-٢٥٨)، وابن كثير البداية والنهاية (٣/٣٢٧)، وزاد ابن حجر على الأربعة عشر إثنين، انظر ابن حجر، الإصابة (٣/٣٢٨-٦٠٨).

3 - رواه ابن اسحاق (٢/٧٤)، وهو حديث صحيح أخرجه أحمد (٣/١٠٤)، وقال أحمد شاکر إسناده صحيح، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٣٤١)، هذا على شرط الشيخين، وقد أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، من حديث أبي طلحة، انظر ابن هشام (٢/٢٠٧)، وقد أنكر السمع من الموتى الشيخ محمد الغزالي في فقه السيرة (٢٣٣)، بقول السيدة عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حقاً»، ورد عليه الشيخ الألباني في التعليق على فقه السيرة (٢٣٢)، بقوله أنكره العلماء وبينوا أن الصواب بجانب من رووا هذا الحديث راجع البداية لابن كثير، و(الفتح) لابن حجر، ثم قال وعندي لا تعارض بينها بل يمكن الجمع وهو الصواب وذكره في (أحكام الجنائز وبدعها).

ليعجل لهم البشارة قبل وصول النبي ﷺ، فكانوا بين الفرح الغامر، والحذر ألا يكون خبر مثل هذه الصاعقة يقيناً، قال أسامة: «فوالله ما صدقت حتى رأينا الأسارى»، وكانت الدهشة تعلو الوجوه، أحقاً هزمت قريش! وقتل زعماءها! وأسر صناديدها! وتحطمت كبريائها! وظهرت حقيقة آهتها الباطلة الزائفة! وعقائدها الضالة! إن أم المؤمنين سودة لفرط دهشتها تقول لأبي يزيد سهيل بن عمرو ويدها معقودتان إلى عنقه بحبل: «أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا متم كراماً!» فقال رسول الله ﷺ: «أعلى الله وعلى رسوله؟!» أى تؤلبين، فقالت: «يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت حين رأيت أبا يزيد، مجموعة يدها إلى عنقه بالحبل، أن قلت ما قلت»^(١).

في طريق عودة الجيش إلى المدينة، أمر الرسول ﷺ بقتل اثنين من الأسرى، هما النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، وكانا يؤذيان المسلمين بمكة، ويشندان في عداوتهما لله ولرسوله ﷺ، إن الوقوع في الأسر لا يعنى صدور عفو عام عن الجرائم التي اقترفتها الأسرى أيام حريتهم، وهؤلاء الطغمة من كبراء مكة لهم ماضٍ شنيع، بالغ السوء، في إيذاء الله ورسوله ﷺ، وقد أبطرتهم منازلهم فساقوا عامة أهل مكة إلى حرب ما كان لها من داع، فكيف يتركون بعد أن استمكنت الأيدي من خناقهم، أليعودوا مرة أخرى أشد عداوة وطلباً للثأر؟!... إن الحصول منهم على فداء لا يناسب ما وقع منهم في جنب الله، إنهم مجرمو حرب بالاصطلاح الحديث.

إذاً في قتلها درس بليغ للطغاة؛ وقد رأينا كيف تخلى عقبة عن جبروته، ونادى من للصبية يا محمد أو يا رسول الله؟ فأجابه: النار^(٢).

1 - ابن هشام، السيرة (٢/٢١٢)، وذكر صحته د. أكرم العمرى، السيرة (٣٧٠).

2 - ابن هشام، السيرة (٢/٢١١)، ذكر د. مهدى رزق الله أنه يهودى الأصل نقلًا عن السهيلي الروض الأنف (٣/٥٣)، السيرة النبوية (٣٦١).

وصل رسول الله ﷺ المدينة هو وجنوده، منصورين مؤيدين مستبشرين بنعمة الله وفضله وعنايته، قد جمعت لهم الأسرى والغنائم.

استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً - رضوان الله عليهم - فيما يصنع بهؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنى أرى أن نأخذ منهم الفدية؛ فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً.

فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنتى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادهة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء.

فلما كان من الغد قال عمر رضي الله عنه: فغدوت إلى النبي ﷺ وأبى بكر وهما يبكيان! فقلت: يا رسول الله أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائك! فقال رسول الله ﷺ: للذى عرض على أصحابك من أخذ الفداء، قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة - وأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُتَخِرَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [٧] لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لِمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٨﴾ [الأنفال: ٩٧-٩٨].

ذكرنا الحديث بطوله لنفاسة هذه المعانى التى تبين روابط الإسلام، وعقائد الدين والرد على وات فى نظرتة فى هذا الموقف.

لقد اجتهد الصحابة فيما هو أجدى فائدة، وأولى عاقبة للإسلام والمسلمين في قضية الأسرى، خاصة وهم يرون المؤمنين في تلك البأساء من الجوع والعري، فإذا بالوحي ينزل ليصحح لهم الاجتهاد، ويبين الأصوب في هذا الأمر، ولكن مع التهديد الشديد في أن أول موقعة للمسلمين كان الواجب هو الإثخان في الأرض، أى إستئصال شأفة هؤلاء المجرمين، حتى يسير موكب الدعوة آمن مما هو فيه الآن، وأن يلقي الرهبة والفرع والرعب في قلوب غيرهم ليفكروا غير مرة قبل أن يهاجموا المسلمين أو أن يتعرضوا لهم.

إن الحياة كما تتقدم بالرجال الأخيار، فإنها تتأخر وتتعضن بالعناصر الخبيثة، وإذا كان من حق الشجرة لكى تنمو أن تُقْلَمَ، فمن حق الحياة لكى تصلح أن تنقى من العتاة والمجرمين ولن يقوم عوض أبداً عن هذا الحق ولو كان القناطير المنقطرة من الذهب.

لما سمع المؤمنون هذا الدرس ووعوه وتدبروه، أباح لهم من رحمته الانتفاع بما أخذوا من الفداء، فنزل قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

كان أخذ الفداء بالتالى حلالاً في أول نزوله، ثم جعل الخيار بعد ذلك لإمام المسلمين بين القتل أو الفداء أو المن عدا قتل الأطفال والنساء فلا يجوز قتلهم إذا لم يكونوا محاربين.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْنَتُمُوهُمُ فَشَدُّوا أَلْوِثَاقَ فَإِمَّا مَثًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].^(١)

وكان فداء الأسير ممن يملك المال هو أربعة آلاف درهم، ومع ذلك من رحمة الإسلام والمسلمين، التى تدل على أن المال لم يكن همهم كما علمهم القرآن الكريم فإنهم كانوا يأخذون من بعض الأسارى ما عندهم، وأطلق الرسول ﷺ من لم يقدر على الفداء.

1 - ابن كثير، التفسير (٤/١٧٣)، طبعة مكتبة التراث الإسلامى حلب، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

وكان في الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ فأرسلت قلادة لها كانت أهدتها لها أمها السيدة خديجة رضي الله عنها في زواجها لتفدى بها زوجها، فردوها لها، وأطلقوا لها أسيرها لمكانتها من أبيها سيدنا رسول الله ﷺ.

بل كان وارداً أن يطلق سراحهم جميعاً كما قال ﷺ: «لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى في هؤلاء التنن لأطلقتهم له»^(١)، وقد ذكرنا هذا الموقف من قبل حيث كان دور الحماية لرسول الله ﷺ عند رجوعه من الطائف، مع موقفه من نقض صحيفة الظلم والقطيعة.

وإن نظرة سطحية فقط على هذه التصرفات تبين الفارق الضخم الذى لم يحدث مثله من أحد في تاريخ الإسلام في قتاله للمسلمين، هذا الفارق الذى يدل على عظم الإسلام وكونه من الله تعالى، وعلى صورة المسلمين السمحة وعقيدتهم البهية المنيرة إزاء أعدائهم؛ إن غيرهم من كل الملل لم يتورعوا عن الإبادة الكاملة لكل صغير وكبير، ذكر وأنثى مع التدمير الشامل لكل ما تقع عليه أيديهم مما له علاقة بالإسلام أو بالمسلمين.

كم أريقت بحار الدماء الذكية على أيدي حاملي الصليب في حروبهم في بيت المقدس مما حدث من مأس وجرائم هي أعتى الجرائم التى وقعت على مدار التاريخ.

وبقى الجزء المنير الآخر في التعامل مع الأسرى، وهو الوصايا من الرسول ﷺ بهم خيراً^(٢)، خاصة أن من تبقى منهم لا فداء معه وكان يجيد الكتابة، كان فداؤهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة.

حكى أبو عزيز - شقيق مصعب بن عمير - ﷺ، وقد أسر في بدر مع المشركين - أنه

1 - البخارى (٢٠٢٤).

2 - الطبرانى في مسنده الصغير والكبير، وقال في مجمع الزوائد: إسناده حسن، د. مهدي رزق الله، السير النبوية (٣٦١).

وهو بين رهط من أسريه الأنصار- أنهم كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوه بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بالأسرى. حتى ما تقع في يد أحدهم خبزه إلا ناوله إياها فيستحي فيردها على أحدهم، فيردها عليه ما يمسيها.^(١)

تلك أخلاق النبوة والرسالة التي حملت الإسلام إلى الدنيا، فكان فيه سعادة الدنيا والآخرة.

الغنائم:

ونحن عندما نتكلم عن الأسرى فإن الموضوع الذى ارتبط بها شرعاً وحيأً وواقعاً هو موضوع الغنائم، الذى لم يكن لها حكم من قبل، ومن ثم كان عرضة لإختلاف وجهات النظر بين الصحابة الذين حضروا الواقعة، والحديث المروى من جانب كتاب السيرة الذى يبين الحادثة هو حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه إذ يقول: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرأً فالتقى الناس، فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم، يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، فنحن نفينا عنها العدو، وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: «لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، وإشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، فقسمها رسول الله ﷺ على بواء بين المسلمين أى- بالتساوى^(٢)، أخذ الله تعالى

1 - ابن اسحاق - ابن هشام، السيرة (٢/٢١٢-٢١٣)، وهو مرسل، وقد أسلم كثير من هؤلاء الأسرى بعد ذلك، وحسن أسلامهم وكانوا العضد والنصير المضحي بنفسه وماله في سبيل الله تعالى. انظر د. مهدي رزق الله، السيرة (٣٦١).

2 - عون المعبود (٢٣٦٠)، تحفة الأحوذى (٣٠٠٤).

الأطفال منهم وجعلها لرسوله ﷺ يفرقها بينهم كما نزل به القرآن الكريم، وكما أمر الله تعالى، وما كان منهم إلا أن قالوا سمعنا وأطعنا.

وكان تقسيم الغنائم بالصفراء مرجعهم إلى المدينة، وقسم رسول الله ﷺ لتسعة من المؤمنين تخلفوا عن الغزوة بما يعلم ﷺ أنه لولا عذرهم لحضروا وشاركوا، منهم عثمان بن عفان ؓ، كان يقوم على تمريض زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وتوفيت وهم راجعون من بدر فلم يتمكن من الحضور رضى الله عنهم أجمعين.

موقعة بدر، القيمة والنتائج:

أما قيمة غزوة بدر فقد استحق المقاتلون فيها لقب «بدرى»، فكانوا الطبقة الأولى من الصحابة حيث جاءت أحاديث الرسول ﷺ وسيرته وسيرة خلفائه من بعده لتبين فضلهم في الدنيا، وعلو مقامهم في الجنة، فأما ما ورد من سمو منزلتهم في الجنة ما رواه البخارى فى قصة حارثة بن سراقة الذى أصابه سهم طائش يوم بدر، وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبى ﷺ فقالت يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة منى، فإن يكن فى الجنة أصبر وأحسب وأن تكن الأخرى ترى ما أصنع. فقال ﷺ: «ويحك - أو هبلت - أو جنة واحدة هى؟ إنها جنان كثيرة، وإنه فى جنة الفردوس»^(١).

وتبين قصة حاطب جانباً آخر يضاف إلى الجانب المتقدم، وملخصه أن حاصب بن أبى بلتعة ؓ قد حضر بدرًا، وفى فتح مكة أرسل إلى قريش من يخبرهم خبر غزو الرسول ﷺ لهم ولكونه بدرياً عفا الرسول ﷺ عنه قائلاً لعمر عندما أراد قتله: «لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم»^(٢). ولما قال عبد

1 - البخارى (٣٩٨٢).

2 - مسلم (٤٥٥٠).

لحاطب: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار، قال رسول الله ﷺ: «كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدراناً والحديبية»^(١).

وأما العطاء المادى فى الدنيا فكانوا المقدمين فيه، فعندما سجل عمر ﷺ الجند فى الدواوين التى أسسها فى الدولة الإسلامية كانوا الطبقة الأولى التى تأخذ أعلى العطاء، وهى دواوين السنة والرجال توشى صفحاتها الأولى بأسمائهم ومناقبهم مكرمين بذلك على مر الدهور والأعصار^(٢) مرضيين برضا الله عنهم، ومزدادين رضا بترضى كل من يترضى عنهم إلى يوم القيامة رضى الله عنهم وعن الصحابة أجمعين.

وما ذكّرنا لهذه القيمة - نحن غير أهل لذلك - إلا لنين قليلاً مما قدموا بها وفقهم الله له، واختصهم الله تعالى به، ونسوق هنا شيئاً ليتدبر المؤمنون اليوم سيرتهم فيثوبوا إلى مجدهم وعزهم، ولينظر المستشرقون إلى تفسيراتهم للوقائع بما يخالف الحقيقة ويجافى الحق ويناقض العقل والمنطق.

وأول ذلك: هو رفعهم للعقيدة واستعلاؤهم بها^(٣)، فكانت الدافع لهم والمحرك فى كل ما يأتون ويذرون، فكانوا مستعلين بها فوق ما يدعى المستشرقون من مصالح مادية أو منافع دنيوية أو غيرها، وإنما رفع الإسلام بالنصر أو الشهادة، إذ كيف يعن أو يقع فى تفكير هؤلاء أن يحصلوا فى معركة غير متكافئة غير الهزيمة والقتل أو الإعطاء باليد.

الثانى: الوفاء بالبيعة مع الرسول ﷺ - بيعة العقبة - ولم يمنعهم شروط الوثيقة بأن نصر النبى ﷺ والقتال معه لمن دهم يثرب، بل قالوا لو خضت البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد.

1 - مسلم (٤٥٥١).

2 - انظر د. أكرم العمرى، السيرة (٣٧١).

3 - انظر د. أكرم العمرى، السيرة (٣٧٠).

الثالث: الطاعة التامة للرسول ﷺ، فهم جند مطيعون ومضحون مهما كان الثمن ليقينهم بصدق رسالته ﷺ وأن في طاعته العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة.

الرابع: إذا كان تقديمهم لعقيدتهم ودينهم على أنفسهم وأموالهم، فمن باب الأولى أن يظهر ذلك مع غيرهم من الأهل والولد فهام المهاجرون يواجهون أقاربهم في المعركة، الابن يواجه أباه، والأخ يواجه أخاه، وغيرهم من عصباتهم فلا تمنعهم أوامر القربى ووشائج النسب أن يقتلوهم لمصلحة الدين والعقيدة¹، وقد كان ذلك واضحاً جلياً كذلك في موقف عمر رضي الله عنه من الأسارى بعد المعركة.

الخامس: أنهم الطبقة الأولى التى تحملت قبل أى أحد عبء الصدمة الأولى في الإيمان والعبادة والسلوك والدعوة، والتضحية والبذل ثم الهجرة والجهاد، وضربوا في كل ذلك بأعلى سهم، وأروع مثل.

نتائج بدر:

عرفت غزوة بدر بتمجيد القرآن العظيم لها بأنها يوم الفرقان، لأنه فرق بها بين الحق والباطل، ولأنها كانت الفارقة بين عهدين من عهود الإسلام وتاريخه، وكان لها الأثر الكبير في إعلاء شأن الإسلام.

شده العرب وغيرهم قاطبةً لذلك النصر الحاسم الذى أكرم الله به المؤمنين في بدر، بل إن أهل مكة استنكروا الخبر أول ما جاءهم وحسبوه هذيان مجنون إذ أول من قدم بمكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعى، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة

1 - وفيه قصه والد أبى عبيدة بن الجراح حيث تعرض لابنه ليقتله، فيعيد عنه أبو عبيدة ثم قتله، وذكر ابن حجر في الإصابة (٢/٢٥٢-٢٥٣)، ذلك من روايه الطبرانى وجودها.

وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمّية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبية ومنبه ابنا الحجاج، وأبو البختری بن هشام، فلما جعل يعدد أشرف قريش قال صفوان ابن أمية وهو قاعد في الحجر، والله أن يَعْقَل هذا فاسألوه عنى فقالوا: ما فعل صفوان ابن أمية؟ قال: ها هو ذاك جالساً في الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا^(١).

فلما إستبان صدق الخبر صعق بعضهم حتى كاد يهلك، وماج بعضهم في بعض من هول المصاب لا يدرى ما يفعل.

وكذا استبعد مشركو المدينة ويهودها ما قرع أسماءهم من بشریات النصر، وذهب بعضهم إلى أنها أخبار من محض الاختلاق، ولم يصدقوا إلا عندما رأوا الأسرى مقرنين في الأصفاد وقد تعددت مسالك الجميع مختلفة في معالجة الموقف أو توفيق الأوضاع أو الإعلان بالعداوة والمجاهرة بما ينم عن الحقد والسخط.

فأما أهل مكة فقد منعوا البكاء والنياحة على قتلاهم لئلا يشمت بهم المسلمون، وأمروا بتأخير دفع الفداء لئلا يارب عليهم المؤمنون فيه^(٢)، ثم إنطوا على أنفسهم يداوون جروحهم، ويستعيدون قواهم، ويستعدون لنيل الثأر، ولم تزدهم الهزيمة إلا كرهاً للإسلام، ونقمة على رسول الله ﷺ وصحبه، ومزيداً من الاضطهاد لمن يدخل في دينه.

وبدأ الانتقام والثأر فأرسل صفوان بن أمية عمير بن وهب الجمحى وكان شيطاناً من شياطين قريش لاغتيال الرسول ﷺ بعد أن وعده صفوان بأن يعول أهله مع أهله وأن يتحمل دينه، وكانت حجة عمير في السفر إلى المدينة في هذه المهمة الخسيسة هو ولده الأسير ليحسنوا إليه، خلاصة ما حدث أن أمسك به عمر بن الخطاب ﷺ عند وصوله

1 - ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة (٢/٢١٣).

2 - ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة (٢/٢١٤).

لمسجد الرسول ﷺ حاملاً سيفه، وسأله الرسول ﷺ عن سبب مجيئه فتعلل بولده الأسير، فأخبره الرسول ﷺ بوحي السماء بما حدث بينه وبين صفوان بن أمية في الحجر، فأسلم لتوه إذ ما حضر ذلك ثالث، وطلب من الرسول ﷺ الرجوع إلى مكة للدعوة للإسلام بالشدة التي كان يهاجمه بها ويؤذى بها المسلمين.^(١)

فأما في المدينة حيث المسلمون كثرة مكينة ظاهرة، فقد إستعلى المؤمنون فيها على اليهود وبقايا المشركين، وأخذت العداوة للإسلام وأهله منحى الدس والنفاق والمخاتلة، فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً وقلوبهم تغلى حقداً وكفراً.

فأما المشركون فكان زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين حيث قال في رجوع النبي ﷺ والمسلمين منصورين غانمين من بدر: هذا أمر قد توجه - لا مطمع في إزالته - فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فأسلموا^(٢). ومن بين من عرفوا بالنفاق من مشركى المدينة غير ابن أبي! جلاس بن سويد وأخوة الحارث وأوس بن قيطى.

ومن بين من عرف بالنفاق من أحبار يهود المدينة: زيد بن اللصيت ورافع بن حريملة ورفاعة بن زيد بن التابوت. وقد أسلم من أسلم منهم وحسن إسلامه، ومات على النفاق من مات منهم^(٣)، على أن هذا الخداع الذى لاذ به هذا الفريق كان فى الوقت الذى عالن فيه الفريق الباقى من اليهود بسخطهم على الإسلام ورسوله ﷺ، ولم يعودوا يسيطرون على مشاعرهم وأقوالهم وأفعالهم بسبب غيظهم من النتيجة التى لم يكونوا يتوقعونها فاندفعوا نحو العدوان، وأظهروا ألمهم للهزيمة التى أصابت قريشاً، حتى إن كعب بن الأشرف من

1 - ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة (٢/٢٢٤-٢٢٥).

2 - وخبر نفاقه ومعادته للإسلام وإيذائه للرسول ﷺ، البخارى (٤٥٦٦)، وابن حجر فتح البارى (١).

3 - انظر مواقف بعضهم فى السيرة، لأبى بكر الجزائرى، هذا الحبيب محمد ﷺ (١٨٩-١٩٤)، د. مهدى رزق الله، السيرة (٣٦٢-٣٦٣).

زعماء يهود أرسل القصائد في رثاء زعماء المشركين وطالب بالتأثر لهم، وحاول اليهود في نفس الوقت التحقير من شأن هذا النصر وأن المسلمين لو لاقوا يهوداً لعلموا من المقاتلون حقاً. أكد كل ذلك نيات اليهود في نكث عهودهم مع رسول الله ﷺ والاستعداد لمجابهة المسلمين، مما مهد للأحداث العنيفة التي وقعت بعد ودفع فيها اليهود ثمن غدرهم ونقضهم للعهد غالباً أفراداً وجماعات حيث بدأ ذلك بإجلاء بنى قينقاع من المدينة لما ابتدأوا هم السير في هذا الطريق العفن، طريق المؤامرات والعدوان وتمزيق العهد^(١).

بقى موقف الأعراب الضارين حول المدينة، وهؤلاء قوم لا يهمهم شيء من قضايا الإيمان والكفر، إذ همهم الحصول على قوتهم ولو بالسلب والنهب وقطع الطريق، لقد أقض ذلك النصر مضجعهم فحشدوا جموعهم لانتهاز فرصة للإغارة على المدينة، وقد سبق لهم استياق نعم المدينة، نهض الرسول ﷺ سريعاً فشتت هذه الجموع، ولم يلق في سبيل ذلك متاعب ذات بال^(٢).

أتينا إلى نهاية ما إستطعنا تفصيله من غزوة بدر مما ورد في السيرة المشرفة، وكان ينبغي أن نلم بطرف من الحكم والأحكام في نهايتها، ولكن أثر الباحث أن يكون ذلك بعد عرض منهجه في السيرة من القرآن الكريم مع المقارنة والتحليل، ثم نسوق كلام المستشرقين ونخص منهم وات بالذات لنرد عليه.

1 - الغزالي، فقه السيرة (٢٣٩).

2 - الغزالي، فقه السيرة (٢٣٩).

المبحث الثالث

غزوة بدر في القرآن الكريم

جاءت سورة الأنفال لتحكى لنا سيرة غزوة بدر بما يليق بالقصص القرآنى فى سرد الأحداث، إذ يوضح المفيد اللازم لكل بشر من الحادثة، ويعلق عليها بما هو المقصود من القصص أهدافه وغاياته، ويشرح الحكم والمواظ والعبر، ويذكر الاوامر والنواهى للامثال للشرع وفى الغالب يزيد عما حدث شرحاً وتفصيلاً يكون زاداً وتحذيراً وتنبهاً أو وصايا لما هو آت، حتى استكمل القرآن الكريم بهذا النهج المصور لسيرة النبى ﷺ وأصحابه، ما كان وما يكون، مع مراعاة أحوال الامم السالفة فى ذكر ذلك القصص لتلمس مواضع العبر تخويفاً واتقاء، مصوغاً كل ذلك فى أعلى درجات البلاغة واللغة، التى تشى بأن الصياغة بهذه الطريقة السامقة إنما هى أيضاً من مطلوبات القرآن الكريم فى عرض السيرة لأغراض لا شك سامية مما يستدعى مراعاة ذلك الدرس البلاغى وغيره فى فهم صياغة السيرة وسردها، وأنه ما كان كذلك إلا لسمو هدفه فى إيصال وفهم وتعلم السيرة القرآنية بهذه التراكيب، والصياغات والاساليب، وأفانين الكلام. لذلك كان التعرّيج على هذا الدرس من مهمات هذا البحث إظهاراً (لما يمكن من جوانبه) كافة تعميقاً لفهم القرآن ومعرفة جماله وجلاله الباعث على محبته والقيام بحقه والرد على أعدائه، لم يكن عرض السيرة بليغاً بهذه الجماليات لكون ذلك أسلوب القرآن الكريم المعتاد، بل كان لكل مقام مقال.

ولا ننس أن ننوه بوظيفة المؤرخ كما ذكر وات، حيث لا تنحصر في السرد بقدر فهم البواعث والأهداف من وراء ما يقع من أحداث، ذلك ما بلغ القرآن الكريم فيه درجة غير مسبوقه تتوافق وأهداف الإسلام ووسائله، ومعرفة النفس الانسانية ودوافعها وتبين ما يعتمل فيها وما تقصد إليه تصويراً لذلك وتصحيحاً وتقويماً للمطلوب فيه.

ونأتى لسورة الأنفال لنحلل منها ما نستطيع من السيرة مع المقارنة والنظر في جمالياتها.

إن أول ما يصادفنا أن سورة الأنفال تحدثت عن غزوة بدر من آخرها، فلم تسرد الأحداث بما بدأت به في واقع الأمر، فبدأت بالحديث عن الغنائم والأنفال، وهو في نهاية الموقعة، وواضح أنها خصت الغنائم بالذات من بين الأحداث الأخيرة في الواقعة ويبدو أن ذلك كان موضوع الساعة إذن بل وكل ساعة، فيه تتحدد وجهة الغزو، وأهداف الجهاد وما ينبغي أن يكون نصب عين المجاهدين والمؤمنين من مقصود ذلك ووسائله النفسية والمادية في الدنيا والآخرة كما سنوضح شيئاً من ذلك.

أخذ الحديث وجهات عدة نشير إليها تبيين ما سبق:

الأول: في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١]، ومعناه أن هناك نصراً قد تحقق، وحصل بسببه غنائم اختلف الصحابة في توزيعها، وسألوا الرسول ﷺ فيها لعدم علمهم بما ينبغي أن يقسموها به، وأنهم حاوروا الرسول ﷺ تصريحاً، ومنهم من يجادل غيره بما يدل على طلب الفهم في هذا الشأن، والتعبير بالمضارع ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، دل على تكرار السؤال المرة بعد الأخرى من سائلين متعددين، وإما بكثرة السائلين في الموقف الواحد، وجاء السؤال معدى بـ ﴿عَنِ﴾، ليدل على طلب المعرفة، وهذا يدلنا على تأكيد ما حدث في السيرة النبوية، ثم جاء القرآن الكريم بعد ذلك التنازع الذي ذكرته السيرة ليوضح المقصود والمطلوب

والغايات والبواعث إلى آخر ما ذكرنا آنفاً فجاء القاطع القرآني بقوله: ﴿قُلِ الْآنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، أى الله تعالى ملكاً واختصاصاً على جعل اللام هنا للملك أو للاختصاص، فهى ملكه ويختص بالقضاء فيها هو جل وعلا فيحكم بما يشاء ويصرفها كيف يشاء، ومعرفة ذلك والقيام به لرسوله ﷺ المبلغ عنه فهى لرسوله ﷺ من هذه الوجهة.

ومما ذكرته السيرة ووضحته جملة: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، الايدان بأن ثم تنازعاً قد حدث بين ناس من الجيش فى استحقاق الغنائم، وقد كانت لهم عوائد فى الجاهلية متبعة فى الغنائم والأنفال أرادوا العمل بها وتخالفوا فى شأنها والذين سألوا كانوا معروفين، لأن ضمير جمع الغائب فى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، معلوم عند النبى ﷺ وعند السامعين ساعة عند نزول الآية.

الثانى: المنحى الثانى الذى بيته الآيات لتوضح به ما يجب أن تكون عليه سيرة المؤمنين فى هذا الموقف خاصة، وكل المواقف بعد ذلك هو تقوى الله سبحانه وتعالى، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله ﷺ، وختم هذا المنحى بصيغة الإلهاب لنفوسهم على الامتثال، وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وذلك ليس تشكيكاً فى إيمانهم، بل لأنهم مؤمنون خاطبهم بذلك، لأنه لا يؤمر بذلك غير المؤمنين.^(١)

وهذا معناه أن المؤمنين همهم الأول هو تقوى الله وأولها فى هذا الموقف صلاح ذات البين، وطاعة الرسول ﷺ، ليس همهم الغنائم وقسمتها، ومن يجوزها أو يحرمها، وهى التربية القرآنية الأولى للمؤمنين بأن تكون وجهتهم تقوى الله وطاعة رسوله والاستسلام لأوامره والاجتناب لنواهيه، مع قولهم سمعنا وأطعنا وهو الشق الأول الذى يقوم به الإسلام والشق الثانى هو تألف القلوب وصلاح ذات البين والاجتماع والاتفاق على كلمة لا شقاق فيها ولا تصدع لها، بأن يكونوا يداً واحدة على من سواهم، متكافلين متوادين

1 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٥٢-٢٥٤).

متراحين كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ليسوا من مغريات الدنيا في شيء، وإن كانت الغنائم عندهم من مظاهر طلب الآخرة حيث يشير إلى هذا الرأي الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - فيقول: «ولقد يدهش الانسان حين يرى أهل بدر يتكلمون في الغنائم، وهم إما من المهاجرين السابقين الذين تركوا وراءهم كل شيء، وهاجروا إلى الله بعقيدتهم، لا يلوون على شيء من أعراض هذه الحياة الدنيا، وإما من الأنصار الذين آووا المهاجرين، وشاركوهم ديارهم وأموالهم، لا يبخلون بشيء من أعراض هذه الحياة الدنيا أو كما قال فيهم ربهم: ﴿مُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، ولكننا نجد بعض التفسير لهذه الظاهرة في الروايات نفسها. لقد كانت الأنفال مرتبطة في الوقت ذاته بحسن البلاء في المعركة، وكانت بذلك شهادة على حسن البلاء، وكان الناس يومئذ حريصين على هذه الشهادة من الرسول ﷺ ومن الله سبحانه وتعالى في أول وقعة يشفى فيها صدورهم من المشركين، ولقد غطى هذا الحرص وغلب على أمر آخر نسيه المتكلمون في الأنفال، حتى ذكرهم الله به، وردهم إليه، ذلك هو ضرورة السباحة فيما بينهم في التعامل، والصلاح بين قلوبهم في المشاعر.»^(١)

إذن لم يكن من سبب كائناً ما كان ليغضى أو يمنع على الركن الركين من قيام الإسلام، وهو الأخوة الإيمانية التي علمها لهم القرآن الكريم تعليماً واقعياً بنزع الأنفال منهم إلى الله ورسوله ﷺ، وهتف بهم بهاتف التقوى ليكون لهما ما شملهم مصلحاً لجمعهم وذات بينهم، ليبقى سبب النصر هو القائم الباقي، سبب الفوز في الأولى والآخرة لأنه بغيره كما ذكرت السورة بعد سيكون إخفاقهم، ويعودون بالانكسار والهزيمة قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ومن ثم جاء الأمر بالتقوى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: ١]، مفرعاً على جملة: ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، لأن في تلك الجملة رفعا للنزاع بينهم في استحقاق الأنفال وإن

1 - سيد قطب، في ظلال القرآن (٣/١٤٧٣).

كل ذلك موكل إلى الله سبحانه وتعالى وذكرهم حينئذ بأنه قد وجب الرضا بما يقسمه الرسول ﷺ. وقدم الأمر بالتقوى لأنها جامع الطاعات.

وعطف الأمر بالاصلاح لما حدث من اختلاف، أما الأمر بالطاعة هنا، فهي كما في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، أى الأمر بالطاعة التامة التي يقتضيها الإيمان الذي يحثهم على ذلك ويظهر الانقياد حقيقة وقوة هذا الإيمان: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

الثالث: إن المنحى الثالث الذى أكدته الآيات منحى صفات المؤمنين حقاً لتبين لهم سيرتهم الصحيحة، فيزدادوا منها أو يثبتوا عليها، ومن تأخر عن تمامها شيئاً ما كانت مجاهدته لنفسه على اللحاق بها والتمثل بتفاصيلها فبعد أن عاش المؤمنون هذه الأحداث، لا شك أسرعوا في إصلاح ذات بينهم، وتصافت أرواحهم، وتسامحت نفوسهم وعادوا لا يجرهم، ولا ينبغي إلا تقوى الله وطاعة رسوله ﷺ وتآلف صفهم وترابط جمعهم، وعلموا الهدف الذى يجب أن يسعوا إليه هو ما وصاهم به وتنزلت بسببه تلك السورة لزوم التحقق بأعلى وأهم صفات المؤمنين، لأن كل أعمالهم من جهاد فما دونه إنما هو وسيلة لأن يكونوا مؤمنين حق الإيمان، باذلين أرواحهم ليكون غيرهم لاحقاً بهم، حتى تصبح الأرض كلها الأرض الطيبة الصالحة بإيمان أهلها، التي في نفس الوقت تكون متعبدة بأحسن التبعيد موحدة أعلى التوحيد لله رب العالمين، الذى اكرمهم بذلك كله وشرفهم به، واصطفاهم لحمله من دون العالمين.

جاءت الجمل القرآنية الكريمة متتابعة تبين صفات المؤمنين، وكأنها تقول ليس المؤمنون الذى يسمعون كلام الله ولا يراعون ولا يستجيبون له، ولا يسارعون إلى مرضاته بل هم أعلى وأجل إذ يسمعون كلام الله فترتعش قلوبهم ويظهر ذلك في انهمال عيونهم،

وقشعريرة أبدانهم، يرتجفون لذكره فيمثثلون أمره ويحبتون نبيه، ويتعجلون إلى مرضاته، وليس هم الذين يسألون ويتكلمون في الأنفال، بل هم المنفقون في السراء والضراء، لا ينتظرون أخذاً إنما يسارعون إعطاء، الذين يخرجون من الاعمال الصالحة وقد ازدادوا إيماناً فربط على قلوبهم، وأخذهم هذا الإيـان الزائد إلى مواقع الحق والصواب؛ لا يخرجون من الاعمال الصالحة إلى الدنيا وقد خف إيمانهم فيتنازعون عليها. وهم في كل ذلك متوكلون على الله، محافظون على صلواتهم راكنون إلى ربهم، ينظرون جزاءهم وحسن عاقبتهم فيسارعون إلى ذلك الخير الدائم، وهم مع ذلك ملازمون لطلب المغفرة في كل حين لأنهم لن يوفوا حق نعمة من نعم الله عليهم أو يقوموا بكل ما جاءهم به ﷺ وإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو قدوتهم السائر بهم إلى ربهم المرشد لهم إلى أسباب سعادتهم في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمُ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

هؤلاء هم المؤمنون حقاً أى هؤلاء لا غيرهم هم المؤمنون حق الإيـان، وهذه الجملة وما عطف عليها إما أن تكون مستأنفة وإما تعليلية فإن كانت مستأنفة فهي مستأنفة استئنافاً بيانياً مسوقة لمن أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة جواباً، لسائل يثيره هذا الاشرط في قوله: ﴿ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١]. بعدما تحقق أنهم مؤمنون من قبل فيقول من هم هؤلاء المؤمنون فيجاب بأن المؤمنين هم الذين صفتهم كيت وكيت، فيعلم أن الإيـان الذى جعل شرطاً في الامتثال هو الإيـان الكامل فتنبعث نفوسهم إلى الاتسام به والتباعد عن موانع زيادته.

وإما أن تكون: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، وما عطف عليها واقعة موقع التعليل لوجوب الأوامر الثلاثة المتقدمة وهي تقوى الله واصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله، لأن ما تضمنته هذه الجمل التي بعد ﴿ إِنَّمَا ﴾، من شأنه أن يحمل المتصفين به على الامتثال لما سبق في الجمل.

وإذ قدر كان الاحتمالان غير متنافيين صح تحميل الآية عليها توفيراً لمعاني الكلام المعجز فإن علة الشيء مما يسأل عنه، وإن بيان العلة مما يصح أن يكون استثناءً بيانياً.^(١)

ونسوق توضيحاً مختصراً لتلك الصفات، يليق بالباحث التاريخي للأحداث وهو شغل المؤرخ، لا لتفسير القرآن الكريم، ليكون المرء على ذكر منه لأنه سوف تتكرر معنا هذه المعاني والأوصاف في كل السباقات القرآنية للسيرة النبوية، مع زيادات في كل مرة تُستكمل بها جوانب الشخصية المسلمة، وفي نفس الوقت تظهر لنا الآثار السيئة في بعض أخبار السيرة لعدم تمسك المسلمين على المستوى الفردى أو الجماعى بتلك الخصائص والصفات، كما جاء في غزوة أحد في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفْنَاكُمْ عَنْهُمْ لِيَنْتَلِيَكُمْ ۗ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، إذ هي من الصفات التي وصى بها وحذر من المآل السيء لمخالفتها مبكراً بعد غزوة بدر، وفي نفس السياق يتضح لنا الرد على (وات) والمستشرقين من قبله فيما يتعلق بمنهجهم التاريخي في عرض السيرة.

نعود إلى شرح معاني تلك الصفات وعلاقتها بالأحداث..

الوصف الأول: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢]،

1 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/ ٢٥٥).

والمعنى ليس المؤمنون الكامل إيمانهم إلا أصحاب هذه الصفة التي يعرف المتصف بها تحققها فيه من عدمه من عَرَض نفسه على حقيقتها، فأحيلوا في معرفة أمارات تخلقهم بالإيمان على تلك الصفات التي يأنسونها من أنفسهم والذكر يطلق حقيقة على التلفظ باللسان فإذا علق بالذات كذكر الله أريد ذكر اسمه، أو شأن من شؤونه مثل أمره ونهيه فيجل القلب أى يخاف مع الفزع لاستعظام الموجود منه، وأسند ذلك إلى القلب في كلام العرب لأن القلب يكثر إطلاقه على إحساس الإنسان وقرارة إدراكه، وقد أجملت الآية ذكر الله إجمالاً بديعاً يناسب معنى الوجل، ليكون ذكر الله إذا جاء باسمه أو بذكر عقابه أو عظمته أو ثوابه ورحمته كل ذلك وغيره يورث القلب لكُمّل المؤمنين الوجل؛ لأنه يحصل مع هذا الذكر استحضار جلال الله وشدة بأسه وسعة ثوابه، لنعلم الباعث التاريخي الذى اخترعه المستشرقون وات لتلك الأحداث، وهو أنه إذا تذكر ذلك ينبعث عن هذا الاستحضار توقع حلول بأسه، وتوقع انقطاع بعض ثوابه ورحمته، فهو وجل هو الباعث للمؤمن على الاستكثار من الخير، وتوقى ما لا يُرضى الله تعالى، وملاحظة الوقوف عند حدود الله في أمره نهيه، وحال آخر يحصل للمؤمن يبين وجهته وإخلاصه وتربيته الحققة على مائدة القرآن الكريم، على يد الرسول ﷺ وهو الأمل والطمع في ثواب الله، وقد طوى ذكره هنا لاستلزام الوجل إياه؛ لأنه من الوجل أن يخشى وَيَجِل من فوات الثواب أو نقصانه.

ثم جاءت الصفة الثانية..

﴿وَإِذَا تَلَّيْتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

ولا شك أن ارتباط هذه الصفة بما قبلها ارتباط وثيق، في غاية السلاسة، فإذا كان ذكره سبحانه تجل القلوب به، وهو أنواع كما ذكرنا في دفعها إلى تلك الأحوال الحسنة فإن أعظم ذكره تلاوة آياته وسماها الذى يحوى ذلك كل أسباب الوجل فيكون تأثيره أعم وأقوى

فيبادر المرء إلى التحقق عند سماع آياته بكل معاني الوجع، التي تزيد بلا مرء إيمانه، وتقوى يقينه، وتعلو حيثئذ درجته، وكأن الآية من ناحية داعية إلى الأخذ بأسباب زيادة الإيمان وقوته الذي هو مصدر كل خير، وأن أى أسباب تدعو إلى خلاف ذلك مما يضعف به الإيمان ويقل ويجب الحذر منه وتركه، وقصة الأنفال وغزوة بدر وبقية الأحداث أول ذلك، والدليل عليه، ومن ناحية أخرى يكون ذلك توجيهاً جديداً للمؤمنين، يوضح لهم صفات الكمل من المؤمنين ليصير ذلك ثابتاً لا تزحزح له، زائداً فيما يستقبلون به دعوتهم، وزاداً يتقوون به في سيرتهم.

أما كيفية تأثير التلاوة في زيادة الإيمان، فأن دقائق الإعجاز التي تحتوى عليها آيات القرآن تزيد كل آية تنتزل منها أو تتكرر على الاسماع سامعها يقيناً بأنها من عند الله، فتزيده استدلالاً يُقوى الإيمان حتى يقرب من مرتبة الضرورة، ويحصل مع تلك الزيادة زيادة في الإقبال عليها بشرائش القلوب، ثم في العمل بما تتضمنه من أمر أو نهى، حتى يحصل كمال التقوى، فلا جرم كان لكل آية تتلى على المؤمنين زياد في عوارض الإيمان من قوة اليقين، وتكثير الأعمال.^(١)

أما ما يتعلق بالمقام من الكلام على الأنفال وعلاقته بتلك الزيادة، وحظه منها، فهو أن سماع الآيات النازلة في هذا الشأن تزيد إيمان المؤمنين بنبد الشقاق والاختلاف بما ارتفع من إيمانهم بتلك الآيات، ورفع التشاجر الطارىء بسبب الأموال فإن صفات المؤمنين وتحققها والمسارة إلى تلاوة الآيات والعمل بها، وأن زيادة الإيمان وأهميته هو مطلوبهم الاسمى الذي بسببه يعرضون عن غيره ويلقونه وراء ظهورهم، ويستقبلون جميعاً أمراً آخر هو

١ - لزيادة الإيمان معان أخرى اقتصرنا على المناسب والمطلوب من السياق، وانظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢٥٦/٩-٢٥٩)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٤١-٣٤٢)، والالوسى، روح المعانى (٦/٢٤٠-٢٤٢)، وغير ذلك.

الأهم والأولى عندهم، وبذلك تتضح المناسبة بين ذكر الأنفال، وتعقيبه بالتقوى واصلاح ذات البين والطاعة، وتعليل ذلك بأن شأن المؤمنين هو إقبالهم على زيادة إيمانهم عند تلاوة آيات الله تعالى، وتلك هي التربية القرآنية التي أخذهم بها، وعلمهم فيها الأهم والمهم، والذي لا قيمة له، وأسباب النصر وضرائب التمكين، فما انتصروا بعد ذلك إلا بما تحقق فيهم من هذه الصفات.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وإن من أهم مقامات الدين التوكل على الله..

وهي صفة ثالثة لـ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾، أو حال منه، وجعلت فعلاً مضارعاً للدلالة على تجدد وتكرر ذلك منهم، في كل حين لا يفارقهم التوكل على الله حال دعوتهم وانفالمهم وجهادهم وسائر شؤونهم؛ لأن كفايتهم بالله لا بالدنيا وأموالهم، وركونهم وتعلقهم بالله وما عنده لا بالزائل الفانى ولذلك فهو حسبهم كما قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

ومناسبة التوكل بالذات للغرض، وهو ذكر الأنفال أن المؤمنين كما تعلموا أن يكون مقصدهم رضا ربهم وطاعته لا شيء غيره من أمور الدنيا وحفظ النفس، فهم هنا ليتعلموا وليتربوا على أن التوكل على الله على لا الأنفال والغنائم وغيرها وهو المطلوب، وأن الاعتماد على شيء من ذلك ينافي هذا التوكل فلا يعتمد المرء على ماله ولا قوته ولا حسبه ولا نسبه ولا عقله، ولا جاهه وسلطانه، ولا على خلق يقومون بشيء له من ذلك: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

ومن ثم كان تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، للاهتمام باسم الله تعالى وذكر الربوبية المضاف إلى ضميرهم لاظهار شرف ذلك، المحب لعباده عليه يكون تمام التوكل وفي الآية تعريض بالمشركين الذين يتوكلون على أصنامهم: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن

دُونَ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عَزًّا ﴿٨١﴾ [مريم: ٨١]، ومن ثم كانت مدحاً للمؤمنين وتحذيراً لهم أن يبقى شيء في قلوبهم من آثار التعلق بما نهوا عنه، لتوهم البعض أنهم إذا فوتوه فقد أضاعوا خيراً من الدنيا.

ومناسبة التوكل مع قضية الأنفال أنهم أمروا بالتخلي عن الأنفال، والرضا بقسمة رسول الله ﷺ فمن كان حرم، فلا يجزئه ولا يفت في عضده، وليستصغر ذلك أمام توكله على الله، والذي سيعوضه أفضل منه وأعظم.^(١)

إن الصور التي جاءت بها السير بعد ذلك للصحابة ومن تبعهم بإحسان لتؤكد أشد التأكيد على هذا الوصف، وتحققهم به، حيث كانوا يواجهون أعداءهم بقلّة العدد والعدة والزاد والخروج إلى عدوهم وما كانوا يكتثون أو يتراجعون رائداهم في ذلك التوكل على الله تعالى، ولا أظن أن التاريخ سجل لهم موقعة صغيرة أو كبيرة كانوا فيها أكثر عدداً أو أوفر عدة وزاداً. من مواجيتهم.

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣].

وصفهم هنا بالمحافظة على ركني الإيمان الأهمين الصلاة والزكاة، وهو مدح منفصل عن السابق؛ لأن إعادة الموصول هنا للدلالة على الانتقال في وصفهم إلى غرض آخر غير الذي جيء بالموصول الأول لأجله^(٢)، وكأن إقامة الصلاة والإنفاق مما يمدح به كل أحد، وهو لهؤلاء مما يزدادون به مدحاً عن غيرهم لتقدمهم في صفات الإيمان وعلوها.

جمعت هذه المادح والأوصاف الحسنة مكارم الاعمال القلبية الباطنة من الخشية

1- انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢٥٩/٩).

2- انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢٦٠/٩).

والإخلاص والتوكل، ومحاسن الأعمال القلبية الظاهرة من الصلاة والصدقة^(١)، فلا جرم كانوا أحرىء بأن يكونوا هم المؤمنین حقاً. كما ختمت الآيات بذلك، لتشتد في التأكيد على صفات المؤمنین؛ التي ينبغي ألا يفراطوا فيها ظاهراً أو باطناً، سرّاً وعلانية، ببيان ثوابهم عند الله: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

لا شك كان ذلك كله العون والمدد على تحقيق أهداف الرسالة، وإعادة صياغة هؤلاء المؤمنین، وتنبهها على ما يجب أن يكون، وتحذيراً من مخالفته فيما سيكون، ثم بدأ القرآن الكريم بعد هذا النمهد الضخم، في قص سيرة بدر، موزعاً في تضاعيفها ذلك التمهد الضخم بما يتناسب مع كل مشهد منها في سياقات بصياغات جديدة غير متكررة من الفهم والشحن والاصلاح والاعداد، ونبدأ في أول المشاهد التي قصها القرآن وهي قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٦٠﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: ٥-٦].

وبالتأمل في هذه الآيات نرى إجمالاً هذه الامور:

١ - أن الله سبحانه هو الذي أخرج النبي ﷺ من بيته من المدينة، أو من المدينة محاطاً متلبساً بالحق في هذا الخروج، فلم يكن ليأمر ربه ليخرج بغير حق، لنعلم أن العير أو النفير التي أخرج النبي ﷺ لملاقاتها كان محققاً تمام الحق في ذلك ولو كره المستشرقون الذين ذكروا باطلهم بأن خروجه لقطع الطرق وغيرها من قبيح الأوصاف المخالفة للواقع.

٢ - أن فريقاً من المؤمنین كرهوا الخروج لملاقة جيش قريش (النفير)، لنفرة الطباع عن القتال أو لعدم الاستعداد لملاقة الكفار، وهذا عن الصحابة بعد البذل

١ - انظر أبا السعود، ارشاد العقل السليم (٢/٣٤٢)، والالوسي، روح المعاني (٦/٢٤٢)، وغيرها.

والتضحية منهم يدل على أنه ليس داخلاً تحت الاختيار؛ فلا يتتقص من منصبهم وقدرهم، لأنهم هم الذين واصلوا إلى النهاية حتى نصرهم الله تعالى.

٣- ذكرت الآيات كذلك جداً من هؤلاء الكارهين للقتال والذي سماه المولى سبحانه وتعالى: ﴿الْحَقَّ﴾، فمتى علموا أنه الحق أى الخروج لملاقاة النفير؟ لا شك قد بين لهم الرسول ﷺ بأن الحق فى ملاقاتهم للنفير وبأنهم سينصرون.

٤- ما زالت النوازع الانسانية فى مثل هذا الحال الذى لا يظن، بل لا يتخيل معه النصر لأنهم لم يتخذوا أسبابه تهتف بهم أن ذلك ليس إلا سوقاً إلى الموت.

ونحلل ما ذكرنا من الآيات الكرييات، فنجد..

أن الكاف فى قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾، للتشبيه وهو تشبيه حال بحال متصل بما قبله، وهو بتقدير مبتدأ محذوف هو اسم إشارة لما قبله تقديره: هذا حال بحال ما أخرجك ربك من بيتك بالحق، ووجه الشبه هو كراهية المؤمنين فى بادئ الأمر لما هو خير لهم فى الواقع^(١)، سواء الأنفال أو ملاقاة النفير.

والمعنى أن الله أمره بالخروج إلى المشركين ببدر أمراً موافقاً للمصلحة فى حال كراهة فريق من المؤمنين ذلك الخروج.

وقد أشار هذا الكلام إلى خروج النبى ﷺ موضعاً السبب، وهو أن أبا سفيان بن حرب قد عاد من الشام بعير قريش وفيها أموال عظيمة ندب النبى ﷺ المسلمين إلى الخروج إليها، لعل الله أن ينفلها إياهم تعويضاً بشيء مما سلبه المشركون من أموال المسلمين

١ - وهناك غير ذلك من الأوجه، حيث ذكرنا أولاً انظر الفخر الرازى، التفسير الكبير (٧/٤٤٥)، أبا السعود، ارشاد العقل السليم (٢/٣٤٣)، الالوسى، روح المعانى (٦/٢٤٥-٢٤٦)، والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٦٣-٢٦٤).

ودورهم وأراضيهم، وإعاقه وحصاراً للمشركين عن الاستمرار في اعتداءاتهم على المسلمين ومع أن أبا سفيان قد سلك الساحل ونجا فإن جيش الكفار بقيادة أبي جهل أبي إلا الاستمرار في المسير لملاقاة رسول الله ﷺ بعنجهية وغطرسة ذكرتها السيرة، وما كان رسول الله ﷺ ليتراجع حينئذ أمام جيش الكفار، إن ذلك وحده هزيمة وإعلاء لراية الكفر وفيه ما فيه من تجرؤ كل أحد على المسلمين، إذ كانت القبائل تنتظر ما هي قريش فاعلة مع النبي ﷺ، كان متساوقاً مع السياق أن يكون الخروج إليهم هو الحق كما ذكر الله تعالى، خاصة إذا وعدهم النصر، لذلك كان التعجب من موقف الكراهة هذا لأن تأكيد خبر كراهية فريق من المؤمنين بإن ولام الابتدء مستعمل في التعجب من شأنهم بتنزيل السامع غير المنكر لوقوع الخبر منزلة المنكر؛ لأن وقوع ذلك مما شأنه ألا يقع، إذ كان الشأن اتباع ما يحبه الرسول ﷺ، أو التفويض إليه، وما كان ينبغي لهم أن يكرهوا لقاء العدو، فكان تأكيد الخبر كناية من التعجب بخبرهم^(١)، وهذا أحد الدروس المستفادة التي ألقاها القرآن الكريم على أسمع المؤمنين، كيف يقابلون أوامر الرسول وما يحبه وما يشير به مما نزل به قرآن، أو لم ينزل اكتفاء برأيه ﷺ المؤيد من عند الله تعالى، ليسارعوا إليه ويعجلوا إلى تنفيذه، وسنذكر الإشارة القرآنية بعد قليل في ذلك إن شاء الله تعالى.

أما قوله: ﴿تُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ [الأنفال: ٦]، إما جملة مستأنفة، أو هي حال ثانية أي: أخرجك في حال مجادلتهم إياك، أو هي حال من الضمير في قوله: ﴿لَكَرِهُونَ﴾، وصيغة المضارع لحكاية الحال كما لو كان حاضراً لزيادة التعجب منها كما في قوله تعالى: ﴿تُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، ولم يقل جادلنا خرجوا إذن والطريق طويل والجدال متجدد متكرر يعجب منه السامع، خاصة بعدما تبين لهم الحق كما ذكرنا باعلام النبي أنهم ينصرون، وهم ما زالوا يقولون هلا ذكرت لنا النفير والقتال حتى نتأهب ونستعد لذا جاء قوله تعالى: ﴿بَعْدَ

1 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٦٦-٢٦٧).

مَا تَبَيَّنَ ﴿ [الأَنْفَال: ٦]، كأنه لوم لهم على المجادلة في هذا الخروج للنفير وترك العير والمتفحص يجد سبب اللوم أن الرسول ﷺ قد أخبرهم بوعد الله لهم بالعير أو بالنصر على النفير فها قد مضت العير وأفلتت وجاء النفير، فهذا الحق بين بذاته إذا سواء شعر به كلهم أو بعضهم بأنهم منتصرون لا محالة؛ بحيث لا ينبغي الاختلاف فيه، فقد كانوا عرباً أذكياً، وكانوا مؤمنين أصفياء، ورأوا كراهة النبي ﷺ لما اختاروا العير، فكان ذلك كافياً في اليقين بأنهم إذا لقوا المشركين ينتصرون عليهم بلا أدنى ريب.

ولم يترك القرآن الكريم تصوير حالهم، وهم سائرون إلى القتال بغير أهبة يظنونه الموت الذى تتخيله النفوس ببشاعة وكره فتكرهه فشبّه حالهم فى قوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ [الأَنْفَال: ٦]، بحال من يجادل ويمنع من يسوقه إلى الموت: ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأَنْفَال: ٦]، أى إلى الموت المساقين إليه، لأن حالة الخوف من الشيء المسوق إليه تكون أشد عندما يكون منظوراً فما الظن بالموت.^(١)

ويأتى الآن مكان الإشارة التى أرجأناها، وهى فى قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأَنْفَال: ٢٤]، فبعد أن انتهت المعركة، وتبين لهم الحق على أرض الواقع وانتصروا، جاء خطاب الله لهم بأنه ما دعاهم للموت حين دعاهم للخروج بل دعاهم للعكس دعاهم لما فيه حياتهم فى الأولى والآخرة، إذ من طبيعة الاستجابة لله تعالى، ولرسوله ﷺ وعاقبتها الحياة الحسنى، وإن استشهدوا فيها فقد حصلوا إحدى الحسنين أو أجلها وأعظمها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وليكن شعارهم بعد أن رأوا النتيجة رأى العين هو الحياة فى الاستجابة لله ولرسوله ﷺ إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة الحقة، وبكل معانى الحياة

١ - انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٤٤)، اللوسى، روح المعانى (٦/٢٤٨)، الطاهر بن عاشور (٩/٢٥٧) -

الحقّة لأنّها من الله ورسوله ﷺ.

ما زال القرآن الكريم يقص علينا مشهد الخروج إلى غزوة بدر، لنرى أمر الله تعالى وشأنه وتدبيره هو المحيط بالمؤمنين وبكل شيء من أوله إلى يوم يلقونه، وليروا ترتيب الله تعالى وإرادته الذي لا ترتيب مثله، ولا راد لإرادته، وأنهم مهما حاولوا أن يمهّدوا ويوطدوا ويرتبوا لأنفسهم ما فعل من ترتيبه مثقال ذرة، ولو اطلعوا على الغيب لما اختاروا غيره، وقد نطق واقع النصر بخلاف ما ذهبوا إليه وتشوفوا له ورنّت إليه قلوبهم وأبصارهم، جاءت الآيات التاليتان ليؤكدوا ويوضحا السابق، ثم يتحدد هدف المعركة الذي قصد إليه الشارع الحكيم فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: ٧-٨].

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٧]، وهذا كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله بالمؤمنين مع ما بهم مما ذكر عن بعضهم، يبين أنه وعدهم إحدى الجماعتين من المشركين العير أو النفير، و﴿وَإِذْ﴾، منصوب على المفعولية بمضمر إن كان متصرفاً أو ظرفاً لمفعول ذلك الفعل يعنى واذكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتين والتذكير بهذا الوقت تذكير بما وقع فيه من الحوادث بتفاصيلها وذكر بالمضارع ليكون حاضراً مفصلاً كأنه مشاهد عياناً^(١)، نذكرهم فيه بعدم ظنهم النصر، وأنهم كذا وكذا مما ذكرنا فكيف بكم الآن من بديع أحكام الله تعالى وتقديره.

وقد وعدكم أن إحدى الطائفتين كائنة لكم مختصة بكم تتصرفون فيها كيف شئتم،

١ - هذا ما ذهب إليه معظم كالزخشري، الكشاف(١)، والفخر الرازي، التفسير الكبير(٧/٤٤٨)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم(٢/٣٤٤)، والالوسي(٦/٢٤٨)، وذهب الطاهر بن عاشور مذهباً آخر(٩/٢٦٩)، وإلى ما ذهب إليه المعظم حيث موافقة اللغة، وهناك مذاهب أخرى، انظر بن عاشور أيضاً(٩/٢٦٩).

وتحبون أن تكون لكم العير، الطائفة التي لا شوكة فيها، أى لا بأس لها، ترى ماذا لو تحقق لكم ذلك أكان أولى، أم ما أراه الله وتعلقت به مشيئته هو الأولى الذى ظهرت لكم علله وحكمه^(١).

وهذه العلل وهى أهداف المعركة الرئيسية:

١ - أن الله يريد أن يحق الحق بكلماته.

٢ - أن يقطع دابر الكافرين.

٣ - أن يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

ونقل كلاماً عن سيد قطب لنفاسته فيقول رحمه الله ما حاصله لقد أراد الله تعالى - وله الفضل والمنة - أن تكون ملحمة لا غنيمة، وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ليحقق الحق ويثبتته، ويبطل الباطل ويزهقه. وأراد أن يقطع دابر الكافرين فيقتل منهم من يقتل ويؤسر منهم من يؤسر، وتذل كبرياؤهم، وتخضد شوكتهم وتعلو راية الإسلام وكلمته، ويمكن الله تعالى للعصبة المؤمنة التى تعيش بمنهج الله، وتنطلق به لتقرير ألوهية الله تعالى فى الأرض، وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف بالجهد والجهاد وتكاليفه معاناتها فى عالم الواقع فى ميدان القتال.

لقد أراد الله تعالى للجماعة المسلمة أن تصبح أمة وأن تصبح دولة لها قوتها وسلطانها، وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها، وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد والعدة، وليس بالمال والخيل والزاد إنما هو بمقدار ما تحصل بإيائها من قوة الله تعالى التى لا تقف لها قوة، وأن يحدث ذلك فى الواقع الشاهد لا يكون

1 - انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٤٥)، والالوسى، روح المعانى (٦/٢٤٨).

مجرد تصور قلبى واعتقادى لتزود منه الأمة المسلمة الزاد المقنع الذى لا شك فيه لواقعها ومستقبلها.... إلى أن يقول: ولتوقن كل عصابة مسلمة أنها تملك ما تهزم وتغلب خصومها وأعداءها مهما تكن من القلة والعدة المادية ومهما كان أعداؤها بالكثرة والاستعداد والعتاد، ما كانت هذه الحقائق لتستقر كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوى الطغيان.

وينظر الناظر اليوم وبعد اليوم ليرى الآماد المتطاولة بين ما أرادته الجماعة المؤمنة لنفسها يومذاك وما أراده الله لها، بين ما حسبته خيراً لها وبين ما قدره الله لها من الخير، وكم يخطيء الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيراً مما اختاره الله لهم، وحين يتضررون مما يريد الله لهم مما قد يعرضهم لبعض الخطر أو يصيبهم بشيء من الأذى بينما يكمن وراءه الخير الذى لا يخطر لهم ببال ولا بخيال.

وهذا كفيل بالرد على كل كلام أثاره المرجفون المبشرون من المستشرقين وغير المبشرين منهم على غزوات الرسول جميعاً فضلاً عن سيرته العطرة، إننا نسبق الكلام لنقول ذلك لأنه لن يبقى بعد ذلك مجال للرد على وات.

ونستأنف كلاماً أخيراً فى هذه الجزئية لسيد قطب حيث يقول: فأين ما أرادته العصابة المسلمة مما أراده الله لها..؟! لقد كانت تمضى - لو كانت لهم غير ذات الشوكة - قصة غنيمة. قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها! فأما بدر فقد مضت فى التاريخ كله قصة عقيدة قصة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل. قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح المزودين بكل زاد والحق فى قلة من العدد وضعف فى الزاد والراحلة. قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله، وحين تتخلص من ضعفها الذاتى. بل قصة انتصار حفنة من القلوب الثابتة المستعلية على الواقع المادى، وبيقينها فى حقيقة القوى وصحة موازينها، قد انتصرت

على نفسها، وخاضت المعركة، والكفة راجحة رجحاناً ظاهراً في جانب الباطل، فقلبت
بيقينيها ميزان الظاهر، فإذا الحق ظاهر غالب^(١).

ونعود إلى تكملة تحليل الآية، حيث ذكرت أهداف المعركة الثلاثة من الوجهة
القرآنية، التي تدل بإشارتها إلى معانٍ آخر تحملها تلك الأهداف:

أول أهداف المعركة: هو أن الله تعالى يريد أن يحق الحق بكلماته، يعنى تعلقت إرادة الله
هنا بتثبيت الحق وتدعيمه وشد أساساته وأركانه، فلا يتزعزع ولا ينكسر، بل يقوى ويستقر
والحق هنا هو دين الحق أى الإسلام، وقد أطلق عليه الحق في مواضع كثيرة من القرآن
الكريم، كقوله: ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]، وإن إحقاق الحق باستئصال
معانديه، أنتم تريدون نفعاً عاجلاً قليلاً، وأراد الله نفعاً عظيماً في العاجل والآجل، وذلك
كله بكلماته، بسبب كلماته، مثل آيات القرآن النازلة في قتال الكفار، وما أمر به الملائكة من
نصرة المسلمين يوم بدر وغير ذلك مما هيأ به للمعركة سبحانه شرعاً وقدرراً، وكلماته سبحانه
وتعالى لا تتخلف كما في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ فُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن
قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

الهدف الثانى: هو قطع دابر الكافرين، وهو إزالتهم حتى لا يبقى في مؤخرتهم أحد
من ورائهم وإن ذلك لتخضيد لشوكتهم، وإظهار أمر المسلمين ورفع شأن الإسلام، وما
يكون فيه المسلمون من أمن واطمئنان بال، وإن حرمهم الغنى العارض، إذ كانوا يحسبون
أنهم لا يستطيعون هزيمة عدوهم، إن في ذلك سمو رتبة الدين وعلو كلمة الحق، وهذا ما
تحقق للمسلمين بعد بدر، وهم راجعون لا يصدق مسلم ولا يهودى ولا وثنى أنهم
انتصروا لقد قلبت الموازين والحسابات، وتغيرت المواقف والأوضاع، ودخل الإسلام

1 - انظر سيد قطب، في ظلال القرآن (٢/١٤٨١-١٤٨٢).

مرحلة جديدة يحسب لها حسابها، بحيث جاءت أحد والخندق بكل أعداء الداخل والخارج توقعاً لقوة المسلمين الفتية وأدائهم القوى في ظاهر الأمر.

لم تكن أهداف المسلمين إذا عند معركتهم وبعد نزول القرآن الكريم بتحديد تلك الأهداف كما ادعى المستشرقون، بل التطلع المادي، قد حسم قبل المعركة بكلمات الله التي بين لهم بعد المعركة.

الهدف الثالث: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

واللام هنا للتعليل وهي متعلق بقوله: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنفال: ٧]، أي أراد ذلك وكون أسبابه بكلماته لأجل تحقيقه الحق وإبطاله الباطل، وأفاد التعليل هنا معنى الحصر، أي ما فعل إلا لذات الفعل لهذه الغاية الجليلة لا لشيء آخر، ولا لغرض آخر، وقد سيقت الآية لبيان الحكمة الداعية إلى اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها، مع إرادتهم لغيرها، فلا يكون تكرار، إذ الأول لبيان تفاوت ما بين الإرادتين، وهذا لبيان الحكمة الداعية إلى ما ذكر.^(١)

والحق هو حق من قبل ومن بعد وكذا الباطل، ومعنى يحق الحق إذا هو اظهار حقيقته، فيشتهر ويرتفع ذكره لا جعله حقاً بعد أن لم يكن، وكذا الباطل وهذا في التعبير القرآني المجيد تأكيد أيضاً لإحقاق الحق بنفى ضده وهو إبطال الباطل؛ لأن إحقاق الحق من لوازمه إبطال الباطل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ٢١]، لأنه لما كان الباطل ضد الحق لزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر، فصار كل ذلك لتأكيد إحقاق الحق، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

1 - انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٤٥)، والألوسي، روح المعاني (٦/٢٤٩)، الرازي، التفسير الكبير (٧/٤٤٨-٤٤٩)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٧٠-٢٧٣).

وعلى كراهة من المجرمين لذلك فعل الله ما فعل بهم، إذ هم المشركون المكذبون، ولا شك أنه لا يقصد بالكراهة مجرد الكراهة القلبية، حتى تكون تلك المبالغ الضخمة في تلك التراتيب الإلهية للمعركة، ولكن الكراهة هنا كناية عن الاستعداد على قدم وساق لاستكمال محاربة الدعوة وقتل نبيها وتشتيت أهلها وفتنتهم عن دينهم إلى آخر ذلك من المقاومة والاستعداد، ومن ثم كان المشركون بكرهتهم أى بكل ما أوتوا يريدون إظهار الباطل وإحقاقه، وما من بد حينئذ أن تنفذ إرادة الله جل وعلا مها كانوا^(١)، وتنقلب الكفة عليهم بجنده الأفل في كل شيء ليحقق الحق ويبطل الباطل ولو فعل المجرمون في الأرض ما استطاعوا والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

كان درساً ممتازاً لأهل الإيمان في كل زمان ومكان تحصله العصبية المؤمنة ليزداد يقينها بالله، وحسن توكلها عليه، وثقتها في دينها ورسولها ﷺ؛ لتعود رايتها مرتفعة ونورها منتشرا يحمل العدل والحق والمساواة، يحمل الدينونة لله تعالى.

وما زلنا سائرين مع السيرة القرآنية تقص لنا سيرة بدر لنقارن ونحلل بما ورد في الواقع لا لنجمع الأحداث لاستنباط المطلوب، وللتزود بوقود الإيمان الذي لا يجبو ولا يغيض، لتندفع قاطرة الحق حتى تبلغ مداها، فنصل إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ كَسَفَتْ رُبُكُمُ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلٰٓئِكَةِ مُرَدِّفِينَ ٩٠ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنۢ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٩١﴾ [الأنفال: ٩-١٠].

مضى السياق هنا بعد تحديد أهداف المعركة، وكل معركة، مع توجيهات في كل موقعة جديدة تستوحىها ظروفها وما يحيط بها، في استحضار جو بدر وملابساتها ومواقفها، والتعبير القرآني المتميز يعيد تمثيل المشهد بمواقفه وحوادثه وانفعالاته وخفقاته ليعيشوه

1 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/ ٢٧٣).

مرة أخرى، معايشة التأمل والعبرة والاتعاظ والتأهل لما هو آت - معايشة الشكر لله تعالى والمحافظة على أسباب النصر والتزود منها - معايشة نقل ذلك والتحرك به لمن بعدهم من المؤمنين المتقين، معايشة الثبات على الإسلام والتعلق بالله والثقة في أن النصر من عنده هو سبحانه، ومعايشة الرؤية الحقيقية لابعاد الموقف التي تتجاوز بديراً والجزيرة والعالم كله لتربط الأرض بالسما والدينا بالآخرة، ليروا قيمة أقدارهم وأعمالهم في ميزانهم يوم القيامة.

ونلاحظ على الآيتين ما يلي:

١ - تقدم ذكر الاستغاثة بعد أن ذكر كراهة بعض المؤمنين لقتال لم يستعدوا له، وبعد أن نبأهم بتصحيح أهدافهم من المعركة إلى الأهداف العليا، خاصة بعد ما اختار لهم ذات الشوكة لتكون لهم.

وقد علمنا من السنة الشريفة أن الاستغاثة جاءت متأخرة عندما التقى الفريقان، ونظر النبي ﷺ إلى قلة عدد المؤمنين وزادهم ورحلهم بالإضافة إلى الكفرة فأخذ يستغيث بالله تعالى ويناشده نصره الذي وعده، ويبدو أن هذا التقديم له حكمته في أن تكون استغاثة المؤمنين أولاً بالله تعالى في تحقيق النصر، لا بالنظر إلى قوتهم وعدتهم، إذ لا ينفعهم ذلك عندما يرفع الله عنهم عنايته ونصره، مهما كانوا في نهاية القوة وغاية البأس، لذا قال تعالى بعد ذلك في غزوة حنين مذكراً لهم تذكيراً عملياً كالمعتاد في تربية الله تعالى أوليائه المتقين وجنده المخلصين: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرْتُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥]، لذا أعقب هذا الآيات الكريبات التي نحن بصددتها بقوله: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠]، فكان تقديم الاستغاثة بالله واللجوء إلى نصره بعد تقديم الأسباب كافة هو العامل المقدم في النصر.

٢- وكذلك قدمت الآيات الكريبات ذكر الملائكة مع أنهم جاءوا مردفين للمؤمنين عندما ألتقى الصفان، ذلك لحكمة أيضاً ولعلها في الأمور التالية:

الأول: أن الاستغاثة بالله وتقديمها تعنى على الفور غوث الله تعالى بالمدد الذى لا يهزم حتى لا ينسى المؤمن ذلك أو يغفلوا عنه.

الثانى: أن تقديم الملائكة يدهم على نزول السكينة ورباطة الجأش والثبات عن الملاقاة فيدخلون المعركة وهم مستعدون الاستعداد التام للمواجهة، لا يهتمهم من عدوهم كثرة ولا أهبة ولا سلاح، بل هم صامدون حتى إحدى الحسينين، لا يهولهم شيء ولا يكبر عليهم شيء، فلا يزلزل الخوف والرعب - كائناً من كان عدوهم - شيئاً من أفئدتهم ولا من أمن روعاتهم، علاوة على البشارة بالنصر، الذى يجعلهم في نهاية التصميم عليه والمسارة إليه.

الثالث: الاستجابة الفورية بفاء التعقيب من الله تعالى لهم، ليكون عنواناً لهم وللمؤمنين في كل زمان ومكان على نزول مدد الله عليهم، وظهور تباشير النصر، وما تكون استجابة الله لهم إلا بعد استجابتهم له: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة: ١٨٦]، بتحقيق أسباب النصر ظاهراً وباطناً، مادياً ومعنوياً، حتى إذا وقفت بهم الأسباب جاءت قدرته وقوته ومدده الذى لا يقهر وفعله وترتيبه الذى لا يغالب وهو من دروس المؤمنين اليوم.

ونعود إلى تحليل الآيتين الكريمتين لهذا المشهد العظيم..

ذكر المفسرون لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، تعلقات كثيرة^(١)، ونقتصر على كلام ابن عاشور لتوضيحه للواقع وموافقته له فنختصره حيث يقول: يتعلق ظرف: ﴿إِذْ

١ - فذكر بعضهم أنها بدل من: ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ﴾، معمول لعامله، انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٤٥)، اللوسى، روح البيان (٦/٢٤٩-٢٥٠)، وكأنه كلام أبى السعود بنصه، وانظر الفخر الرازى، التفسير الكبير (٧/٤٥٠)، وجعل العامل في إذ ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾.

تَسْتَعِثُونَ رَبَّكُمْ ﴿﴾، بفعل يريده الله، إذ إرادة الله مستمر تعلقها بأزمة من إرادته إحقاق الحق حتى النصر ونهاية بدر، فكانت استجابة الله لهم بإمدادهم بالملائكة من مظاهر إرادته تحقيق الحق، وإذ كانوا بينهم وبين إرادة الله أن يحق الحق مدة من الزمان، فقد اقترن ببعضها على امتداد تلك المدة كما ذكرنا فصح تعليق ظرف الاستغاثة بفعلها.^(١)

وعبر بالمضارع لاستحضار هذه الصورة العجيبة^(٢)، من الماضي لتكون محل العبرة وعبر بضمير الجماعة وأريد به النبي ﷺ فيكون الجمع للتعظيم، أو لأنه كان يدعو ﷺ لأجلهم معلناً بدعائه وهم يسمعون، فهم بحال من يدعون، أو أن المسلمين أنفسهم كذلك كانوا يستغيثون ويدعون فصح إطلاق الجمع على الجميع.^(٣)

﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٩]، لما كانت الاستغاثة طلب الغوث، وهو الإعانة على رفع الشدة والمشقة وكانوا في ذلك يومئذ، دعوا بطلب النصر لرفع ما هم فيه، فاستجاب لهم، بإجابة دعائهم عقيب الاستغاثة كما تفيد الفاء ولكن على أتم وجه لأن الاستجابة تدل على قبول الطلب والسين والتاء للمبالغة في تحقيق المطلوب.

وقد جاءت الاستجابة بكلام من الله هو: ﴿ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفَيْ مِنَ الْمَلَيْكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩]، أى بأنى ممدكم، أى معينكم وناصركم والتأكيد للاعتناء بشأن الخبر.

والإرداف الإتيان والإلحاق؛ فيكون الوعد بألف وبغيرها على ما هو متعارف عندهم من إعداد نجدة للجيش عند الحاجة تكون لهم مدداً، وذلك أن الله أمدهم بألف من الملائكة بلغوا خمسة آلاف كما ورد في سورة آل عمران، وهم مردفين بألفين، فتلك خمسة

1 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٧٣-٢٧٤).

2 - أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٤٥)، الألوسى، روح المعاني (٦/٢٥٠).

3 - الفخر الرازي، التفسير الكبير (٧/٤٥٠-٤٥١)، أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٤٥-٣٤٦)، الألوسى، روح

المعاني (٦/٢٥٠)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٧٣-٢٧٤).

آلاف، وكانت عادتهم في الحرب إذا كان الجيش عظيماً أن يبعثوا طائفة منه ثم يعقبوها بأخرى؛ لأن ذلك أُرهب للعدو.

وكان حلول الملائكة في المسلمين بكيفية يعلمها الله تعالى، فيراهم من أكرمه الله برؤيتهم أو بإراءة الله الناس ما ليس من شأنه أن يرى عادة.^(١)

وما كان إمداد المؤمنين بالملائكة إلا ليشرهم، وإلا فقد كان يكفيهم أن يضمن لهم النصر دون أن يبين أنه بإمداد من الملائكة.

وأما فائدة التبشير بإمداد الملائكة فيقول الطاهر بن عاشور: «يوم بدر كان في أول يوم لقي فيه المسلمون عدواً قوياً وجيشاً عديداً، فبشرهم الله بكيفية النصر الذي ضمنه لهم بأنه بجيش من الملائكة، لأن النفوس أميل إلى المحسوسات، فالنصر معنى من المعاني يدق إدراكه سكون النفس لتصوره بخلاف الصور المحسوسة من تصوير مدد الملائكة ورؤية أشكال بعضهم.»^(٢)

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠]، كلام مستأنف لبيان أن المؤثر الحقيقي هو الله جل وعلا، ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا من النصر عند فقدان أسبابه، وما جعل إمدادكم بهم بشيء من الأشياء إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾، وتسكن إليه نفوسكم وتزول عنكم الوسوسة. وفي الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا قتالاً وهو مذهب بعضهم، ويشع ظاهرها بأن النبي ﷺ أخبرهم بذلك الإمداد وفي

1 - انظر لما سبق الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢٧٥-٢٧٦)، الزمخشري، الكشاف (١١٦/٢-١١٧)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم (٣٤٦-٣٤٧)، والألوسی، روح المعاني (٢٥٠/٦-٢٥١) ن الطبري، جامع البيان (١٢٦/٩-١٢٧).

2 - ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٧٦/٩).

الأخبار ما يؤيده، بل جاء في غير ما خبر أن الصحابة رأوا الملائكة عليهم السلام.^(١)

وبعد أن بشرهم بنزول الملائكة، وطمأن قلوبهم بالنصر، أكد لهم مرة أخرى على التعلق بالله تعالى وأنه خالق الأسباب، وأن كل شيء منه، فلا يركنوا إلا إليه ولا يتوكلوا إلا عليه في النصر وفي تحقيق كل أمورهم وتيسيرها فقال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، أى لا تحسبوا النصر من الملائكة فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة، أو وما النصر بالملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله، والمنصور من نصره الله تعالى، وختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، بصيغة الخبر المؤكد فنزل المخاطبين منزلة من يتردد في أنه تعالى موصوف بهاتين الصفتين، وهما العزة المقتضية أنه إذا وعد بالنصر لم يعجزه شيء. والحكمة فيما يصدر من جانبه يجب غوص الأفهام في تبين مقتضاه، فكيف لا يهتدون إلى أن الله لما وعدهم الظفر بأحدى الطائفتين، وقد فاتتهم العير أن ذلك آيل إلى الوعد بالظفر بالنفير. وإن كانت الجملة في نفس الوقت مستأنفة استئنافاً ابتدائياً جعلت كالإخبار بما ليس بمعلوم لهم.^(٢)

أخرنا الكلام على المعنى الثانى من نزول الملائكة، وهو قتال الملائكة في بدر مع المؤمنين مناسبة لسياق الأحداث، مع نزول الآية التى تتحدث عنه.

والآن مع المشهد التالى وهو فى قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمْ التُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

1 - أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٤٦-٣٤٧)، والزنجشري، الكشاف (٢/١١٦-١١٧)، والألوسى، روح المعانى (٦/٢٥٢-٢٥٣).

2 - انظر الزنجشري، الكشاف (٢/١١٧)، أبا حيان، البحر المحيط (٥/٢٨٠)، الفخر الرازى، التفسير الكبير (٧/٤٥٢)، أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٤٦-٣٤٧)، الألوسى، روح البيان (٦/٢٥٢-٢٥٣)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٧٦-٢٧٧)، الطبرى، جامع البيان (٩/١٢٨-١٢٩).

لقد استجاب الله للمؤمنين عندما استغاثوا به، وأعلمهم أن النصر من عنده، فكان حسبهم بعد ذلك أن يبذلوا ما في طوقهم فلا يستبقوا منه بقية، وأن يغالبوا الهزة الأولى التي أصابت بعضهم في مواجهة الخطر الواقعي، وأن يمضوا في طاعة أمر الله، واثقين بنصر الله، كان حسبهم هذا لينتهى دورهم، ويجيء دور قدرة الله التي تصرفهم وتدبرهم، فكانت البشرية مطمئنة تثبتاً للقلوب في مواجهة الخطر، وإنه لحسب العصبة المؤمنة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت في المعركة، ثم النصر من عند الله وحده، حيث لا يملك النصر غيره.

وهو: «العزیز» القادر الغالب على أمره، وهو: «الحكيم» الذي يحل كل أمر محله.^(١)

لقد انتهى دور العصبة المؤمنة في أخذها بالأسباب، فهلّ علينا مشهد الاعداد المباشر للقتال وهو اعداد المقاتلين، وتهيئة مسرح العمليات، وهو يصور ما يأتي، جاء المدد الأول من أمداد الله تعالى للعصبة المؤمنة يوم بدر في هذا المشهد يذكر قصة النعاس الذي غشاهم قبل المعركة فهي قصة حالة نفسية عجيبة، لا تكون إلا بأمر الله وقدره وتدبيره، لقد فرح المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة في مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه، فإذا النعاس يغشاهم، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم، والطمأنينة تفيض على قلوبهم، كان يوم أحد تكرر الفزع، وتكرر النعاس، وتكررت الطمأنينة، كيف تم هذا؟ كيف وقع هذا التحول المفاجيء إنه مدد من أمداد الله تعالى.

وهذا في الترتيب والمدد التهيئة لأبلغ رد على المستشرقين في كل سيرته ﷺ من كونها اصطفاء واختياراً وتدبيراً وترتيباً من الله، إذ ذلك كله ليس في مقدور جميع البشر أن يفعلوه، أو ينزلوه إن كان شيئاً منه في الظاهر فما بال الباحث بالقلب والطمأنينة وتغشية

1 - انظر سيد قطب، في ظلال القرآن (٣/١٤٨٣-١٤٨٤).

النعاس ونزول الملائكة مع إنزال المطر وإجراء تصارييف ليست في وقتها تخص هذه الفئة المؤمنة.

وإذ قد صحوا من هذا النعاس بهذا المدد الروحي، جاءتهم أمداد أخرى تحيط بهم من الأمداد المادية هي قصة الماء: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]، فتم المدد الروحي بالمدد المادي لتسكن القلوب في هذه الصحراء بوجود الماء، وتطمئن الأرواح بالطهارة وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال.

ونعود لتحليل الآية الكريمة:

يقول الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»: لقد أبدع نظم الآيات في التنقل من قصة إلى أخرى من دلائل عناية الله تعالى برسوله ﷺ وبالمؤمنين، فقرنها في قرآن زمانها، وجعل ينتقل من إحداها إلى الأخرى بواسطة إذ الزمانية.

وهذا من أبدع التخلص، وهو من مبتكرات القرآن فيما أحسب.^(١)

إذ يغشيكم النعاس يجعله غاشياً عليكم ومحيطاً بكم، إذ الغشى كون الشيء غاشياً أى غاماً ومغطياً وهو بدل من: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾، على القول بجواز تعدد البدل، أو مفعولاً فيه لقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾، فإن إغشاهم النعاس كان من أسباب النصر، فلا جرم أن يكون وقت حصوله، والنعاس النوم غير الثقيل يزيل التعب ولا يغيب صاحبه، وإسناد الإغشاء إلى الله تعالى؛ لأنه الذى قدر أن يناموا في وقت لا ينام في مثله الخائف، فهو نوم منحهم الله إياه لفائدتهم، وإما إسناد الغشى إلى النعاس حقيقة على المتعارف، وقد علمنا أنه من تقدير الله تعالى بقوله: ﴿أُمَّتَهُ مِّنْهُ﴾، أى أماناً منه، فإن الخوف والمشقة أطارا كراهم من أوكاره، فلما طامن الله قلوبهم رفر فبجناحه عليهم فنعسوا، وجاء العشى بصيغة المضارع لاستحضار

1 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/ ٢٧٧-٢٧٨).

تلك الحالة تذكيراً بنعمة الله تعالى، إذ لما نَعَسُوا زال أثر الخوف من نفوسهم فتلك نعمة، ولما استيقظوا وجدوا نشاطاً، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة، ويزيل شعور الخوف الذى هو فتور الأعصاب.

﴿وَمِنَ نِّعَتِهِ﴾، أى من الله سبحانه، لإفادة تشريف ذلك النعاس، وأنه وارد من جانب القدس فهو لطف وسكينة ورحمة ربانية، ويتأكد به إسناد الإغشاء إلى الله تعالى.^(١)

كان ذلك حال المؤمنين الواقع لهم بقدره الله ومشيئته وذلك شيء من مدده، الذى اتبعه بذكر مدد آخر، له قصة نستكمل بها جوانب المشهد الذى نحن فيه، وهى قصة المطر الذى أكرمهم الله به فى تلك الصحراء القاحلة، فى قلة الزاد والماء، إنها لعناية الالهية لا يستطيعها البشر كافة ليحقق بها لجنده هذه الأمور الأربعة:

الأول: ليظهرهم به من الحدث الأصغر والأكبر، وليملأوا أسقيتهم، وليشربوا ويجوزوا الماء إلى رحالهم.

الثانى: إذهاب رجز الشيطان عنهم.

الثالث: الربط على قلوبهم.

الرابع: تثبيت الأقدام.

وذكر إن إنزال المطر عليهم من الله تعالى للتنبيه على إكرامهم به فى وقت احتياجهم إلى الماء، أو لكونه كذلك فى غير الوقت المعتاد نزول الأمطار فيه، فقد كان المسلمون حين

1 - انظر الطبرى، جامع البيان (١٢٩/٩)، الزمخشري، الكشاف (١١٧/٢)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم (٣٤٧/٢)، الألوسى، روح المعانى (٢٥٣-٢٥٥)، الفخر الرازى، التفسير الكبير (٤٥٣-٤٥٥)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٢٧٧-٢٧٩)، سيد قطب، فى ظلال القرآن (١٤٨٤/٣)، وهناك أقوال أخرى فيما ذكرنا، اقتصرنا على الأنسب للسياق والأقوى فى بابه ولمزيد البحث ذكرنا المراجع والمصادر السابقة.

اقتربوا من بدر راموا أن يسبقوا المشركين إلى ماء بدر، ولكن طريقهم كان دهباً رملًا ليناً فشق عليهم إسراع السير إلى الماء وكانت أرض المشركين ملبدة، فلما أنزل الله المطر تلبدت الأرض فصار السير أمكن لهم، واستوحلت الأرض للمشركين فصار السير فيها شاقاً، فأمكن المسلمين السبق إلى الماء من بدر، ونزلوا عليه وادخروا ماء كثيراً من المطر فشرّبوا وتطهروا.

أما الرجز فهو القدر وهو الحسى، وكذلك المعنوى المعبر عنه بالحديث، فالله جل وعلا أذهب عنهم بالماء رجز الشيطان ذلك، لأن فقدان الماء يلجئهم إلى البقاء في تنجس الثياب والأبدان والنجاسة مما يلائم طبع الشيطان، علاوة على ما فسر جمهور العلماء الرجز هنا بوسوسة الشيطان وتخوفه من العطش، حيث غلب المسلمون قبل نزول المطر على ماء بدر فظمئوا وأصبحوا مجننين محدثين فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن وقال: أتزعمون أن فيكم نبياً وأنكم أولياء الله وتصلون مجننين محدثين، فأنزل الله الماء فسال به الوادى... إلى آخر ما ذكر^(١)، أما قوله: ﴿وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾، أى يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيها بعد بمشاهدة طلائعه، والربط هو الشد أى ربط القلوب، وأنا أتى بـ ﴿عَلَى﴾، هنا للاباء إلى أنها امتلأت من ذلك حتى علا عليها، وفيه من إفادة التمكّن ما لا يخفى.

وتثبيت الأقدام هو ألا تسوخ في ذلك الدهس، بل تتمكن من السير في الرمل وجوز ان المراد بالثبيت كما قال أبو عبيدة جعلهم صابرين غير فارين ولا متزلزلين.^(٢)

كل ذلك - وأكثر منه مما وقع من السيرة - ذكرته الآية القرآنية الكريمة في هذا الموجز الموحى، مع نسبته إلى الله تعالى لا إلى غيره، ليكون عبرة للمؤمنين إلى اليوم، مع تذكير

1 - الزمخشري، الكشاف (٢/١١٧-١١٨)، الفخر الرازى، التفسير الكبير (٧/٤٥٥-٤٥٦)، أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٤٧-٣٤٨)، الألوسى، روح المعانى (٦/٢٥٥)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٧٩-٢٨٠).
2 - انظر الألوسى، روح المعانى (٦/٢٥٦).

الحاضرين بما كان من عظات عبر وأحكام ليستأنفوا توطيد أركان الشريعة، ونشر تعاليم الإسلام، رفع رايته وهم في تمام الثقة واليقين والتوكل على الله تعالى، وأن الناصر لدينه على الحقيقة هو الله، وإنما أكرمهم ليكونوا الأسباب الظاهرة التي يؤيد بها دينه، ويهزم بها أعداءه، وتتجلى فيها صدق الرسالة وصحة النبوة، وإتصال الأرض بالسماء، وليبدو بها وحي الله العظيم.

تعباً المؤمنون للقتال، وتقدم المسارعون إلى جنة عرضها السموات والأرض الصفوف، وبدأ المؤمنون في حصد إحدى الحسينيين، فجاءت الآية التي تبرز المشهد الجليل الهائل، مشهد الأمر للملائكة الإمداد المردين بأن يعاونوا المؤمنين، وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاصْطَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْطَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

ونسوق كلاماً مختصراً مرة أخرى لسيد قطب رحمه الله^(١)، دالاً يوضح تمهيد المقصود فيقول: ذلك ما أوحى الله به إلى الملائكة من تثبيت الذين آمنوا، وإلى ما وعد به من إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، وإلى ما أمر به الملائكة من الاشتراك الفعلي في المعركة.

إنه الأمر الهائل، إنها معية الله سبحانه للملائكة في المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع العصابة المؤمنة، هذا هو الأمر الذي لا يجوز أن يشغلنا عنه أن نبحت: كيف اشتركت الملائكة؟ ولاكم قتيلاً قتلت؟ ولا كيف قتلت؟ إن الحقيقة الكبيرة الهائلة في الموقف هي تلك الحقيقة (إن حركة العصابة المسلمة بهذا الدين أمر هائل عظيم أمر يستحق معية الله لملائكته في المعركة)، واشتراك الملائكة فيها مع العصابة المسلمة.

إننا نؤمن بخلق من خلق الله أسماهم الملائكة، ولا ندرك من طبيعتهم وعملهم إلا ما

1 - سيد قطب، في ظلال القرآن (٣/١٤٨٦-١٤٨٧).

أخبرنا به النص عن خالقهم جل وعلا، فلا نملك إدراك الكيفية التي اشتركوا بها في نصر المؤمنين في بدر إلا بمقدار ما يقرره النص القرآني أو الحديث الصحيح، لقد أوحى إليهم أنى معكم، وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا، وأن يضربوا فوق أعناق المشركين، وأن يضربوا منهم كل بنان، كل ذلك فعلوا؛ لأنهم يفعلون ما يؤمرون، وقد وعد الله تعالى أن يلقي الرعب في قلوب الذين كفروا فكان ذلك، ووعد الحق، ولكننا لا نعلم كيف كان ذلك، فالله هو الذى خلق وهو أعلم بمن خلق.

ولا شك أن ذلك لا يستعظم على قدرة الله تعالى، فكله من الممكن الجائز فكيف يكون محلاً لإنكار، أو ريب وتردد، وقد نزل الملائكة على الأنبياء من قبل، وقاموا بإبادة وخسف قرى ومدن مازالت آثارهم تحكى ذلك، فما المانع أن ينزلوا على المؤمنين المكرمين مدداً لهم يقاتلون على وفق علم الله وترتيبه مع بقاء نوايس النصر العادية وأسبابها.

ووقفه عجلي على تحليل الآية الكريمة:

﴿ إِذْ ظَفَرَ مَتَعَلِقَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ ﴾^(١)، والخطاب هنا للنبي ﷺ كما تنطق به الكاف، لما أن المأمور به مما لا يستطيعه غيره وهو الوحي للملائكة وهو تल्पف به ﷺ فى نفس الوقت، إذ الآية فى تفصيل عمل الملائكة يوم بدر، وما خاطبهم الله به فكان الخطاب إلى النبى ﷺ أولى؛ لأنه أحق من يعلم مثل هذا العلم، ويحصل العلم للمسلمين تبعاً له.

وأن كل ما بهم المسلمون هو نصر الملائكة إياهم، وقد حصل.

٦ - هذا قول ابن عاشور (٢٨٠/٩)، وهذا خلاف ما ذهب إليه الزمخشري من أن الظرف بدل ثالث لـ ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ﴾، انظر الكشاف (١١٨/٢)، وذهب أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢٤٨/٢)، إلى نصبه بمضمرة وإليه ذهب الالوسى، روح المعاني (٢٥٦/٦)، ومثله الفخر الرازى، التفسير الكبير (٤٥٧/٧)، وانظر تفاصيل غيرها فيما سبق.

وَعُرِفَ اسْمُ اللَّهِ هُنَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿رَبُّكُمْ﴾، لِيُوَافِقَ تَسْتَعِيثُونَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ
أَوَّلُ مَنْ اسْتَعَاثَ، وَلِمَا فِيهِ مِنَ التَّنْوِيهِ بِقَدْرِهِ وَاللُّطْفِ بِهِ وَرَفْعِ شَأْنِهِ.^(١)

وإِجْمَاعُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ بِأَنَّهُ مَعَهُمْ مَقْصُودٌ مِنْهُ تَشْرِيفُهُمْ، وَتَشْرِيفُ الْعَمَلِ الَّذِي
سَيَكْلِفُونَ بِهِ، لِأَنَّ الْمَعِيَةَ تَوْذُنٌ إِجْمَالِيٌّ بِوُجُودِ شَيْءٍ يَسْتَدْعَى الْمَصَاحِبَةَ، فَكَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنِّي
مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]، مَقْدَمَةٌ لِلتَّكْلِيفِ بِعَمَلٍ شَرِيفٍ يَذْكَرُ مَا تَتَعَلَّقُ بِهِ الْمَعِيَةُ، لِأَنَّهُ سَيَعْلَمُ مِنْ
بَقِيَةِ الْكَلَامِ، أَيَّ أُنَى مَعَكُمْ فِي عَمَلِكُمْ الَّذِي أَكْلَفَكُمْ بِهِ.

﴿فَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، الْفَاءُ لِتَرْتِيبِ مَا بَعْدَهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا، وَعُرِفَ هَؤُلَاءِ الْمَطْلُوبِ
تَثْبِيْتَهُمْ بِالْمَوْصُولِ لِإِيْمَاءِ صِلَةِ ﴿ءَامَنُوا﴾، بِأَنَّ إِيْمَانَهُمْ هُوَ الْبَاعِثُ عَلَى هَذِهِ الْعِنَايَةِ، فَتَكُونُ
الْمَلَائِكَةُ بِعِنَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِ وَصْفِ الْإِيْمَانِ.

وَهُنَا يَظْهَرُ مَوْجِعُ الْفَاءِ مِنْ حَيْثُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾، مِنْ التَّهَيُّةِ لِتَلْقَى التَّكْلِيفَ
بِعَمَلٍ عَظِيمٍ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْعَمَلُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ لِأَنَّهُ إِبْدَالٌ لِلْحَقَائِقِ الثَّابِتَةِ بِاقْتِلَاعِهَا، وَوَضْعُ
أَضْدَادِهَا لِأَنَّهُ يَجْعَلُ الْحَبْنَ شِجَاعَةً، وَالْخَوْفَ إِقْدَامًا، وَالْهَلْعَ ثَبَاتًا فِي جَانِبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَجْعَلُ
الْعِزَّةَ رَعْبًا فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ، وَيَقْطَعُ أَعْنَاقَهُمْ وَيُؤَيِّدُهُمْ بِدُونِ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْقَطْعِ
الْمَعْتَادَةِ، فَكَانَتِ الْأَعْمَالُ الَّتِي عَهْدَ لِلْمَلَائِكَةِ عَمَلَهَا خَوَارِقَ عَادَاتِ.

وَكَانَ الْمُرَادُ التَّثْبِيْتَ أَيْضًا الْحَمْلَ عَلَى الصُّمُودِ فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ وَالْجِدِّ وَفِي مَقَاسَاةِ
الشَّدَائِدِ فِي الْقِتَالِ قَوْلًا وَحَالًا مِثْلَ ظُهُورِهِمْ بِصُورَةٍ بَشَرِيَّةٍ يَعْرِفُونَهَا بِالنَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ،
وَأَنَّهُمْ سَمِعُوا الْمُشْرِكِينَ يَقُولُونَ لَثْنٌ حَمَلٌ عَلَيْنَا الْمُسْلِمُونَ لِنُنْكَشِفَنَّ.^(٢)

1 - انظر أبا السعود (٢/٣٤٨)، الألوسي، روح المعاني (٦/٢٥٦)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٨١-٢٨٢)، وغيرها.
2 - انظر لما سبق الزمخشري، الكشاف (٢/١١٨)، أبا حيان، البحر المحيط (٥/٢٨٤-٢٨٥)، الفخر الرازي، التفسير
الكبير (٧/٤٥٧)، الطبري، جامع البيان (٩/١٣٢)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٤٨)، الألوسي، روح
المعاني (٦/٢٥٦-٢٥٧)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٨١).

﴿ سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾، جاءت تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ أَنِي مَعَكُمْ ﴾، في إعانة المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم، أى يجعلهم مرعوبين خائفين منزعجى النفوس يتوقعون كل مكروه، وأسند الرعب إلى نفسه وحده سبحانه وتعالى؛ لأن الملائكة المخاطبين كانوا ملائكة نصر وتأييد فجعله الله بواسطة أخرى غير الملائكة، وإسناده إليه سبحانه على طريقة الإجمال بدون بيان لكيفية إلقاءه، إشارة إلى أنه رعب شديد، قدره الله تعالى على كيفية خارقة للعادة، وإنما كان كذلك لأن أسباب ضده قائمة من وفرة عدد المشركين وعددهم، وإقدامهم على الخروج إلى المسلمين، وحرصهم على حماية أموالهم، وليسمع بهم العرب فلا يزالون يهابون قريشاً. فلما وقع لهم الرعب دل على خرق ذلك كله ولم يقل سبحانه سنلقى بدلاً من سألقى حتى لا يتوهم أن للملائكة سبباً في إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا.^(١)

وما زلنا مع هذا المدد للمؤمنين عبرة لغيرهم، وبشارة لمن بعدهم من تحقق فيهم الإيذان الجالب لهذا النصر.

فقال تعالى: ﴿ فَاصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾..

وهى تفسير لقوله تعالى: ﴿ فَتَتَّبِعُوا ﴾، مبين لكيفية التثبيت، ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة، ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم، واجتماعها غاية النصر^(٢).

يقول الالوسى: «وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ سَأَلْتَنِي ﴾، إلخ جمل استئنافية جارية مجرى التعليل لإفادة التثبيت لأنها مصدقة ومبنيه لإعانتته إياهم على التثبيت، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَاصْرَبُوا ﴾، إلخ جملة مستعقبة للتثبيت، بمعنى لا تقتصروا على تثبيتهم وأمدوهم بالقتال عقيبه من غير تراخ، وكأن المعنى أنى معكم فيما أمركم به فثبتوا واضربوا، وجيء

1- انظر الالوسى، رح المعانى (٦/٢٥٧)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٨١-٢٨٢).

2- ابو حيان، البحر المحيط (٥/٢٨٥)، تبعاً للزنجشى (٢/١١٨).

بالفاء للنكتة المذكورة..... إلى أن يقول: وأما القول بأن ﴿فَأَضْرِبُوا﴾، إلخ خطاب منه تعالى للمؤمنين وأنى ذلك؟ والسورة الكريمة إنما نزلت بعد تمام الواقعة. وبالجملة الآية ظاهرة فيما يدعيه الجماعة من وقوع القتال من الملائكة^(١).

﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾، أى الرؤوس من المشركين، وفوق باقية على ظرفيتها، وقيل: إنها مفعول به، وهى بمعنى الأعلى إذا كان بمعنى الرأس، وقيل: زائدة، وقيل بمعنى على أى على الأعناق أو الأعناق.

﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، وهى جمع بنانة وهى الإصبع وقيل طرفه، وإنما خصت الأعناق والبنان لأن ضرب الأعناق إتلاف لأجساد المشركين، وضرب البنان يبطل صلاحية المضروب للقتال، وضرب الملائكة يجوز أن يكون مباشرة بتكوين قطع الأعناق والأصابع بواسطة فعل الملائكة على كيفية خارقة للعادة، وقد ذكرنا فى السيرة عن بعض الصحابة ما يشهد لهذا المعنى^(٢)، وعلى المعنى الثانى يكون بتسديد ضربات المسلمين فىكون إسناد الضرب اليهم مجازاً عقلياً لأنهم سبب جاء الخطاب القرآنى لبيان لنا بعد ذلك كله - مع أننا اختصرناه لأقل ما يمكن - ليشدد على موقفين وهما موقف المشركين وموقف المسلمين.

الأمر الأول: موقف المشركين:

حيث ذكر أن سبب ما فعل بهم إنما كان لمشاقة الله ورسوله ﷺ، وما ينتظرهم فى الآخرة أشد أنكى فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ^٣ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^٤ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ^٥﴾ [الأنفال: ١٣-١٤].

1 - الالوسى، روح المعانى (٦/٢٥٨).

2 - انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٨٣).

والبلاء للسببية تفيد معنى التعليل، والمخاطب إما الملائكة بمعنى أن ما فعلتموه بهم كان لمحاداتهم لله ورسوله ﷺ، أو الخطاب لمن لم تبلغهم الآية من المشركين الأحياء يوم بدر، ولذلك فالجملة معترضة للتحذير من الاستمرار على مشاقة الله ورسوله ﷺ، أو لكل أحد ممن يليق به الخطاب^(١).

والمشاقة التي فعل الله ذلك كله بهم لسببها هي العداوة بعصيان وعناد، وهي مشتقة من - الشق - بالكسر أى هم في جانب والنبى ﷺ في جانب، ليسوا في جانب الإيمان والطاعة، بل الكفر والمعصية والمخالفة للرسول ﷺ، ومن ثم كان التصريح بسبب الانتقام تعريضاً للمؤمنين ليستزيدوا من طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن المشيئة لما كانت سبب هذا الانتقام والعقاب العظيم، فيوشك ما هو مخالفة للرسول ﷺ ولو بدون مشاقة أن يوقع في العذاب والانكسار وإن كان دون ذلك، وخليق بأن يكون ضدها وهو الطاعة موجباً للخير الشامل للنصر وغيره وهذا ما يمثله الواقع الذى تردينا إليه مقارنة بأعظم واقع كانوا فيه^(٢)، وقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، الإظهار في موضع الإضمار لتربية المهابة وإظهار كمال شناعة ما اجترءوا عليه، والإشعار بعلّة الحكم.

وأما قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾..

فالشرطية بيان للسببية السابقة بطريق برهاني، كأنه قيل: ذلك العقاب الشديد بسبب المشاقة لله تعالى ورسوله ﷺ، وكل من يشاقق الله ورسوله ﷺ فله بسبب ذلك عقاب شديد

1 - انظر الزمخشري، الكشاف (١١٨/٢)، الفخر الرازي، التفسير الكبير (٤٥٨/٧)، أبا حيان، البحر المحيط (٢٨٧/٥)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم (٣٤٩/٢)، الالوسى، روح المعاني (٢٥٩/٦)، وابن عاشو، التحرير والتنوير (٢٨٤/٩).

2 - أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٣٤٩/٢)، وابن عاشو، التحرير والتنوير (٢٨٤/٩).

كائناً من كان، فإذا نهم بسبب مشاققة الله ورسوله ﷺ عقاب شديد.^(١)

فلم يكن ذلك العقاب في نهاية مشهد المشاققة الهائل هذا إلا تقريراً موضحاً لما وراء المعركة، ووراء النصر فيها والهزيمة، من قاعدة ودستور لمجرى هذه الأمور:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:

.[١٣]

أنها ليست فلتة عارضة ولا مصادفة عابرة، أن ينصر الله العصبة المسلمة، وأن يسلط على أعدائها الرعب والملائكة مع العصبة المؤمنة، إنما ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله ﷺ ووقفوا يصدون عن سبيل الله ويحولون دون منهج الله للحياة.

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

ينزل عقابه عليهم وهو قادر على عقابهم بأقل بكثير لأنهم أضعف من أن يقفوا لعقابه.

أنها قاعدة وسنة لا فلتة ومصادفة، حيث انطلقت العصبة المسلمة في الأرض لتقرير ألوهية الله وحده، ثم وقف منها عدو لها موقف المشاققة لله ورسوله ﷺ، كان التثبيت لهم والرعب والهزيمة للمشاقين لله ورسوله ﷺ، ما استقامت العصبة المؤمنة على الطريق، واطمأنت إلى ربها، وتوكلت عليه وحده.

وفي نهاية هذا المشهد يتوجه بالخطاب للمشاقين الصادين عن سبيله، إن هذا الحكم الذي حل بكم في الدنيا ليس نهاية المطاف إنه أمر ممتد إلى ما وراء هذه الأرض، وإلى ما بعد هذه الحياة في الآخرة.

1 - أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٤٩-٣٥٠)، اللوسى، روح المعاني (٦/٢٥٩-٢٦٠).

﴿ذَالِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ ..

فهذه نهاية المطاف وهو هذا العذاب الذى لا يقاس إليه ما ذقتم من الرعب والهزيمة
ومن الضرب فوق الأعناق ومن ضرب كل بنان.^(١)

الأمر الثانى : وهو الخاص بالمسلمين :

وشددت عليه الآيات قبل نهاية قص الغزوة من الوجهة القرآنية، وهى قضية عدم
الفرار أمام زحف الكفار، وكان منطقياً أن يجيء هذا النهى، وهذا الوعيد الشديد على
وقوعه من المؤمنين بعدما رأوا كيف كان الأمر كله بترتيب الله تعالى تهيئةً ونصراً.

وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ﴾ وَمَنْ
يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَكَدَّ بَاءٌ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ
الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [الأُنْفَال: ١٥-١٦].

بعد أن سرد القرآن الكريم الواقعة، ومشاهدها وملابساتها، وقبل أن يختتمها، ويسوق
الأحكام التى صارت دستوراً لكل ما يأتى من مشاهد للمؤمنين بعد ذلك، جاء فى أنسب
اللحظات هذا الحكم القرآنى لحظات استجابة القلوب للتوجيه.

يعنى بعد أن أراهم قدرة الله وحكمته فى تدييره، وعونه ومدده، وعلموا منها أنهم لم
يكونوا فيها سوى ستار لقدرة الله تعالى وقوته، فهو سبحانه الذى أخرج رسوله من بيته
بالحق، لم يخرج به بطراً ولا اعتداءً ولا طغياناً ولا رياء الناس، والله هو الذى اختار لهم
إحدى الطائفتين لأمر يريده كما بين، وهو الذى أمدهم بالملائكة مردفين، والله هو الذى
غشاهم النعاس أمانة منه ونزل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به، ويذهب عنهم رجز

1 - انظر سيد قطب، فى ظلال القرآن (٣/١٤٨٦).

الشیطان ولیربط علی قلوبهم، ویثبت به الأقدام، والله هو الذی أوحى إلی الملائكة لیثبتوا الذی آمنوا، وألقى فی قلوب الذین كفروا الرعب، وهو الذی أشرك الملائكة فی المعركة، وأمرهم أن یضربوا فوق الأعناق وأن یضربوا من المشركین كل بنان، وهو الذی غنمهم الغنیمة، ورزقهم من فضله بعد أن خرجوا لا مال ولا ظهر ولا عتاد.

فلما ذكرهم بذلك، وأعلمهم أن ذلك شأنه مع الكافرين، اعترض فی خلال ذلك بتحذیرهم من الوهن والفرار، فالجملة معترضة بین جملة إذ یوحى ربك للملائكة وجملة فلم تقتلوهم، وفی هذا تدريب للمسلمین علی الشجاعة والثبات والاقدام لتكون تلك سیرتهم الدائمة، بعد ذلك صموداً عند اللقاء حتی یروا بشائر نصره التی لا تتخلف إن التزموا أسباب هذا النصر، وهی خطة محمودة عند العرب لم یزدها الإسلام إلا تقویة، قال الحصین بن الحمام:

تأخرت أستبقى الحیاة فلم أجد لنفسی حیاة مثل أن أتقدما^(۱)

بعد أن استعرض القرآن الکریم تلك المشاهد كلها، الآن یجیء الأمر للذین آمنوا أن یثبتوا إذا لقوا الذین كفروا وألا یولوهم الأدبار فراراً وهزيمة، ما دام أن النصر والهزيمة موكولة لإرادة فوق إرادة البشر، وإلی أسباب غیر الأسباب الظاهرة التی یراها الناس حیث كان المسلمون مظهراً لتجلی ذلك كله من الله تعالى، وهو یرید فی نفس الوقت أن یكون الجهاد والبلاء من سعیمهم لیثیبهم الثواب الأوفی ویعطیهم الجزاء الأعلى.

ویكون المعنى یا أيها الذین آمنوا إذا واجهتم الذین كفروا زحفاً متدائین متقاربین، فلا تفروا عنهم إلا أن یكون ذلك مكيدة حرب تختارون بها أو تنحرفون بها إلی موقع حسن، أو تدبرون خطة أحکم، أو أن یكون ذلك انضماماً إلی فئة أخرى من المسلمین، أو إلی قواعد

1 - انظر الطاهر بن عاشور، التحریر والتنویر (۲۸۶/۹).

المسلمين لتواصلوا وتعاودوا القتال كرة أخرى، وأن من تولى وأعطى العدو دبره بهذا الوضع المستبشع فقد استحق ذلك العقاب؛ غضباً من الله ومأوى في جهنم، وصار هذا الحكم عاماً إلى يوم القيامة حيث ذكر الرسول ﷺ أن الفرار من الزحف من الكبائر العظيمة.^(١)

ليس من مقصودنا هنا تفسير الآية وتحليلها، لأنها ليست من السيرة القرآنية، وإنما جاءت لتبين للمؤمنين.

أولاً: صحة كل هذه المشاهد السابقة، وصدق نسبتها إلى الله تعالى، ومن ثم جاء الأمر بناء على ذلك بعدم الفرار أمام الكفرة، ولذا كانت الجملة مترابطة مع السياق ملتحمة معه.

ثانياً: كان التركيز على هذا الأمر مبكراً دليلاً على أنه بداية دخول المسلمين لمعارك عديدة مع الكفرة، وأنهم يجب أن يؤهلوا من أول معركة لكل ملاقاتة بعد ذلك، فكانت رؤية هذه العناية من الله تعالى من المهمات الحاتئة لهم على ذلك البذل والتفاني والإقدام.

يستكمل القرآن الكريم بقية مشاهد موقعة بدر، وهو المشهد الذى يكشف لنا عن قدرة الله وهو يدير المعركة وراءهم، ويقتل لهم أعداءهم، ويرمى لهم ويصيب، وهم ينالون أجر البلاء؛ لأن الله تعالى يريد أن يتفضل عليهم بحسن البلاء، ليشيهم عليه من فضله، وهو الذى وهبهم إياه.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ [الأنفال: ١٧].

ذكرنا في أحاديث السيرة أن الرسول ﷺ أمر بقبضة من حصى الوادى، فرمى بها

1 - انظر لما سبق سيد قطب، في ظلال القرآن (٣/١٤٨٧)، والحديث رواه الشيخان: «اجتنبوا الموبقات السبع...».

المشركين، وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا أصابته فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم فقليل لهم فلم تقتلوهم، والأظهر أن الفاء هي الفصيحة وهي واقعة في جواب شرط مقدر، أى إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، أو التقدير إذا علمتم أن الله أوحى إلى الملائكة بضرب أعناق المشركين وقطع أيديهم فلم تقتلوهم أنتم ولكن الله قتلهم وقد بين لكم ذلك.^(١)

وكذلك كانت تلك الرمية من النبى ﷺ التى انهزم المشركون على إثرها فقال له تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾، أنت يا محمد ﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَئِكَ اللَّهُ رَمَى﴾، أنها رمية الله تعالى، فلم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمى البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت هذا الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسوله ﷺ لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه، لأن أثرها الذى لا يطيقه فعل البشر هو فعل الله عز وجل، فكان الله فاعل الرمي على الحقيقة وفي ذلك:

١ - إثبات لطف الله تعالى بالنبى ﷺ وإظهار صدق وأعلام نبوته.

٢ - وهو كون قتل المشركين ورميهم حاصلاً من الله لأمن المسلمين ونصرهم يفيد تعليل وتوجيه ما نهاهم عنه من توليه الأدبار، ويفيد أمرهم بالصبر والثبات.

٣ - التعريض بضمأن تأييد الله إياهم إن امتثلوا لقوله مثلاً: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فإنهم إن امتثلوا ما أمرهم الله كان الله ناصرهم، وذلك ما يؤكد على

١ - هذا ما ذهب إليه في الكشف (٢/١١٩)، وانظر بن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٩٣)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٥١-٣٥٢)، والالوسى، روح المعاني (٦/٢٦٧)، الفخر الرازى، التفسير الكبير (٧/٤٦٣)، الطبرى، جامع البيان (٩/١٣٦)، وذهب أبو حيان إلى أن الفاء ليست جواب شرط محذوف، وإنما هي للربط بين الجمل، البحر المحيط (٥/٢٩٥).

ما أشير إليه من قبل من الوعيد على تولية الأدبار، وقطع عذر الفارين المتولين، ومن ثم جاءهم في وقعة أحد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وما زالت هناك علل أخرى يذكرها القرآن الكريم لما أنزل الله من أسباب نصره، منها ما ختمت به هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فجعل قتل المشركين وما أصابهم من رمية ﷺ لعلة أخرى، وهي أن يبلى المؤمنين بلاء حسناً أى ليعطيهم سبحانه من عنده عطاء جميل ومنه قول زهير:

جزى الله بالاحسان ما فعلاً بكم فأبلاهما خير البلاء الذى يبلى

غير مشوب بالشدائد، يشكرونه عليه فيظهر ما يدل عن قيامهم بشكره مما تختبر به طوبتهم لمن لا يعرفها، وهذا العطاء هو النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة.^(١)

والعلة الثانية في هذا السياق في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَمَّ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾

[الأنفال: ١٨].

والأشارة بـ ﴿ذَلِكَمَّ﴾، إلى البلاء الحسن وعطف عليه جملة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾، والتقدير ليبلى المؤمنين وليوهن كيد الكافرين، فأراد الله توهينهم بهزيمتهم تلك الشنيعة ليوهن كيدهم للإضرار بالمسلمين، وهو بشارة لاستمرار وزيادة هذا الوهن حتى زوال عداء قريش للنبي ﷺ وللمسلمين، وذلك ما انتهى إليه واقع الأمر ويدل على البشارة أنه ما كان ذلك الوهن ليعود قوة تهزم بها المسلمون ويعود المسلمون مقهورين تحت الكفرة.

١ - الطبرى، جامع البيان (٩/١٣٧)، الزخشرى، الكشاف (٢/١١٩-١٢٠)، الفخر الرازى، التفسير الكبير (٧/٤٦٥)، وأبا السعود، الارشاد (٢/٣٥١-٣٥٢)، الألوسى، روح المعانى (٦/٢٦٧-٢٧١)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٢٩٣-٢٩٨).

تنتقل الآيات مرة أخرى لتنتقل لنا مشهداً من بديع المشاهد، وإن كان موقعه في السيرة هو أول مشاهد اللقاء الدامي، ولكن أنسب موضع له أن تحتّم به تلك المشاهد المقصودة كما جاء به القرآن الكريم، فهو يشير إليه يذكره في ذات الوقت بأسلوب التوبيخ والسخرية اللاتقة بسخرية الكفرة وما كانوا فيه، لأنه مع أنه وقفة لأبى جهل في بداية المعركة، إلا أن أثرها ووقعها يثبت أو يهدم في نفس الوقت الحقائق في صدور المؤمنين والكفرة على السواء ولذا جعل التنبيه به من أشد المهيات، والختم به لتلك المقاطع المتسلسلة من القصص القرآني من أعظم المناسبات بل والمفاجآت، التي تدل على القصد وأن ذلك كله لم يكن فلتة أو عرضاً.

وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئْتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

وقف أبو جهل لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض فقال: «اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يُعرف فأحنه الغداة»^(١)، أى فأهلكه، فكان هو المستفتح. أى هو الذى دعا أن يهلك أضل الفريقين، ولذا ذهب جمهور المفسرون على أن الخطاب موجه إلى المشركين وفيه التفات من الغيبة اقتضاها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾، وكان النصر والفتح لرسول الله ﷺ وأصحابه، فخطوب المشركون بأن قد جاءهم الفتح على سبيل التهكم والتوبيخ أى جاءهم الفتح نعم ولكنه فتح للمسلمين ونصر عليكم أيها المشركون، وحمل ابن عطية «المحرر الوجيز»، فعل جاءكم على معنى فقد تبين لكم النصر ورأيتموه، وأنه

١ - السيرة - ابن هشام (١٩٩/٢)، والحديث رواه أحمد (٤٣١/٥)، وابن جرير (١٣٨/٩)، والبيهقى (٧٤/٣)، وهو حديث صحيح.

عليكم لا لكم، فيكون مجيء الفتح بمعنى الظهور فلا تهكم فيها.^(١)

وجاء طلب الفتح بصيغة المضارع مع أن الفعل قد مضى لقصد استحضار الحالة من تكريرهم الدعاء بالنصر على المسلمين، وبذلك تظهر مناسبة عطف باقى الجمل ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا..... وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا﴾، أى: وإن تعودوا إلى العناد والقتال نعد إلى هزمكم كما فعلنا بكم يوم بدر.

ثم أياسهم من الانتصار فى المستقبل بقوله: ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئْتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾، حيث أكد لهم أنهم لن تنفعهم جماعتهم على كثرتها كما لم تغن عنهم شيئاً فى موقعة بدر وجاء بـ ﴿وَلَوْ﴾، الاتصالية أى لن تغنى عنكم فى حال من الأحوال، ولو كانت فى حال كثرة على فئة المؤمنين وهنا احتمالان فى عود الضمير فى ﴿تَعُدُّوا﴾:

الأول: إن تعودوا للاستفتاح وطلب النصر على المسلمين فالحال واضح.

الثانى: إن تعودوا لقتال ومحاربة المسلمين، فيشكل عليها وقوع هذه الفلته للمشركين فى غزوة أحد.

والجواب عن هذا أن الشرط لم يكن بأداة شرط ليفيد العموم فلا يتخلف كـ(مهما) وغيرها وبالتالى لا يبطله تخلف مضمون الجزاء عن حصول الشرط فى مرة.

ويمكن إضافة القول بأن المسلمين قد انتصروا فى أحد حتى إذا خالفوا شرط النصر بالامتنال لأوامر الشرع، لأنه كما ذكرنا من قبل أنه مهما تكبر الجماعة المسلمة مستمسكة

1 - الطبرى، جامع البيان(٩/١٣٨)، الزنجشى، الكشاف(٢/١٢٠)، وابن عاشور، التحرير والتنوير(٩/٢٩٨-٣٠١)، ابن عطية، المحرر الوجيز.

وممثلة لأوامر الشرع فإنها منصوره، يضاف إلى ذلك أن غزوة أحد لم تكن هزيمة بالمعنى المعهود للهزيمة، إذ لم يؤسر أحد، ولم تسب النساء والذراري، ولم تحتل الأرض، ولم يستسلم الجيش، ولم يقم جيش المشركين بالبقاء في أرض المعركة أيامه التالية على العادة الجارية حين يحتفل بالنصر، بل أسرع بالرجوع إلى مكة، علاوة على قيام جيش المسلمين بمطاردة واسعة النطاق للجيش المكي في اليوم التالي للمعركة، مما جعلهم يسرعون الخطى ناجين بجلودهم من مصير عسر، لو استكملوا الحرب مع جيش المسلمين بعدما رأوا نصر المسلمين عليهم في أول المعركة ووقوع أعداد كبيرة من القتلى بينهم.

ومع ذلك ففي هذا الوعيد بشارة بوقوع النصر الحاسم والفتح المبين، وأنه سيكون للمسلمين يوم فتح مكة.^(١)

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، لتكون تعليلاً لما سبق من نصر وتأيد، وتعليلاً وتمهيداً لما سيأتي من ملاقاتة الكافرين من أن النصر سيكون حليفهم، لمعية الله التي لا يدركها العقل لأولئك المؤمنين وأن تلك المعية التي من ضمن ما تقتضيه، نصر مَنْ كان الله معهم، مكفولة لكل من تحقق بالإيمان في أي عصر وزمان الإيمان الذي هو الركن الركين في نزول نصر الله تعالى، ولكنه ليس أي إيمان، بل الإيمان الذي يصحب الرب فيه أولياءه، لأنه إذا كان معهم فمعهم الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل ثم الواو في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ...﴾، عاطفة على جملة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾، فيستقيم به أسباب النصر أنه يوهن ويضعف تدبير وعمل الكفرة، وهو مع المؤمنين في ذات الوقت يقوئهم ويمدهم ويحفظهم وينصرهم، ويحقق لهم كل ما سبق من نعم أسداها لهم من أول السورة إلى ذلك الموقع.

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير (٩/٣٠٠).

وورد بعد ذلك مباشرة قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ
وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

ولما لم يكن غرضنا التفسير لغير آيات الغزوة، فإننا نختصر إلى القدر الذى يشير إلى
ترابط مشاهد الغزوة بما تبعها من أوامر ووصايا وعظات فقط. وبهذا الاختصار نختم هذه
المشاهد، لنعود إلى مقاطع أخرى ذكرتها السورة من مشاهد الغزوة، ولكنها جاءت متباعدة
عن هذه السلسلة المتتابعة وبإدء الرأى فإن هذه الآيات عود لما بدأت به آيات السورة فى
قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

فضمت هاتان الآيتان فى البدء والختام كل تلك المقاطع وأغلقت عليها وشدتها برباط
النصر رباط الطاعة لله ورسوله ﷺ وترك مشاقته وعصيان أمره. فإنه أراهم الله تعالى آيات
لطفه وعنايته بهم، ورأوا فوائد امتثال أمر الرسول ﷺ بالخروج لملاقاة الجيش وكانوا
كارهين، أعقب ذلك بأن أمرهم بطاعة الله ورسوله ﷺ شكراً على نعمة النصر، واعتباراً بأن
ما يأمرهم به خيرٌ عواقبه، وحذرهم من مخالفة أمر الله تعالى ورسوله ﷺ.

وفى هذا رجوع إلى الأمر بالطاعة الذى افتتحت به السورة رجوع الخطيب إلى مقدمة
كلامه ليأخذها بعد الاستدلال فى صورة نتيجة أسفر عنها احتجاجه.

فإنه لما ابتداءً فأمرهم بطاعة الله ورسوله ﷺ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾، فى سياق ترجيح ما
أمرهم به الرسول ﷺ على ما تهواه أنفسهم، وضرب لهم مثلاً لذلك بحادثة كراهتهم
الخروج إلى بدر للقاء النفيى خشية الهزيمة، وما نجم عن طاعتهم للرسول ﷺ ومخالفتهم
هواهم من النصر العظيم والغنى الوفير والتأييد المين للرسول ﷺ، والتأسيس لإقرار دينه
إلى آخر المشاهد التى ذكرهم بمرتته فيها، وكيف هزم المشركين لمشاقتهم لله ورسوله ﷺ
وهى معصية وترك طاعة الرسول ﷺ، وما حدث لهم جراء ذلك، وعرض بالمسلمين فى أن

يصيبهم ما أصاب المشاقين أن هم اتبعوا هواهم وتركوا طاعته ﷺ، وبوجوب أن يتبرأوا مما فيه أى شائبة لعصيانه، وضمن لهم بعد ذلك النصر أن أطاعوا الله ورسوله ﷺ وتوكلوا على الله وطلبوا منه النصر، أعقب ذلك بإعادة الأمر بالطاعة لله ورسوله ﷺ وأن لا يتولوا عنه كل ذلك فذلقة للمقصود من الموعظة الواقعة بطولها.

انتهت هذه الخلاصة المجملة لما فصل تبييناً للقضية الأصلية، ونسرع إلى البحث في بقية المشاهد التي صورت متباعدة عن المشاهد الأولى، لحكمة عالية لا شك، إذ اشتملت الآيات الواقعة بين تلك المشاهد على منن ونعم ذكرهم الله بها، وعلى أوامر ونواه يجب أن يلتزموها في مسيرتهم، وعلى وصايا تعيق المسيرة وتمنعها من مواصلة الرحلة مرفوعة الراية، ووصايا تثبيت الأقدام، وتبقى الراية وتدفعها دائماً إلى الأمام، وتضم في تلك الآيات أيضاً صورة المشركين وإنفاقهم الأموال ليحاربوا الله ورسوله، فإذا بها تكون عليهم حسرة ويغلبون في الدنيا، ويحشرون إلى جهنم في الآخرة، مما يقوى قلوب المؤمنين، ويرفع معنوياتهم، ويرشدهم إلى الطريق الأمثل لملاقاة الكفار والانتصار عليهم إلى آخر ما حوته تلك الآيات الكريمات، إلى أن نصل إلى المشهد المقصود حيث يجمع في طياته مشاهد كثيرة وهو في قوله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَتَجْمَعُونَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاحْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْنَاهُمْ كَثِيرًا لَفْشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٤﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ

النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهْمُ الشَّيْطَانِ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِئْتَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ فَرِيدٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرُبُونَ ۖ وَأَجْهُهُمْ ۗ وَأَدْبَرَهُمْ ۗ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٦١﴾ ﴿الأنفال: ٤١-٥١﴾.

بدأت الآيات الأولى في قصة بدر كما ذكر القرآن الكريم بتسليم الأنفال لله ورسوله ﷺ وأنها خاصة به جل وعلا يضعها ويقسمها حيث يشاء، ثم بين الأهم من الأنفال والذي يجب أن يكون عليه المؤمنون من الإيمان وأخلاقه، ليركنوا إليه ويتوكلوا عليه لأن كل ذلك بترتيبه هو سبحانه لا بترتيبهم ولا بترتيب الدنيا جميعاً.

وإذ استقرت الأحوال والنفوس والأوامر والنواهي والوصايا كما أبرزتها الآيات من الله تعالى، عاد القرآن الكريم ليفصل قسمة الغنائم كما أراد هو جل وعلا، ومع إعلان هذه القسمة بعد انتهاء المعركة وضح لهم أموراً أخرى تؤكد عليهم أن الأمر كله لله من قبل ومن بعد، وشرح صدورهم بمعنى جديد مازالت أصداه عالية، وستبقى إلى يوم القيامة وهو تسمية يوم بدر بيوم الفرقان، وكان مناسباً بعد ذكر الفرقان أن يبين لهم مستحضراً الحالة أمامهم كأنها مشاهدة كيف كان فرقاناً، وكذلك التوجيهات التالية لهذا النصر الإلهي، الذي لا دخل لهم فيه ليعود بهم إلى السيرة العطرة التي أرادها لهم، ولتكون تلك التوجيهات النبراس الهادي لهذا الطريق القويم لرفعة الدنيا والآخرة.

وبتفصيل يسير يبدأ هذا الشطر ببيان حكم الله تعالى في الغنائم ليستحووا له إن كانوا يؤمنون بالله وما أنزل على عبده يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، ثم يكشف لهم عن تدبير الله وتقديره في الموقعة التي جاءت بهذه الغنائم، ويستحضر جانباً آخر من مواقف المعركة

ومشاهدها يتجلى فيه هذا التقدير وذلك التدبير، كما يتجلى مرة أخرى أنهم لم يكونوا سوى أداة لإمضاء قدر الله تعالى ستاراً له، ثم يهيب بهم من وراء هذا الذي كشفهم لهم من حقيقة المعركة إلى الثبات عند اللقاء، وإلى ذكر الله وطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ويحذرهم التنازع مخافة الفشل والانكسار، ويدعوهم إلى الصبر، وتجنب البطر والرياء في الجهاد، ويحذرهم عاقبة الكفار الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله منخدعين بكيد الشيطان، ويؤكد لهم مرة أخرى، الدعوة إلى التوكل على الله وحده، القوى القادر على النصر، الحكيم في تقديره وتدبيره، ثم يريهم سنته في أخذ الكافرين المكذبين، وكما ذكر في الشطر الأول الملائكة يثبتون المؤمنين، ويضربون أعناق الكفار وأيديهم، ذكر هنا أن الملائكة يتوفون الذين كفروا يضربون وجوههم وأدبارهم - ثم زاد بذكر نعمته ومنتته في تألف المؤمنين والتي لم تكن ولو اجتمع لها من بأقطارها - يطمئنهم إلى كفايته لهم وحمايته إياهم، ومن ثم حرضهم على القتال، وأن يصمدوا في أضعف حالاتهم، بضعف أكفائهم من المشركين، والله ناصرهم ما صبروا.^(١)

هذا التمهيد نواجه به ما يخصنا فقط من أحداث السيرة ومعانيها، ونبدأ لما استسلموا لأمر الله كما طلب منهم، واستقر فيهم مدلول الإيثار، عاد ليرد عليهم أربعة أخماس الغنيمة، ويستبقى الخمس على الأصل لله ولرسوله ﷺ، لقد استقر في نفوسهم أنهم لا يملكونها ابتداء بحق الغزو، إنما يستحقونها بمنح الله لهم إياها، بما منحهم من نصر من عنده، وبما دبر أمر المعركة كله، إن الاستسلام لهذا الأمر الجديد هو مقتضى الإيثار بالله تعالى، وذكر مع الإيثار بالله الإيثار بما أنزل على عبده يوم الفرقان فذكرهم بعبده ﷺ تشديداً على الإيثار به، وتصديقاً له فيما أخبر عن ربه، وأن العبودية التي وصل إليها هي أعلى درجات الإيثار والاصطفاء وإنه أعلى مقام يصل إليه الإنسان بتكريم الله له، فهي تجلي لهم

1 - انظر سيد قطب، في ظلال القرآن (١٥١٥-١٥١٦).

قيمة النبي ﷺ عند الله، وفيما يبلغ به عن ربه، وفيما يوكله فيه ربه من التصرف وبالتالي يرشدهم إلى حقيقة العبودية التي يجب أن يسعوا ليدركوها بفضل الله تعالى ليخرجوا بها من عبودية العباد والنفس والهوى والمألوفات والعادات، ليكونوا أحراراً كما فطرهم لا يعبدون سوى إلههم الواحد جل وعلا.^(١)

وبيين لهم أيضاً أن ما أنزل على عبده يوم الفرقان قد رأوه وسمعوه، قد عاينوه وعاشوه وعلموا أن ليس لأحد فيه فضل، وألا قوة على إيجاده وإنزاله إلا للقوى القاهر، مما يستجيش به عندهم عواطف الإيثار ودلائل اليقين وقوة الثقة، التي تحملهم على أن يكونوا كما أراد الله ورسوله ﷺ في كل أحوالهم ومعاركهم لينزل عليهم ما شاهدوه بأعينهم واستقر مدلوله في قلوبهم ووجدانهم، ليس بعد ذلك دلائل لإيثار، ولا لتصديق ولا لنبوة، وما يتخلف شيء بعد الآن بسبب من أنفسهم.

ونجىء إلى وصف ذلك اليوم بالفرقان.

إن الفرقان الأول - وهو المجمل - الذى أشار إليه المفسرون، وهى أنها كانت فرقاناً بين الحق والباطل، ولكنه الحق الذى قامت عليه السماوات والأرض الحق الأصيل الذى يعنى تفرد الرب بالالوهية والسلطان والتدبير والتقدير، وأن الكون كله فى عبوديته لا معقب له ولا شريك، وبين الباطل الزائف الذى يقيمته فى الأرض طواغيت تعبد من دون الله تعالى وتتصرف فى خلق الله بما تشاء هى.

لقد كانت فرقاناً بين الوحدانية المجردة لله تعالى فى الشعور والضمير، والخلق والسلوك والعبادة والمعاملة، وبين الشرك فى كل الصور التى تشمل عبودية الضمير لغير الله تعالى من الأشخاص والقيم والأهواء والتقاليد وغيرها بحيث لا تنحنى الهامات لغير

1 - انظر سيد قطب، فى ظلال القرآن (١٥٢٠-١٥٢١).

الله متساوية في الخضوع لشرعة.

لقد كانت غزوة بدر فرقاناً بين عهدين في تاريخ الإسلام عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار، وعهد القوة والحركة والمبادأة، إنه عهد الاندفاع لتحقيق المنهج الجديد والدولة الجديدة والمجتمع الجديد في واقع الحياة، يزيل المعوقات التي تحول دون ذلك في واقع المسلمين أولاً، وفي حياة البشرية بعد ذلك. وما هي إلا سنوات بداية بذلك العهد الذي كان إيذاناً بانتهاة دولة الكفر حتى ظهر صدق هذا الفرقان وأنه كان حقاً.

كانت فرقاناً بين عهدين في تاريخ البشرية، فالبشرية بمجموعها قبل قيام نظام الإسلام كانت غير البشرية بعد قيام نظام الإسلام، بلا جدال، وكانت تلك البداية في غزوة بدر، والتي لولا تدبير الله تعالى لدينه وجنده وما أراد لهذه البشرية من الهداية بالرسالة الخاتمة لكانت غنيمة لقافلة بها بعض الأموال.

هذا المجتمع الذي يمثل ميلاداً جديداً للإنسان، وهذه القيم التي تقوم عليها الحياة، ويقوم عليها النظام الاجتماعي والقانوني وغيره كل ذلك لم يعد ملكاً للمسلمين وحدهم، بل صار شيئاً فشيئاً ملكاً للبشرية تأثرت به سواء في دار الإسلام أو في خارجها، سواء بصدقة الإسلام أو بعداوتة، إن الصليبيين الذين زحفوا من الغرب ليحاربوا الإسلام في ربوعه قد تأثروا بقضاياه ومنها نظامه الاجتماعي فرجعوا إلى بلادهم ليحطموا النظام الاقطاعي، وإن التتار الذين دمروا خلافة الإسلام وهدموا حواضره بإيحاء من اليهود والصليبيين من أهل دار الإسلام رجعوا يعتنقون هذه العقيدة ونشروها في رقعة من الأرض جديدة في قلب أوروبا ظلت الخلافة فيها من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين، على أية حال لقد تأثر التاريخ البشري كله في أرض الإسلام أو الأرض التي تناهضه على السواء.^(١)

١ - سيد قطب، في ظلال القرآن (١٥٢١-١٥٢٣).

وأخيراً كانت فرقاناً في التصور بين أسباب النصر وعوامل الهزيمة، لقد كانت كل عوامل النصر الظاهرة في صف المشركين، وكانت في صف المؤمنين كل عوامل الهزيمة الظاهرة، حتى قال المنافقون: ﴿عَرَّهْتُمْ لَأَيِّ دِينِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٩]، لقد أراد الله تعالى أن تجرى المعركة على هذا النحو لتكون فرقاناً بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر والهزيمة، فتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد، ليعلموا أن النصر من عند الله العزيز الحكيم، لقد كانت تلك الألفاظ القليلة الموحية بكل تلك الإيجاءات هي أعلام السيرة التي ساروا بها وساروا تحتها وساروا وراءها، وكلما تمسكوا بها ثبتت وتقدمت وانتصرت، وكلما سقط علم من أعلامها ولم يرفعهه بدأت تهتز الأركان، وتتكالب القوى وهو ما ندركه اليوم، وندرك به ضرورة رفع تلك الأعلام مرة أخرى لتعيد السيرة سيرة الرسول ﷺ وصحبه، السيرة الأولى.

وهنا يعود السياق إلى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، يعود إلى المعركة ليعيد عرضها في ثوب لم ينشر من قبل بأسلوب عجيب في استحضار مشاهدتها ومواقفها، كما لو كانت معروضة فعلاً، ويكشف عن تدبير الله تعالى في إدارتها، وكان هذا المشهد يمكن أن يذكر في أول السورة مع أول ما ذكر إذ له تعلق شديد ببداية المعركة، وإنما ذكرها ليدل على الفرقان الحاصل بهذا العرض، ويبينه لهم بعد المعركة لأنه المستمر معهم بعد ذلك ومع المؤمنين إلى يوم القيامة، وكذلك مع الكافرين، وليكون تمهيداً لأحكام أغراض مستمرة دائمة مبتدئة بيوم الفرقان.

يقول تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيْعَدِ وَلَكِنَّ لَيْقِظَى اللَّهِ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَى عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٠﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَنْكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥١﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً

وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ [الأنفال: ٤٢-٤٤].

إن الآيات تحكى وتنطق بمواقع الفريقين، وفي نفس الوقت شاهدة بالتدبير الخفى من ورائها إن يد الله تكاد ترى وهى توقف هؤلاء هنا وهؤلاء هناك والقافلة من بعيد أسفل منهم بمحاذاة الساحل.

ثم تبين الآيات الرؤيا التى رآها النبى ﷺ فى إغفائه تقللهم فى عينه تسليماً من الله للمؤمنين من الفشل والتنازع لو رآهم كثيراً إلى آخر المدلولات والاشارات والمنطوقات فى هذه الآيات القليلة الموحية بأعظم المعانى التى سنشير إلى بعضها فى طوايا الكلام إن شاء الله تعالى.

لقد نزل المؤمنون بصفة الوادى القريبة من المدينة، ونزل جيش المشركين بقيادة أبى جهل بالصفة البعيدة من المدينة، وبين الفريقين ربوة تفصلهما، وأما القافلة فقد فر بها أبوسفیان إلى محاذة الساحل فكانت تحت المؤمنين من جهة البحر، ولم يكن كل من الجيشين يعلم بموقع صاحبه، وإنما جمعها الله هكذا على جانبى الربوة لأمر يريده، حتى لو أن بينهما موعداً على اللقاء ما اجتمعا بمثل هذه الدقة والضبط من ناحية المكان والموعده، هذا يذكر به المولى سبحانه المؤمنين الآن ليذكرهم بتدبيره وتقديره وإحاطته بكل شيء .

إن وراء هذا التلاقى بهذا العرض لأمرأ مقضياً يريد رب العباد تحقيقه بكم أيها المؤمنون فى عالم الواقع ويدبر له هذه التدبير الخفى اللطيف، ويهيء له جميع الظروف التى تيسر لكم القيام به إنه قوله وحكمه العدل: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(١)

إن الهلاك هنا قد يعبر به حقيقة عن القتل، مجازاً عن الكفر، وكذا الحياة يعبر بها عن

1 - يراجع كذلك لمعنى البيئنة الفخر الرازى، التفسير الكبير (٧/ ٥٠١).

الحياة والإيمان حقيقة ومجازاً كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فمن يؤمن بعد ذلك في هذا الفرقان الضخم يؤمن عن بينة واضحة تبرزها المعركة، ومن يكفر بدون ما شبهة قط يكفر عن بينة فيهلك عن بينة - إن المعركة بظروفها التي لا يستها وصاحبها - تحمل بينة لا تجحد وتدل دلالة لا تنكر على تدبير وراء تدبير البشر، وعلى قوى وراءها غير قوة البشر إنها تثبت لهذا الدين رباً يتولى أصحابه متى أخلصوا له وجاهدوا في سبيله وصبروا وثبتوا، وأنه لو كان الأمر إلى القوة المادية الظاهرة ما هزم المشركون ولا انتصرت العصبة المسلمة هذا الانتصار العظيم.

ولقد قال المشركون أنفسهم لحليفهم الذي أراد أن يمدهم بالرجال وهم ذاهبون للقتال: فلعمري إن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، وإن كنا إنما نقاتل الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بالله من طاقة. ولقد علموا - لو كان العلم يجدي - أنهم إنما يقاتلون الله كما قال لهم رسول الله الصادق الأمين ﷺ، وأنه ما لأحد بالله من طاقة.... فإذا هلكوا بعد ذلك بالكفر فإنما يهلكون عن بينة.^(١)

وبعد هذا التعقيب على ما سبق يأتي أظهار القرآن الكريم للتدبير الخفي اللطيف: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَنَكُهُمْ كَثِيرًا لَّفَشَلْتُمْ ۖ وَلَتُنزَعُنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال: ٤٣].

لقد كان من تدبير الله تعالى أن يرى النبي ﷺ رؤيا في منامه يرى فيها الكافرين قليلاً لا قوة لهم ولا وزن فيخبر أصحابه برؤياه فيستبشروا ويتشجعوا على خوض المعركة، ويخبر المولى جل وعلا بعله ذلك، بأنه علم سبحانه أنه لو أراهم كثيراً لفت ذلك في عضد

1 - سيد قطب، في ظلال القرآن (١٥٢٥).

المسلمين، ولأضعف قلوبهم عن قتال لا استعداد له ولا توقع، ولتنازعا في اللقاء وعدمه، والنزاع أشأم شيء يصيب جيشاً في مثل هذا الموطن.

والرؤيا - رؤيا النبي ﷺ وهي حق -، فكيف يراهم على مخالفة الواقع وهم كثير، إنهم قليل كما رأهم ﷺ فعلاً إن القوة مهما كانت كثيرة العدد والعدة بغير إيمان فهي قليلة العناء قليلة الوزن في المعركة، قلوبهم خواء من الإدراك الواسع والإيمان الدافع، هذه هي الحقيقة من وراء الظاهر المخادع، وهي التي أدخلت الطمأنينة في قلوب المؤمنين وكان هذا تدبيراً من تدبير الله العليم بذات الصدور كما ختمت به الآية.

وعندما التقى الجمعان جاءت رؤية العيان لتكرر الرؤيا النبوية الصادقة بأن يرى كل من الفريقين الآخر قليلاً ليقضى الله أمره المفعول وينفذ قدره السابق، وجاء التذييل: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، وهو التعقيب المناسب لتحقيق التدبير ووقوع القضاء، وهو أن الأمور كلها مرجعها إلى الله - سبحانه وتعالى - يصرها بسلطانها، ويوقعها بإرادته، ولا تند عن قدرته وحكمه، ولا ينفذ في الوجود شيء إلا ما قضاه وجرت به المقادير. ومنها على وجه الأخص ذلك الحكم الذي نحن بصددده، إذ الكلام مسوق إليه سوقاً أولياً.

ونشير سريعاً إلى تحليل تلك الآيات من آيات السيرة القرآنية لغزوة بدر، حيث بدأت بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وهذا انتقال لبيان ما أجمل من حكم الأنفال الذي افتتحته السورة، وافتتاحه بـ ﴿وَأَعْلَمُوا﴾، للاهتمام بشأنه، والتنبيه على رعاية العمل به، فإن المقصود بالعلم تَقَرُّرُ الجزم بأن ذلك حكم الله، والعمل بذلك المعلوم، فيكون ﴿وَأَعْلَمُوا﴾، كناية مراداً به صريحه ولازمه، والخطاب لجميع

المسلمين، وبالخصوص جيش بدر.^(١)

﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾، شرط يتعلق بها دل عليه قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾، لأن الأمر بالعلم لما كان المقصود به العمل بالمعلوم والامتنال لمقتضاه، لأن العلم المجرد يستوى فيه المؤمن والكافر صح تعلق الشرط به، فيكون قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾، دليلاً على الجواب، أو هو الجواب مقدماً على شرطه، والتقدير: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنها غنمتم إلى آخره، لأن الذى يتوقف على تحقق الإيمان بالله وآياته هو العلم بأنه حكم الله مع العمل المترتب على ذلك العلم. مطلق العلم بأن الرسول ﷺ قال ذلك.^(٢)

وبالتأمل نرى أن الشرط هنا محقق الوقوع؛ إذ لا شك في أن المخاطبين مؤمنون بالله، والمقصود منه تحقق الشروط، وهو مضمون: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ إلى آخرها.

وجيء في الشرط بحرف ﴿إِنَّ﴾، التى شأن شرطها أن يكون مشكوكاً في وقوعه زيادة في حثهم على الطاعة حيث يفرض حالهم في صورة المشكوك في حصول شرطه إلهاباً لهم ليعتصموا على إظهار تحقق الشرط فيهم. فالمعنى حينئذ أنكم آمنتم بالله والإيمان يرشد إلى اليقين بتمام العلم والقدرة له سبحانه، وآمنتم بما أنزل على عبده يوم بدر حين فرق الله بين الحق والباطل فرأيتم ذلك رأى العين وارتقى إيمانكم من مرتبة حق اليقين إلى مرتبة عين اليقين، فعلمتم أن الله أعلم بضعفكم من أنفسكم إذ يعدكم إحدى الطائفتين، فكان ما دفعكم إليه أحفظ لمصلحتكم، وأشد تثبيتاً لقوة دينكم فمن رأوا ذلك وتحققوه فهم أحرى بأن يعلموا أن ما شرع الله لهم من قسمة الغنائم هو المصلحة، ووراء ذلك مصالح حجة آجلة في الدنيا والآخرة.

1 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/٥).

2 - الزمخشري، الكشاف (٢/١٢٧)، أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٦٢)، اللوسى، روح المعاني (١٠/٨)،

الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/١٣-١٤).

وقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا﴾، عطف على اسم الجلالة، والمعنى وأمتتم بما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان - يوم بدر - وتخصيص ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾، بالذكر من جملة معتقدات الإيمان؛ لأن لذلك المنزل في هذا اليوم وقعه الشديد التأثير عليهم مما يجعل لهذا المنزل مزيد تعلق بالمسارعة إلى العمل بما أمروا به في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾.

وإن ما نبههم إليه في ذلك الإنزال أمران:

الأول: أن يكون المنزل هو الوحي الذي أنزله على عبده يوم بدر كوعده باحدى الطائفتين وتبشيريه بالنصر، والوحي بقلة أولئك وهؤلاء... إلى آخر ما نزل من وحي الله تعالى لرسوله ﷺ.

الثاني: أن المنزل يوم الفرقان هو ما شاهدوه بأعينهم من خوارق العادات، واللفظ الإلهي، كتزول الملائكة، وإنزال المطر عند حاجة المسلمين إليه، ونصر القلة على الكثرة إلى غير ذلك مما ذكرنا في موضعه.

وإن إطلاق الانزال ليشمل الأمرين كما ذكرنا معاً. وتزيد الآية في إظهار أمر آخر وهو التشريف لهذا الانزال والتطهر؛ لأن إطلاق الانزال على حصوله استعارة تشبيهاً له بالواصل إليهم من علو تعظيماً له^(١)، علاوة على تعظيم النبي ﷺ بالاضافة إلى الله جل وعلا، وبصفة العبودية خاصة التي هي أعلى درجات وصفات المدح، مع إرشاد المؤمنين إلى العبودية التي يجب أن يكونوا عليها في تلقى أوامر مولا هم السيد الأعلى وأن حصولهم على تلك المرتبة العليا عند الله تعالى، كما هي لنبيهم بكونهم يكونون عبيداً لربهم متقادين له مع تمام المحبة.

1 - انظر لما سبق الزمخشري، الكشاف (١٢٧/٢)، أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٣٦٢/٢)، الألوسي، روح المعاني (٨/١٠)، ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٣/١٠-١٤).

و ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾، هو يوم بدر وهو اليوم السابع عشر من رمضان سنة اثنتين من الهجرة، وقد ذكرنا لم سمي الفرقان - ولكن إضافة يوم إلى الفرقان إضافة تنويه به وتشريف له - وقوله: ﴿يَوْمَ اتَّقَى الْجَمْعَانِ﴾، بدل من يوم الفرقان، إضافة يوم إلى جملة: ﴿اتَّقَى الْجَمْعَانِ﴾، للتذكير بذلك الالتقاء العجيب الذي كان فيه نصرهم على عدوهم، وهذا الالتقاء العجيب حقه أن يذكر به لحكمه التي أشرنا إليه، وحصوله الذي لا يمكن لأحد إحداثه إلا الله، وإن استمرار المؤمنين على ذكر منه لتقوية لإيمانهم، وشحذاً لهمهم على مواصلة المسيرة، ومن ثم رأينا تفصيل القرآن الكريم لهذا اللقاء لذينك الجمعين، جمع المؤمنين المؤيد بالله، وجمع المشركين. فيما يأتي من آيات.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، اعتراض بتذييل الآيات السابقة لارتباطها بما بعدها كأنها في سلك واحد لو قلنا يوم التقى الجمعان إذ أنتم بالعدوة الدنيا.... إلى آخره فالكلام مستقيم ولكن البلاغة في الاعتراض بهذا التذييل ليؤكد أن ما حدث بتمام قدرته وما سيفصله حالاً إنما هو كذلك بتمام قدرته، وهذا دليل على أنه لا يتعاصى على قدرته شيء؛ فإن ما أسداه لكم يوم بدر لم يكن جارياً على متعارف الأسباب المعتادة، فقدرة الله تعالى قلبت الأحوال، وأنشأت والأشياء من غير مجاريها، وأن ما جرى ليلتقى الجمعان بهذه الطريقة كان بترتيب الله وتدبيره، ثم قصه القرآن مفصلاً بقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنَّ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿إِذْ﴾ ظرف ل ﴿أَنْزَلْنَا﴾، أى زمن أنتم بالعدوة الدنيا، ووصف الهيئة ليس من دواعي القرآن الكريم وأغراضه، فهو أطناب في وصف المنازل، لا يذكره القرآن إلا أن يكون فيه عبرة لازم التذكير بها وقد ظهرت هنا، وهى الحالة الحرجة التي كان المسلمون عليها التي

بينها الظرف وما أضيف إليه لتذكيرهم بها، وتنبههم للطف عظيم حفهم من الله تعالى، وهى حالة موقع جيش المسلمين من جيش المشركين، وكيف ألتقى الجمعان فى مكان واحد على غير ميعاد، ووجد المسلمون أنفسهم أمام عدو قوى العدد والعدة والمكانة من حسن الموقع.

والعدوة^(١)، ضفة الوادى وشاطئه.

والوصف بالدنيا والقصى يَشْعُرُ المخاطبون بفائدته، وهى أن المسلمين كانوا حريصين أن يسبقوا المشركين إلى العدوة القصى، لأنها الأنسب كما بينا فلما سبق المشركون اغتم المسلمون لذلك، فلما نزل المسلمون بالعدوة الدنيا انقلب الموقف بإنزال الله للمطر، حيث تخير المسلمون أحسن موقع وثبتت أرضهم وسقوا وغوروا الماء واتخذوا الحوض، فلما وصل المشركون وجدوا المسلمين قد احتازوا الماء وساء موقفهم ولم تنفعهم العدوة القصى التى ظن المسلمون أنها الأحسن والأوفق.

﴿ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ [الأفال: ٤٢]، وهم عير قريش التى أفلتت من المسلمين بمحازاة الساحل بقيادة أبو سفیان، فلو علم العدو بهذا الوضع لاطبقوا بجماعتهم على المسلمين، ولكن الله صرفهم عن التفطن لذلك، وصرف المسلمين عن العير، ولو حاولوا لوقعوا بين جماعتى العدو.

﴿ أَسْفَلَ ﴾، منصوب على الظرفية المكانية، وهو فى محل رفع خبر عن الركب، أى والركب قد فاتكم وكنتم تأملون أن تدركوه لتغنموا ما فيه.

نعود إلى التقييد بهذا الوقت وتلك الحالة فيه، فهو مثل وصف المنازل لاجدوى منه فى

1 - سرح الدنيا والقصى.

القرآن الكريم إلا للعبرة والعظة للسامعين والمؤمنين، ومن ثم كان الغرض من ذلك شكر نعمة الله على ما وفقهم إليه وصرّفهم له، وعلى نصرهم بخلاف ظنهم، ليحسن ظنهم بالله تعالى والاعتماد عليه في أمورهم، فإن تكامل وصفهم بكل تلك الأحوال من أول السورة وبداية سرد القصة ليبرهن وهم موقنون بذلك، أنهم في أصعب حالة وعدد ومكان وعدة ولم يكن لهم شيء يوازن المشركين فضلاً عن أن يتفوقوا فيه عليهم، فكان من عجيب عناية الله تعالى أن قلب تلك الحالة رأساً على عقب، وألقى الله في قلوب المشركين تهوين أمر المسلمين فلم يأخذوا حذرهم - وهم على حق في ظاهر الأمر - لأى شيء يأخذون حذرهم، وجعلوا مقامهم في بدر مقام هو وطرب. فنصر الله المسلمين، من حيث لا يتوقع المسلمون ولا المشركون ولا أى أحد كان، ومن ثم فالذين خوطبوا بقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا.....﴾، الآية هم أعلم السامعين بفائدة ذلك ولولاه لكان هذا التقييد بالوقت قليل الجدوى.^(١)

وجملة ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، في موضع الحال من الجمعان، وعاملاً للحال فعل ﴿الَّتَقَى﴾، أى يوم التقى الجمعان في حال لقاء على غير ميعاد، قد جاء أُلزم مما لو كان على ميعاد فإن اللقاء الذى يكون موعوداً قد يتأخر فيه أحد المتواعدين عن وقته^(٢)، وهذا اللقاء قد جاء في إبان متحد وفي مكان متقابل ومعنى الاختلاف في الميعاد: اختلاف وقته بأن يتأخر أحد الفريقين عن الوقت المحدود فلم يأتوا على سواء وللعلامة الطاهر بن عاشور رأى في التلازم بين شرط ﴿وَلَوْ﴾، وجوابها هنا حيث هو خفى وأشكل على المفسرين

1 - انظر المصادر السابقة.

2 - يقول أبو السعود: أى لو تواعدتم أنتم وهم للقتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم أنتم في الميعاد هيبة لهم وبأساً من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنفاً من الله عز وجل خارقاً للعادات، فيزدادوا إيماناً وشكراً، إرشاد العقل السليم (٣٦٢/٢)، وانظر الالوسى، روح المعانى (١٠/١٠)، وذلك ما ذكره الزنجشى، الكشف (١٢٨/٢).

ونلخصه فيما يلي لفائدته فيما نحن فيه من سيرة وكيف عبر القرآن الكريم بهذه التعبيرات الجليلة في سوق سيرة النبي ﷺ والمؤمنين، وما ينبغى على المؤمنين أن يفقهوه ليعيدوا به سيرتهم الأولى فيقول: والتلازم بين شرط ﴿وَلَوْ﴾، وجوابها خفى هنا، وقد أشكل على المفسرين، ومنهم من اضطر إلى تقدير كلام محذوف تقديره: ثم علمتم قلتكم، وأن ذلك يفضى إلى التخلف - وقد ذكرنا القائلين بذلك في الهامش السابق - وغير ذلك من التقدير.

فالوجه في تفسير هذه الآية أن ﴿وَلَوْ﴾، هذه من قبيل ﴿وَلَوْ﴾، الصُّهْبِيَّةُ فَإِنْ لَهَا استعمالات ملاكها: أن لا يقصد ربط حصول نقيض مضمون الجواب بحصول نقيض مضمون الشرط، بل يقصد أن مضمون الجواب حاصل لا محالة، وقد ذكر الشواهد على تفصيلات ذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكَ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُبُوا عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ومحصل هذا أن مضمون الجواب مستمر الحصول في جميع الأحوال في فرض المتكلم، فيأتي بجملة الشرط متضمنة الحالة التي هي عند السامع مظنة أن يحصل فيها نقيض مضمون الجواب وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

والمعنى: لو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد، أى في وقت ما تواعدتم عليه؛ لأن غالب أحوال المتواعدين ألا يستوى وفاؤهما في وقت الوفاء بما تواعدا عليه. أى في وقت واحد، لأن التوقيت كان في تلك الأزمان تقريباً يقدرونه بأجزاء النهار كالضحى والعصر والغروب. لا ينضبط كالיום فلكياً، والمعنى: فبالأحرى وأنتم لم تتواعدوا وقد أتيتم سواء متحدين وقت حلولكم في العدوتين، فاعلموا أن ذلك تيسير بقدر الله لأنه قدر ذلك لتعلموا أن نصركم من عنده على نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].^(١)

1 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/١٨-١٩).

وظهر موقع الاستدراك في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال:

.[٤٢

والتقدير ولكن لم تتواعدوا وجئتم على غير اتعاد ليقضى الله - ليحقق وينجز - ما أراه من نصركم على المشركين، ولما كان تعليل الاستدراك قد وقع بفعل مسند إلى الله كان مفيداً أن مجيئهم إلى العدوتين على غير تواعد منهم كان عناية بالمسلمين من الله تعالى.

ومعنى ﴿أَمْرًا﴾، هنا الشيء العظيم المهم و﴿كَانَ﴾، تدل على تحقق ثبوت معنى خبرها لاسمها من الماضي مثل قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

فالاستحقاق لهذا الحق ثابت علينا من الأزل، ولذا فمعنى: ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾، أنه ثبت له في علم الله السابق أنه يفعل، فاشتق له صيغة مفعول من فَعَلَ للتدليل على أنه حين قدرت مفعوليته في الأزل صار كأنه فَعِلَ.

ويكون حاصل المعنى: لينجز الله ويوقع حدثاً عظيماً متصفاً منذ القدم بأنه محقق الوقوع حقيقةً بأن يفعل حتى كأنه قد فَعِلَ؛ لأنه لا يمنعه ما يحف به من الموانع المعتادة.

لا شك أن تلك الآيات في درسها اللغوى والنحوى والبلاغى تشير إلى هذه المعانى المهمة التى هى محل توضيح القرآن الكريم لسرد السيرة قصصاً وفقهاً ومعنى وأحكاماً عبراً وعظات وتأسيساً لواقع، وتشبيهاً لإيمان، وسعياً لنصر إلى آخره، ويظهر ذلك فى: عناية الله الأزلية بالمؤمنين فيما يختاره لهم.

ترتيب الله لهم، وحملهم على هذا الترتيب، وإفشاء تدبير الكافرين وكيدهم.

تبيين الأدلة وتعليل الأحوال والأحكام لهم، ليظهر لهم وجه المصلحة فيما أراد بهم،

وما لم يعلموا من مصالح هو أعظم فائدة لهم حتى يشبثوا ويسيروا مطمئنين واثقين في نصره، يزدادون بذلك إيماناً وتوكلاً وبذلاً وتضحية.

التأكيد لهم على صدق الرسالة والرسول ﷺ وصحة النبوة وإتصال الأرض بالسماء وعلى توحيد الله تعالى الذى كل شيء بيده وله ملكوت كل شيء، وعلى الإيمان باليوم الآخر.

إن ذلك كله هو القول الفصل فى الرد على شبه المستشرقين، ووضوح الردود على أمراضهم بلا لبس.

وما ساقته الآيات الأخيرات ليس إلا جزءاً مما يذخر به القرآن الكريم فى عرض السيرة كافة، وأهداف ذلك العرض، بما يوضح أهميته للمؤمنين فى كل آن ومكان فى محاولة للتشبث بذلك ليعودوا إلى سالف مجدهم وعزهم.

والجمل الباقيات فى هذه المشاهد تسير على نفس الوتيرة، مع زيادات آخر وتفهييات جديدة، سوقها للتحليل من ألزم ما يلزم.

ويأتى قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، فى موضع بدل اشتمال من جملة ﴿لِيَقْضَىَ اللَّهُ...﴾، لأن الأمر هو نصر المؤمنين وقهر المشركين، مع إهلاك المهزومين وإحياء المنصورين، وحفه من الأحوال الدالة على عناية الله بالمسلمين وإهانته للمشركين بالبينة التى تقطع عن الهالكين، وتقتضى شكر الاحياء، وليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بينة.

والهلاك: الموت والاضمحلال ولذلك قوبل بالحياة، والمعنى الزائد عما ذكرنا من قبل إجمالاً هو أن الهلاك والحياة مستعاران لمعنى ذهاب الشوكة، ولمعنى نهوض الأمة وقوتها،

وقد جمع التشبيهيين في قوله: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فإن الكفار كانوا في منعة وعزة، وكان المسلمون في ضعف وقلة، فلما قضى الله تعالى بالنصر للمسلمين أخفق أمر المشركين ووهنوا، وصار أمر المسلمين إلى جدة ونهوض، وتلك الحياة وذلك الموت لاشارة قوية إلى اضمحلال أمر المشركين يفنوا عن بينة، وارتفاع أمر المسلمين وإيمان من آمن عن بينة، إذ ذلك حكم فصل تحقق بعد ذلك في ذهاب ريحهم وهزيمتهم.

فكانت وقعة بدر إذن بداية هلاك من هلك عن بينة حتى ينتهى هلاكهم، وحياة ونهوض من آمن حتى يرتفع أمرهم: ﴿وَلَكِن لِّيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، وقد كان.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ..

أى بكفر من كفر وعقابه وإيمان من آمن وثوابه، ولعل الجمع بين وصف السمع ووصف العلم لاشتغال الإيذان والكفر على القول والاعتقاد اللذين يستدعيان السمع والعلم، وإن كان هذا التذييل يشير أول ما يشير إلى المسلمين بأن الله تعالى سميع لدعائهم بطلب النصر، وسميع بما جرى بينهم من الحوار في شأن الخروج إلى بدر، ومودتهم أن ذات الشوكة تكون لهم.

وعليم بما يجول في خواطرهم من غير الأمور المسموعة، وكل ذلك ينبههم إلى تربية المهابة بعد ذلك في قلوبهم وأفكارهم وأقوالهم، وأن يكون ذلك كله استجابة لأمر الله ظاهراً وباطناً.

وتمضى الآيات لتسكمل بقية ما بدأته من مشاهد، ونسير معها نستجلى تلك السيرة التي قصتها، والتي لم تكن لنقص في السيرة، وواقع الأمر لو حكيت بمثل ما قصت به في القرآن الكريم مع استيفاء هذا القص لكل الجوانب اللازمة من وراء هذا السرد، بما يضيف

تلك الأبعاد الدينية مجتمعة مع الأبعاد النفسية والتاريخية وغيرها، لتبقى خالدة ما بقي مؤمن وغيره في تلك الحياة، وفي نفس الوقت تستشرف الحياة الآخرة وتربطها بالحياة العاجلة، عجالتنا فيما يتعلق بالسيرة قدر الامكان ويأتى قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا ۗ وَلَوْ أَرْنَكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْتَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنفال: ٤٣].

﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ﴾، بدل من قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾، أو بدل من يوم الفرقان فإن هذه الرؤيا مما اشتمل عليه زمان كونهم بالعدوة الدنيا، وهو يوم الفرقان يوم بدر، وعبر بالمضارع لاستحضار حالة الرؤيا العجبية، إذ هي قد مضت بالنسبة لنزول الآية ويتعلق قوله: ﴿فِي مَنَايِكَ﴾، بفعل ﴿يُرِيكُهُمُ﴾، فالإراءة هنا إراءة رؤيا في المنام، وأسندت إلى الله تعالى:

أولاً: لأن الرؤيا وحى من الله للأنبياء، سواء كانت واقعة كما هي، أو هي رمز لمعان، فلا تعد صورتها الواقعة مخالفة للحقيقة، ومن الأولى أنه كان يرى الرؤيا كفلق الصباح كما هي^(١)، أو كما في سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْحِكُ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢].

ثانياً: للإهتمام بالرؤيا وتشريفها إذ كان له وقعها المناسب في نصر المسلمين، وقد كان النبي ﷺ رأى رؤيا منام أن جيش المشركين قليل، فأخبر الصحابه رضي الله عنهم فتشجعوا للقاء المشركين وزال ما كان يخامرهم من تهييب جيش المشركين، فكانت تلك الرؤيا فيه من الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، إذ كانت من أسباب النصر؛ وكانت قلة العدد في الرؤيا رمزاً لوهن المشركين وضعفهم، لا عن قلة عددهم، كما كان معلوماً من الواقع.

1 - الحديث حديث عائشة في بدء الوحي.

ولو أخبر الله رسوله ﷺ أن يخبر المؤمنين بأنهم غالبون للمشركين لآمنوا بذلك إيماناً عقلياً، لا يحصل منه ما يحصل من التصوير بالمحسوس، ولو لم يخبرهم، أو لم يُرِه ربه تلك الرؤيا لحسب المسلمون للمشركين حساباً كبيراً شوش عليهم اطمئناهم وثقتهم، لأنهم معروفون بأنهم أقوى من المسلمين بكثير.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَرْنَكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ﴾، أى لجبنتم وهبتم الإقدام، وجمع ضمير الخطاب في الجزاء مع إفراده في الشرط، لأنه كما قيل إن الجبن يعرض لهم لا له ﷺ، لأنه سبحانه لو أراهم رؤيا مماثلة للحالة التي تبصرها الأعين من المشركين لدخل قلوب المؤمنين الفشل، فأراد الله تعالى ألا يدخل قلوب المسلمين هلع أو جبن من الأصلي إكراماً لهم، وإن كان قد ضمن لهم النصر.

وكذلك ثم سبب آخر ذكرته الآية، وهو الاختلاف في أمر القتال أو خطته إذال للعهد بقوله: ﴿وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، فكانت الرؤيا حسماً لهذا الاختلاف وقطعاً لدابر الفرقة في مثل هذا الموقف العصيب فكانت برداً وسلاماً على المؤمنين إذاً.

وجاء قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾، ليؤكد ذلك، ويمن به على المؤمنين إذ أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع، فكان هذا الاستدراك رافعاً لما يفرض من قوله: ﴿وَلَوْ أَرْنَكُهُمْ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٣]، مع أنه جاء - أى الاستدراك - ليشعر فعلاً أنهم كُثُر في الواقع، ولكن جاء ليفرغ هذه الكثرة في واقعها من أى عوامل يمكن أن يكون لها أثرها في المسلمين. ومفعول ﴿سَلَّمَ﴾، متعلقه محذوفين إيجازاً ليكون التقدير: سلمكم من الفشل والتنازع؛ بأن سلمكم من سببها وهى إراءتكم واقع عدد المشركين، لأن الاطلاع على كثرة العدد يلقي في النفوس تهيئاً وتخوفاً منه، وذلك يُنْقِصُ شجاعة المسلمين، الذين أراد الله لهم موفور

الشجاعة ومنتهاها.^(١)

ووضع الظاهر موضع المضمرة في قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾، بدلاً من «ولكنه سلم» لقصد تأكيد وزيادة إسناد ذلك إلى الله تعالى، وأنه بعنايته، وكذلك للاهتمام بهذا الحادث، وهو الإنعام بتلك السلامة.

وذيلت الآية بهذا الامتنان ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أى: إنه بعلمه بمكنونات الصدور وخواطرها، وما تتأثر به وما يصلحها، فعل ما فعل؛ إذ النفوس مجبولة على التأثر بالمحسوبات والمشاهدات، فأيده بها، مع أن الاعتقاد المجرد يكفى في تصديقها بموعد الله، لإيمانها القوى بربها، ولكنه لا يثير الشجاعة التامة والإقدام كما يثيره الإحساس بقلة عددهم وتفاهة موقفهم في الواقع، كذلك فالاعتقاد بأن المشركين سينهزمون مصدقون به، ولكنه يمكن أن يكون مع موت وجراحات قبل الانتصار فجاءت الرؤيا بقلتهم لتزيح ذلك كله في النفس، وتلقى بدلاً منه ذلك اليقين الواقع، بأنهم منصورون مع سلامة الله لهم.

إن ذلك كله ليهزنا بشدة إلى دين الإسلام واقعه وسيرة النبي ﷺ، وأنه دين الله المرتضى بأخلاقه العليا وشمائله الكريمة ومزاياه الراحمة، إذ كل ذلك خارج عن طوع كل الخلق مجتمعين، خارج عن قدرة ما سوى الله تعالى متظاهرين.

ونشير إلى آخر آية في هذا المشهد، مشهد ترتيب لقاء القتال وتدبيره - الذى رتبته الله تعالى للفريقين معاً - دلالة عدم خروج شيء في الكون عن قضائه وتقديره، وعن حكمه وأمره وهى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا

1 - انظر لما سبق الزخشرى، الكشاف (٢/١٢٨-١٢٩)، أب السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٦٣)، الألوسى، روح المعاني (١٠/١٢-١٣)، ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/٢٢-٢٥).

كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ [الأنفال: ٤٤].

وإذا كان ما رآه النبي ﷺ رؤيا منام، شجعت المؤمنين، وثبتت الأقدام وكانت من أسباب النصر كما ظهر، فإن المؤمنين خرقاً للعادات، قد رأوا مصداق ذلك رأى العين، ليكون الخبر والمعينة واحداً يتحقق به مراد الله من وقوع الأمر المفعول كما وعدهم.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، إما منصوب بمضمر، أو هو عطف على ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، معبراً بالمضارع لحادث قد انتهى استحضاراً لتلك الحالة التي تخص المؤمنين والتي لا تكون بهذه الكيفية إلا من الله تعالى، وهي رؤية بصر أراها المولى سبحانه وتعالى على خلاف ما في نفس الأمر لكلا الفريقين، ولما كانت على خلاف الحقيقة لم يرها النبي ﷺ.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ... فِي أَعْيُنِكُمْ﴾، تقييد للإراءة بأنها في الأعين، لا غير، وليس المرئى كذلك في نفس الأمر، وكذلك ليدل على أنها إراءة بصرية لا حُلمية.

وخولف في أسلوب حكاية إراءة المشركين وحكاية إراءة المسلمين؛ لأن المشركين كانوا كُثراً فناسب أن يريهم للمسلمين قليلاً أى هم كثير فرأيتموهم قليلاً، أما المسلمون فكانوا قليلاً فناسب لتقليلهم أن يعبر عنه بأنه «تقليل»، المؤذن بأنه زيادة في قلتهم، وليعلم أن التقليل ليس بالنقص من عدد المسلمين في نفس الأمر، ومن ثم لما حدثت المناجزة، وبرز المشركون لقتال المسلمين ظهر لهم كثرة المسلمين فبهتوا، وكان ذلك ملقياً الرعب في قلوبهم، وذلك ما حكاه القرآن الكريم في سورة آل عمران قوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مَثَلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وقال أهل السير كان المسلمون يحسبون عدد المشركين بين السبعين والمئة، حتى قال ابن مسعود ؓ إلى من بجنبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مئة، وقال أبو جهل: إنما

أصحاب محمد ﷺ أكلة جزور أى قرابة مئة.^(١)

وإنما لم يكن تخيل المسلمين قلة المشركين مثبطاً عزيمتهم، كما كان تخيل المشركين قلة المسلمين مثبطاً عزيمتهم؛ لأن قلوب المسلمين كانت مفعمة حتماً على المشركين، وإيماناً بفساد شركهم، وامثالاً لأمر الله بقتالهم فما كان بينهم وبين صبّ بأسهم على المشركين إلا صرف ما يثبط عزائمهم. فأما المشركون فكانوا مزدهين بعدائهم وعنادهم، وكانوا لا يرون المسلمين على شيء، وإن أدنى جولة تجول بينهم فسوف يقبضون على المسلمين قبضاً، فلذلك لا يعبأون بالتأهب لهم، فكان تخيل ما يزيدهم تهاوناً بالمسلمين يزيد تواكلهم، وإهمال إجماع أمرهم.

فكان ذلك كله مما لا يستطيعه أحد بإلقائه في نفوس الفريقين فجاء قوله تعالى بعد ذلك وهو: ﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، ليعين أن ذلك الأمر من مفعولات الله سبحانه، التى قضاها أولاً علة لهذه الإراءة لكلا الفريقين، لتكون أحد أسباب النصر، وأما قوله تعالى: ﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، فى الآية فهو لعله أخرى، وهى تلاقى الجمعان فى مكان واحد فى وقت واحد، فلا تكرار إذن، ويرينا هذا الخبر الضخم كيف قدر سبحانه كل هذه المقدورات ليخرج أى دور فيها للمؤمنين نصراً، وللمشركين هزيمة، بل الأمر كله راجع إليه وحده يقضيه بعلمه وحكمته وقدرته كما قال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

ونشير فى نهاية تحليلنا لآيات سيرة بدر مما حكاها القرآن الكريم، إلى ما ذكر القرآن الكريم نفسه عن موقف الشيطان حيث قال جل ذكره: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِئْتَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنَّى بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنى أَرى مَا لَا تَرَوْنَ إِنى أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَتُؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: ٤٨-٤٩].

1 - انظر المراجع السابقة.

بدأت الآيات بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَّا﴾، على أنه مقدر بمضمر، ويجوز أن يكون المضمر مخاطباً به المؤمنون، والعطف على ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾، في الآية قبلها، وهى قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧]، أى واذكروا إذ زين لهم الشيطان أعمالهم في معادة المؤمنين وغيرها، ووسوس إليهم أنهم يغلبون لكثرة عددهم وعدتهم، وأنه حافظ لهم.

وفي ذلك انقسم العلماء إلى فريقين:

فريق يرى هذا التزيين وسوسة لهم بذلك يحملهم على مواصلة السير إلى بدر، وأنه وسوس لسراقة بن مالك ليكون هو المخبر لقريش والحامل لهم على مواصلة العناد، وأنه يؤمن لهم طريقهم من كنانة التى كانت على عدا مع قريش، فهابوا أن تقاتلهم وتعرقل سعيهم فطمأنهم سراقة بوسوسة الشيطان فمضوا.

والفريق الثانى:

يرى أن تلك الوسوسة وذلك التزيين قام به الشيطان نفسه للمشركين حيث تمثل لهم في صورة سراقة بن مالك، وسار معهم فلما تراءت الفئتان وتلاقى الجمعان نكص على عقبيه لما رأى الملائكة تنزل وظن أن جاء مواعده المنظور، وكانت يده في يد الحارث بن هشام فقال له أتخذلنا في هذه الحال، فقال إنى أرى ما لا ترون ودفع في صدره وفر هارباً، وانهمز المشركون ورجعوا مكة قالوا هزم الناس سراقة، فقال ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فعلموا أنه الشيطان.^(١)

٦ - انظر لما سبق من القولين الطبرى، جامع البيان (١٠/١٨)، الزمخشري، الكشاف (٢/١٣٠)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٦٥)، والالوسى، روح المعانى (١٠/٢١-٢٢)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/٣٤-٣٧)، ورشيد رضا، المنار (١٠/٢٩).

وبداية نقول: ذهب سيد قطب رحمه الله إلى إثبات حادثة تزيين الشيطان، ولكن مع عدم العلم بكيفية ذلك، وكأنه يفصل بين الفريقين في نظرهم إلى تفسير الآية فيقول: «وفي هذا الحادث نص قرآني يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم وشجعهم على الخروج، وأنه بعد ذلك نكص على عقبيه فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم».

«ولكننا لا نعلم الكيفية التي زين لهم بهم أعمالهم... إلى أن قال ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء من أمره إلا بنص قرآني أو حديث نبوي صحيح والنص هنا لا يثبت الكيفية إنما يثبت الحادث»^(١).

وتم تعليق هنا بنديه معتمداً على دراسة النص القرآني، والمقارنة بين النصوص مع ما ذكرنا من التحليل للآيات النازلة في حكاية غزوة بدر، خاصة وقد تمسك أصحاب رأى الوسوسة برأيهم، وضعفوا الروايات كافة لرأى تمثل الشيطان، وكلامه مع المشركين ومخاطبته إياهم بما جعلنا ندقق في فهم النصوص القرآنية الواردة في الحادث، وما جعلنا نقف على هذا الحادث أمران على الأقل:

الأول: الإيمان بالغيب والملائكة والجن، وأن ذلك من أصول الإيمان، وأن ما جادل من جادل فيه إلا للانتهزام الفكري أمام المادية الغربية الطاغية، التي تفرع الإسلام وتحاول من مضامينه الغيبية، بهذه الادعاءات العلمية زعموا التي لا وزن لها في ميزان العقل، فضلاً عن العلم وأمانته. وكل ذلك تشكيك في قضايا الإسلام في نفوس المؤمنين استكمالاً للغزو الفكري.

الثاني: وهو المتعلق بما نحن فيه، وهو كيف أن الله تعالى رتب ويرتب للمؤمنين الخالص، كل أمورهم، ويهيء لهم عامة أحوالهم، ويخرق لهم النواميس الكونية دلالة على

1 - سيد قطب، في ظلال القرآن (٣/ ١٥٣١)، ود. محمد بن بكر آل عابد، حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ (٦٥).

وجود ربهم وعنايته بهم، وعلى صحة رسالة نبيهم وصدق نبوته، وأن كل ذلك هو خالقه والقادر عليه وما عليهم بعد الا أن يكونوا متحققين بصفات المؤمنين الحقّة كما بين لهم ذلك كله، ليروا قدرة الله وقوته وحفظه.

وذلك الأمر الثانى هو المهم والأهم للمؤمنين فى كل زمان ومكان، وهو مشكلتنا اليوم وأول هذه التعليقات هنا هو:

١ - أن المؤمنين بقوة الله وقدرته، وأنه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، لا يكبر عليه أن يتصور الشيطان، وأن يتمثل بهذه الأشكال إذ هو سبحانه فى الحقيقة من أقدر الشيطان وغيره على ذلك، إذ لو لم يرد المولى سبحانه ذلك ما كان الشيطان ولا لمن فى الأرض والسماء جميعاً أن يأتوا بأمر على خلاف مراد الله تعالى فى العجب فى تمثّل الشيطان إذن؟

٢ - وإن القائلين بالمنع قد أجازوا أكثر من ذلك فى الملائكة من نزولهم وتشبيهم للمؤمنين وضرب المشركين فوق الأعناق، وضربهم لكل بنان، فما الفارق مع أن الملائكة أعظم وهم نور من خلق الله؟

٣ - بالنظر فى النص نفسه نسأل ما الوسوسة فى قول الشيطان ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأَنْفَال: ٤٨]، وما الوسوسة فى قوله: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ [الأَنْفَال: ٤٨]، بما أنه شخص يحدثهم، ورأى ما لا يرون ونكص على عقبيه فأين الوسوسة؟ وهو يجرى فاراً هارباً، أو حال رؤية الملائكة، وكيف تكون وسوسة وتزييناً وهم يرونه يسير معهم إلى أن تراءت الفتان؟ قد يقال إنها رؤية منام، نعم ولكن كيف رأى الجميع هذه الرؤيا؟ دعنا من ذلك، لقد رأوها، فهل رأوا الشيطان يسير معهم، وهل رأى الملائكة فى المنام؟ فترك المشركين فى المنام وفر هارباً، وهل من جاء فى المنام ليؤازرهم وينصرهم، ينكص على عقبيه

أمامهم في المنام ليروا هزيمتهم وفرار جارههم، ومنذ متى يصدق المشركون بتلك الرؤى وغيرها، لقد انعكس مقصود النافين لتمثل الشيطان حقيقة، بحيث أوقعوا أنفسهم فيما حاولوا أن يفروا منه مجارة للمدرسة العقلية، بحيث صارت نفيًا للعقل ذاته، أو استهزاء أو التفافًا حول العقل. مع الطعن في قضايا الدين والإيمان، بدون أى مبرر عقلي، إلا اتباع العقل الغربي المحارب للإسلام.

وبعد ذلك ما كان القرآن الكريم ليترك موقف المنافقين والذين في قلوبهم مرض، ليستكمل بذلك جوانب الصورة، ولتتم كل إبعادها، إمعاناً في إعلام المسلمين بإحاطة الله تعالى بعلم كل شيء، وتقدير كل شيء، مع رجوع كل الأمور إليه، وليبصر المؤمنين بمواقف كل فئة، وتستقر نفوسهم على انه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وليجعل لكل شيء قدرًا في الواقع أمام المؤمنين يعلمون به كيف نصرهم وأيدهم، وكيف يتوكلون عليه ويبدلون له، بالتالي أنفسهم وأموالهم، فجاء قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال ٤٩].

يتعلق ﴿إِذْ يَقُولُ﴾، بأقرب الأفعال إليه، وهو قوله تعالى ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾، مع ما عطف عليه من الأفعال، ويكون قول المنافقين واقعاً في وقت تزين الشيطان أعمال المشركين، ويكون نظم الكلام هكذا: وزين الشيطان للمشركين أعمالهم حين كان المنافقون يشوهون ويحتمقون أعمال المؤمنين، ويصفونهم بالغرور وقلة التدبير بسبب اعتقادهم في دينهم الذي أوقعهم في هذا الغرور.^(١)

وفي مثل هذا السياق تُطلب المناسبة لذكر هذا الخبر وراء سابقه، والمناسبة أن كلا

1 - وذكر بعضهم أن ﴿إِذْ يَقُولُ﴾، ظرف لغير ما ذكر، فانظر فيما سبق، والاختيار من ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/٣٧-٣٩).

الخبرين يتضمن قوة المشركين، وضعف جيش المسلمين، ويقين أولياء الشيطان من المشركين والمنافقين بأن النصر سيكون للمشركين على المسلمين.

فالخبر الأول عن طائفة أعانت المشركين من عدو يخشى منه قطع طريق المشركين، فانحازت إليهم علناً؛ وذلك يستلزم تقبيح ما أقحم المسلمون فيه أنفسهم إذ عمدوا إلى قتال قوم أقوىاء.

الخبر الثانى عن طائفة المنافقين الذين فى قلوبهم مرض^(١)، أو هما طائفتان على قول البعض شوهتا صنيع المسلمين وحمقوا المسلمين ونسبوهم إلى الغرور، وهو إيقاع أنفسهم فى المضرة بإيهاهم المنفعة، وأن الذى عزهم بذلك هو دينهم الإسلام، وقد نسبوا الغرور إليه لما فيه من الوعد بنصر المؤمنين، وأن القلة تهزم الكثرة بإذن الله تعالى.

وإن هذا الإرحاف لواقع اليوم من كل الطوائف التى اجتمعت على محاربة الإسلام، يثبطون المسلمين بأنهم لا يمكن أن يتصدوا للاعداء فضلاً عن هزيمتهم، بتحويل قوة الكفرة، وتهوين شأن المسلمين، وإخماد روح العزة والكرامة والثأر فيهم، ويأتى دور المنافقين الذين يوالون الكفرة ويتحدثون بألسنة المسلمين ليشككوهم فى دينهم، وأنه سبب الهزيمة، وأن موعود الله لهم بالنصر إنما هو غرور ومحال، كل ذلك وأشد قد صورته آيات بدر ليخرج المسلمون من تلك الحالة، بل لئلا يكونوا فيها أبداً، لذا جاء قوله تعالى ليؤكد لهم أن جنده مها كانوا هم الغالبون طالما كانوا بدينهم ذلك مستمسكين فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهََ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]، فهذه الجملة معطوفة على جملة ﴿وَأَذْرَبْنَاهُمْ لَهْمُ الشَّيْطَانِ.....﴾، لأنها من جملة الأخبار المسوقة لبيان عناية الله تعالى بالمسلمين وللامتنان

٦ - هذا اختيار الباحث، وهناك تفسيرات أخرى لمن فى قلوبهم مرض، وهم من لم يتمكن الإيمان فى قلوبهم، وانظر الطبرى، جامع البيان (١٠/١٥-١٦)، الزنجشى، الكشاف (٢/١٣٠)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٣٦٥)، والالوسى، روح المعانى (١٠/٢٣-٢٤).

عليهم، فالمناسبة بينها وبين الجملة قبلها: أنها كالعلة لخشية ظنون المشركين والمنافقين والذين في قلوبهم مرض، وخيب ظنونهم لأن المسلمين توكلوا على الله وهو عزيز لا يغلب فمن تمسك بالاعتقاد عليه نصره وهو حكيم يُكُون أسباب النصر من حيث يجهلها البشر.

وجعل قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، كناية عن جواب الشرط باعتبار اللازم، ليس هو الجواب بل عزة المتوكل على الله ونجاته من مضيق أمره، وهو من وجوه البيان، وهو كثير الوقوع في القرآن الكريم، وعليه قول زهير بن أبي سلمى

من يَلْقَى يوماً على عِلَّاتِهِ هَرَمًا يَلْقَى السَّامِحَةَ فِيهِ وَالنَّدَى خُلُقًا

أى ينل من كرمه ولا يتخلف ذلك عنه في حال من الأحوال.^(١)

تلك كانت سيرة غزوة بدر في القرآن الكريم على قدر المستطاع، والملاحظ المتأمل يرى أن أسلوب القصص القرآني غير أسلوب الحكاية في الواقع والترتيب الزمني، بل هو أسلوب عال له وجهته في العرض، علاوة على عرض ما يفى تماماً بالإغراض المسوقة لسيها القصة، مع تبيان الحكم والعبر والارشادات والامر والنواهي وكل ما للشارع فيه حكمة من وصوله للمسلم للعمل به، وإن قضية الإيمان والتخلق بصفاتها ثم العمل لرفع راية هذا الدين والالتزام بذلك سلوكاً ودعوة وعبادة وعقيدة هو الهدف الواضح من هذا القصص، مع إظهار كل ما يعيق المسلم في طريق سيره ليحذره، ولئلا يقع فيه مما يعرضه للتخلف والنكوص أو للهلاك والردى، كل ذلك هدى ورحمة للعالمين، ويسوق القرآن الكريم جزئيات يراها المرء من أول وهلة كذلك، ولكنها ذات مدلولات ضخمة، ينبني عليها صرح الإسلام ومن ثم بقاءه وانتصاره، وإن التفريط فيها من أكبر أسباب الهزيمة والانكسار.

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/٣٨-٣٩).

إن غزوة بدر بهذا العرض في نظر الباحث كانت الأساس المتين والدستور القويم لكل ما أتى بعد ذلك من أحداث، وإذا نظر الباحث، أو القارئ المتفحص لأى مما وقع في السيرة والغزوات التالية لبدر ليقال له ألم ينبه على ذلك في غزوة بدر؟ ألم يأت مصداق ذلك في قصة بدر؟ إلى آخره

إذن فما كانت فرقاناً من لا شيء، لا يعبر به وله، بل لأضخم حدث مهد لكل خير وهداية للإسلام والمسلمين والبشرية في نفسها وواقعها، في الأرض والسماء، وما بعد انتهاء الدنيا.

إنه بدون مبالغة ما من قضية وقعت بعد بدر من نصر أو هزيمة إلا وكانت سطور بدر تنبض بها، وكذلك من أخلاق ودعوة، أو من أخوة ومحبة، أو من اعتقاد واتصال بالله واعتماد عليه وثقة فيه.

كل ذلك يحتاج إلى بحث آخر ضخم لا تحتمله الرسالة، ولذا نتوقف في هذا الفصل عند هذا الحد، وإن احتملت الرسالة شيئاً جديداً نضيفه وإلا فمحلله بحث ضخم قائم بذاته غير هذه الرسالة نرجو من الله تعالى التوفيق له.

الخاتمة

بعد نهاية المستطاع من هذا البحث إلى هذا الحد، نجمل أهم النتائج.

١- أول هذه النتائج: أن السيرة في القرآن الكريم لها أساليب أخرى يظهر فيها الجمال والبلاغة والأعجاز القرآني، والتي تظهر منها معانٍ آخر لم تكن ولن تكون في القصص والسرد، الذي لا يهتم بشيء من ذلك، علاوة على أهمية المعروض منها من القرآن من ناحية، ومن ناحية أخرى على كون هذا المعروض هو المهم الذي تتعلق به سيرة النبي ﷺ من الهداية، وكفايته للبشر بمزيد التأمل والتدبر، ومن ثم كانت دراسة السيرة في القرآن الكريم من أكد مطلوبات الشرع، حيث يفرق هذا الدين عن الدراسات النظرية بأنه دين عملي يشمل العلم والعمل وغيره من أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، وتقوم السيرة القرآنية بتغطية هذه الأجزاء لتحقيق علو ورفعة هذا الدين بصياغة الحياة به.

٢- تحمل السيرة في القرآن الكريم أسباب البقاء ببقاء القرآن الكريم في العالم، حيث تبين ولا تقتصر على سرد ما كان بين النبي وغيره ﷺ في سنينه المشرفة في الدنيا، بل تحمل أسباب بقاء الأمم وفنائها، والحكم والعظات التي تهم وتنفع الناس في تحقيق إيمانهم وعبوديتهم لله تعالى، وأسباب النصر والهزيمة، وأسرار صنع الله وأيامه في الناس، وتصف علاقات الله الأصلية والتي يجب أن تكون بين الله تعالى وبين خلقه على اختلاف عقائدهم، مؤمنين وغيرهم، مما يوضح سبيل المؤمنين وسيرتهم وطرق تعاملهم، والعكس كذلك.

٣- إن السيرة القرآنية تجسيد حي وبقا وثابت وصحيح لا مرية فيه ولا شك مع ملابساته وظروفه وفقهه وأحكامه ونظراته وعبره من وجهة النظر التي لاشية فيها وجهة نظر الشرع الشريف، أو كما أراد رب الكون ان تصل لعبادة أجمعين.

٤- إن ميزة هذه السيرة أن من وراء قصصها يظهر الترتيب الإلهي لكونه سبحانه وتعالى، وأنه يسير وفق نظام لا عيب منه، بل فيه الحكمة والتقدير والقضاء، الذي لا يصل المؤمنون إلى كفه المراد منه إلا عن طريق مدبره ومسيره سبحانه وتعالى، وكانت سيرة غزوة بدر خير مثال لذلك كله وأكثر منه تم عرضه، لم يكن منه شيء في السيرة القصصية.

٥- إن ملء السيرة القصصية التي وردت في الآثار بتلك السيرة القرآنية ليُدشّن المجموع الكامل لسيرة النموذج الأعلى للبشرية ﷺ حيث تكتمل بذلك الصورة المطلوبة لتحقيق هذا الدين كما أراد الله سبحانه وتعالى، وكما تشخصت فيه ﷺ .

٦- وكان من نتائج البحث الجديدة أن الله تعالى لم يبعث سيدنا محمد ﷺ إلا وهو المثال الأعلى للخلق العظيم، في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم: ٤]، وهي من أول ما نزل من القرآن مما يبين أن سيرة النبي ﷺ لها ابتداء وتمهيد وترتيب لم يبعث إلا وقد استكملة له ربه، وهو أمر متناسب مع الواقع إذ كيف ترجو دعوة إلى مكارم الأخلاق والداعي لها ليس صاحب المكارم العليا في الأخلاق في الدنيا كافة، أو هناك من يتميز عنه بشيء من ذلك، لم يحدث واقعا ولا يقبل عقلا، ولم نسمع بمن زاد عليه في شيء، وهو الأمر المهم للدعاة من ساعتها واليوم وكل يوم أن تكون أخلاقهم على أعلى ما يستطيعون ليحققوا ما يصبون إليه من علو لهذا الدين، ومن نجاة لأنفسهم.

٧- جرننا ذلك إلى أمر قطع به البحث، وهو أنه ﷺ حينئذ لا بد أن يكون معصوماً من كل ما يؤخذ عليه في دين وخلق.

٨- إن من نتائج البحث أن بدا متهافتاً جداً موقف المدرسه العلمية الحديثة من السيرة، بل سقط سقوطاً ذريعاً، بالذات أمام حقائق القرآن الكريم التي لا تقبل تأويلاً فضلاً عن التمحل والتزييف.

٩- وكانت المقارنة بين سير الأنبياء أو بعض الوقائع والأحداث في القرآن الكريم كفيلة بدعم مواقف الباين وإن لها سلفاً قد حدث لا يكذب به أولئك المعارضون، وأن الجميع من عند إله واحد يرسل رسله، وينزل كتبه، ويرتب كونه كما يشاء.

١٠- بينت الدراسة النصية المقارنة لمواقف المستشرقين تطابق معظم هذه الآراء والمواقف منهم، وأن بعضها لا يزيد على بعض إلا في الشتم والسب الدال على الإفلاس، وجلت بوضوح غثاثة هذه الكتابات، وفقدتها للقيمة من علم أو نزاهة أو حياد أو إنصاف، وكانت دراسة آراء "وات" خير شاهد على ذلك.

وإن كل هذه الدراسات كان همها تحصين بني جلدتهم من الاسلام، ورأس حربة للحقبة الاستعمارية عسكرية كانت أوفكرية.

١١- جاءت سيرة القرآن الكريم في النتائج كدعم لمواقف السيرة النبوية خاصة التي كان فيها شد وجذب في الأدلة لتصحيح وتؤكد وتثبت الصحيح منها.

كانت تلك أهم نتائج البحث التي وصلت إليها فإن كانت صواباً فمن الله تعالى وحده وله المنه والثناء الحسن الجميل، وإن تكن الأخرى فمحل عفو الله واسع يغفر لنا ويتجاوز عنا.

المصادر والمراجع

تفسير النسفي

الكتاب : مدارك التنزيل وحقائق التأويل

المؤلف : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (المتوفى : ٧١٠هـ)

تفسير البيضاوي

الكتاب : أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي

المؤلف : ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى 685 : هـ)

تفسير الرازي

الكتاب : تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير و مفاتيح الغيب

المؤلف : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين

الرازي خطيب الري (المتوفى : ٦٠٦هـ)

تفسير الخازن

الكتاب : لباب التأويل في معاني التنزيل

المؤلف : علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي أبو الحسن ، المعروف بالخازن

(المتوفى : ٧٤١هـ)

الكشاف

الكتاب : الكشاف

المؤلف : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى : ٥٣٨هـ)

تفسير ابن كثير

الكتاب : تفسير القرآن العظيم

المؤلف : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى : ٧٧٤هـ)

المحقق : سامي بن محمد سلامة

الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع

الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

عدد الأجزاء : ٨

تفسير البغوي

الكتاب : معالم التنزيل

المؤلف : محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى : ٥١٠هـ)

المحقق : حقيقه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش

الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع

الطبعة : الرابعة ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م

عدد الأجزاء : ٨

تفسير الطبري

الكتاب : جامع البيان في تأويل القرآن

المؤلف : محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي ، أبو جعفر الطبري (المتوفى : ٣١٠هـ)

المحقق : أحمد محمد شاكر

الناشر : مؤسسة الرسالة

الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م

عدد الأجزاء : ٢٤

البحر المحيط

الكتاب : تفسير البحر المحيط

المؤلف : أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي الأندلسي (المتوفى :

٧٤٥هـ)

تفسير القرآن لعبد الرزاق

الكتاب : تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني

المؤلف : أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى : ٢١١هـ)

تفسير ابن كثير

الكتاب : تفسير القرآن العظيم

المؤلف : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى : ٧٧٤هـ)

المحقق : محمود حسن

الناشر : دار الفكر

الطبعة : الطبعة الجديدة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م

تفسير القرطبي

الكتاب : الجامع لأحكام القرآن

المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي

(المتوفى : ٦٧١هـ)

المحقق : هشام سمير البخاري

الناشر : دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية

الطبعة : ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م

الدر المنثور

الكتاب : الدر المنثور في التأويل بالمأثور

المؤلف : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى : ٩١١هـ)

تفسير النيسابوري

الكتاب : غرائب القرآن ورغائب الفرقان

المؤلف : نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى : ٨٥٠هـ)

في ظلال القرآن

الكتاب : في ظلال القرآن

المؤلف : سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى 1385 : هـ)

المنتخب

الكتاب : تفسير المنتخب

المؤلف : مجموعة من العلماء - لجنة من علماء الأزهر

فتح القدير للشوكاني

الكتاب : فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير

المؤلف : محمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفى : ١٢٥٠هـ)

تفسير أبي السعود

الكتاب : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

المؤلف : أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى : ٩٨٢هـ)

تفسير السراج المنير

الكتاب : السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير

المؤلف : محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (المتوفى : ٩٧٧هـ)

تيسير اللطيف المنان

الكتاب : تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن

المؤلف : عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ)

الطبعة : الأولى

الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية

تاريخ النشر : ١٤٢٢هـ

عدد الصفحات : ٣٦٨

عدد الأجزاء : ١

مختصر تفسير البغوي

الكتاب : مختصر تفسير البغوي

المؤلف : عبد الله بن أحمد بن علي الزيد

الطبعة : الأولى

الناشر : دار السلام للنشر والتوزيع - الرياض

تاريخ النشر : ١٤١٦ هـ

عدد الصفحات : ١٠٤٠

عدد الأجزاء : ١

أيسر التفاسير للجزائري

الكتاب : أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير

المؤلف : جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري

الناشر : مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية

الطبعة : الخامسة، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م

أضواء البيان

الكتاب : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن

المؤلف : محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣ هـ)

الناشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان

الطبعة : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

التحرير والتنوير

الكتاب : التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور

المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣ هـ)

الناشر : مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان

الطبعة : الأولى، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م

تفسير الجلالين

الكتاب : تفسير الجلالين

المؤلف : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى 864 : هـ) و جلال الدين عبد الرحمن بن أبي

بكر السيوطي (المتوفى : ٩١١ هـ)

الكتاب: أسد الغابة في معرفة الصحابة

المؤلف: ابن الأثير: علي بن محمد بن محمد الجزري (المتوفى: ٦٣٠ هـ)
الناشر: دار الشعب، القاهرة
الطبعة: ١٣٩٠ هـ، ١٩٧٠ م.

الكتاب: النهاية في غريب الحديث والأثر

المؤلف: ابن الأثير: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (المتوفى: ٦٠٦ هـ)
الناشر: دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحبلي، مصر د.ت.

الكتاب: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار

المؤلف: الأزرقى: ابو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى (المتوفى: ٢٥٠ هـ)
الناشر: دار الثقافة بيروت، مكة المكرمة
الطبعة: الثالثة، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م

الكتاب: السير والمغازي

المؤلف: ابن اسحاق: محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى (المتوفى: ١٥١ هـ)
الناشر: دار الفكر، دمشق
الطبعة: الأولى، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

الكتاب: التاريخ الكبير

المؤلف: البخارى: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (المتوفى: ٢٥٦ هـ)
الناشر: جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ودار الكتب العلمية، بيروت.
الطبعة: ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م

الكتاب: الجامع الصحيح

المؤلف: البخارى: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (المتوفى: ٢٥٦ هـ)
الناشر: المكتب الإسلامى، استانبول، تركية
الطبعة: الثالثة، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م

الكتاب: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع

المؤلف: البخارى: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (المتوفى: ٢٥٦ هـ)

الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة

الطبعة: الأولى، ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م

الكتاب: أنساب الأشراف

المؤلف: البلاذرى: أحمد بن يحيى بن جابر (المتوفى: ٢٧٩ هـ)

الناشر: دار المعارف، مصر، د. ت.

الكتاب: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة

المؤلف: البيهقى: أحمد بن الحسين بن علي (المتوفى: ٤٥٨ هـ)

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م

الكتاب: السنن الكبرى

المؤلف: البيهقى: أحمد بن الحسين بن علي (المتوفى: ٤٥٨ هـ)

الناشر: دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، الهند

الطبعة: الأولى، ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م

الكتاب: سنن الترمذى

المؤلف: الترمذى: محمد بن عيسى بن سورة (المتوفى: ٢٧٩ هـ)

الناشر: دار مكتبة دار الدعوة، حمص، سورية

الطبعة: ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م

الكتاب: تلقيح فهوم الأثر في عيون التاريخ والسير

المؤلف: ابن الجوزى: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزى (المتوفى: ٥٩٧ هـ)

الناشر: مكتبة الآداب، مصر.

الكتاب: زاد المسير في علم التفسير

المؤلف: ابن الجوزى: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزى (المتوفى: ٥٩٧ هـ)

الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م

الكتاب: المستدرک علی الصحیحین

المؤلف: الحاكم: أبو عبد الله بن محمد النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥ هـ)

الناشر: مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض، د.ت.

الكتاب: الثقات

المؤلف: ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي (المتوفى: ٣٥٤ هـ)

الناشر: مطبعة مجلس دائرة المعارف، الهند

الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

الكتاب: صحيح بن حبان

المؤلف: ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي (المتوفى: ٣٥٤ هـ)

الناشر: المكتبة السلفية، المدينة المنورة

الطبعة: الأولى، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م

الكتاب: الإصابة في تمييز الصحابة

المؤلف: ابن حجر: أحمد بن علي بن محمد الكناني (المتوفى: ٨٥٢ هـ)

الناشر: مطبعة السعادة، مصر

الطبعة: الأولى، ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م

الكتاب: فتح الباري شرح صحيح البخاري

المؤلف: ابن حجر: أحمد بن علي بن محمد الكناني (المتوفى: ٨٥٢ هـ)

الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة

الطبعة: ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

الكتاب: جوامع السيرة

المؤلف: ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعد (المتوفى: ٤٥٦ هـ)

الناشر: دار المعارف، مصر، د.ت

الكتاب: مسند الحميدي

المؤلف: الحميدي: أبو بكر عبدالله بن الزبير (المتوفى: ٢١٩ هـ)
الناشر: من سلسلة منشورات المجلس العلمي، كراتشي، باكستان، عالم الكتب، بيروت، د.ت

الكتاب: المسند

المؤلف: ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١ هـ)
الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت
الطبعة: الثانية، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

الكتاب: المسند

المؤلف: ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١ هـ)
الطبعة: ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م

الكتاب: فضائل الصحابة

المؤلف: ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١ هـ)
الناشر: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة
الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م

الكتاب: تاريخ خليفة بن خياط

المؤلف: ابن خياط: خليفة بن خياط العصفري (المتوفى: ٤٦٣ هـ)
الناشر: دار طيبة، الرياض
الطبعة: الثانية، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م

الكتاب: سنن الدارمي

المؤلف: الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل (المتوفى: ٢٥٥ هـ)
الناشر: دار إحياء السنة النبوية، القاهرة، د.ت

الكتاب: سنن أبي داود مع معالم السنن للخطابي

المؤلف: أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (المتوفى: ٢٧٥ هـ)
الناشر: نشر وتوزيع محمد علي السيد، سورية

الطبعة: الأولى، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م

الكتاب: المراسيل

المؤلف: أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (المتوفى: ٢٧٥ هـ)

الناشر: دار القلم، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م

الكتاب: مسند الطيالسي

المؤلف: أبو داود: سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي (المتوفى: ٢٠٤ هـ)

الناشر: المنبرية بالأزهر، مصر

الطبعة: الأولى، ١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٢ م

الكتاب: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس

المؤلف: الديار بكرى: حسين بن محمد بن الحسن (المتوفى: ٩٦٦ هـ)

الناشر: مؤسسة شعبان، بيروت، د.ت، والمطبعة الوهبية، مصر

الطبعة: ١٢٨٣ هـ/ ١٨٦٦ م

الكتاب: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام

المؤلف: الذهبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (المتوفى: ٧٤٨ هـ)

الناشر: دار العربي، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م

الكتاب: تذكرة الحفاظ

المؤلف: الذهبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (المتوفى: ٧٤٨ هـ)

الناشر: إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت

الكتاب: شرح المواهب اللدنية للقسطلاني

المؤلف: الزرقاني: محمد بن عبد الباقي بن يوسف أبو عبد الله (المتوفى: ١١٢٢ هـ)

الناشر: دار الطباعة الأميرية، مصر

الطبعة: ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦١ م

الكتاب: شرح موطأ الإمام مالك بن أنس

المؤلف: الزرقاني: محمد بن عبد الباقي بن يوسف أبو عبد الله (المتوفى: ١١٢٢ هـ)

الناشر: مطبعة الاستقامة، القاهرة

الطبعة: ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٤ م

الكتاب: إعلام الساجد بأحكام المساجد

المؤلف: الزركشى: محمد بن عبد الله (المتوفى: ٧٩٤ هـ)

الناشر: لجنة إحياء التراث الإسلامى، القاهرة

الطبعة: ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م

الكتاب: المغازى النبوية

المؤلف: الزهرى: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهرى (المتوفى: ١٢٤ هـ)

الناشر: دار الفكر، دمشق

الطبعة: ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

الكتاب: الطبقات الكبرى

المؤلف: ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصرى (المتوفى: ٢٣٠ هـ)

الناشر: دار صادر، بيروت

الطبعة: ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م

الكتاب: الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام

المؤلف: السهيلي: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن الخثعمى (المتوفى:

٥٨١ هـ)

الناشر: دار المعرفة، بيروت

الطبعة: ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

الكتاب: عيون الأثر فى فنون المغازى والشمال والسير

المؤلف: ابن سيد الناس: محمد بن محمد أبو الفتح اليعمرى المصرى (المتوفى: ٧٣٤ هـ)

الناشر: دار المعرفة، بيروت، د.ت

الكتاب: تاريخ المدينة المنورة

المؤلف: ابن شبة: أبو زيد عمر بن شبة النميري البصرى (المتوفى: ٢٦٢هـ)
الناشر: دار الكتاب العربى، بيروت
الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م

الكتاب: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد

المؤلف: الصالحى: محمد بن يوسف الصالحى (المتوفى: ٩٤٢هـ)
الناشر: لجنة إحياء التراث الإسلامى، القاهرة
الطبعة: ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م - ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م

الكتاب: المعجم الكبير

المؤلف: الطبرانى: أبو القاسم سليمان بن أحمد (المتوفى ٣٦٠هـ)
الناشر: إحياء التراث الإسلامى، العراق
الطبعة: الأولى، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م

الكتاب: جامع البيان عن تأويل آى القرآن

المؤلف: الطبرى: أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد (المتوفى ٣١٠هـ)
الناشر: مكتبة ابن تيمية
الطبعة: الثانية، د.ت

الكتاب: صحيح السيرة النبوية - المسماة: السيرة الذهبية

المؤلف: طرهونى: الشيخ محمد بن رزق بن طرهونى
الناشر: دار ابن تيمية للطباعة والنشر، القاهرة
الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ

الكتاب: إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين

المؤلف: ابن طولون: محمد بن طولون الدمشقى (المتوفى ٩٥٣هـ)
الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت
الطبعة: ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م

الكتاب: الاستيعاب في معرفة الأصحاب

المؤلف: ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري (المتوفى ٤٦٣ هـ)

الناشر: مطبعة السعادة، مصر

الطبعة: الأولى، ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م

الكتاب: الدرر في اختصار المغازي والسير

المؤلف: ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري (المتوفى ٤٦٣ هـ)

الطبعة: ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م

الكتاب: فتوح مصر

المؤلف: ابن عبد الحكم: أبو القاسم عبدالرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي

المصري (المتوفى ٢٥٧ هـ)

الناشر: مطبعة بريل، ليدن

الطبعة ١٣٣٩ هـ / ١٩٢٠ م

الكتاب: المصنف

المؤلف: عبد الرزاق: بن همام بن نافع أبوبكر الصنعاني (المتوفى ٢١١ هـ)

الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م

الكتاب: الأموال

المؤلف: أبو عبيد: القاسم بن سلام البغدادي اللغوي (المتوفى ٢٢٤ هـ)

الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ودار الفكر، القاهرة-بيروت

الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م

الكتاب: المغازي

المؤلف: عروة: بن الزبير بن العوام (المتوفى ٩٣ هـ)

الناشر: مكتب التربية العربية، دول الخليج، الرياض

الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

الكتاب: تاريخ مدينة دمشق

المؤلف: ابن عساكر: علي بن الحسين بن هبة الله أبو القاسم الدمشقي (المتوفى ٥٧١ هـ)
الناشر: مطبوعات مجمع اللغة العربية، دار الفكر، دمشق
الطبعة: ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م

الكتاب: المسند

المؤلف: أبو عوانة: يعقوب بن إسحاق الإسفراييني (المتوفى ٣١٦ هـ)
الناشر: دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد الدكن، الهند
الطبعة: الأولى، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م

الكتاب: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه

المؤلف: الفاكهي: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس (المتوفى: ٢٨٠ هـ)
الناشر: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة
الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م

الكتاب: زاد المعاد في هدي خير العباد

المؤلف: ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (المتوفى: ٧٥٢ هـ)
الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت
الطبعة: الثالثة عشر، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م

الكتاب: البداية والنهاية

المؤلف: ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (المتوفى: ٧٧٤ هـ)
الناشر: مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ومكتبة الفلاح بالرياض، د.ت
الكتاب: تفسير القرآن الكريم

المؤلف: ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (المتوفى: ٧٧٤ هـ)
الطبعة: ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١ م
الكتاب: سنن ابن ماجه

المؤلف: ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٥ هـ)

الناشر: دار الفكر العربي، بيروت

الطبعة: ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م

الكتاب: صحيح مسلم

المؤلف: مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفي: ٢٦١ هـ)

الناشر: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض

الطبعة: ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م

الكتاب: سنن النسائي

المؤلف: النسائي: أبو عبد الرحمن بن شعيب (المتوفي: ٣٠٣ هـ)

الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م

الكتاب: شرح صحيح مسلم

المؤلف: النووي: أبو زكريا محيي بن شرف (المتوفي: ٦٧٦ هـ)

الناشر: دار الفكر، بيروت، د.ت

الكتاب: دلائل النبوة

المؤلف: أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الأصفهاني (المتوفي: ٤٣٠ هـ)

الناشر: دار النفائس، بيروت

الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م

الكتاب: السيرة النبوية

المؤلف: ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (المتوفي: ٢١٨ هـ)

الناشر: مكتبة المنار، الأردن

الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م

الكتاب: كشف الأستار عن زوائد البزار

المؤلف: الهيثمي: أبو بكر نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (المتوفي: ٨٠٧ هـ)

الناشر: مؤسسة الرسالة

الطبعة: الأولى، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م

الكتاب: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد

المؤلف: الهيثمي: أبو بكر نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (المتوفي: ٨٠٧ هـ)

الناشر: دار الكتاب، بيروت

الطبعة: الثانية، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م

الكتاب: موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان

المؤلف: الهيثمي: أبو بكر نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (المتوفي: ٨٠٧ هـ)

الناشر: دار مكتبة الهلال، بيروت، د.ت

الكتاب: أسباب النزول

المؤلف: الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري (المتوفي: ٤٦٨ هـ)

الناشر: مطبعة هندية، مصر

الطبعة: ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م

الكتاب: كتاب المغازي

المؤلف: الواقدي: محمد بن عمر بن واقد (المتوفي: ٢٠٧ هـ)

الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت

الطبعة: ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م

الكتاب: تاريخ يعقوبي

المؤلف: يعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (المتوفي: ٢٨٢ هـ)

الناشر: دار صادر، بيروت

الطبعة: ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م

الكتاب: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل

المؤلف: الألباني: محمد ناصر الدين الألباني

الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م

الكتاب: تخرّيج أحاديث فقه السيرة للغزالي

المؤلف: الألباني: محمد ناصر الدين الألباني

الكتاب: دفاع عن الحديث النبوي والسيرة والرد على جهالات الدكتور البوطي في كتابه «فقه

السيرة»

المؤلف: الألباني: محمد ناصر الدين الألباني

الناشر: مؤسسة ومكتبة الخافقين، دمشق

الطبعة: ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م

الكتاب: سلسلة الأحاديث الصحيحة

المؤلف: الألباني: محمد ناصر الدين الألباني

الكتاب: صحيح سنن الترمذي

المؤلف: الألباني: محمد ناصر الدين الألباني

الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض

الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٦ م

الكتاب: مرويات غزوة بدر

المؤلف: باوزير: أحمد محمد العليمي باوزير

الناشر: مكتبة طيبة

الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م

الكتاب: هذا الحبيب محمد رسول الله > يا محب

المؤلف: أبو بكر الجزائري

الناشر: مكتبة لينة، دمنهور، مصر

الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م

الكتاب: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية

المؤلف: عاتق بن غيث

الناشر: دار مكة، مكة المكرمة

الطبعة: الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

الكتاب: فقه السيرة النبوية

المؤلف: البوطي: د. محمد سعيد رمضان البوطي

الناشر: دار الفكر، دمشق

الطبعة: السابعة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م

الكتاب: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة

المؤلف: بوكاي: موريس

الناشر: دار المعارف، القاهرة

الطبعة: الرابعة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م

الكتاب: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة

المؤلف: الحيدرآبادي: محمد حميد الله الحيدرآبادي

الناشر: دار النفائس، بيروت

الطبعة: الرابعة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م

الكتاب: إظهار الحق

المؤلف: رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي

الناشر: إدارة إحياء التراث الإسلامي، الدوحة

الطبعة: ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م

الكتاب: عثرات وسقطات في كتاب المنهج الحركي للسيرة النبوية

المؤلف: زهير سالم

الناشر: دار عمارة، الأردن

الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

الكتاب: الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني مع بلوغ الأمان في أسرار الفتح الرباني

المؤلف: السعدي: أحمد بن عبد الرحمن البنا

الناشر: دار الشهاب، القاهرة، د.ت

الكتاب: من معين السيرة

المؤلف: الشامي: صالح أحمد الشامي

الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م

الكتاب: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة

المؤلف: أبو شهبة: محمد محمد

الناشر: دار القلم، دمشق

الطبعة: ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م

الكتاب: محمد رسول الله ﷺ

المؤلف: عرجون: محمد الصادق إبراهيم عرجون

الناشر: دار القلم، دمشق

الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م

الكتاب: المجتمع المدني في عهد النبوة - الجهاد ضد المشركين

المؤلف: العمري: د. أكرم ضياء العمري

الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م

الكتاب: السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق - دراسة مقارنة في العهد المكي

المؤلف: العودة: د. سليمان حمد العودة

الكتاب: فقه السيرة

المؤلف: الغزالي: محمد

الناشر: عالم المعرفة

الطبعة: السابعة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٦م

الكتاب: المنهج الحركي للسيرة النبوية

المؤلف: الغضبان: منير محمد

الناشر: مكتبة المنار، الأردن

الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م
الكتاب: دبلوماسية محمد ﷺ، رسالة دكتوراه منشورة

المؤلف: عون: د. عون الشريف قاسم
الناشر: قسم التأليف والنشر، جامعة الخرطوم د.ت
الكتاب: مصادر السيرة النبوية وتقويمها

المؤلف: فاروق: د. فاروق حمادة
الناشر: دار الثقافة، دار البيضاء
الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م

الكتاب: الرحيق المختوم
المؤلف: المبار كفوري: الشيخ صفي الرحمن المبار كفوري
الناشر: دار الوفاء، المنصورة، مصر
الطبعة: ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م

الكتاب: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ من خلال سيرته الشريفة

المؤلف: محمد رواس قلعه جي
الناشر: دار النفائس، بيروت
الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

الكتاب: السيرة النبوية
المؤلف: الندوي: أبو الحسن علي الحسيني
الناشر: دار الشروق، جدة
الطبعة: الأولى، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م

الكتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
المؤلف: الندوي: أبو الحسن علي الحسيني
الناشر: مطابع علي بن علي، الدوحة
الطبعة: العاشرة، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م

الكتاب: صحيفة المدينة - دراسة حديثة وتحقيق -

المؤلف: هارون رشيد محمد إسحاق

الطبعة: ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م

الكتاب: دائرة المعارف الإسلامية

المؤلف: ريكندورف، ترجمة: عباس محمود ورفاقه

الكتاب: الدولة العربية وسقوطها

المؤلف: فلهاوزن، ترجمة: يوسف العث

الناشر: مكتبة الجامعة السورية، دمشق

الطبعة: ١٩٥٦ م

الكتاب: مجموعة الوثائق السياسية

المؤلف: محمد حميد محمد

الناشر: دار الارشاد، بيروت

الطبعة: ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ م

الكتاب: سيرة الرسول

المؤلف: محمد عزة دروزة

الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر

الطبعة: ١٩٦٥ م

الكتاب: نسب حرب

المؤلف: البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (المتوفي ١٧٩هـ)

الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق

الطبعة: الأولى، ١٣٩٧هـ

الكتاب: أنساب الأشراف

المؤلف: تحقيق محمد حميد الله

الناشر: دار المعارف، مصر

الكتاب: فتوح البلدان

الناشر: مكتبة النهضة العربية

الكتاب: الجوهر النقي (بحاشية السنن الكبرى للبيهقي)

الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند

الكتاب: منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار (مع شرحه نيل الأوطار للشوكاني)

المؤلف: ابن تيمية: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم (المتوفي ٧٢٨هـ)

الكتاب: المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة

المؤلف: تحقيق: حمد الجاسر

الناشر: منشورات دار الیمامة، الرياض

الطبعة: ١٣٨٩هـ

الكتاب: شرح معاني الآثار

المؤلف: تحقيق: محمد سيد جاد الحق

الناشر: مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة

الطبعة: ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م

الكتاب: أوجز المسالك إلى موطأ مالك

المؤلف: محمد سمش الحق العظيم آبادی

الناشر: دار الفكر، بيروت

الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ

الكتاب: المجموع شرح المهذب

الناشر: مكتبة الإرشاد

الكتاب: مغازي

المؤلف: تحقيق: مارسدن جونس

الناشر: تصوير مؤسسة الأعلمي، بيروت

الكتاب: الدر المنثور

المؤلف: السيوطي

الناشر: محمد أمين دمعج، بيروت

الكتاب: طبقات ابن سعد

الناشر: دار بيروت، دار صادر

الطبعة: ١٩٥٨ م

الكتاب: كشف الأستار في زوائد مسند البزار

المؤلف: الهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي

الناشر: مؤسسة الرسالة

الكتاب: مجمع الزوائد

المؤلف: الهيثمي

الكتاب: المستدرک

المؤلف: الحاكم النيسابوري

الناشر: حيدر آباد الدكن، الهند

الطبعة: ١٣٤١ هـ

الكتاب: مصنف عبد الرازق

المؤلف: تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي

الناشر: دار القلم، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٣٩٠ هـ

الكتاب: موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان

المؤلف: الهيثمي، تحقيق: محمد عبد الرازق حمزة

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت

ملخص البحث

إن هذا البحث متعدد المناهج، متشعب الاتجاهات، وهو يتسع لعديد من الرسائل العلمية يكمل بعضها بعضاً؛ لتستكمل سلسلته قدر المستطاع. وقد قسم هذا البحث على ثلاثة أبواب وخاتمة.

الباب الأول: في سيدنا محمد ﷺ في القرآن الكريم حيث القرآن الكريم أصدق من وُصِف فيه النبي ﷺ، وأصح وأثبت.

وقد اقتصر البحث فيه على ثلاثة فصول:

الأول: في ثناء الله عليه.

الثاني: في حقوقه ﷺ التي قررها القرآن الكريم عن الله تعالى والتي لا يجوز التقصير فيها.

الثالث: في عصمته ﷺ.

وكان الفصل الأول في ثلاثة مباحث:

_ المبحث الأول: في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [القلم: ٤]، مع تعريف الأخلاق عند الفلاسفة، والاركان الأساسية للأخلاق.

_ المبحث الثاني: في قوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، مع تحليل الآية، وذكر الأخلاق الجبلية والكسبية، والبرهنة على أن أخلاقه جبلية.

_ المبحث الثالث: كان في تحليل قوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ ۝ ﴾ [الضحى: ١-٢].

وأما الفصل الثاني: فقد خصص لذكر بعض حقوقه ﷺ التي أمر الله بها وكان فيها:

_ المبحث الأول: في الأمر بالصلاة عليه وتحليل قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

_ المبحث الثاني: في تحليل قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ... ﴾ [الحجرات: ١].

_ المبحث الثالث: في لزوم طاعته ﷺ .

أما الفصل الثالث: في الباب الأول: فكان للكلام على عصمته، فبين فيه :

_ المبحث الأول: معنى العصمة.

_ المبحث الثاني: قصة يوسف عليه السلام في العصمة.

_ المبحث الثالث: بعض الآيات النازلة في عصمة ﷺ .

ثم إنتقل البحث إلى الباب الثاني وهو: الرسول ﷺ في مكة وهو في ثلاثة فصول أيضاً:

الفصل الأول: في ذكر مولده إلى بعثته ﷺ .

وناقش نسبه ومولده ورضاعته ثم دلف إلى كلام "مونتجمرى وات" مبيناً منهج المستشرقين في التعامل مع السيرة.

وذكر المباحث التالية فيه، وهى: شق الصدر، وتحليل ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ٤١]، وحفظ الله للنبي ﷺ قبل البعثة، وزواجه من خديجة، ومشاركته فى بناء الكعبة، والتعليق على "وات" فيما ذكر من ذلك.

الفصل الثانى: كان فى البشارات بالنبي ﷺ إرهاباً بنبوته وجاء بشارات الأنبياء السابقين به عليهم السلام، إرهابات النبوة الواردة فى السنة المشرفة، أخبار النصارى بذلك والآيات الواردة ومناقشة وات أيضاً.

وجاء الفصل الثالث: فى "بدء الوحي" وجاءت مباحثه فى إرهابات النبوة، وذكر البعثة والنبوة والوحي مراتبه والدعوة وآيات المزل والمدثر والجهر بالدعوة وبدء الاضطهاد والأذى.

وكان الباب الثالث: فى العهد المدنى.

بدء بالفصل الأول: فى أسس بناء المجتمع الإسلامى فذكر مباحث:

بناء المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، الوثيقة بين سكان المدينة.

وجاء الفصل الثانى: فى غزوة بدر الكبرى.

واشتمل على المبحث الأول: فى النشاط السياسى والعسكرى من الهجرة إلى غزوة

بدر.

المبحث الثانى: أحداث غزوة بدر فى السيرة.

المبحث الثالث: غزوة بدر فى القرآن الكريم.

وبدأ الفصل الثالث: بمناقشة وات فكان مع وات في غزوة بدر.

مع أبحاث عديدة شملها البحث ونتائج كثيرة خرج بها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

Abstract

“Biography of the Prophe between the irrigated and Quranic verses”

This research is of multiple approaches and diverse orientations. It can accommodate numerous inter-complementing scholarly dissertations so that its series is completed to the best possible extent.

The research is divided into three chapters and a conclusion.

Chapter 1 overviews mention of Prophet Muhammad (peace be upon him) in the Holy Quran, which is the most credible, valid, and genuine source of descriptive information about the Prophet Muhammad (peace be upon him).

This chapter includes three sections:

- i. About his praise.
- ii. About his rights that Allah the Exalted established for him in the Holy Quran, and which must be fully observed
- iii. About his infallibility, may peace be upon him.

Section One covers three research issues:

Issue 1: About His words [interpreted as] “”, with a definition of moralities according to philosophers and the main components of morals.

Issue 2: About His words [interpreted as] “”, with an analysis of the Ayah/verse, mention of innate and acquired morals, and proof that his morals were innate.

Issue 3: Analyzing His words [interpreted as] “”.

Section Two was dedicated to a presentation of some of the rights due to him (peace be upon him) as commanded by Allah the Exalted. This includes:

Issue 1: The command to ask [Allah to confer] blessing upon him and an analysis of His words [interpreted as] “”.

Issue 2: Analyzing His words [interpreted as] “”.

Issue 3: The obligation to obey him (peace be upon him).

Section Three discusses his infallibility through:

Issue 1: The meaning of infallibility.

Issue 2: The story of Yusuf (peace be upon him) as related to infallibility.

Issue 3: A number of Ayahs/verses revealed with regards to the infallibility of Muhammad (peace be upon him).

The research then moves on to Chapter 2, which is about the Messenger (peace be upon him) in Makkah. This chapter also comprises three sections:

Section One: An account of the period from his birth to the start of his mission (peace be upon him). Here, his lineage and nursing

are discussed, along with quotations from Montgomery Watt and a discussion of the approach followed by Orientalists in dealing with his biography.

The following issues are handled here: the chest-incision incident and an analysis of “”; the Messenger’s protection by Allah even before his mission started; his marriage to Khadeejah; his participation in reconstructing the Ka’bah; and commenting on what Watt said in this regard.

Section Two: discusses the heralds of the Messenger’s mission, including those by previous prophets (peace be upon him), the heralds mentioned in his biography (Seerah), the relevant foretelling by Christians, related Ayahs/verses, and once again a discussion of Watt’s view.

Section Three: relates to the advent of the revelation, with issues discussing the heralds, the mission and prophecy, revelation and its levels, the call, the Ayahs/verses of Al-Muzzamil and Al-Muddathir, announcing the call in public, and the commencement of persecution and harm.

Chapter 3 handles the Madinah phase.

In **Section One**, the foundations of establishing the Islamic society are discussed through the issues of:

- Building the mosque
- Establish fraternity between the Muhajireen and the Ansaar
- The pact between inhabitants of Al-Madinah

Section Two is about the Great Battle of Badr and covers the following issues:

- Political and military activity from the Hijrah to Badr
- The events of Badr in the Seerah.
- The Battle of Badr in the Holy Quran

Section Three discusses the opinions of Watt regarding the Battle of Badr.


The research also includes numerous other issues and derives many results.

May the peace and blessings of Allah be upon His Messenger, his Family, and his Companions.

فهرس

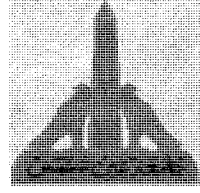
الصفحة

١ مقدمة	❖
٧ الباب الأول: سيدنا محمد ﷺ في القرآن الكريم	❖
٩ تمهيد	◆
١١ الفصل الأول: ثناء الله تعالى عليه	◆
١٣ - المبحث الأول: "وإنك لعلی خلقٍ عظیم"	
٣٦ - المبحث الثاني: "خذ العفو وأمر بالعرف"	
٥٢ - المبحث الثالث: "والضحى والليل"	
٦٥ ◆ الفصل الثاني: حقوقه صلى الله عليه وسلم	
٦٧ - المبحث الأول: "إن الله وملائكته يصلون على النبي"	
٧٦ - المبحث الثاني: "يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا..."	
٩٣ ◆ الفصل الثالث: عصمته صلى الله عليه وسلم	
٩٥ - المبحث الأول: معنى العصمة	
٩٧ - المبحث الثاني: قصة سيدنا يوسف عليه السلام	
١٤١ ❖ الباب الثاني: الرسول ﷺ في مكة	❖
١٤٣ ◆ الفصل الأول: من المولد إلى البعثة	
١٤٥ ◆ تمهيد	
١٤٧ - المبحث الأول: نسبه ﷺ	
١٤٩ - المبحث الثاني: مولده ﷺ	

- ١٦٦ - المبحث الثالث: رضاعته ﷺ
- ١٧١ - المبحث الرابع: منهج وات وغيره في تعامله مع السيرة
- ١٧٩ - المبحث الخامس: حادثة شق الصدر
- ١٨٣ - المبحث السادس: ألم نشرح لك صدرك، التعليق على وات
- ٢٠٤ - المبحث السابع: حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ قبل البعثة
- ٢٠٨ - المبحث الثامن: زواجه ﷺ من خديجة، التعليق على وات
- ٢١٨ - المبحث التاسع: مشاركته ﷺ في بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود
- ٢٢٩ ◆ الفصل الثاني: البشارات بالنبي ﷺ إرهافاً بنبوته
- ٢٣١ ◆ تمهيد
- ٢٣٢ - المبحث الأول: بشارات الأنبياء بالرسول ﷺ
- ٢٣٤ - المبحث الثاني: إرهافات النبوة الواردة في السنة المشرفة
- ٢٥٧ ◆ الفصل الثالث: بدء الوحي
- ٢٥٩ - المبحث الأول: إرهافات البعثة والنبوة
- ٢٦٥ - المبحث الثاني: البعثة والنبوة
- ٢٦٩ - المبحث الثالث: مراتب الوحي
- ٢٩٠ - المبحث الرابع: مراتب الدعوة
- ٣٠٦ - المبحث الخامس: بواعث الدعوة
- ٣١٠ - المبحث السادس: علامات الدعوة
- ٣٤١ - المبحث السابع: الجهر بالدعوة
- ٣٤٦ - المبحث الثامن: الاضطهاد
- ٣٧١ الباب الثالث: العهد المدني 
- ٣٧٣ ◆ الفصل الأول: أسس بناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية في المدينة ..
- ٣٧٥ - المبحث الأول: بناء المسجد

٣٩١ في الإسلام	- المبحث الثاني: المؤاخاة بين المهاجرين.. النظرة القرآنية لسيرة مبدأ الأخوة
٤٠٦ الوثيقة.. "وات" والوثيقة	- المبحث الثالث: الوثيقة.. "وات" والوثيقة
٤٣٧ الفصل الثاني: غزوة بدر الكبرى	◆ الفصل الثاني: غزوة بدر الكبرى
٤٣٩ النشاط السياسي والعسكري إلى غزوة بدر	- المبحث الأول: النشاط السياسي والعسكري إلى غزوة بدر
٤٨٧ أحداث غزوة بدر في السنة المشرفة	- المبحث الثاني: أحداث غزوة بدر في السنة المشرفة
٥١٨ غزوة بدر في القرآن الكريم	- المبحث الثالث: غزوة بدر في القرآن الكريم
٥٩١ خاتمة	✦ خاتمة
٥٩٤ المراجع والمصادر	✦ المراجع والمصادر
٦١٧ ملخص الرسالة باللغة العربية	✦ ملخص الرسالة باللغة العربية
٦٢١ ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية	✦ ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية
٦٢٤ الفهرس	✦ الفهرس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

السيرة النبوية

بين الآثار المروية والآيات القرآنية

دراسة نصية مقارنة

للأستاذ الدكتور

مقدمة من الطالب

محمد مصطفى عبد السلام

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور عفت الشرقاوي

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م